JARRET DAHAB | FAWZI ABDO

فوزي عبده

جرة ذهب

قافلة الذهب والموت



دار الجندي



جرة ذهب

فوزي عبده / القدس

جرة ذهب (قافلة الذهب والموت)

فوزي عبده

الطبعة الأولى، تموز 2018

القدس – فلسطين

تصنيف الكتاب: أدب/ رواية

دار الجندي للنشر والتوزيع - القدس

darjundi46@gmail.com

www.for-alquds.org

تدقيق لغوي: د. محمد رجب

مراجعة وإخراج: Design Studio/ Ramallah

الترقيم الدولي: ISBN 978-9950-329-44-7



www.JarretDahab.com

جرة ذهب

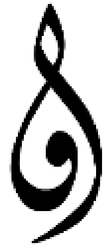
قافلة الذهب والموت

فوزي عبده

الاهداء

إلى مَن أحب الناس في صمت...

الى روح المرحوم خليل عبد اللطيف «أبو العبد» مؤسس مطبعة الشرق العربية في القدس.



إلى الـذيـن يؤمنـون بأن الحياة لا تنتهي بعد غروب الشمس...

"أمسكت قلمي وبدأت الكلمات تتسابق لتصف بطولاتي ومكانتي الباشوية، ومعها تراءى لي طيف روهان بيك وهمس لي: يا عزيز أفندي، هل بقي ما عشت لهوفًا خائفًا عليه ؟! انظر إلى جسدك السقيم، تأمَّل فيما صنعه بك الزمان، هل تعتقد أن أحدا يأبه بوجودك ليبذل جهدا ويبصق عليك؟! أنت نكرة نكراء، كن رجلا لمرة واحدة واحكِ القصة الحقيقية لقافلة الذهب والموت، كن شجاعا واترك حفيدتك تتحدى العالم إن كان هناك مَنْ يجرؤ أن يتعرى مثل جدها ويعترف بأنه ليس أكثر من بشر امتطى العار لينجو بحياته ويفوز بالذهب...

مزقت الأوراق وتعريت من كل ملابسي لأتحرر من ربطة العنق التي طالما عززت أوهامي، لم أكن يوما شجاعا ولا بطلا، ولكني اليوم قررت أن أتفوق على الجميع بشجاعة كلماتي، سأجرؤ على أن أتعرى أمامكم جميعا، لن أستر عورتي، لن أختبئ خلف الكلمات، سأصف لكم ما دار في أعماقي وخيالي، ومن غيري سيجرؤ على فضح عاره! إن وصلتكم هذه القصة يوما اشكروا حفيدتي وابحثوا عن قبري وابصقوا عليه، وبعد ذلك لن يضركم إن تساءلتم: لو كنتم مكاني في هذا الجحيم فماذا سيكون خياركم؟ بعد عام سأبلغ الثمانين من عمري، ومازلت أعيش كل لحظة رافقت فيها القافلة كما لو كانت **بالأمس**..."

بالأمس... القدر وحده قادنا إلى تلك القافلة الملعونة...

تسلل خمسةُ جندٍ تحت جنح ظلام دامس، وكمنوا في عيصٍ على جانب طريق فرعية بالقرب من الناصرة، تقتضي مهمتهم القبض على قاطع طريق يُعتقد أنه اختبأ بإحدى المغاور المنتشرة بالمنطقة، وأنه يعتاد المرور ليلاً من هذه الطريق.

انشغل أحد الجند عن مراقبة الطريق، وأخذ يحفر بجانب صخرة اتكأ عليها مستعينًا بخنجره، ومازَح رفاقه قائلا:

- ربما سنجد أحد اللصوص أسفلها.

لم يسعَ لاكتشاف شيء، وإنما أراد قتل الوقت والهروب من الملل الذي أصابه، اتسعت الحفرة، ولامس خنجره أسفل الصخرة، فاحت رائحة أدهشت حواسه فهتف على رفاقه متسائلاً:

- هل تشتمون رائحة غريبة؟!

تسابقت الأنوف على الاقتراب من مصدر الرائحة والاستمتاع بشذاها، واتفقوا على زحزحة الصخرة لاكتشاف منبع الرائحة، وبقوة رجل واحد تعاون خمستهم ودفعوها قليلا، فانكشف شق صغير،

لم يكن زحزحةُ صخرةٍ عملاقةٍ قابعةٍ في جوف الأرض أمرًا هيِّنا، ولكنها أحلام الكنوز قد أسَرَت النفوس، واستنفرت الهمم، وشحذت العزائم، وبمرور بضع ساعات من الحفر الدؤوب انبعث نور خافت عبر بوابةٍ صخريةٍ، بلغ ارتفاعها مترًا ولم يجاوز عرضُها نصفَ المتر.

الجندي المتهور كَرَم لم يعتد على إرهاق عقله يومًا ليفكر في تلك اللحظة قبل أن يلقي جسده عبر البوابة الضيقة، بينما علت أصوات بقيتهم:

- ماذا ترى يا كرم؟ ماذا وجدت؟ احذر يا كرم...من الأفاعي يا كرم...

أصداءُ صراخهم عائدةٌ إليهم، ولم يُسمع رجزٌ لرفيقهم، انتابتهم الريبة، وقُذف الرعب في قلوبهم، ودار بخُلد كل واحد منهم: "مَنْ ستحمله الجرأة على اللحاق بكرم ليكتشف ما حلَّ به؟" وبين هذه الأجواء الواجمة أراد الجندي مُشير أن يكسر الصمت ويقتل الحيرة، ولم يلبث

أن وضع قدمه اليمنى داخل الفتحة الضيقة، وقبل أن ينحني ليتمكن من الولوج، اصطدم به كرم فارًّا كجدي مذعور هارب بعد رؤيته سكين الجزار.

يرتجف جسده، تصطك أسنانه، وقد اسود وجهه واحمرَّت عيناه، تتحرك شفتاه وتأبى الكلمات الخروج، ارتمى عند أقدامهم يلتقط أنفاسه، نظر في وجوه رفاقه مستغربًا صورهم، اشتد به الفزع، وكأنه يرى وحوشا، أشباحًا، هاجت جوارحه صارخًا:

- ابتعدوا عني...ابتعدوا عني...ابتعدوا...ابتعدوا.

حاول رفاقه تهدئته، وحينما شرع يخدشهم بأظافره، اضطروا لشد وثاقه خشية أن يلحق بنفسه الأذى، أو ينالهم منه مكروه...بعثوا أحدهم في طلب حضور الملازم حيان، وحين وصوله قصَّوا عليه قصتهم. ولأنه كان أفضلهم عقلا، أتى بغصن شجرة جاف ولفَّه بقطعة خيش وجعل منه مشعلا ألقاه عبر الفتحة وانتظر، وبعد تأكده من خلو المكان من أية غازات سامة ولج عبر الفتحة، والتقط المشعل عن الأرض وحمله معه إلى الداخل، وبعد خروجه أشرف بنفسه على إعادة الصخرة مكانها، وأقسم أنه سيطلق النار على كل من تُسوِّل له نفسُه الاقتراب منها، واستدعى المزيد من الجنود وشدد الحراسة حول المكان.

تلك هي القصة وكان رواتها مَنْ تواجد مِن الجند في تلك الليلة...أبلغ الملازم حيان قائده عن اكتشافه موقعًا أثريًّا بطريق الصدفة، ولم يدر أحدٌ أنه قد ضلل قائده إلا لاحقا؛ فقد أوهمه بأنه عثر على مجرد كهف، لا يحوي إلا بعض الرسومات والرموز التي قد تهم علماء الأثار. لقد كانت فعلته لعلمه بأن قادة الجيش يستولون على ما يقع تحت طائلتهم من آثار ثمينة، ولا يتوانون عن تخريب أي موقع لطمس الدلائل الكاشفة عن سرقاتهم، أمَّا ما يتم الإبلاغ عنه فهي –عادةً–مواقعٌ فقيرةٌ لا يطمع فيها سارق. استطاع الملازم إنقاذ الكهف من جشع القادة، ليرسل في طلب مَنْ يقدر قيمته.

وليته أبلغ قائده وجميعَ اللصوص بحقيقة الأمر ليسرقوا ويدمروا! ليته فعل ولم تصلنا تلك البرقية الملعونة!

برقية شقت طريقها من مُتَصَرِّفيّة نابلس إلى بيروت، ومنها إلى إسطنبول، حملها حارس المُتحف إلى بيت روهان بيك؛ عالم آثار في السبعينيات من عمره؛ وقد جرت العادة أن مثل تلك البرقيات لم تكن لتثير اهتمامه، إلا أن هذه البرقية جذبت انتباهه بشدة.

هذا ما أخبرنيه الحارس الذي وصل بيتي ليستدعيني على عجل لمقابلة البيك، كنت حينها أقضي إجازة العيد المُملة، أسرعت لمقابلة روهان رفيقي وصديقي، استقبلني وزفَّ إليَّ اعتزامه على القيام بجولة في بلاد الشام؛ تبدأ من سوريا ولبنان، وتنتهي بالعراق مرورًا بفلسطين وشرق الأردن.

دعاني لأرافقه...لقد زرت سوريا ولبنان مرات عديدة، ولأني لم أحظَ بزيارة القدس والبتراء لم أكن لأفوت الفرصة، سرني بأننا سننطلق صباح الغد، ولم يكن شيئا ليدخل البهجة على قلبي أكثر من اكتشاف موقع أثري جديد، ولو علمت حينها ما أعدَّ لي القدر، لاخترت البقاء واستنشاق الغبار بأحد الأقبية اللعينة الباردة، لو علمت...لاستمتعت برائحة الرطوبة والعفن، وما تذمرت من أكوام الصناديق التي تم تكديسها فوق رأسي يكسوها غبار كثيف، تنتظر أن أقوم بتصنيفها مع روهان بيك.

أنا عزيز أفندي المسؤول الأول عن حفظ كل الآثار الواردة من كافة أرجاء الإمبراطورية العثمانية، أنا المسؤول الأول عن تصنيفها قبل أن يتم نقلها إلى المُتحف، ولكن هيهات أن يصل ذو قيمة...لقد جرت العادة على نهبِ الذهب والفضة، أمَّا البرونز والحجر فكانا يجدا طريقهما إلينا.

أستطيع أن أخبركم عن عدد القطع التي تم فرزها، نوعها، تاريخ وصولها، المكان الذي أحضرت منه، على أي رف تم ركنها، كل ذلك من ذاكرتي دون الرجوع لأي سجل، وما كان أحد يجرؤ على تحريك قطعة من مكانها دون أن أشرف على ذلك حتى روهان بيك نفسه.

أنا الأستاذ عزيز أفندي؛ عالم الآثار الكبير. عذرًا؛ فإنني لا أسعى إلى أن أصيبكم بالملل، ولكني ضعيف أمام أية فرصة تتاح لي لأستفيض في الحديث عن نفسي؛ اسمي، مكانتي، والألقاب التي حزت عليها بجدارة.

الساعة الخامسة من مساء يوم الجمعة 28 من شهر آب عام 1914م الموافق 6 من شهر شوال 1332هـ وصلنا إلى معسكر للجيش العثماني، بعد رحلة طويلة، توقفنا فيها بحلب ودمشق وبيروت وكان هذا يومنا الأول في فلسطين وعلمنا من مرافقنا أننا بـ "الجليل".

استقبلنا عند مدخل المعسكر ضابطٌ تركي برتبة ملازم أول يُدعى حيان؛ ولم يكن من الأسماء الشائعة بين الأتراك؛ كان في أواخر العشرينيات من عمره، فارع الطول، شديد الوسامة، برونزي البشرة، يتناسق أنفه مع قسمات وجهه، شاربه شديد السواد، تم تهذيبه جيدًا، ابتسامته الواثقة تكشف عن أسنان ناصعة البياض، حليق اللحية، تزين طرف خده شامة بنية صغيرة تسرُّ الناظرين، بِزته العسكرية نظيفة تخلو من أية طيَّات، لم تطمئن ذرة تراب واحدة فوق حذائه الأسود طويل العنق، وقف في كبرياء وعيناه السوداوان الواسعتان تشعان ذكاءً، تصرخ في زهو "أنا تركي".

استقبلنا بترحاب لائق...وأخذ روهان يتفحصه بنظراته المستفزة، ويتمتم:

- عظيم عظيم...

ولا بد أن حيان قد تساءل سرًا عن مدلول "عظيم عظيم"، وأنا ما كنت لأتساءل؛ فقد اعتدت رغبته في استفزاز محدِّثه عند تمتمته بـ "عظيم عظيم".

تمنيت ألا ينتهج أسلوبه التهكمي مع هذا الضابط التركي الفخور، وما كان لمريض السخرية هذا أن يكفَّ عن إشباع نهمه باحتقار كل وجهٍ جديدٍ يلقاه؛ يحرِّف الكَلِم عن مواضعه، ينتقي من دلالاته أحقرها، ثم يرسل لسانه السليط يرشها بصاقًا في وجه مَنْ أتعسه حظُّه بالنظر إليه، وبالرغم من أنني ونازلي هانم لم نمل ثنيه –فيما مضى– عن صبيانيته الساخرة التي لا تليق بمكانته العلمية والاجتماعية...هيهات لهذا الثعلب الخبيث أن يفوت مناسبة دون إقحام الآخرين في استمتاعه بتذوق وَخَم ألفاظه المبتذلة، ما كان ليفوت فرصة مواتية لانتقاص قدر الجميع.

حين أفصح الملازم عن اسمه وعيه بأذنٍ واعيةٍ، ثم راوغه طالبًا أن يكرره مرات مُدَّعيا حاجتَه في سماعه مرارًا ليرسخ في عقله، ولم يكن أمام الملازم الأنيق المهذب إلا أن يصفِّر كببغاء:

- اسمي حيان، حيان، حيان، حياااان...

وعلى الرغم من أن البيك لا يجيد العربية إلا أنه حفظ ما يكفي ويزيد من الشتائم، هز رأسه وبأسلوبه الساخر قال:

- قل لي يا حيوان أين يمكنني التبول؟ وهل بإمكاني خلع هذه البدلة قبل أن تخنقني، فما ارتديتها إلا لتنحنوا لها وتدلكم على أني بيك، ولست من العامة، ورفيقي عزيز أفندي الأنيق يرتدي باشا، وكان يرتدي سلطانًا في عيد الفطر.

لم أشك في قدرة الملازم حيان على تحدثه القليل من العربية، وبخاصة أن أغلب الجنود تحت إمرته من العرب؛ لقد أدرك القصد من تحريف اسمه إلى حيوان، ولم يكن غريبًا أن يمتعض لفعله ويسايره في جلافته، ولكن الغريب حقًا هو ردة فعله؛ لقد تعالى ضحكه –ولم يبد عليه التصنع–مشيرًا إلى مكان قضاء الحاجة، وهو يقول:

- نعرف مكانتك جيدا يا روهان بيك، وبإمكانك أن ترتدي أو تخلع ما تشاء واسمي حيان...حيان وليس حيوان.

رفيقي يرفع الكلفة سريعًا، وقد يهدم حواجز مكانته؛ أخذ يمازح صغار الجند في طريقه إلى قضاء حاجته، وبعدما أفرغ مثانته، استبدل ملابسه الأنيقة –التي أجبرته الوزة هانم على ارتدائها–بأخرى فوضوية لا تليق. لقد أحرجني ذلك كثيرًا، انتقلنا لتناول الطعام، وقد أمر الملازم بإعداده مسبقًا؛ ثلاث دجاجات هزيلة تم تحميرها، حتى كادت أن تتفحم، وبجانبها الكثير من البصل وحبات البندورة والخبز والزيتون.

بدا الامتعاض على وجهي؛ فمثل هذه المائدة تليق بخدم لا بباشوات، أعي جيدًا أننا بمعسكر لا تتوفر فيه أدوات الطعام اللائقة، ولكن هذا لا يمنع تنظيف الخُضَر وتقطيعها جيدًا،

وهل ينتظر هؤلاء الهمج منا أن نشاركهم مثل هذا الطعام مهما اشتد بنا الجوع! وإن تواضعنا...هل يجب أن نقوم بتقطيع الدجاجات بحراب بنادقهم الصدئة!

هاجم رفيقي روهان إحدى الدجاجات، وبدأ افتراسها في همجية، وقضم حبة بندورة قضمةَ أحد العوام، وأخذ يتكلم وفمه يكتظُّ بالطعام.

أحرجني كثيرا بهمجيته وقلة تهذيبه، وما كنت لأنحدر نحو هذا الإسفاف، ولكنه الجوع الذي حثني على أن القليل من التواضع لن يضر، فأمسكت قطعة من الخبز لتكون حائلاً يمنع اتساخ يدي عند الإمساك بقطعة من الدجاج، ولكنني تأخرت كثيرا؛ فالدجاجات الثلاث قد حلَّقت لحومهم تاركةً خلفها كومةً من العظام، فاكتفيت بتناول عدة حبات من الزيتون لإسكات جوعي، وامتنعت عن قضم البصل الذي أحبه كثيرا.

لقد كان الملازم أقل همجية على مائدة الطعام، وفور انتهائه ذهب لغسل يديه، أما روهان فقد تجشَّأ مُصفِّرًا، ولم يحرك ساكنا، فاضطررت أن أرمقه بنظرة غاضبة، لعلها تحثه على أن يعجِّل بغسل يديه، وحمدًا لله؛ لقد استجاب وغسل يديه ولكنه جففها بملابسه ورمقني بنظرة قائلاً:

- مبسوطة يا وزة هانم.

ما كنت لأعلق حتى لا ينتبه إلى قصده أحد؛ قصد روهان أن يشبِّهني بزوجته التي ما كانت لتغض الطرف عن تصرفاته المشينة؛ فقد كانت توبخه في أكثر المناسبات قائلة:

- (تعلموا الإتيكيت من عزيز، تعلموا الأناقة تعلموا التهذيب، أنتم فضيحة روهان.)

أحضر الجندي رشيد إبريق شاي تم تعذيبه لعام كامل فوق النار، فاكتسى بطبقة من السُّخَام تحتاج عامًا آخر لتنظيفه، وعدة أكواب من الزجاج مهشمة الأطراف، تتوجب توخي الحذر الشديد قبل أن تمسها الشفاه، وشرع الملازم يتحدث في حماس عن الصدفة التي قادتهم لاكتشاف الموقع، وجعل جُلَّ حديثه حول المكان وما يحيط به، دون التطرق لما يحويه من آثار.

أصابنا الملل في انتظار انتهائه من سرد التفاصيل التي لا قيمة لها، ولكنه تعمد المراوغة في الرد على أسئلتنا حول محتويات الكهف، بدا حينها أنه يسعى لإثارة فضولنا وإلهاب شوقنا.

امتعض روهان وبرم شاربه الأشعث الفوضوي قائلاً:

- ما رأيك في شاربي يا حيوان؟ هل راقك منظره؟ هل يجب عليّ التستر على غزو الشيب له؟ أم أتركه على حاله؟

قصد البيك أن يكشف لحيان سُخف حديثه وملل عرضه، فلا وقت لديه للمراوغات التي اعتمدها البيك ذاته ليحدد طريقة تعامله معه بِناء على ردة فعله، ولكن فطنة الملازم أنجته من هذا الاختبار؛ فأجاب وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة هادئة:

- اسمي حيااان! أمَّا عن شاربك فيجب عليك أن تضع له حدا، وألا تطلق له العنان أكثر من ذلك ...عليك ردعه وتهذيبه يا بيك.

ضحك روهان قائلا:

- أحسنت الجواب يا ولد بالرغم من أنك جمعت بين لساني وشاربي، والآن توقف عن المراوغة وأخبرني ماذا يوجد بداخل الكهف؟

رد عليه بحزم:

- لن أخبرك شيئًا، سترى بنفسك.

كان واضحًا أن الملازم لا يريد الخوض في أي حديث يتعلق بما يحويه الكهف، وأدرك البيك ذلك فسلك طريقة ملتوية في سؤاله:

- أخبرني إذًا، هل تبقى في الموقع شيئا لم تسرقوه بعد؟

حيان:

- لسنا لصوصا يا بيك. اطمئن لم يدخل الموقع غيري، وما كنت لأسمح أن يعبث بإرث السلف أحد.

برم البيك شاربه مرسلا طرف أنفه عاليًا، وقد اتقدت عيناه قائلا:

- لا...لا...واجب الجيش أن يسرق، ثم يسرق، ثم يحرس ما لا يمكن سرقته، يبدو أن هذا الكهف يفتقر لما يُباع ويشترى!

لقد صارت بدلة الملازم العسكرية هدفا لا تخطئه إهانات البيك البذيئة، ولم تفارق الابتسامة وجه الملازم بعد؛ فردّ في تؤدة ووقار:

- لم أسمح لأحد بدخول الموقع، وفيه الكثير مما يمكن سرقته.

أعاد البيك شد أنفه عاليًا، مُغلقا عينه اليمنى، ووثب واقفا، ثم أشار بيده قائلا:

- إذًا هيًّا...لنتحرك الآن قبل أن تغير رأيك وتراودك رغبتك في سرقته أنت وجنودك، أو قبل أن يسبقنا أحد قادتك ليمارس واجبه العسكري في سرقته.

الحركات التمثيلية التي صاحبت قول البيك أخرجت حيان عن وقاره بعض الشيء، فعلا صوته مقهقهًا، وفور توقفه اعتذر لائما نفسه؛ لقد كان ودودا، لقد أثار إعجابي حقًا بهدوئه وسعة صدره، طالعت النظر في عينيه التي لاح فيها الكثير من الإعجاب بشخصية البيك الساخرة المستهزئة بكل شيء؛ بدا وكأنه متفق معه بما كال من اتهامات للجيش، لم يعلن عن ذلك صراحة، بل اكتفى بصمته وطأطأة رأسه بين الحين والحين، ثم فاجأنا بحكوه؛ لقد ضلل قائده، وأخفى عنه ما يزخر به الكهف؛ آملاً في وصول مَنْ يقدر قيمته...صمت حيان برهة، ثم أرسل بصره تجاه البيك، وقد خالطت ملامحَ وجهه البشوش لمحةُ حزنٍ عميق، ونطق بصوتٍ شجيّ

- إنها جريمة نكراء أن نتعامل مع إرث الأسلاف بهمجية حمقاء.
- أحسنت يا حيان...أحسنت.

لقد كانت المرة الأولى التي يلفظ فيها البيك اسم حيان ولم يتعمد تحريفه.

سأل البيك حيان:

- اعذرني أيها الملازم، ألا تخشى أن يسرق جنودك الموقع في غيابك؟

ضحك حيان قائلاً:

– هم مرعوبون من الجان والأرواح التي تسكن الكهف.

ضحك البيك وقال ساخرًا:

– الجان والعفاريت تسكن كُلَّ شبر في بلادنا، حتى طربوش السلطان سكنه من الجان ألوان، ولكن لدي سلاح سري أطرد به العفاريت وأحرقها، وكم أتوق لأطرد العفاريت التي تسكن طربوش مولاكم السلطان!

لا يجوز لي الضحك على أمر ذُكر فيه مولانا السلطان، ولكني لم أتمالك نفسي، ليغفر لي مولانا هذه الهفوة، ولو علم السلطان بسر سلاح روهان لأمر بقطع رأسه أولا، ثم لضحك بعد ذلك.

أمسينا نزلاء المعسكر استجابة لرغبة الملازم الذي رفض أن يفصح عما في الكهف، أشرقت شمس يوم جديد، وحمدت الله على انقضاء هذه الليلة القاسية

خرجنا من المعسكر، وكان رشيد يجلس خلف مقود سيارة، وقد أصابه التباهي حتى كاد يصيح بأعلى صوته:

– إنها سيارة، هل رأيتم سيارة من قبل! لماذا لا تندهشون! هيا افغروا أفواهكم من الدهشة، أنا عربي وأقود سيارة!

لقد دار بخلدنا تساؤل حائر ألا وهو: كيف لمثل هذا المعسكر أن تتوفر فيه سيارة! وسرعان ما انكشفت حقيقة الأمر عندما تفحصناها على مقربة؛ يبدو أن هناك من اختبر قدراتها على تحمل الصدمات، وأشك بعض الشيء في أنه تم تفكيكها وتجميعها لاكتشاف إن كان يخفي الفَرنسيون في طياتها حمارا يعمل على جرها سرًا!

سارت جيدا في المنحدر، وكادت تلفظ أنفاسها الأخيرة في المتر الأول للصعود، اقترح روهان على الجنود حملها على أكتافهم والعودة بها إلى المعسكر، وليتهم فعلوا! وبعد معاناة مريرة مع هذه المركبة العجيبة، اقتربنا من وجهتنا، ثم اضطررنا للسير على ظهر طرق وعرة،

وبعد وصولنا أخبرنا حيان أننا على أطراف مدينة الناصرة، لم نكن على دراية بهذه البلاد لنطمئن لصحة حديثه، وراودني إحساس بأنها ليست الحقيقة، وما كان هذا ليشكل فارقا إن كنا بالقرب من الناصرة أم في مكان آخر، فكل ما يهمنا هو الكهف، وما قد نكتشفه بداخله.

أول ما طالعنا عند وصولنا معسكرٌ ضم خمسة أخبية قذرة ممزقة، يطوّقها ما يزيد عن العشرين جنديا، ومن بعيد وقف الكثير من أولاد العرب يراقبون بشغف عسكرة الجند، وما اجترأ أحدهم على الاقتراب.

أبدى روهان استغرابه لتلك المغالاة في حراسة موقع أثري؛ فقال حيان:

– عندما ترى ما بالداخل ستفهم السبب.

انتخب حيان أقل الخيام قذارة لتكون مقرًا لنا وما نحمله من حقائب كي نستريح من عناء الطريق، أصر البيك على استكمال ما جئنا من أجله قائلاً:

– لا وقت لدي لأهدره.

اقتربنا من الصخرة، وأمر الملازم جنوده بتحريكها فتباطؤوا وحاول كلٌّ منهم التملُّص بعدما دبَّ الرعب في قلوبهم وظهر أثره على وجوههم، فثارت ثورة الملازم، وعلى إثر صراخه وتعنيفه تزاحموا لإزاحتها في فوضى عارمة، وهنا تدخل البيك وأعاد ترتيبهم، وبعد زحزحة الصخرة ظهرت فتحة صخرية محفورة تسرب عبرها وميض نوراني من جوف الكهف المظلم، فتاهت عقولنا عن التفسير، وخُلبت أبصارنا عن النظر لسواه، وبُعثنا على التفاؤل، وسرعان ما فاحت رائحة أنعشت أرواحنا وأيقظت جُل حواسنا، وأثارت ريبتنا، فهمَّ روهان قائلا:

– الروائح الطيبة تقتل أسرع من الكريهة.

طلب روهان من الجميع الابتعاد، وحذر من الاستنشاق فابتعدنا جميعا بينما أبت الأنوف التي أغوتها هذه الرائحة الساحرة غير مبالية بالعواقب.

مرت ساعة كاملة قبل أن يجزم روهان بخلو المكان من أية غازات سامة، جهزنا عدة مصابيح، حملت حقيبة المعدات وأخذت أهبة الاستعداد لأسبق الجميع، لقد نفد صبري في

انتظار اكتشاف ما في الكهف، وها هو أمامي...لقد حانت اللحظة الفاصلة، وحينئذ حدث ما تسبب في قتل إعجابي بالملازم.

اعترض طريقي وأثار غضبي حين تواقح ولم يسمح بدخول الكهف إلا لروهان، سمح لرشيد وحده ليساعد في حمل المعدات حتى مدخل الكهف، ولم يسمح له بالدخول.

حاول البيك أن يقنعه بضرورة وجودي برفقته، ولكن الملازم كان حازمًا في قوله:

- بعد رؤيتك... عليك باتخاذ قرارك.

أسرع البيك نحو بوابة الكهف الحجرية الضيقة، واستغرقه وقت حتى استطاع أن يدفع جسمه الممتلئ عبرها، وأثناء تساؤلي عن استطاعة عبوره هذا الممر الضيق عند عودته كانت قد غيَّبته ظلمة الكهف الغامض، وغار الملازم حاملا حقيبة المعدات، تابعًا له في غياهب المجهول.

لن أنسى أبدا وقاحة الملازم، لم تنصرف عن خاطري تلك الطريقة التي قلل بها من احترامي، وحقَّر بها من مكانتي، لقد حرمني مشاركة الاكتشاف بعد كل هذا العناء، لم يعد أمامي شيئًا سوى الانتظار والبحث عما قد يساعدني في تمضية وقت ثقيل الخُطى؛ استمر في التباطؤ.

يقف الجند كالأصنام، أفواههم مطبقة، آذانهم صماء، وجوههم عابسة، يراقبون بعضهم بأطراف أعينهم، يعتصرني وجع الفضول، ولست أدري ماذا أفعل.

تجنبت الاقتراب من العرب، اخترت تركيًا، حدثته؛ أنا الأستاذ الكبير، عالم الآثار المسؤول، عن متاحف تركيا وبلاد الشام والأناضول، أفندي، بيك، باشا، ربطة العنق التي ما زلت أرتديها تؤكد حقيقة قولي، عينا هذا الجندي لم تخفِ استغرابه، لقد سُمح لصاحب الشارب الكثيف المتسول المغبَّر بالدخول، وأنا الأنيق النظيف لم يُسمح لي.

دبَّت الروح في الأصنام المتسمرة، تجمع حولي حفنةٌ من الجند، كنتُ بينهم الأقصر قامة، أخذت أتطاول بعنقي، سألت عن الكهف، لم أنته من سؤالي بعد، تسابق الجميع في الثرثرة، قصُّوا عليَّ ما حدث، تطوع كلٌّ منهم بطريقته؛ يشرح، يحلل، يخمن، بقيتهم في انتظار السؤال التالي ليتقيأ بما يعرفه من أسرار، امتدحت فيهم براعتهم في تملقي.

كانت ثرثرتهم قليلة الجدوى، يعذبهم الفضول مثلي، جُلُّ ما في جعبتهم لا يتعدى التخمينات، اتفق الجميع على أن الجندي الذي تجرَّأ على كشف المجهول قد أصابته جِنَّةٌ بعدما تلبَّسته الجِن، كما أصاب الملازم أول حيان ذهول واجم، دفعه على تشديد الحراسة، وتكليف رشيد بمراقبة كهف الهلاك، ومنع الجميع من محاولة الدخول.

لو سمع روهان بيك روايتهم عن الجن والعفاريت لأشهَر سلاحه السري في وجوههم؛ ذلك السلاح أشهره في حلب قبل عدة سنوات، حيثما اكتشفنا موقعا أثريا يحوي أربعة تماثيل صغيرة من الذهب، وما يفوق الخمسين تمثالاً من الفضة، وعدد كبير من القطع البرونزية، حينها قررنا نقل كل ما في الموقع إلى تركيا، ولكن فاجأنا رفض الجميع دخول الموقع بعدما سرت شائعة الجان الذي يسكن المكان، ليصيب كل من يلمس التماثيل، فخلع روهان بيك بناطله وتبول على سكن الجان حيث أشاروا، وقهقه قائلاً:

- بولي سيطرد عفاريتكم، هيا انقلوا التماثيل إلى العربة قبل أن يزول تأثير بولي السحري.

وعلى الفور غادرت العفاريت عقولهم وتم نقل التماثيل...يومها اقترب مني وهمس في أذني مازحا:

- هل يسكن الجان رأسك لأطرده يا عزيز؟

فأجبته على الفور وأنا على يقين بأنه لن يتردد في التبول علي:

- الخرافات غادرتني منذ لقائي بشاربك العظيم يا بيك.

امتدح إجابتي، وقال:

- أدفع ما تبقى من عمري مقابل تبولي في طربوش السلطان.

امتعضت واستغفرت الله، لقد نشأت على تقديس مولانا؛ فالتطاول عليه يُعدُّ كُفرًا. مرَّ وقت طويل والبيك داخل الكهف، والقلق بدأ يساورني، لا أريد أن يصيبه مكروه، سيسعدني إن

اختنق الملازم ولم يعد ثانية، لا ينبغي تمضية كل هذا الوقت داخل الكهف دون الخروج لنيل جرعة هواء نقي.

تبدد قلقي حين خرج البيك من الفتحة الضيقة حاسر الرأس، أقصر طولا، وأقل وزنا، وأخذ يصرخ بأعلى صوته كعادته:

- أين الطربوش يا عزيز؟ أين الطربوش؟

ما أحمقني! كان يجب أن أتوقع وأتجنب الحرج، تبًا له ولطربوشه! كان بإمكانه أن يهمس في أذني لطلب طربوشه اللعين، ماذا كان سيخسر لو سألني في كياسة: "أين الطربوش يا أستاذ عزيز أفندي؟" أينتقص من هيبته شيئًا لو حافظ على هيبتي أمام هؤلاء الأوباش!

دوى صوته كالرعد، لفت انتباه الجميع، والجميع يراقب ردة فعلي، لقد كانوا يتوددون إليَّ منذ قليل، قهرني ذلك الفظ الفوضوي، الذي اكتسى الغبار فوق كِساء الفقراء الملتصق بجسده السمين.

تمنيتُ لو أنَّ الأرضَ غيبتني تظاهرتُ بمخاطبته شخصًا آخر، ولكن إصراره على تكرار سُؤلِه ساقني على الرد:

- ربما سقط في الكهف يا بيك.

هزَّ رأسه:

- معقول...معقول...اذهب واحضر لي الماء لأغتسل، أسرع يا عزيز.

قتلني هذه المرة، لو استطعت تبرير أمر طربوشه، كيف سأبرر خدمتي له! كرر البيك ما طلبه وأسقط الطربوش عن رأسي ودحرجه، عراني أمام الجميع، وثيابي الفاخرة وربطة العنق الباشوية ما عادت قادرة على ستر شخصيتي الحقيقية، خلعت حذائي الإيطالي الثمين لأدخره لمناسبة أخرى، بعدما فقد بريقه في عيون هؤلاء الجند الجهلة المصدومين بما وصل إلى مسامعهم، أيعقل أن هذا الباشا الأنيق الأستاذ الكبير سيقوم بخدمة ذاك العجوز المُغبَّر!

انشغل الجميع بمراقبتي، هل سأصفع العجوز؟! أم سأحضر الماء ليغتسل من قاذوراته؟! لقد حولتني كلمات البيك من باشا إلى خادم،

جلبت الماء، ودعوت الله سرًا أن يغتسل داخل الخيمة ويتستر على امتهاني وإذلالي أمام الحشد الذي بذل جهده لتملقي، والتسابق على خدمتي، لو أردت تقبيل يدي لفعلوا، أشك بأنهم سيغفرون لي خداعي، لقد أيقن الجميع بأني لست أكثر من خادم البيك.

استجيبت دعوتي، دخلت الخيمة فإذا به قد تمدد على الأرض وألقى رأسه على إحدى الحقائب، أغمض عينيه، همست بصوت خافت:

- لقد أحضرتُ الماء.

جاهرت بندائي مقتربًا من أذنيه، كان متجهم الوجه، بدا أكبر من عمره بعشرة أعوام، سربله الغبار، أشفقت عليه، أخذت أمسح الغبار بقطعة قماش جافة عن وجهه وشاربه ولم يستيقظ.

حيرتني هيئته، ثمالته، ما كان ليفترش التراب! أو يلتحف الغبار! أو يتوسد حقيبة متحجرة! اعتاد عنقه الرخو وسادة واحدة، أحملها معي حيثما نذهب، كان يفضل جفاء النوم على توسد غير وسادته اللينة، فوضوي لا يأبه أبدا بما يرتدي، يسخر دومًا من أصحاب الملابس الفاخرة، يردد دائما: "الأناقة تخفي عيوب الجسد لا العقل"، إلا أنه كان مصابا بوسواس الغبار، طوال سنوات رفقتي لم يلامس غبارا إلا واغتسل سريعًا بالماء والصابون، ما كان ليصبر إن أصابه، إنَّ الغبار عدوه الأول.

أيعقل أن عفاريت العرب قد لوثت عقله! كيف غفي دون الاغتسال واحتساء نصف زجاجة عرق! أعددت فراشه الخاص، وبعض الطعام، وزجاجة عرق، تريثت قليلا قبل إيقاظه ساءلت نفسي:

- ماذا اكتشف بداخل هذا الكهف اللعين ليقلب حياته رأسا على عقب؟! لقد رافقته إلى بغداد وقبرص والشام، دخلنا العديد من مواقع الأثر، لم يكن روهان مثل ذلك قط، هذا ليس روهان بيك الذي أعرفه!

خرجت من الخيمة، خلَّفته نائما، ولم ينشغل بالي بما يتخيله الجنود تجاهي، ما عدت مهتمًا إن كنت مجرد خادم أو أستاذ...أفندي، ما يشغلني فعلا هو ذلك السر الكامن خلف الفتحة الضيقة، لابد أن اكتشف ذلك بنفسي، جلست على صخرة أراقب الجميع، وأنتظر فرصة مواتية لأنسلَّ إلى الكهف.

نصف القمر المضيء كان كافيا ليكشف رؤيتي، طال انتظاري، أصابني الملل، وحين تأكدت أن رشيدًا بعُد عن الكهف، اقتربت من أحد الجند المتصنمين بالقرب من الفتحة، كان جالسا على حجر يتكئ على بندقيته، لو لم يصل إليَّ شخيره لما شككت في نومه. نِعم الحارس هو! الله وحده يعلم في أي حلم هو غارق!

تسللت، انحنيت بجسدي الضئيل، لم أجد صعوبة في عبور الفتحة، أضاء القمر ما وراء المدخل، سهُلت أولى خطاي، لم أحمل معي مصباحًا ينير طريقي، تركت أنفي يبحث عن الرائحة العجيبة التي سرقت عقول الجميع، ولكنه لم يلتقط من عبيرها إلا نَفحات يسيرة، يبدو أنها في طريقها إلى التلاشي والاندثار.

عشر خطوات بعد الفتحة الأولى قادتني إلى فتحة أكبر، لم تجبرني الثانية على الانحناء، عدة خطوات ناحية اليمين أوصلتني إلى درج منحدر، زاد عدده عن الأربعين، أخذ يميل بي يمينًا رويدا رويدا حتى قادني إلى الأسفل، ألفيت نفسي في ممر مستقيم لا اعوجاج فيه، يزيد عرضه عن الأربعة أمتار، يتوسطه رسمٌ مذهَّبٌ بطول ذراعي، يتجاوز ارتفاعه الثلاثة أمتار حيث أقف، ويزداد ارتفاعا كلما ذهبت عيناي بعيدا.

الأرض مرصوفة بفسيفساء تحيط بالرسم الذهبي، لا تجاوز القطعة الواحدة حجم إبهامي، متعددة الألوان، تشكل رسوما وأشكالا هندسية منوعة، أعجز عن تفسير ما تدل عليه، ربما لو نظرت من زاوية أخرى لوعيتُ دلالتها!

أمحِّص النظر، ولا يأسرني سوى الرسم الذهبي، ينتابني إحساس بأنه سيل من ذهب تم صهره وصقله وتصفيته من كل شائبة، لينتصف هذا الممر العجيب.

تساءلت: كم يبلغ سُمكه؟! وهل ما أراه لا يتعدى طبقة رقيقة؟! أم هو مجرد طلاء ذهبي اللون؟! أيحتمل أن يكون مادة شبيهة بالذهب؟! ممتدة هي المساحة التي يحتلها الرسم، أرغب في التصديق بأنه سيل لا نهاية له من الذهب...هام خيالي مجنحًا في عالمٍ وهميٍّ من الثراء... حدثتني نفسي في إمكانية عثوري على مطرقة لأقتطع ما يعينني على تحقيق أحلامي الباشوية.

وقفت مشدوهًا...لم يكن من اليسر أن تتحول عيناي عن أسفل قدمي، الجدر عن يميني وشمالي منقوشة زينتها لوحات بديعة من الفسيفساء، لم أرَ شبيها لها ذي قبل.

أعجز عن تخيل بشرٍ قد احترف وأتقن إلى هذا الحد، تنزهت اللوحات عن كل عيب ونقص، شارفت على حدود الكمال الإبداعي، يعجز عقلي وينعقد لساني كلما حاولت وصفها، وذاكرتي خاوية عن شبهها وكأنني لم أقف في مكان أثري قط.

لم تبق زاوية إلا وسكنها الإبداع، حثني اتساع المكان على العجلة قبل أن يُكتشف أمري؛ أرسلت عيني تلتقط مصورة من الصفحات ما يمكن لذاكرتي تخزينه، وما كنت لأقاوم الإغراء بالتوقف أمام كل ما يستوقف عيني، وكأني أخشى أن تتلاشى إن أشحتُ ببصري عنها.

أظن وجود أبواب مموهة يساير تموجُها تموجَ الرسومات عن يميني ويساري كتلك التي شاهدتها في سراديب بابل، أكاد أسمع دقات قلبي، تأخذني الرهبة، وما زلت واقفا، لم أتقدم أكثر من خطوتين عبر ممر لا أرى نهاية له، خطوت إلى الأمام عشر خطوات قلقة، عيناي في غيبوبةٍ لا تستفيق، أتجنب النظر إلى الأسفل؛ هاربا من السحر القابع تحت قدمي، أرسلت بصري عاليا، فلم أدر حقيقة ما طالعني؛ قد يكون السقف مطليًّا بطلاء حالك السواد كظلام ليل دامس، وقد يكون شاهقًا لا نهاية لارتفاعه، حيث أقف أرى السقف واضحًا، وبعد أمتار يبدأ في الاختفاء، أشعر أنها خدعة بصرية عظيمة ومتقنة، السقف يبدأ مستقيمًا، ثم يتجه إلى الأعلى في صعود.

أرى حمامة بيضاء تحلِّق وتخترق السقف؛ تختفي وتعود لتظهر من جديد، وكأنها تخبرني بألا سقف للمكان، لونها الأبيض ما كان ليخدعني، هناك تحلق وتختفي. يظلني سقف مائل؛ يرتفع أحيانا ثم ينحدر، الكثير من الزوايا لا يدركها بصري. كنت أرغب في تحسس الجُدُر

لأستبين وجود أبواب مختفية قبل أن يتدخل عقلي اللعين ويسرق طمأنينتي بسؤالٍ أثار ريبتي، وأدخل القلق إلى نفسي: كيف لعيني أن تصلا إلى هذا الحد من الوصف في مثل هذا المكان؟! من دواعي الجنون أن يذهب ظنِّي إلى أن شطر القمر بضوئه الباهت استطاع أن يتجاوز الفتحة الأولى، ويتسرب عبر الثانية، ويلتوى وينزلق إلى الأسفل لينير هذا الممر العظيم!

أيُعقل أن البيك وحيان قد أشعلا مصابيحًا قادرة على توفير هذا الكم من الضوء! أم أن هناك عشراتٌ، بل مئات من الفتحات في السقف، يتخللها هذا الكم الهائل من النور! أم أن هناك مصابيحًا عملاقة مخبأة في مكان ما ينعكس ضوؤها عبر مرايا ضخمة لتنير الممر!

لم أسمح لنفسي أن تنساق في هراء خرافي لتفسير هذه الظاهرة الغريبة، لابد من تفسير عقلاني؛ آلية ما تسمح بتجميع الضوء وعكسه عبر مرايا مخفية، لابد أن لسيل الذهب دور في إنارة هذا الممر، أتذكر رؤيتي لمثل هذه الظاهرة في أحد مواقع الأثر في العراق؛ لعلِّي أعيش هذه اللحظة داخل حلم من أروع الأحلام وأعجبها، ومن الحمق السعي لمغادرته، ولكن حتى الأحلام هناك من يفسدها؛ ربتت يدٌ على كتفي في هدوء، أدركتُ بأني لست حالمًا، التفتُّ مرتابًا فإذا بـ البيك واقفًا خلفي برأسه الكبير، يقول خلف شاربه الفضي:

- ماذا تفعل يا عزيز الأحمق؟

في ارتباك:

- أبحث عن طربوشك يا بيك.

أمسك يدي في حنان أبوي، وسار حتى أول الدرج، وطلب مني الخروج، ومكث داخل الكهف، كان نظيفا وقد استبدل ملابسه، وبدا أصغر من عمره حينما تركته نائما.

خرجت فإذا بنور الشمس يلاطف عيني، تساءلت في سذاجة:

- من أين أتت الشمس! لقد خلَّفتُ القمر ورائي منذ دقائق، لم أمضِ في الكهف أكثر من خمسة عشرة دقيقة!

لم أجهد نفسي بالبحث عن تفسير؛ خشية أن تغرقني تساؤلات تتأبى على العقل؛ فأنا لا أعترف بالخوارق، ربما قد غفوت، لعل روعة ما رأيت سرقتْ مني وقتي كما سرقتُه من أعين الأحراس.

عاودتني حيرتي ثانية:

- لقد كان المكان نظيفًا، لا أثر فيه لغبار، كيف اتسخت إذًا ملابس البيك! هل هناك مكان آخر يعج بالغبار! سأُعد قهوة البيك، بينما أسترجع بعض ما سجلته ذاكرتي؛ لعلي أعثر على الوقت المفقود! أعددتها على عجل، مع قطع من البسكويت والشوكولاتة كما اعتاد البيك كل صباح، عدت إلى الكهف إلا أن حيان اعترض طريقي ولم يسمح لي بالمرور، لم أُخفِ استيائي من تعامله، تلقَّف القهوة وانزلق عبر الفتحة، وقد آثرت الانسحاب، بعدما أوعز إلى أحد جنده بالبقاء أمام الفتحة لحراستها، ولم يكن هناك غيري ليحاول اختراقها.

عدت إلى الخيمة لعلِّي أستطيع أن أنعم بقسط يسير من النوم، لم أنم منذ صباح الأمس، لعنت الملازم ألف مرة على إفساد هذا الصباح الجميل، تمنيت له صباحا مليئًا بالعثرات والشؤم والنكد، ووددتُ لو يرتطم رأسه بأحد الجدر فتتوه ذاكرته.

أشك في أن يحرمني البيك من الاطلاع على أسرار الكهف، سأنتصر وقتها على هذا الملازم الوقح صديق العرب، وقتها سيدرك مكانتي، أعلم جيدا أن الثياب وربطة العنق لن تستر حقيقة أسرتي الفقيرة مهما ادعيت الانحدار من أصل ثري.

والدي كان مؤمنًا بأني مَنْ سيرفع شأن العائلة، بعد استشهاد شقيقي الأكبر، واعتاد مناداتي منذ الصغر "يا أفندي، يا بيك، يا باشا."، وهكذا تحولت إلى باشا، وكنت أتناسى بأنني ابن طباخ الباشا، اكتسبت من والدي مهنة الطهي، وتقليد الباشوات في تصرفاتهم وثيابهم. غلبني النعاس ولم أستيقظ إلا على صوت شجار وقع بين اثنين من الجند بجوار الخيمة، أدركت أن الساعة الواحدة بعد الظهر، سألت جنديا إن كان البيك قد خرج من الكهف أثناء نومي، فأجاب:

- البيك والملازم لم يطلا برأسيهما.

سألته عن رشيد فأخبرني بعودته إلى المعسكر.

أحضرت الطعام سريعًا، فلا يجوز ترك البيك كل هذا الوقت دون أن تطمئن معدته، أعددت الشطائر على عجل، حملتها إلى مدخل الكهف، الذي يحرسه اثنان من الجنود، حاولا منعي بموجب أوامر الملازم اللعين، فقدتُ الكثير من هيبتي، وهؤلاء الأوغاد الذين أحنوا رؤوسهم أمام حضرتي قبل يومين، لا يكترثون بي الآن، ها هم لا يعيرونني اهتماما؛ يحدثونني وهم جلوس؛ لم يقفوا، أو يلتفتوا ناحيتي.

في أعينهم شماتة، وربما اعتقدوا أنهم أعلى مني مكانة، لم أجد أن تكرار اسمي ومكانتي سيترك أثرا في نفوسهم مثل ذي قبل، إلا أنِّي ما زلت خبيرًا في بث الرعب في قلوب أمثال هؤلاء، أخذت أهددهم وأتوعدهم باسم ومكانة البيك، حذرتهم العواقب التي تنتظرهم إن لم يصل إليه طعامه سريعا، تنحى الجنود العرب، وهم يعلمون في قرارة أنفسهم أن خادمًا تركيَ الأصل أفضل في هذه الدولة من العرب قاطبة، فكيف إذا كان يتحدث باسم "بيك" تركوا القرار بمنعي أو السماح لي بيد الأتراك منهم، وقد رضخ الجند الأتراك بعد ذكري لـ"الصدر الأعظم" وعلاقته بـ"البيك"، لقد اختار الجميع مُخالفة أمر الملازم وتحمُّل ما يخلِّفه من عواقب، على إغضاب "بيك" يتضور جوعا داخل كهف.

عبرت الفتحة، أعرف طريقي جيدا، لم يكن الضوء قويا كما كان بالأمس، اعتقدت أنه بسبب ميل الشمس نحو الغرب، ولكن لا منطق في اعتقادي، فلا ضوء القمر ولا الشمس قادرًا على الانحناء والالتواء ليمر عبر الكهف، بدأت أتفحص الممر من جديد، تأكدت بأن طوله يزيد عن السبعين مترا، تساورني رؤية جدار عاكس للضوء عند نهاية الممر، ربما تأخذه انحناءة تدريجية في اتجاه آخر، أتوهم أنني أقف في بداية ممر لا نهاية له.

لم أفارق البوابة الأولى بعد، لم أخطو خطوة واحدة فوق الفسيفساء، ولم تبد أية آثار لخطوات البيك وحيان حيث أقف، تقدمت خطوات معدودة؛ أبحث عن أبواب خلف اللوحات المنمقة؛ تحسست الجدار، فطاوعني بابٌ لا صرير له ولا حفيف، وكأنه صُنع من حرير ناعم.

تقبع خلف الباب غرفة، لا يتجاوز عرضها المترين، تسرب الضوء إليها بقوة تفوق الممر، ازَّينت جدرانها، أبدعتها براعة فنان لا نظير لها، تعكس بريقًا لامعًا، وكأن أحدهم واكب على تلميعها منذ نشأتها.

غادرت الغرفة، وبحثت عن مقبض لأعيد إغلاق الباب فلم أفلح، حاولت جذبه مرات فاستحال عليَّ تحريكه، كأنه تحول إلى جدار آخر، توقفت برهة...لمسته مُجددًا بأناملي فإذا به ينفرج انفراجة يسيرة، ثم يندفع لينغلق من تلقاء ذاته. دفعة خفيفة تكفي لفتحه، وأخرى تستوجب إغلاقه؛ تصميم مبتكر، لم تبهرني طريقة فتحه وإغلاقه بقدر انسيابيته وصمته.

باب مخفي آخر في الجهة المقابلة، اقتربت منه لأفتحه لم تكن الغرفة تشبه الأخرى في شيء؛ حجمها أكبر بأربعة أضعاف، خاوية لا تحوي شيئا، طليت جدرانها وسقفها بطلاء أسود، أرضيتها قطعة رخام واحدة سوداء اللون، هذا ما رأيته ولكني لم أخطُ خطوة واحدة نحو الداخل، لا منطق في أن تكون الأرضية قطعة واحدة، ربما كانت قطعًا متعددة، يتستر عليها لمعان سوادها، حدثني قلبي أن هذه الغرفة تحتضن ممرًّا سريًّا يقود إلى سرداب ما، انتابني شعور سيئ تجاهها، فأغلقت الباب كما فعلت مع السابق، ربما سأعود فيما بعد لأثبت صحة توقعي،

لم يعد لدي شك في وجود عشرات الأبواب عن يمين الممر ويساره كنت سريع الحركة، أسابق الوقت، أفتح الأبواب، الواحد تلو الآخر، تغزوني شهية لالتهام كل ما أراه دفعة واحدة، الكثير من اللوحات والمنحوتات المزينة بأحجار كريمة، حاولت أن أخلع بعضها بأظافري، لو كنت أحمل سكينا لحملت معي ما يكفي لأكون باشا.

لن أخرج خالي الوفاض في مرتي القادمة، ما زال أمامي الكثير من الغرف، وربما وجدت ما يسهل حمله. أرتاد غرفة أخرى لأسمع صهيل حصان، أبحث في عينَي، أرى نقاء الثلج في لونها، سواد الليل في مقلتيها؛ فرس عربية أصيلة، اندفعت عبر الباب، وكأنها بانتظار من يحررها، تفاجأت... تجمدت أعضائي، جمالها منعني الخوف، أبهرني بياضها الناصع، ترميني بنظرة من عينيها الكبيرتين البراقتين، نظرة عتاب حزينة، كأنها تعرفني منذ زمن، تسير في الممر هادئة مطمئنة، شعرت بأن عليَّ أن أتبعها، لم أجد الوقت لأتساءل من أين جاءت وكيف، ولماذا.

تركت المنطق خلفي، أتبعها وهي تدب على الأرض في دلال، لم تبتعد كثيرا، تصهل وتميل بناصيتها، ترسل إليَّ نظراتٍ حانية، ساقتني قدماي إليها، ألامس عنقها الطويل الرقيق.

وفجأة..بدأت تذبل بين يدي؛ لونها يبهت، حيويتها تموت، جمالها يرحل في صمت، خطَفتْ يدي عنها؛ لتعود إليَّ من جديد، اعتقدت أني واهم، أردت إعادة الكرة، تركتني وانزوت بجانب الجدار، تحكُّ به طرف بطنها المستدير، أقترب مرة أخرى، تتركني ثانية، التصقتْ بالجدار، دفعت بنصف جسدها داخله، تغوص داخل الجدار! ترميني بنظرة من عينها المُتحررة، أشعر أنها تقول وداعا، أخاف أن تتركني، أريد البقاء معها؛ لقد سحرتني، عشقت النظر إليها، أمد يدي لأتحسس ما بقي منها، تحجرت يدي قبل ملامستها بعدما تحولت ساحرتي إلى منحوتة حجرية.

ارتعبت قليلا، فركت عينيَّ، أفتِّش داخلي عن منطقي اللعين؛ فهمس لي:

- عزيز... أنت واهمٌ... واهمٌ يا عزيز... كلُّ هذا كان من نسج خيالك.

لن أصر على صدق ما رأيت، من الحكمة أن أُكذِّب عينيّ، وأتجاهل حواسي، وأطرد شطحات عقلي، هذا ما علمنيه البيك في قولته:

- إن الأوهام تتعاظم إن أفسحت لها المجال، وما لا تستطيع إثباته عبر العقل اطرده من مخيلتك فورا، وإلا ستبدأ القطط بمراقصة الكلاب على إيقاع موسيقى تعزفها الفئران.

إنه لعجبٌ عُجابٌ أن يصير التوهم حقيقة، أن يصور لي عقلي هذه الفرس، أن يتملكني الظن بأنها تنبض بالحياة، أن تدب الروح فيما لا روح له، أن يجاوز الفن حدود اللامعقول، ولكن ليس عجبًا أن ينخدع عقلي أمام هذا الإعجاز الإبداعي، تُرى كم أمضى هذا الفنان على هذه المنحوتة! عام! مئة عام! لا شك أنه قد فارق الحياة، وإلا لكان الآن واقفًا مشدوهًا من بديع صنعه، يتأمله، يغور في أنفاسه، يذوب في أريجه، يرتحل إلى عالم اللاحدود، عندها لابد أن تصهل الفرس، وتتكلم...

ليتني كنت جزءًا من هذا المكان! لا يهم ماذا أكون، سأرضى أن أكون قطعة فسيفساء، لوحةً، حجرًا، أيَّ شيء؛ فلا أشك في أن الروح ستدب في هذا المكان يومًا ما.

على الجانب الآخر كان هناك دب أبيض؛ قصدني... أتقهقر... أتحسس خطواتي... يلتصق الدب بالجدار... يفعل مثلما فعلت الفرس... أرتجف... سرت قشعريرة في رقبتي وظهري...أغمضت عينيّ مرددًا:

- عزيز...أنت تهلوس، الرائحة تدفعك للهلوسة، أفق وإلا سرقتك الأوهام.

تنفست الصعداء...أخرجت زفيرًا، طردت خلاله أوهام عقلي ومخاوفي، فتحت عيناي...تمر أمامي حمامة بيضاء، لا تشبه سابقتها، سمعت هديلها، لاحقْتُها، تظهر وتختفي، تجوب المكان، وقفتْ على ظهر الفرس، تميل الفرس برأسها...رمقتني بنظرة غامضة، اقتربت منها قليلا...لم تهرب الحمامة، بل -هي الأخرى-غاصت في الجدار، وبرز نصفها.

صوتي حبيس...أجاهده:

- عزيز...عزيز...أنت تهلوس، كل ما تراه هلوسات من أثر الرائحة العجيبة، وكأنها مُزجت بالأفيون، أفق يا عزيز.

بُعثت الفرس من جديد، هرولتْ نحو نهاية الممر، تبعها الطائر مُحلِّقًا! غرزت أظافري في راحتي، خدشتُ جلدي، لقد سال دمي، وأنا أصرخ في صمت:

- سيسخر منك البيك، ستصبح أُضحوكة الجميع.

من خلفي...وصل مسامعي صوت يناديني:

- عزيز...عزيز.

لقد كان حيان يناديني همسًا، وكأنه يخشى أن تجفل الفرس، أو يهاجمني الدب، وددت لو أنني أهلوس بسماع صوته، رغبت أن يعلو صراخي: "ماذا تريد مني؟ دعني وشأني أيها الحقير."

كان بعيدا، على مقربة من مدخل الكهف، يشير بيده:

- تعال يا عزيز.

اقتربت منه، تلحُّ عليَّ رغبتي في البكاء، وانتتني جرأةٌ حمقاء، صرخت قائلا:

- ماذا تريد مني! لماذا تعترض طريقي! لماذا تكرهني! ماذا فعلتُ لك يا حيوان؟!

أفرغت غضبي، وصاحب راحتي ندمي؛ فقلت:

- أحضرت لكم الطعام.

ابتسم قائلاً:

- هيَّا لنخرج.

سألته عن البيك فأخبرني بأنه خرج باكرا، أدهشني؛ فعاودته:

- وكيف لم أرَه؟!

ابتسم ساخرا:

- هيا يا عزيز، صدق روهان؛ سيقتلك فضولك يوما ما.

استفزني هدوؤه...تبعته، تمنيت لو أن هناك بابا خفيًا أغلقه دونه، وأعود باحثًا عن الفرس، أطلَّيت برأسي من الفتحة ليستقبلني القمر هذه المرة، وأغرقني في حيرة احتساب الوقت، فسألت الملازم في سذاجة:

- هل ترى القمر؟

أكَّد رؤيتي قمرًا حقيقيًّا، لستُ واهمًا...أستغرب سرعة الزمن! أستغرب ألغاز الكهف! أستغرب نفسي!

علمت أن البيك وحيان قد مرَّا دوني داخل الكهف، لم أنتبه لوجودهما، لقد طلب البيك من حيان أن يتركني، ما دمت لا أقترب من نهاية الممر.

دخلت الخيمة، فإذا بـ "البيك" يغط في نوم عميق، حملت الشطائر لأستميل بها الجند؛ قدمتُها لهم، فرحوا كثيرًا، دار بيننا حديث طويل، أقسموا على سماع أصوات عند الكهف؛ لغات غريبة على مسامعهم، جاريتهم قليلا...

نفسي تحدثني:

– هذا لا يتعدى الوهم؛ يعيش الوهم حيث مواقع الأثر، هلوسات الليل لا نهاية لها، خجلتُ من محدثتي...لم أختلف كثيرًا عن الجند...راودني ما رأيتُ داخل الكهف... انتشلني عقلي من أوهام الكهف إلى أوهام عظمتي، أبرِّر خدمتي للبيك، ادعيت أنه عمي، ادعيت أنه سرٌ لا يجوز البوح به، وهذا لا ينتقص من مكانتي...لا يبدو عليهم تصديقي، ولم يمانعوا بمجاراتي، ما دمت قادرًا على إعداد المزيد من الشطائر.

انتصف الليل، خلدت إلى النوم، حرصت أن أصحو قبل البيك، صحوت وأعددت القهوة والبسكويت، قارورة ماء، ملابس وجوارب نظيفة، حذاء آخر للبيك، أيقظتْه أشعةُ الشمس، فتح عينيه وابتسم لي، طمأنتني ابتسامته بترك عتابي.

شرب قهوته، استبدل ملابسه، هَمَّ بالانصراف وحده، سألته أن يصحبني...تنهَّد قائلاً:

– لم أكن في حاجةٍ لك بقدر احتياجي لك الآن، ولكني أخشى عليك؛ هذا المكان سيصيبك بالجنون، ولا أحب أن أكون السبب، ابتعد ولا تقترب.

كنت لَحوحًا في طلبي، ذكَّرتُه بفوائد ذاكرتي، زمَّ شفتيه وأطرق رأسه قائلاً:

– لهذا أخشى عليك؛ ذاكرتي تشفق عليَّ، تسمح لي بشطب ما أريد، أمَّا ذاكرتك الملعونة، تحتفظ بكل شيء، وليت ما ستراه مجرد أرقام فردية، لتتمكن من نسيانها.

انطلق مسرعًا، ثم التفت قائلاً:

– هذا المكان سيسكن ذاكرتك ويسرق عقلك، إنه يتكلم يا عزيز، لا تقترب منه.

حذَّرته من هلوسة الروائح، فهزَّ رأسه وقطب حاجبيه:

– ابتعد يا عزيز...فقط ابتعد.

اعتاد البيك أن يردد عباراتٍ تفصح عن فراسته: "التمثال يتكلم" "اللوحة تغني" "هذا الدرع أخبرني بعدد السيوف التي تحطمت فوقه".

ذات مرة...أمسك بخنجر؛ مقبضه مرصَّع بالجواهر، نصله من الذهب الخالص، ثم قال:

- هذا الخنجر لم يتذوق طعم الدماء، هيًّا يا عزيز، أرخِ أذنيك كما اعتدت أن تفعل خلف بابي، أصغِ ودعه يهمس في أذنيك، ثم أخبرني بما أخبرك.

حملتُ الخنجر وتفحصته جيدًا، أخبرت البيك عن العلامات الدالةِ على تاريخ الخنجر؛ "كان ملكًا لرجل ثري، خشي عليه من ظِفره، لم يصنع له غمدًا حتى لا يضيق عليه، وحرص على لفه بحرير ناعم".

فامتدح ذكائي قائلاً:

- أحسنت الإصغاء والتعلم، لا تنسَ أن كل شيء في الكون يتكلم بطريقته.

هكذا كان البيك يصف الأشياء، ولكن حديثه أرهقني هذه المرة، لقد أوعز إليَّ بصدق ما توهمتُه داخل الكهف، ثم انصرف وتركني أتساءل: هل أصابته لوثة! هل نالت منه تلك الرائحة! أم أن الحيوان حيان قد أثَّر فيه إلى هذا الحد!

علمني البيك أن الخرافات لا تسكن إلا في عقول الجهلة، كان يردد دوما: "ابذر خرافة تحصد جهلا". لقد انحدرتُ من أسرة تخاف الحسد، وتؤمن بخوارق الجن، لكن البيك خلق مني مرآةً لشخصيته، لم يفشل إلا في تحويلي عن حب الباشاوات، على الرغم من بغضه الشديد لهم.

يمر يومي بطيئا، كان عليَّ أن أعثر على شيء للتسرية، يستقطب انتباهي جنديان من أصل سوري، قد انزويا بجانب الخيمة يتهامسان، يشير أحدهما برأسه تجاهي... أنسلُّ داخل الخيمة... أرخي آذاني لأسمع أحدهم يقول لصاحبه:

- (واللي خلقك بالمغارة في طنان دهب وراح يحملوهن على إسطنبول.)

الثاني:

- (الله لا يباركلن وبجاه النبي عفاريت تعفرتن.)

رفيقه:

- انتبه، هذا الخدام عزيز ابن حرام هذا (اروسبو اغلو.)

تركتهم وسخفَهم، أفتِّش عن ذي ثقةٍ، يكتم سري، يساعدني، ويأخذ نصيبًا مما سأخرجه من الكهف، أقترب من حَلَقَة جند، يلعبون لُعبة غبية، يسمونها "السيجة"؛ راقبتهم ساعةً بل أكثر، تعلمتُ اللُّعبة، لم يسمحوا لي باللعب، تفرغتُ لـ "ذب الذباب"، والإيقاع بين الأتراك والعرب، تسببت في شجار أبهجني.

وماذا أفعل غير ذلك؛ لم يُسمح لي بدخول الكهف، لم يعيرني الجند اهتمامًا، بعدما سقط طربوشي، بعدما تحولتُ لخادم، انقضى النهار، ويوشك الليل، ولم أعثر على بُغيتي، متى أقتحم الكهف؟!

خلدتُ إلى النوم، ثم صحوت، استيقظ البيك قبلي، ولم أعد له القهوة، لقد أسرع إلى الكهف، مرَّت ساعة، عَلِم الملازم أن البيك سبقه إلى الكهف، سألته أن يحمل إليه قهوته، والقليل من البسكويت، لم أخفِ غضبي عن الملازم، هذا الحقير لا يستحق أن يكون تركيّا، ليته كان عربيّا! تبًّا له ولفعله! احتلْتُ في سؤالي عنه، لعلِّي أجد عيبا أستغله، لقد كان الجند عربا وتُركا يبجلونه ويحبونه، وقد أحزنني هذا كثيرًا. اتفق هؤلاء الملاعين على إغاظتي بقَصَصَهم عن شهامة الملازم؛ رجولته، نبله، لم يبقَ إلا أن ينظموا الشعر في هذا الحقير، كنت أتصنع الابتسامة، كم تمنيت أن أجد من يشاركني بغضه!

حاولتُ عبثًا الاقتراب من الكهف، اقترب مني كلب حيان؛ رشيد؛ لم يبلغ العشرين من عمره بعد، أسمرُ اللون، ضئيلُ الجسد، قصيرُ القامة، رفيعُ الأنف، بنيُّ العينين، هزيل الشارب، ينبتُ الشَّعر في وجهه كفتى في الثالثة عشرة، يُلاحظ عليه هوسه بالملازم؛ يقلده في كل شيء؛ الكلام، هزّ الأكتاف، المِشية، قصة الشعر، البحَّة التي تعترض صوته بين الحين والآخر. خَلْقه كخَلْقي، يميزني عنه بشرتُه القاتمة، كما أنني تركي، ولستُ عربيًّا مثله.

فاجئني قوله:

- عزيز أفندي...تعال معي وسأريك مدخلا آخر للكهف.

فضولي دفعني لأتبعه بلا تفكير، وأشار إلى البئر قائلاً:

- انزل، وهناك ستجد مدخلا آخر للكهف.

لقد كان البئر ضحلاً. نظرتُ داخله فلم أستبين شيئًا؛ فسألته:

- كيف تعرف أن هناك مدخلا.

فأجاب:

- لقد ولجت منه إلى الكهف بصحبة سعيد، ولكن أرجوك لا تخبر أحدا.

وقف سعيد ليؤكد قول رشيد، يقسم الأيمان على صدقه، هوسي بالكهف أعمى بصيرتي، لم أفطن إلى كيدهم، ألقياني في غَيابَة الجُب، عبر حبلٍ مُمْتَد، لم تلامس قدماي قاع البئر بعد، انصرفا وتركاني بصحبة الحبل، أيقنت خداعي، بلعت غبائي، التزمت الصمت.

لن يُجديني نفعًا صراخي أو توسلي، جلست هادئًا، أطلقت العنان لخيالي، ليأخذني بعيدا، لحين انتهاء عقوبتي، أو لحين خروج البيك لإنقاذي.

لم يكن هذا خداعي الأول؛ ارتحلت ذاكرتي إلى زمن صبيتي، حيث احتجزني أولاد الحي؛ مرتْ ساعات عدة، يحتضنني برميل ضيق، حتى أنقذني أبي، ربما حينها تسرب الشك إلى نفسه، باستحالة إصلاح خللٍ أصابني، وعزا ذلك إلى حسد أو سحر يسكن جسدي.

واأسفاه على أحلامِ أبي! تحطَّمت على صخرةِ غبائي الشديد؛ ولده العبقري صاحب الذاكرة الخارقة، متهمٌ بالغباء من الجميع، ينصحه المعلمون بعدم إهدار الوقت، وتعليمه مهنةً يقتاتُ منها، قبل فوات الأوان.

تدور عجلة الزمن، وها أنا أُحتجز في بئر ضحل، من قِبَل مجموعةٍ من الأغبياء الخاسرين.

يظلني ظِلٌّ أسود، رافقه صوت يتدلى، من عنق البئر المكرورة:

- عزيز باشا...هل وجدت إلى الكهف مدخلا؟

تعلو قهقهةُ الجند، وينادي رشيد ثانية:

- عزيز بيك هل تريد الخروج؟

أخبرته:

- لا أستطيع؛ لقد كُسرت ساقي.

أحاطتهم رغبةٌ عجفاءٌ في إخراجي؛ جلبوا سَرج حصان، جذبني رشيد فوقه، ليسحبني بعضٌ منهم، ويساعد في حملي معهم، أتعبتهم طويلاً، حتى انتشلوني من البئر.

حملوني إلى الخيمة، وتذللوا أمامي حتى أكتم عن الملازم فعلتهم، تلذذت بتذللهم وما كنت لأكتفي، أخبرتهم أن ما يؤلمني ربما يكون التواء، وبعض التدليك قد يساعد على الشفاء، فخلعوا حذائي وجواربي، ليتناوبوا على تدليك قدمي، أصرخ من ألم كاذب، وقلبي يتراقص فرحا، ولم تُشفَ نفسي حتى الآن؛ ادَّعيت إساءة التدليك، هدفي إجبار رشيد وسعيد على الانحناء أمام قدمي.

انكبَّ سعيد يلهث ويدلك...تبعه رشيد في إذلال، وانحنى لتدليك قدمي الباشوية.

أصرخُ في صمتٍ بسَّامٍ: "كم يليق بكم أيها الأوغاد الانحناء لقدمي الباشوية! هيَّا قبلوها وتفاخروا بأنكم قبلتم قدم عزيز.

غابت الشمس، وغاب معها جُرح كرامتي، وأسرع مشير نحو الخيمة ليحذرهم عودة الملازم، فانفضوا من حولي مهرولين إلى مواقعهم، وانتفضت للقاء البيك. أنستني لهفتي أن أعرج قليلا أمامهم...يبدو أنهم اكتشفوا خداعي.

جلس البيك على صخرة بجانب الخيمة، وتبعه حيان ليتهامسان، تسللت وأرخيت أذني، وسمعت ما دار بينهم.

البيك:

- لا تخف...إن فعلناه كما يجب لن يفطن إلينا أحد.

حيان:

- ولكن...إن اكتشفوا الأمر يوما ما...

البيك مُقاطعًا:

- إنهم حمقى؛ لن يكتشفوا شيئا، تدبر أمر الصناديق، ودعنا نوهم الجميع بأننا سننقل كل محتويات الكهف إلى المتحف.

حيان:

- أخشى أن تعاندنا الصدفة، ويقوموا بتفتيش الصناديق.

البيك بنبرة حازمة:

- لا تخف يا ولد، كن على ثقةٍ بتدبيري، كن واثقًا بأنك إن فوَّت الفرصة سيأكلك الندم طوال حياتك.

حيان:

- أنا رجل عسكري، وإنْ فُضح الأمر سأتهم بالخيانة.

لحظات صمت...يعترضها البيك:

- إذًا...رافقني، وحين وصولنا إسطنبول سأتدبر أمرك.

حيان بنبرة قلقة:

- أمهلني أفكر حتى الصباح، سأعود الآن إلى المعسكر لأمر هام.

البيك:

يتوقف الحديث، يعم الصمت، وما زالت أذني تترقب، شعرت بظل أحدهم فوق رأسي، كانت خطوات البيك أسرع من استرداد أذني، رمقني بنظرة حادة، وهز رأسه قائلاً:

- سيقتلك فضولك يوما ما يا عزيز. كم نهيتك عن ترك التلصص! اذهب وآتني بالماء لاغتسل.

أفرُّ لأنجو من نظراته ومن حديثه الممل الذي أنفت منه أذني، لقد أمسك بي أكثر من ستين مرة، وأفلتُّ ألف مرة، ماذا أفعل! لا أستطيع أن أكف عن التلصص.

أحضرت الماء، وتجرد من جميع ملابسه فوق صخرة خارج الخيمة، وترك جسده المترهل يعاقب عيون الفضوليين، وأمرني بصب الماء فوق رأسه...يوشك القمر أن يصير بدرًا، وقد سلط ضوءه علينا، تمنيت لو أنه ستر عورته.

أخجلتني عيون الجند المراقبة الشامتة...ليته يبلع لسانه حتى لا يجذب المزيد من الفضوليين! ولكن هيهات للبيك بعد أن شعر بالانتعاش أن يوفر سخفه وحماقته.

البيك:

- لا تنظر إلى مؤخرتي يا عزيز.

القهقهة تدوي...يزدحم الضجيج...أذوب خجلا.

يهز البيك مؤخرته الساخرة، ويؤدي رقصة رجل الغاب، سائلاً بأعلى صوته:

- هل تروقك مؤخرتي يا عزيز؟

تيبَّس لساني، تركته إلى الخيمة، تبعني وارتمى على فِرشته، وطلب مني رش القليل من الماء للتخفيف من وطأة الحر.

غطَّ في نومه، كنت أعتقد أن مزاجه المنتعش سيشفي غليلي، ولكنه لم يرحم عذابي بكلمة أو بحرف واحد؛ تركني أتقلب في نار الفضول، فعزمت على دخول الكهف، ولو كان الثمن قتل أحد الجند، وما كنت لأجرؤ على قتل دجاجة...تأهبت للخروج ولاحقني صوته قبل مغادرتي:

- عزيز...لا تنقاد لما في رأسك، لقد أمر الملازم جنوده بإطلاق النار عليك إن اقتربت من الكهف.

لابد أن الجنود سيسرهم قتلي...كنت أعلم أنه يخدعني، ولم أمتلك الجرأة لاختبار صحة قوله، فضَّلت البقاء بالقرب من "البيك" على الاقتراب من الأوباش.

تُرى ما المؤامرة التي رتب لها مع الملازم؟ وما حاجتهم لصناديق خشبية؟ ولماذا لم يكن حيان مرتاحا؟ وما السرقة التي يخشى أن يُتهم بها؟ أيعقل أن هناك نية لسرقة ما في الكهف! سيذوب القمر على نار شمس الصباح وسأكشف ما أعجز عن تفسيره.

تنسج الشمس خيوطها الذهبية، ولم يتعجل روهان الذهاب إلى الكهف، تناول الإفطار، وشرب القهوة، واحتسى ربع زجاجة عَرَق؛ لقد عاد إلى طبيعته؛ فمنذ مجيئنا لم يقترب زجاجة الشراب.

أطلَّ حيان من بعيد برفقة كلبه العربي رشيد، وما إن رآه روهان حتى فتل شاربه لتظهر شفتاه مزينة بالابتسامة...قفزت الفرحة من عينيه، وكدتُ أسمع دقات قلبه الراقصة.

اقترب حيان وهز رأسه بصمت، يتبعه بعض الجند يحملون على أكتافهم قماشا وشوالات من الخيش، وصناديقا خشبية؛ ظاهرها يدل على الغباء، خامتها بعض كومات القمامة، وما تبقى من صناديق الخضر والذخيرة، كان حجمها كبيرًا؛ فاستحال عليهم إدخالها الكهف، فأمرهم الملازم بنصب خيمة فوق المدخل، وترك الصناديق والابتعاد.

دخل الاثنان الخيمة ثم انتقلا إلى الكهف، وبعد مرور ساعات خرج روهان والملازم حيان مغبّرين، وانزويا يتهامسان من جديد، تسللت خلفهما لأعي ما يدور بينهما.

البيك:

- لقد فعلت الصواب يا حيان، دعنا ننهي ما بدأناه سويًّا.

حيان بصوت يحمل الكثير من التردد:

- ما نجترأ عليه ليس هيّنًا؛ إن كُشف أمرنا سيتهموننا بالسرقة.

البيك:

- لا تخف، لن يكتشفوا شيئا، سنخفي الكهف ونبتعد، وسأتدبر أمرك، لديّ الكثير من العلاقات، لنتحرك توًا وابقَ ملتزما بالخطة.

حيان بنبرة صوت باحثةً عن طريقة للتراجع:

- دعنا نعطيهم شيئا يفرحهم ويلهيهم عن التفكير.

احتد البيك:

- لا...إن أخذوا شيئا ستنفتح شهيتهم وسيندفعون للبحث بهمجية، لا داعي لأن يعرف أحد بالأمر، صدقني أنت تقوم بأصوب عمل في حياتك، دعنا نوهم الجميع بأنه تم نقل كل شيء إلى المتحف واترك عليّ ما تبقى.

حيان:

- وإن قاموا بتفتيش الحمولة، كيف سنقنعهم بما في الصناديق؟

رد عليه البيك:

- لا تخف، بإمكاني إقناعهم بأي أمر أريد.

يتابع البيك ضاحكًا:

- ذات مرة أقنعتهم أن التراب مقدس.

وإذا بعينيّ البيك تبحث عني، وكأنه على بينةٍ من أمري، رماني بنظرة حملتني وألقت بي بعيدا، ولم يكن أمامي سوى أن أراقب من بعيد.

اتجها إلى الكهف؛ الأول راضٍ هادئ، والآخر عابس مرتبك. تركاني في حيرة وبعد ما يقارب الساعة شرع الجنود يحملون الصناديق الخشبية المغطاة بالخيش لتحجب ما بداخلها.

يشرف روهان بنفسه على تحميل الصناديق على الجمال، وينبئ الجهد المبذول لحملها بخفة وزنها. يحيرني إصرار البيك على أن يتعاون عدة جنود في حمل الصندوق الواحد، وتعمده أن يتم ذلك بطريقة استعراضية...ربما لإيهام الجميع بإفراغ الكهف. زمُّوا حمولة الإبل، واعتقدت أنها النهاية، وإذا بروهان يأمر الجميع بالعمل على دفن الكهف، أكثر من ثلاثين جنديا عملوا -كخلية نحل- على طمر بوابة الكهف. ما كنت لأصدق أن البيك الذي لا ينحني لالتقاط طربوشه يحمل الحجارة والتراب كشاب في العشرين من عمره! أراد حيان استخدام المتفجرات لطمس معالم الكهف، وكان البيك معارضًا، ثم وافق شريطة ألا يتأثر الكهف، أعد حيان ما يلزم للتفجير،

وأشار إلينا وابتعدنا جميعا لمسافة آمنة، دوّى انفجار عظيم هز المنطقة وما جاورها، وعلى أثره تجمهر الكثير من العرب من بعيد للمراقبة.

نجح البيك في إخفاء هذا الأثر، ومسح أي أثر يقود إليه...أراه ما فعل ذلك كعالم أثر، بل كمجرم يخفي أثر جريمته...هذا ما كنت أعتقده حينها.

اطمأنت نفس البيك، فصاح بأعلى صوته:

- أين الدواء يا عزيز؟

أحضرتُ زجاجة عرق، لففتها بقطعة قماش للتمويه، تلقفها مسرعًا...يتلذذ برشفها، والكل يراقب، يرفع يده ويلوح بزجاجته مناديًا بأعلى صوته:

- هل من مريض يحتاج أن يشاركني الدواء؟

الكل يدعو له بالشفاء، لم يبد أنهم اكتشفوا سر الدواء.

خرجنا من المناطق الوعرة قبيل غروب الشمس، وكان برفقتنا ستة جمال محملة بالصناديق، وبغل واحد يحمل أغراضنا، رافقنا الملازم حيان ولم يمتطِ جواده احترامًا للبيك الذي فضل أن يسير راجلا حتى يتجاوز الممرات الوعرة.

لم يمضِ الكثير من الوقت حتى وصلنا إلى نقطة التقائنا بالعربة العسكرية العجيبة لتقلنا إلى محطة القطار، ويبدو أنها لم تصل ولن تصل، ربما قد تعطلت في طريقها. هكذا أخبرنا الملازم. فضَّل البيك مواصلة المسير دون توقف، فتنازل جنديان عن جواديهما، عائديَن مع البقيةِ إلى المعسكر، ولم يبق برفقتنا سوى ثلاثة جند.

مررنا على مقربةٍ من عربٍ بعدد الحصى...لم يسرني التغير الطارئ لمخطط رحلتنا؛ لقد حُرِمتُ زيارةَ القدس والبتراء، إن المؤامرة التي حاكها الملازم والبيك قد عبثت بكل أمل...ينتابني الريب بوجود أمر دنيء متعلق بسرقة كنوز الكهف، وسأكتشفه سريعا.

في طريقنا تجمعا سكنيا...يسأل البيك ساخرًا:

- هل تلك هي مناطق الحكم الذاتي لليهود؟

حيان:

- لا إنها قرية عربية، المستوطنات في الجهة المقابلة، هل أنت من المعارضين للوجود اليهودي؟

البيك:

- مُطلقًا، لقد كنت من المؤيدين لإقامة حكم ذاتي يهودي يمارسون خلاله طقوسهم الدينية في سكينة، كما أؤمن بأن مشروعهم الزراعي سيثمر فوائد جمة على الجميع، ولكني أخشى ألا يُتركوا سالمين، إنهم قوم مسالمون، ولكن طموح قادتهم يثير الريبة، وأبغض تحايل قادتهم واستخفافهم بعقول الآخرين.

حيان يرد في حَنَق:

- اطمئن لدينا أوامر بحراستهم وعدم التدخل في شؤنهم، وحماية تجمعاتهم الزراعية.

طال الحديث وكان مملا، لم أشغل بالي بالتفكير فيه، فأنا أمقت السياسة...أثناء طريقنا إلى حيفا أصر البيك أن يأخذه حيان إلى البحر؛ ليسبح قليلا، وعارضه حيان بحجة اقتراب الصبح.

إصرار البيك أوصلنا إلى شاطئ البحر، وطلب حيان ألا نطيل البقاء على الشاطئ معللا ذلك بأن دوريات من الدرك لا تنفك عن المرور، وستطرح الكثير من الأسئلة المزعجة، والعلاقة بين الدرك والجيش متوترة قليلاً.

سبح البيك عاريا، وغفوت قليلا، ثم غادرنا الشاطئ، ومع بزوغ الفجر وصلنا إلى محطة القطارات؛ وجدناها مضاءة بمصابيح خافتة، غارقة في هدوءٍ سرعان ما تلاشى فور اقترابنا منها.

قام الملازم بصرف جنوده ولم يبق سوى رشيد، وأخذا جانبا خلف أحد دكاكين المحطة، واستبدلا ملابسهما العسكرية بأخرى مدنية.

أراقب حيان بنظرات شامتة؛ تتلاشى هيبته العسكرية مع زيه المخلوع، أمَّا رشيد فلم أكن أعيره اهتمامًا؛ فليكن بزي عسكري أو مدني؛ لم أشعر يوما بالغيرة من عربي.

أحب التجوال في الأماكن الرحبة...أستكشف المحطة، قادتني قدماي إلى حيث يقف روهان بيك، كان يحاول جاهدا قراءة كلمات منقوشة على جدار مغبَّر أمامه.

بعدما وقفت إلى جواره قال ساخرًا:

- لقد سقط الطربوش يا عزيز.

فأخبرته أن الطربوش ما زال على رأسه، فضحك قائلاً:

قصدتُ طربوش مولانا. ما رأيك أن نسبح إلى بيروت ونريح أنفسنا من ضجيج قطار مولانا؟ أخشى أنه لن يصل قريبا.

وتمتم كثيرا بغير توقف، حينها لم أفهم قصده، ولم أجهد نفسي لأفهم؛ فكل ما كان يشغلني هو اكتشاف ما تُسرِّه الصناديق، انشغل روهان وحيان بالتخطيط لطريقة مثلى لتهريب الصناديق إلى تركيا، وربما سرقتها فيما بعد. حقيقةً ما كنت لأشك يوما بأن روهان قد يكون لصا، ولكن الأسلوب الغامض الذي اتبعه مُذ دخول الكهف حتى هذه اللحظة يثير شكوكي تجاه مؤامرة دنيئة؛ إن نقل آثار إلى المتحف لا يحتاج إلى هذا الغموض والسرية من سلطوي مثله.

استيائي مما حدث لم يكن بدافع الأمانة بقدر ما كان بدافع الغضب والغيرة؛ تجاهلني البيك ولم يطلعني على شيء، حسبتني الأقرب إليه، فكيف احتل رجل آخر مكانتي في أيام قلائل! كيف يكون موضع ثقته! فما كنت لأتوانى عن سرقة قبر الخليفة من أجله لو أراد ذلك.

يكاد يخنقني الفضول لكشف الأسرار التي نحملها، وتكاد الغيرة تحرقني، اقتربت من أحد الصناديق، مددت يدي وأخذت أمزق الخيش الذي يخفيها، رصدتني عينا الثعلب روهان، فنادى عليَّ من حيث يقف:

- انتبه يا عزيز حتى لا يسقط طربوشك ويضيع بين الصناديق.

التفت اليه من وراء كتفي، تقول عيناي في تحدٍ:

- سأعرف ما في الصناديق حتى لو كلفني عمري ثمنا لذلك.

يقترب مني ويربَّت على كتفي ويهمس في أذني:

- لا شيء في الصناديق يا عزيز...لا شيء سوي حجارة سخيفة، والقليل من التراب؛ لنوهم الجميع بأننا أخذنا كل ما في الكهف؛ حتى لا يعودوا للبحث.

شعرت كأنه بصق في أذني وسخر مني، هل اعتقد أني بهذا الغباء لأصدق أن كل هذا الجهد من أجل لا شيء! الملازم يخلع زيه من أجل لا شيء! لا بد أنه أراد أن ما في الصناديق يفوق قدري ومكانتي، وما أنا إلا خادم عنده، ومهما تعلمت يجب ألا أنسى مكانتي، ربما كان يجب أن أتقبل الواقع، البيك بيك، والباشا باشا، ونحن جميعا خدم في عالمهم البغيض.

ومن أنا فعلا! لست أكثر من شاب صغير والده من عامة الناس، التحق بالمتحف كخادم يراقب الطربوش، ويمسح الغبار عن المنحوتات، ويعد الطعام والشراب للبيك، لا تهم السنوات التي قضيتها في تعلم كل شيء، لا تهم اللغة العربية التي بذلت كل طاقتي في تعلمها وإتقانها؛ ليسهل عمل البيك في الترجمة والتواصل مع الآخرين؛ كنت أراه صديقا ومعلما ووالدا، ولا أشعر بالحرج من جمع أحذيته كلما قرر السفر، ويبدو أن كل هذه السنوات جعلت مني خادمًا بارعًا، ولا يحق للخادم أن يطلع على أسرار سيده، وليس له أن يؤتمن عليها...حيان ملازم أول في الجيش التركي وله مكانته، وهل يجب أن أقارن نفسي به! أنا لا شيء...لا شيء أنا.

تعاظمت كراهيتي، لماذا يذكرونني بحقيقتي دائمًا! ألم يكن من حق ابن الطباخ أن يكون مثلهم!

لم يفلح القمر في تزيين السماء هذه الليلة، فيتنحى في صمت، وتتسلل شمس صفراء في بطء كئيب؛ نور باهت يحاول الانتشار، ثم يقترب خمسةُ جند، تأكل أقدامهم المسافة بيننا، يلوح بريق أعينهم، يرموننا بنظرات مرتابة، تأهبوا وكأنهم في مواجهة أعدائهم.

تفرقوا...يتفقدون المكان في حذر، تشير وضعية بنادقهم إلى أهبتهم لخوض معركة، ارتبك الملازم حيان، وتكور على نفسه وأحنى رأسه كلص صغير يخشى القبض عليه؛ لقد خلع رداءه العسكري، تجرد من سياج حمايته.

يهمس في أذني روهان، فرد عليه:

- لا تخف لقد أخبرتك أن الصدر الأعظم سعيد باشا صديقي وسنجد حلا لكل شيء.

أحنى الملازم رأسه من ثقل الهم الجاثم على عنقه، كم سيسرني أن أراه مفصولا عن جسده! كم كان رشيد مرتعبا! ترتعد فرائصه؛ يجاهد كي يتمكن من قضم أظافره وأكلها.

وأنا أردد سرًّا:

- وسقط الطربوش يا حيان سقط الطربوش.

كم كان يبغض روهان الوزير سعيد حليم باشا! لا علاقة بين روهان والصدر الأعظم كما ادعى...أشك وأتمنى أن أكون مصيبا...استغل روهان الملازم وخدعه، والله وحده أعلم بما أغواه به ليعود بالآثار إلى تركيا، لتجد طريقها إلى المتحف السري الخاص به وبالـ "وزة هانم"، هذا ما بدا لي وقتها.

ما كنت لآبه لو سرق حيان كنوز العالم وآثاره، ولكن لن أسمح له أن يسرق مني البيك وهو كل عالمي؛ لا قيمة لي بدونه، لقد انتشلني هذا الرجل من مستنقعٍ كنت فيه ضفدعا بليدا أبلها، سخر منه معلموه وزملاؤه، وكان محطة لنكاتهم وسخريتهم كُلَّما أرادوا التسرية عن أنفسهم.

قبل ثماني سنوات اصطحبني والدي إلى أحد المتاحف، وكان عمري حينها خمسة عشرة عاما، وقبل أن يتركني في انتظار المجهول، لم يزد عن قوله:

- ستتعلم وتعمل هنا.

جلست على أحد المقاعد وحيدا، وكنت أعتقد أني سألتقي (الأوسطي) صاحب العمل، وأنه سيسخر مني كما اعتاد الجميع.

مرت ساعات قبل أن يقف أمامي رجل بأواخر الستينيات من عمره؛ يطيق وجهه حمل ثلاثة شوارب؛ الأول كثيف أخفى شفتيه، لونه فضي وقد اصطبغ بصُفرة غَليون التَّبغ، وفوق كل عين شارب كثيف، أبيض اللون، ناعم الملمس، تخاصمت خُصَلُه فتباعدت، لم يرتدِ طربوشا، ليس ممن يهتمون بالأناقة، اعتقدت أنه الخادم العجوز للمتحف، رمقني بنظره وقال:

- عزيز يا بليد تحرك بسرعة وابحث عن طربوشي وأحضره.

تصنمت على المقعد، أربكتني رهبة البهو الواسع، وهالني شارب الخادم ذي المظهر الغريب، فسكن الخوف قلبي، وزادني بلادة على بلادتي، فصرخ بأعلى صوته:

- هيا تحرك يا ولد.

قفزت خوفًا، تتعثر خطواتي، أركض بلا هدف، تتلقفني غرفةٌ بعد غرفة، أبحث عن طربوش العجوز، أسعفني الحظ، بين ركام أحد المكاتب، فلمحت طربوشا، إلتقطته، وعدت به على عجل...يقهقه بأعلى صوته قائلاً:

- اجلس يا عزيز والتقط أنفاسك، وابعد عينيك عن شاربي العظيم، وأخبرني عن رأيك فيه؟

انعقد لساني ولم أنبس بحرف، فعاودني تكرار سؤاله:

- ما رأيك بشاربي يا عزيز؟

تفور الكلمات بداخلي، ولكنها تُحشر في حلقي وتتأبى على النطق.

أتساءل في وجوم:

- هل جاء بي والدي إلى هنا لأمتدح شارب الخادم.

أخاله يبتسم، والشارب يحجب يقيني بتبسمه.

يقول بانفراجة يسيرة:

- حينما أسألك عن شاربي، أجب "شاربك عظيم يا بيك" هيا قل ذلك وأفرح قلبي العجوز.

قلتُ مُرتعبًا:

- شاربك عظيم يا بيك.

تابع في سخرية:

- وطربوشي؟ أليس عظيما أيضا؟

أصر على أن أردد خلفه "شاربك عظيم، طربوشك عظيم"، ثم سألني:

- أين وجدت الطربوش؟ وماذا كان بجواره؟ وخلفه وأمامه وعن يمينه ويساره؟ ما لون المكتب؟ وما عدد اللوحات التي تزين الجدار؟ وما عدد المقاعد والأقلام؟ ومنفضة السجائر كم عُقْبًا فيها؟ والدك أخبرني أن ذاكرتك خارقة ولا تنسى شيئا.

أسئلته متعددة، لا تحصوها النظرة الأولى لولد صغير لم يعر اهتمامه سوي بالبحث عن طربوش في مكان يجهله، ولكنها أسهل من سؤاله عن شاربه، تلعثمت كثيرا، ثم بهرته إجابتي؛ ولم أخطئ إلا بالأعداد.

ابتسم قائلاً:

- عزيز...من اليوم أنت مسؤول عن طربوشي وشاربي، ومهمتك أن تراقبهما حتى لا يضيعا مني، الويل لك إن حدث ذلك.

هذا الذي انحنى ظهره من ثقل رأسه وشاربه، هذا الذي اعتقدته خادم المتحف كان روهان بيك، ولن أتردد في قتل أي شخص يحاول أن يسرق مكانتي عنده.

يعلو نهيق الحُمُر، ينبئ بانتصاب أذنيها وصدْق لقمان الحكيم...لم تكف الحُمُر عن التواصل؛ نهيقٌ بنهيق...قافلةٌ تطالع من بعيد، يطوقها عدد كبير من الجند، ويبدو أن الخمسة الذين وصلوا مسبقا ليسوا سوى طليعة هذه القافلة، التي ضمت عشرة جمال لا تشبه جمالنا

الهزيلة الجرباء؛ كانت سمينة ونظيفة، تفوح منها رائحة الرفاهية والدلال، ولا ينقصها إلا ربطة عنق وحذاء إيطالي لتفوز بلقب "جمل باشا".

أما الحمولة التي حملتها فقد سترها سجاد أحمر فاخر لحجبها وجلب العيون عنها، يحرسها أكثر من خمسين خيالا مدججًا بالسلاح، وبجوارها الكثير من البغال والحمير، وعدد كبير من الحمالين والخدم والعبيد.

وصلت القافلة، ولم يلق علينا التحية أحد، ولكن دوابهم تواضعت، أو تجاوزت حدود التهذيب واختلطت بدوابنا الجرباء، فانزعج الساسة وحاولوا الفصل بين جمالنا الهزيلة الجرباء التي سكنها القُراد، وحمولتها الخشبية، وبين جمالهم المدللة وحمولتها الغامضة الملفوفة بالسجاد الأحمر.

انفرجت أسارير حيان بعد تيقنه أن هذا الحشد في مهمةٍ خاصة، وليس في مطاردته، البيك يسأل حيان وقد أثار استغرابه الحراسة المشددة على القافلة، التي يبدو أنها في طريقها إلى خارج فلسطين، ولكن حيان كان أكثر منه استغرابا وقال:

- لم يحدث أن احتاجت قافلة جمال لمثل هذه الحراسة إلا إن كانت ترافق فردا من القصر.

وسأل البيك:

- وهل ترى ما يشير إلى وجود أحدهم؟

حيان:

- حركة الجند واقترابهم من الجمال دون كلفة تنفي مرافقتهم أحدا.

البيك:

- هذه الجمال تحمل شيئا ثمينا.

وكأنه ينقصني المزيد من الغموض والأسرار؛ أرغب في اكتشاف ما تحمله هذه القافلة، وإن كنت أفضل اكتشاف سر صناديق الكهف أولا. رماني البيك بنظره وشدَّ أنفه بالسبابة والإبهام عدة مرات، أدركت أنه يطلب مني أن أقوم بما نهاني عنه:

- اذهب واشتم يا عزيز.

أجبته بابتسامة:

- سمعًا وطاعةً، أنا من سيشتم لك الأخبار.

أخذت أهبة الاستعداد لممارسة هوايتي المفضلة؛ أزلت ما علق على ملابسي من غبار، وأخرجت ربطة العنق وارتديتها، ثم اقتربت من الخدم والحمالين، لم أفشل يوما بدفع الآخرين على الثرثرة. أسير في تأنٍ تجاه الأقرب، وألقي تحيتي:

- صباح الخير أيها الأخ الكريم.

أحنى رأسه ولم يجب، حدثته عن مكانتي المرموقة، وكان حري به أن يطرب ويفرح لتواضعي بالحديث معه، إلا أنه اكتفى بتحريك رأسه عدة مرات. هذا الخادم البليد صمت وتجاهلني، ثم همهم وغمغم...تبين لي أنه أبكم لا يبين كلامه، تركته وانصرفت إلى غيره؛ ذو لسان طويل لا فائدة منه، ما دام يجهل العربية والتركية...انتقلت إلى آخر؛ كان عربيًا، ولم يُفتن بمكانتي المرموقة، وتجاهلني الحقير فتجاهلته، وكنت أرغب أن أصفعه لأعلمه كيف يكون التعامل مع أمثالي من الباشوات.

قررت التخلي عن تواضعي والابتعاد عن العبيد والخدم، فانتقلت إلى الجنود الأتراك، الذين يجيدون احترام من هو بمكانتي، اقتربت من أحدهم؛ أحنى رأسه وثرثر، وأخبرني أنهم قد استلموا حراسة القافلة على مشارف حيفا، وأن حراستها السابقة عادت من حيث أتت، والقائد وحده مَنْ بحوزته أسرار القافلة. أعي جيدًا أن الأسرار دوما تكون عند الخدم لا الجنود الحمقى.

وفجأة...يلوح خيَّال قادم من الأفق البعيد يسابق الريح، وما هي إلا برهة حتى وصل إلى المحطة، ظهر عليه الإرهاق الشديد، يتضح جليًّا أنه قطع مسافة طويلة دون توقف؛ كاد فرسه أن ينهار من الإعياء، ترجل يلتقط أنفاسه، وبدا على وجهه الارتياح بعدما جالت عيناه

في الأرجاء، وكأنه قد عثر على ضالته، استقبلته الجنود بالسلاح، وبادر بالسؤال عن القائد، وأشار إليه واقترب منه وتحدثا قليلا .بعد نصف ساعة من وصوله حضر خيال آخر، يزيد عن سابقه إرهاقًا، ويفوقه مكانة؛ لقد كان هدف الأول الوصول سريعا لمنع القافلة من التحرك لحين وصول الثاني.

فور وصوله قدموا له الماء، كان في عجلة من أمره؛ فلم يرح نفسه قليلا، أخذ يتجول بين الأفراس، واختار واحدًا؛ استبدال مطيته ينبئ بأن فرسه لم يعُدْ قادرا على حمله، كما ينبئ بقدومه من أقاصي البلاد، أو من خارجها...استلم زمام القيادة، وبدأ يعيد ترتيب الجند، ويصدر أوامره طالبًا من الجميع الاستعداد للتحرك.

استعد الجميع، وبينما نحن في شغف المراقبة وحيرة التساؤل عما تحمله هذه القافلة التي أشرفت على الرحيل مع الكثير من الغموض، أشار ذلك القائد بيده نحونا في استعلاء، قائلاً:

- هيَّا... تحركوا.

اختلاط الدواب أوجب اختلاط البشر؛ وهكذا اختلطت الأمور على قائد الغفلة ليظن أننا ضمن قافلته...يتوجب على أحدنا أن ينير عقل هذا المغفل، ولكن طريقته الجافة في إلقاء الأوامر، وحثنا على الإسراع استفزت روهان بيك، فطلب منا أن نتجاهله ولا نلقي له بالا، فثار غضب المغفل، وقارب الخطو سائلاً:

- لماذا لا تتحركون! هل أنتم بحاجة لمن يحملكم!

روهان –كعادته–أغمض نصف عينه اليمنى ونظر إليه باليسرى، وشد عضلة خده وقال باستهتار:

- أتعرف من أنا؟

ابتسم المغفل وسأل ساخرا:

- ومن تكون يا باشا.

فقال:

- أنا روهان بيك، والصدر الأعظم ما كان سيكلمني وهو على ظهر حصانه.

المغفل ساخرًا:

- تشرفت يا سيدي، هيا تحركوا، الرحلة أمامنا طويلة ولا وقت لدي لأهدره بالاستماع إلى الصدر الأعظم ذاته.

يبدو أن روهان قد أدرك أن الحديث مع هذا المغفل لن يجدي نفعا، فابتسم وسأله ساخرا:

- وإلى أين تريد أن نتحرك يا سمو الأمير.

قطب الرجل حاجبيه وقال في حزم:

- لدي أوامر بإعادتكم جميعا إلى القدس هيا تحركوا.

البيك في دهشة:

- وما علاقتنا بك لنعود معك إلى القدس، هل جننت! خذ قافلتك وعد بها إلى جهنم، فلا علاقة لك بنا.

الرجل في هدوء:

- سيدي...الأوامر واضحة؛ سيرافقني الجميع إلى القدس ولن أستثني أحدًا، ولو كان الصدر الأعظم برفقتكم لأجبرته على مرافقتي.

البيك يكاد يفقد صوابه أمام غباء هذا الرجل، ويقول:

- أيها الشاب إن الأمر تشابه عليك، نحن طاقم آثار وعائدون إلى تركيا، وما نحمله معنا لا علاقة له بكم.

المغفل:

- سيدي...سنعود جميعا إلى القدس.

روهان يتمالك أعصابه:

- هل تعرف ماذا يوجد في الصناديق الخشبية التي تريد أن نهدر وقتنا بإعادتها إلى القدس، تعال لترى بنفسك أيها الأحمق.

قفز قلبي من الفرح، فقد حانت اللحظة لأرى ما تحويه الصناديق من أسرار إلا أن المغفل قد خيب أملي في رده:

- ليست مهمتي أن أعرف ما تحمله الجمال، مهمتي أن أصل بها إلى وجهتها، ولن أتهاون مع كل من يعترض طريقي ويخالف أوامري.

إن لهجة القائد الجديد وما تحمله من تهديد ووعيد زادت من استفزاز البيك، ولكنه اضطر لتهذيب حديثه بعدما لَحَظه يلامس مسدسه، حاول البيك محاولة يائسة لإيضاح سوء الفهم الواقع من جراء تصادف وجود جماله بالمحطة قبل مجيء القافلة، واستنجد بالجنود ليؤكدوا كلامه.

وعلى الرغم من تأكيدات الجنود على كلام البيك قد أغلق القائد أذنيه دون أي حديث، فالقافلة لا تعني له سوي جمال وبغال وحمير تحمل أسرارًا عسكرية لا يجوز كشفها، وهو لا يرتبك عند سماع أسماء الباشوات، ولكنه تنازل تعاطفا مع مكانة البيك وكبر سنه، وعرض عليه أن يستقل القطار دون أن يصحب معه أي شيء حتى حقائبه الخاصة التي هي أيضا في نظر القائد تحوي أسرارًا عسكرية.

جلس روهان على الأرض مثل الأطفال، وأعلن أنه لن يبرح مكانه، ولن يغادر من أتباعه أحد، وهنا اقترب حيان من قائد الغفلة، وطلب منه أن يمنحه خمس دقائق لينهي الخلاف، ثم اقترب من البيك ورجاه أن يتنازل قليلا ويصبر، وإلا ستكون النتائج وخيمة، وأشار بعينيه تجاه المغفل وتمتم:

- هذا الرجل ينتمي إلى الفرق الخاصة ولن يتوانَ عن إطلاق الرصاص على مَنْ يخالفه.

رضخ روهان، وقرر أن نرافقهم جميعًا؛ ربما شعر بأنه لا يجوز التخلي عن فريقه، أو لعله ما كان ليطيق مفارقة صناديقه الخشبية، وفي طريقنا إلى القدس كنا نتحرك في حرية تامة؛

نتحدث مع من نشاء ما دمنا لا نخرج عن خط القافلة، ولا نقترب من حمولتها، ولا مما نحمله من حقائب تخصنا.

البيك يسأل حيان:

- ماذا تكون الفرق الخاصة؟ ولمن تتبع؟

حيان:

- لست أدري، ولكن أشك بأنهم تابعين لجمال باشا، فهم وحدهم الذين يملكون صلاحيات كبيرة حتى على الجيش.

تواصل حديثهما حول التشكيلات الخاصة...السرخِفية...الفِرَق...أمَّا أنا فلا يهمني من يكونون، همِّي الأوحد أن أعرف ماذا تخفي هذه الصناديق اللعينة، وكذا ما تحمله الجمال السمينة.

أرهقني التفكير، ولم أستطع إطفاء عقلي الفضولي، وكنت –خلاف الجميع–أجد ما حدث في حيفا مسليا، وشعرت أننا على أبواب مغامرة شيقة؛ أُلحقت قافلتنا جبرًا بقافلة أخرى لا ندري من أمرها شيئًا، أصبح الجميع تحت إمرة قائد لا يعرفونه، حقائبنا ممنوعة عنا، ولكن قِنِّينَة البيك ملآنة بالعرق، فشرب منها حتى ثمل.

القافلة تسير والحمر تنهق وروهان يسأل بأعلى صوته:

- هل هذه الطريق تأخذنا إلى روما أم إلى القدس؟

فيقترب منه حيان:

- لا...هذه الطريق أقرب إلى المرج منها إلى القدس.

البيك ساخرا:

- كل الطرق تؤدي إلى القدس يا حيوان.

أسعدني عودة البيك لشتم الملازم، وتمنيت لو أنه شتم رشيد اللعين أيضًا.

وصلنا جنة الله في أرضه؛ سهل أخضر فسيح، لا نهاية له، تفوح منه رائحة الطبيعة النضرة، وتغمرك رغبة بتأمله طويلاً، أو الاستلقاء على عشبه لنومة أبدية.

نلمح خيمًا بيضاء ناصعة، وعلمنا أنها وجهتنا، يخبرنا حيان أننا في مرج ابن عامر، وشعر روهان بالارتياح؛ فروعة الخيام تدل على وجود باشوات وقادة كبار، ليطالبهم باعتذار رسمي لما لحق به وبمكانته من إهانة على يد ضابط صغير تافه، وحين وصولنا كانت الخيام فارغة، وحولها مجموعة من الخدم، روهان يدور بين الخيام لعله يجد باشا أو بيك وعاد إلينا، ثم قال:

– هذا المكان مريب؛ فهو يخلو من الطرابيش الثمينة.

حقيقةً...لقد كان المكان يخلو من كل شيء، أكثر من أربعين خيمة فارغة لا تحوي شيئا، بجوارها بضع جند مستلقين على العشب الأخضر، لا يبدو أنهم قد كلفوا بحراسة أي شيء.

على الجانب الآخر للخيم جلس خمسة أشخاص، يخالطهم الكثير من الدواب، وعلى مقربة منهم جلس رجل ضخم لفت انتباهنا قليلا، وعندما انتصب على قدميه كان عملاقًا؛ تجاوز طوله المترين، ووزنه الثلاثمائة كيلو، جبل بشري متحرك، يرتفع رأسه عن سنام الجمل، قصير الشعر، خفيف اللحية، حليق الشارب، يرتدي سروالا حتى ركبتيه، حافي القدمين، ممزق الثياب، تكشَّف صدره الأشعر، وفي عنقه سلسلة كالتي يُربط فيها البغال...بدا بينه وبين الخدم نوع من الانسجام، أما الجنود فقد اختاروا الانزواء عنه. وعليَّ تجنبه أيضًا؛ فالتلصص بالقرب منه قد يكلفني حياتي.

اقترب أحد الخدم يسألنا الطعام، فهممت بطرده ليتسول بعيدًا، ولكني أدركتُ ألا ينبغي أن أفوت فرصة للثرثرة قليلا؛ فسألته:

لماذا لم يطعمونكم؟

أجاب: الطعام ليس لنا، إنما هو للعملاق، فاقتربت منه متظاهرًا بأني أبحث عن طعام بخُرج الحمار، وبدأت التحقيق معه سريعًا؛ علمت أنهم مجرد حمالين رافقوا المعلم سلامة والحاج حسين بالأمس، لتحميل الخيام ونصبها مقابل أجر.

وسألته: من يكون سلامة وأين هو؟ أخبرني أنه ذهب ليشتري طعاما، وأنهم في انتظار عودته ليدفع أجرتهم ويعودوا إلى بلدهم، وأيضا عرفت أنه طُلب من الجنود أن يرافقوهم فقط.

وأثناء حديثنا ظهر عربي في بداية الخمسينيات من عمره يرتدي الكوفية والعقال، قد غزا الشيب لحيته، سمين ويبدو عليه الثراء، يحمل بين يديه الكثير من الخضروات، قام بوضعها بين يدي العملاق الذي أخذ يلتهمها في شراهة، وعرفت أنه سلامة المقصود.

لم يكن الجميع على دراية بما يحدث، حتى المغفل الذي قادنا إلى هنا لا يعرف ماذا يفعل، ولم يطلب منا شيئًا وكل ما قاله وردده "انتظروا هنا...انتظروا هنا" لقد كان مُهتمًا بمراقبه وحراسة ما تحمله الدواب، ولم يشفق عليها، ويسمح بإنزال حمولتها حتى ترتاح قليلا.

بحثنا عن ماء لترتوي عروقنا، فأرشدنا سلامة العربي إلى عين ماء، كانت تبعد حوالي ثلاثمائة مترًا، ذهبنا ولم يأبه أحد لغيابنا؛ فالجمال والبغال هي المهمة، وقد منعوا الاقتراب منها، وأخضعوها لحراسة مجنونة، وكل المحاولات لإقناع المغفل بفتح حقيبة البيك بحجة إخراج دوائه بائت بالفشل...لا يجوز الكشف عن الأسرار حتى حقيبتي الغبية التي فيها حذائي الإيطالي تحولت إلى سر عسكري، ولو علمنا ما يخبئه لنا المستقبل، لكانت تلك فرصة مثالية للرحيل.

تتوافد القوافل الصغيرة إلى المخيم من كل حدب وصوب، الواحدة تلو الأخرى، حتى بلغت ستة عشرة قافلة، تضم كل واحدة عددًا كبيرًا من الدواب، ما وصلت من الجنوب كانت بحراسة الجند، أما التي وفدت من الغرب لم ترافقها حراسة؛ يبدو أنها لا تحمل ثمينًا.

استوقفتني إحدى القوافل يقودها عربي يشبه سلامة رداءً وخِلْقةً، وفور وصوله توجه إلى العملاق وأمسك يده، وأخذ يقوده كطفل صغير، مرددًا:

- (امشِ معي راح ترجع معي يا طبيلة)

التصقت قدما العملاق بالأرض، وركبه العناد كبغل حارن، وأخذ يصرخ وينادي:

- سمامه...سمامه.

هرع إليه سلامة مسرعًا، وقال للعربي:

- اتركه يا حاج حسين، اتركه وصلِّ على النبي المختار.

لم يتوقف الجدال، والعملاق يردد "سمامه...سمامه"، وينتهي الجدل بفوز سلامة؛ فامتطى الآخر أحد البغال وعاد أدراجه، ولم يدرِ وقتها أن الحظ حالفه لابتعاده عن هذا المكان الملعون، أما سلامة فأمسك بيد العملاق طبيلة، وأجلسه بجواره، وأخذ يمسّد شعره حتى ألقى طبيلة رأسه الضخم في حجره.

قبيل مغيب الشمس وصلت ست عربات، وعلق حيان: قلما يجتمع هذا العدد في مكان واحد. إحداهم كانت مزودة برشاش، اعتقدنا أنها ناقلة أسلحة وذخائر، ولكنها كانت تحمل آثارا وذهبا، وبعض الشخصيات المهمة.

تتغير ملامح المكان في سرعة خاطفة؛ تحول الجزء الشرقي إلى ثكنة عسكرية محظورة، يُمنع الاقتراب منها، وحينها بدأت القوافل المحروسة بدخول الثكنة، والعودة بعد إفراغ حمولتها التي لم نتبينها، اكتظ المخيم بالجند والخدم والحمالين؛ عرب، وأفارقة، وبلغار، وأكراد، وأتراك ومجهولي الهوية.

أتجول من زاوية إلى أخرى في حرية، ولم يعترضني أحد؛ عرفت عربًا وأكرادًا وزنوجًا، حادثت عددًا من الجنود الأتراك...أعتقد أن روهان قد بالغ في ظنونه؛ فلم أجد ما يثير الريبة، وعلى الرغم من تأكيد حيان على أن اليد العليا للجيش، ونفي وجود الفرق الخاصة، إلا أن روهان أخذ يردد كالببغاء:

- مريب...مريب...أمر مريب.

اختفى حيان بين الخدم متجنبًا الاقتراب من الجنود، بينما لم يتوقف روهان عن مطاردة كل ضابط، مطالبًا مقابلة أحد المسؤولين، وعندما لم يحظ إلا بالمماطلة في كل مرة، حاول الاقتراب من الخيمة الكبيرة؛ حيث توقفت العربات العسكرية وحيث أفرغت بعض القوافل حمولتها،

فاجتمع عليه جنود غلاظ، وأوشكوا على إهانته، فما منعهم سوى كبر سنِّه وبعض ما بقي من عظمة البكوية.

الجميع يجهل ما يحدث هنا، كنت أعتقد أن الأسرار التي أخرجناها من الكهف هي ما تستحق الحراسة والاهتمام، وتبين ألا يأبه بها أحد غيري.

ومن الجزء الشرقي المحظور، أطل ضابط برتبة يوزباشي؛ رفيع العود، طويل الأنف والساقين، قريب الشبه من طائر "أبي سعد"، قصد إحدى خيام الخدم، الواقعة جنوب المخيم، ولم يمكث إلا دقائق معدودة، ثم خرج وبرفقته شاب ملثّم، شديد سواد الثياب، قصير القامة، ضئيل الحجم، حركات سيره تثير الريبة، يتبعه –كظله– زنجي؛ فارع الطول، مفتول العضلات، أفطس الأنف، يدب على الأرض كالفهد، تسبق عيناه خُطا سيده، باحثةً عمَّا ينقض عليه؛ لقد كان الحارس الشخصي للشاب الصغير، يرافقهما شاب آخر يمشي على رؤوس أصابعه، تجبره مِشيته على التمايل، ملابسه غريبة عجيبة لا تليق بفتاة..يتوجهون نحو الجِمال الممنوعة، ليفصل الشاب الملثم الجمال السمينة عن جمالنا الهزيلة في صمت، وتعود ثلاثتهم إلى خيمتهم في هدوء...لم يكن الملثم في حاجة ليفحص حمولة عشرات الجمال الأخرى؛ فهو لم يقترب من جمالنا الهزيلة، ولم يحاول إلقاء نظرة على ما تحمله؛ تساءلت من يكون! ولماذا يسكن بين الخدم! ولِمَ لمْ يتواجد بين الضباط في الجهة الشرقية للمخيم! وهل خادم بحاجة لحارس ومرافق!

أمَّا أبو سعد فطلب من الساسة جلب الجمال لخيام الجزء الشرقي، لتفرغ حمولتها، ثم تعود مع الساسة.

بعدها ابتعد الجنود عن الدواب، ورُفع الحظر، وقمنا جميعا بإنزال الحمولة لإراحة الدواب، ولم يعد البيك مهتمًا بمراقبة الصناديق، وصب اهتمامه على الحقائب وزجاجات العرق.

الكثير من الأسرار تشغل بالي، ولم تتوقف عن اللَّح على فضولي المريض؛ أرغب في اكتشاف سر الصناديق، وسر خيمة الخدم الغامضة، وسر الجهة الشرقية المحظورة، أرغب في تفتيش حقائب رشيد وحيان، وقراءة مفكرة البيك وما كتبه عن الكهف.

انطلقت لأكتشف سر الصناديق التي لم يكترث بها أحد، وروهان –كعادته–لم يفشل يوما في قراءة أفكاري؛ فباغتني من الخلف:

- لقد قلت لك يا عزيز، الصناديق فارغة لا تحوي شيئا، لا تتعب نفسك، صناديقهم هي الثمينة.

وهنا لم أتمالك نفسي وقلت له بحدة:

- إذًا اسمح لي برؤية ما فيها حتى لا أفقد صوابي.

فضحك وقال:

- اذهب وألق نظرة أيها الأحمق قبل أن يقتلك الفضول، يوجد بها حجارة لا تساوي شيئًا، وفي أول فرصة سأتخلص منها، ألا تصدقني يا عزيز؟ الشيء الوحيد الثمين هو في حقيبتي وليس في الصناديق.

كلماته هوت على رأسي كمطرقة حديدية، وتركني عالقا أمام خيارين؛ الأول أن أسعى إلى الصناديق متماديًا في تكذيبه، والثاني أن أحترق كل لحظة بنار الفضول...البيك يعي جيدًا أنى أعجز عن كبح فضولي، كما وعى جيدًا أني لا أصدقه؛ اقترب مني وأمسك يدي، ثم قال:

- أتذكُر يا عزيز ما علمتك إياه في لقائنا الأول؟

أحنيت رأسي خجلاً، وكيف لي أن أنسى ذلك اليوم؛ لقد ألبسني رداء احترامي لذاتي؛ أقنعني بأنني لست أبلها، لم يعِ الآخرون ما أعانيه كما وعيه البيك.

رآني الجميع بليدًا، ولم يكن الحسد سبب بلائي، وإنما خلل في ذاكرتي يتعلق بالأرقام الفردية، والألوان، وبعض الكلمات؛ عقلي يتوقف عن الحركة ويعجز أمام الأرقام الفردية التي لا أحفظ منها سوى الواحد.

علمني البيك كيف أحفظ الأيام والأشهر، والألوان، علمني كيف أحوِّل الرقم الفردي إلى زوجي بزيادة الواحد الذي أحفظه؛ علمني إغلاق ثغرات عقلي، عالج قصوري، لقد اكتملت ذاكرتي بفضله، ومذ وقتها لم يتمكن رقم فردي من الهروب. لم يتوانَ عن تعليمي وتدريبي لثماني

سنوات متصلة قضيتها في عالمه، ليعيد لي ثقتي، ويكون لي أبًا ومعلمًا وصديقًا، ولو لم يكن في حياتي لكنتُ ذاك الولد البليد التافه. مازالت كلمته تترد في أذني منذ اليوم الأول:

- ثق بي يا عزيز، لن أسخر منك.

لو قال لي، إن الشمس تشرق من الغرب لصدقته، ولكن صناديق وحجارة لا تساوي قرشًا!؟ ابتعدت عن الصناديق، وأعلم أنني لن أتوقف عن التفكير في أسرارها.

انتصف الليل واكتمل القمر بدرًا، وشغلت تفكيري بمراقبة الخيمة الغامضة وحينما حاولت الاقتراب وجدت الزنجي بانتظاري؛ فعدت أدراجي خائبا.

قضينا ما تبقى من الليل بالخيام، شاركت البيك وحيان ورشيدًا خيمة واحدة، لم يتوقف رشيد عن الشخير، وكان شخيره غريبا "اووووووخ" ومن الطرف الآخر يجاوبه البيك "وووووغغغ"؛ سمفونية متناسقة من الشخير...حيان لم يشخر، ولعل شخيره يتلاشى أمام العزف الثنائي لرشيد والبيك. غط الجميع في نوم عميق، أمَّا أنا، فأنَّى لمثلي أن يرتاح أو يسعد! أشعر بأني قتيل الأسرار التي تطبق على عقلي من كل جانب.

تسللت بهدوء القطط، وفتشت حقيبة رشيد، لم يكن فيها سوى بعض الملابس المتسخة، وغيارا داخليا أشك أنه قام بغسله يوما؛ أقسمت ألا اقترب من حقيبته مرة أخرى ولو كانت تمتلئ ذهبا.

أمَّا حقائب حيان فكانت مَلأى، وتفتيشها أهدر وقتي؛ العديد من الرسائل بالتركية والعربية، وبعض الصور، وأشياء أخرى لم أتفحصها جميعا؛ فلم تكن ذات أهمية.

أمَّا عن حقائب روهان، فأنا مَنْ يعدها ويرتبها، وأعرف كل صغيرة وكبيرة فيها، وبإمكاني فتحها كيفما شئت دون حرج. بحثت عن دفاتر البيك وملاحظاته، وفتشت كل الحقائب دون جدوى؛ حرصه على إخفائها ينبئ عمّا تحويه من أسرار.

أذكر ذلك الجيب السري أسفل الحقيبة البنية، ولم يفطن إلى وجوده أحد، هذا ما كان يعتقده البيك، ولم يكتشف يوما أني اعتدت على تفتيش حقائبه بسبب وبدون سبب، لقد اكتشفتُ كل مخابئه السرية منذ سنوات.

جرة ذهب

فوزي عبده

شكرا لمرورك على هذه الرواية
إن كانت تستحق... انصح
أصدقاءك بها ولا تبخل عليها بعدة
كلمات على حسابك
الخاص.

عدت إلى الحقيبة البنية وفتحتها، أزحت الكثير من القطع المعدنية التي كان يتعمد أن يتركها متناثرة أسفل الحقيبة؛ لتخفي الجيب السري؛ وأخرجت واحدًا من الدفاتر الست التي قام بإخفائها، وبجوارها حجر كريم بحجم البيضة لونه أحمر، وقد بدا أنه سرقه من الكهف، أخذت أقلِّب الصفحات، ولم يكن فيها سوى رسوما وأرقاما ورموزا لا معنى لها، أعدته وأخرجت آخر، أتصفحه بسرعة.

كان روهان قادرًا على كتابة مئات الكلمات خلال دقائق، ولكن رداءة خطه الذي يُعدُّ شيفرة في ذاته، احتاج الكثير من الوقت لقراءته، مما أتعبني كثيرًا. أعدت الدفاتر إلى الجيب السري، على أن أعود لاحقا، وخلدت إلى النوم.

طلع صباح الجمعة واستيقظ الجميع، وأعددت القهوة، ومازالت روعة القمر في إصرار على عدم تركنا بالرغم من أن الشمس قد شرعت تنشر نورها في كسل.

البيك شارد الذهن، تسقط عينه ذابلةً في فنجان القهوة، ثم يهيج ثائرًا، يقسم أنه سيحرق هذا المخيم إذا لم يخرج إليه أحد المسؤولين، توجه إلى أحد الضباط وهدد وتوعد، فخرج إليه ضباط آخر برتبة يوزباشي، كان مهذب الحديث، امتعض بعدما أدرك الخلط الذي أهدر وقتنا، وغيَّر مخطط سيرنا، ثم طلب من البيك أن يشير إلى الضابط الذي أجبرنا على مرافقته، ولبسمة حظه لم يجده منا أحد، فطلب الضابط إذنًا بالانصراف على أن يعود بعد استعلام الأمر، ثم عاد بعد هنيهة، وبرفقته ملازم ثانٍ، وأمره أن يوفر لنا كل ما نحتاجه وأن يرافقنا إلى محطة القطار أو إلى أي جهة نريدها...ودَّعنا...تنفسنا الصعداء...لم يقدم لنا الملازم سوى القليل من التمر؛ هذا ما وجده.

شكر البيك الملازم، وأعفاه من مهمة مرافقتنا قائلاً:

- اذهب يا بني سنتدبر أمرنا.

نتشارك في تحميل الصناديق وزمّها على الجمال استعدادا للرحيل، وتطوع العربي سلامة آمرًا عملاقه طبيلة بمساعدتنا، فأذهلتنا قدرته الجسدية، حتى خُيِّل لنا أنه قادر على حمل بغل على كتفيه، وقال سلامة:

- الجمال ليست كالبغال، طريقتكم في شد الحبال ستؤذيها، وتتسبب بتقرحات يشكركم عليها القراد والذباب، فشكرناه على نصحه ومساعدته، وقبل أن نتحرك همس لنا القدر: "لا تفرحوا كثيرا فرحلتكم لم تبدأ بعد".

من الطرف الآخر للمخيم يسرع نحونا اليوزباشي المهذب بخطوات مرتبكة، يداوم على مسك أذنه وتركها، ثم يأسف على إخبارنا بضرورة أن نرافقهم باتجاه سوريا لدواعٍ أمنية، ومنها بإمكاننا التوجه إلى تركيا، وأكد على حرصه أن نصل وجهتنا بسلام، وعلى أن تتوفر لنا سبل الراحة، وقبل توديعنا وعد البيك أنه سيقوم بزيارته في المتحف، وأبلغنا أن القافلة ستواصل السير بعد ظهر اليوم.

لم تمر ساعة حتى غادرت المخيم ثلاث عربات، وكان الضابط المهذب ضمن المغادرين، ولم تبلغ الساعة التاسعة صباحا حتى دبت الحياة في المخيم واستعد الجميع للتحرك بتحميل الجمال والبغال على عجل، وحثنا أبو سعد على الإسراع، فقمنا بتحميل جمالنا الهزيلة بالصناديق للمرة الثانية وشددناها بمساعدة سلامة، وهنا همس حيان للبيك:

- دعنا نتخلص منها ونوفر علينا مخاطر جرها واكتشاف أمرها.

أحنى روهان رأسه، ولكنه ما لبث أن غير رأيه، وقال بصوت خافت:

- إن فعلنا سنثير الشبهات حولنا.

ثم تعمد أن يرفع صوته وقال:

- هيا يا أولاد حمِّلوا الصناديق، ففيها حجارة مميزة جلبناها لبناء قصر الخليفة.

حقيقة ما عدت موقنًا إن كانت هي الحقيقة، أم أنه تعمَّد السخرية، وهنا حدثت نفسي:

- تبا لكم! احتفظوا بسركم فلست في حاجة إليه.

ولم ألبث أن عدت للمراقبة من جديد، ولاحظت أن عدد الجمال التي تخضع لعناية خاصة 90 جملا، وحينما تحركت القافلة الضخمة بقيت الجمال التسعون في مؤخرة الركب

تخضع لحراسة مشددة؛ ففطنت إلى أن هذا العدد الضخم من البشر والدواب كان ساترًا لحماية مؤخرة القافلة.

رافقتنا ثلاث عربات –إحداهم المزودة بالرشاش–لعدة ساعات؛ تنفصل عنا لتلاقينا عند مُلتقى الطرق من جديد.

لم أر قافلة بهذا الحجم؛ لقد امتدت لتتسع لها مئات الأمتار على الطريق، تسير ببطء متناهٍ يلفت انتباه كل بلدة نجاوزها، خرج عشرات السكان لمراقبتها، سار خلفنا الكثير من الصبية، اهتمامهم بالعربات غلب اهتمامهم بالقافلة.

لاحظ روهان بيك أن الطريق لا تؤدي إلى سوريا، فامتدح حيان فطنته، فعنَّفه البيك قائلاً:

- لست حمارًا، ربما لا أعرف هذه البلاد، ولكن بإمكاني أن أعرف أين تقع سوريا، ولا أشك أننا نسير باتجاه لبنان.

كان يشتم ويلعن كل الطرابيش، وكان يردد حينما أصل لبنان سألقنهم درسا لن ينسوه أبدا.

توقيت رحيل القافلة دل على غباء شديد؛ فلم يرحمنا حر الشمس، ونفد منا الماء، واشتد بنا العطش...لم تكن هناك خطة مسبقة؛ فالأمر يتم ارتجاليًا. وبعدما حل المساء استرحنا بجوار عين ماء كان يسكنها بعض رعاة العرب الذين تم طردهم قبل وصولنا، انتظر البعض طويلاً للحصول على القليل من الماء، والجزء الأكبر من الدواب لم يحصل على قطرة ماء، ولم يُسمح بإنزال حمولتها لترتاح قليلا.

لم تصدر أية أوامر بالتحرك، وبدا أن قادة القافلة ليسوا على وفاق؛ لقد نشب بينهم خلاف تسبب في تأخير تحركنا؛ خلافٌ كان رحمةً بالدواب التي حصلت على القليل من الماء، ولمَّا طال مكوثنا غلبنا النعاس، واشتد بنا الجوع، ولم يتبقَ معنا سوى حبيبات تمر مجفف، فحرصت على عدم الاقتراب من مخزون الشوكولاتة والبسكويت، حتى لا يبدأ البيك بتوزيعها على الجميع، لهذا كنت أخرج بعض القطع –فقط–مُدَّعِيًا نفادَها.

إننا في الجليل، هذا ما أخبرني به سلامة حينما وقف بجانبي قائلاً: إن الدواب ستنفق إن لم يتم إراحتها وإطعامها، ولم يكن يملك من المعلومات ما يستحق أن أهدر عليه حبة شوكولاتة، هو تاجر دواب، واعتاد أن يوفر للمعسكرات العمال والدواب مقابل الأجر، والذي تشاجر معه كان أخوه وشريكه في تجارته، والاثنان من رام الله. وأنه رافقنا مع فيله "طبيلة" مقابل أجر، وقبل أن يقص عليَّ قصته وعلاقته بهذا العملاق، صدرت الأوامر بتحرك القافلة، فأسرع إلى دوابه يقودها.

لم ينتصف الليل بعد، وضوء القمر المكتمل صيَّر الليل نهارا، فلاحظنا أمرا مريبا؛ لقد تبعثرت العربات العسكرية على رءوس طرق متباعدة، ظهر على إثرها خيَّالة سود كالأغربة، ثم صوَّت دوي طلقات نارية شقت صمت الليل.

اقترب أبو سعد اللعين من القافلة وبرفقته عشرة من الغربان السود ضخام الجثث، ليملي أوامره على الجميع، ثم خرجت القافلة عن الطريق السهلة، وأخذت تشق طريقها عبر ممرات وعرة لا تصلح لمسير.

وبعد وصولنا واد فسيح أُمرنا بالتخييم، وحين حاول روهان بيك الاستفسار عما يحدث، عومل بجلافة، فأخذ يدمدم:

- إنها قافلة لصوص ومهربين.

ومع فجر السبت انضم المزيد من الأشخاص مجهولي الهوية إلى القافلة، كاد الظمأ يفتك بنا، والقافلة تفتقر إلى الطعام والماء، ولم يتبق بحوزتنا سوى مطرات لا تكفي لساعات في هذا الحر الشديد.

صادقت مرادًا؛ أحد الجنود السبعة برفقتنا، وتبين أنه من بلدي (بورصة)، فحاولت فهم ما يدور حولنا، وسألته عن طبيعة المهمة التي أوكلوه بها، فردَّ عليَّ ساخرًا:

- اسأل أحد البغال فربما يعرف أكثر منا.

قاطع حديثنا جندي وأبلغه استدعاء عاجلاً من قِبَل القائد؛ فتركني سريعًا.

مر الوقت بطيئا، مازلنا نجهل ما يدور حولنا؛ وَمَنْ يصدرون الأوامر يتلقونها من مجهول؛ هذا أبو سعد ومن معه يقومون بترتيبات جديدة، وفي حمَّارة القيظ تم إعداد قافلة صغيرة وقد ألحقونا بها، وصدرت الأوامر بأن نستعد للرحيل وسارت قافلتنا الصغيرة التي تضم خمسة عشر شخصا فقط، وعدد الدواب يقارب الثلاثين، وبرفقتنا سبعة جنود؛ اثنان خلفنا، واثنان أمامنا، وسار ثلاثة أمام القافلة حتى اختفوا عن الأنظار، فاستبشرنا خيرا بالرغم من وجود أحد الأغربة السود برفقتنا، وكان يراقبنا من فوق صهوة حصانه، يتحرك كريحٍ شيطاني؛ إن نظرنا خلفنا ألفيناه أمامنا، وإن نظرنا أمامنا فإذا به خلفنا، وإن خرج أحدنا عن الطريق لقضاء حاجة، وقف فوق رأسه حتى ينتهي، وهو صامت، لا يتكلم ولا يصدر الأوامر.

أمَّا القافلة الضخمة وما تضمنته من جمال غامضة الحمولة غادرت باتجاه آخر، وما زلنا نصارع طرقًا وعرة، وكلما اعتقدنا العودة لطريق ممهدة، قادنا الدليل عبر أخرى أثارت ريبتنا، ولا حاجة لخبير يخبرنا أنها لا تتجه إلى لبنان، وإنما غيرت اتجاهها عائدة إلى طولكرم ونابلس، أمَّا البيك فأخذ يقهقه ويصفق ويغني:

- شرقنا وغربنا في بلاد السلطان... وغربنا وشرقنا.

ثم يقول:

- ألا يستقر هؤلاء القوم على رأي! أم أننا في مهمة لمطاردة الشمس!

كان يحرس القافلة من الخلف مراد، الذي لم يكن يملك أية معلومة ليقدمها، فعندما سألته:

- إلى أين نحن ذاهبون يا مراد؟

رد ساخرا:

- نحن ذاهبون إلى هناك وعندما نصل سنعود إلى هنا.

وأخذ يقلد البيك "شرقنا وغربنا" وتابع:

- أنا وحسن...

وأشار بيده ناحية الجندي الآخر.

- نسير خلفكم لأنهم طلبوا منا أن نحرسكم حتى تصلوا.

فسألته:

- جيد، وإلى أين سنصل؟

ضحك مراد وقال:

- (والله يا أخي لا أعرف شيئا).

وأخذ يقصُّ قصته الحزينة:

- كنا في المعسكر بنابلس، وهبط علينا ضابط كبير، وأخذ عشرة منا لنرافق قافلة صغيرة إلى جنين، ويبدو أنها هي الأخرى هبطت من السماء، وعندما وصلنا جنين، تبين أنه كان يجب أن يقودنا إلى مرج ابن عامر، وكان من المفترض أن نعود بعد أداء المهمة، ولكن حين وصلنا وجدنا أنفسنا عالقين بين مجموعة ضباط لم نرهم من قبل، ويبدو أنهم قد هبطوا من السماء أيضا، فصبرنا حتى يتم تسريحنا ونعود، واحترنا بأمرنا، فجميعهم ضباط كبار، والكل يلقي بالأوامر على الكل، ولم نعد نعرف من القائد، وإذا بنا نرافق القافلة الكبيرة، وما كنا لنعترض، واليوم جمعنا القائد رفيع العود، وطلب أن نحرس قافلتكم المباركة حتى تصل إلى وجهتها، وأن نطيع الدليل والخيال الذي يسير خلفنا، ولا تسألني؛ فربما تعرف الدواب أكثر منا، ودليل هذه القافلة حمار طاحونة؛ لأنه يدور حول نفسه ونحن نسير خلفه مثل الغنم.

فسألته:

- ماذا تحمل الجمال التي رافقتوها؟

فأجاب:

- تحمل شعيرا.

ثم همس:

- شعير ذهبي يا أخي واضحة متل الشمس.

أثناء حديثنا اقترب الجندي الآخر حسن، وهو أيضا دون العشرين مُمتَلِئ الجسم، متوسط الطول، قمحي البشرة، وسمعنا نتكلم بالتركية فسأل مراد، ويبدو أنه اعتقد أني لا أفهم العربية:

- (مين هذا أبو بريص يا مراد؟)

أجابه:

- (هذا واحد من بلدي.)

لم أرغب بأن أرد على العربي وتجاهلته إلا أنه تابع حديثه:

- (ابن بلدك عيونه عيون نمس، وابن حرام).

ضحك ولم يعترض على نباح العربي، فسألته بالتركية عما قاله رفيقه على اعتبار أني لا افهم العربية، فرد:

- يقول حسن إنك تشبه أحد أقاربه.

كظمت غيظي وابتعدت عنهما، وقافلتنا الصغيرة تواصل سيرها وكلما مرت ساعة كان يظهر الدليل من المجهول برفقته رجل مسلح، ويقترب من الجند ويصدر أوامره، وبعدها تتوقف القافلة لساعة أو أقل، ثم تواصل سيرها.

وممن رافقونا سلامة وفيله طبيلة، وكانت رفقتهم لا تسرني، ولم أكن أحبذ أن أكون بالقرب من هذا الوحش الذي لا يتوقف عن المناداة باسم "سمامه سمامه" ولم يتوقف سلامة عن إزعاج الجميع بتوسل أي شيء من الطعام ليطعم فيله، حتى أنه كان مستعدًا للدفع مقابل الطعام، أو للحصول عليه بأية وسيلة؛ فاقترب مني قائلاً:

- إذا لم يأكل طبيلة سيصاب بالجنون.

في بادئ الأمر لم أفهم لماذا كان يصر أن يفصِّل الحديث عن طبيلة، ولكني اكتشفت سريعا بأن ربطة العنق قد خدعت "سمامه" هذا، واعتقد أني بيك مهم بهذه القافلة الحقيرة، سرني

ذلك كثيرا، وكان بإمكاني أن أعطيه عدة قطع من البسكويت والشكولاتة، ولكنها ما كانت لتسد جوع هذا الفيل، وما كنت لأكترث لو نفق هو وفيله معا، ما دام ذلك سيحدث بعيدا عني.

بعد غروب شمس السبت بقليل، وصلنا إلى عين ماء، وطلب منا الدليل –الذي نصَّب نفسه سيدا علينا–أن نتزود بالماء ونسقي الدواب، ومنحنا نصف ساعة، ولم يرق للبيك أن يتلقى الأوامر من هذا العَفِن، ولم يشعر بالخوف من البغل المسلح الذي يسير خلفه كظله، فرفع صوته عاليًا وما كان غيره ليجرؤ ويفعلها:

- هل تتكرم علينا وتخبرنا كيف سنتزود بالماء ونحن لا نحمل معنا شيئا؟ أم يجب أن نشرب الماء ونختزنه كالإبل؟

الدليل:

- عليك تدبر أمرك.

هز البيك رأسه:

- حسنا...سأملأ مؤخرتي بالماء.

ضحكنا جميعا، وكتم الدليل غيظه، وتركنا واختفى، ثم عاد وقادنا لمسافة تزيد عن الكيلو متر، وطلب من الجميع بشرًا ودوابًا التنعم بالقليل من الراحة، ولحسن حظ الدواب كان هناك الكثير من الأعشاب لتقتاتها، أمَّا نحن فقرصنا الجوع، وهدَّنا التعب، فافترشنا الأرض والتحفنا السماء.

لم يفارقنا الحر حتى أهلك جرعات الماء التي حملناها معنا، فقررت العودة لملء المطرات، ولم أفكر بأن هناك ضوابط تقيد حركتنا، أو أن هناك ما يدور خفيةً، وبخاصة بعد أن تم فصلنا عن القافلة الرئيسة.

لم أخش سوى ملاقاتي ذئبًا أو ضبعًا، مررت بجِوار مراد وحسن، وحينما أخبرتهما أني ذاهب لجلب الماء طلبا مني السقاية بعد عودتي، أما الغراب اللعين الذي يراقب الجميع، فيبدو أنه قد نام، أو أنه لم ينتبه لمغادرتي.

أضاء القمر طريق العودة إلى النبع، وما إن قطعت نصف المسافة حتى لمحت أطياف ثلاثة من الأغربة، فاقشعر جسدي، واختبأت خلف الأشجار، فاخترق أذني ضجيج كسر صمت الليل مؤكدًا أن القافلة الرئيسة تحل عند النبع؛ أعداد ضخمة من الدواب والبشر؛ قد حطَّت الرحال هناك. أترقب في سيري، وأكاد أقترب منها، فانتابني إحساس جرَّني إلى حيث أتيت، لم أعد بالماء، ولكني عدت بخبر القافلة الغامضة؛ فهي لم تغير طريقها، بل لغاية ما تسير خلفنا، لقد أبعدونا عن الماء لنفسح لها سبل راحتها؛ فلماذا أبعدونا؟!

عدت وأخبرت البيك بما حدث فلم يشعر بالارتياح، وقرر أن نترك القافلة غدًا، فسألته إذا كنا سنتركهم، فلِمَ لم نفعل من قبل؟ فأخبرني بأنه لم يرغب بإثارة ضجة تثير العيون تجاه رشيد وحيان، وأن كل الطرق ستأخذنا إلى تركيا في النهاية.

قضينا ليلتنا بالعراء؛ بتْنا على الطُّوى والظمأ. أيقظتنا الشمس بلطف صباح الأحد، وجرَّت خلفها قافلةً محملةً بالمؤن الكافية لألف شخص أو يزيد. أخرجتني فرحتي من وقاري حتى كدت أقبِّل أحد البغال وجميع مَنْ بالقافلة مِنْ حمَّالين، وخدم، وعرب.

كان يقود قافلة المؤن رجل في الثلاثين من عمره يُدعى جمال الدين، فارع الطول، حَسَن القسمات، اعتنى بشاربه ولحيته على طريقة الباشوات، يرتدي قبعة إنكليزية، ولكنته التركية تدل على أنه تركي، كان كريما معنا؛ أعطانا عشرة جمال وأكثر من عشرين بغل محملة بألوان الطعام، وقِرَب ماء جلدية، والكثير من السجائر، لم يبخل علينا بشيء، كم أحببته حينها!

أراد سلامة أن يحصل على المزيد من الطعام لكفاية فيله؛ فاقترب من جمال وتحدث معه بتركية مشوهة، فَرَدَّ جمال بعربية سليمة، ثم دس سلامة بيد جمال نقودا، فأعطاه جمل بعير.

تركَنا ملاك الرحمة جمال الدين وقاد أكثر من مئة وخمسين من الجمال والبغال والحُمُر، وشق طريقه باتجاه القافلة الكبيرة، لم يعد هناك ما نتذمر حوله، وفروا لنا كل شيء حتى الثياب، لقد أسأنا الظن، فهؤلاء القوم حريصون على ترفيهنا، ولكنهم احتاجوا أيامًا لتنظيم هذا الترفيه، والبيك –سامحه الله– لا يتوقف عن التذمر، فعلَّق قائلا:

- لِمَ كل هذا؟ هل نحن في طريقنا للهند؟ هذا الكرم المبالغ به يثير ريبتي. يجب أن نرحل اليوم ونبتعد عنهم.

همَّ حيان بالتعليق على قولة روهان فمنعه انتباهه لاختفاء رشيد، وعندما استعادت ذاكرتي تفاصيل الأحداث تبين أنه لم يرافقنا منذ انفصالنا عن القافلة الأم، ولم يكن من المستغرب؛ فقد كان يمضي جُل وقته مع أصدقاء جدد، ويبدو أنه بقي بإرادته. ثارت شكوك حيان متوهمًا رؤية رشيد بالأمس، فأخرسه البيك قائلاً:

إن مرت نملة أمام عيني عزيز لن ينساها إلى الأبد، وسيصفها دون الخطأ في جنسها.

واخذ البيك يشير بيده وينادي على الدليل وكأنه أحد التابعين له، فاقترب منا ودار حديث شيق وممتع، وبذل كل منهما جهده للاستهزاء بالآخر...روهان:

- أريد أن اسأل حضرتكم أين نحن بالضبط؟
- لماذا تسال؟
- لأني قررت حرمان نفسي من رفقتكم الطيبة.
- رفقتكم تسعدنا ولا نرغب أن تتركونا.
- للأسف نحن مضطرين لذلك.
- للأسف لن يسمح لكم بذلك قبل الوصول إلى وجهتنا.
- ومن سيمنعنا؟
- الجيش سيمنعكم.

حسم الدليل الأمر؛ لن يُسمح لأحد بالانفصال عن القافلة قبل بلوغها وجهتها. لم يحزنني ذلك، مادام بحوزتنا طعام وشراب، فما أروع مذاق الطعام والشراب بعد مرارة الجوع والعطش!

وسامح الله البيك، لم يساعدنا الاستمتاع بهذه المغامرة الجميلة، وأصر على إزعاجنا بشكوكه وظنونه، وكان الأجدر به أن يعترف بهرمه وقصور طاقته عن مثل هذه الرحلات، بدلاً من زرع الشك والخوف في نفوسنا بتكراره:

- مريب...مريب...هذا أمر مريب. ندور وندور بلا هدف، هذه القافلة تهرب من شيء ما، ولو كانت الدولة على علم بها لما سارت تحت جنح الظلام.

داوم على ظنونه فأحاط بنا، وأخذنا نحلل ما يدور حولنا، فقبع في عقولنا أن رحلتنا لن ترسو بمكان، ولم نكن بحاجة لأكثر من يوم بأي اتجاه لنصل إلى لبنان، أو الأردن، أو الجولان، وما نحن إلا قافلة لا قيمة لها وظيفتها تمويه النظر عن القافلة الغامضة التي تسير مُخبَّئَةً في ظلال سيرنا.

لم تمر ثلاث ساعات منذ أن تركنا جمال الدين الكريم حتى عاد إلينا ومعه جزء من دوابه ومرافقيه، كان واضحا أنه ترك كل ما أحضره برفقة قافلة أبي سعد، أحببت هذا الجَمال كثيرا، ورغبتُ أن أوثق علاقتي به، ولكن لم تواتنِ الفرصة. تحركت القافلة، وبعد ساعات بلغنا عين ماء لم يُسمح لنا بالتوقف عندها، وبعد ما يقارب الساعة بلغنا عينًا أخرى لنرتاح عندها جيدًا؛ فالإنطلاق بعد الغروب.

لم تكن هناك أسرار لأكتشفها والثرثرة من حولي تثير الضجر، جَمال هو الوحيد الذي يثير فضولي، ولكنه ذهب للنوم. "سمامه" أعد القهوة وجلس تحت شجرة وانضم إليه سالم؛ أحد ساسة الخيل، وشاب عربي اسمه احمد شيخه من عُمَّال جمال، وجوهر الحكواتي الذي ينسج حول كل شيء قصة، فجالستهم، ويبدو أن رائحة القهوة قد جذبت مراد وحسن إلينا.

جلسنا جميعا تحت الشجرة في ضيافة الحاج سمامه، وطلب منه حسن أن يحكي لنا عن طبيلة وعلاقته به، اعتدل سلامة وعدل عِقال رأسه، وكأنه شيخ كبير يتوسط أفراد قبيلته، وتنهد ثم قال:

- صلوا على النبي المختار.

ردَّدنا عليه أفضل الصلوات وأجلّ التسليم، ثم خاض في حديثه بلهجة قروية متسارعة، فلم أفهم بعض ما قال، ولاحظت أن مرادًا لم يفهم شيئا، فقاطعته متحدثًا بالعربية الفصحى، طالبًا أن يراعي أني ومراد أتراك، فتفاجأ حسن ومراد، وبدا عليهما الخجل، ورغبت أن أقول لحسن "أنا أبو بريص يا ابن الكلب" ولكني اكتفيت بما سببته لهما من حرج.

عاد الشيخ الكبير سمامه ليكمل حكايته:

- قبل أن أروي لكم قصة طبيلة وعلاقتي به، يجب أن أحكي لكم قصة الغولة التي سكنت المغارة.

أضحكنا جميعا، إلا أنه أخذ يقسم الأيمان على أن قصة الغولة لها علاقة بطبيلة، فأصغينا له، ولم يبدأ قصته بـ "كان يا ما كان"، ولكن بدأ بدراما العرب المعتادة حول الولد اليتيم الفقير كما جرت العادة:

- تم جرَّ والدي على يد رجال الدَّرك، وعلمنا أنه ذهب إلى حرب في بلاد بعيدة، وكنت في العاشرة من عمري، وأخي حسين يكبرني بعام واحد، وكان لنا عم غليظ القلب، قاسي الطبع؛ حين بلغه خبر موت أبي أجبر أمي على الزواج منه، بحجة أنه يرغب في تربية ولدي أخيه تحت جناحيه، ولم يكن رحيما بنا بل استغلنا أسوأ استغلال؛ نرعى أغنامه من الفجر حتى الغروب، وزواجه من أمي قد وفر له راعيين غنم لا يكلِّفونه أكثر من رغيف خبز يوميًا.

كُنَّا صغيرين لا حيلةَ لنا، اعتدنا الرعي جنوب رام الله، وفي أحد الجبال حيث الكثير من المغاور، اعتدنا ترك الأغنام ترعى والاختباء خلف الصخور لمراقبة ظهور الغولة التي شاع بين الناس أنها تسكن إحدى هذه المغاور، وبعد مضي أشهر رأيناها تتجول من بعيد، فعرفنا المغارة التي تسكنها. لم نجرؤ على دخول المغارة، وكنا كل يوم نقلص المسافة بعض الشيء، وفي إحدى المرات رأينا الغولة تغادر مغارتها، فاعتقدنا أنها ذهبت لصيد أحد الأولاد لتأكله.

وما إن ابتعدت حتى دخل أخي حسين مغارتها، ثم عاد مرعوبا، وأخبرني أنه رأى أم الغولة تسكن المغارة، وقد أوشكت أن تأكله، فهربنا معًا وتجنبنا الاقتراب من تلك المنطقة ثانية.

مرَّت السِنون وتناسينا قصة الغولة، ومات عمي وأخذت زوجته وأولاده كل شيء، حتى حقنا فيما تركه أبي، وكنا حينها في الخامسة والسادسة عشر، عملنا بالزراعة ورعي الغنم، وشاءت الصدف أن نعود إلى منطقة سكن الغولة، ولأننا أصبحنا أكثر شجاعة

مما كنا عليه في زمن الصبية قررنا أن نذهب إلى المغارة مجددا؛ لنكتشف حقيقة الغولة؛ وحينما اقتربنا متسلحين بعصي صُلبة، وخناجر حادة كانت المغارة فارغة؛ لقد رحلت الغولة.

سبحان الله! تعثر أخي بحجر، فأصر أن يحفر تحته، فوجدنا صرة فيها خمس عصمليات عدنا بها إلى أمي فرحين، وروينا القصة للمرة الأولى، فأكدت على أن هذه الغولة لم تؤذ أحدا من قبل، بالرغم من أنها سمعت بسرقتها بعض الخِراف، ومنذ يومنا هذا تغير حالنا وفتح الله علينا أبواب رزقه، فتزوجنا وأنجبنا، وذهب أخي لحج بيت الله الحرام، وبعدها أردنا شراء أرض حظنا الواقعة بجوار المغارة، ولم نستطع لكونها ضمن ممتلكات الدولة، وقبل سبع سنوات ذهبنا إلى المغارة كعادتنا، ووجدنا شابا ضخما، ملبدًا شعره، عاريًا جسده، تكسوه القذارة، فراودنا شعور بأنه ابن الغولة.

بدايةً أصابنا الخوف، فلم نقربه، ولكن حين انزوى في هدوء شعرنا بالاطمئنان، وحاولنا التحدث معه فلم يستجب، فاعتقدنا أنه أبكم، وعندما أحضرنا له طعاما التهمه.

مرت الأيام ونحن نحضر له الملبس والمأكل ونعتني به، وكأن في رقبتنا دَين يتوجب علينا سداده، ثم اصطحبناه إلى بيتنا للعيش معنا، حتى أصبح فردا من العائلة، ولم يكن ينطق إلا كلمة واحدة لم يتوقف عن ترددها: "طبيبه طبيبه" وهكذا اعتدنا على مناداته باسم "طبيلة".

لم يرو "سمامه" القصة بهذا الاختصار، بل كان يصف مفصِّلاً، وبخاصة بطولات أخيه حسين الفارس المغوار، ولو لم أشغل نفسي بمراقبة أمر آخر شد انتباهي بالقرب منا، لاقتنعت أيضا بأن طبيلة غول ابن غولة، ولفغرت فاهي كما فعل العرب الذين صدقوا هبل الشيخ "سمامه"، وقصته السخيفة عن طبيلة والغولة. تركتهم غارقين في سذاجتهم، وهربت مسرعا عندما بدأ الحكواتي جوهر يقص علينا بدوره قصة غولة أخرى اعتادت أكل الأولاد.

عدت إلى لصوص الكهف؛ البيك وحيان؛ وأثناء طريقي إليهم مررت بجانب صناديق الخشب ملقاة على الأرض، والتي مازالت تثير حنقي، وكأنها وجدت –فقط–لإثارة جنوني لولا أني روضت نفسي على تجاهلها.

ومما لاحظته وأثار استغرابي اليوم تلك النظرات التي تبادلها الجندي حسن مع حيان، والطريقة التي تعمد بها كلاهما تجاهل الآخر، أكاد أشك في وجود علاقة ما تربط الاثنين، ولعله لم يكن غريبا! فالجندي حسن جاء من نابلس، وحيان خدم في تلك المناطق.

من بعيد أطل علينا الدليل الأجرب، وأخذ ينبح بأعلى صوته:

- بعد ساعة سنتحرك، تزودوا بالماء. رحلتنا طويلة.

علق البيك على الفور:

- وهل نحن سنشق الصحراء؟

حيان:

الماء وفير بهذه البلاد، ولكن الاقتراب منه يعني الاقتراب من البشر.

هزَّ البيك رأسه:

- عظيم...عظيم، قافلة لصوص لا يجوز أن يراها أحد.

تحركت القافلة وسرنا ما يقارب الساعة، وهمس حيان بأذني "هذا المكان مناسب للاختفاء والاستكشاف". لم تمر دقائق حتى تسللت خفيةً خلف الصخر والشجر، وقتما قام البيك وحيان بإشغال الغراب، وحين تحركت القافلة تسلقت تلَّةً مشرفة على الطريق للمراقبة. سبقني حيان للاستطلاع، بينما أردتُ التمهل قليلا قبل اللحاق به، ولمَّا سمعت عواء ذئب تحصنت مكاني حتى تراءى من بعيد ثلاثة أطياف تتحرك في ضوء القمر، وسرعان ما تبين أنهم ثلاثة من الأغربة يسيرون خلف قافلتنا وأمام قافلة أبي سعد.

القافلة تطالع من بعيد وما وصلت إلى التلة لحين، وحينما قاربتْ حدثت نفسي: حيان رجل عسكري مدرب ولا يعجز عن تدبر أمره؛ فلا حاجة له في مراقبتي؛ فهرولت مسرعا للعودة إلى قافلتي الحقيرة، وكان عليَّ أن أسبق القافلة والحراسة التي تتقدمها، ركضت وتعثرت مرارًا، وكدت أتسبب في كسر ساقي، ثم اكتشفت أني ضللت طريقي، لا أدري كيف حدث ذلك! وقفت حيرانًا، ثم آنستُ نارا فسرت تجاهها، وكانت لمجموعة من عرب البادية فلم اقترب، ويبدو أن

الحظ –أو ربما قدري–قد أوصلني إلى قافلتي قبيل بزوغ الفجر، وفي حذر ولجت داخل القافلة التي ما زالت تسير ببطء.

لم تمر نصف ساعة حتى التحق بنا حيان، وشعر بالارتياح عند رؤيتي، أما أنا فلفقتُ قصة لأبرر هربي، وترك ظهره مكشوفا، لكنه لم يسأل أو يهتم. ولو فعل لأخبرته عن شجاعتي بالتصدي لعشرات الذئاب التي هاجمتني، وبالتأكيد ما كنت لأعترف لهذا الحقير بأني ضللت طريقي كالأحمق، أو بما اعتراني من خوف عند تخيلي ذئابًا تلاحقني.

أخذ يفصل الحديث عن الطرق الاحترافية التي يتواصل بها الغربان فيما بينهم، وعن لغة الإشارات التي يتواصلون بها مع القافلة على الرغم مما يفصلهم من مسافات متباعدة، وأخبرنا بأنه لم يشاهد عسكريًا برفقتهم، بل مجموعة من الخدم تخرج برفقه الملثم وأبي سعد بحرص شديد، ويقومون بالحفر والدفن وتدوين الملاحظات، ولا شك لديه في أنهم يقومون بإخفاء أشياء ثمينة، وأنهم حريصون ألا يراهم أحد حتى الحرس، فعلق البيك:

– قافلة علي بابا والأربعين باشا، يبدو أن بعض اللصوص أرادوا إخفاء جزء من الغنيمة للعودة لاحقا.

حيان:

– إنهم أكثر من لصوص؛ التكتيك يدل على احتراف وتدريب عالٍ.

روهان:

– لا تشغلا بالكما بالتفكير؛ هذا تكتيك لصوص يقف خلفها طربوش عظيم. ويبدو أن اللصين قررا سرقة جزء من غنيمة الطربوش الكبير، والاحتفاظ بها، لهذا حرصا على أن تكون الحراسة بعيدا، كي لا يكون هناك شهود عيان.

وهنا تدخلت معارضًا رأيه:

– طبقًا لكلام كلام حيان؛ لقد شارك الكثير من الخدم في الحفر، وهذا عدد كافٍ من الشهود.

البيك ضاحكًا:

- يا عزيز، في هذه الدولة يسهل التخلص من عشرات العرب والخدم، ولكن اختفاء عسكري من أصل تركي يثير التساؤلات.

أكد الملازم على قولة البيك بِناءً على ما عاينه في البلقان؛ لقد كان يُقتل الجنود العرب دون أدنى اهتمام بأسمائهم، بل كان يُشار إليهم بالأرقام؛ يتمادى في حكوه، وألاحظ تناغم نبرته –عند حديثه عن العرب–بالكثير من التعاطف الذي لا يليق بعسكري سابق.

اقترحت عليهم مدعيًا المزاح بينما كنت جادًا:

- ما رأيكم بأن نعود ونخرج ما دفنوه بعد انتهاء الرحلة؟

برقت عينا حيان ولم يستطع إخفاء اعجابه بالفكرة، أما البيك فقال:

- حذارِ يا أولاد التفكير في هذا، أسرار الباشوات تموت معهم، ادفنا هذه القصة، ولا تخوضا في الحديث عنها أبدًا، مثل هذه القافلة تعج بالجواسيس، دعونا نلتزم الهدوء حتى تنتهي هذه الرحلة.

اشتعلت نار فضولي بعدما علمت أن قافلة أبي سعد تسير على أثرنا، وانتهجت رسم خرائط ذهنية أختزنها في ذاكرتي، لرصد الأماكن المرجحة للدفن، ومما أقلقني كثيرًا ما بدا لي من قيام الملازم حيان بمثل ما أفعل، لابد أن خبرته العسكرية ستكون له عونًا، لقد ندمت على تسرعي ولفت انتباهه لهذا الأمر، سيكون هو الأوفر حظًا بالعودة واستخراج ما تم دفنه، لخبرته بهذه البلاد.

هذا اللعين سرق مكانتي عند البيك، وسيسرق خطتي...في لحظات أصبحت على مشارف الوشاية به حتى يتم القبض عليه بتهمة التآمر وتهريب الآثار مع البيك...هي أفكار عابرة راودتني، وما كنت لأخون البيك أو أتسبب بأذيته.

مرَّ الليل، وأشرقت شمس الاثنين في هدوء، ووصلنا بئر ماء بواد تحيطه الصخور، وتطوع سلامة وطبيلة لمساعدتنا في إنزال حمولة الدواب ليتفحصها بطريقة أو أخرى، ولم يتوقف

عن التحاذق في محاولة سرقة بعض الأسرار، وهو يجهل أني أكثر منه جهلا. هذا الأحمق اعتقد أننا القافلة السرية التي تحمل النفيس والثمين، كما اعتقد أني قائد عظيم القدْر بهذه القافلة، ولن أنكر استمتاعي كثيرا بظنونه وبنظرته لي.

أمضينا النهار بجانب بئر؛ بدا أنها حُفرت زمن الرومان، ماؤها بارد، وبالرغم مما نزحناه منها إلا أنها بقيت ملآنة، استحممنا بالعراء، وحرص أحد العرب –واسمه عبد القادر–أن تنال الدواب نصيبها من حمَّام منعش ينفض عنها آثار الحر والغبار.

غربت الشمس، وحافظ القمر على نضارته، وعاودت قافلتنا طرقها الوعرة متحاشيةً الاقتراب من أماكن تواجد البشر.

ندور في حلقات مفرغة، وكأن الخبل قد أصاب قواد القافلة؛ طفنا حول أحد الجبال مرتين، وحين لاحظ البيك ذلك، أخذ يردد بصوت عالٍ:

- لبيك اللهم لبيك.

ووقتها سأل البيك:

- هل فلسطين كبيرة إلى هذا الحد ليستغرق وصولنا إلى أية مدينة كل هذا الوقت!

ضحك حيان:

- جواد أصيل يستطيع أن يسبق الشمس شرقا وغربا، ويبدو لي أن أدلة القافلة يهدرون الوقت متعمدين.

فسأله:

- هل تستطيع أن تحدد لنا موقعنا الحالي؟

ضحك وقال:

- كنا قريبين من نابلس، وتحولنا إلى الغرب، ثم اتجهنا جنوب السبع، وإن لم أكن مُخطئًا فها نحن نعود باتجاه نابلس ثانية.

لقد خرجنا مرات إلى أرض مكشوفة، ومنها إلى وديان، ومررنا بالقرب من تجمعات يهودية –على حد قول حيان–وحينما اقتربنا من جبال نابلس مع اقتراب الفجر، عاد الدليل وقادنا باتجاه عين ماء، وطلب منا أن ننال قسطًا من الراحة ونعتني بالدواب وأخبرنا بأننا سنتحرك بعد العصر.

سبق جوهر الحكواتي القافلة ليؤم المصلين لصلاة الفجر، فامتعض سلامة لهذا التعدي السافر على مكانته كإمام، وبعد انتهاء الصلاة هبَّ الجميع متعاونين في إنزال الحمولة، وبذل طبيلة الجهد الأكبر كعادته، أما جَمال الذي لا يبذل جهدا لإزعاج ذبابة حطت على أنفه، دبَّت فيه النخوة –وما كان من أهلها–وأسرع بصحبة جوهر لمساعدة حيان في إنزال صناديق الخشب، لاكتشاف محتوياتها، ولم يخفَ على البيك نوايهما فسخر قائلاً:

- أنزِلوا الصناديق بحذر حتى لا يتحول ما فيها من ذهب إلى حجارة.

لم يضحك إلا حيان، وعلى إثر قهقهته سمعنا إطلاق نار كثيف، اعتقدنا أنهم الجند في طليعة القافلة، توقفنا بِناء على أمر الدليل، وما هي إلا لحظات وإذا بجنود الطليعة قد عطفوا أعنَّة الخيل وهرعوا نحونا ومعهم المسلح الذي رافق الدليل لاستطلاع الأمر، تاركين مسافة كبيرة تفصلنا عنهم، أما الغراب الأسود فقد تقهقر إلى أن بلغ المؤخرة، وأشهر سلاحه وأطلق سبع طلقات متتالية في الهواء، تفصح عن تحذير القافلة الأخرى.

تمر الدقائق متسارعة، ومازال إطلاق النار مستمرا، ثم هدأ دويّه تدريجيا وتسمرت أعيننا في انتظار عودة الجند، وهنا سمعنا صراخا بالعربية والتركية:

- ألقوا أسلحتكم... ارفعوا أيديكم!

ملؤا علينا الأرض يطالبوننا برمي السلاح ورفع الأيدي، وأول من ألقى سلاحه ورفع يديه، كان حسن وتبعه مراد؛ جنديان شجاعان، يحميان ظهر القافلة.

أما الغراب فقد كان شرسًا رافضًا الاستسلام في معركة محسومة، فاشتبك معهم حتى نفدت ذخيرته، وفر هاربًا، ثم تبين لاحقا أنه لقى حتفه، لا رحمة الله عليه...انصاع الجميع

لأوامرهم، وأمسك سلامة بيد طبيلة ورفعها؛ لقد كان حريصا على حياة فيله أكثر من حرصه على حياته.

عشرة من العرب يحيطون بنا، يتقدم بعضهم نحونا شاهرين أسلحتهم، ويصرخ أحدهم علينا بالتركية آمرًا بالجلوس محذرًا من ارتخاء الأيدي، قاموا بتفتيش القافلة ومصادرة المتاع، وبعثرة ما لا يرغبون فيه، حتى وصلوا إلى الصناديق الخشبية، فتهللت وجوهم ولم يصبروا على فتحها بتمدن، بل حطموها في همجية.

عيناي تترصد كل حركة حول الصناديق، وكنت أرغب أن أسرع لمساعدتهم في فتحها، لرؤية ما فيها قبل أن ينهبوها. اقترب قائدهم وألقى نظرة فتجهم وجهه، وأخذ يصرخ بهستيريا عربية:

- (ايش هاظا يا ولاد الحرام؟)

انهال علينا بالشتائم، وكالَ لنا الإهانات، وأمطرنا بوابلٍ من القذف والسب، ملامحه الباردة الخشنة تدل على أنه لن يتوانَ عن ذبحنا جميعا، ولن يرتد طرفه، راودتني الأفكار بأني سأموت قبل معرفة ما تحويه الصناديق، العربي يكرر جملة "شو هاظا يا ولاد السقيطة"، وكأنني أرى عيون الموت تحدق بي، وعلى الرغم من هذا كله خطر ببالي أن أسأله:

- أنت قل لي ما فيها يا أخي، واللهِ أنا أيضا أريد أن أرى ما فيها.

ولكن انفلتت مني ضحكة خنقتُها سريعًا، وتذكرت قولة البيك حين كنا في طريقنا إلى مرج بن عامر، هذه القافلة تحمل الموت، وتساءلت إن كان في الصناديق لعنة ما تجر خلفها الموت، ولكن يبدو أن ابتسامتي الغبية هي من لعنتني وجذبت العربي إلي مباشرة فقال:

- (بتظحك يا وَلد السقيطة! بتفكرنا هبايل! على مِنْ تتخوث يا ابن الخايسة؟!)

لم أفهم مما قاله سوى شتم أمي، يسأل عشرات الأسئلة ولا ينتظر الحصول على جواب، أربكني صنيعه؛ كلما حاولت فهم سؤال باغتني بسؤال آخر:

- أتعتقد أننا بُلْه ويمكن خداعنا! هي. أخبرني ماذا تخفون معكم ولِمَ سلكتم هذه الطرق الوعرة أين أخفيتم السلاح والمال؟

وكان سؤاله الأخير قبل أن يتوقف عن طرح الأسئلة:

- (مِن انتْ ومِنو راعي الصناديك؟)

فهمت أنه يسألني عن المسؤول عن هذه الصناديق، ولأول مرة في حياتي لم أجد الرغبة بأن أدعي أنى أستاذ كبير أفندي بيك باشا. وقررت أن أثقل ضميره إن فكر في قتلي وأجبته بالعربية:

- أنا مسلم ابن مسلم، عربي ابن عربي أنا أخوك في الإسلام اسمي عزيز من حلب.

سريعًا:

- من أي حارة بحلب أنت يا عزيز العربي؟

لم يكن الجواب على سؤاله صعبا، وقلت له من حارة السوق، وكنت أستطيع أن أصفها لو طلب، لأني قضيت بها عدة أشهر مع والدي حين كنت صغيرا...فشلت في إقناعه، فسألني بلهجة بدوية لم تسعفني لغتي العربية من استيعابها:

- (ومِنو التركي اللي عشَّر أمك وعوج لسانك!)

وفهمت لاحقا أنه قصد مَنْ التركي الذي حملت منه أمك ليجعل لسانك ثقيلا بنطق العربية، في وقتها لم أستطع إجابته على السؤال، وكان واضحا أنه كشف خداعي، وقال:

- (مِنو راعي هالصناديق يا ابن السقيطة؟)

وأخذ يسأل الجميع ورفيقه يترجم ما يقوله إلى التركية، وهنا وقف البيك وقال:

أنا روهان بيك، عالم آثار تركي...قالها بفخر وكبرياء، وكأنه يودع الحياة في شجاعة، وأخذ مرافق العربي يترجم له ما قال، وأشار العربي بيده ناحية الصناديق وسأل:

- (شو هاظا إللي فيها؟)

أرخيت أذني وقطعت أنفاسي لأسمع جوابه:

- إنها حجارة جلبناها من مكان يسكنه الجان والعفاريت لبناء مسجد ليصلي فيه الجان مع البشر.

هذا ما قاله البيك؛ لقد حاول استغلال خوف العرب من كل ما يتعلق بالدين والخرافة، وهو أول الساخرين منها؛ لقد صرح مرات بأن هذه الخرافات خُلقت في عقول البشر لاستعبادهم، وضمان طاعتهم العمياء، ويبدو أن البيك لم يفلح في استعباد عقل العربي؛ يقول العربي: والله ما في غيركم شياطين يا ولاد السقيطة، هذه الحجارة تملأ كل واد وجبل، ولا أرى فيها ما يستحق أن تتكبدوا العناء في حملها، لقد نهبتم بلادنا ولم تتركوا إلا الحجارة، ولا أرى فيها ما يصلح لبناء مسجد، بل تصلح لتكون قواعدًا تدعم الخوازيق التي سيجلس عليها العرب إن لم يقبِّلوا حذاء السلطان، وحاشيته، وخدمه، وعبيده.

والآن إما أن تخبرني الهدف من وراء هذه الخدعة، وإما سأكنس الأرض بشاربك القبيح، ثم أحلقه بخنجري قبل أن أطلق النار على رأسك واجعل من هذه الحجارة قبرا لك ولعفاريتك.

وأخذ المرافق يترجم للبيك ما قاله، واحتد الموقف كثيرا، فروهان ليس من النوع الذي اعتاد الخضوع، أو إمساك لسانه أمام أحد، ولا يبدو أن هذا العربي سينحني احتراما لمقابلة بيك تركي...استشعرت بخطر يحيط بالبيك ووقفت على قدمي لأسانده ولعلي أستطيع أن أرى الحجارة التي يتحدثون عنها، وقبل أن أنطق بكلمة أشار بيده صارخًا:

- (اركز مطرحك يا ولد السقيطة.)

وهنا فاجئنا حيان بشجاعة منقطعة النظير، وأخذ يتحدث بعربية لا يتقنها إلا عربي قُح، ولم أسمعه يتحدث بها من قبل، وقف ولم يأبه بالسلاح الموجه اليه، واقترب من العربي في شموخ وكبرياء تركي أصيل، وقال:

- اسمع يا أخي: لقد تناولت الطعام في بيت الشيخ عقيل بالجليل، وفي بيت الشيخ أبو مدين ببئر السبع، واستمع ما سأنير به عقلك جيدًا، لقد أُعدت هذه القافلة لتكون كمينًا لجذب قطاع الطرق والثوار العرب، وأنت أعرَف بالأتراك مني، فهم لا يكترثون إن

قُتلنا جميعا فداء تحقيق أهدافهم، ولن يمر الكثير من الوقت حتى تحاصركم الفرق الخاصة.

ويبدو أن ما قاله حيان قد أربك العربي، ودفعه للتلفت مرات، ثم سأله:

- ولِمَ تخبرني بذلك؟

حيان:

- لأني لا أريد أن نعلق بين شقَّي الرَّحى.

العربي:

- ومن تكون أنت؟

فاجأني حيان بأن تحرَّى الصدق في قوله، وأخبره الحقيقة كاملة:

- أنا ملازم أول في الجيش التركي، وقد هربت من الخدمة، وقادتني الأقدار كي أعلق بهذه القافلة التي لم أدرك هدفها الحقيقي.

العربي ينظر في عيني حيان وكأنه يبحث عن أثر لخداع، ويشير بيده إلى أحد رجاله فتسلق التلة للاستطلاع، ثم سأل العربي:

- ولمَ هربت من الجيش؟
- قصة طويلة، ولي أسبابي الخاصة.

ابتسم العربي الذي لم يُخفِ إعجابه بجرأة حيان وسأل:

- كم عربي قتلت يا ملازم حيان؟

رماه حيان بنظرة شرسة، وقال:

- اسألني: كم عربي استشهد وهو يحارب بجانبك بالبلقان! وكم عربي أنقذته وأنقذك! يبدو أنك على جهلٍ بأن أكثر من ثلث الجيش العثماني من العرب.

قهقه العربي، وقال:

- كل مسلم يدعو الله أن ينال الشهادة إلا الأتراك يدعون الله أن يمنح الشهادة للعرب، وكرمكم الزائد وحبكم لنا دفعكم لزجنا في أوائل صفوف كل حرب هيَّجتموها، لنسبقكم إلى الجنة، ولكن طاعتنا لكم أدخلتنا جهنم في الدنيا وستزج بنا إلى جهنم في الآخرة.

صمت حيان وكأنه لا يستطيع أن يدحض هذه الحقيقة، وسأل العربي في جرأة:

- من أين أنت يا أخي؟

فأجابه:

- (من بلاد العرب، وجاي على بلادكم وبلاد أبوكم ألقِّط حمام.)

في هذه الأثناء كان رفاق العربي مشغولين يجمعون كل ما يرونه يستحق، ويحملونه على الجِمال، ولاحظ حيان أن نظرات العربي تجاه البيك لا تبشر خيرا...العربي يطلب من البيك مرافقتهم، وطلب حيان أن يرافقهم بدلاً من البيك، فقال العربي:

- حياتك لا تساوي رصاصة، أمَّا هذا فلابد أن يكون له ثمن ما.

وهنا اقترب أحد العرب وأمسك بكتف البيك ليقوده أمامه، وفاجأنا الأحمق حيان واعترض طريقه متحديا الموت، فرفع القائد سلاحه وألصق فوهته برأس حيان وقال:

- حابب تموت يا تركي؟

حيان:

- لا أرى فيك قاتلا ولا لصا، ولا يناسبك أخذ رجل مسن رهينة، خطف الشِّيْبِ ليس من شيم العرب.

ابتسم العربي ساخرًا، وقال:

- نعم هي من شيم الأتراك لا العرب.

تحول الحديث بينهما إلى همس، ولكن ملامح وجه العربي دلت على اقتناعه بما يقوله حيان وبدا في عينيه شيء من الاحترام.

أشار إلى رجاله آمرًا بالتحرك سريعا، إلا أن دوي رصاصة واحدة تردد صداها في كل أرجاء الوادي كانت كافية لقلب الأمور رأسا على عقب، الجميع خائفٌ يترقب، وإذا بالعربي المراقب يتدحرج من فوق التلة، وقبل أن يصل إلى الأرض جثة هامدة، أُمطرنا بوابل من الرصاص؛ ضجيج وصراخ، يتساقط البعض أمام أعيننا، زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، انبطحنا على الأرض، يتبادلون إطلاق النار، وعلقنا بين المتحاربين، هي لحظات خاطفة، وشعرت بأنها الدهر كله، وما كنت أجرؤ على رفع رأسي لإشباع فضولي هذه المرة.

سكن صوت الرصاص، وحجبت أشعة الشمس ظلال سوداء، وقدم لعينة حاولت قلبي على ظهري، فرفعت رأسي، وكان راكلي أحد الأغربة ليحصي عدد القتلى، ومن حوله عشرة آخرون؛ فنتيجة المعركة قد حُسمت لصالحهم.

اختلطت دماء البشر والدواب، وخضَّبت الأرض، ولطَّخت الموتى والأحياء؛ ثلاث جثث من الخدم والحمالين، وأربع من العرب ملقاة على الأرض، وابن السَّقيطة أصيب برصاصة في صدره ومازال حيا، وفي الخلف جثتان عربيتان، وواحدة لأحد أفراد الفرقة الخاصة، وأُصيب اثنان، كما أُصيب روهان بيك برصاصة في ذراعه، وأكثر من عشرة إبل وبغال سقطت على الأرض، بعضها سكنت حركته، والبعض الآخر مازال يصارع الموت.

استجمعت شجاعتي وأسرعت لأساعد حيان في إسعاف البيك، وكان يتأوه من شدة الألم، وكان حيان بارعا؛ استطاع وقف النزيف، وكَيّ الجرح بعدما باغته بغرس سكين في جرحه واقتلع الرصاصة؛ موقف بطولي لحيَّان، أمَّا أنا فلم أقو على فعل شيء سوي العثور على سكين وإشعال النار، والإمساك بيد البيك، وإشاحة وجهي بعيدًا.

أخذ حيان ينتقل من واحد إلى آخر، ويتفحص الجميع، ويسعف المصابين وكان طبيلة أكثر الجرحى صراخا ونحيبا، ولم يتوقف عن المناداة (سمامه سمامه). مزَّق حيان ملابسه ليتفحصه، فلم يكن إلا خدش صغير بطرف كتفه، وكانت الدماء التي سربلته لخادم سقط فوقه، ولبغلٍ كان على مقربة منه، بذل سلامة كل جهده ليسكته، ولم ينجح فصفعه على وجهه، فتراجعت قليلا خوفًا من هياج هذا الثور، وحدث ما توقعته، واستحالت السيطرة عليه، وهنا

تفاجأنا جميعا عندما اقترب منه عبد القادر ولامسه وتمتم بعدة كلمات فصار بين يديه طفلٌ صغيرٌ.

أخبرنا حيان بأنه مصاب بنوبة ذعر، فاندهشت لذلك العملاق؛ فأنا المذعور دوما بغير ذعر أتمالك أعصابي.

أسرعنا لمساعدة عبد القادر في إسعاف أحد المصابين، لقد كان الجندي حسن. شرع حيان يضغط على صدره في محاولةٍ لوقف نزيفه، ولكنه ارتبك وأصابته رعشة لرؤية الجندي مراد مُلقى بجانبه وقد فارق الحياة. ولكنه لم يفقد الأمل في استعادة حسن...عينا عبد القادر كانت تقول له: توقف. لا أمل له في الحياة...رفع حيان يديه المخضبة بالدماء عن صدر حسن يائسًا، وتركه يلفظ أنفاسه الأخيرة في صمت، ثم أمسك برأسه وتمتم بالعربية:

- الله معك يا حسن.

قبَّله على جبينه وابتعد مسرعا، ليخفي دمعة قد انفلتت من عينيه. لم يتوان الجميع عن تقديم المساعدة، حتى الدليل الأجرب تصرف بنبل.

مازالت الشمس قابعةً على قمم الجبال التي تطوِّقنا، تراقب وتتعفف عن النزول، حتى لا تغرق خيوطها الذهبية في دماءِ البشر والدواب. تتعثر قدماي في جثث ملأت الساحة، أجاهد النظر إليها، لا أريد أن أحمل الأموات معي إلى الأبد؛ فإن سكنوا ذاكرتي سيرافقونني ليل نهار وسيشاركونني فراشي وطعامي، تبا للأموات وليوم الثلاثاء! كم أكرههم وأكره معهم ذلك اليوم!

ثلاثة عشر عاما وفتاة في الخامسة عشر من عمرها تطاردني كل ثلاثاء، تزورني قبل النوم، تتعرى وتتمدد بجانبي، وتجبرني على ملامسة جسدها، وفرك نهديها، ثم تطلب مني غسلها بالماء والصابون، ومسح قطرات الماء التي شقت طريقها بين نهديها إلى بطنها، لتستقر في صرتها الصغيرة، وحين أنتهي ترميني بنظرة غامضة، وتهمس بأذني:

- "سأعود إليك قريبا".

تلف جسدها في رداء أبيض ثم ترحل عني، ماذا تريد مني؟! وهل تسعى لمعاقبتي برؤيتها عارية! أم أن ذاكرتي اللعينة هي من يقف وراء هذا كله؟!

في مثل ذلك اليوم "الثلاثاء"، قبل ثلاثة عشر عاما، دفعني فضولي المريض لأتسلل وأشاهد النسوة يقمن بغُسل فتاة استعدادا لدفنها، الفتاة كانت خالتي دَولت رحمها الله، لم أجرؤ على إفشاء هذا السر لأحد. واليوم أتساءل هل سيبدأ هؤلاء الأموات بزيارتي مع خالتي! تبا لهم ولذاكرتي إن اجترؤا على ذلك! سأمسك بسكين وأنتزع جزءا من دماغي وألقيه للكلاب أو لكواسر الطير، وأظنها لن تقترب منه؛ لأنها ستتشبع في يوم الثلاثاء هذا.

أشغلت فكري بمتابعة عدة سيول صغيرة من الدماء منبعها جثث البشر والدواب تشق طريقها لتكون بركا صغيرة حمراء هنا وهناك، وعلى الرغم من حذري إلا أني –مثل الآخرين– أغرقت حذائي بإحداها.

ما زلت أسمع دوي الرصاص وضجيج البشر والدواب، فالتفت حولي ولا أرى أحدا، ولكني ما زلت أسمع أصداءً متداخلة؛ صهيل الخيل، ورُغاء الإبل، وشحيج البغال والحُمُر، وصراخ البشر؛ طبيلة يصرخ، سالم يصرخ، الكل يصرخ، وما عاد هناك صراخًا أو ضجيجًا؛ لقد خيَّم الصمت على ساحة الموت، ولكن الصراخ سكنني...أتساءل إن كانت رحلتنا قد خُتمت بهذه المذبحة، وأننا سنعود إلى ديارنا لنروي هذه المأساة لأصدقائنا وأهلينا.

أعتقد أن المتسببين في هذه المذبحة لم يعودوا في حاجة إلينا بعد الآن؛ نجحت خطتهم، وكنا الطعم المناسب لقطاع الطرق وربما للجيش العثماني نفسه. سذاجتي دفعتني لأفكر بأنهم سينقلون الجرحى لمعالجتهم، وسيطلقون سراحنا، ولكن هيهات هيهات؛ إنَّ رحلة الموت لم تبدأ بعد.

أفاقت أعيننا من سَكْرتها على نور شمسٍ حزينة، وحفر الخوف دواخلنا وسكن نفوسنا، فصرنا نترقب أصواتًا لا وجود لها، ونجفل جراء كل خرفشة.

انشغل بعض الأغربة العشر في تفحص المنطقة، وذهب بقيتهم في مطاردة خلف العرب، طمأننا وجودهم حولنا بالرغم من طريقتهم الحقيرة في فحص الجثث بأقدامهم، طلبوا منا أن نجلس على الأرض بلا حراك، وبدا ذلك للحفاظ على سلامتنا.

كنت أعتقد أن هؤلاء الرجال الأشداء قد أنقذونا من يد العرب، ولكن حيان الذي اعتاد أن يفسد كل شيء فسَّر الحدث بِناء على خبرته العسكرية؛ بأننا كنَّا على منحدر يتخللنا العرب، وقد وجهوا بنادقهم عاليًا بعدما تساقط الرصاص علينا، وانطلقت الأعيرة النارية في تخبط وعشوائية بغير حرص على حياتنا. لقد برَّأ حيان العرب مما حدث بما يثير الشكوك حول ولائه، أمَّا البيك الذي مازال يتألم قال:

- كلهم قتلة ومجرمون ولصوص، كلهم طرابيش سكنها العُثُّ وأفسدها.

عاد الأغربة يتجولون بين الجثث ويركلونها بأرجلهم ثانية، ويرمقوننا في كِبْر وتعالي، وبغير شفقة يصدرون الأوامر ويحثوننا على التحرك، قبل جرِّهم العربي المصاب إلى جنب الطريق وأسندوا ظهره على صخرة، ليصرخ عليه أحد بالتركية:

- ما أنت؟ أين هربوا؟ كم عددكم؟

والبقية يركلونه على وجهه وجسده بعنف، ولم أفهم كيف يمكن أن يجيب على هذه الأسئلة الغبية المتتالية، وهم لا يسمحون له بالتقاط أنفاسه، اعتقدوا أنه فضل الصمت في لحظاته الأخيرة ولم يفطنوا إلى أنه لا يتحدث التركية، وهذا الأحمق الذي نزف كل دمائه استطاع أن يستجمع ما تبقى منه ليبصق عليهم، ويطلق شتائمه الأخيرة:

- (يا ولاد السقيطة.)

وهنا أطلقوا الرصاص على رأسه بدم بارد، ولم يكتفوا برصاصة واحدة، بل سعوا إلى فتح فجوة من جبينه إلى مؤخرة رأسه تمكنهم من النظر عبرها.

لا يجوز قتل أسير، وكان بإمكانهم قتله بعيدا عن الأنظار، ولكنهم لم يفعلوا، لنعي رسالتهم جيدًا:

- ارتعبوا منا، لن نتوانى عن قتل أحد.

وهذا ما أثبتته الأيام، وأخذ أحدهم يردد:

- تحركوا... تحركوا.

لم يكن تركيا ولكنه قالها بالتركية، لا يبدو أنه يعرف إلى أين يجب أن نتحرك، أو ماذا يجب أن نفعل بالجثث والجرحى، نتبادل نظرات حائرة، ونتساءل في صمت: ماذا نفعل؟ وغراب آخر يصرخ بنا معتقدًا أنه تعلَّم العربية:

- (الاا! الاا امغي، امغي.)

هذه لغة جديدة وتحتاج لمترجم، ولم يفلح في ترجمتها سوي سلامة؛ فقد علَّمه طبيلة الكثير، قال سلامة إن قصده:

- يلا.. يلا امشي.. امشي.

هذا الغراب الأحمق اعتقد أننا جميعا عرب، وكما يُقال: إن الضحك الحلو يرافق الموت.. وتخيلت نفسي أقول له:

- (مين عشر أمك يا ابن السقيطة؟)

صرنا قطيع غنم بدون راعٍ وبصحبة كلاب لا تعرف وجهتها، عيونهم باردة كالجليد، قلوبهم قاسية كالحجارة، لا يحسنون إلا القتل:

- (تحركوا تحركوا...امغي امغي.)

أردد سرًا، وما كنت أجرؤ أن أجهر به:

- إلى أين نتحرك أيها الحمقى؟ إلى أين (يا ولاد السقيطة؟) وماذا نفعل مع المصابين؟

لم يسمحوا لنا بجمع متاعنا، وكانت خيولهم تطاردنا، فتخرق سنابكها جثث الموتى:

تحركوا، تحركوا.

يسوقنا الخوف إلى أعلى الطريق وأسفله؛ خيول تدفعنا جنوبًا، وأخرى تدفعنا شمالاً، سلامة يمسك بيد طبيلة ويجره خلفه مرة، ويدفعه أمامه مرة، وروهان المسكين يهرول كالأبله يمينا ويسارا، وعينا جمال الدين تتقد نارا...خُيِّل إليَّ أنه لو كان يحمل السلاح لقتلهم جميعًا، أما حيان فلم يتنازل عن عنجهيته؛ ولم يعد يذكر أنه فار من الخدمة؛ فاستوقف أحد الغربان وقال له:

- يجب علينا أن نحمل كل الجثث وننقلها لأقرب معسكر للجيش مع المصابين.

هذه المرة كان الحظ حليفه، فالرجل الذي خاطبه لا يبدو أنه يتكلم التركية، ورد عليه بالكلمة الوحيدة التي يجيدها:

- (امغي، امغي.)

روهان الذي لا ينحني لأحد اقترب من حيان وقال له:

- ألا تعرف أن تخرس يا حيوان؟ هل أنت أحمق! ألا تفهم ما يدور حولك! أغلِق فمك ولا تتكلم، أطِع تحركوا، تحركوا (امغي، امغي) ولا تجادل.

وما كان لأحمق مثل حيان أن يطيع أحد، فاقترب من المصابين، واضطررنا لمساعدته، وحملنا ثلاثة من المصابين على حمير، أما الرابع فلم تسمح إصابته بتحميله على الدواب كشوال من الخيش، فأسرع حيان يعد حمالة من حطام الصناديق التي أفقدتني صوابي طوال الأيام الماضية، وهمَّ أحد الغربان بمنعه، ولكنه تزامن مع وصول غراب آخر يتحدث التركية عائدا من مطاردة العرب، فسمح له بذلك، وساعده عبد القادر في حمل المصاب.

تلملم الجميع في قطيع واحد، وسارت بنا بلاهة هؤلاء الذين لم يتوقفوا عن الصراخ:

- تحركوا...تحركوا.

تركنا كل شيء خلفنا، ولم يكف حيان عن التحامق، ولم يتنازل عن التصرف كقائد، ونادى على جمال ليحل محله في مشاركة عبد القادر، إلا أن جمال الحقير أمسك برسن جمل وتجاهل نداءه، حتى لا يرهق نفسه بهذا الحمل الثقيل، أمَّا أنا فقد تواريت خلف أحد الجمال؛ فالمصاب عربي والأولى أن يطلب من العرب أن يقوموا بهذه المهمة الشاقة، وبالفعل تسابق عدد منهم لحمل الحمالة وعلى رأسهم سلامة.

والأحمق حيان أمسك بطوق حمار وعاد به للخلف قاصدًا جثتي مراد وحسن ليحملهما معه، وما إن سار عدة أمتار حتى أطلق أحد الأغربة رصاصة أصابت الحمار وشلت حركته،

فتوقف حيان وأخذ يشير بيده تجاه جثث الجنود؛ ليفهموا أن هدفه جلبهم فقط؛ فأشاروا ببنادقهم آمرينه بالعودة.

الرصاصة التي أطلقها الغراب وأصابت الحمار نطقت بكل اللغات وخاطبت كل منا على قدر استيعابه؛ فكل ما مر بنا من أهوال لم يصل إلى بلاغة الرصاصة في الشرح والإيجاز، هذه الرصاصة اليتيمة أفصحت عن وجهتنا؛ فنحن جميعا نسير في طريق الموت.

- تحركوا...تحركوا.

تحركنا كالأغنام تاركين خلفنا متاعنا والجثث لتتغذى عليها الضباع، ولم نقطع مسافة الأربعمائة مترًا حتى توقفوا وعطفوا أعنة الخيل، وطلبوا منا أن نستدير ونعود أدراجنا:

- (تحركوا...تحركوا...امغي...امغي.)

عدنا حيث بدأنا، وحرصنا على ألا تدوس أقدامنا الجثث، وحوافر خيولهم لم ترحمها، وتركت خلفها آثار دماء بعد أن عبرت البرك، وبعدما استوت الطريق، بدا من بعيد خيَّالان يسيران تجاهنا، ولمَّا لم تعد تفصلنا عنهم سوى بضعة أمتار، رفع أحد الأغربة بندقيته وأطلق عليهما الرصاص، وتبعه البقية، فقفز الخيالان واحتميا وراء صخرة.

سمعنا أحدهما يصرخ بالتركية؛ يشتم أمهاتهم وأخواتهم، يلعن ويلعن، حتى علت شتائمه صوت الرصاص وأسكتته، أطل الرجل برأسه من خلف الصخرة ولسانه لم يتوقف عن الشتم، وحينما اطمأن ركض نحو فرسه التي جفلت، وأخذ يتفحصها ليطمئن على سلامتها واقترب من الغربان يقود فرسه خلفه ولسانه وعيناه لم يتوقفوا عن اللعن والتوبيخ.

- (يا حمير، يا دواب...يلعن أبوكم.)

ولم يهدأ حتى أفرغ كلَّ ما في جعبته من شتائم، ثم عاد وانشغل بفحص فرسٍ أصيلةٍ حالكةِ السواد يسميها نجمة؛ خلع عنها السرج الثمين وأخذ يتفحص أسفله، واسم الخيَّال جودت أفندي...لم نره وصاحبَه من قبل، وحين رآه البيك علَّق همسًا: "رائحة جمال باشا تفوح منه، والكثير من الشبه يجمعهما"؛ كان في الثلاثينيات من عمره، طويل القامة، ممتلئ الجسم، بشرته ناعمة بيضاء لم تلامسها الشمس، أنفه صغير وشفتاه أنثوية، وشاربه مرسوم بدقة وعناية، عيناه

عسليتان، لا تخلوَا من إرهاق السفر، يرتدي زي العسكر، ولا يبدو أنه منهم، كفيه الناعمة تؤكد أنه أقرب إلى أهل العلم. وبعد أن اطمأن الحلو الناعم على فرسه نجمة، أشار بيده وأخذ ينادي على الرجل الآخر الذي بقي مختبئا خلف الصخرة:

- تعال يا شيخ لا تخاف...تعال.

أطل الآخر برأسه في حذر شديد عدة مرات، وبصر جواده الذي تكوم على الأرض، فلم يكلف نفسه عناء الاقتراب منه، وتركه خلفه وتقدم نحونا.

حينما ناداه الناعم بالشيخ، خِلْته رجلاً لحيته بيضاء ويحمل مسبحة، وإذا برجل ضخم الهيئة، قارب طوله المترين، يدب على الأرض كبغل، يثير الغبار خلفه، ترفرف وراء ذيله عباءة سوداء، لم نحسبه قبيح المنظر، وكلما زاد اقترابه زاد قبحه، خطوات معدودة بيننا وبين وجهه المشؤم الصحراوي الجاف، الأجرد القاحل، تزاحمه ندوب أحدثتها ضربات خنجر أو سيف، لم تنبت فيه شعرة ولا شوكة، لعله حلق شاربه ولحيته خلف الصخرة، وحف جلده بحجر قبل أن يطل بوجه السخام الأسود، برز منه أنف ضخم مستطيل، يشبه كعب حذاء البيك، ويلائم وجهه كثيرا، جاوز شعره كتفيه، يرتدي لباس أهل جنوب المغرب، وزين عنقه الطويل بالكثير من السلاسل، ولبس خواتمًا بما يفوق عدد أصابعه، وشد وسطه بحزام قماشي، ودس فيه ثلاثة خناجر، ولا يحمل معه أي سلاح ناري.

لو فوجئ أحد ليلاً بهذا المسخ الشارد لأصابته نوبة، واستعاذ بالله من كل شيطان مارد، ولكن فرار هذا المسخوط خلف الصخرة كفأر سرق الكثير من هيبته، ولم يترك في نفوسنا إلا الاشمئزاز وبخاصة حين أخذ يتفحصنا بعينيه الصغيرة المملوءة بالمكر والخبث، وكأننا خراف يرغب في انتقاء أحدنا لوجبة الغداء.

قام جودت بنشر الغربان الأغبياء، واصطحب واحدًا منهم لينضم إليه وكعب الحذاء في اجتماع استمر لعشر دقائق بعيدا عنا، ولم يتوقف كعب الحذاء عن النظر تجاه الطريق، وكأنه يترقب قدوم أحد ما.

لم يمضِ من الوقت الكثير حتى رأينا أربعة من الغربان يقتربون على رأس مقدمة القافلة الغامضة، فاعتقدت أن هذا ما ينتظره الكعب، وتبين أنه يترقب وصول شيء آخر؛ لأنه اقترب من القافلة ثم عاد عابسا.

ترك ملثم القافلة واتجه نحونا، ويبدو أنه مازال مصرٌ على إخفاء وجهه، فامتطى جودت نجمة، ولاقاه في منتصف المساحة الفاصلة بيننا وبينهم، وانضم إليهم عصا المكنسة أبو سعد، ونحن لم نتوقف عن مراقبة اجتماع الثلاثة من بعيد، وهم على صهوات خيولهم، تحدثوا معا لعدة دقائق، ثم عاد جودت إلى الكعب، وتمتم معه قليلا، ويبدو أنهم حسموا أمرهم باستمرار السير في الطريق نفسها.

تحركنا معا عائدين إلى طريقنا الأولى، فاقتربنا من ساحة المجزرة، كنا نسبقهم ولم تبعد قافلة الكنوز عنا عشرة أمتار، ولكن حينما اندفع الجميع للاستمتاع بمشاهدة الجثث، واشتمام رائحة الدماء، صرنا قافلةً واحدة.

تجول الكعب برفقة جودت بين الجثث ثم ابتعد واختفى عن أنظارنا، وصرخ جودت في أحد الغربان وأمره بإطلاق الرصاص على رؤوس الدواب المصابة، وكان هذا مؤشرًا على إنسانيته.

عاد الكعب بعد جولته بأطراف الوادي، ثم أمرونا بالحفر لدفن الجثث حيث أشار الكعب، اجتهد جميعنا في الحفر لنيل الثواب وإزاحة الهم الجاثم على صدورنا، وانضم إلينا الكثير من خدم القافلة المهمة للمساعدة في حفر القبور. وأثار استغرابنا أن الكعب أصر على دفن كل الجثث في حفرة واحدة؛ جنود، وعرب، خدم وحمالين.

امتعض حيان وتطاير الشرر من عينيه واستاء لترك تدوين أسماء الضحايا، فاقترب منه روهان وهمس محاولاً منعه من ارتكاب أية حماقة، ويبدو أنه أقنعه بضرورة الخرس وإلا سينضم إلى رفاقه بالحفرة.

وحرص حيان على حمل الجندي حسن ودفنه، وجاهد دموعه التي أبت إلا أن تشق طريقها عبر وجنتيه، وحينها تأكدت بوجود سر ما يربطه بالجندي حسن، وسأكتشفه عاجلا أم آجلا.

بعد ذلك طلب جودت رش التراب على الدماء، لا أعرف إن كان ذلك احتراما أم إخفاءً للآثار، وطلب الكعب الحقير أن نجر الدواب النافقة عن الطريق حتى لا تعيق مرور القافلة، ولم يكن هذا يسيرا لولا وجود طبيلة، لقد استحق –عن جدارة– الطعام الذي التهمه في الأيام الماضية.

لم يتوقف قبح كعب الحذاء على منظره الخارجي بل تعدى إلى التشويه الداخلي؛ طلب أن نجر أحد الحمير التي نفقت ونضعه فوق القبر الجماعي، وسجل جودت موقفًا إنسانيًّا آخر وعارض بشدة ذلك العمل البربري، واستاء الكعب ودار بينهما حوار استمر لدقائق واختتمه الكعب بقوله:

- (انت شوف شغلك وأنا بشوف شغلي.)

رضخ جودت أمام إصرار الكعب، فجررنا الحمار ليزين القبر الذي اجتمع فيه الأتراك والعرب والخدم...سؤال حائر يجول في رءوسنا جميعًا حول هذا التصرف المشين. ألم تكن هناك طرق أخرى لتمويه النظر عن هذا القبر الجماعي دون إهانةِ أرواح الأموات؟! إن المغول لم ينحدروا إلى مثل هذا الانحطاط والإسفاف!

الكل يشيح بوجه عن الكعب إلا أنا، لم أنفك عن مراقبته، ولم ينفك هو عن المماطلة واختراع حججٍ واهية لتأخير القافلة، لم يرد أن تبرح القافلة إلا بعد إلحاح جودت وَحَثِّه، كان واضحًا أنه بانتظار أحد ما.

حولتنا الفوضى إلى قافلة واحدة، أو ربما لم يعد هناك داعيًا لفصلنا، وصلنا حيث الاشتباك الأول مع العرب، ورأينا خمسةً من الأغربة المسلحين بجانب الطريق وقد غطاهم التراب والغبار، وآثار الدماء ما زالت تظهر على الأحجار والصخور، ولكن جثث الجند من جراء الاشتباك الأول لم يعد لها أثر، كان واضحا أنهم قاموا بدفنها قبل وصولنا.

جودت يحاول أن يسرع القافلة والكعب يجادل الدليل حول الطرق التي يجب أن نسلكها ويتعمد إطالة الحديث. أبو سعد يتسلم القيادة وجودت لم يعترض، وأنا أحدث نفسي: مَنْ مِن ثلاثتهم هو القائد الأول لهذه القافلة الملعونة؟!

مر حيان بجانبي وهمزني بطرف يده، وهمس أن أعود للبيك. ولم يكن سهلا إيجاده وسط هذا السيل الجارف من البشر والدواب، لمحته من بعيد وقد امتطى أتانًا عرجاء، ويده اليمنى معلقة في رقبته فاقتربت منه وعاتبني على ابتعادي عنه، فأسررت في نفسي:

- حبيبك حيان معك يلازمك ليل نهار، وينام في حضنك، ولم يعد لي مكان عندك.

وسألته إن كان في حاجة إلى شيء، فردَّ:

- سوى أن تبتعد عن هؤلاء الرجال الخطيرين، وتكف عن مراقبتهم، إنهم لصوص وقتلة...التزم الصمت لعل هذه الرحلة تنتهي في سلام.

وعدته الامتناع عن مراقبة الجميع، وما كنت لأفي، تريثت قليلا حتى انشغل وبدأت أمشي في الاتجاه المعاكس لسير القافلة؛ للبحث عن رشيد؛ ولإشباع فضولي برؤية بقية القافلة، كانت الطريق ضيقة، لهذا قررت تأجيل رحلتي الاستكشافية حتى نجاوز هذه الطرق الضيقة، ومن بعيد لمحت رشيد برفقة حمالين عرب، يمسك بيده رسن أحد الجمال ويسير أمامه، وكان يبدو سعيدا بأصدقائه الجدد، فعدت ولم أجد أنه يستحق الجهد الذي سأبذله في الوصول اليه.

عدتُ أدراجي وحرصت على تجاوز البيك وأتانه العرجاء؛ لأتجنب نصائحه المملة؛ وعندما وصلت مكاني الأول وجدت جمال الدين وأبا سعد يتهامسان؛ الأول على صهوة حصانه، والثاني ممسك برسن جمل ويقوده، ولم أتمكن من سماع ما يدور بينهما، وما كان هذا المشهد ليثير اهتمامي لولا حرصهما على ألا يلاحظهما أحد. جمال حك رأسه أكثر من مرة، وكان يتكلم مع الجمل الذي يقوده ويكثر من الالتفات، وأبو سعد يقرب الجواد منه أكثر وينحني أحيانا، وكأنه بحاجة أن يسمع بوضوح أكثر، وشفتاه لم تكفَّا عن الحركة، وأنا ما كنت لأمر مرور الكرام إن تهامس اثنان أمامي، فكيف إن كان أحدهم أبو سعد والثاني جمال الدين! سأكتشف سر هذه العلاقة.

على إيقاع أقدام الدواب تسير القافلة، وتتغير أماكن الأشخاص حسب اتساع الخطى؛ يمر أحدهم بجوار آخر يلقي عليه نظرة سريعة ويتمتم:

- (بيعِين الله.)

فيرد عليه الآخر بالمثل، لا حاجة للمصافحة أو التعارف، (بيعِين الله.) تكفي ليبلغ الواحد الآخر ما قصد، كما يقال (نحن بالهوا سوا). تختلف اللهجات وطريقة لفظ الكلمات، والمشترك بين الجميع لفظتا (بيعِين الله) و(الذهب).

الكثير من الإشاعات تناقلها أفراد القافلة همسًا حول ذهب تحمله الجمال، وكان غريبًا أن الجميع دون استثناء كانوا على يقين بوجود الذهب، وأنا ما كنت لأشك بأن مثل هذه القافلة الغامضة ستحمل شعيرًا كما قال المغفور له مراد.

لم أتوقع أن أول الذهب الذي ستقع عليه عيناي سيتواجد بفم الكعب العفن، وذلك حينما تمكنت أشعة الشمس من اقتحام فمه والمرور على أسنانه السوداء لتصطدم بسنه الذهبي؛ وقف فجأة وفتح فمه الكبير ناظرًا وراءه وقد فرحت عيناه، مما دفعنا جميعا إلى الالتفات لاكتشاف سر الفرحة التي غزته دفعة واحدة.

من بعيد أطل علينا خيَّال اقترب من جودت وأسرع الكعب ليستمع لما يدور بينهما، لحظات وعاد الخيَّال حيث أتى، ولم يغلق المسخ فمه وعلا السرور وجهَه العبوس، وارتسمت على شفتي جودت ابتسامة ساخرة جذبت انتباه أبا سعد، فاقترب منه وتهامسا وضحكا معا. كم تمنيت حينها لو أني أصير عصفورًا يطير بجناحيه لأستمع لما يدور بينهما! الكائن الفضولي يصرخ بداخلي:

- تبا للأسرار! كم أكرهها! ماذا قال هذا الخيال لجودت؟! ولماذا فرح الكعب وسخر منه الاثنان؟!

آهٍ لو كنت أملك القدرة على التحدث مع الحيوانات لدفعت نجمة لتثرثر بما دار من حديث.

لم ينفخ أحد في البوق معلنا بدء الاستراحة ولكن نبح الدليل وتناقل الجميع الخبر، وقِرَبُ الماء بحوزتنا مازالت ملآنة، ولم نجد حاجة لأن نستبق نحو البئر. لم يُسمح للدواب أن تستريح، وهذا يشير إلى أن الاستراحة لن تطول.

أطل الخيَّال مُجددًا، وبرفقته اثنان تركهما أول القافلة ثم عاد أدراجه، فإذا بعيني الكعب الصغيرة التي تنضح بالحقارة فاضت بالسرور، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة سوداء، وأسرع للاطمئنان على ضيفيه الغامضَيْن، لم يقطع نصف المسافة وإذا بالخيَّال الضيف يترجل ويهرع تجاهه، ويثب غزالاً يتعلق برقبته ويطيل عناقه في عنفٍ ساكنٍ، سقطت القبعة الإنكليزية وانسدل إثرها شعر طويل عبثت به النسائم فعبث بقلوب الرجال، لقد كان شعر الكعب أكثر طولاً، ولكن شتان بين رائحةِ قذرٍ عفنٍ ورائحةِ الأنثى التي تشق طريقها إلى أنوف الذكور، ولمَّا انفكت يدا الكعب ناهيك عن ردفٍ ثقيلٍ جذب خَصرًا دقيقًا تعلوه رمَّانتا غصنِ بانٍ يتثنى؛ إنها أنثى ارتدت ملابس الرجال التي لم تفلح في إخفاء حسنها، اعتقدنا أنها ابنته لولا تلك القبلة التي رسمتها على شفتيه السوداوين الغليظتين المتشققتين، سامحها الله...لو علمت أنها بحاجة إلى شفة لتقبلها لقدمتُ لها شفتي بلا مقابل.

المشهد الساخن بين عجوز قبيح وصغيرةٍ مليحةٍ تركنا في حيرة، أمَّا جودت وأبو سعد فقد اكتفيا بتبادل النظرات والابتسامات الساخرة.

الخيَّال الآخر المرافق للفتاة لم يبرح مكانه حتى أشار إليه الكعب فاقترب منه ببطء، ترجل وانحنى حتى لامس أنفه حذاء الكعب ورفع رأسه وقبَّل يده، كان في منتصف الثلاثينيات، شعره طويل تجاوز كتفيه، أنفه كحبة لوز ابتعدت عن شفتيه، أملس الوجه لا شعر فيه، متوسط الطول، يرتدي الأسود من الحذاء حتى الرأس، كان نسخةً مُصغرةً عن الكعب في ردائه؛ العباءة، وحزام القماش، والخواتم، والسلاسل، عدا أنه يضع خنجرا واحدا، ولم يكن قبيحا مثل سيده، ويبدو أن كليهما تاجر حُلِي، أو ينتميان إلى طائفةٍ ما، الطريقة التي انحنى بها على قدم الكعب ألهمتني أن أمنحه لقب خنوص،لحين معرفة اسمه الحقيقي، وإن كان لقب كعب الحذاء الصغير أليق به

الأحداث تتسارع والأسرار لا تتوقف عن التدفق، لتتزاحم داخل رأسي، فلم أعد قادرًا على التنفس، خلعت ربطة عنقي، وشعرت بدوار ثم سقطت على الأرض، أسرع عبد القادر وساعدني على الوقوف، وجلب ماءً، فأسقاني، وغسل وجهي، ثم أسندني إلى جذع الشجرة التي استظل بها البيك، لا أدري ماذا حل بي؟! يبدو أن كل ما مررت به وكبته بداخلي تفجر مرة واحدة.

تنهار نفسي، والدموع في عيني تترقرق، فيسألني البيك عن سر حزني...ماذا أخبره! هل أبدأ بأشباح الموتى التي تطاردني كل ثلاثاء؟ أم بالخوف الذي يغمرني وأجاهد إخفاءه عن الآخرين؟ أم بالغيظ الذي أتنفسه مع كل شهيق؟! وبعفْوية طفلٍ صغيرٍ قلت له:

- سأموت إن لم تخبرني عن السر وراء حملنا لهذه الحجارة السخيفة كل هذه الطريق، ولا تحاول أن تقنعني أنها أثرية.

قهقه بأعلى صوته، ومنذ مدة لم يبتسم، وقال:

- فات الأوان على أن تزداد طولا، ولكن هناك فرصة لأن تزداد وزنا، إن لم تخلط مع الطعام هذا القدر الكبير من الفضول، الذي يتحول بداخلك إلى غيظ يستحيل هضمه.

قهقه ثانيةً، وتابع كلامه:

- أتذكر قبل ثلاث سنوات حينما أخبرتك أن على مؤخرة الحارس وشم غريب يحتاج إلى خبير ليحلله، وأنت بحماقتك أخذت تراقبه كلما ذهب لقضاء حاجته، وبعدما يئست من الكشف عن مؤخرته لترى الوشم، ساومته على أن يريك إياها مقابل أن تدفع له نقودا، وهذا دفعه ليظن بك الظنون؟

عادت إليَّ ضحكتي، وكيف أنسى هذا الموقف الذي زجني فيه، وتابع البيك:

- هذا الكهف يا عزيز لم يحن الوقت للكشف عنه بعد، وإن وصلت إليه الطرابيش لن ترى فيه إلا ذهبا وياقوتا يصلح لشراء المزيد من السلاح والجواري، لن يكترث أحدهم لقيمة الأسرار الكامنة وراء هذا الابداع العظيم، وما كنت لأمهد لهم طريق الوصول إليه لسرقته وتخريبه، وكان علينا أن نمارس الخداع وأن نحمل صناديقًا ملآنةً بالحجارة

لإقناع الجميع بأننا أخرجنا كل ما في الكهف، ولم نترك خلفنا ما يستحق العودة للبحث عنه، ومَنْ يشك أن الأتراك يتركون خلفهم شيئا ويرحلون؟

فسألته:

- ألا تخشى أن يعود حيان يوما إلى الكهف ويسرقه برفقة أصدقائه العرب؟

امتعض من سؤالي كثيرا وقال:

- الملازم حيان كان بطلا حينما وافقني على إخفاء الكهف، وحمايته من الطرابيش، وهو يعلم أنه لن يمر وقت حتى يتسرب الخبر وتنتشر الإشاعات، ويُتهم بسرقة ما لم يسرقه، وحينها لا يوجد ما يثبت براءته إلا أن يكشف الحقيقة، وخشية أن يتعرض لذلك وافق على العودة معي لإسطنبول، لحين إيجاد حل ما، ولن أعجز عن ذلك.

فسألته بفضول:

- ولماذا أخذ رشيدًا معه؟

أجابني بنبرة حادة:

- هذا شأنه الخاص ولا علاقة لنا به.

حذرني من الثرثرة واختتم حديثه وكأنه يسعى لإغاظتي، وقال:

- حيان رجل شجاع، قلائل مَن هم مثله، سبقني حينما قرر أن مثل هذا الإرث يجب أن يكون ملكًا لشعوب المنطقة لا لطرابيش فاسدة، واختار أن يدفع الثمن.

مدَّ روهان يده وأمسك بأذني وطلب مني أن أكف عن غيرتي الصبيانية، فوعدته بذلك، ووعدني أنه سيحكي لي كل شيء عن الكهف حينما نصل بسلام.

لم أشعر بالرضا، ولكن شعرت بالقليل من الراحة، وما دامت الأوراق التي تحوي المعلومات عن الكهف تحت متناول يدي، لن أنتظر طويلا حتى أعرف المزيد، وسأحاول ألا أكره حيان، ولكني سأكره رشيدًا ما استطعت.

قررت أن أحيل اهتمامي إلى فتاة الكعب وجروه، فهم الحدث الطازج والأكثر إثارة. نبح الكلب وتحركت القافلة، إنَّ إيقافها لا يحتاج لأكثر من دقائق، أما تحريكها فيحتاج وقتًا طويلاً، ولا فائدة من وراء التوقف مادام قصيرًا. لم تكن الاستراحة الأخيرة لاستقبال ضيوف الكعب، وإنما كانت للبحث عن طرق بديلة تساعد على إخفاء القافلة، ولمَّا لم تتوفر اضطروا للمخاطرة بسلك طرقٍ مكشوفة.

تحملُنا طرق وعرة، وكانت أشد ظلاما، لأن الجبال حجبت ضوء القمر. بالقرب مني كان عبد القادر يقود مجموعة من الجمال، وهو مغمض العينين، اقتربت منه وأخذت أمرر يدي أمام عينيه لأرى ردة فعله، ولم يبدر منه ما يشير إلى أنه مستيقظ، إنه نائم لا شك.

لم أكن أتمنى شيئا وقتها أفضل من ساعة نوم واحدة، ولا أشك في أنها أمنية الرَّكب كله، وإن كان هذا العربي قادرًا على النوم ماشيا، فما الذي يمنعني أنا عزيز أفندي من فعلها! أغمضت عيني وأمسكت برسن بغل ليقودني، سرت لعدة خطوات مغمض العينين قبل أن أتعثر، لابد أن هناك ثقب ما بجفني عبد القادر يسمح له بالرؤية وهما مطبقان، أو أنه يمارس خدعة ما، وربما قد لاحظني أراقبه، فسخر مني.

عاد إلينا الدليل، وانحرفنا إلى جادةٍ بِناءً على أوامره، وانتهينا إلى مكان فسيح تطوقه التلال، وبالقرب منه نبع ماء يحتضر، وأصدر أبو سعد أوامره، وطلب أن نحل ونريح الدواب من حمولتها.

ضُربت عدة خيام للأسياد، أما نحن فقد افترشنا الأرض وانتظرنا دورنا لنحصل على نصيبنا من الماء، نقتات القليل من الطعام الرديء، ولا أشك في أن سكان الخيام لديهم ما يفيض عن حاجتهم من الطعام الفاخر، غفى الجميع من شدة التعب، فاستعطف حالُنا شمسَ ذلك اليوم، وتكاسلت عن زيارتنا –على غير عادتها–في مثل هذا الشهر، وحين وصلتنا آنستنا ولم تقلق راحتنا بحرِّها، وداعبت أجسادنا النائمة نسائمٌ رقيقةٌ، ولا أذكر طيلة حياتي أنى استمتعت بالنوم مثل ذلك اليوم.

أيقظني البيك قبل الظهيرة لأساعده على استبدال قطعة القماش التي غطت ذراعه المصابة بأخرى نظيفة، وكان يصك على أسنانه محاولاً إخفاء ما يشعر به من ألم. استيقظ حيان وساعدني في تنظيف الجرح، وسألته:

- إلى أين تعتقد أننا ذاهبون؟

البيك قبل حيان:

- إلى اللامكان، نحن نختبئ فقط، هذه القافلة تم الاستيلاء عليها ولابد أن هناك من يبحث عنها.

حيان:

- كل الطرق التي سلكناها تشير إلى أنهم يبحثون عن مكان للاختباء.

حينها سألت بسذاجة:

- هل نختبئ من قطاع الطرق العرب؟

ضحك حيان وقال:

- لا...نحن نختبئ من لصوص الدولة، مثل هذه القافلة يقف خلفها أحد الكبار الذين يملكون نفوذا واسعا على بعض أجهزة الدولة.

وقبل سؤالي التالي قاطعني البيك مصرًّا على أن أترجم له حوار حيان واللص العربي حينما حاولوا أن يتخذوه رهينة، وبالرغم من استيائي لامتداح حيان أمام البيك، إلا أني كنت مجبرا على قول الحقيقة كاملة، وتعمدت تكرار بعض الكلمات التي وصف بها حيان البيك أمام اللص؛ عجوز، عاجز، مسن، مريض ومسكين... فلَكز البيك حيان المستلقي بجانبنا وقال:

- أنا عاجز يا حيوان أترغب أن تصارعني لنكتشف من العاجز؟

رد حيان ساخرا:

- أنت شاب وسيد الشباب يا أستاذ روهان، وأنا فقط حاولت أن أقنع الثوار بأي كلام.

استفزني وصف العرب اللصوص بالثوار، واعتقدت أنه نطقها سهوا، فقلت:

- قصدك اللصوص العرب الأوغاد قطاع الطرق.

هز رأسه بابتسامة صفراء وقال:

- (مثل ما بدك عزيز باشا.)

علق البيك:

- لصوصٌ صغارٌ يسرقون لصوصًا كبارًا.

وبدأ بامتداح شجاعة حيان، ووبخه على تهوره، وأخذ يروي له قصصا من تاريخه المجيد المتعلق بالسياسة، والآثار، ورحلاته لمعظم بلدان العالم، وكان عليَّ أن أهرب وأترك حيان يعاني وحده قصصَ البيك المملة، التي اعتدت سماعها عبر السنين، وذاكرتَه الضعيفة التي ستدفعه ليروي القصة مرات عديدة في جلسة واحدة، ولكن كان عليّ أن أقاطع حديثهم، وأخبر حيان أني رأيت كلبه الوفي رشيدًا برفقة خدم القافلة الأخرى، ولا يبدو أنه متلهفا للانضمام الينا، رد على بفتور:

- دعك منه يا عزيز، لديه أسبابه الخاصة.

تركتهم وانصرفت لأستكشف ما يحيط بنا من أسرار، وبدأت أتلصص –كعادتي–وأبحث عن علاقات جديدة لمزيد من الثرثرة، وربما سيلهيني هذا قليلا عن التفكير في الموت وأشباح القتلى التي تطاردني في كل زاوية تستقبلها عيناي.

أرغب في محادثة الوجوه الجديدة، وأتمنى أن يحالفني الحظ في إنشاء علاقة مع خنوص كعب الحذاء، لأعرف منه سر الحسناء.

أتجول بناظري وأينما أزحت بصري أرى حمالين وخدما وعبيدا، ازدحم المكان بهم، ويبدو أن الإيمان قد زار أغلبهم؛ حالة من الخشوع والتصوف والصمت تلف أجواء المكان، فأينما نظرت وجدت مَنْ يدعو الله، ومَنْ يصلي، بينما كان عدد المصلين –فيما مضى–لم

يتجاوز أصابع اليد. يبدو أن الدماء والجثث، ورائحة الموت توقظ الإيمان في قلوب البشر، وحين تنجح الذاكرة في إبعاد شبح الموت يسبقه الإيمان في تركهم.

ما حدث سرق بهجتهم وغرز الخوف في قلوبهم، بالأمس تدافعوا وتسابقوا لمشاهدة الجثث، ولم يكفوا عن التحديق في وجه الموت، واشتمام رائحته، أغلبهم كان بعيدا ومع هذا لم يقاوموا رغبتهم في الاقتراب. خاطبتهم سرًا:

- لا ترتعبوا سيتلاشى كلُّ شيء من ذاكرتكم، أمَّا ذاكرتي الملعونة ستحمل معي هذا الخوف حتى آخر يوم في حياتي، لو علمتم الذاكرة التي ابتلاني الله بها، لغرستم مخالب الحسد فيها، وأنا أدعو الله أن يهبكم أقوى منها لتحفظ لكم هذه اللحظات الرائعة فترافقكم للأبد.

توغلت بين الدواب والبشر بحثا عن صيد سمين ومعلومات ثمينة، ودائمًا ما تكمن الأسرار تحت ثياب الخدم المدللين، فأينما وُجد خادم أنيق مزخرف، فلابد من أنه ترعرع في أرض خصبة أزهرت بها الأسرار، وتنتظر من هو مثلي لقطفها.

بدأت أتنقل من واحد إلى آخر بحجة البحث عن قليل من المِلح، ولم أبخل على أحد بابتسامتي الباشوية، وعيناي تفيض حبا وتواضعا تجاه هؤلاء الخدم الأوغاد، ولم أنسَ التسلح بعشر قطع من شوكولاتة البيك الفاخرة؛ لأكافئ بها من يطيعني؛ هكذا يتم تدريب الكلاب على الطاعة.

لم يشد انتباهي إلا اثنان؛ الأول كان بعيدا عني قليلا، قسمات وجهه أنثوية، وقوامه كذلك، ولكنه لم يكن مزخرفا، والآخر قريب مني، جذبني لمعانه وزخرفته، كان يجلس تحت شجرة على سجادة فاخرة، اقتربت منه، ومنذ وقعت عليه عيناي أدركت أنه الشاب المخنث الذي رافق المُلثَّم بمرج ابن عامر لفصل الجمال السمينة عن جمالنا.

أردت التراجع قلقًا؛ ملابسه تشير على أنه غلام مخنث من غلمان السلاطين، شعره أملس، وفي أذنه قرط ذهبي، يدرِّم أظافره بعناية، لا يبدو عليه القلق مثل بقيتنا، اعترض طريقي

بعينين مكحولتين ضاحكتين، ورحب بي في غنج، وفرش المطوي من سجادته الفاخرة لأجلس بجانبه.

فضلت الجلوس على العشب كي أبتعد قليلا؛ تجنبًا للشبهات التي ستتناقلها العيون المراقِبة؛ رحَّب بي بكلمات تركية، دلَّع كل حرف فيها ولحَّنه بنعومة صوته المخنث، أخبرني أن اسمه "مالت"، لم أجد معنى لاسمه، وبما أن وجهه يخلو من أي أثر للشعر وجدت أن اسم "ملط" يناسبه كثيرًا.

أعلمته أني الأستاذ الكبير عالم الآثار...وأخذ يسألني أسئلة غبية عن الأهرام، وكنت أجيبه بما أفقه وبما لا أفقه، وكان القلق ينتابني بين الحين والحين، ويُخيل إليَّ أن العرب يحيطون بنا، ويطلقون النار علينا، وظهر ذلك على وجهي جليا، فأخذ يطمئنني وكأنه يسعى ليبدو أكثر شجاعة مني، أخبرني بوجود أكثر من عشرين مسلحا من رجال الباشا لا يتوانون عن حراستنا، إضافةً إلى كتيبة من الجيش يقودها أحد رجاله تبعد عنا أقل من ساعة للتدخل في حالة الطوارئ. وأصر أن أجلس بجانبه على السجادة الفاخرة، ولم أستطع التملص أمام إلحاحه الشديد ففعلت، وأخذ يستعرض أمامي الكثير من المعلومات متباهيا بمكانته. كان قاصدًا إخباري بأنه ليس مجرد خادم، ومن سيفهمه أكثر مني، فأنا أفعل ذلك كل ساعة.

هذا الملط يمتلك مواهبي في التلصص والتقاط الأخبار، ويفوقني في ذلك لأنه ينام بين أحضان إحدى خيم الأسرار، أخبزني أن الوجهة الأولى كانت إلى بيروت، ومن ثم تغيرت إلى بئر السبع وبعد ذلك قرروا التوجه إلى القدس.

بدايةً اعتقدت أن هذا الملط معجب بمكانتي الاجتماعية والعلمية كأستاذ آثار، ولم أُعِر أي انتباه لعدد المرات التي لامس بها يدي ولا بالمرات التي تحسس فيها ملتقى ظهري وفخذي، وهو يغرقني بما كنت أجهلها من أخبار، وحينما اجترأت يداه أيقنتُ أنه يريد مني شيئا آخر.

ارتبكت وتلفَّت حولي، وكان خوفي الأوحد أن يراني حيان أو البيك بصحبة هذا المخنث، اعتذرت في خجل وأدب، ولأنه لاحظ انشغالي عنه في تفحص الخادم الآخر رمى لي طعما قبل

مغادرتي، لم أستطع مقاومته، فألقيت بنفسي على سجادته حين أشار بعينيه الفاترتين تجاه الخادم قائلاً:

- أتعرف مَنْ هذا؟

تابعت الخادم المشار إليه فإذا بقوامه أقرب إلى الفتيات منه للرجال، وابتسم الخادم وهز رأسه تأكيدا على دهشتي، فقلت:

- إنها فتاة.

هز المخنث رأسه مؤكدًا، فسألته:

- وماذا تفعل هنا؟

وأجاب في تدلل:

- إنها خادمة الجماعة.

وحين سألته إن كان يقصد الرجل الملثم، تملص وقال:

- سأخبرك فيما بعد يا عزيزووو.

هذا المخنث لن تغريه الشوكولاتة، فتركت ليده القليل من الحرية لملامستي، لعله يجيب على سؤالي، حرصت على ألا يلاحظني أحد، وربما لاحظني الجميع. اقترب منا خادم آخر وهمس بأذنه، فطلب الإذن بالانصراف، ثم طلب أن أحرك مؤخرتي ليتمكن من سحب سجادته، وكان واضحا أن سيده أرسل في طلبه ولا غرابة ما داما عشيقين.

بحثت عن الفتاة، وكانت تجلس بجوار شجرة تلمّع أداة حادة ذات بريق، وتعيد ترتيب بضعة أشياء داخل صندوق صغير من الخشب والجلد، وفور اقترابي منها أغلقت الصندوق، فأسررت في نفسي:

- تبا للصناديق وأسرارها!

اقتربت منها وسألتها إن كان من الممكن إعطائي القليل من المِلح، ردت علي بتركية سليمة رافقتها ابتسامة عذبة:

- انتظر قليلا.

غابت لدقيقة وعادت تحمل معها علبة صغيرة من المِلح، وكيسا ورقيا فيه سكر، وقالت:

- تفضل مِلح وسكر وشاي يا... يا ...

وعلى الفور:

- أنا الأستاذ عزيز أفندي عالم الآثار.

ضحكتْ وكشفتْ عن صفين من اللؤلؤ الأبيض المنظوم، فخفق قلبي ووقع في غرامها من البسمة الأولى، ولم أمنع نفسي من تقبيلها في مخيلتي، وكنت لأعطيها نصف شوكولاتة البيك مقابل قبلةٍ واحدةٍ من شفتيها المكتنزتين المعسولتين، أردت أن أتغزل فيها، وقبل أن أنطق، أصابني ارتباك عظيم، وهربت مسرعا بعدما استأذنتها، وفي الطريق وبَّخت نفسي ألف مرة على الخجل والخوف الذي اعتراني أمام عينيها.

عدت إلى البيك ووجدته يشرب العرق، وثمل حيان بمشاركته؛ فهو لم يعتد الشرب مثل البيك الذي لا يرتوي من بئر عرق. يقول البيك قبل جلوسي:

- (في مصيبة يا عزيز... مصيبة كبيرة.)

دق قلبي وامْتُقع لوني:

- (خير يا بيك شو في؟!)

فقال:

لم يتبقَ معنا إلا زجاجتين من العرق.

أتنهد قائلاً:

- لا ضير...سنتدبر لك عَرَقًا يكفيك حتَّى نهايةِ رحلتك.

وما لا يعرفه البيك أني أخفيت خمس زجاجات في حقيبة أخرى؛ لئلا يسرف في شرابه، ولكنه ثعلب وقد قرأ تعابير وجهي، وقال:

- كم زجاجة أخفيت عني يا عزيز؟

راوغت البيك، وشرعت أروي لهما ما عرفته من أخبار، وتطرقت إلى الفتاة التي ترافق الرجل الملثم، وحيان –كعادته–يسرق مني كل نصر وإنجاز؛ فقال:

- هذا خبر قديم، لاحظتها مُذْ يومنا الأول في مرج ابن عامر.

تحديته أن يصفها لإثبات صدقه ونفي تكذيبه؛ فأسهب في وصفها بدقة متناهية:

- طولها مائة وخمسة وستون سنتيمترًا، قمحية اللون، شعرها خروبي، حنطية البشرة، أنفها صغير، مكتنزة الشفة، وابتسامتها تسحر الساحر، ترتدي في عنقها سلسلة من الفضة معلق بها عدد من الأحرف، ولا تهتم بمظهرها أو ما ترتديه، مثل الأستاذ روهان تقريبا.

أصابتني الدهشة؛ هذا الحيوان أصاب في وصفها وجعلني أبدو أحمقًا في عيني البيك الذي وبخني قائلاً:

كم حذرتك منذ عرفتك أن تبتعد عن نساء الباشوات وأسرارهم! يبدو أنك تستعجل موتك، لقد أخبرتك "كلما قلت معرفتك كلما ازدادت فرصك في النجاة"، سيقتلوننا جميعا، كان هناك أملٌ حينما كنا نجهل، ولكن بعد دفن الجنود بهذه الهمجية صرنا جميعا في عداد الأموات، اكبح فضول القطط الذي يسكنك واصبر، لعلنا نجد طريقًا للخلاص من هذا المأزق!

كلام البيك لم يترك أثرا بالغا في نفسي؛ فهو اعتاد أن يعظني ويبالغ في استنتاجاته، ولكن تأكيد حيان على ما قال هزني قليلا، وعلق حيان:

- إن لم أكن مخطئا، نحن لا نبعد مسافة ساعة عن معسكر طُولكرم، وقد تجنبنا كل الطرق المؤدية إليها، ولو كانت هناك أية نية لذهبوا بالمصابين إلى المعسكر، بدلاً من جرهم وتعريضهم للموت المؤكد؛ أشعر بأنهم سيخفون كل من يعرف أو عرف

بالأمر، وأرى أن نلتزم الهدوء، فلدينا فرصة كبيرة للهرب إن دخلنا نابلس أو أطرافها؛ فأنا أعرف كل شبر فيها، وما نحتاجه –فقط–دقائق معدودة بين شعب الجبال لنختفي، أمَّا في هذه الطرق سيتم اصطيادنا بسهولة، ولو سبقناهم بساعة كاملة.

وضع حيان عدة خطط للهرب، وكلها تعتمد على أن نقترب من أي مدينة بطريقنا، فهو أمضى سنوات بفلسطين والأردن وأصبح خبيرا بشعابها، واقترح روهان علينا بأنه من الأفضل أن نهرب ونتركه خلفنا لأنه لن يستطيع مجاراتنا بالركض، لكن حيان رد عليه:

- سنهرب نحن الأربعة معا ولن أترك أحدا خلفي.

وفهمت من كلامه أنه سيصحب رشيدًا الحقير الذي هجرنا، ولم يكلف نفسه بالقدوم لإلقاء السلام، وأصر البيك على أن نعده باستغلال الفرصة المناسبة لنهرب ونتركه، فقال حيان:

- لو شعرت بأنك ستكون عائقًا لهروبنا سنتركك خلفنا.

عينا حيان كانت تقول خلاف ذلك. هذا الرجل يفاجئني كل يوم، ويرغمني على حبه واحترامه. سيتلاشى حقدي له إن أخبرني عن الأسرار التي شاهدها بالكهف طوال الأيام الخمس...، عاجلا أم آجلا سيبوح بأسراره، وحتى ذلك الحين سأداوم على كراهيته، وسأكره البيك قليلاً حتى يكمل لي القصة. يداعب النعاس جفناي؛ لذا سأطاوع نداء راحتي، وأتركهم غارقين بأوهامهم الساذجة حول المخاطر التي تحيط بنا.

قضينا ليلتنا واستيقظنا قبيل الفجر على أوامر تحثنا على التحرك بسرعة، وحين تم الانتهاء من إعداد القافلة آن أوان الصلاة، ولكنهم لم يسمحوا بأدائها؛ لقد كانوا مضطرين للرحيل على عجل.

وعند الساعة العاشرة صباحا وصلنا إلى مكان فسيح تطوقه الجبال والتلال، يقترب من عين ماء غزيرة، والكثير من العشب والشجر...سنحل طيلة النهار ولن نتحرك إلا بعد غروب الشمس.

أعددت قهوة البيك وما توفر من طعام وشاركه حيان، ثم استلقيت في محاولةٍ لجلب النعاس بعضًا من الوقت يكون رصيدا لي أثناء الرحلة، وما إن أرخيت جفنيّ حتى بدأت الجثث

تستلقي بجانبي، ففتحت عيناي ألعنهم جميعا، وعدت أتجول باحثا عن كل جديد. حتى الموت لا أعتقد أنه سيردعني عن معرفة الأسرار وإشباع جوع فضولي، بحثت عن الملط لأتركه يتحسس قليلا مقابل الأخبار، ولم أجده، أعتقده داخل أحد الخيام مع عشيقه الملثم. أبحث عن حيلة تقربني من الفتاة التي سرقت قلبي، ومازالت تجلس وحيدة، إلا أني لم أمتلك الجرأة، وكلما زاد اقترابي زادت رجفتي فألوذ بالهرب، وحينما استجمعت شجاعتي، أمسك بي جمال اللعين؛ الذي قاد قافلة المؤن وبعدها أخذ يشرف على الحمالين ويصدر الأوامر، ثم دعاني لمشاركته شرب القهوة التي أعدها في سرية تامة حتى لا يشاركه أحد.

بالرغم من أني كنت متشوقًا لأكتشف سر الهمسات بينه وبين أبي سعد، إلا أنني لم أجد لدي الرغبة حاليا بإهدار وقتي الثمين معه، ولكن ماذا لدي لأفعله غير هذا، اختفت الفتاة بين الخيام، ولا أثر للملط، ولا أشعر برغبة في العودة للاستماع بقصص البيك وعظاته التي لا تنتهي.

جلست بجوار جمال الدين، وكانت هذه المرة الثالثة التي يحدثني فيها بالطريقة نفسها؛ الأولى حينما رافق قافلة المؤن، والثانية حينما عاد بعد أن أفرغ حمولته، وها هي الثالثة، وفي كل مرة يكرر الكلمات نفسها:

- أنا جمال الدين من السلط...

هذا العربي له عينا لص، ويحب التشبه بالأتراك، وأنا لم أحبه إلا في يومه الأول حين حمل إلينا المؤن، ورغم أننا أمضينا أياما بالقافلة نفسها، إلا أنها كانت المرة الأولى التي نتحدث فيها طويلاً، ولم أكن أتوقع أنه عربي من هذه البلاد؛ لأنه يتحدث التركية جيدا. أتباهى في حديثي:

- أنا عزيز بيك، من كبار علماء الآثار...، ضحك وقال:
- (والله ما باين عليك لا بيك ولا أفندي.)

أغاظني؛ فأرغمني على ترديد:

- (لعلمك...أنا بيك. وجدي باشا كمان.)

وأردت أن أنفي عنه عربيته، ولكني لم أرد مديحه؛ فقلت:

- (وانت باين عليك عربي ابن عربي.)

قصدت التقليل من شانه، ولمَّا لم يسعده قولي رد بامتعاض:

- (أنا عربي حبيبي، بس تربيت بتركيا وأنا صغير.)

عينا هذا العربي –إن كان عربيا– تشع مكرًا، وبؤبؤ عينه يتراقص بمساحة من الخبث لا البياض، وحينما قال أنا عربي رمش عينيه، وخرجت الكلمة من فمه في ثِقَل. العربي يفصح عن نفسه بزهو قبل أن يُسأل، ثم أخذ يكيل الشتائم للقافلة ومن معها بجرأة منقطعة النظير؛ لا يبالي بأحد، يسألني:

- ما قصة الصناديق؟ ومن هذا الذي لا ينفك ملتصقا بالعجوز؟

جاريت حديثه، وأخبرته أن الصناديق كانت تحوي حجارة قمنا باختيارها لبناء مسجد جديد للسلطان محمد الخامس، فسألني بسذاجة أو تعمَّد الاستغباء:

- من هذا محمد الخامس؟

تخابثت في ردي:

- لقد سمعت أنه أخ لمولانا عبد الحميد.

فسألني:

- ومن حيان هذا؟

فأجبته بأنه يعمل مع البيك روهان، فقال:

- ولكنني سمعته يخبر قائد اللصوص أنه ملازم في الجيش، وقد هرب من الخدمة.

وهنا أدركت أني أمام داهية، وليس مجرد مشرف حمالين، بدايةً سأل عمن يجالس البيك العجوز، ومن ثم ذكر الاسم بوضوح، فأجبته باستغباء:

- وأنا أيضا يوزباشي في الجيش وحاربت بالبلقان، وبعدها ضغط عليَّ الصدر الأعظم لأكون مسؤول المُتحف، ولم أشأ أن أزعله.

ضحك جمال، وربما اعتقد أنْ كلينا يحب المبالغة في وصف مكانته، تركته وتعمدت ألا أتوجه إلى حيان مباشرة لأحذره، وقمت بجولة متمهلاً بهدف التمويه والبحث عن صاحبة الابتسامة الساحرة والشفة الشهية، لأتفحصها جيدا وأمتع عيني بحُسنها، وأثمل بابتسامتها، وأنسى كل هذه الوجوه القبيحة التي تطاردني أينما ذهبت.

لمحتها تجلس تحت ظل شجرة وأمامها إناء نحاسي، وبين يديها ثوب تجهد نفسها في غسله، ووجدت في نفسي الجرأة فاقتربت منها وجلست على مقربة منها، فابتسمت لي، ولم أقاوم سحر ابتسامتها، فأخرجت كل ما في جيبي من قطع الشوكولاتة وقدمتها لها، شكرتني وطلبت أن أضعها بجانبها لأن يديها مبتلتان.

عرفت أن اسمها رباب، ولم تكن مهتمة بالحديث عن نفسها، دار الحديث كله حولي، وسألتني عن البيك، وكيف لعجوز مثله يحتمل مشقة هذه الرحلة، وحينما نظرت ناحيته رأيت في عينيها شفقة تجاهه.

أخبرتها بأنه صديقي، وأننا نعمل سويًّا، وكانت فرصة لأعزز مكانتي، وأسهب في الحديث عن نفسي، ولم ترق لي مقاطعة حديثي لتسأل عن حيان ناطقة اسمه...أخفيت الغيرة التي شعرت بها، وأخبرتها أنه رجل مسكين، نال تعاطفنا مُذ رأيناه جائعا عاريا حافيًا؛ فأشفقنا على حاله؛ أطعمناه ومنحناه ثوبًا ونعلين، ثم قررت توظيفه ليكون خادمي، وكلَّفته الاعتناء بالبيك؛ لهذا يمضي كل الوقت بجواره، ثم حدثت نفسي:

- إن اكتشف حيان ما قلته سيقطع رقبتي، ولكني سأخبره أني فعلت هذا لحمايته والتمويه عن شخصيته.

مر الوقت متعجلاً، وعلى استحياء طلبتْ الإذن بالانصراف، وأخذت معها قلبي والشوكولاتة، لُمت نفسي على تهوري بإعطائها هذه الكمية الكبيرة من قطع الشوكولاتة، كان

يجب أن أعطيها قطعة واحدة، وفي كل مرة ألقاها أزيد قطعة حتى تعتاد على طعمها اللذيذ وتبدأ بالبحث عن مزيد.

عدت للزاوية المملة حيث رفاقي المملين، ووجدت الحقير رشيدًا بصحبتهم، وقد فاتني ما دار بينهم من حديث، ورويت لهم ما دار بيني وبين جمال الدين، ونصحت حيان أن يتصرف كخادم؛ حتى لا يشك فيه أحد؛ وأن يتوقف عن التباهي، فرد عليَّ باستخفاف، ليثبت أنه خبير عليم لا تفوته واردة ولا شاردة:

– جمال من "السِرخفية" الصغار، وأمثاله يظهرون متنكرين ومدعين شخصيات كثيرة، ولم يبقَ إلا أن يكتبوا على جبينهم أنهم من رجال الاستخبارات.

قلت له:

– ولكن من المستحسن أن تتصرف كخادم لتبعد الشكوك عنك، وبإمكاني أن أساعدك.

وبدلا من أن يمتدح فطنتي وذكائي، ويشكرني على حرصي وخوفي عليه، سخر من عرضي، ولكن البيك لم يشعر بالراحة وانتابه القلق، وطلب من حيان أن يغادر القافلة الليلة مهما كان الثمن، على أن أكون ورشيد بصحبته، ولكن حيان رفض فكرة ترك البيك، وفضل انتظار الفرصة المناسبة.

وأمام إصرار البيك، اتفقنا على الهرب عندما ينتصف الليل، وأخذ حيان يرسم خطته وتخميناته حول الموقع والجبال، ويحدد الأماكن التي تصلح للاختباء إذا افتقد أحدنا صاحبيه، كما حدد نقطة التقاء ثلاثتنا مفضلاً أن يكون هناك فاصل زمني بين توقيتات هروبنا، وطلب من كلينا –في حال حدوث طارئ– أن نتوجه إلى المعسكر السابق لنسأل عن موسى الزعبي مؤكدا على تقديمه المساعدة. وهنا أبلغته أنه من المستحيل أن أستدل على موقع المعسكر، فرمقني البيك بنظرة غاضبة، وقال:

– استخدم ذاكرتك، ولن تفشل.

جرة ذهب

قافلة الذهب والموت

فوزي عبده

شكرا لمرورك على هذه الرواية إن كانت تستحق... انصح أصدقاءك بها ولا تبخل عليها بعدة كلمات على حسابك الخاص.



بذلت جهدا لإقناعهم بتركي؛ فما كنت لأرغب بالهرب وترك قلبي ورائي، حينها كنت على يقين أننا نبالغ كثيرا بتقدير حجم الخطر، ولم يكن أمامي إلا التظاهر بالتزامي مخطط الهروب وبدأت منذ وقتها التفكير في طريقة للبقاء، ولكني جاريتهم إيهامًا بموافقتي.

تركتهم وانصرفت، ولم يشغل بالي إلا رباب الفاتنة، اشتقت إليها بالرغم من رؤيتي لها قبل قليل، وسيكون من غير اللائق أن أذهب إليها مرة أخرى، ولكن لا بأس إن رأيتها من بعيد.

تجولت وراقبت المكان، وكانت مشغولة مع بعض الخدم، وأفضل مكان يمكِّنني من مراقبتها ورؤيتها بوضوح كان بالقرب من طبيلة وسلامة، فذهبت إليهما ورحب بي سلامة، وأعطيته قطعة شوكولاتة، وأخبرته أني خبأتها من أجله، فشكرني وجلست بالقرب منه، وتجنبت الاقتراب من العملاق، قام سلامة وأعطى طبيلة قطعة الشوكولاتة، وقال له:

- (قل شكرا لعمك عزيز.)

ابتسم وقال:

- (سسرا عبي عنيز...)

لم أكترث للفظ طبيلة، فعيناي مشغولتان بمراقبة نهديها وقد برزا حينما رفعت يداها محاولة الوصول إلى غصن شجرة عالٍ نشرت عليه ثوبا ليجف؛ كان مشهدا مثاليا؛ اقتربت منها، تحسست خصرها، سافرت في عينيها، جذبت قدَّها في عنف، ألصقت شفتي بشفتيها، اعتصرت رحيقهما، تركت يدي اليمنى تقسو على نهدها، وأصابع اليسرى تزوغ بين شقي ردفها، فتأوهت وقالت:

- (عزيز أفندي... عزيز أفندي... روح لمالت.)

لم يكن صوتها، إنه خادم حقير أفسد حلمي، وهو يكرر الجملة نفسها، ابتسمت للخادم، وتمتمت:

- (يلعن أبوك وأبو ملط معك.)

ودعت حلمي الذي لم تكتمل نشوته، واستأذنت سلامة واعدًا بزيارة أخرى. وقصدتُ المخنث اللعين وأنا أعلم أن الدَّنس سيلطخ سمعتي ومكانتي لمجرد مروري بجانبه، فكيف وأنا أجالسه! كنت حذرًا ألا تراني رباب بالقرب منه فلا أحب أن ترتسم بخيالها صورة مشينة عن حبيبها عزيز أفندي. رحَّب بي الملط، وقال:

- تعال يا عزووو، اجلس بجانبي، لدي لك خبر سيفرح قلبك.

لم أمانع الجلوس ولا بأس بقليل من التحسيس، إن كنت سأقبض الثمن أخبارًا وأسرارا، حسس وأطال التحسيس وأخبرني بأن القافلة سترحل قريبا إلى شرقي الأردن، أخبار تافهة لا قيمة لها، وما كان يهمني إن ذهبتْ إلى الأردن أو مصر، لقد بدأ استمتاعي بالرحلة، ولتذهب القافلة إلى الجحيم مادامت ستتجنب الموت، ومادمت سأتمتع بما حُرمتُ منه...شعر بأن ما قدمه من معلومات لا يستحق كل هذا التحسيس، فرمقني بنظرة وقال:

- أتريد أن أرتب لك لقاء حميما معها؟

غمزني بطرف عينه كي أفهم أنه يقصد رباب، ثم قال:

- إنها رهن إشارتي، وستفعل ما أريد، هذا إن رغبتَ.

لم ترق لي الطريقة التي صور بها حبيبتي كعاهرة، وسألته:

- وماذا تريد بالمقابل؟

غمزني بطرف عينه وعض شفته، ففهمت ما يرمي إليه، ولمَّا حاولت أن أخوض في حديث آخر هز رأسه وقال:

- لا تهدر وقتك في مراقبتها، اذهب واجلس بجانبها، واترك يدك تلامس فخذها وستتفاجأ أنت بالنتيجة. كن جريئا واكتشفها.

يتخرع أمامي كفاجرة، وفي لين المومسات أشعل نار شهوتي تجاهها، ثم انصرف وتركني في حيرة...ما كنت أطيق النظر في عينيها، فكيف سأجرؤ على ملامسة فخذها! تبا له ولجرأته! ليته يعرف كم أنا خجول جبان!

دقائقٌ معدودةٌ حتى وقف ظل فوق رأسي، فالتفت لأرى رباب تحمل بيدها كوبًا من الشاي، وتجلس بجانبي وتقول:

– هذا الشاي من صديقك مالت، قال لي: إنك حزين، وبحاجة لمن تتحدث معه...ما بك يا عزيز؟

أسكرتني الفرحة بمجيئها، وشكرت الملط سرًا، وأخذت أسألها حول شخصيتها، وبلدتها التركية، ضحكت وقالت:

– أنا مصرية.

لم أصدق ما سمعت، واعتقدت أنها تمازحني، ولكنها فاجأتني وتحدثت بالعربية، وهي تضحك:

– (أنا مصرية يا عزيز أفندي.)

تنهدت سرًا:

– آهٍ كم أكره العرب وأهل مصر! ولكني أحبها حتى لو كانت مصرية.

تحدثنا بالعامية، وانتقدت طريقتي في نطق بعض الكلمات، وقالت بلهجة مصرية:

– (قدامك سكة طويلة لتتكلم العربي اللي هو، بس يلاَّ كلُّه مَحصَّل بَعضُه، المهم إنْ اللي بيسمعك يفهم، ولازم تعَوَّد لسانك على الكلام أكْتَر مِن كِده.)

تحترق الكلمات بين شفتيها، وتنطلق نحوي قبلا تضرم نار حرماني، الغنج أتعبني، والآهات أثملتني، لقد كان في نظراتها شيء يدعوني لأقترب، خُيِّل لي أنها همست:

– انظر حولك، لا يرانا أحد، انتهز الفرصة، فأنا بين يديك ماذا تنتظر!

ما عاد يريحني تقبيلها وملامسة جسدها في مخيلتي؛ تملكتني الشهوة، وهامت روحي تائهةً في مفاتنها، وذاب خجلي في لهيب اشتهائها، انسلَّت يدي متحسسةً فخذيها، أمهلتني لحظة إفاقتها من حقارتي، وبدلا من أن تتأوه رسمت على وجهي صفعة جرحت شفتي وخلخلت أحد أسناني؛ ورمتني بنظرة اخترقت جمجمتي ونفذت إلى الاتجاه الآخر:

- (يا ابن الكلب، الحركات دي تعملها مع أمك واختك.)

تركتني وانصرفت...تصنمت مكاني ومر دهر حتى صحوت من صدمتي، مرددًا:

- ملط...عليك اللعنة أيها المخنث الحقير؛ لقد فعلت بي ما لم تفعله أشباح الموتى.

تذكرت مئات الصفعات التي رافقتني عبر سنين عمري، الكل يصفعني؛ في البيت، في الحي، في المدرسة. لعنة الله عليها وعلى العرب وأهل مصر ومعهم الملط المخنث.

تبين أن القدر قد ألقى بهذه المِصرية في طريقي لتكون إحدى اللعنات التي ستطاردني لوقت طويل، لم أجرؤ على الالتفات حولي، لأرى كم شخصا شاهد إهانتي، أحنيت رأسي، وانصرفت ولم يكن هناك شيء أحب إلى قلبي من الابتعاد عن هذه القافلة، أسرعت للبحث عن حيان، وسألته أن يسرع بهروبنا، ولا داعي لانتظار منتصف الليل.

طلب مني أن أصبر قليلا مفضلاً الهرب أثناء سير القافلة وما يصاحبه من ضجيج، ومادام الكل سيتحرك لن يسهل على الغربان مراقبة كل شيء، سنخترق الثغرات بأطراف القافلة لاستحالة حراستها من الأطراف أثناء سيرها بين التلال.

كانت الخطة تقتضي أن أتسلل أنا ورشيد بِناء على إشارة حيان، فأقوم بمراقبة الطريق، ويسير رشيد بمحاذاة القافلة المُجبرة على السير البطيء، وأن نحرص على التواصل الإشاري، وعند تيقني بأمن الطريق أعطي الإشارة لرشيد؛ فيتواصل مع حيان، ومن ثم يتسلل حيان مع البيك.

غربت الشمس وتحركت القافلة، ودق قلبي متسارعًا، وانتابني ذعر شديد، عبرنا طريقا تحيط بها تلال وأشجار، وعرة السير. يقترب مني رشيد وغمز بطرف عينه ليخبرني بساعة الصفر، كان جمال قريبا مني ولكني غافلته وتسللت بين الصخور، ولم يتبه إليّ أحد، ثم تبعني رشيد.

عدت إلى الخلف باحثًا عن مرتفع يمكِّنني من استكشاف الجهة اليمنى التي ننوي اختراقها، ويمشي رشيد بموازاة القافلة، محافظا على مسافة تسمح لنا بالتواصل، وبالرغم من أن

القمر خسر ربع نورِه إلا أنني لم أجد صعوبة في التواصل معه في بادئ الأمر، ولكن عندما توغلت صعودا إلى أعلى التلة حُجبت الرؤية بفعل أغصان الشجر.

لم أتصور أن الطريق الصاعد بهذا الطول، ابتعدت كثيرًا ولم يفارق مسامعي دبيبُ حوافر الدواب ونحيحها، حجم القافلة وطولها وبطء حركتها يبقيني بموازاتها.

دقائق...وبين الأشجار لمحت رجلا يقصدني، فخلعت بنطالي مسرعًا، وقرفصت بحجة التغوط، فإذا بزنجي عملاق يقف فوق رأسي، ويراقب في صمت، لم يبعد عني ثلاثة أمتار فخجلت ورفعت بنطالي، وحين رأيت أسنانه تلمع أيقنت أنه ابتسم ولم ينتبه لنية هروبي، فركضت عائدًا إلى القافلة، وشعرت بالارتياح حين تأكدت أن رشيدًا قد انتبه لعودتي، وتبعني بعد دقائق.

اقتربت من حيان ولم أخبره بفشلي في الابتعاد عن القافلة، ولا بخدعة التغوط، بل أخبرته أني تسللت بين الأشجار ولمحت الكثير من الأغربة المسلحين يحيطون بنا، ويراقبون كل حركة، وكان هدفي إغلاق الطريق على أية محاولة جديدة يزجني بها، ويكون فيها هلاكي، فمخاطر الهرب تفوق مخاطر البقاء، ومازال في نفسي شيء من الشك في تصديق خطر البقاء، فهمس حيان للبيك وقال:

– الأمور أعقد من تصوري، ولابد أن أجد طريقة لطلب المساعدة من أصدقائي.

أسعدني أنه عدل عن فكرة الهروب، وليبحث عن طرق أخرى كيفما يشاء مادام ذلك سيتم بعيدا عني، القافلة تسير وكلٌّ منا يحتل موقعه تبعًا لطبيعة السير، فألفينا أنفسنا وسطها، لم يكن من السهل رؤية طليعة القافلة أو مؤخرتها، لا شيء مثير في المنتصف، فتباطأت ليتجاوزني مَنْ خلفي، ثم ارتدت مكانا يمكّنني من المراقبة...لاحظت خروج عدد من الخدم عن القافلة، يجرون خلفهم حمارًا ويتوارون عن الأنظار، واستطعت أن أميز الملط بينهم بملابسه المزخرفة.

لم يمر الكثير من الوقت حتى طُلب منا أن نعتني بالدواب، ونأخذ قسطا من الراحة، وأشار الدليل إلى مواقع الماء؛ بئران يبعد الواحد عن الآخر ما يزيد عن المئتي مترًا، واستراحة

الدواب تعني أننا سنحِلُّ وقتا كافيا للوصول إلى الماء، ولا داعي للتزاحم حول البئرين، ولكن من المُحال أن يكون هناك نظام حول ماء في مثل هذا الحر، وكانت الفوضى...

طلع فجر جديد، وكان ليمر مثل كل فجر سبقه، لولا إصرار طبيلة أن ينضم للمصلين، وقد تضاعف عددُهم بعد معركة الثلاثاء، وحاول سلامة ثنيه عن الصلاة، ولمَّا لم يفلح أمسك بيده وأوقفه في الصف الأخير، وما كان العملاق ليرضى بالصلاة بعيدًا عن صاحبه الإمام "سمامه" الذي لم يجد أمامه حلا إلا التنازل لجوهر ليؤم المصلين بدلاً منه، ويصطف بجوار العملاق في الصف الأخير.

همهمة طبيلة بين الحين والآخر تسببت في إضحاك بعض المراقبين...في هذه القافلة يندر التبسم، والعملاق الذي خافه الجميع بالأمس، أسعد مَنْ جاء لمراقبته الآن، وهو يقف بجوار سلامة يميل برأسه قليلاً ليلحظه ويقلده، وعند سجود سلامة ما كانت المساحة لتتسع لسجود طبيلة، فاصطدم رأسُه بمؤخرة سالم ودفعه بعيدا.

فجر الجمعة أشرقت فيه الابتسامات وانتشر الحب، وتلاشى الخوف، وكان الجميع يرغب في معانقة طبيلة الطفولي، أمَّا أنا فكنت أرغب في معانقة فتاة الكعب البغيض، التي انضمت لحشد المراقبين، وكانت قريبة بما يكفي لأتفحصها من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها المغطاة بقطعتين من جلد نمر مُرقَّط؛ مثل هذا الخف لا تنتعله إلا من اعتادت قدماها لبس الحرير، وما كان لبنات العامة أن ينتعلن مثله، وسروالها حريري أخضر، مطرز بخيوط ذهبية، يعلوه ثوب أسود قصير لم يلق ركبتيها، تشطره فتحة من العنق إلى حزامٍ من الحرير الأصفر يشده إلى خصرها ، يطالع من ورائه قميص مشدود يجسِّم صدرها الناهد، وشم فراشه يزين عنقها، وقد انسدلت منه سلاسل الذهب والفضة، رقيقة الشفة، امتد أنفها قليلا ليتناسق مع قسمات وجهها، عيناها بنيتان تراودهما لمحة حزن، يضم شعرها البني شريط من القماش الأسود، ينسدل بين كتفيها كذيل فرس جموح، يتدلَّى من كل شحمة أذن ثلاثةُ أقراط؛ واحد من الذهب واثنان من الفضة، كانت أطول مني قليلا.

خالطتنا وضحكت معنا دون كلفة، وجاملت الجميع دون تمييز، ورمتني بنظرة دافئة لامست شَغاف قلبي، فوقعت في غرامها، ليتني كنت أرتدي ربطة العنق وحذائي الإيطالي،

لاقترب منها وأحدثها عن مكانتي الرفيعة! وما كان ليردعني وجود الخنوص بالقرب منها لمراقبته وحراستها. يراودني شكّي بوجود علاقة بين الخنوص والجميلة. مرت بجانبي ولم تبعد عني مسافة ذراع، وفاحت منها رائحة النَّعناع، أسكرتني بعبقها وانصرفت...تركتني ولم تكن هناك رائحة في الوجود أحب إلى قلبي من رائحة النَّعناع، فأطلقت عليها اسم نعناعة.

أشرقت الشمس وفاحت معها رائحة النعناع، ونشرت نورها على قمم التلال، وانزلقت إلى الأسفل قليلا ومازالت الظلال تحيط بنا بانتظار وصول خيوط الشمس لتبددها. جودت وبرفقته أبو سعد ومن خلفهم الكعب وأحد الأغربة يقتربون من الجرحى؛ للاطلاع على حجم الإصابات وتحديد مَنْ سيبقى ومَنْ سيرحل، ولمَّا وصلوا إلى البيك، وطلب منه أبو سعد أن يستعد للمغادرة مع المصابين للعلاج، رفع روهان ذراعه المصابة عاليًا متظاهرًا بسلامتها، ونافيًا حاجتها إلى معالجة؛ يقول الكعب:

- (أحسن حبيبي تروح الحكيم وانت كبير بالعمر ولازم ارتاح.)

أصر على رحيله مع المصابين، ولكن روهان لم يرضخ وأعلن تمرده عن مرافقتهم، وأمام إصرار البيك امتعض الكعب وبدا أن أبا سعد سيجبره على مرافقة المصابين، فتدخل جودت وطلب منهم أن يتركوه ليكمل الرحلة مع القافلة، وافقوا على مضض وعيونهم تقدح تهديدا ووعيدا.

تم جمع المصابين واصطحابهم إلى جهة مجهولة، رافقهم اثنان من الفرق الخاصة، كان مثيرا للاستغراب ذلك الاهتمام المفاجئ بالجرحى بعد أيام من إصابتهم. يتردد في أذني ما قاله كعب الحذَّاء "حبيبي انت لازم ارتاح." ولكن وقتها لم أفهم نوع الراحة التي خطط لها.

العديد من الاجتماعات الثلاثية في خيمة الملثم، تضم جودت وأبا سعد، يتلوها اجتماعات ثنائية بين جودت والكعب الأقل شأنا بينهم، تيقنت أن جودت هو الرأس الأكبر بين أربعتهم.

الملط كان يقف على بوابة الخيمة ككلب حراسة، وبجواره يقف الزنجي الضخم كالصنم، زوَّار خيمة الملثم أثاروا فضولي، ولم أتوقف عن مراقبتهم إلا حينما لمحت نعناعة تتمشى برفقة

بيبرس الخنوص وقد أطلقت شعرها، وكانت ترتدي ثوبا من الحرير غلب عليه اللون الفضي، يشبه ما ترتديه بنات السلاطين.

كان واضحًا أني لو فتشت حقائبها لوجدت الكثير من الأحذية الثمينة الشبيهة بخفها المطرز، الذي لم تعبأ به خطواتها اللامسئولة بين حجارة الوادي، ألم يكن بإمكانها أن ترتدي حذاءً خشنًا يناسب شراسة الوادي! لابد أنها فاحشة الثراء لتعذب هذا الخف الجميل بهذه الوحشية التي لا تناسب رقتها.

ابتسامتها لم تكن ثمينة، فهي تمنحها للجميع دون كلفة، وهذا لا يليق بمكانتها وخفها الراقي، تواضعها أثار سخطي كثيرا، واجتاحتني رغبة في توبيخها لتتوقف عن توزيع الابتسامات على الرعاع والأوغاد، الخنوص بيبرس يرافقها ولم يخفَ أنه يتعذب بعشقها، وكأن ذلك محرم عليه، هو حريص على السير بجوارها، وكلما سبقته بخطوات أشاح ببصره؛ كي لا يصيب مؤخرتها، يجاهد عينيه عن النظر إلى جسدها، وكأنها تسير بجواره عارية، وهذا أثار استغرابي قليلا.

لم أتوقف عن المراقبة ويبدو أن عيني قد أصابت الأميرة وخفها الجميل، فتعثرت وسقطت فوق جمال الدين الذي لم ينفك عن النظر إليها مُذ رآها، وفي وقاحة مبتذلة ساعدها في النهوض تاركا يده تتحسس خصرها وردفها، وبدلا من أن تصفعه، كافأته بابتسامة عريضة، شعرت بالغيظ لأني لم أكن مكانه لتتعثر وتسقط فوقي، ثم لأكون أشد وقاحة من جمال الدين.

غيمة سوداء مرت فوق رأسي حجبت عني نور الشمس، وأنا مستلقٍ أراقب وأغرق في ملذات أحلام يقظتي، رفعت عيني وإذا بالمارد اللعين يقف فوق رأسي كشجرة تيبست واسودت ومازالت متمسكة بالأرض، وكأنها تنتظر معجزة الحياة، أخذ يتفحصني ثم هز رأسه القبيح، ارتعب قلبي وكدت أفقد وعيي، حينما اعتقدت أنه ولج عقلي ورأى كيف عرَّيت فتاته من ملابسها، وسرعان ما اطمئن قلبي عندما انتقل إلى آخر ليتفحصه، ولم يتوقف عن تفحص الجميع بالطريقة نفسها.

استلقى الجميع على الأرض كأفراس نهر أتخمها الشبع وشرب الماء، أو كالنعاج في قيلولتها؛ كلٌّ ارتمى بجثته حيث أراد؛ يستظل بصخرة أو بقايا شجرة، واجتمع البعض لأداء صلاة الجمعة بعدما أذن سلامة مرتين ووقف فوق صخرة وألقى خطبةً ذكَّر فيها الناس بالاستعداد إلى الموت في كل وقت، وأن متاع الدنيا زائلٌ لا محالة، وانضم إليهم حيان ورشيد، سبحان الله! لقد أنار الإيمان قلوب هذه القافلة، وعدد المؤمنين يزداد يومًا بعد يوم، ولن أتفاجأ إن رأيت البيك يؤمهم في إحدى الصلوات.

لم يتوقف المارد عن مراقبتنا، وفي الجهة الأخرى وقف عشرة أغربة ضخامُ الجثث، قِبَاحُ الوجوه، ولم أجد تفسيرًا لوقوفهم على مقربة منا، وفور انتهاء الصلاة عاد الكعب المسخ يجول بيننا من جديد، ويشير بإصبعه الطويل تجاه من يقف بجانبه، ويقول:

- (انت جهز نفسك لتأتي معي، وانت، وانت.)

اختار أكثر من عشرة خراف، وكرر ما قاله أكثر من عشر مرات.

صعقني حين اقترب مني، وقال:

- هيا اجمع أغراضك وتعال معي.

روهان بيك لم يكن يبعد عني مترا واحدا، وراقب عملية اختيار الخراف، فاحتج بقوة قائلاً:

- هذا خادمي، لن يذهب معك.

الكعب رمقه بنظرة احتقار وشعرت أنه سيركله بقدمه، أو سيبصق عليه، ولكنه تجاهله وقال لي بصوت ملأه الضيق:

- هيا تحرك وتعال خلفي.

روهان أخذ يصرخ ونادى بأعلى صوته على جودت الذي وقف بعيدا، بجوار أبي سعد والدليل:

- (يا صول، يا باشا، يا يوزباشي، يا أفندي.)

ناداه بمعظم الألقاب حتى لفت انتباهه، وحينما اقترب منه أخذ يحدثه وكأنه يسعى لتذكيره بأنهم أبناء طبقة الباشوات، ويتوجب عليهم احترام بعضهم البعض، وقال:

- هذا خادمي، وأريد أن أحتفظ به.

وهنا سخر الكعب منه، وسبق جودت قائلاً:

- بعد عودتك إلى إسطنبول اشترِ خادمًا آخر.

ويبدو أن جودت تعاطف مع البيك قليلا وحدثه برقي واعتذر له عن اضطراره لأخذي، ولأول مرة مُذ عرفته أراه يستسلم بسهولة ويخضع دون مقاومة، وقتها لم أفهم، ولم أتوقع التخطيط لتقسيم القافلة...التفتُّ تجاه البيك وعيناي تتوسل إليه في صمت:

- لا تتنازل عني، عليك أن تصر على بقائي بجانبك.

رماني بنظرة غاضبة حاقدة، ملتهبة، شيطانية، وأشاح ببصره عني، وقال لجودت:

- كما ترى ذراعي مصابة وإن لم يكن من أخذه بدٌّ، أستأذنك أن تمنحه لي دقائق ليخلع حذائي ويغسل قدمي.

أحنى جودت رأسه موافقا، وكم تمنيت وقتها أن تكون لدى البيك خدعة ما ليحتفظ بي! ولكن عيناه أخبرتني خلاف ذلك، دفعت إصبعي في أذني بقوة، لعلي أخرج منها بعض ما سكنها من قذارة كلماته، أمسكت بأنفي، أشده بقسوة لعلي أفيق من هذا الكابوس اللعين، ولكن يبدو أني لو خلعته من مكانه لن يتغير شيء.

لم يصفني البيك بالخادم من قبل، كان يدعوني أمام الجميع بـ عزيز أفندي، البيك، الباشا، الآغا، صديقي، رفيقي، زميلي، مساعدي، أمَّا الخادم فلم ينطقها قط، حتى في ثمالته.

تركنا جودت وانصرف، وانتظرت أن يبرر ما قاله، ولكنه جاهر بصوته:

- اخلع حذائي يا عزيز بسرعة، وأحضِر الماء واغسل قدمي، ولا تنسَ أن تلمع الحذاء جيدا، وأن تغسل الجرابات المتسخة وتجففها.

تصنمت ولم أقو على الحركة، رفع البيك صوته ثانيةً مكررًا قولته. لم يحتقرني هكذا من قبل؛ لقد حاولت خلع حذائه –ولم أجد في ذلك إهانة–حين أصيبت ذراعه فسبقت يده يدي معترضًا، أمَّا الآن فيتخذني خادمًا وضيعًا، لقد عَمَد إلى إهانتي أمام الجميع، وكأنه قال:

- خذوه لا حاجة لي به، ولكن قبل ذلك اعلموا جميعا أنه مجرد ملمع أحذية.

ليته قال الطربوش! فالطربوش يزين الرأس أما الانحناء على الحذاء يمثل أدنى منزلة لوضاعة الفرد.

كنت أدَّعي أني أستاذ كبير ولم أشعر بأني أكذب، فأنا أستحق هذا اللقب، حتى ولو لم يمنحني إياه أحد، ولكن بعد ذاك اليوم ماذا تبقى لي لأدعيه! أنا حَذَّاء البيك، خادم البيك المسؤول عن حذائه.

لطالما سالت دموعي لأتفه الأسباب، فكيف لي بمنعها في مثل هذا الموقف العصيب! فاضت مدامعي، وشقت طريقها إلى حذاء البيك الذي انحنيت أمامه، ولعلها ستكون مفيدة في تلميعه...لم تزده دموع وجيعتي إلا قسوة، راح يجاهد نفسه ليجلجل صوته، ولم ينقصه إلا أن يترجم للعرب الذين لا يفهمون التركية؛ إنه يتلذذ بإذلالي:

- يا حيوان كم علمتك أن تخلع حذائي بلطف حتى لا تتلفه! لمِّعه جيدا، تحرك أيها الكسول البليد، انقلع عن وجهي وأحضر الماء لغسل قدميَّ الكريمتين.

أسرعت في طلب الماء، منكس الرأس، لابد أنهم يسخرون من أكاذيبي؛ ها هو أستاذ الآثار الكبير ابن الباشا ينفضح أمره، ليتبين أنه الخادم الأكثر وضاعة في هذا الكون؛ إنني وصمة عار تلحق بالخدم، ولا يجوز وصفي بالخادم، فالخدم لهم احترامهم ومكانتهم، أمَّا أنا فعبد حقير يمتلكه روهان بيك.

أحضرت الماء ورفع البيك قدمه فوق حجر حتى لا تتغبر، ومازال مُصرًّا على إهانتي:

- انحنِ واغسلها جيدا.

لا أعلم لماذا أطيعه خانعًا صامتا! ولماذا لا أثور لكرامتي! ولماذا أتركه يتمادى في إهانتي! ولكن ماذا يمكنني أن أفعل غير ذلك! لقد كان الوالد والصديق والأخ والمعلم، لم أخالفه يوما، ولم أشعر بالإهانة من خدمته، وما كنت لأشعر بأية إهانة إذا أمرني بخلع حذائه، وما كنت لأرى في ذلك سوى ابنا يساعد والده.

أنكبُّ على قدميه، أسكب الماء...تمتزج دموعي بالماء، لتقبِّل قدم سيدي.

لا أسمع إلا همسا:

- عزيز يموت، سانتور يعيش.

يكرر:

- عزيز يموت سانتور يعيش، كن سانتور لتعيش يوما آخر.

لم أكن قادرا على التفكير في مغزى قوله.

يقول البيك:

- لا ترفع رأسك واستمر في غسل قدمي يا عزيز، وتذكر قصة السانتور التي ترجمناها في المُتحف قبل خمس سنوات وضحكنا عليها معا، هل تذكرها أيها الأبله؟ لا ترفع رأسك وأجبني هل تتذكرها؟

طأطأت رأسي مؤكدًا، وتابع همسا:

- أعلم أنك لا تنسى شيئا، بالرغم من أنك تتعمد أن تتناسى نصائحي، أريد منك أن تكون سانتور لتعيش أيامًا أخرى وتجد طريقك للنجاة، لا تكن عزيز. كن سانتور فقط! لو أنك لم تشغل نفسك بمراقبة مؤخرة عاهرة المشعوذ الإفريقي، لعلمت ما يدور حولك، لعلمت أنه لن يخرج أحد حيا من هذه القافلة، حينما ترافقهم خذ كل حقائبي، ولا تترك إلا حقائب أدوات العمل وزجاجات العرق، وفي حقيبتي البنية جيب سري لا داعي لأدلك عليه، فأنا أعلم أنك فتشته ألف مرة، ستجد فيه حجرا كريما والكثير من الدفاتر، احرص عليهم جيدا، وحينما تجد طريقة للنجاة من هذه القافلة الملعونة سلمهم لـ نازلي

هانم، أريدك أن تنسخ كل ما في المفكرة بذاكرتك، والأرقام حولها إلى رسومات كما علمتك، وإن حدث طارئ ادفنها مع البلورة في أي مكان، وحينما تنجو ارسم كل ما خزنته بذاكرتك للهانم، ولا تطلع أحدا على ما طلبته منك، وحيان الوحيد الذي يمكنك الوثوق به في هذه البلاد، ومع هذا لا أريده أن يعرف.

لم أكن أصغي جيدا رغم دفء صوته، فلا شيء مما يقوله قادر على مداواة جُرحي، ولكن حينما قال "لا تخبر حيان" تفجَّر نبع بداخلي وتدفقت منه مياه باردة أخمدت نار وجيعتي، وعاد إليَّ رُشدي، لم أنتبه إلى تَبِعات مشاعري التي بها يتعطل ذكائي ويكسوني البله...تنحَّت عواطفي جانبا لتفسح مجالاً لعقلي.

دقائق كانت كافية لأستعرض كل ما حدث بما فيها قصة السانتور، وأدركت أن كل ما بدر منه لم يتعد التمثيل، كان يهدف أن يرسم لي أول الطريق للنجاة، بناءً على ما استشعره من خطر من جراء مراقبته الدقيقة والذكية، وتبين لاحقا دقة كل كلمة قالها.

همس وتمتم وبذل كل جهده ليفصِّل دقائق الأمور حول طبيعة هذه الرحلة وغموضها، هذا العظيم كان يراقب كل شيء؛ أخبرني أن الكعب مشعوذ من دعاة السحر الأسود، فحينما انشغلتُ بالتباهي واستعراض نفسي بغرور، انشغل بالمراقبة والتحليل بحكمة ودهاء.

رفعت رأسي ونظرت في عينيه، فطالعت دمعةً تفر في سكون، فلم أتمالك نفسي، فهذه المرة الأولى التي أرى فيها البيك يبكي، أجهشت بالبكاء كالأطفال، وأخذ البيك يصفعني على وجهي بقوة ويركلني بقدمه بقسوة:

- اذهب يا كلب وأحضر الجوارب والدواء.

صفعات البيك التي باغتني بها كانت جوابًا لكل من تساءل عن بكائي، رفعت رأسي ورأيت شفقة حانية تفيض بها عيون مَنْ حولي، ولن أنسى يوما نظرات الشفقة التي لمحتها بعيني المصرية قبل أن تهرب بها بعيدًا وتتظاهر بأنها لم تنتبه لإهانتي...تساءلت للحظات؛ لماذا لم أرَ الشماتة بعينيها؟!

جمعت زجاجات العرق في حقيبة واحدة وأعددت بقية الحقائب، وعدت بزوج جوارب نظيفة، ألبستها للبيك، ولم أشعر بأية إهانة، بل شعرت بفخر، فحذاء هذا الرجل أشرف من رؤوسهم مجتمعة، وقال لي:

- لا تذكر من علاقتي بك سوى هذه اللحظات حتى تنجو.

وقبل أن أسأله لماذا حمَّلني كل حقائبه وهي ملآنة بالكثير من الملبس والطعام، ولماذا لم يبقها معه، أجاب وكأنه مطِّلع على أفكاري:

- كن سانتور، والسانتور لا يسأل أسئلة تدل على ذكاء، أنا عجوز أشيب، يرهقني المحافظة على زجاجة العرق التي معي، فكيف لأحافظ على أهم شيء ملكته في حياتي! خذها وسأتدبر أمري، هيا اذهب.

أمسك بزجاجة العرق وأخذ يرتشفها ويمسح شفته وذقنه مما سال عليها، ويضحك، وبأعلى صوته يصرخ:

- وسقط الطربوش...وسقط الطربوش.

اقترب الكعب مني وقال:

- هيا تحرك بسرعة.

وأخذ يحرك أنفه ويشتم رائحة الخمر قائلاً:

- (شو هذا شو بتشرب؟! استغفر الله العظيم بتشرب خمرة وما بتخجل على حالك واحد شايب!)

وضحك البيك وسخر منه قائلا:

- هذا علاج للطربوش يا شيخ، كل طربوش بحاجة لدواء يبقيه منتصبا، وطربوشي ارتخى لهذا أعالجه.

بصق الكعب على الأرض ورماه بنظرة احتقار واستدار، فسرت خلفه، كنت سانتور لا عزيز، من بعيد لمحت حيان يقف وعيناه تراقب، ولابد أنه تابع كل ما حدث.

مخططاتٌ جديدةٌ لتقسيم القافلة، واستمرت عملية التقسيم واختيار الدواب والأحمال والمؤن لعدة ساعات، شمالاً وقف روهان وحيان مع المجموعة الأولى، وجنوبًا كنت مع المجموعة الثانية، وفي الوسط كان يقف جودت يشرف على إعداد القافلتين، وأحيانا كان يتدخل لفض أي نزاع ينشب بين أبي سعد والكعب، حول خادم يريده أحدهما لنفسه أو شخصٍ يرغب أحدهما أن يرميه على الآخر.

انتهى التقسيم والفصل ولوَّح جودت بيده لأبي سعد وانضم إلينا، وأصدر أوامر الاستعداد للانطلاق تجاه الجنوب، أتفحص رفاقي بالقافلة، لقد اختارهم الكعب بناء على أحجامهم الضئيلة، وشخصياتهم الضعيفة، يبدو أنه أراد خرافًا يسهل السيطرة عليها، أو أنه لم يرغب أن يكون بالقرب من جميلته أشخاص تدل هيئاتهم على قوة الرجال.

واأسفاه! لست فارع الطول مثل حيان؛ لا تكاد تصل جبهتي إلى كتفه، وزني نصف وزنه. شاربي يبدو هزيلاً على الرغم من حرصي على الاعتناء به، نصحوني أن أزيله نهائيا حتى يتجدد وينمو، ولكني لم أجرؤ على العيش بدونه يومًا واحدًا، فضلته هزيلا ملعونا على أن أعيش يومًا بدون صحبته.

كان رشيد ضمن الخراف التي اختارها الكعب، وسلامة أكبرنا سنا، ولا يشكل خطرا على أحد، وتكاد الدموع تقفز من عينيه بعد عزله عن طبيلة، ولم يجرؤ على الاعتراض، وعينا عبد القادر مغلقتان دوما، ولسانه لا يطل من فمه، ويعتذر للذبابة قبل أن يذبها، وسعدون ابن حرام بكل ما يحتمله اللفظ من دلالات؛ لا أصل له، يشبه الروس في هيئتهم، ويحمل من اللؤم والمكر ما يكفي لأبدو ملاكًا مقارنة به، والبقية لا تدل شخصياتهم على شراسة.

أربع عشرة من الخراف المسالمة، إضافةً إلى جودت والكعب، ونعناعة، والخنوص بيبرس، والولد الأمهق الذي أحضروه منفردا بالأمس، تحركت قافلتنا تاركةً البقية خلفنا وقبل أن نتحرك اقترب منا الملط في وقاحة، وأشار لأحد الخدم أن يتبعه واستدار وعاد أدراجه، وحينما انتبه الكعب أراد أن يلحق به إلا أن جودت أشار بيده قاصدًا تركه، كان واضحا أن الملط يتمتع بحماية سيده ليكون وقحًا، ولم يجد الكعب ما يعبر به عن غضبه سوى أن يردد:

- (اروسبو اغلو.)

ويبصق على الأرض عدة مرات.

أمسك الدليل برسن بغله وانطلق أمامنا وتبعناه، ولم أتوقف عن التلفت، أُضرمت نار قلبي شوقًا للبيك، لم أبتعد عنه أكثر من مئتي مترًا حتى شعرتُ أن قلبي يسقط في أحشائي؛ إحساس مروِّع لم أعهده من قبل، تتضاءل بجواره لحظات الفزع التي عايشتها عند مشاركتي في دفن الجثث، لا شيء يرعبني أكثر من أن أعيش في عالم لا يكون فيه روهان بيك.

شقت القافلة طريقها وكل خطوة تأخذني بعيدا عن البيك، وعلى مدّ البصر لمحت خيَّالا قادما على أثرنا، وخلفه كان يركض طبيلة وقد أثار عاصفة من الغبار.

ينادي الخيال:

- سمامه...سمامه.

وتبين أن الخيَّال هو أبو سعد، وقبل أن يصل أشار بيده إلى طبيلة وقال لجودت:

- خذه هدية مني لشيخك، مباركٌ عليكم.

وضحك قبل أن يستدير عائدا، وضحك جودت أيضا. تبرَّم الكعب الذي حرص على انتقاء خرافٍ هزيلةٍ مسالمةٍ، وها هو يجد نفسه برفقة وحش عملاق. لا يبدو أنه قادر على الاعتراض، واكتفى بمتابعة البصق على الأرض.

أمَّا سلامة فلم تسعه فرحته بعد أن عاد إليه طبيلة، ولم أفهم وقتها السبب الذي دفعهم للتخلص منه، وعلمت بعدها أن طبيلة التصق بالأرض وأبى التحرك مع القافلة، وتساءلوا من أين سقط عليهم! وكيف انضم إليهم! وهنا تدخَّل جَمال الدين وأقنع أبا سعد بأن يرسل في طلب سلامة إن أراد السيطرة على طبيلة، إلا أنه اختار أن يمتطى جواده ويطلب من طبيلة أن يتبعه، فَحَرَنَ في مكانه حتى اقتربت منه رباب المصرية وأقنعته بأنه ذاهب لسلامة، وعندها هرول مناديًا:

- "سمامه...سمامه."

قمم الجبال والتلال المحيطة بنا تطاول قرص الشمس، وما زلنا قادرين على رؤية ما تبقى من نورها قبل أن تتركنا، أسير راجلاً في زحمة الكثير من الدواب التي يمكن لها أن تحملني، كل شيء حولي بدا غريبا. للمرة الأولى أشعر برغبتي في أن أتملص من شخصيتي الزائفة، لم أتوقف لحظة عن تكرار نصيحة البيك الأخيرة، لم أفعل ذلك لأتذكرها، بل لأحرص على ألا أتناساها.

قبل سنوات كنت أقوم على خدمة ضيوفه من الباشوات لاحظ البيك هوسي بهم؛ فقال:

- أنت أرفع شأنا منهم، ولكنك تريد أن تخفي جَمَال ما تملك بقناع زائف، كن أنت فقط، هؤلاء طبول فارغة، عقولهم تتغوط، ومؤخراتهم تفكر، هوسك وتشبُّهك بهم لن يوصلك إلى أي مكان.

حينها كنت أبالغ بتعظيمهم، كنت لأبذر كل ما أملك مقابل ربطة عنق أو حذاء لأتشبه بهم، وما كانت نصائح البيك لتردع هوسي بثيابهم وأحذيتهم، طعامهم وشرابهم، تكبرهم وتواضعهم المصطنع، والآن أجد نفسي مضطرا لترك كل هذا خلف ظهري، واحسرتاه...لن أتمكن من أكون نفسي؛ عزيز مجرد عزيز، ذاكرتي وذكائي وكل ما أملكه من خبرة، ما عدت قادرا على التباهي به، لن أكون باشا، ولن أكون أنا...

"سانتور يعيش عزيز يموت" هذا ما قاله روهان بيك، وطلب مني أن أكونه...لقد برهنت الأيام أن نصيحة البيك وهذه القصة أنقذت حياتي:

في قديم الزمان وفي بلاد اسمها بابل عاش حكيم اسمه سانتور، خرج يوما للصيد وغاب لعام كامل، وفي طريق عودته استوقفته عجوز شمطاء، وعرضت عليه أن تأخذ منه صيده مقابل أن تجعل منه ملكًا على بابل، فرد عليها:

- لستُ أحمقًا لأصدق.

فقالت:

- لن يضرك أن تكون أحمقا لمرة واحدة.

فأعطاها ما حمله معه من صيد، ثم سألها:

- كيف ستجعلين مني ملكا؟

قالت له:

- كل ملك يحتاج إلى تاج، أعطني حصانك لأذهب وأحضر لك التاج.

فقال:

- لست أحمقًا لأصدق.

فردت عليه:

- أنت حكيم، ولن يضرك أن تكون أحمقًا لمرتين.

فأعطاها حصانه، وقالت له:

- أعطِني جبتك لتقيني من البرد في طريقي لإحضار التاج.

فقال:

- لست أحمقًا لأصدق.

فردت عليه قائلة:

- أنت حكيم ولن يضرك أن تكون أحمقًا لثلاث مرات.

فأعطاها ما طلبت، ثم قالت:

- أعطِني سيفك لأدافع عن التاج من اللصوص حتى أحضره لك.

فقال:

- لست أحمقًا لأصدق.

وردت:

- أنت حكيم، ولن تضرك أربعة حماقات.

أعطاها السيف، فقالت له:

- لا تدخل بابل حتى أعود إليك بالتاج.

وقال:

- لست أحمقا لأصدق أنك ستعودين.

فقالت:

- أنت حكيم لن يضرك خمس حماقات. وإن لم أعُد تذَّكر أن سانتور حكيم يموت، وسانتور أحمق يعيش.

وقبل أن تذهب سألها:

- من أنت أيتها العجوز؟

فأجابت:

- أنا من حولتك من حكيم إلى ملك.

تركته وهي تضحك، وجلس سانتور بجانب بوابة بابل بانتظار عودة العجوز مع التاج، فسأله خادمه:

- لِمَ لا ندخل بابل؟
- سأدخلها حين تعود العجوز مع التاج.
- وهل تعتقد أنها ستعود؟
- لا لن تعود أبدا.
- ولماذا تنتظرها إذًا؟
- أنا حكيم ولن يضرني ست حماقات.
- اعذرني إن قلت أن هذه العجوز حولتك من حكيم إلى أحمق.
- وهل يوجد أحمق لا يعتقد أنه ملك؟

مرت أيام ولم تعد العجوز، وخرج إليه جمع من أصحابه ليستقبلوه، ويزفوا إليه نبأ الآلهة؛ فقد أمرت كهنة بابل باختيار أذكى مئة رجل ليتنافسوا فيما بينهم لإيجاد طريقة لهدم برج المعبد العظيم، وأن أذكاهم سيتوج ملكًا على بابل وقد أجمع الناس على أن تكون أنت أول المئة، فهمس الخادم بأذنه وقال لقد خدعتك العجوز وإن اكتشفت الآلهة حماقاتك ستسخر منك فرد عليه:

- أنا حكيم لن يضرني إن سخرت مني مثل هذه الآلهة.

واكتمل البدر واحتشد الناس وجلس ممثلي الآلهة على العرش وأُعلن عن بدء اختبار أذكى أذكياء بابل، فتقدم كل منافس بما ابتكر من طرق، وابتدع من أفكار لهدم البرج، وهتف الشعب بحماس، وحينما لم يتقدم سانتور بأية أفكار سأله أحد ممثلي الآلهة:

- لمَ لا تتقدم وتنافس الآخرين على تاج الملك؟

فرد عليهم:

- لن أجهد نفسي بهدم أبراج الآلهة من أجل تاج ستحضره لي العجوز.

وقص عليهم ما حدث معه، هتف الجميع بصوت واحد:

- إذًا لحين وصول التاج، أخبرنا كيف ستهدم برج الآلهة بحكمتك، وربما ستفوز بتاجين.

وفاجأ سانتور الجميع بأن اقترب من البرج العظيم وأخذ يضربه برأسه حتى سالت الدماء من جبهته، سخر منه الناس، ووقف كبير ممثلي الآلهة، وقال:

- هذه هي الطريقة الوحيدة لهدم برج عظيم، سانتور يعيش، والجميع يموت.

وتوجوه ملكًا وصلبوا البقية، وأعلنوا أنهم في العام القادم وعند اكتمال البدر سيتم التنافس على اختيار ملك جديد، وفي كل عام كان يجتمع الأذكياء مجددا للتنافس على هدم البرج وعرش الملك، وعام وراء عام...سانتور يعيش ويحتفظ بالتاج والجميع يموت.

عادت العجوز بعد سنوات لتزوره وقالت:

- يا سانتور ألم تمل من كونك أحمقًا؟

فرد عليها:

- لن يضرني إن كنت حكيما طوال عمري.

هرم ومات ملكًا، وترك خلفه سانتوريات توارثتها الأجيال، وكانت آخر كلماته:

- لا تطلب من حكيم ألا يستظل بظل برجٍ عبده الحمقى.

القافلة تقصد المجهول، تجتاحني وحدتي، تُطبق على قلبي، تعتصرني بقوة، أشعر بالاختناق، تمتلأ رئتاي بسواد رؤياي، أغترب عن نفسي، أبحث في كل الوجوه، أستغربها؛ ما عاد فيها أنيس، أظلمت عيناي على جثث الموتى؛ منهم من يسبق الدواب ومنهم من يسير خلفها.

أسرعت الخطى، أسابق الموتى، أقترب من عبد القادر؛ عربي يسوق قطيع إبل، في بداية الخمسينيات، يشع وجهه نورا، شعره بني كثيف، قارب أكتافه، رمى عليه حطة بيضاء، لم يقيدها بعقال، وجهه مستدير أبيض، عيناه بنيتان، أنفه طويل قليلا، شاربه تنقصه العناية، مبتسم دوما، أسنانه ناصعة البياض، لحيته لم تطول كثيرا، يخالطها القليل من البياض، لم يكن فارع الطول، كان بنفس قامتي، لم أشعر جواره بالنقص، ربما لهذا لم أبغضه يوما.

كان يرتدي دشداشة بيضاء لم يكتف بتقصيرها، واعتاد ربطها على خاصرته، يحمل معه قربه ماء، ربطها بحبل رفيع، أطلقها لتتدلى من عنقه، وحقيبة فارغة من القماش تتدلى تحت إبطه، لا يحمل متاعًا، وملابسه دوما نظيفة، لذا تساءلت كثيرًا: هل يغسلها ليلاً! وكيف لا تتسخ، وهو يمضي معظم وقته بين الدواب! لم يتوانَ عن العمل، كنا نتدافع نحو بئر الماء والطعام، وكان يتنحى جانبا، ما رأيته يأكل أو يشرب، لا تربطه علاقة بأحد، ولم يعرفه أحد، اعتقده الجميع أخرسًا، كنيته أبو غميضة؛ فقد اعتاد إغماض عينيه؛ ليقطع السبيل عن محادثته.

اعتاده الجميع بعدما تحدث واعتذر عن فعله، لانشغاله بدعاء الله وتسبيحه، وبعدها لم يزعجه أحد، لم أره يصلي أبدا، ولكنني احترمت عزلته عن البشر، وتفضيله صحبة الدواب، ما كان ليعترض، وما كان ليترفع عن عمل، يهبُّ دوما للمساعدة دون أن ينبث بحرف واحد.

اقتربت منه وسرتُ بجواره؛ فأغمض عينيه، وفهمت مقصده:

- أنا عبد القادر لا وجود لي، ولا تحاول أن تحدثني لأني لن أرد عليك.

أحببت البقاء بجواره، كان يمشي عن يميني، كنت ألحظه بعيني اليمنى، وباليسرى أبصر طريقي، ومازال مُغمض العينين، بينما كدتُ أتعثر. ما كان هذا الرجل بحاجةٍ ليترقب، أو ليفتح عينيه ليرى ما عجزنا جميعا عن رؤيته.

ابتعدت باحثا عن رشيد، ومازال بغضه يسكن قلبي؛ لم أنس تآمره عليَّ، واحتجازي في تلك البئر...يا له من عبثٍ ساخر! مَنْ كان عدوًا بالأمس أحتاجه صديقًا اليوم، ومازال قلبي يعافُ اقترابَه؛ لقد أصبح رشيد الشخص الوحيد الذي أعرفه جيدا، والأقرب إليَّ بين الجميع. اقتربت منه فتجنبني هامسًا:

- لا تجلبْ إلينا العيون، لا تنسَ ما وصَّى به حيَّان والبيك.

لم ندر وقتها ألا أحد يكترث بنا؛ من نحن! ومن كنا! أو حتى ما هي أسماؤنا! ما دمنا عبيدا مطيعين قادرين على الحفر وحمل جرار الذهب، لم ندر وقتها أن أيامنا القادمة ستخلو من الأسرار وستمطرنا بالأحمر والأصفر.

الخوف يجتاح كل ذرة في كِياني، يلفح وجهي، يلوي عنقي، ويسري كالصقيع في عظامي، يزداد ثقلا على صدري، وركلاته داخل معدتي لا تتوقف، ليته كان ضبعا فأقتله، أو مرضا لأشفى منه! وجد الخوف طريقه إلى نفسي واستوطنها منذ طفولتي؛ قبل أن أجمع الأحرف لأنطقها، ولم أتحرر منه إلا على يد الشارب العظيم حيث قال لي آنذاك:

- الخوف صديق البشر؛ فقد شيد أسوارا عالية تحيط بنا، تحرسنا وتحمينا من كل خطر يمس وجودنا، ليس عيبا إن خفنا، بل العيب يصيب عقولنا إن لم نخف، لكن حينما نسمح لخوفنا أن يعبر الأسوار يتحول من حارس إلى وحش أسطوري يبتلع أرواحنا؛ يحرمنا لذة الحياة، يحجب عنا نور الشمس وضياء القمر، ولن يحمينا وقتها حصن منيع؛ عاليةٌ أسواره، فولاذيةٌ أبوابه من عدو سكن داخله، إنه لأكثر أمنًا أن نكون بالعراء بلا خوف، ولا نكون برفقته داخل حصن منيع...إنَّ قتلَ الخوف من المُحال، ولكن بالإمكان سجنه في زنزانة سحيقة بأعماق نفوسنا، وكلما قيدناه تحررنا.

قبل سنوات قام روهان بيك باعتقال خوفي وسجنه في أعماقي، وأخرج من جيبه مِفتاحا حديديا ودفعه في يدي قائلاً:

– حذارِ أن تسلمه لأحد، واعلم أن خوفك لن يتحرر إلا إذا فكَكْتَ أسره بيديك، لا تفتح له الباب يا عزيز، وإن غزتك الأوهام يومًا تذكر أن المِفتاح في حوزتك.

حملته معي، علَّقته بسلسلة في عنقي، ومُذ يومها لم أتركه أبدًا، وكلما حاول أحدهم أن يزرع الخوف داخل قلبي تحسسته لأطمئن على بقائه، لم يكن أكثر من رمز للمِفتاح الحقيقي الذي أخفاه البيك في عقلي، ولم أشعر يوما بالخوف طالما أني بصحبته، وها أنا أسير بين الدواب وحيدا، يتحرر خوفي شيئًا فشيئًا، ويتسلل ليقتحم أسوار أمني...أمسكت بالمفتاح، وأحكمت عليه قبضتي وأقسمت أني لن أستسلم أبدا، وسأقطع إصبعي إذا أبى أن يتحسس مِفتاح راحتي، كي لا أخيِّب أمل روهان بيك، سأحافظ على دفاتره وحَجَره، وأسلمهما لزوجته، وسيكون فخورًا بي حين ألقاه.

القافلة تشق طريقها عبر الجبال والتلال متجنبةً كلَّ الطرق المكشوفة، ولم يكن جر الدواب صعبًا؛ ففي أحايين كثيرة كانت تعرف طريقها جيدًا فتجرنا خلفها لنلهث وراءها جميعًا، بل نلهث وراء مصيرنا المجهول. كنت أشعر بأننا ابتعدنا كثيرا فعاودت الالتفات مراتٍ ومرات، وأخذت أقيس المسافات كطفل صغير يتساءل كم ابتعد عن البيت...كم ابتعدت عن روهان بيك؟

تحولت القافلة إلى طرق فرعية لم ترق للدواب، فأخذت تحتج وتعلن تمردها بين الحين والآخر، ولكن الساسة كانوا بارعين في إنهاء تمردها سريعًا، لم أكن أمتلك أية مهارات في سوق الدواب أو جرها، ولا أظن أن الدواب سيسرها التعامل مع جاهل بشؤونها مثلي، ولمَّا لم أجد سوى المراقبة كالأبله، أشغلت نفسي بالثرثرة مع أحد البغال المحملة بالكثير من الجرار الفارغة، فسألته:

– هل ترغب أن أحمل أثقالك يا بغل أفندي؟

فردَّ علي:

– ولماذا تسعى لقتلي يا عزيز باشا؟

راقني كثيرًا أنه رآني "باشا"، ووفر عليَّ افتخاري الزائف، ورحم أذنيه من الاستماع لشرح مفصل عن مكانتي المرموقة، وعلى أية حال لابد أن ألتزم بنصيحة البيك، فقلت:

– أنا لست باشا أنا مجرد سانتور ولا أسعى لموتك يا بغل أفندي.

فقال لي:

– وماذا تعتقد أن يُفعل بي بعدما تحمل أثقالي وتنعدم منفعتي؟ هل سيطعمونني ويتركوني أتبختر مثلك بلا عمل مفيد أخدمهم به؟!

امتدحت فطنة البغل، ووعدته أني سألتزم الحِكَم السانتورية بحذافيرها، وقبل أن أخرجه من رأسي طلبت منه ألا يبوح لأحد بكوني باشا متنكر في زي سانتور، فقال مُستهزئًا:

– لا تقلق أنا أيضا باشا، والحمار الذي بجواري آغا، ففي هذه القافلة كلنا باشوات يا أفندي.

دفعني البغل الحكيم إلى تذكر القواعد السانتورية التي تقول إحداها "سانتور يسبق الآخرين وينافسهم في القيام بكل عمل مهما كان وضيعًا"...ألحظ عبد القادر وأراقبه خفيةً متجنبًا الاقتراب منه كثيرا؛ حتى لا يغمض عينيه كعادته؛ وقد كان الأبرع في سوق الدواب وقيادتها؛ بحركة واحدة من يده يتمكن من السيطرة على قطيع كامل، ولم يضاهيه في براعته سوى سلامة.

تذكرتُ ما قاله لي روهان يومًا: "إنَّ ما يفعله رجلٌ يستطيع أن يفعله رجلٌ آخر"، فشعرت أن بإمكاني فعل مل يفعله عبد القادر، وكل ما عليَّ عند قودها أن أمسك الرسن وأشده إلى الأمام، وعند سوقها أسير خلفها مرددًا –في الحالين– بعض الكلمات العربية، التي لم أعرف معناها، وتعيها الدواب أكثر مني:

(هيش هو هي هيش هاش هيبي غي كيك...)

اقتربت من أحد قادة الدواب، ولم أعرف اسمه حينها، ولأن السانتور لا يهتم بمعرفة أسماء الأشخاص امتنعت عن سؤاله، وأسميتُه الأعوج؛ لأن أحد أكتافه ذهب إلى الأعلى،

وخاصمه الآخر نحو الأسفل...منعت نفسي كثيرًا من محاولة الضغط على كتفه لأرى إن كان بإمكاني إصلاح عوجه، ولعلي يوما سأكتشف سر هذا الاعوجاج!

كان يقود جملاً سمينًا يتبعه ما يزيد عن عشرين جملا تسير بانتظام، وقد حرص ربط كل واحد بذنب الآخر...هذا الأعوج كان أقصر مني، وأصغر حجما، ولم أجد خطرا في التعدي على مكانته وعوجه، ابتسمت له وأمسكت برسن الجمل، وكنت وقحا ولم استأذنه، رفع رأسه نحوي فرأيت في عينيه شراسة العرب، وقبل أن أتراجع وأعتذر ترك الرسن مع ابتسامة، وقد فاضت عيناه عِرفانا، ثم أفصح عن اسمه "خلدون"، اعتقد هذا الأعوج الأحمق أني أسعى لأقدم له المساعدة ولم يدرك أنى ما كنت لأبذل جهدا لإمساك يده ولو كان يسقط من فوق جرف هارٍ...أحكمت قبضتي على الرسن وتركت الحبل رخوا كما يفعل عبد القادر، ورددت الكلمات السحرية التي كان يرددها سلامة:

- (اغغغغغ كيك كيك هيش هوش...)

فسار الجمل خلفي وتبعته بقية الجِمال، وبدأت أشعر بمتعة خاصة، تجتاحني معها رغبة في إخبار الجمل أنى أستاذ أفندي ليخبر من خلفه، ويتناقل الخبر بين إخوته...ماذا أفعل! لا أستطيع أن أقاوم هذه الرغبة بالرغم من تعهدي أن أكون سانتور فقط.

لم يمر الكثير من الوقت حتى أعلن الجمل الحقير تمرده، وعرقل سير القافلة، ولم تنفع معه (الهيش ولا الهوش)، وعاد الأعوج مسرعا ليمسك بالرسن، ولامتني عيناه على جهلي بقيادة الدواب، وسار الجمل خلفه كحمل وديع...لم أنتبه لمَا أخبره به ليعود لطاعته مُجددًا...لابد أن هناك لغة سرية تخص الدواب ولا يعرفها إلا العرب! وربما أن هذا الجمل العربي الحقير لا يحب الأتراك!

دفعني فشلي إلى الإمساك برسن حمار هزيل، عيناه وأذناه تدل على وداعة وبلاهة...أجرُّه، وقد أخجلني ضحك جودت أفندي الذي راقب ما حدث، وكرهتُ أن أحفظ بذاكرتي هذا الموقف السخيف، ولم يحفظ ماء وجهي إلا تكراري إحدى القواعد السانتورية القائلة: "إنَّ المواقف المضحكة التي تدل على سذاجة هي جزء من شخصية السانتور".

مرَّ أكثر من ساعة ومازلت أجرُّ الحمار الهزيل، ولم أسلم من سخرية العرب، وبخاصة صاحب اللسان السليط؛ واسمه نعمة. لم أكترث لذلك بل حرصت على بقائي في طليعة القافلة ليعلم الجميع أني أقوم بعمل مفيد، ولكني واجهت صعوبة في منع نفسي من الالتفات، وعدم الاكتراث بما يدور حولي، وأبقيتُ عيني ملتصقتين بالأرض، لأكون والحمار الذي أقوده سواء...كدت أختنق؛ فلم أعتد على ترك الأسرار تسير خلفي، وها أنا مجبر على تجاهلها!

وفجأة رفع الكعب يديه عاليًا، وأخذ يجعر:

- (هووووع، هووووع).

لم أفهم هذه (الهووووع)، ولكني فهمت أن على القافلة أن تتوقف، وبرشاقة نادرة فيمَن في مثل عمره، عرج عن الطريق وأخذ يتسلق تلة على يميننا، وترك عباءته الشيطانية تتطاير خلفه، حتى بلغ مجموعة من الصخور المتلاصقة، يتخللها الكثير من الشقوق الكبيرة الواضحة رؤيتها عبر ضوء القمر، واعتلى أكثر قممها ارتفاعًا، وانتصب واقفًا في شموخٍ وكبرياء، ثم أخذ يتجول بناظريه في جميع الاتجاهات...رأيناه أكثر طولا، ولابد أنه رآنا أقزامًا واستمتع بذلك فأطال البقاء، ثم رفع يده ولوَّح بطريقة استعراضية، وكأنه قصد أن يقول:

- أيها العبيد...تعالوا إلى سيدكم.

وكان جودت أفندي أول من فهم المغزى من التلويح؛ فقال:

- ليذهب خمسة منكم خلف الشيخ، وليأخذوا معهم فُئُوسًا ومجارف.

وبالرغم من نطقها بلسان عثماني (كوريكلارفه بلطالار) ومعنا من لا يفهمها، إلا أن الإشارات التي رافقت قوله كانت كافية ليفهم الجميع مراده. لم يحدد من يذهب ومن يبقى، ولم نكن عمال سكك حديدية لنفهم طبيعة عملنا، ولا يبدو أن ساسة الدواب والحمالين سيتسابقون للقيام بمهام شاقة، حتى لو كان فيها الكثير من الثواب، ومَنْ الأحمق الذي سيرهق نفسه بتسلق التلة ثم الحفر؟! حتى الدواب ما كانت لتفعلها إن لم تجبر على ذلك.

أوعز لي عقلي بأن الفرصة واتتني لأتقمص دور السانتور وأثبته قولا وفعلا، وعلى الفور تركت الحمار الهزيل وأسرعت باتجاه خُرج الحمار المحمَّل بالفئُوس، والتقطت إحداها، ووقفت

كعسكري في انتظار الأوامر، أما العرب الأذكياء فأخذوا يبحثون عن أسبابٍ مُلفَّقةٍ تجنبهم المشقة؛ فمنهم مَن تظاهر أنه يعتني بالدواب، ومنهم من اختبأ خلفها، وبعضهم تسلل راجعًا إلى الخلف.

أعلم أنَّ جودت أفندي يلاحظ الجميع، ولم يكن راضيا عن تقاعسهم، فأخذ يختار منهم في حنق، أمَّا أنا فسبقت الجميع صعودا، وانقطعت أنفاسي وكادت روحي تفارقني مع وصولي أعلى التلة، وسريعًا اكتمل حضور الجميع فحدد لنا المسخ اللعين مكان الحفر، وكان بجوار صخرة كبيرة بيضاوية الشكل، أبدعت فيها الطبيعة شقوقًا متناغمة؛ فأشبهتْ شجرةَ سرو.

لم أمسك فأسا في حياتي، والحفر لم يكن بالأمر العظيم، فسبقت الجميع، ولاحظت تكاسل البقية، فزادني ذلك نشاطا ورعونة، وأخذت أُنشد سرًّا:

- (كَز عزيز كَز).
- احفر عزيز احفر، لا تفكر، لا تتكلم، لا ترى، لا تسمع، كن سانتور.

لم يسقط الفأس على الأرض إلا وارتفع، واحفر يا عزيز احفر، عرق جسدي، واشتعلت بداخلي طاقة لم تصل إلى هذا المدى من قبل، وبنشاط أدهشني انتقلت من حفرة إلى أخرى، ولم يكن هذا رائقًا لعيون المتقاعسين. كظمتُ غيظي أكثر من مرة حين سخروا مني حتى أن أحدهم علَّق قائلاً:

- (هذا واحد عبد سخرة).

أخمدتْ سخريتُهم نار حماسي، وأبرد الهواء جسدي، فانطفأت شعلة طاقتي وشعرت أنني سأنهار، وأغرتني رائحة التراب ورطوبة الهواء بالنوم قليلا، ففكرت للحظات أن أفعل ضاربا بعرض الحائط كُلَّ القواعد السانتورية، لولا أني لمحت جودت أفندي يقف على مقربة منا مراقبًا، فاستجمعت ما تبقى في جسدي من طاقة وعدت أنشد سرًّا:

- (احفر يا عزيز...احفر).

أراد الكعب أن نحفر عميقا، ولم يكتفِ بحفرة واحدة، وكم أطربني سماع صراخه:

– (كفى...كفى...جيد...جيد).

وعلى الرغم من أن ذراعي ما عادت تقوى على رفع الفأس إلا أنني كابرت وتعمدت ألا أتوقف، واحفر يا عزيز احفر.

توقفت فقط حينما صرخ الكعب قائلا:

– "كفى أيها الغبي".

رفعت رأسي فرأيت جودت أفندي واقفًا بجوار ثلاث جرار متوسطة الحجم قد لحقت بنا مع الفوج الثاني من عبيد السخرة، وأمرنا الكعب بحملِها إلى الحفر الثلاث، وكانت كل حفرة تبعد عن الأخرى مسافة مئة متر تقريبًا، حاولت سبْق الجميع لحمل إحدى الجرار، ولكن ثقلها أعلمني حدود قوتي فتركتُها. وبعدما سكنتْ الجرار أعماق الحُفر أُمرنا بأن نعيد التراب مكانه.

نفدتْ طاقتي إلا أني سبقت الجميع وادفن يا عزيز ادفن!

أعتقد أن سانتور هذا لم يحفر أو يدفن طيلة حياته، وأنا ما عدت قادرا على رفع يدي حينها قررت أنه لن يضرني إن أهملت بعض القواعد السانتورية المرهقة...انتهينا من دفن الجرار تحت إشراف الكعب ومراقبة جودت الذي كان حريصا على تأكده من إتمام الأمر، وفاجئنا المسخ اللعين حينما بدء يتراقص ويقفز –مثل السعدان– من حفرة إلى أخرى، يسجد ويقف ويتمتم بكلمات غريبة:

– (قاقارتانار كركر باقاذر وتار قوما قاقا لاراق كركر بركر!)

من المؤكد أن ما ردده لا علاقة له بالأمازيغية ولا بأية لغة، وكما قال روهان يوما:

– في بلاد أهلها من الصم لا يهم بأي لغةٍ تتكلم.

لستُ أدري كيف استطاع حمارٌ الصعود أعلى التلة! لقد أشار الكعب إلى خادمه الخنُّوص بيبرس ليجلب حمارًا، وبعدما استلمه الكعب خلب الأبصار عندما أخرج خِنجره وحزَّ عنق الحمار ثم تراجع بعيدًا وقد جحظت عيناه في الدماء فانتفض جسده وأسرع يلاقي بكفيه شلال الدماء المتدفقة من عنق الحمار، ويواصل الرقص ويتمتم بهراء الـ "قاقا باقا"، بينما يلفظ

الحمار أنفاسه الأخيرة راشِقا الجميع بالدماء. يعلو صوتُ المسخِ بالهراء، ويعلو صفير الدماء، وغطيط الحمار، يتراقص المسخُ، ويصارع الحمار الأرض، يقفز المسخُ فوق الحفر الثلاث، ويحفر الحمار بحوافره أخدودًا تلو الآخر، ومازال المسخُ يعاود القفز وملاقاة الدماء بكفَّيه إلى أن صارت البقعةُ أخاديد متداخلة تسري خلالها دماء الحمار حتى امتلأت وسكنت بسكون جسده بعدما غادرته الحياة.

جودت أفندي يراقب الطقوس الشيطانية، ولم أستطع قراءة تعابير وجهه وسط هذا الضجيج، ليتني أفهم ما يدور في رأسه! نظراته تجاه المسخ زادتني حيرة؛ هل هو معجب برقصة السعدان التي أداها لاستحضار عفاريته؟ أم بنشيد الـ"قاقا باقا"؟ أم هو ساخرٌ من كل هذا الهراء؟ عيناه تحمل الكثير من السخرية والاشمئزاز، والمنطق يستوجب أن يكون معجبًا ومستمتعًا بالعرض، وإلا فما الداعي وراء اصطحابه مثل هذا المشعوذ الأبله!

خادم الكعب وقف مُفتخرًا يراقب سيده ويتمتم بنشيد الـ"قاقا باقا"، أمَّا بقية العبيد فليسوا في حاجة لتفسير ما قام به المسخ العجوز؛ تترجم تعابير وجوهم قناعةً بأنه قد جذب الجان لرصد الدفائن وحراستها، وآمنوا بهلاك مَنْ يحاول الاقتراب إلا مَنْ يحمل تصريحًا بذلك، ولم يستطيعوا إخفاء ما اعتراهم من رعب جرَّاء رقصة العفاريت؛ يُخيَّل إليهم أن عفاريته المزعومة تجول بينهم وتحيط بهم وقد تتخطفهم في أية لحظة، وما كنت لأشك لحظة واحدة بأن كل ما قام به المسخ لا يتعدى "هُراءً برائحة الخِراء"، ولكن القواعد السانتورية تقول: "لتثبت أنك أحمق، يجب عليك تصديق كل شيء"، فكان لابد أن أسبق الآخرين أعجابًا وانبهارًا وخوفًا، ولو تطلب الأمر سأرقص وأنهق "قاقا باقا"، وسأتظاهر بالإغماء من رهبة العفاريت، ومن يملك القدرة على منافستي في التمثيل والادِّعاء وتقمص الأدوار، وأنا ابن الطباخ الذي أقنع الجميع بأنه باشا ودفعهم لتقبيل يديه...تقمصت دور المرعوب، فتحتُ فمي للذباب، وأرخيت وجنتي، وتركت عينيَّ تغرق في النعاس، ورموشي تصفق بلا توقف، وضممت يدي على بطني وتركت اللعاب يسيل على ذقني.

حين انتهى الكعب من هُرائه واختفى كل أثر يدل على حفر ودفن أمرنا بالعودة، وكنت في ذروة التقمص، فتصنمت مكاني بلا حراك، صامًّا أذني أمام صوته اللعين، فصرخ بي:

– تحرك أيها الغبي.

تجاهلتُه وتوقعتُ أن يصفعني، ولكنه اقترب وأمسك كتفي وهزني، فأخذتُ أصرخ بأعلى صوتي متظاهرا بالفزع، ومرددًا:

– بسم الله الرحمن الرحيم.

اعتلت وجهَه ملامحُ الحيرة ولابد أنه تساءل إن كان ما أصابني قد نتج عن حدث الـ"قاقا باقا"، وقال:

– لا تخف...لا تخف...هيا انصرف.

جررت جسدي بتثاقل وبطرف عيني لمحتُ الفتى الأمهق ينقش رموزًا أشْبَه بالهلال والأفعى على صخرة كبيرة، وجودت يدون ملاحظات على مفكرة يحملها، وعيناه تبحث عن أية معالم ثابتة لا تنطمس بفعل الزمن، فأيقنت أنه يرسم خريطةً للاستدلال على المكان لاحقا، وكأنه لا يعتمد على عفاريت كعب الحذاء.

لو أدرك جودت قدرات ذاكرتي الخارقة لما احتاج إلى كل هذا العناء، وبالرغم من سانتوريتي وحرصي على بقاء رأسي مُنكسًا إلا أنه كان يكفيني النظر بطرف عيني لأرسم خرائطي الخاصة، وأقول سرًا:

– سأعود يا أولاد السَّقيطة وسأخرج ما دفنتموه.

انتهت مهمتنا الأولى، وكان نزول التلة أسهل من صعودها، وعُدنا جميعا إلى الطريق وسارت القافلة ثم توقفت، وتكرر الأمر مرات؛ احفر يا عزيز احفر، ادفن يا عزيز ادفن، حفر...دفن...جِرار لا شك أنها ملآنة بالذهب...هراء الكعب ورقصة السعادين...الـ"قاقا باقا"...نقش الأمهق على الصخور...ملاحظات جودت عن المواقع...خرائطي التي اعتدت رسمها في ذاكرتي لأتمكن من العودة وسرقة ما دُفن.

دفنَّا الجِرار في أكثر من ثلاثة مواقع، ولم يذبح المسخ المزيد من الحمير، واكتفى برش الدماء التي جمعها في وعاء من القربان السابق.

لم يكن أي فرد من الفرق الخاصة قريبًا منا، لقد كانوا حريصين على عدم الكشف عن مكان الدفائن لأحد، ومن المؤكد أننا أيضا لسنا محل ثقة، وأن هناك خطة ما أُعدت لنا، ولن تكون سعيدة.

الخوف بادٍ في عيون العرب، ولست أدري إن كان سببه إدراكهم النهاية المحتومة التي تنتظرهم، أم أن هُراء الكعب قد ترك تأثيره فيهم؛ لذا لابد أن أستمر في تقمص دور المرعوب من هراء العفاريت حتى أني فقتهم رعبا وإعجابا بقدرات المسخ العجيبة التي لم نر منها ما يُعجز قردًا عن القيام به.

التزمت السانتورية وأبعدت عيني عن الجميع، لا أراقب، لا ألتفت، مطيعٌ منفذٌ الأوامر مُتقبلٌ الإهانات بلا تذمر، وأسير بجانب طبيلة الذي حجب عني القمر، ولم يقم بأي عمل مفيد حتى الآن؛ وذلك لأن الكعب يتجنب اقترابه؛ ولابد أنه يبحث عن طريقة للخلاص منه.

أشعر أثناء السير أن كفيَّ الناعمتين قد أصابهما شيء، ودبَّ الرعب في قلبي حينما ظهر بباطن كفي وأصابعي الكثير من الفقاعات الجلدية المملوءة بالماء، فاعتقدت أن مرضا خبيثا قد أصابني، ولم يكن قريبًا مني سوى نعمة؛ سليط اللسان في الثلاثينات من عمره، طوله كعرضه، كثيف الشعر، أفطس الأنف، أذناه رفيعة وطويلة، وسبحان الخالق له عينان واسعتان سوداوان يحسده عليهما الرجال والنساء، ولكن إن أغمضهما لا ترى منه سوى القباحة، استأجره جمال الدين ضمن عدد من الأشخاص وجاء به مع قافلة المؤن، وعَلَق معنا، ومنذ ذلك الوقت أدعو الله أن يتعثر ويقع على فمه ويقطع لسانه؛ سألته عن الانتفاخات الغريبة التي أصابت كفي، ابتسم وقال:

- إنها علامات مرض خطير ينتقل من الحمير إلى البشر، ولابد أنك لامست الحمار كثيرا فأصابك الداء وإن لم تُعالج بسرعة ستموت خلال أيام.

وبالرغم من انعدام ثقتي فيه، ومطالعتي تعابير وجهه التي دلت على كذبه واختراعه هذا المرض، إلا أن خيالي أخذني بعيدا، ورأيت نفسي مدفونًا في قاع حفرة على ظهرها حمار مذبوح، ولاحظ الحقير تأثير كذبه الذي دفعه على التمادي فنادى على خلدون الأعوج وقال له أمامي:

– انظر إلى كفيَّ عزيز، أليست هذه علامات مرض الحمير الذي يتعجل قتل صاحبه؟

هزَّ الأعوجُ رأسه وقال:

– نعم نعم سيموت عزيز غدا، ابتعد عنه حتى لا يصيبك داؤه.

لم يخفَ عليَّ أنهما يسخران مني، ولكن شيئًا من الشك تسرب إلى نفسي، فتظاهرت بالابتسام وقلت:

(بعين الله شباب).

عدتُ أقود حماري الهزيل متظاهرًا بعدم الاكتراث، بينما كنتُ أتجول بعينيَّ باحثًا عن عبد القادر، وكان يسير بمؤخرة القافلة، فأبطأت سيري حتى صار بجانبي، وحاولت التحدث معه فأغلق عينيه كعادته، ولم أكن بمزاج لاحترام خلوته الغريبة، فأجبرته تحت إلحاحي الشديد على فتح عينيه، وقبل أن أرفع كفيَّ لأريه ما أصابهما، قال:

– اطمئن يا عزيز، إنها قروح أصابت كفيك الناعمتين؛ لأنك لم تعتد حمل الفأس، اغسلها واتركها، وبعد أيام ستنفجر ويخرج ماؤها، وبإذن الله ستُشفى وحدها.

عاد وأسدل جفنيه، فتركته لخلوته وادِّعائه الانشغال بالتسبيح والدعاء، وشكرته على كلماته المعدودة التي أعادت الطمأنينة إلى قلبي.

قبل شروق السبت وضعت القافلة رحالها لنيل قسط من الراحة، بالقرب من بئر ماء عنقها ضيقة لا تسمح بانتشال الماء في سهولة، تم نصب خمسة خيام؛ ثلاثة منها لجودت والصناديق، وواحدة للكعب والفتاة التي برفقته، وواحدة للمؤن، واتخذها بيبرس مسكنا له، بحثت عن زاوية لا يزعجني فيها أحد وحملت إليها حقائبي، واستلقيت على الأرض، دبَّ النعاس في مفاصلي فلم أدر متى غفوتُ حتى أرغمتني حرارة الشمس على الاستيقاظ، فانتصبت لهوفًا على حصتي من الطعام. .لقد فاتني التوزيع! وبدأ الجوع في العبث بمَعِدتي الفارغة، فاندفعت مطالبًا بنصيبي، ولم أحظَ إلا بطردي وتوبيخي على يد بيبرس بحجة أني لم أكن حاضرا عند توزيع الطعام، فاكتفيت بعدة قطع من الشوكولاتة، أخرجتها سرًا حتى لا أضطر لمشاركة أحد، وكانت

كافية لإسكات جوعي، ثم بحثت عن مكان لأستظل به، ولم أجد ما يشغلني سوى مراقبة الآخرين من بعيد، ومحاولة العودة إلى النوم في انتظار الغروب.

كنت أحترق شوقًا لمقابلة المزيد من جِرار الذهب، ومع كل واحدة نقوم بدفنها يكبر حلمي بالثراء، وما عاد يشغل بالي البحث عن طرق النجاة، إن لم يكن ذلك مصحوبا ببعض الجرار الملآنة بالذهب!

انقضى اليوم وعدنا من جديد إلى رحلة الحفر والدفن، وبالرغم من ساعات نومي الطويلة، إلا أنني لم أكن بنشاط الأمس، فأنا لم أعتَد على الأعمال الشاقة قط، ولكنه تحايلُ سانتوري على بذل الجهد واستحضار عافية الغباء، فحملتُ فأسا وحفرت جاهدًا إلى أن انفجرت انتفاخات يدي وسال ماؤها فاترًا، وانسلخ الجلد عن بؤرٍ مستديرةٍ حمراء تلسعني كلما لامستْ هرواة الفأس، ولكن حلمي بالحصول على الذهب كان كافيًا ليمدني بالطاقة، ويبهج قلبي، وينسيني ألمي.

أشرقت الشمس من جديد وحطَّت القافلة رحالها، وكان موقعا مثاليا لإخفائها بالرغم من ضيقه، فالتلال التي تطوِّقه مملوءة بالأشجار، وعين الماء كانت غزيرة فارَ منها الكثير من السيول فاستطال العشب حولها وأشبه المكان حديقةً غنَّاء، مما أبهج الدواب والبشر، وأسرع الجميع بالاستحمام والاستلقاء على فُرُشٍ من العشب الأخضر الناعم.

وقبل نومي حرصت أن أنال حصتي من الطعام، وأشك أنه سينفد خلال أيام قلائل. لم أشعر برغبة في النوم ولكن حاولت استدعائه لأمنع نفسي عن مراقبة الآخرين، ولأستمتع بالتفكير والتخطيط في كيفية حصولي على الذهب وفي حالة بين اليقظة والنوم كانت بداية حلمي جرة ذهب واحدة تكفيني لأتحول إلى باشا حقيقي، وقبل أن تغفو عيناي طمعتُ أن أسرق بغلاً مُحمَّلاً بالكثير من الجِرار.

صحوت قبيل الظهر نشيطًا مفعمًا بالحيوية، حتى شعرت بأن لوني أكثر بريقًا ولمعانًا من ذهب الجِرار الذي لم تقع عليه عيناي بعد! أقسمت أن ألجم فضولي اللعين، ونجحت في ذلك إلى حدٍ ما، جِرارُ الذهب وحلمُ الثراء ساعداني على مواصلة تقمصي دور السانتور الأحمق

باحتراف، ونجحت في إقناع الجميع عدا سلامة ورشيد اللذين لم يخفَ عليهما أني أتظاهر لغايةٍ في نفسي، فتجنبت اقترابهما، وحبستُ عينيَّ عن التلصص والنظر إليهما، لكني وجدت صعوبة في إبعادهما عن الحسناء صاحبة الصدر العامر...إنَّ غرْس سكين في بؤر يدي الحمراء أرحم وأقل ألمًا من منع نفسي من مراقبة فتاة الكعب وثديها الناهد الذي لم يكف عن التراقص مع حركتها أثناء تجوالها بيننا دون خجل، لم تتجنبْ أشعة الشمس بل رغبتْ في أن تستحم بمائها الذهبي الذي زادها بهاءً...تعذبتُ كثيرًا في منع نفسي، فلابد أن ألتزم سياسة السانتور، وأيضًا لابد أن أتلصص وأهيم بمخيلتي قليلا وإلا سأموت غيظًا...تسافر عيناي في كل منحنيات جسدها...تتوقف...تمد يديها، ترميني بنظرة شبقية، فأقترب منها في نَزق...التقيتها، ترقد فوق جفنيها شهوة عارمة، يلفح وجهي لهيب أنفاسها، يتخلل أصابعي شعرها الغجري، أعرّي مفاتنها، يفيض أنفي برائحتها.

رصدتني عينا بيبرس، تبًا له، مَنْ يكون هذا اللعين! ولماذا يبقى برفقتها ويتبعها كظلها أينما ذهبت؟! ابتعدا كثيرًا، تبعتْهما عيناي حتى غيبتهما الدواب، ثم أشغلت نفسي بمراقبة إيليا؛ هذا الفتى الأبيض الذي غزاه الشيب قبل أوانه، وكأن أمه حينما أنجبته غمرته في برميل طحين، كل شيء فيه أبيض؛ بشرته، شعره، رموشه، وحواجبه، بدا في الرابعة عشر من عمره، وربما جاوزها بكثير، وبالرغم من بياضه الشاذ إلا أن الحزن الذي يفيض من كل جزء فيه، أكثر لَفْتًا للأنظار من مظهره العجيب.

أشعر برغبة في الذهاب إليه وفتح فمه لأرى إن كان يملك لسانا؛ فلم يتفوه بكلمة واحدة مُذْ رأيته، لغته الوحيدة تمر عبر ذلك النَّاي الذي يحمله، وكلما سنحت له الفرصة ينفخ فيه ألحانا شجيَّةً، تطرب لها الآذان، وتئن القلوب، وتدمع العيون، حتى الدواب تهدأ حركتها، ويذهب نَفْرها، عدا ذلك الكعب البغيض، وأشك في أنه يمتلك قلبًا بين جوانحه.

لم تثر فضولي تلك الرسومات التي نقشها عند دفن جرار الذهب، بل ما شغلني حقًا تلك الظروف الغامضة التي ألقت به في طريق القافلة! لا أعتقد أن هذا الفتى قد رافقنا بإرادته، ولستُ بحاجةٍ لأثقل عقلي بالمزيد من الألغاز، لعنة الله على سانتور وقواعده الغبية التي حرمتني من ممارسة هواياتي في كشف الأسرار! ومازلت في حيرة من أمري تجاه العديد منها، تحيرني

كثيرًا تلك العلاقة التي تربط الكعب وجودت، فلم تخفَ عليَّ نظرات الارتياب المتبادلة بينهما، ولم ألمح –مرة واحدة– أنهما قضيا وقتا معا ليتحدثا بعيدًا عن أمر القافلة، أو أن أحدهما ابتسم للآخر! فمن المُحال أن يجتمع مثل هذين الاثنين معًا إلا بأمر مَنْ يفوقهما مكانةً وسلطةً...شتان بينهما؛ الأول خشن شرس دموي، والآخر ناعم مهذب اشمأز من ذبح حمار.

وبينما أفكر في أمر ذلك المهذب فإذا به يخرج من خيمته، ولم يكن ليفعل ذلك وقت التخييم إلا لقضاء حاجة أو طلب أمر ما، فأسرعت لاستغلال الفرصة، وما إن اقتربت حتى أشار لنعمة، وحركات يديه أنبأت بحاجته إلى ماء ووعاء للاغتسال، وقبل أن يحرك نعمة مؤخرته الثقيلة انطلقت وعدت بالماء والإناء، وتبعته إلى خيمته وقدمت مطلوبه دون النطق بكلمة واحدة، فراقه ذلك، وأحني رأسي احتراما، وابتسم سائلاً بلهجة عربية مشوهة:

– (سو انتو اسمكا وين بلادكا انتو؟)

لهجته المشوهة ذكرتني بنفسي حينما تعلمت العربية في يومي الأول.

لا أخفي أن اعتقاده أني عربي قد استفزني قليلا، فأجبته كمن يرد عنه تهمه:

– أنا تركي الأصل؛ أبي تركي، جدي تركي، وأمي تركية، وجدتي تركية، اسمي عزيز عثمان حقي، عمري ثلاثة وعشرون عامًا، لدي أخوان وأخت، وأنا أصغرهم، من مواليد بورصة، مكان السكن الحالي إسطنبول يا سيدي.

أسرعت في إجابتي على طريقة المجندين، ولم ينقصني سوى تأدية التحية العسكرية لأكون جنديًّا يجيب قائده، فتعجب سائلاً:

– من أي بلد أنت؟

يبدو أنه لم ينتبه لحديثي المتسارع؛ فقلت:

– أنا من بورصة يا سيدي.

– أين خدمت بالجيش يا عزيز؟

– لم أخدم بالجيش سيدي.

- ولماذا لم تخدم بالجيش؟

- لم يقبلوني بسبب عيب يا سيدي.

- وما عيبك؟

يبدو مستغربًا؛ فلا تبدو عليَّ عاهات جسدية ظاهرة، وما كنت لأخبره بأن علاقات والدي جنبتني الخدمة، والقليل من المال كان كافيا لإثبات علة ضعف البصر، وكل ذلك لأخالف مصير شقيقي الأكبر، الذي قُتل على حدود ليبيا على يد بعض العرب المصريين، ولكن هذه الحقيقة لا تصلح هنا.

تحدثتُ على سجية سانتور، وتركتُ خياله يراني كما أردتُ، فأجبته:

- لقد قررت لجنة التجنيد أن ذكائي يفوق قدرة الجيش في استيعابه، ولهذا أعادوني للبيت.

جوابي أصاب الهدف المرجو، وضحك جودت أفندي وسأل:

- وماذا فعلت بعدها؟

- تم تعييني عالم آثار ومسؤول عن استلام وتصنيف القطع الأثرية قبل تخزينها.

ضحك جودت حتى كاد أن يختنق، وقال:

- عالم آثار دفعة واحدة! لابد أن يكون ذكاؤك خارقا لتشغل هذه المهمة؟

لم أشاهده مسبقا بهذه السعادة، وبعد أن توقف عن الضحك سأل:

- أخبرني كيف وجدت طريقك إلى هذه القافلة يا عالم الآثار؟

الآن عليَّ أن أكون صادقا، وبخاصة أنه يسهل عليه التأكد من صدق روايتي، واعتيادي على تقمص دور الأستاذ الكبير كان سيكون كافيا ليثبت صحة ادعائي إن حقق في الأمر، فأخبرته بالحقيقة على طريقتي؛ لقد تم استدعائي شخصيا مع روهان بيك لاكتشاف موقع أثري، ورويت له سوء الفهم الذي وقع في محطة القطار، وتجنبت ذكر حيان ورشيد والأجزاء المريبة في القصة.

لم يهتم كثيرا بتفاصيل القصة، ويبدو أنه كان بحاجة ليضحك أكثر، فسأل:

- وماذا اكتشفتم بالكهف يا أستاذ عزيز؟

وكان هذا السؤال محرجا لي، وهنا التزمت بسياسة الصدق السانتورية، فبعد أن قمت بتقليد بعض حركات روهان أجبته:

- حقيقةً لقد كان الكهف سخيفا لا يستحق الاهتمام؛ لهذا انشغلت في فحص محيطه، ومن ثم قمنا باختيار حجارة تصلح لبناء مسجد لمولانا السلطان، وحملناها بصناديق وانطلقنا وحدث ما حدث.

ضحك ولكن هذه المرة كان أقل حماسا وسألني:

- وما حكاية حذاء البيك يا أستاذ عزيز؟

أدركت أنه يسعى ليذكرني بأنه كان متواجدا عندما قمت بخلع حذاء روهان وغسل قدميه، وأنه ليس غبيا وإنما يجاريني فقط، وهذا أسعدني ويبدو أن ما قام به البيك قد انطلى عليهم، فأجبته -ولم أتخل عن الشخصية السانتورية- قائلا:

- في المخازن التي نجمع بها الآثار كنت مسؤولا عن طربوش البيك وتلمعيه، وبعدها قرر ترقيتي، وقام بتعيني مسؤولا عن كل الأحذية الأثرية.

هنا أصابته نوبة من الضحك صكَّت مسامع كل مَنْ بالقافلة، ثم تابع سائلاً:

- وماذا تجيد غير تلميع الأحذية الأثرية يا أستاذ عزيز؟؟

- كل شيء يطلب مني يا سيدي.

وهنا باغتني بسؤال أربكني، وقال:

- لقد لاحظت أنك تتكلم العربية يا عزيز، أين تعلمتها؟

ولم يكن سرا؛ فالجميع يعلم أني أتحدث العربية، ولا يُعقل أن أخبره بأن البيك أرسلني لتعلمها على نفقته، فليس من المنطق أن يتم ارسال غبي ملمع أحذية أثرية لتعلم لغة أجنبية عنه؛ فقلت:

– أنا أتحدث كل اللغات العربية.

ابتسم وقال ساخرا:

– وأين تعلمت كل اللغات العربية؟ بالمدرسة أم بالجامعة يا أستاذ عزيز؟

– لا يا سيدي...المدارس أيضا قالت إن ذكائي خارق ولم تقبلني، وحينما كنت أعيش مع والدي في حلب أصر على أن أتعلم لغة البِغال حتى يعيِّنني يوزباشي بالجيش حين أكبر؛ وكان والدي كبير مستشاري طعام الوالي، الذي لم يكن ليأكل إلا إذا أمره والدي.

وهذا ما كان يتردد في أوساط الأتراك: أسهل طريقة للسيطرة على البغال – قاصدين العرب – هي أن تتعلم لغتهم، ولابد أن هذه المقولة مرت على جودت، فضحك مرة أخرى، وأصبت هدفي بدقة؛ سانتور بكل ما تحمله الكلمة، ولكنه فاجأني بسؤال لم أتوقعه بعد هذا الكم الكبير من الغباء الذي أظهرته:

– هل تجيد الكتابة والقراءة؟

لا يعقل لأبله مثلي أن يكتب أو يقرأ، وقد لاحظ البعض أثناء رحلتنا أني أجيدهما، وقد يكتشف الأمر يوما، فكان عليَّ أن أعطيه جوابا يكون فيه مخرجا، فأجبته:

– نعم يا سيدي لقد تعلمت كيف أرسم اسمي واقرأه إذا كتب أحدهم لي رسالة عليها اسمي، لأعرف أن الرسالة لي.

تبين لي أن جودت يسأل بلا أهداف خبيثة، إنما وجد بي فرصة للترفيه عن نفسه، فقال:

– وهل كتب لك أحد رسالة؟

– لا يا سيدي، ولكن روهان بيك وعدني أنه سيكتب لي رسالة حينما ينتقل إلى العالم الآخر.

ضحك جودت مجددا وسأل:

- أتجيد الطهو كوالدك؟ أم أنك طاهي آثار فقط؟

- نعم يا سيدي، البيك لا يتناول الطعام إلا إن أعددته.

وهنا ابتسم وطلب مني إعداد وجبة ساخنة...شعرت أنه يختبرني، ولم يتوفر حينها ما يصلح للطهي إلا أني تدبرت أمري؛ أشعلت نارا وتصببت عرقا لشدة حر الشمس، وغسلت القدر وبدأت بتقطيع حبات البندورة حتى باغتني الكعب اللعين بركلة بغل أفقدتني توازني، وكادت تلقي بي فوق النار، لولا أني تمكنت من الميل بجسدي قليلا، يقف فوقي وقد ازداد طولا وعباءته اللعينة زادته عرضا، وأخذ يطفئ النار بقدمه قائلا:

- من سمح لك بإشعال النار يا كلب؟

رمقته بنظرة وديعة بريئة تخفي الكثير من مكري وخبثي، وأخبرته بغير تسمية:

- هوَ طلب مني.

فرد عليَّ بما أثلج قلبي:

- ومَن هذا الحمار؟

- الباشا يا سيدي.

ضيق مكان التخييم يمكن الجميع من سماع أي حوار ما لم يكن همسا، فهرع جودت لإنقاذي وكان ممتعضا لتحوله من باشا إلى حمار، ولكنه تظاهر بعدم سماع الشتيمة، وقال:

- دعه يا شيخ طبرق، أنا طلبت منه أن يعد لي الطعام ولن تلفت النار نظر أحد نهارًا.

تراجع الكعب خزيانًا، وتركني وشأني، وعلمت أن اسمه الحقيقي طبرق، أعددت كمية مضاعفة من الطعام قدمت الطبق الأول منها لجودت أفندي الذي سره مخاطبتي له بالباشا، تذوقه وامتدحني كثيرا وقال:

- أنت أستاذ كبير في الطعام يا عزيز.

وبتواضع سانتوري أجبته:

– أنا أستاذ في كل شيء يا سيدي.

ابتسم وانصرفت، فعدت وحملت الطبق الثاني قاصدًا الكعب وحرصت على أن أبصق فيه أكثر من مرة، وأردت أن أزينه بطبقة من البصاق لولا خوفي أن يتغير طعمه ويكتشف فعلتي...أحنيت رأسي متظاهرا باحترامي، وقدمت الطبق:

– تفضل يا سيدي وأرجو أن ينال إعجابك! وتغفر لي اشعالي النار دون إذنك.

فاجأه ذلك وسره، يبدو أنه ليس من النوع الذي اعتاد على هذا المستوى من الاحترام، هزَّ رأسه وامتدح طعامي وقولي، ثم رد عليَّ بخشونة:

– جيد... جيد.

– بالهناء والشفاء يا سيدي.

في عالم روهان تعلمتُ أن أغلب هؤلاء المصابين بمرض الهراء والخرافات لم يكونوا مؤمنين بها، ولكنهم برعوا في اختراع الأكاذيب التي تناسب جهل الآخرين مراعين المكان والزمان المناسبين، وكثرة المؤمنين بهم شجعهم على اختراع المزيد من الأكاذيب حتى ما عادوا قادرين على تمييز الحقيقة من الكذب فاندفعوا إلى تصديق أنفسم، وأصابهم هذا بمرض العظمة، وأيقنوا أنهم من أهل الخوارق، ومِثل هؤلاء لا يسرهم أكثر من امتداح قدراتهم العجيبة.

بصوت مرتعش، ونظرات تفيض بالاحترام والانبهار، والكثير الكثير من الإعجاب بشخصية هذا المسخ التي لم أرَ منها إلا رقصة السعادين وتمتمة المجانين قلت له:

– سيدي: ادعُ الله أن يشفي خالتي "دولت" فقد أمرضها الجان وهي طريحةُ الفراش.

ابتسم وسره طلبي الذي يؤكد على مكانته الهرائية قائلا:

– سأشفيها لك.

هذا الهرائي لم يجد داعيا لذكر الله، وتقديم مشيئته، واختصر جوابه بـ"سأشفيها لك". لم يهتم بأية تفاصيل، ونصَّب نفسه إلهًا مطلعًا على كل شيء، لعنة الله على خالتي، وعلي زيارتها

لي التي لم تتوقف كل ثلاثاء لتقلق منامي منذ صارت في عداد الموتى، لم يكن هناك ما أطلبه من هذا الهراء إلا هراء، فسألتُه أن يأذنَ لي بالانصراف فأشار، وقبل ذهابي كدتُ أنحني وأقبِّل يده، لولا أني تذكرت القاعدة السانتورية التي تقول: "المبالغة في التذلل للأسياد وتمجيدهم عمل يدل على خبث لا حماقة".

عدت مُستلقيًا في زاويتي لأعود إلى فتاة الكعب نعناعتي الحسناء، بحثتُ عنها لتشعل ناري مجددًا، وأتلذذ بمراقبة ثنايا جسدها، وأكافئ نفسي على نجاحي بأداء دور السانتور، ولكن لم أجدها، وفجأة غمرني السرور وابتهج قلبي حين انتبهت أنها كانت بالقرب من الدواب وبدت أكثر مَيْلاً للحمير دون الجمال والبغال، كان من المُحال ألا ألاحق كل خطوة تخطوها، أو أن أمنع نفسي من التلذذ برقصات نهديها كلما قفزت عن عائق يعترض طريقها، توقفت بجوار جمل، فلم أدع الفرصة تفوتني واقتربت منها، وكانت مشغولة بمداعبة عنق الجمل، لم تترك يدي حينما صافحتها...حدثتها عن نفسي ومكانتي فانبهرت، وكانت الدواب تخفينا عن العيون، فعرضت عليها أن تمتطي ظهر جمل محظوظ، فابتسمت واستدارت ومازالت عيناها معلَّقةً برؤيتي، وقفت خلف مؤخرتها، وطوَّقتها بيدي أسفل بطنها، فهمست:

- احملني يا عزيز.

ضممتها، وبشغف قبَّلتُ عنقها من الخلف، فتأوهت، وقالت بصوت ناعس:

- خذني إليك.

أحكمتُ ضمها في عنف، ولم أقو على التوقف إلا حينما ظهر جودت خارج خيمته، وأشار إليَّ بيده...كنت أرغب في قولي: اذهب إلى الجحيم حتى انتهي من حلمي اللذيذ، ولكني وثَبت كالغزال ولحقتُ به إلى الخيمة، فسألني إن كنت ماهرًا في إعداد القهوة وأجبته:

- أنا خير من أعدها وشربها يا سيدي.

ابتسم، وأمرني باستخدام أدواته وقهوته الخاصة، فأدركت أنه يتقزز من مشاركة الآخرين في أدوات طعامهم وشرابهم...قدمتُها له فارتشف وتذوق ثم قال:

- فوغميدااااابل

علمتُ لاحقًا أنها لفظة مديح باللغة الفَرَنسية، طلب مني أن أجالسه وأحادثه، فتربعت على الأرض وتجنبت الجلوس بجواره، وفي خيمته مقاعد وطاولة؛ كنت حذرا لكل رمشة عين قد ترافق ما أنطق به، وشعرت بالراحة حين تبين لي أنه يبحث عن طريقة لقتل الملل والتسرية عن نفسه، ولم يجد أفضل من مجالسة أحمق، فسألني ساخرا:

- لو كنت أنت السلطان يا عزيز، ماذا كنت ستفعل بالوضع الاقتصادي المتدهور؟ هل كنت ستتحالف مع إنكلترا أم مع ألمانيا؟

فضلت الصمت وعدم الرد، لأنه سأل بلغة المثقفين، والسانتور بحاجة لتبسيط الأمور لكي يفهم، وحين انتبه أني لم أفهم أعاد صياغة السؤال، فأجبته فورا:

- سأُعِد له ألذ طعام في العالم، وسأخدمه جيدا وأدعو الله له أن ينصره على العرب وأهل مصر.

قاطعني وقال:

- لا أقصد أن تكون طاهي السلطان، إنما لو كنتَ السلطان نفسه.

أجبته بسانتورية:

- أنا تعلمت كل شيء يا سيدي ولكني لم أتعلم كيف أكون سلطانًا.

ضحك وقال:

- تعلَّم فقط كيف تضاجع الجواري وستكون سلطانا عظيما.

- سأتعلم يا سيدي وسأكون سلطانا عند حسن ظنك.

ما رأيك في محمد الخامس يا عزيز؟

- أعرفه جيدا؛ إنه أخ مولانا عبد الحميد؛ نصره الله على العرب وأهل مصر؛ ولقد عرض عليَّ روهان بيك أن أتزوج إحدى بناته.

ولم أكذب فقد اعتاد البيك أن يمازحني بذلك. لم تتوقف أسئلة جودت الساخرة وردودي الغبية، بل استمر حديثنا طويلا؛ ابتسم أحيانا وقهقه أحيانا أخرى، وحين ملَّ مني صرفني، ولم يدر أنى سبقته في شعوري بالملل.

ومن اللافت للنظر أن جودت جَمَع الخيام الثلاث في الخيمة التي جلست فيها، وجعل لها مدخلا واحدا، وكانت مكدسة بالعديد من الأشياء؛ صناديق، أكياس الخيش، سرج حصان، مصابيح، حبال، بُسُط وسجاد، والكثير من الحقائب المغلقة، ولكن الخيمة التي اتخذها مسكنًا كانت نظيفة جدا، توسطتها طاولة وحولها أربعة مقاعد متواضعة كتلك التي يستخدمها الجيش، فوقها الكثير من الكتب والدفاتر والأقلام، ومصباحٌ فاخر، وعلى طرفها كان فِراشه مطويًا بعناية، وفوقه عدد من المناشف حرص على طَيِّها أيضًا، وفي الجانب الأيمن كانت مجموعة من الأحذية تم صفها كطابور العسكر، وبجوارها ثلاثة حقائب مفتوحة مملوءة بأغراضه الشخصية...الطريقة التي رتب بها ثيابه لم أرَ لها مثيلا إلا في بيت نازلي هانم، ومما جذب انتباهي أنه علَّق سيفًا قديمًا مقابل فِراشه، وكأنه حرص أن يراه قبل نومه، ويبدو أن له مكانة عاطفية خاصة في قلبه، ربما لجد أو والد مُتوفَّى، وكانت هناك خرائط قديمة على أحد المقاعد، وأوراق عليها الكثير من الرسوم والرموز، وتكرارها واختلافها يؤكد أنها من ابتكاره، وربما هي التي يقوم إيليا الأمهق بنقشها بجوار الجِرار...استطعت أن أرسم صورة أولية لشخصية جودت أفندي مما رأيته في خيمته، فهو يمضي أغلب وقته في القراءة والكتابة، ولديه هوس النظافة والترتيب، وهذا يشير إلى نشأته في بيت مليء بالنساء.

عدتُ إلى زاويتي التي ابتعدتْ عنها الشمسُ قليلاً وظللتها صخرة، فإذا برشيدٍ قد ضاق به الوادي ولم يجدْ غيرَها، تأكدت أنه لم يفتشها، للحظات فكرت أن أحمل حقائبي وأبتعد، ولكني فضلت عدم التنازل عن موقعي المتميز لمراقبة الجميع؛ وبخاصة أنه قريب من خيمة الكعب، ويمنحني القدرة على مراقبة النهدين فور خروجها، جلست بجانب الصخرة متجاهلا وجوده، وهمست له طالبا أن ينصرف إلى مكان آخر حتى لا ينتبه إلينا أحد، رد بكلمات سوقية:

– لا يهمني فليقبِّلوا مؤخرتي أبناء القَحْبَة، هم الآن في حاجة إلينا لنحفر وندفن لهم الذهب، وبعد ذلك سيقتلوننا جميعا، وإن كنت تعتقد أن تظاهرك بالحُمق سينجيك من الموت فأنت مخطئ.

يبدو أن حرارة الشمس قد أفقدته رشده، فقلت له:

– لن يقتلنا أحد إن التزمنا الصمت ولم نتدخل فيما لا يعنينا، لا نتكلم، لا نسمع، لا نرى، وسنعود سالمين.

رد ساخرا:

– نعم... نعم...سنعود سالمين وسيكافئون كلاً منا بجرة ذهب أيها الأحمق.

– أتمنى أن تلتزم الصمت وتتوقف عن ثرثرتك، احفر، ادفن واخرس حتى تنتهي الرحلة.

فقال ساخرا:

– احفر ادفن يا عزيز أفندي، ومع الجرة الأخيرة ستُكافأ برصاصة في رأسك.

فقلت له في خباثة:

– اهربْ إذًا وانجُ بحياتك إن كان هذا ما تعتقد.

ضحك ببلاهة متوهمًا ذكاءه، وقال:

– لن أهرب وأترك كل هذا الذهب خلفي، اصدقني القول يا عزيز، ألم تفكر في سرقة بعض هذه الجرار؟

فاجأني بسؤاله فأشحت بعيني، وأجبته:

– لا حاجة لي في الذهب، لم ولن أفكر فيه أبدا.

ضَحِكَ بصوتٍ عالٍ، ثم انضم إلينا سلامة بعدما ناداه رشيدٌ، وعلمت أنه لم يكن ليثق بي لكونِي تركيًّا، وأن رشيدًا نفسه مَنْ عزز ثقته بي لعلاقتي بحيان وروهان...لم أشعر بالراحة لمثل هذا الاجتماع الغبي؛ سيثير حولي الكثير من الشبهات. أعاد سؤاله عليَّ أمامَ سلامة:

- ألا تخطط لسرقة الذهب؟

فأكدت على أن هذا الأمر لم يخطر ببالي قط؛ فقال:

- أنت كاذب يا عزيز أفندي، دور الأبله الذي أتقنته وأقنعت به الجميع يدل على أنك فكرت وخططت، وجميعنا حلم وفكر وخطط لسرقة جرة ذهب أو أكثر، أغلبنا يعلم مكان دفنها، ولن يجد أحدنا صعوبة في العودة إليها، لهذا سيقتلوننا؛ لأنهم على يقين بأننا سنعود ونبحث عن طريقة لصرف الجان الذي يحرسها.

ضحكتُ سرًا؛ فهذا العربي اقتنع بهراء الكعب ورقصة السعادين، ولديه إيمان راسخ بأن الجن تحرس الذهب، ولكنه أصاب في توقعه النهاية التي تنتظرنا جميعًا؛ فبعد الانتهاء من الرحلة لا أعتقد أن الكعب سيأتي إلينا ويرجونا ألا نعود لسرقة الذهب، أو سيطلب أن نتعهد له بشرفنا ألا نفعل ذلك. إنه لمشهد هزلي؛ أن يطلب منا الكعب الانتظام في طابور وأن نرفع أيدينا، ونردد خلفه:

- أقسم بالله العظيم وبشرفي ألا أعود لأسرق الذهب.

ثم يحذرنا:

- إن الله سيحاسبكم إن حنثتم اليمين، هيا اذهبوا بسلام يا أبنائي الأعزاء.

تساءلت سرًا لو كنت في مكانه هل سأسمح برحيل أحد عرف مكان الذهب، وحفرة عميقة لدفننا أضمن وأقل تكلفة؟ فسألته:

- ماذا تريد أن تفعل؟

فرد:

- بالقرب منا لا يوجد إلا الشيخ طبرق وخادمه بيبرس والباشا، أمَّا الدليل ومرافقه المسلح فلا يقتربون منا كثيرًا، وإن خططنا جيدًا واخترنا الوقت المناسب سنأخذ الكثير من الذَّهب ونهرب.

لم يكن أمامي إلا مجاراتهما، فلا يوجد أحد بالقافلة يعرف أني أتظاهر بالغباء سواهما، وبإمكانهما فضح أمري، ولن أخسر إن اكتشفت ما خططا له، فسألته:

– وما هي خطتك؟ ومن سيشارك معك؟

قال:

– أنا وأنت وسلامة.

وأخذ يفصَّل في حديثه الخطة وعن الأشخاص الذين يفكر في ضمهم لاحقا إن استدعت الحاجة، لم أعلِّق، وحقيقة خطته كانت ذكية ومغرية، ولكن هذا العربي قد نسي أن قافلة تحمل معها كل هذا الذهب لن يغفل من يديرها عن أخذ كافة الاحتياطات، ربما لا نرى الحراسة ولكن هذا لا يعني أنها ليست قريبة، حتى لو جاريتهما وتعاونت معهما، من يضمن لي أنهما لن يقتلاني مع أول فرصة للتخلص مني! أفضل أن ألتزم بخطتي السانتورية على أن أثق بالعرب وأقامر بحياتي، لست في حاجة إليهم، ومن الحماقة أن أساعدهم على سرقة ذهبي، خطتي أذكى وحظِّي في النجاة والفوز بالذهب أوفر.

جاريتهما قدر المستطاع وحاولت أن أثنيهم وأثبِّط عزيمتهم، ولكن رشيد الأحمق أوهم نفسه بسهولة الأمر، وسلامة وافقه الرأي، وتجادلا في أفضلية حمل الذهب على حمار أم بغل، فعرضت عليهم ساخرًا أن نملأ جيوبنا ذهبًا ونهرب ونكون بذلك أخف وزنا، فردَّ عليَّ رشيد وكان جادا:

– ماذا يستطيع كل واحد أن يحمل؟ ألف...ألفان...خمسة آلاف قطعة؟ بغل واحد يستطيع حمل عشرات الآلاف.

وسألته:

– كيف تعرف أننا نحمل هذه الكمية من الذهب؟

فتطوع سلامة للرد:

– الصناديق التي نحملها كل يوم ثقيلة جدًا؛ أربعة منا يجاهدون في رفع صندوق واحد.

ثم أخرج من جيبه ليرة ذهبية وتابع:

- هل تتخيل كم ليرة مثل هذه يمكن أن تكون داخل الصندوق!

ورمى الليرة عليَّ وسأل:

- كم ليرة كهذه تستطيع أن تحمل يا عزيز؟

أجبته:

- ربما عشرة آلاف...عشرون، لا أعرف صراحةً.

فضحك وقال:

- جرة واحدة كانت ثقيلة ولم تستطعْ حملها، فكم يمكن أن تحوي بداخلها؟

وقلت:

- حملنا صناديقا ودفنا جرارا ولكن لم نر ما يثبت أن فيها ذهبا.

قهقه الاثنان معا لقولي، ورد رشيد:

- نعم فيها تراب وحجارة كالتي حملها روهان وحيان ها ها ها...

وانتقلنا من الحديث عن الذهب إلى ذكريات الماضي، وأخذ يروي لنا ما حدث معه حين انفصاله عنَّا ورافق القافلة التي سارت خلفنا، وقال:

- الحمد لله لولا ما حدث لربما كان مصيري مثل حسن رحمه الله.

وهنا سألته عن العلاقة بين حسن العربي والملازم حيان، فأخبرني أن حسن من أبناء أخواله، لم أستطع إخفاء دهشتي من روايته، ووجدت فيها الكثير من الأجوبة حول الشبهات التي تحيط بهذا التركي اللعين...أطل جودت من خيمته، ولاحظت أنه وقف يبحث في عينيه بين الموجودين، فوقفت ليتمكن من رؤيتي، وعندما أشار إليَّ بيديه من بعيد تركتهم وذهبت إليه، فطلب مني أن آخذ من يساعدني وأحضر له عدة جرار فارغة، فذهبت إلى حيث تم إنزال الحمولة عن الدواب، فوجدت أحجامًا مختلفةً لأعداد كبيرة من الجرار، لم أرغب في طلب

المساعدة من أحد، وكان بإمكاني أن أحمل الجرار على حمار وأسير مسافة العشرة أمتار وأريح نفسي به، ولكن لابد لي أن أكون أحمقًا، ففضلت نقلها على دفعات.

وتطوع سالم وساعدني، وكنت على يقين بأنه الوحيد الذي يساعد بلا غرض، نقلنا العدد المطلوب من الجرار، ولاحظت أن جودت مشغول بإطعام فرسَه التي اعتاد ربطها جوار خيمته ليبقيها تحت نظره، ولم يسمح لأحد بالاقتراب منها، وبعدما انتهيت من نقل الجرار ابتسم لي ولم يطلب مني إدخالها الخيمة ففهمت أن عليَّ الانصراف.

شمس الأحد تميل نحو الغروب، ويبدو أن الحسناء مازالت نائمة، وبيبرس خادم الكعب يشرف على توزيع حصص الطعام، والأمهق ينفخ ألحانه الحزينة التي أسرت عبد القادر، وعلى أنغام الناي يتنقل سلامة من شخص إلى آخر يستجدي الجميع من أجل الحصول على طعام لطبيلة، وقبل اقترابه مني سألته عن مدى معرفته بالخيل قبل أن يلقي التحية، وكان في جوابه ما يدل على خبرة واسعة، فرقَّ قلبي وكادت دموعي تنهمر حزنا وشفقة على الذي يقتات الأعشاب ويتضور جوعا، وتبرعت له بوجبتي كاملة، وكان لابد أن أشرح له عما أتمتع به من إنسانية، وقدَّر لي هذا الموقف الإنساني العظيم، ولم يعلم بأنه لو كان جاهلا بالخيل لما اكترثت لو مات طبيلة أمامي، وكان خروج روحه مع ألحان الأمهق الشجية.

طلبت منه أن يأخذ الطعام إلى فيله ويعود ليحدثني عن الخيل–وبخاصة العربي الأصيل– وكيفية الاعتناء بها، ، ولم أكتفِ بذلك، بل طلبت منه أن يدربني على ذلك، فاقتربنا من الخيول ولم يبخل علي بالشرح والتعليم، ولم ينته الدرس إلا حينما لمحنا الدليل ومرافقه المسلح قادمين من بعيد، ؛ اجتمع الدليل مع جودت وتم استدعاء الكعب وصدرت الأوامر بفك الخيام وتحميل الدواب.

استغرق إعداد القافلة أكثر من ساعة، وأشرف جودت بنفسه على ذلك، أمَّا الكعب وفتاته فقد اختفيا فجأة، ولم يشرفا –كعادتهما– على تحميل متاعهما، وناب عنهما الخادم بيبرس، فتطوعت لمساعدته واغتنمت الفرصة لاشتمام رائحة ملابس نعناعتي الحسناء وضيَّعتُ فرصتي في التقرب إلى جودت بتحميل جِرار الذهب الموجودة في خيمته، وجر الحمار الذي سيحملها.

امتعضتُ كثيرا وشعرت أن سلامة قد اعتدى على حقوقي، ولم أجد طريقة أعبر بها عن استيائي إلا بصفع سلامة وركله على وجهه، وتوبيخه على إفساد خططي السانتورية، واختطاف الرسن منه وسوق الحمار، وقد فعلت ذلك في مخيلتي كعادتي. انشغلت بمراقبة جودت وفرسه نجمة، وبعد قليل رأينا أمامنا الكعب والفتاة يمتطيان الخيل ويبدو أنها سبقانا منذ وقت طويل، ولم أفهم السبب؛ فهل رغبا في نزهة بفردهما! أم أن الأمر خلاف ذلك!

توقفنا واصطحب الكعب سلامة ورشيد وخمسة آخرين، وتبعهم جودت والولد الأمهق، ولم أنجح هذه المرة بفرض نفسي والإسراع بالمبادرة وشعرت أن سلامة ورشيد قد أتقنا الدور أكثر مني، فتمنيت أن يسقطا في حفرة ويهلكا معا. لم يبتعدوا كثيرا عن الطريق؛ فكان بإمكاني سماع صوت الفؤوس تشق الأرض، كما استطعت تمييز ضربات مطرقة إيليا فعلمتُ أنه قد بدأ بنقش الرموز.

لم أجد صعوبة في رسم خارطة للتلة، فقد كان فيها مجموعة من الصخور تشبه الحوت، ومن خلال سماعي لضربات الفؤوس استطعت تقدير المسافة، ومكان الدفن، ومن الطبيعي ألا يكون ذلك بدقة متناهية، لذا سأحتاج في عودتي مستقبلا إلى مجهود أكبر، وفي أسوأ الأحوال لن يصيبني الفقر جراء فقدان عدد من الجِرار، ولكن أكثر ما يقلقني هو تخطيط سلامة ورشيد لسرقة ذهبي، والله وحده أعلم بمَن يفكر في الأمر غيرهم! أكاد أنفجر غيظا من مجرد التفكير في أن شخصًا ما سيتمكن من سرقة جرة ذهب واحدة، ولو كانت صغيرة.

أشغلني التفكير في الثراء ولم أنتبه لنعناعتي الحسناء وهي قريبة مني؛ ترجَّلتْ عن حصانها ووقفتْ تلامس عنقه، فوجدتها فرصة، واستجمعت شجاعتي واقتربت منها، ولاحظت أن سرج الحصان لم يتم شده جيدا، فأعدت شده كما تعلمت من سلامة...لم يفصلني عنها سوى الحصان، وخاب أملي كثيرا حينما لم أشتم رائحة النعناع تفوح هذه المرة، وقد كافأتني بابتسامة عذبة بريئة أضاءت النصف المظلم للقمر، وقالت:

– شكرا.

تلعثمت قليلا قبل أن أرد عليها:

– عف.. عف... عف...عفوًا...

قالت والابتسامة لا تفارقها:

– اسمي نيروز.

ارتبكت كثيرا فاعتقدت أني لم أسمعها، وكررت:

– أنا اسمي نيروز.

نظراتها شلتني، وشعرت برغبة في الهرب من عينيها وكدت أفعل لولا أن لساني انطلق دون أمري مسرعًا:

– أنا...أنا عزيز أفندي أستاذ وعالم آثار كبير والمسؤول عن...

لم تنبهر بالألقاب التي سردتها، وربما كان تسارع حديثي سببًا في امتناع فهمها، وقبل أن أعيد الكرة تريثتُ ولُمت نفسي للعودة إلى ممارسة أسلوبي الاستعراضي، وبالرغم من كونه لا يتناقض مع القواعد السانتورية إلا أني فضلت الابتعاد عنه، وقلت:

– أنا عزيز...أنا عزيز.

ابتسمتْ وقالت:

– وأنا نيروز.

أدهشتني براءة الأطفال التي فاضت من عينيها وأحزنني شكي في تظاهرها فعدتُ بذاكرتي واستعرضت مواقفها منذ اللحظة الأولى لقدومها، وعاودني مشهد عناقها الشهير للكعب، وتأكدت أن هذه الحسناء التي فاحت منها رائحة النعناع سابقا غاية في البراءة؛ وراقني ذلك وشعرت بتفوقي، وازداد طولي وانطلق لساني، وأخذت أحدثها عن خبرتي التي لا حدود لها بكل ما له علاقة بالخيل، وبخاصة الأصيل منها، فانبهرتْ لاتساع معرفتي، وشعرت بانجذابها، واكتشفت أن هناك أمورًا تشد الناس أكثر من الباشوية. كنت حذرا من أية حركة عفوية تصدر مني، بالرغم من استعدادي لأدفع حياة رشيد وسلامة مقابل دس أنفي بين نهديها لأشتم رائحتهما.

انتبهت لأصوات أنبأتني بعودتهم، فابتعدت قليلا عن نعناعتي حتى لا أستفز بيبرس، وعادت القافلة تشق طريقها مرة أخرى، وحين توقفت حرصت على أن أكون مُستعدًا، حتى لا أفوّت الفرصة هذة المرة، لم نبتعد عن الطريق أكثر من خمسين مترا، وطُلب منا تحريك صخرة كبيرة، وبالرغم من الجهد الذي بذلناه إلا أننا لم نتمكن من ذلك، واستغل سلامة الموقف واستأذن أن يستدعي طبيلة لمساعدتنا، ولم يرق الأمر للكعب، إلا أن جودت سمح بذلك، وتحركت الصخرة، ولمع نجم طبيلة في مهمته، واستطاع سلامة أن يثبت أنه ليس عبئًا.

حفرنا عميقا، ونجح رشيد في سرقة الأنظار مني؛ حفر نشيطًا وسبق الجميع إلى حمل الجرة، وفي محاولة غبية للتذاكي تعمد أن يهز الجرة أكثر من مرة دون سبب، وكأنه بحاجة لدليل على ما بداخلها من ذهب، فضحته عيناه وابتسامته البلهاء، ولابد أن الكعب اللعين الذي يراقب كل شيء قد لاحظ جيدًا. جميعهم كانوا حمقى وعيونهم كشفت عن نواياهم، وكل لفتة أو حركة كانت تشير إلى قيامهم بمسح للموقع، وإعداد خرائط تسهل عليهم العودة، وابتسامة صفراء من شفة الكعب الغليظة كانت تدل أنه لاحظ مَكر الجميع، باستثناء سالم الذي كان أبسط من أن يشغله أمرٌ يتعدى سوق الدواب وإطعامها، وعبد القادر المجرد من أي فضول، والذي اختار أن يقوم بالأعمال الوضيعة، كملاحقة القُراد، والتنظيف خلف الدواب، والبقاء برفقتها ليلَ نهار.

أعدنا الصخرة مكانها، وفاجأنا بيبرس بأن انحنى ليدوس الكعب على ظهره ويعتلي الصخرة، ويفرد عباءته ويقول:

– من منكم سيتطوع ليعطيني من دمه؟

قبل أن نفهم قصده مدَّ خادمُه بيبرس يده، قائلاً:

– شَرِّفني يا سيدي.

فأخرج الكعب خنجره من حزامه وأمسك بيده وجرحها، فسال دمه، ثم قال الكعب:

– شرفتك يا بيبرس.

بدأ رقصة السعدان والـ "قاقا باقا"، ومرتْ أكثرُ من خمسةِ عشر دقيقة قام خلالها بطقوس الهذيان والجنون، وأنا أردد سرًا:

– لعنة الله عليك، وعلى الـ "قاقا باقا" يا ابن السقيطة على رأي البدوي.

عدنا إلى القافلة وحرصت أن أرتعب –مثل البقية– من عفاريت الشيخ طبرق كعب الحذاء، وأشرقت الشمس ومازلنا نواصل السير في طريق تصطف على جانبيها الحجارة؛ علاماتٍ يتركها الدليل لتتبْعه القافلة، وبحلول التاسعة صباحا توقفنا، ونصبنا الخيام لراحتنا وأنزلنا الحمولة لراحة الدواب، وبعدما تدافعنا نحو البئر اكتشفنا أن الدليل لم يوفق في اختيار الموقع هذه المرة، وأن مياه البئر لا تصلح إلا لشرب الدواب، ولا يبدو أن أي منا قد احتاط لمثل هذا الظرف الطارئ.

قام بيبرس بتوزيع الطعام، ولم يكن هناك غير التمر والتين المجفف، وبعض المعلبات، والكثير من الزيتون والزيت والسكر، وكل هذا ما عاد يغري أحدا، ولكن مخزون السجائر الذي لم ينفد، عزز موقفه وجعل الجميع يتملقونه؛ ليزيد في حصتهم؛ فإذا به يتأمَّر على الجميع بحكم مكانته من الكعب، وطلب من سالم أن يعد الشاي، وأعطاه ما يكفي من السكر، ولم يدرك أن إعداد الشاي يحتاج إلى الكثير من الماء الذي يصعب توفيره، وشغله عن ذلك نظرات عينيه القائلة:

– هيا قبِّلوا يدي واشكروا نعمتي على هذه الرفاهية التي أقدمها لكم.

لن يكون احتمال العطش صعبًا هذا الصباح، ولكن الصعوبة تكمن بعد تمكُّن الشمس منا. وحقيقةً لم يستفزني العطش بقدر ما استفزني رشيد المتذاكي الذي أخذ يتجول ويتفحص كل جزء من موقعنا، ولم يبق إلا أن يصرخ ويعلن عن نواياه على الملأ. هذا الأحمق لم ينتبه بأن عينا بيبرس تلاحقه، لا أشعر بالمسؤولية تجاهه، ولا يهمني إن غرق في غبائه، ولن أنسى أبدا كيف احتجزني في البئر وسخر مني مع رفاقه، بل وجدت في حماقاته فرصة لانشغال بيبرس عن حراسة نعناعتي الحسناء قليلا لأتمكن من الاقتراب.

لم أشعر بحاجة في النوم، فذهبت لسلامة وقدمت له نصف حصتي من الطعام، ولم أكن بحاجة إلى النصف الثاني فأبقيته للمساومة لاحقا، فلدي مخزوني الخاص من البسكويت والشوكولاتة وسأتدبر أمري لحين وصول المؤن، ولم يبخل سلامة عليَّ بالمزيد من الدروس عن

الخيل، وكنت حريصا ألا يشاهدني أحد، وبخاصة الدروس العملية التي تتطلب الاقتراب من الخيل. سألته عن فرس الأفندي، فأخذ يتغزل فيها ويمتدح أصالتها، هذا العربي وصف لي أباها وأمها وعمرها، واستحق كل الطعام الذي سرقه مني، ولم يتبقَ في جعبته ما يقدمه، فقد اعتصرتُ كل معرفته عن الخيل حتى القطرة الأخيرة، ولم تعد هناك حاجة لأكون كريما معه، وبقي أن أمارس ما تعلمته بصحبة الخيل؛ فاليوم طويل، ويبدو أن نعناعتي كانت نائمة، ولا يوجد ما أفعله غير ذلك.

الاعتناء بالخيل لم يكن سهلاً، والدروس النظرية والعملية لم تكن تكفي لإنجاح خطتي. حاول سالم مساعدتي وكان سعيدا بذلك، ولكني اكتشفت أن ما اكتسبته خلال ساعات مع سلامة يفوق كل معرفته عن الخيل، ولم أزل بحاجة لأتعلم كيفية التواصل معها، كما يفعل جودت مع فرسه، ولم يكن هناك من هو أكثر براعة من عبد القادر الذي لم يتمكن أحد من اختراق خلوته. أراه يرفع مطرته إلى فمه أكثر من مرة، فتعجبت من كيفية حصوله على الماء، واقتربت منه ولم يغمض عينيه –كعادته– ولعله أدرك أن هذه الخدعة لن تفلح معي، وفضَّل إهدار دقائق بصحبتي بعينين مفتوحتين على إهدار ساعة في محاولة التخلص من تطفلي؛ فرحَّب بي بوجهٍ بشوش وعينين مفتوحتين غير راضيتين، وطلبتُ منه أن يعلمني كيفية التواصل مع الخيل، ومدحتُ تفرده في امتلاك هذه القدرة العجيبة، كان ساحرًا يتحدث معها همسًا وتطيعه، وعندما أدرك أني لم أفهم سر ذلك قال لي:

– الحيوانات تفوق البشر ذكاءً في تمييز المشاعر الصادقة من الكاذبة، وتشتم رائحة الحب والحنان، وتميز مَنْ يحبها مِمَنْ يكرهها، وردود أفعالها تساير الموقف الذي تعايشه؛ فإما أن تطيع حبًا وإما أن تطيع مجبرةً، والخيول أكثر الحيوانات قدرة على التمييز بين العدو والصديق، وتستطيع التواصل مع البشر، والحب لغتها دومًا.

فسألته:

– هل أتكلم معها بالعربية أم التركية؟

مبتسمًا:

– لا تهم اللغة، إنما الحب الذي يرافقها.

لُمْت نفسي على سذاجتي، ولم يبخل عليَّ بتعليمي الكثير من الطرق والخدع للتواصل مع الخيول، وحينما حاولت أن أسأله عن نفسه أكثر وأعرف قصته، وكيف التحق بالقافلة، أجاب:

– الحمد لله، الرزق على الله، ما شاء الله.

ثم أغمض عينيه، وكان العطش قد اشتد بي، ولو كنتُ من يملك الماء لما أهدرت قطرة واحدة على أحد، لهذا لم أكن لأستجديه، فقلت له:

– ما رأيك في أن أعقد معك صفقة؟

– وما هي؟

– لدي شوكولاتة، فما رأيك أن أعطيك منها مقابل بعض الماء؟

– لا يوجد لدي ماء.

– سأعطيك الكثير منها.

– لا يوجد معي ماء، وأنا لا آكل الشوكولاتة.

– سأعطيك بسكويت إذا.

– لا يوجد معي ماء.

لم يسرني ذلك، ولكني أتفهم الحاجة في أن تكون لئيما في مثل هذه الظروف، فقلت له:

– معك حق يا عبد القادر، الماء في هذا اليوم أغلى من الذهب، كم تريد أن أدفع لك؟

بغضب:

– معاذ الله أن أمنع الماء عنك، أو أفكر بتقاضي ربحٍ مقابله، لا يوجد معي ماء.

– وما هذا الذي في القِربة التي تحملها؟

– هذا حليب وليس ماء.

ومد إليَّ القربة وقال:

– تفضل اشرب.

وما كنت لأفكر مرتين، التقفت القربة منه وقربتها من فمي، وشعرت بدفء الحليب وطعمه الغريب، وكان بإمكاني شرب كل ما فيها ولكني لم أفعل، وأعدتها إليه وشكرته على كرمه، وفكرت أن أعرض عليه القليل من البسكويت، ولكني تراجعت، فتركته يعود إلى دوابه، التي يجد بينها الراحة والسكينة بعيدا عن البشر، كما أن إهدار المزيد من الوقت معه لن يعود عليَّ بفائدة.

ذهبت لمراقبة ملكة القافلة نجمة؛ حبيبة جودت، والاقتراب من الذهب أهون وأقل خطرا من الاقتراب منها، وسأحتاج قليلا من الوقت قبل أن أدعو البراغيث والجراد لتذوق دمها اللذيذ، وعندها ستكتمل خطتي.

غادرتنا الشمس، وانتصف الليل، ولم ينبح أحد لنستعد لمواصلة السير، ولا تفسير لذلك سوى وجود عائق يمنع تقدمنا، ومما زاد الأمر تأكيدًا الارتباك الذي ظهر جليًّا على وجه جودت، وكثرة اجتماعات الدليل والكعب، وكان هذا سيسعدني لو أننا نخيم بجوار ماء.

أشرقت الشمس من جديد ولم نبرح مكاننا، ومفاجأة اليوم جاءت من حيث لا نتوقع؛ سالم قادر على الابتكار، لقد قام بصنع مصفاة من ثلاث طبقات استخدم فيها عمائم العرب البيض، وبعدما تخلص من الشوائب قام بغلي الماء، ثم تصفيته، وتبريده. لم يكن الماء بالجودة المطلوبة، ولكنه كان كافيا لإطفاء ظمأ البعض، وبخاصة طبيلة الذي أتعب سلامة في السيطرة عليه. سالم الشاب البسيط الطيب الجاهل، الأسمر ذو الشعر المجعد، والوجه الرفيع، الذي برز منه أنف معقوف، بجسده الهزيل ابن التاسعة عشر من عمره، والذي أمضى حياته راعيا للماشية في حوران، وتاه طريقه قبل عام، ووصل إلى الجليل، وحلمه الكبير أن يعود إلى بلاده التي لم يجد لها طريقا، وحين تم شراء مجموعة من الإبل لإرسالها إلى مرج ابن عامر، طُلب منه أن

يرافقها، والأصح أنه تم بيعه مع الابل من قِبل التاجر الذي دأب على استغلال سذاجته، كما فعلنا جميعا منذ اليوم الأول الذي رافقنا فيه. من كان يصدق أن هذا الساذج قادر على الابتكار!

امتدحنا جميعا ما قام به، وربت الكعب على كتفه إعجابا، ولولا أني أعرفه أكثر من الجميع لشككت في ادعائه السانتورية، وقد أخبرني –فيما بعد– أنه تعلم هذه الطريقة من راعٍ في حوران، وبالرغم من عطشي الشديد لم أكن لأغامر بشُرب هذا الماء الملوث ولو تم تكريره ألف مرة، فأشغلت نفسي باستثمار كل دقيقة في دراسة الخيل، والاقتراب خلسة من فرس جودت نجمة لتعتاد علي صحبتي.

غربت الشمس وخاب أملنا حينما لم نسمع نباح أحدهم، وأيقنت أن ليلة أخرى ستمر بغير ماء، فحدثتُ نفسي: وما حاجتي إلى الماء مادام هناك حليب! فذهبت إلى سالم وسألته عن معرفته بحلب الإبل، فأخبرني أنه لم يفعل ذلك من قبل، ولكنه رأى كيف يتم حلبها، فذهبنا معا في سرية تامة، وبدأنا تفحص الجمال الواحد تلو الآخر، وسذاجة سالم وجهلي بالإبل، وما تبقى من ضوء القمر صعَّب علينا الأمر كثيرا، يبدو أن الإبل جميعها ذكورية؛ لذا لم نوفق في العثور على الناقة التي يحلبها عبد القادر اللعين، ولم أنتبه بأن الحقير نعمة قد جمع كل العرب لمراقبة سذاجتنا عند تفحص الإبل، فانهمرت علينا التعليقات الساخرة مثل المطر:

– احلب يا عزيز أفندي احلب.

– انتبه يا عزيز أفندي حتى لا يظن الجمل أنك ناقة.

والكثير الكثير من النكات التي استدللت من خلالها على انعدام النوق في القافلة، وعندها حاولت أن أسخر منهم فأخبرتهم أني أسعى لبول الجمل، فقد سمعت أن العرب يشربونه للوقاية من الأمراض، فرد عليَّ أحد الخنازير وقال:

– إذًا استلق تحت جمل وافتح فمك وسيتبول فيه حتما.

ضحكت غيظا وتركتهم، ولا يشغل بالي شيئا أكثر من اكتشاف مكان الناقة الحلوب التي يخفيها عبد القادر عن الجميع.

انتصف الليل واقترب الدليل ونبح وبدأنا الاستعداد، وأخذ الجميع يحثنا على الإسراع، ولكن هذه المرة لم نتقدم إلى الأمام وإنما عدنا للخلف، وقطعنا مسافة قبل أن نلتف خلف أحد الجبال ونعود إلى الاتجاه نفسه، وربما إلى اتجاه آخر، فمعظم الجبال والتلال متشابهة في مثل هذه الساعة، والطرق التي نسلكها أربكت قدرتنا على ضبط الاتجاهات.

أشرقت شمس الأربعاء ولم نتوقف، بل تابعنا سيرنا حتى وصلنا بعد عدة ساعات إلى فسحة ضيقة بين الجبال، تعجز الشمس عن وصولها، وكان مكانا نموذجيا لإخفاء القافلة، والماء الوفير أعاد لنا الحياة من جديد، وما أحدثته الطبيعة في تضاريس هذا الوادي الضيق–أو الممر الجبلي– صعَّب علينا نصب الخيام، ولكنه كان باردا منعشا، فيه الكثير من الزوايا التي تمكن من الانزواء بعيدًا عن أعين الرقباء، فانزويت لأرتاح قليلا، وحينما لمحت جودت من بعيد أخذت أراقبه حتى اقترب من الكعب وسارا معا إلى أن اختفيا عن الأنظار، فوجدت في غيابه فرصة لقضاء بعض الوقت مع نجمة، أطعمتها من يدي وربتُّ على عنقها، وهمستُ بأذنها كما علمني عبد القادر، وشعرت أنها اعتادت وجودي، فقررت الانتقال إلى الخطوة التالية من الخطة، ودعوة بعض القراد والبراغيث، ولكن الحشرات اللعينة رغم انتشارها الكثيف تأبى أن تقترب منها، ولم أجد طريقة لأخبر هذه الحشرات اللعينة أني لا أنتوي لها شرا، بل سأصحبها لتسكن فرسا أصيلة، وتتذوق دماءها النبيلة، وليس من المعقول أن أسأل أهل الخبرة كيف يمكنني فعل هذا!

فذهبت إلى سالم الساذج وكنت أكثر سذاجة منه حين سألته إن كان يعرف طريقة تسمح بنقل القراد والبراغيث من دابة إلى أخرى، فأجابني بعد تفكير عميق:

– (مش فاهم عليك شو هذا!)

استيعاب هذا السالم بطيء، وما قلتُه يحتاج إلى شرحٍ وتبسيط؛ فقلت له:

– أريد قرادًا وبراغيثًا.

فرد:

– (والله ما معي)

وقبل أن ينهي جملته أسرعت بالابتعاد عنه، ولم يتبقَ أمامي إلا أن أجلب أحد الخيول القذرة بالقرب من نجمة لعله ينقل إليها بعض ما عنده من مصاصي الدماء، وفي هذه الخطوة مغامرة قد تتسبب في هدم كل ما بنيته، إن اكتشف جودت هذا الفعل الخبيث، فعدلت عن الأمر، ولمعت في رأسي فكرة، وهي أن ألصق الذباب والقراد بها ميتا لأنه يأبى أن يرافقني حيا.

وابتسم الحظ لي عصر اليوم، ونادى علي جودت وسألني أن أعد له "قلاية بندورة"، فذهبت إلى خيمة المؤن وطلبت من بيبرس البندورة، ولكنه سخر مني، ففهمت أنها نفذت، وعدت إلى جودت واستغللت تقززه الزائد، وقلت له:

– اعذرني يا سيدي لقد ذهبت إلى خادم الشيخ طبرق، وعندما دخلت خيمة المؤن شقتْ أنفي رائحة كريهة وكأنها رائحة بول، وارتأيت عدم الاقتراب من شيء أشك في نظافته، وإن سمحت لي سأعد لك شيئا آخر أثق في نظافته.

فقال:

– افعل ما شئت، ولا حاجة لطلب شيء من خادم طبرق.

أشار بيده داخل الخيمة الثانية قائلاً:

– ادخل وخذ ما تحتاجه.

إنه يحتفظ بالكثير من المؤن في خيمته؛ الكثير من المعلبات، والجبن، والتمر، واللحم المقدَّد، والشوكولاتة وفاجأني أنه لم يكترث لوجودي بالقرب من الذهب، وانشغل عني عائدًا إلى كتابته، ولانتباهي إلى عشقه للجبن أخذت ما أحتاجه وخرجت، ثم طلبت من بيبرس أن يعطي خلدون الأعوج طحينا ليعد خبزا للباشا، ولم يكن هناك أبرع منه في إعداد الخبز فأخبرني بعدم توفره. الطهو لعبتي التي أبرع فيها ولم أعجز عن صنع وجبة فاخرة.

فاحت الرائحة وجذبت نعناعتي الغالية إليّ، فاقتربت وأخذت تستنشق الرائحة وتردد:

– اووووه، الله الله ما أروعها!

أقول سرًا:

- دعيني ألامس أردافك وسأعطيك كل ما أعددته لجودت.

إلا أن بيبرس الذي تابع كل تحركاتها أسرع وأحضر جبنا من خيمة المؤن التي يشرف عليها، وطلب مني أن أعده لها، هذا الحقير أخبرنا سابقا أن الجبن قد نفذ، ولابد أن استغل هذا ضده لاحقا...أعددت لنعناعتي الجبن بطريقتي الساحرة، وأبعدت عيني عنها؛ فقد وقف فوق رأسي وكأنه يخشى أن أدس لها سمًا في الطعام، وبعد انتهائي من إعداد وجبتها ناولتها إياها، وكنت أحب أن أطعمها بيدي، وتأملت أن تكافئني بقبلة، ولكنها نظرت ناحية ذاك الخَنُّوص الحقير وقالت:

- شكرا بيبرس، تعال وكل معنا أنا وطبرق.

سره ما سمع وغاظني ما سمعت، لم يرافقها ولكن ابتعد كلاهما عني، وانشغلت بوضع لمساتي الأخيرة في طعام جودت، واقترب مني سلامة وقطعت عليه الطريق قبل أن يتسول وقلت له:

- هذا الطعام للباشا.

وهمست في أذنه:

- بيبرس يخفي الكثير من الطعام عنكم، اذهب أنت ورشيد واسطوا عليه.

وتركته، وأسررت في نفسي:

- من لا يجرؤ على سرقة الطعام لن يسرق ذهبا، وليطعم فيله من علف الدواب قبل نفاده بدلاً من التسول.

ما حملته من طعام أدخل البهجة على قلب جودت أفندي، وامتدحني كثيرا وأصر على بقائي لحين انتهائه من طعامه، وسألني عن الخبز، ولمَّحت بذكاء إلى أنه لم يتبق إلا كمية صغيرة من الطحين للشيخ طبرق، لهذا لم يعطيني خادمه منها لأعد الخبز الطازج اللذيذ الشهي، لم يعلق واستمر في تناول الطعام، هذا الناعم لا يستفزه شيء وكل محاولاتي لتحريضه على بيبرس باءت بالفشل.

حينما انتهى من تناول طعامه انتهزت الفرصة وسألته إن كان بإمكاني أن أغسل فرسه نجمة لأخفف عنها وطأة الحر قليلا، وأطرد الذباب الذي وجد طريقه إليها، فرفض على الفور، ولكني لم أيأس وانتظرت قليلا، ثم قلت:

– اعذرني يا سيدي، أعلم أنك لا تحب أن يقترب أحد من نجمة ولكني اليوم اضطررت لأنزع عنها بعض القراد، ولم تكن موجودا لتسمح لي.

انتفض كمن لسعته أفعى وخرج ليتفقدها، وأريته جثث القراد والذباب الذي قتلته لحمايتها، ثم عدنا إلى الخيمة ودار بيننا حديث حول نجمة، ولم تستطع عيناه إخفاء الكثير من التساؤلات حول إلمام أحمق مثلي بالخيول الأصيلة، وكنت مستعدا لكل سؤال دون أن أشككه في حماقتي، فأخبرته عن فرس زوجة روهان الأصيلة ناصعة البياض، وكيف كنت الوحيد الذي يعتني بها يوميا؛ لأنها لا تسمح لأحد حتى روهان بيك من الاقتراب منها، فوجد في قصتي ما أقنعه بأني خير من تعامل مع الخيل، ولم يكتشف أني أجهل الناس بها، وخبرتي لا تتعدى ما حفظته الذاكرة خلال يومين.

وما إن انتهى من طعامه حتى أخرج حقيبة جلدية فيها فراش ومعدات خيل، وطلب أن أتبعه، وكأنه أراد اختباري، أو أنه يخشى عليها مني، وأحضرنا الماء وراقه كثيرا طريقتي في لمسها وتنظيفها، فتنحى جانبا وراقبني بلا ملل، فصَهَلت نجمة منتعشة، وعاتبت جودت على بخله عليها بالماء.

من خلال نجمة استطعت أن أُلامس شغاف قلبه، فرماني بنظرة حملت الكثير من الحب والشكر والعرفان، ثم فتح أحد الحقائب وأخرج بنطالا وقميصا وجوارب، وأعطاني إياها، كان واضحا أنه تأثر بما فعلتْ، ولم يجد غير هذه الطريقة لمكافأتي ولم يلحظْ حجمي الضئيل مقارنةً بملابسه، لم أعلِّق بل حملتها وتركت السرور يفيض من عيني، ولم يكن ذلك صعبا لأني شعرتُ به لما حققته من نجاح في الوصول إلى قلبه، انحنيت وقبَّلت يده وخرجت مسرعا دون استئذان، تعمدتُ فعل ذلك لأظهر كطفل صغير لا يصبر على الانفراد بلعبته الجديدة، ولاحقتني ضحكاته.

ابتعدت ووجدت نفسي في مأزق، فلا يجوز ألا أرتدي هديته، وإن ارتديتها ستجعلني أبدو كالأحمق في عيني نعناعتي، ولن ألتزم بالقواعد السانتورية مع حبيبتي، فأنا أنيق ووسيم، لن تحبني إن تظاهرت أمامها بالحمق.

سرقني الوقت، ولابد أن أسرق قليلا من النوم لأستعيد نشاطي كي أتمكن من الحفر وحمل جرار الذهب، استرحتُ إلى ظل شجرة وتوسدت ملابس جودت

لم أصحُ إلا بعد غروب الشمس، ومازالت القافلة مستقرة، ولكن جودت والأمهق والكعب ومعهم عدد من الرفاق قد رحلوا، وضاعت فرصتي السانتورية، وضاع معها بعض جرار الذهب، ولكني سُررت حينما أخبرني سالم بأن جودت طلب أن يتركوني نائما.

ذهبت إلى بيبرس ليعطيني القليل من الطعام فرفض، وكأنه يعاقبني على شيء أجهله، فتركته ومررت بجوار خيمة الباشا وإذا بنجمة، تهز رأسها وتخبرني أنهم لم يبتعدوا كثيرا، ودل على ذلك أن الحصان الذي اعتاد الكعب امتطاءه مازال موجودًا فأيقنت بذهابهم سيرا على الأقدام، وكان ستار الخيمة منسدلاً ومُحاطًا بعدد من الحجارة المرصوصة بشيء من النظام لتأمين الخيمة واكتشاف محاولة دخولها –إن حدث– أثناء الغياب عنها.

لم أرغب في البحث عن نعناعة لوجود بيبرس، هذا الخَنُّوص الحقير الذي أخفى بعض العلف قبل نفاده ؛ فلمعت الفكرة في رأسي وعدت أدراجي إلى نجمة، وسرقت ما تبقى أمامها من علف، وألقيته للحمير، وتوجهت إلى بيبرس وسألته بعضا من العلف الذي يأكل منه حصان سيدنا الشيخ طبرق لأطعم حصانا آخر، ولو أخبرته أني أقصد فرس جودت لأعطاني ولكنِّي تعمدتُ عدم البوح ليرفض وأُحرض عليه؛ هذا اللعين يبخل على فرس قائد القافلة بالقليل من العلف، ماذا يا ترى سيفعل جودت حينما يعرف!

من بعيد لمحت رشيد الأحمق يطل من بين الصخور برأس الجِرذون الذي يحمله بين كتفيه، وكنت أعتقد أنه رافقهم لدفن الذهب، وأخذ يلوح بيده، ولم يكن أمامي إلا أن أذهب إليه، وعلمت منه أنهم لم يأخذوا معهم جرارا، ويبدو أنهم ذهبوا للاستكشاف فقط، وفاجأني حينما قال

إن كمية الذهب التي يحتفظ بها جودت بخيمته كبيرة لا يتصورها عقل، وبالإمكان أخذ كمية دون أن ينتبه أحد، وبدأ يصف لي الصناديق، وأيقنتُ صدقه، فسألته:

– وكيف عرفت هذا؟

فأخبرني أنه تسلل منذ ساعة إلى الخيمة وشاهد بأم عينه، فصرخت فيه:

– أيها الأحمق لقد ورطتنا جميعا! الباشا ترك علامات للاستدلال إن اقتحم أحد خيامه!

رد باستهتار وقال:

– لقد أعدت كل شيء مكانه، ولم تنطلِ على الخدعة.

شعرت بالقرف من الاستمرار في جداله، هذا العربي يفكر بمؤخرته، وأوهم نفسه بأن جودت قد وصل لدرجة الغباء بنصب شرك يسهل اكتشافه، ولم يتبادر إلى ذهنه أن جودت ربما أراد بذلك أن يخفي شركا آخر، وها أنا أجد نفسي في ورطة كبيرة، وسأكون أحد المشتبه فيهم، هذا الغبي نسف كل خططي بحماقته، ولابد أن عيني بيبرس اللتين لم تتوقفا عن ملاحقته قد أمسكتا به، نصحته أن يهرب فورا إن استطاع، إلا أنه استهتر –كعادته– فتركته وأخذت أندب حظي، وقد سيطر علي الخوف والقلق في انتظار القادم.

عاد جودت ومن معه، وما إن اقتربوا حتى رأيت بيبرس الخادم يقترب من الكعب ويهمس في أذنه، والآخر يهز رأسه، وطلب جودت مني أن أتبعه وحين وصل إلى مدخل الخيمة توقف للحظات أمام مدخلها، وأخذ يتفحص الحجارة وأزاحها بقدمه، ولم أره يبذل جهدا في تدقيق النظر، ولم يبدر عنه ما يجعلني أشك في شيء، فاطمأن قلبي.

أشعل فانوسا ثم أشار الى أربع جرار تم إغلاقها بعناية، وطلب مني جلب حمار وتحميل الذهب عليه وأخذه للكعب، وبالرغم من صغر الجرار كانت ثقيلة، وبعد انتهائي من التحميل وقبل أن أنطلق قررتُ أداء مناورة سانتورية، تصنمت أمامه وأرخيت عيني وتبرمت، فسألني:

– ما بك يا عزيز؟ لِمَ لا تتحرك؟

أحنيت رأسي وقلت له:

- لم أجد طعاما لنجمة فذهبت إلى خادم سيدي طبرق ورجوته أن يعطيني القليل من علف حصان سيده لأطعمها، إلا أنه رفض قائلاً: "ما معنا من علف لا يكفي لإطعام حصان الشيخ"، وأخشى أن تكون جائعة ولا أستطيع الذهاب قبل أن أطمئن عليها.

كنت أعتقد أنه سينتفض غضبا ويأتي به ويدق عنقه أمامي، ولكنه ابتسم وربَّت على كتفي وقال:

- خيرا فعل.

وأشار إلى زاوية في الخيمة وقال:

- هناك تجد العلف الخاص بها وبإمكانك أن تأخذ لها ما تحتاجه، وتذكر أنه يتم إطعامها في مواعيد محددة، والآن اذهب وسلِّم الجِرار لطبرق، وعد لاستبدال الماء لنجمة.

تصنمت مكاني ولم أتحرك، فقال:

- أسرع قبل أن تتأخر على طبرق.

وبدلا من أن أخرج ولجتُ داخل الخيمة الثانية، فضحك وسأل:

- ماذا تفعل؟

قلت:

- لن أذهب قبل أن أترك لها بعض الطعام، وأنا على ثقة بأنها جائعة، ولا يجوز أن أتركها دون طعام حتى الصباح.

ضحك وقال:

- هيا اذهب وأنا سأهتم بها.

رمقته بنظرة فيها تطاول على مكانته، وعتاب لجرم اقترفه، فأدهشته وقلت بوقاحة مدروسة:

- وكيف أعتمد عليك سيدي وقد دخلتَ الخيمة ولم تكلف نفسك بإلقاء التحية عليها!

لم يرد علي، وتعمدت أن أتجاهله، فأخذت القليل من العلف وأدرت ظهري وتركته، ولا أشك أنه فكَّر في صفعي على عصياني لأوامره، وحتى لو فعلها لم يكن هذا ليفسد خططي، فدراستي لشخصية جودت وتعلقه بالفرس كأنها أحد أبنائه -إن كان له أبناء- ستدفعه للتمسك بي ولو كنت أبلها.

الأسياد قد تغض الطرف عن بعض تجاوزات الخدم، ولكنهم لا يصبروا على وقاحةٍ وعصيان، وأنا فعلت الاثنتين معا؛ لألفت انتباهه وأثبت له حرصي واهتمامي بحبيبته الغالية نجمة؛ نجحت في ذلك ولكني فشلت في تحريضه على الخَنُّوص بيبرس، ولكني على ثقة بأني قد زرعت بذرة كُره داخله، وذاكرة الإنسان تتجاهل بعض المواقف، ولكنها لا تنساها، وسأعتني بهذه البذرة جيدا حتى تنمو.

أمسكت بطوق الحمار المحمل بالذهب وذهبت للبحث عن الكعب لأسلمه إياه ولم أجده، فاقترب مني رشيد وقال:

- الشيخ طبرق سبقنا وطلب مني أن آخذك إليه.

وأشار بيده إلى الطريق التي سلكها الكعب...لكزني قلبي وراودني إحساس سيئ مثير للريبة، ذاكرتي تستعرض الأحداث، حماقات رشيد كانت مكشوفة ولم تغفل عنه عينا بيبرس، وهمساته قبل قليل في أذن سيده أثارت شكوكي، ولا مكان للمصادفة في طلبه من رشيد مرافقة حمار الذهب في اليوم نفسه! هناك خدعة ما، سقت الحمار وسار رشيد أمامي في طريقنا للكعب الذي ينتظرنا خلف التلة، حسب ادعائه، وفي الطريق أخذ يتمتم لي:

- إنها فرصتنا يا عزيز.

لم أفهم ما يريده بالضبط، واعتقدت أنه ربما قد فكر أن يفتح إحدى الجرار ويخرج منها بعض الذهب دون ملاحظة أحد، ولم يخطر لي ببال أن حماقته دفعته ليفكر في سرقه الحمار وما يحمله، وحينما كشف لي عن نواياه التفتُّ حولي بحذر وهمست له:

- أيها الأحمق إنه كمين معد سلفا لاختبارنا.

لم يتوقف عن تحسس الجرار، وعلمت أنه وقع تحت سحرها، بذلت جهدي لأثنيه عن ارتكاب هذه الحماقة، إلا أنه أصر على أخذ الحمار وحده إن رفضتُ مرافقته، لم أكن لأقتل نفسي من أجل هذا العربي، أمسكت برسن الحمار بقوة، وحاول سحبه مني، لم أكن مقاتلا ولا جنديا مثله، وكل ما استطعت عمله هو أن أبقى ملتصقا بالحمار، فلكمني على وجهي لكمةً أسقطتني أرضا، ولكن لم أستسلم بل أمسكت بساق الحمار الأمامية، فأخذ يركلني بقوة، وفجأة سمعنا صوتا:

– أين أنتم أيها الأولاد؟

تراجع رشيد ووقفت، ثم سرنا تجاه الصوت، والأحمق رشيد لم يدرك أن الصوت كان على يميننا وليس أمامنا وهذا يعني أن هناك من كان يراقب، سرنا مسافة تزيد عن المئة متر، وكان الأمهق وبيبرس في انتظارنا عند منتصف الطريق، ومرت دقائق قبل أن يطل الكعب من خلف الصخور، وأشار بيده إلى صخرة، فتوجه إليها الأمهق مع معداته وبدأ ينقش رموزه، وهذه المرة الأولى التي كان النقش فيها قبل الدفن.

على مسافة عشرة أمتار بجوار صخرة أخرى، طلب من خادمه بيبرس أن يأخذ رشيدًا ويقوما بحفر حفرة، أما أنا فبقيت بجانب الحمار، ثم اقترب مني وسألني:

– لماذا تأخرتم؟

نبرة صوته دلت على أنه راقب وشاهد العراك، ولم يكن أمامي إلا أن أخبره بالحقيقة التي لاشك أنه شاهدها، برمت شفتي وقلت:

– أراد رشيد أن يأخذ الحمار، وجودت أفندي أوصاني أن أسلم الحمار لك سيدي.

تلاعبت بالكلمات، فلم أقُل أراد سرقته، بل قلت أراد أخذه، والجملة الثانية تعفيني من تحمل المسؤولية ولا تشير لسرقةٍ صريحةٍ، فمد يده وأخذ يتحسس وجهي وقال:

– وماذا أصاب وجهك يا عزيز؟

علمت أن جوابي سيفضح الأمر، ولكن الأحمق لا يكذب ولا يموِّه الحقيقة، فأجبته:

- لقد ضربني رشيد.
- لماذا ضربك؟
- لأني منعته من أخذ الحمار.

ابتسم وربت على كتفي قائلاً:

- اذهب وساعدهم.

انتهينا من الحفر، ودفنا جرة واحدة، ثم انتقلنا إلى مكان آخر، وبعد الانتهاء من الحفر ونقش العلامات، طلب من خادمه أن يصحب الأمهق ويعودا إلى المخيم، وطلب منا أن نضع الجرار الثلاث بالحفرة، وقبل أن نهيل التراب أخذ يؤدي رقصة السعادين ويتمتم بهرائه المعتاد والـ "قاقا باقا"، ثم نزل الحفرة، ونادى على رشيد، وطلب منه أن يقلب إحدى الجرار، فانحنى رشيد ليفعل، وقبل أن يحركها فاجأه الكعب بإمساك شعره وشده، ثم حزَّ عنقه بخنجره الذي أخفى مقبضه بباطن كَفِّه، ونصله تحت كُمِّه، فتدفقت الدماء كالشلال، وفتح رشيد فمه، وأخذ يشخر وجحظت عيناه، وأنا لم تعد تقوى ركبتاي على حملي، فسقطت على الأرض وأخذت أتقيأ، حتى شعرت بأن روحي تفارقني وبدأت أتلوى، وضممت ركبتي إلى بطني وما عدت قادرا على فعل أي شيء سوى مراقبة طقوس الكَعب الشيطانية التي ملأت قلبي رعبًا.

تعرى من كل ملابسه ومد كَفِّه وغرف غرفةً من الدماء التي تجمعت في قاع الحفرة، وبدأ يمسح بها جسده وأعضاءه التناسلية بمتعة غريبة، ولم يعد بمعدتي ما تُخرجه، خرج من الحفرة وترك الدم يسيل من كَفِّه على وجهي، بينما أنا جثة هامدة لا تقوى على الحِراك، وربما كان في رشيد المذبوح أثر للحياة أكثر مني، كنت مستسلما خاضعا وهو يدوس بقدمه على وجهي، وينشر الدماء على جبيني وأنفي، لم أتمنى شيئا أكثر من أن يسرع بذبحي إن أراد ذلك، ولينتهِ عذابي.

انتهى من رقصة السعدان الشيطانية والـ" قاقا باقا" التي رددها عشرات المرات، ثم ارتدى سرواله الأسود، وقطافا غريب الشكل، وبعدها العباءات والسلاسل والخواتم، وشد خصره بالحزام، وأعاد الخناجر الثلاث، وأمرني بالنهوض وردم الحفرة فوق رشيد وجرار الذهب، خارت قواي ولم

أستطع النهوض، فاقترب مني وأمسك إبطي وشدني وكأني ورقة بين يديه، ثم صفعني أكثر من مرة، فوقفت ميتا بلا روح، وبدأت أجرف التراب وأردم الحفرة، حاولت تجنب النظر إلى رشيد، ولكني قررت بعدها أن أنظر إلى المصير الذي ينتظرني، كان الحمار يحمل أربعة جرار، وها هو رشيد ينام بجوار ثلاثة منها، وأنا أخاطبه سرًا آملاً أن تسمعني روحه:

– لقد كنت ذكيا يا رشيد حينما توقعت أنهم سيقتلوننا ويدفنوننا، وكنت أحمقا حين اعتقدت أنهم لن يفعلوا ذلك إلا بعد الانتهاء من دفن آخر جرة ذهب، أيها المسكين المتهور، الموت بالرصاص رفاهية لن ننالها، ولن يحدد موعدنا مع الذبح سوى خنجر المسخ، أقسم لك يا رشيد أني سأخرج من هذه القافلة حيا، وحين أعود لأحصل على الذهب لن اقترب من قبرك، وسأترك لك الجرار الثلاث؛ فقد دفعت ثمنها غاليا.

كنت أهذي وأهذي ولا يغيظ الموت أكثر من السخرية منه، تساءلت إن كنت بطريقة أو بأخرى سببا في موته، ولكن لا...لا أشعر بأني مسؤول، لقد نصحته كثيرًا، ولن ألوم نفسي، ماذا كان بوسعي أن أفعل؟! هل أتركه يسرق الحمار والذهب وأُعرض نفسي للتهلكة؟! وهل اعتقد أنه يستطيع التملص من الفرق الخاصة التي تراقب الطرق وتحيط بنا؟! أي أحمق الذي اعتقد أن قافلة تحمل كل هذا الذهب ستكون مكشوفة للعرب وقطاع الطرق؟! لماذا لم يصغِ إليَّ حينما أخبرته أنه كمين من طبرق، وأن كل ذلك كان معد سلفا؟! ولو جاريته لكنت الآن مذبوحًا راقدًا معه بجوار الجرار الثلاث.

انتهينا من الدفن وجمعت العدة، ووضعتها في خرج الحمار ومشيت أتبع الكعب كعبد يسير خلف سيده، فأخذ يخاطبني دون أن يلتفت:

– عزيز...ما دفناه دفناه...ادفن لسانك جيدا حتى لا أقطعه لك، اليوم عاقبت رشيد لأنه اعتدى عليك، ولا أحب أن يعتدي أحد على خدمي وخدم الجان، هل فهمت؟

أحنيت رأسي بالموافقة على ما قال بالرغم من أنه يسير أمامي ولن يراني، فكرر سؤاله:

– أفهمت يا عزيز؟

فأجبته:

- نعم فهمت.

وقلت سرًا:

- لقد فهمت يا "ساغو اغلو"، لقد فهمت يا ولد السقيطة.

ثم تابع قائلا:

- من اليوم يا عزيز كل ما تسمعه أو تراه تأتي لتخبرني به مهما كان، هل فهمت؟

أجبته:

- فهمت... فهمت...

وقلت سرًا:

- فهمت يا ابن السقيطة.

عدنا إلى القافلة، والنار تأكل عقلي وقلبي، هلوسة مجنونة تجتاحني، أبحث فيها عن القليل من الراحة، أتخيل عراكا بالخناجر وأجد نفسي أسير فوق الكثير من الجثث، لا أعتقد أني سأتخلص بسهولة من ذلك المشهد الوحشي، لم أعتقد يومًا أن يُنحر أحدٌ أمامي، ورشيد سيرافقني إلى الأبد، وكيف سأتخلص منه وأنا أشعر بأن لي يدًا في موته؟!

كان يجب أن أحذره منذ اليوم الأول أن بيبرس يراقبه، ربما كان بإمكاني إنقاذ حياته، حقدي عليه بسبب حادثة البئر جعلني أتمنى موته، وربما لم يقتله سوى أمنيتي.

أعلم أني أهلوس وهذه الهلوسة ستقتلني، أين المنطق فيما أحدِّث به نفسي؟! وما دخلي أنا؟! لقد اختار رشيد مصيره ودفع الثمن، لا أشعر بالأسى تجاهه، وأحمد الله أني لم أدفع ثمن حماقته، ولكني أتساءل:

- هل جودت أفندي مطَّلع على ما حدث؟ هل له يد في مقتل رشيد، وهل أرسلني مع جرار الذهب ضمن خطة متفق عليها مع الكعب؟ هل لو تركت رشيد يسرق الحمار لذبحنا الكعب معا؟ أم كل ذلك محض مصادفة؟ هذه المرة الأولى التي لم يرافقهم ليسجل ملاحظاته عن المكان!

لا تبدو هذه مصادفة أبدا، أستعيد الأحداث وأستعرضها في مخيلتي؛ جودت كان مرهقا ولم يخفَ عليَّ ذلك، لقد قال لي: "أعطِ الجرار لطبرق وعُدْ لاستبدال الماء لنجمة" ولم يطلب أن أرافقهم، ولماذا أهتم؟! ولو كان على اطلاع، لقد نجوت بفضل ذكائي، وبالرغم من تلك المأساة فقد صبَّت النهاية في مصلحتي.

في الآونة الأخيرة أثار رشيد حولي الكثير من التساؤلات، وكاد يفسد كل خططي، والخلاص منه يجب ألا يحزنني، فهو حقير فعلا، حتى حينما حاولت نصحه ضربني وركلني، تبًا له! ها هو يرقد في قبرٍ يمتلئ ذهبًا، ولكن ماذا سأخبر حيان وروهان إن سألاني عنه عندما نلتقي مجددا، فلا بد أن نلتقي، هذه القافلة اللعينة ستعود لتجتمع يوما، سأخبرهم بحقيقة الأمر؛ لقد أعماه الذهب، وارتكب الكثير من الحمق، لا ذنب لي في هذا كله؛ أعدَّ طبرق له كمينا ووقع فيه، كان حمارا يحاول سرقة حمار، وربما من الأفضل أن أختلق قصة أخرى لأخبرهما بها.

اللعنة كل اللعنة على الجرار التي دفنت معه، لو شاءت الأقدار ونجوت سأعود لأستولي على كل جرار الذهب وسأفي بوعدي له ولن أقترب من قبره، لا أريد الذهب المدفون معه، سأتركه له، هي ثلاث جرار فقط لا تستحق أن أحفر وألتقي به مرة أخرى، ولن أجلب الشؤم لنفسي من أجلها، ولكنه ميت، وما حاجته في الذهب، وهل وعد ألقيته فوق جثة يساوي ثلاث جرار مملوءة بالذهب؟! اللعنة على الكعب! أما كان بإمكانه أن يدفن الذهب في حفرة أخرى، ولكن...لا...من المُحال أن أجرؤ على حفر قبره، وإن فعلت كيف سأجده؛ هيكلا عظميا أم جثة؟! تبًا للجرار الثلاث لا أريدها!

يجب ألاَّ يشغلني الآن سوى التفكير فيما سأخبر به مَنْ سيسألني عنه، ولكني لست مجبرا على الحديث بشأنه، فالكعب قال لي: "ادفن لسانك جيدا حتى لا أقطعه لك" وما دخلي أنا، لِمَ ألوم نفسي؟ هل أنا من نحرته؟ أو طلبت منه أن يسرق الذهب؟! فليذهبوا جميعا إلى الجحيم! أراد أن يسرق ذهبي، ولو نجح لخسرتُ أربع جرار، وها قد خسرت ثلاث.

أشرقت الشمس وأسرعت لأغتسل من آثار الدماء، وأسعدني أن اليوم الخميس، ولو ذُبح أول أمس لترسخ في عقلي أن الموت يكمن لي كل ثلاثاء، مضى اليوم بطيئا وبذلت كل جهد

لأنام أو لأتظاهر بالنوم كلما اقترب مني أحد، وجاء الغروب ومعه ارتحلنا وحفرنا ودفنا جرار الذهب.

وقبيل الشروق كنا قد وصلنا إلى موقع جديد للاختباء، ولم يكن سيئا مقارنة بموقع الأمس، وجدنا أطلالاً، وآثار حدائق متواضعة، وآبار ماء تم اختيار موقعها بحكمة؛ لقد كانت البيوت قائمة منذ زمن بباطن الجبل الذي خيمنا أسفله، وكل ما رأيته يشير إلى أن ساكن هذا المكان –فيما مضى– كان فاحش الثراء ساعيًا للعزلة والابتعاد عن البشر، وربما كان ذا شأن كبير وعُزل عن منصبه رغما عنه، فتوفرت له سبل الراحة، ولو كان ناسِكا أو فيلسوفا لما أهدر وقته في رفع الحجارة إلى بطن الجبل وبناء البيوت.

وكما جرت العادة نصبنا الخيام ليرتاح الأسياد، وأخذنا قسطا من الراحة في العراء، سالم وعبد القادر وخلدون الأعوج أخذوا الدواب وابتعدوا لمسافة تزيد عن الثلاثمائة متر، حيث توفرت الأعشاب، ورافقهم بيبرس بناء على طلب الكعب، ولم يحدث مُسبقًا أن ابتعد أحد هذه المسافة عن المخيم.

أما أنا فيبدو أني نمت ساعات طويلة، وحينما صحوت رأيت سلامة يتسلل خارجا من خيمة المؤن حاملا على كتفه شوالا، لعله فضَّل سرقة الطعام لطبيلة عن سرقة الذهب لنفسه، وغياب بيبرس سهّل مهمته، ولم يعرف أن الجميع سيغرق في اللحوم قريبا، وسيأكل حتى تضيق الأنفاس.

تذكرتُ نعناعتي فبحثت عنها ولمَّا لم أجدها، ذهبت لأعتني بنجمة، وتعمدت إحداث جلبة لألفت انتباه جودت، ولكنه كان مازال نائما، فذهبت في جولة بالقرب من الصخور متجنبًا الاقتراب من الجميع وبخاصة سلامة؛ حتى لا يسألني عن رشيد.

دفعني فضولي ورغبتي في الابتعاد عن الجميع إلى تسلق الصخور محاولا الاقتراب من البيوت المهدمة ببطن الجبل...كلما اقتربتُ أخذتني الجرأة لأستمر، وكان من المُحال الوصول إليها دون الالتفاف حولها، وعندما شارفت عليها شققت طريقي نزولا، ولمَّا لم تفصلني عنها عدة أمتار وصلتْ مسامعي صرخاتُ امرأة تستغيث بكلمات غير مفهومة، وكأن هناك من يخنقها.

لحظات حتى أدركت أن المستغيثة هي نيروز نعناعتي، فدبَّ الخوف في قلبي، وقررت أن أهرب لاستدعاء مَنْ يغيثها؛ فأنا لست بجندي ولا أجيد القتال، ولن ألقي بنفسي إلى التهلكة، وقبل أن أستدير هربا تحولت رنة الصوت من استغاثة إلى طرب، وامتزجت غمغماتها بالموسيقى والألحان، وما كاد ليطمئن قلبي حتى عادتْ للصراخ، فلم يكن أمامي إلا الإسراع في طلب النجدة، ولكن انقلاب الصوت تارةً أخرى كان أسرع من استدارتي، فأردتُ التأكد من استغاثتها أو طربها! أقتربُ في حذر شديد فإذا بقدميها عاريتين ممددتين على الأرض، فانتابتني رعشة لاقتراب تحقق حلمي؛ أكاد أرى نهديها بلا ساتر، حلمتُ بها كثيرًا، وها هي عارية، أطالع النظر شيئًا فشيئًا فتزداد رعشتي، وتتسارع نبضات قلبي، ولكن هيهات هيهات...واحسرتاه! لقد كان جسد المسخ اللعين فوقها عاريا، اتكأ على يديها الملتصقتين بالأرض فلم تستطع الحِراك، بل تقلِّب وجهها يمينًا ويسارًا ليتناغم مع تقلُّب ملامحِه، وتغيُّر نبرةِ صوتها بين التوجع والتلذذ؛ لقد كانت تتأوه، وما كانت لتستغيث إلا بالمسخ الحقير ليطفأ نارها المُتأججة...ما رأيته لم أره طِيلة حياتي، ولطالما تخيلته مع كل امرأة تمر أمامي، ما أحسسته كان أقوى من الخوف، فلم أنفك أراقب وأعبث حتى عاد إليَّ رشدي وقررت الابتعاد قبل أن يمسك بي الكعب ويجعلني أستغيث وأستغيث... .انصرفتُ هائمًا على وجهي، ولم أدر كيف عدتُ إلى المخيم. جلستُ صامتًا حتى نادى عليَّ جودت وسألني عن إطعام فرسه، فقلت:

- وضعتُ لها الماء، ولكن حينما وصلنا ونصبنا الخيمة رأيتك دخلتها ولم تخرج! ولم أرغب في إزعاجك، فعدت لاحقا وكنت أيضا لاتزال نائمًا وانتظرتك لتصحو حتى أتمكن من إطعامها.

رد علي قائلاً:

- في المرة القادمة حتى ولو كنت نائما بإمكانك الدخول، وكان أحب إليَّ أن تزعج نومي على أن تبقيها بلا طعام.

أحنيت رأسي واعتذرت، ثم دخلت وأخذت من العلف ما يكفي، وقبل ذهابي ناداني وأعطاني قطعًا من الشوكولاتة، فشكرتُه كثيرا، على الرغم من رخصها ورداءتها مقارنةً بما أحمله معي، ولكن لا بأس قد تنفعني في رشوة أحدهم عند الحاجة.

عدتُ إلى مقر إقامتي الفاخر بجانب شجرة زيتون روماني، فاستلقيت وأخذت أستعيد أحداث الكابوس اللذيذ، وأتساءل:

– كيف يمكن لفتاةٍ مثل نيروز أن تمارس مثل هذه العلاقة مع قرد!

وجدتُ راحةً في إيهام نفسي بأنه أجبرها على ذلك، نعناعتي المسكينة كانت تتغنج وتتأوه، ولابد أنه أجبرها على ذلك أيضا! من المُحال أنها فعلت ذلك برغبتها! حتى الدابة ما كانت لتقبل على إقامةِ علاقة مع هذا الخنزير!

لو يدرك البشر نعمة النسيان التي وهبها الله لهم لشكروه ليلَ نهارَ، والحمد لله على ما ابتلاني من ذاكرة فولاذية يُحال اختراقها لشطب أو استبدال، فكل ما تراه عيناي سيرافقني إلى الأبد، حتى أدق التفاصيل.

لقد رأيت الكعب عاريا حين ذبح رشيدًا، ولكن الرؤية الليلية لم تساعدني على ملاحظة الندوب في جسده، أمَّا عند رؤيتي له عاريا فوق نعناعتي نهارًا وجدتُ في جسده الكثير من الندوب التي تدل على أنه تعرض لعدد كبير من الطعنات، كما كان ظِفر خنصر قدم نعناعتي الأيسر فيه شق ناتج عن كدمة، وبأسفل قدمها كانت هناك عدة نقاط ناتجة عن وشم، وتبًا لذاكرتي اللعينة!

سلامة أطل برأسه من وراء الخيام الثلاث، وكان قادما نحوي، ولم أجد طريقة للهرب منه سوى تقليد عبد القادر، فأغمضت عينيَّ ونجحت في إبعاده، وعلى الجانب الآخر كانت هناك شجرة زيتون رومانية وقف في ظلها الكعب وجودت، وحركات جسديهما أشارت إلى أنهما عزما على زرع بعض جرار الذهب في هذا المكان، وهذا ما حدث.

في ساعات الظهيرة قمنا بالحفر والدفن، ورقصة السعدان والـ "القاقا باقا" لم تكن حماسية كما كانت في ساعات الليل، وجودت يراقب هذا الهراء بامتعاض، ويشيح بوجهه حتى يخفي ابتسامته التي ترتسم رغمًا عنه، وقد امتعض الكعب عند ملاحظة ذلك، وكان الأجدر به أن يبحث عن رقصة وكلمات جديدة حتى لا يشعر القوم بالملل، ويصدقوا هراءه.

عاد الضجيج وروائحه الكريهة بعودة بيبرس والدواب، وبعد الغروب وفي ساعات الليل كنا نتسلل كاللصوص ونسير لمسافات تصل أحيانا إلى آلاف الأمتار، ونقوم بالحفر، والدفن، والنقش، والـ "قاقا باقا"، وأحيانا نقوم بذلك في ساعات الفجر الأولى بسبب اختفاء القمر وتعذر الرؤية؛ أربعة أيام مظلمة قضيناها في المكان نفسه، وأكلنا من اللحوم أكثر مما أكلناه طوال حياتنا، بفضل جمل كُسرت ساقه، ودعوت الله أن يتعثر كل يوم جمل حتى لا نجوع.

علاقتي بالحسناء تطورت، فأصبحت المسؤول عن طعامها، وكنا نجلس كثيرا ونتحدث، والكعب لم يشعر بأية غيرة، أما الخادم اللعين بيبرس فقد توقف عن مراقبتي أو الاهتمام بما أفعل، إلا أنه بقي ينغص عليَّ حياتي، ولم ينجح في إخفاء إنجذابه إليها.

لا أحد يتلصص ويستطيع كشف المتلصصين مثلي، عيناه لا تخفي ما تحمله من شهوة تجاهها، وبالرغم من ذلك يتعامل معها كمحرمة عليه، ولو كان -فعلا- لا يشتهيها لما أرهق نفسه بالهرب من افتتان عينيه بجسدها، من المؤكد أنه يحبها سرا، وربما يخفي شوقه خوفا من سيده، إنه أكثر مني وسامةً ولستُ له بمنافس، ولو جمعتهما علاقة لتفهمت الأمر، ولم أجد فيه غرابة كغرابة علاقتها الشاذة مع هذا المسخ العجوز القبيح المشوه، هي ليست خارقة الجمال ولكنها تنضح بالأنوثة والطيبة والبراءة.

سلامة لم يتوقف عن ملاحقتي، ولم يكن أمامي إلا أن أحسم الموقف، فأعددتُ له الجواب المناسب، وحينما عاد الكَرَّة لم أهرب منه، وبدأ بمناورات وأسئلة روتينية عن نجمة التي حسدني على اعتنائي بها، فشكرتُه على تعليمي، وبدا تائهًا لا يجد طريقة لسؤالي، ولا داعي لأكون معه سانتور؛ ففي هذه القافلة اثنان يعرفان جيدا أني لست أبلها، الأول دُفن مع الذهب، والآخر يقف أمامي ويحلم بالذهب، وكان لابد أن أضع النقاط على الحروف، فبعد مقتل رشيد لم يعد هناك هامش للمناورة والمقامرة، حياتي على المحك ولن أضعها بين يدي عربي، فقلت له مباشرة:

- عمي سلامة، أعلم أنك تبحث عن طريقة لتسألني عن رشيد، وأين اختفى، سأخبرك بما حدث ولمصلحتنا معًا التزام الصمت، لقد سرق رشيد جرة ذهب وهرب بعيدا، وتم الامساك به، ولحسن حظنا أصابته رصاصة وقتلته، ولولا ذلك لتم التحقيق معه واعترف

على ما خططنا له، أريد أن يطمئن قلبك، فلم يعرف أحد سرك، ومادام الجميع على قناعة بأني مجرد أبله سنبقى بخير.

أحنى رأسه وابتعد، وأخبرتني عيناه بفهم مغزى كلامي، وقد صدقته فهو شيخ كبير غزاه الشيب، وليس شابا متهورا كرشيد، يثرثر أحيانا ولكنه يعرف متى يجب عليه الصمت، أنا لا أحبه ولكنه استحق احترامي واحترام الجميع.

كل يوم عندما تبدأ الشمس بالتثاؤب وإسدال جفونها، يبدأ إيليا الأمهق بالعزف على نايه الشجي، وتلك هي اللغة الوحيدة التي يجيدها، فأشعر بقشعريرة تسري في عظامي، وأبدأ بالتساؤل عن عدد الجرار التي سنخفيها، وعن الطرق التي سنسلكها...بعد ذبح رشيد لم أعد أشعر بالشوق لمعرفة المزيد عن مواقع الدفن، فالجرار التي أعرف مكانها تكفيني لأعيش ملكًا لمئة عام، ومرافقة الكعب تصيبني بالغثيان وتجعلني أتساءل عمَّن وقع عليه اختيار الذبح، وبخاصة بعد انتقاله من ذبح الحمير إلى ذبح البشر، كنت أدعو الله ألا أرافقهم، وأبقى بالقرب من نعناعتي، ففكرت في طريقة لإقناع جودت بإبقائي لرعاية فرسه كي أتجنب مرافقة الكعب اللعين، ولكن يبدو أن خطتي السانتورية قد عمقت إيمانه بأني لا أجيد التآمر والكذب، وأن غبائي سيفضح الكعب إن تلاعب، فكان إصراره الدائم على أن أرافق الكعب في كل مهمة، ولو لم يكن ذلك هدفه لأبقاني بالقرب من نجمة وبخاصة أني الوحيد الذي يأتمنني عليها.

وبالرغم ممَّا وصلت إليه من حظوة عند جودت أفندي لم أطمح أن يسمح لي بدخول مغارة علي بابا لألتقي بالذهب مباشرة وجها لوجه دون جرار تحجب بريقه، كنت أعتقد ألا يثيرني في الوجود أكثر من جسد امرأة، واكتشفت أن للذهب سحرًا يفوق سحر النساء.

كان الأربعاء وزين الهلال السماء، فجاء إليَّ سالم وقال:

– جودت باشا يريد...

لم أنتظر ليكمل الأحرف الأخيرة من جملته حتى وجدت نفسي واقفا بباب خيمته ورفعت صوتي ليسمعني:

– سيدي أنا هنا.

– ادخل يا عزيز.

دخلت الخيمة ومنها إلى الأخرى الملتصقة بها حيث كان ينتظرني، فطلب مني أن أحضر عدة جرار كانت مركونة بطرف الخيمة الأولى، فحملتها ووضعتها وسط الخيمة الثانية، ثم فتحت الصندوق بناءً على طلبه، وكان يبلغ ارتفاعه سبعين سنتيمترا، وعرضه خمسين وطوله مئة، مملوء بالقطع الذهبية، ابتسم وسألني:

– هل تعرف ما هذا؟

كان سؤالا غبيا يُطرح على أحمق، ولكنه جاء في وقته حيث كدتُ أغرق داخل الصندوق، فأبعدت عيني عن الذهب فورا، ومثل هذا السؤال لا يمكن الإجابة عليه إلا بطريقة واحدة، فقلت:

– إنه ذهب يا سيدي.

ابتسم وقال:

– وكيف تعرف أنه ذهب يا عزيز؟ ولِمَ لا يكون نُحاسًا مثلا؟!

أغمضت عيني اليمنى، وشددت عضلات فمي، وقصرت أنفي كمن يفكر بتركيز شديد، ثم أجبته:

– لا يا سيدي إنه الذهب، وأنا تعلمت عنه، وأعرف كل شيء عنه ولدينا منه الكثير.

تفاجأ قليلا من جوابي فسأل:

– عندكم منه الكثير! كيف ذلك وأين؟!

أجبته بزهو وافتخار:

– عندنا بالمخازن أكثر من عشرة آلاف صندوق ملآنة بالذهب، ويفوق هذا لمعانًا.

ضحك وقال:

– عشرة آلاف صندوق مرة واحدة يا عزيز! ملآنة بالذهب! في العالم كله لا توجد مثل هذه الكمية!

– أقسم بالله يا سيدي أني أقول الحقيقة.

– وكيف عرفت أنها ملآنة بالذهب؟

– لقد رأيت بأم عيني يا سيدي.

لم تُخفِ ملامح جودت أفندي الحيرة التي اعترته مما قلت، وربما شك للحظة عن إمكانية وجود مثل هذه الكمية الكبيرة فعلا، فسأل:

– وكيف رأيتها؟

الحقيقة أني لم أكذب بعدد الصناديق، كان هناك آلاف الصناديق، ولكنها لم تحوي ذهبا ولا فضة وإنما آثارا ذات قيمة، وأخرى لا تساوي قيمة الصندوق التي تقبع فيه، وتنتظر أن يتم فرزها، للتخلص مما لا قيمة له، واعتاد روهان بيك أن يردد:

– "بعض هذه الصناديق أغلى من الذهب".

أجبت جودت بكل براءة:

– لقد أخرج البيك من جيبه قطعة واحدة من الذهب، وقال لي: إن الصناديق كلها ملآنة بالذهب، ويجب أن أحرسها جيدا، وألا أسمح لأحد من الاقتراب منها حتى لا يتغير لونها.

انفجر ضاحكًا وقال:

– ولماذا لم تفتح الصناديق لتتأكد أنها مملوءة بالذهب؟

أجبته:

– قال البيك: إن الذهب إن تعرض للهواء يتغير لونه ويفسد.

ضاحكًا:

– معه حق، الذهب أفسد كل البشر، لهذا يفسد من الهواء، هيا املأ جرة كبيرة وواحدة صغيرة ذهبًا، والأربع الباقية املأ نصفها ترابًا.

خرجتُ لأجلب التراب وفعلتُ ذلك لأني كنت بحاجة لأبتعد عن الذهب قليلا؛ فعيناي كادت تفضحني، ولكنه طلب مني أن أحفر داخل الخيمة، وأملأ الجرار الصغيرة بالتراب، وحذرني إخبارَ أحد، هنا أدركت أنه قصد الكعب، وليس أحدًا آخر.

حفرتُ مسرورًا، وهذا ساعدني على استعادة توازني قليلا، وعلى مَهْلٍ ملأت الجرار الأربع حتى نصفها ترابا؛ فلم أكن مستعدًا للعودة ومقابلة الذهب، وحين أيقنت أنّي امتلكتُ السيطرة على الشهوة التي اجتاحت كل ذرة في كياني اقتربت من الصندوق، وأغرقت كفي بين مئات الآلاف من القطع الذهبية، فسرتْ القشعريرة في عروقي، كنت أترك كفي يغوص بين قطع الذهب وأعود لأخرج ما حمله من قطع، ثم أسكبها داخل الجرة، فتحلق روحي بعيدًا وترقص على النغمات التي تُعزف جراء سقوط القطع وارتطامها بقاع الجرة الكبيرة.

كنت أسترق اللحظات التي تغفل فيها عينا جودت لأترك كفي يغرق طويلاً في صندوق الذهب، فينتابني شعور بأنه مملوء بالعذارى العاريات، تتحسسها أصابعي وتداعب آلاف النهود الفتيَّة، وبلذة محروم أُخرج كفي لتتساقط العذارى اللواتي لم يجدن لهن مكانا في قبضتي، وعيونهن معلَّقةٌ بي متمنين عودتي لأحملهن باشتهاء، كلٌّ منهن تعزف لحنًا يسمعه الأصم، وبريق جمالها يراه الأعمى.

لم تكف العذارى العاريات عن التراقص حتى حملنني وعدن بي إلى أكثر من سبعة عشر عاما...إلى بيت جارتنا وجسدها المكتنز، التي خلعت كل ما يستر جسدها وكانت ترتدي في كل معصم ستة عشر سوارا، عزفت لي بها أعذب الألحان، أطربني رنين حليها، وحينها كنت صغيرا لم أفهم لغة الجسد والذهب، ولم أخبر أمي كما طلبت ، وحينما كبرت وفهمت، لم تدخلني إلى بيتها ولم تعد الكرة، ولكني حرصتُ على التلصص عليها من خلف الأبواب ...

كفي مملوء بالذهب، والجرار امتلأت حتى الأعناق؛ آلاف القطع وجدت طريقها لكل جرة، رغم التراب الذي احتل مساحة النصف في بعضها، ولم أفهم حينها السر من وراء التراب،

وبعد ملء الجرار كاملة، أرشدني جودت كيف أخلط التراب بمادة لزجة مجهولة –لم أعرف ماهيتها– مع القليل من الماء، وأقوم بشمع الجرة لتتصلب خلال دقائق، وبعد ذلك أقوم بتغطية فوهة الجرة بقطعة خيش مع إحكامها على عنق الجرة، ثم أحملها إلى الخيمة الأولى وأصفها بجوار بعضها، هذا ما كان مع الجرار الصغيرة أما الكبيرة فكانت كالبئر، واستخدام كفي لملئها كان مرهقا، ويستغرق وقتا طويلا، وعلى مقربة مني وعاء إن استخدمته سيسهل عليَّ ويوفر الوقت، ولكن كان ذلك ليدل على نباهتي، ويخالف القاعدة السانتورية القائلة:

– "الأحمق لا يسعى لتوفير الوقت والجهد، وإن فعل لا يكون أحمقا"

تبا لسانتور هذا! كل نصائحه مرهقة، ولا يوجد فيها ما هو مريح، تقديري إن الجرة الكبيرة وحدها اتسعت لعشرات آلاف القطع، والصندوق لم ينقص كثيرا، وكأن الذهب فيه لا نهاية له.

لم أتفاجأ عندما طلب مني دفن الجرة الكبيرة داخل الخيمة، ولم يكن الأمر بحاجه إلى نباهة، فقد كان حريصا على أن أملأ الجرة، وهي بجانب الحفرة التي أخرجت منها التراب، ليسهل دفعها داخلها؛ فمن المُحال حملها بعد امتلائها.

لقد شقَّ علي ما بذلته إلا أني شعرت بالفرح يغمرني، ولم يكن –فقط– بسبب الثقة التي منحها لي، وإنما لتأكدي من عدم ثقته بالكعب، أو لسرقته شيء لنفسه وائتماني على السر، ولعله كان مُخطئًا لأنه أصر على ذهابي مع الكعب لبلاهتي التي ستفضحه إن تلاعب، فكيف لم تخيفه بلاهتي عند إطلاعي على مكان الجرار الكبيرة التي دفنها سابقًا في كل مكان نُصبت فيه خيمته، بدأت أعود بذاكرتي وأتساءل عن الجهد الكبير الذي بذله هذا الناعم وحده في ملء الجرار، والجهد الأكبر في الحفر ودفنها الجرار داخل خيمته فيما مضى، فقد كان يتعمد نصب الخيمة ولو كانت استراحتنا قصيرة، يبدو أن جودت قرر ترك القليل من الذهب دون حراسة عفاريت الـ"قاقا باقا"، وشكرا لذاكرتي، حينما أعود سأحرص على أن أحفر بكل موقع نُصبتْ فيه خيمته.

فرحتي لم تكتمل، سامح الله روهان بيك، فمنذ عرَّفني بصديقه المنطق اللعين وأسكنه في رأسي نغَّص علي حياتي، وها هو يعود ليحشر أنفه لإفساد لحظات السعادة التي أشعر بها؛ يقول في صمت:

- يا عزيز الأحمق إن كان غيرك سيموت مرة، أمَّا أنت ستموت مرتين؛ أُولاهما من أجل الذهب الذي دفن في الجبال والأخرى من أجل ما دُفن في الخيمة.

دفعني ما أخبرني به المنطق إلى تخيل جودت أفندي وقد جمع حوله الغربان قائلاً:

- اقتلوهم جميعا وادفنوهم في حفرة واحدة، وهذا المسمى عزيز، اقتلوه واحرقوا جثته أمامي حتى لا يعود للحياة مرة أخرى.

أنا لا ألومه إن فعل، فدخول خيمة (علي بابا) غالي الثمن، وليس هناك أغلى من الحياة، وإن لم يحرص على قتلي سأستخف بذكائه، لا أشك في هذه النتيجة، ولكن المنطق يرى الصورة من زاوية واحدة فقط، ولن أتركه يفسد عليَّ خططي، أعلم جيدا أن الأيام التي سأعيشها كثيرة، فمازالت الصناديق ملآنة بالذهب، وتحتاج إلى أيدٍ للحفر والدفن، وجودت لن يتعجل في تضحيته بالخدمة الممتازة التي أوفرها له، ولفرسه نجمة، وحين تفوح رائحة الموت وأشتمُّها...لكل حادث حديث.

الكمية الكبيرة من الذهب داخل الخيمة لم تكن المفاجأة الوحيدة، ففي الوقت الذي بذلت فيه كل الجهد لأدفع عني سحر الذهب، حتى لا يرى في عيني شيئا مريبا، جاهدت أكثر في إخفاء دهشتي بأن ثلاثة من الصناديق متشابهة ومميزة عن البقية وأن ما فيها من ذهب لم يكن عثمانيا، بل إنكليزيا يحمل صورة الملك إدوارد، وفي حال أن الصندوقين الآخرين يحويان ليرات إنكليزية فلابد أن في ثلاثتهم ما يزيد عن المليون ليرة، لا يثير فضولي أن بقية الصناديق فيها ملايين العصمليات، ولكن لا أجد تفسيرا منطقيا لوجود ذهبا إنكليزيا ضمن ما نحمله معنا.

ما أفقهه من السياسة هو ما سمعته من أحاديث كانت تدور بين روهان بيك وضيوفه مرات عدة، ولا أحتاج لأكون سياسيا لأدرك أن هذه الكمية الضخمة من الليرات الإنكليزية وحدها توازي ثلث تمويل الجيش العثماني لعام واحد، والذهب في بقية الصناديق قادر على تمويل

الجيش لسنوات عدة، بناءً على ما سجلته ذاكرتي فإن ما تحمله هذه القافلة من الأسرار لم يكن مجرد سرقة أموال الدولة وإخفائها، ومؤامرة بهذا الحجم تفوق قدرات شخص بمفرده، والسؤال الأهم والذي لا يستحق أن أشغل بالي به، مِم نهرب! ولماذا نختبئ! وهل لم يتبقَ مكان لحفظ الذهب سوى الجبال!

انتهيت من مسح الغبار، وإزالة فائض التراب من الخيمة بعد دفن الجرة الكبيرة، بذلتُ جهدًا أمتعني ولم يتعبني، والمفاجأة الثالثة لهذا اليوم أن جودت خرج وتركني بمفردي داخل الخيمة، وكان بإمكاني أن أملأ جيوبي بقدر ما تتسع من ذهب، ولكني لست بهذا الغباء لأقدم على هذه الخطوة، ومما شد فضولي الدفتر ذو الغلاف الأخضر على الطاولة، وبجواره عدة أقلام، قلبت عدة صفحات وكان قد كتب فيها شعرًا، ثم وصلت إلى الصفحة الرابعة فلفت انتباهي قيامه بتشفير الكلمات، والشيفرة التي استخدمها تدل على سذاجة، ألقيت عليها نظرة خاطفة وتركت لذاكرتي أن تتولى مهمة حفظ ما خطَّه، ومما كتبه:

- ***"نبتت لي جناحان كالصقر وحلقت في جوف السماء، اقتربت من السحاب ومددت يدي لأمسك به، كان ناعم الملمس كالريش الذي يملأ وسادتي، وحين استيقظت ولم أجد ريش السحاب لم أشعر بخيبة الأمل وإنما شعرت بطاقة تملؤني أملا بأني يوما ما سألامسه، وكان حلمي.***

  وما كان ليعجز جمال باشا عن تحقيق الأحلام، لم أكن الأفضل، وربما كنت أسوأهم، إلا أنه اختارني لأكون ضمن البعثة التي ستتعلم التحليق بطائرات الـ "ميراج" الفرنسية، وحين وصلتُ فرنسا نبتت لي جناحان سرعان ما تكسرت، وعلمت أن الصقور لا تتقيأ ولا تشعر بالدوار، فعدت تاركا حلمي في التحليق فوق السحاب، وها أنا بالوديان أتجنب الاقتراب من القمم.

  كنت أبتهج لأزيز الرصاص حينما يطلق في السماء احتفالا، وعندما كنت صغيرا تساءلت: ألا يجب أن تعود الرصاصة لتهبط فوق رؤوسنا! ومازال السؤال يراودني! في وادٍ يطلق عليه الحصيد كان للرصاص صوت كالجعير استقبلني بكرم وأصر على اختراق جسدي، عندها فقط رأيت الموت يغمزني بعيونه الكبيرة التي لا عدد لها،

فأيقنت أني ميت وسأمتطي نجمة لنعبر معا بوابة العالم الآخر. الصخرة التي احتميت بها تلقَّتْ عني كل الرصاص، فغمزني الموت قائلاً "أنا أراقبك". وحينما التفت إلى نجمة كانت تقف في كبرياء، وعيناها تسخر من الموت، لم تكن هناك صخرة لتحميها، وإنما ابتعدت مسافة لا يتجاوزها رصاص الموت.

لم يسعَ عدو لقتلنا، وإنما الذئاب التي حرص الباشا على تسمينها، وصوت الرصاص أيقظ بداخلي سؤال: "هل هؤلاء هم حماة دولة الحداثة؟! ومن أجلهم سنخفي هذا الذهب؟!" أذكر قول الباشا لي يوما "عزيزي جودت أنت تساوي وزنك ذهبا" وها هو يغرقني بالرصاص والذهب".

خرجت من الخيمة بعد أن ودَّعت صناديق الذهب، ووعدتها ووعدت نفسي بأنها لن تكون لأحد غيري، وسأتدبر أمري مع الموت في حينه، وبعد هذا اللقاء المثير مع إدوارد وعبد المجيد، والثقة التي أولاها لي جودت أفندي في هذه الليلة الهلالية المباركة بالذهب، لم تتحرك القافلة إلا بعد منتصف الليل، فالتبكير أو التأخير له علاقة بالطريق، ولا يعرف ماهيتها إلا الدليل وجودت والكعب.

انطلقت القافلة ودبيب الدواب على الأرض لهذه الليلة كان أشبه بالموسيقى فأنا الوحيد الذي يعرف الكثير عما تحتويه الجرار التي سيتم دفنها، ونشوة الذهب وذلك الإحساس الرائع بالتفوق ومعرفة ما لا يعرفه حتى الكعب، منحني الكثير من الطاقة والجرأة.

صار الهلال بدرًا باقتراب نعناعة فاشتممت رائحتها، وبالرغم من شعوري بالنقص لأني مازلت أسير على قدمي وأجرُّ خلفي حمارا، إلا أن الثقة غمرتني، فالذهب الذي أجره خلفي يكفي لشراء آلاف الأحصنة، وماذا أفعل ورائحتها قد أسرتني! ما كنت لأفوت الفرصة فوَثبت وامتطيت الحصان خلفها، وأحطتها بكلتي يدي على مرأى من الجميع، وهمست بأذنها:

– سأبني لك قصرا فارهًا، وسيكون فيه الكثير من العبيد رهن إشارتك، سأجعل منك ملكة، وسأشتري لك فرسًا تفوق فرس جودت جمالاً، وأصالة.

مالت برأسها وقبلتني هامسةً:

– اشتقت إليك يا عزيز ولا أتوق صبرا على فراقك لامسني واضغط بيديك على خاصرتي وأردافي، هيا يا عزيز افعلها الآن.

فعلت وانتشيت وباغتتني ضربة من كوع أحدهم فأصابت خاصرتي، وعلى إثرها أفقت من حلمي فإذا بيدي تداعب مؤخرة حمار يسير أمامي، فسحبتهما بسرعة وذبت خجلاً، وشكرت عبد القادر سرًا على تلك اللكزة التي أبعدتني عن مؤخرة الحمار قبل أن يلاحظني أحد، واستكبرت له فعلته ولم يخف علي أنه تظاهر بأن الضربة كانت عفْوية ليرفع عني الحرج، هذا الناسك الصامت أحبُّ الناس إلى قلبي في هذه القافلة، وأكاد أجزم أنه الوحيد الذي لا تفوح منه أية رائحة كريهة، حتى جودت أفندي كنت أشتم رائحة عرق كريهة تفوح منه، أما الكعب فالرائحة الكريهة جزء من شخصيته الخنازيرية، لذا أتعجب من مقدرة نيروز على النوم معه في خيمة واحدة.

عبد القادر الوحيد الذي لم يرمِ نيروز بنظرة، يغض البصر إن مرت بجواره، وحينما تذهب للعب مع الدواب كعادتها يترك المكان وينصرف، والشيء الوحيد الذي شده هو ناي الأمهق وألحانه الحزينة، أنا أعشق هذا النوع من الدراويش ولو كان عربيا، وهذه المرة الثالثة التي ينقذني فيها عبد القادر، وهو الوحيد الذي لم أمنحه لقبا يسيء إليه.

مازالت الرحلة ومازلنا نسير بين الجبال والتلال؛ طرق، وسهول، بين أشجار زيتون وأراض زراعية، وكنا أحيانا نلف في دوائر، ودفن الذهب كان يستغرق الكثير من الوقت، وتجنبنا الاقتراب من أية مناطق مأهولة، لم نكن نسرع بل كنا نسير ببطء شديد حتى نفد الطعام كله، ولم يتبقَ معنا إلا الزيتون، أما الخبز فقد اختفى من حياتنا منذ فترة.

الدواب كانت أوفر منا حظا، وطبيلة أخذ يأكل الأخضر واليابس من أوراق الشجر، الجوع اللعين عصف بي وما أحمله من بسكويت وشوكولاتة يصيبني بالغثيان، وكنت على استعداد لمبادلتها برغيف خبز طازج.

في طريقنا مررنا بجوار الكثير من الصبار، واندفعنا نحوه في سباق، وما كان هناك داعيا للتسابق، فكمية الصبار كانت تكفي وتزيد، والدواب كانت أكثر ذكاء وحكمة منا، ووقعنا

جميعا بكمين الشوك الناعم اللعين، ولكن الجوع كان أقوى من وخزه، مرت علينا ليلة لعينة انشغلنا جميعا بالتخلص من الأشواك، وسلامة كان جهده مضاعفا، فأمضى كل وقته بنزع الشوك من يدي طبيلة.

حملنا معنا الكثير من الصبار، وفي طريقنا أنعم الله علينا بالتين، ولم يكن قد اكتمل نضجه ومع هذا لم نوفره، وشعرنا بالشبع وبدأ التمرد والتسابق للابتعاد عن القافلة، وانتشرنا مثل الجراد كلٌّ يبحث عن صخرة أو حفرة تستره، ليتمكن من قضاء حاجته، قد أصابنا الإسهالُ جميعًا، واضطرت القافلة للتوقف مرغمة... مررنا بمزارع عدة وسطونا على الكثير من الخضار، ومرت ليلتنا بسلام.

ثلاثة أيام متتالية لم نأكل إلا ما أنبتته الأرض، مررنا بين كروم عنب وأكلنا منه ما يكفي لافتتاح خمارة، وسرت إشاعة بيننا بأننا سنثمل عند تخمُّر العنب في معدتنا، وتبدأ الغازات بالتسرب منه، وثملنا فعلا، وكان طبيلة أكثرنا ثمالة، فحاول أن يحمل حمارا وأوقع الفوضى بين الدواب، واستاء الكعب كثيرا، واكتشفت أن الخبيث سعدون همس له ليفعل ذلك.

ذلك الخبيث في التاسعة عشرة من عمره، حاله كحالنا، قصير وهزيل، ولو لم يكن كذلك لما اختاره الكعب ليرافقنا، فيه نعومة أخفاها بإطالة شعره ولحيته، أنفه صغير وعيناه خضراوان صغيرتان، ادعى أنه تركي الأصل، ولكن لسانه فضحه، ثم ادعى أنه عربي و فضحه لسانه أيضا، لا ولاء له، ولا أحد يحبه، فقد دأب على نشر الفتن بين الجميع، وحينما باع نفسه لبيبرس وأصبح يراقب الجميع ويسرق من طعامهم ازدادت كراهيتهم، وإن لم تخني فراستي فجذوره تعود إلى مقدونيا، وربما قام تركيًا بشرائه مع أمه، ثم ملَّ منها وباعها لأحد العرب، وهذا يفسر إجادته لنصف اللغتين، وما يميز هذا اللعين أنه يمتلك قوه تفوق قوة ثلاثة منا، ولا يضاهيه بذلك إلا خلدون الأعوج، فلو اجتمع الاثنان معا بإمكانهما رفع صندوق مملوء بالذهب.

أشك أن العنب تحول إلى نبيذ ولكن اضطرارنا للسير نهارا تحت حرارة الشمس كان كافيا لنثمل دون عنب أو خمر، كنت بالقرب من جودت حين اقترب الدليل، وهذه المرة كان معه –بالإضافة إلى مرافقه المسلح– اثنان من غربان الفرق الخاصة، وحتى تلك اللحظة بقي هذا الدليل بالنسبة لي غامضا، لم أستطع تحديد دوره، ولا جنسيته، ولا مكانته، ولكن عرفتُ أن

اسمه كاظم؛ عيناه تشع ذكاءً، يشبه البدو ويتحدث بلسانهم، ويلبس مثل أحد الرعاة، يخفي مسدسا خلف ظهره، ويحمل عصا، ولكني على ثقة بأنه ليس عربيا، وهيئته أقرب إلى الألبان، يتواصل مع جودت مباشرة وقلَّما تحدث مع الكعب، لا يأكل ولا يشرب معنا، هو ومرافقه قافلة بذاتها، الطريقة التي يعامله بها جودت تدل على احترام، وهذا يشير إلى مكانة لا تعكسها ما تعمد أن يرتديه من ملابس رثة. ومع هذا بقيت أتساءل إن كان يعلم بدفن الذهب، أم مهمته كانت برصد الطرق وتوجيه الحراسة، أم هو مجرد دليل يسير بناء على توجيهات جودت، ومما وصل إلى مسامعي من حديثه مع جودت أننا سنمر من جانب بيت لحم، وبعدها سنصل إلى نقطة اللقاء.

ما سمعته لم يكن ذا أهمية، وبيت لحم مجرد اسم آخر لمدينة فلسطينية، وما عاد هناك حاجة لاستراق السمع كلما جاء كاظم الدليل تاركا خلفه رفيقه المسلح على أول الطريق، وبخاصة أن جودت ما عاد يكترث إن سمع أحد ما يدور بينهما من حديث، ويبدو أن الأسرار قد سقطت.

غادرنا الدليل كاظم ومرافقه وتركا المسلَّحين بصحبتنا، مما أعاد القلق إلى نفوسنا، فمنذ الاشتباك مع العرب لم يقترب منا أعضاء الفرق الخاصة، فالجميع يترقب احتمالية مواجهة خطر على الطريق، نسير من الجنوب إلى الشمال، ولا أخفي أن الطريقة التي التففنا بها وتحوّلنا السريع من اتجاه إلى آخر أربك قدرتي على متابعة الاتجاهات إضافةً لانشغال خيالي بملامسة جسد نعناعتي وتقبيلها بين الحين والآخر، كلما سنحت الفرصة.

اقتربنا من حقول تفيض عنبا، فعُثنا فيها خرابا، ولم نشعر برغبة في تناول المزيد، حيث أننا حملنا معنا الكثير، ولم نمنع أنفسنا من قطف ما تصل إليه أيدينا وعصره بأفواهنا من باب التسلية، فلم يكن هناك متسع لاستيعاب المزيد...اقترب الفجر من البزوغ، ولم نستطع التوقف في هذه المزارع، وتوجب علينا الابتعاد عن البشر كما اعتدنا، ولم يكن من السهل تجنبهم.

أشرقت شمس الأحد ولم نتوقف حتى ابتعدنا عن الأراضي الزراعية، وشاهدَنا الكثير من الناس، وكان من المُحال أن نختفي وبخاصة بعد مباغتة الشمس لنا.

ساعات مرت حتى وصلنا الى أراضٍ قاحلة، ومن بعيد رأينا بَدوًا يسكنون بيوتا متواضعة، هي أشبه بالخيم والعرائش منها إلى بيوت الشَّعْر، لم نبتعد عنهم كثيرا، فخلف إحدى التلال كان هناك بئر ماء ولم نجد مفرًا من التوقف.

تم نصب الخيام رغم اعتراض الدليل، وفاجئني جودت حينما قرر أن يرسلني تجاه العرب لأشتري طعاما، وأعطاني الكثير من المجيديات، ووجدت فيها فرصة لاستطلاع المنطقة، وراودتني فكرة الهرب ولكني لم أحبذ ترك كميات الذهب الكبيرة التي لم تدفن بعد دون معرفة مكان دفنها، والأكثر أهمية من ذلك كله أني لا أطيق ترك نعناعتي، وأنا على ثقة بأنها ستكون لي وسترافقني في النهاية. أسرعت لأمتطي أحد الخيول ولكنه أشار بإصبعه تجاه أحد الحمير، ولم يقصد من ذلك أن يقلل من شأني وإنما تجنبًا لطمع العرب، فحدثتُ نفسي: امتطاء حمار تجاه الطعام خير من امتطاء حصان أصيل تجاه الجوع. ويبدو أن حماسي أفقدني حذري قليلا، وهنا تدخل كعب الحذاء الذي أنصت إلى كل ما دار بيننا من حديث ولم يعلق، وصبر حتى اقتربت من الحصان، وقال لي:

- إلى أين أنت ذاهب يا عزيز؟
- ذاهب لشراء خرفان وغذاء كما طلب الباشا.
- وماذا ستخبر هؤلاء العرب حين تصلهم يا عزيز؟
- سأخبرهم أني أريد شراء خرفان وأدفع لهم الثمن وأعود...

ويبدو أن الباشا الذي اكتوى من حرارة الشمس قد عاد إليه رشده وفطن إلى ما يلمح إليه الكعب اللعين، فسألني جودت:

- وان سألوك من أنت ماذا ستخبرهم؟

وهنا كان لابد من أن التزم القواعد السانتورية، فقلت:

- سأقول لهم أنا عزيز أعمل مع جودت أفندي والشيخ طبرق.

وأخذ جودت يضحك، ولا أدرى إن فعل ذلك بسبب غبائي أم غبائه، وقال:

- ولماذا لا تخبرهم بأننا ندفن الذهب؟

أربكني تعليقه الأخير ولم تسعفني بديهتي بالرد السريع وقلت بعد صمت:

- لا لن أخبرهم لأنهم سيسرقونه؛ العرب لصوص وقطاع طرق، إن سألوني عن الذهب سأقول: لا أعرف مكان دفنه...

وما إن أكملت جملتي حتى كاد الكعب يسقط على الأرض من شدة الضحك، وهذه المرة الأولى التي أراه فيها يضحك هكذا، ثم أدركت أنه يضحك على حماقة جودت الذي قرر أن يرسل غبيا لهذه المهمة.

ففضل جودت أن نصبر يوما آخر لحين وصول الطعام، ولكن كعب الحذاء تطوع بنفسه لإنجاز المهمة، وخلع ما يرتديه من ملابس شاذة مبهرجة، وارتدى ثوبا أبيض اللون، ووضع عمامةً وعقالاً على رأسه، وحمل بيده عصا وركب حمارًا وسار باتجاه العرب، وسرق مني فرصتي في الابتعاد عن القافلة وربما تكون الوحيدة.

استغل الباشا غياب الكعب وصحبني إلى خيمته لملء بعض الجرار بالذهب، وتجهيزها لترقد تحت التراب، في انتظار عودتي لأخرجها، وطَبعي الفضولي عاد من جديد، فأمسكت بليرة ذهبية عليها صورة الملك الإنكليزي إدوارد، وسألته:

- هل هذه صورة مولانا السلطان عبد الحميد؟

ضحك وقال:

- لا هذه صورة إدوارد خليفة المسلمين.

في سذاجة:

- بارك الله فيه وحفظه وأطال عمره وحفظ صحته، ونصره على العرب واهل مصر أجمعين.

ضحك مرة أخرى وقال:

- ما حكايتك مع العرب وأهل مصر؟ ولماذا تكرههم؟

قلت:

- أنا تركي يا سيدي والأتراك لا يحبون العرب.
- ولكن العرب جنود في جيشنا ويخدمون الدولة.
- والبغال أيضا تخدم الدولة.

ضحك وقال: معك حق يا عزيز، دولتنا الحبيبة يقودها أمثالك لهذا أصبحنا في الحضيض.

شعرت أن الباشا يرغب في الحديث لمجرد الحديث، ولا يهمه إن كان يجالس غبيا، وإنما كان بحاجه ليفرغ عما يطبق على قلبه، فأردف قائلا:

- ولكن قريبا سيقود دولتنا الرجل الذي يستحق، وسنتخلص من حكم آل عثمان المتخلف.
- ولكن البيك قال إن هذه العائلة هي التي ستحكمنا إلى الأبد.
- لا يا عزيز، الأمة تحتاج إلى بطل يحرر القدس، وبعدها سيتوج وينهي عصر الوراثة.

اختتم حديثه بهذه الجملة، وتركني في حيرة، حتى أني عدت للبحث في ذاكرتي، هل القدس محتلة ليحررها هذا البطل؟! أم أنه قصد شيئا آخر! ملامح وجهه والبريق الذي في عينيه كانا يشيران إلى أمر ما يعرفه ولا يستطيع أن يبوح به.

عاد الكعب يجر خلفه ثلاث حمير اشتراها من العرب، محملة بالجبن والطحين والسكر والسمن، وعدة قرب ملآنة باللبن، والكثير من الخبز الطازج، وخلفه الكثير من الخراف، ولأول مرة أرى أن الجميع يستقبله بابتسام وترحيب، فاحت رائحة الخبز الساخن، ورائحة اللبن كانت شهية، استلمت المؤن هذه المرة، ووقف بيبرس ينتظر، ريثما أنتهي من أخذ ما أريد للباشا، لأنه يتقزز إن لمس طعامه أحد غيري، وبما أني أصبحت المسؤول عن طعام الكعب ونيروز، أخذت ما أعده لهم، وتركت الخادم بيبرس يموت غيظا.

استلم ما تبقى لتوزيع بعضه على الآخرين، واحتفظ بالباقي في عهدته، جهزت الوجبة الأولى لجودت أفندي، وللكعب أيضًا ولم أتمكن من البصق فيها لاقترابه مني، نعناعتي الحسناء لم تكن بالجوار، وأبهج قلبي حين أمرني بأخذ طعامها إلى الخيمة، فذهبتُ وناديتها ولم تخرج، فعدت خائب الأمل، وأخبرت الكعب، وكاد يُغْمى عليَّ من الفرحة حين قال:

– لابد أنها نائمة، ادخل وأيقظها لتأكل.

انطلقتُ كلمحٍ بالبصر، ورددتُ سرًا: "مت بغيظك أيها الخادم البغيض، ها أنا أحصل على تصريح للاقتراب من سيدتك وهي نائمة"، ووقفت بباب الخيمة أحرك شفتي في صمتٍ متظاهرا بمناداتي، وقصدت بذلك أن يشعر من يراقب بأني مهذبٌ ولم أقتحم الخيمة دون تنبيه مَنْ فيها.

بخفة قط يحاول اصطياد عصفور دخلت الخيمة، على أمل الفوز بما سيمتع ناظري ولم أتوقع أن أرى كل هذه الفوضى العارمة؛ ثيابها وملابسها الداخلية ملقاة على الأرض وفي كل مكان، والتراب فوق الأبسطة، وحقائبها مكسوة بالغبار وأحذيتها الثمينة متناثرة فوق الفراش وفي كل زاوية.

لا تليق هذه الفوضى بسيدة! كان عليها أن تدخل خيمة جودت لتتعلم كيف تكون النظافة والترتيب، وكونها تعيش داخل الخيمة مع خنزير لا يعطيها عذرا لتعيش وسط هذه القمامة، هذه الفتاة بحاجة لقضاء يوم واحد مع نازلي هانم لتتعلم كيف يجب أن تكون سيدة راقية.

من تملك مثل هذه الأحذية الجميلة لا يحق لها أن تتصرف هكذا، لا بأس عندما سأعود بالذهب وأصحبها معي سأعلمها كيف تكون سيدة مجتمع، أو ربما سألقيها في البحر وأبحث عمن تليق بمكانتي، اللعنة على فراشها كيف تستطيع أن تسترخي في هذا الغبار!

استلقت على بطنها، ودفنت رأسها في الوسادة، وقد أخفى شعرُها وجهها وتناثر فوق ثوبها الناعم، الذي لم يشف عن ردفيها، بل كان مشدودا ليبرزهما، وارتفع قليلا ليكشف شيئًا من فخذيها...أتأملها فهي لم ترتد أية ملابس داخلية، وددتُ أن أقلبها على ظهرها لأمتع ناظري قليلا، لم أمنع نفسي من الحبو إليها أتحسسها وأقبِّل ظهرها وردفيها حتى خارت قواي ورميت بثقلي فوقها، فأيقظتها حرارة جسدي وثقله...حرَّكت يديها ومالت برأسها قليلا، وأخذت ترمقني بطرف عينيها متأوهة:

– عزيز...خذني إليك...أريدك الآن يا عزيز... ...عزيز.

ارتعدت فرائصي حينما باغتني الكعب واقفا خلفي مرددًا:

- عزيز .... عزيز ...ماذا تفعل؟

علقت الكلمات بحلقي من الخوف ولم تخرج:

- انتتتتتتتت..

فسألني:

- لماذا تقف كالصنم ولم توقظها؟

عاد وعيي بعد أن تأكدت أنه لم يدخل رأسي ويكتشف ما في مخيلتي، ثم انطلق صوتي:

- لقد حاولت يا سيدي ولكنها لم تستجب.

انحنى فوقها ومد يده وهزها من كتفها:

- ناره أفيقي وتناولي الطعام.

لم تتململ وللحظات اعتقدت أنها ماتت مثل خالتي دولت، وخفت أن يتهمني بخنقها، فهزها بقوة:

- هيا يا ناره استيقظي وتناولي الطعام.

حركت رأسها في تكاسل، ومالت بعينين ناعستين، ثم ابتسمت وقالت:

- حبيبي طبرق.

ثم أخذت تتثاءب، فمسد على شعرها قائلاً:

- تناولي طعامك وأعطي ملابسك المتسخة لعزيز ليغسلها.

لم يأبه هذا الحقير بصدرها العاري فخرج وائتمنني على نهديها، ومازالت تتثاءب وتحرك عنقها في كسل، وأنا أردد سرًا لا تتعجلي واستيقظي على مهل، معك كل الوقت ودعيني أتلذذ بمراقبة جسدك قليلا، اطلبي مني أن أطعمك بيدي وأن أعيد ترتيب شعرك قليلا، وكم يسرني إن سمحتي لي بخلع ملابسك لتكوني أكثر تحررًا وراحة، وفجأة وثبت كالغزال وأمسكت برغيف الخبز وأخذت تردد:

- (خبز، خبز، أوه من زمان عنك يا حبيبي!)

رائحة الخبز أعادت إليها نشاطها، فأرخت ثوبها وحرمتني من متعتي، وقالت حينما ناولتها الطعام:

- (شكرا عزيز غلبتك معي).

أمسكت برغيف الخبز الرقيق المدهون لبنة بإحدى يديها، ولملمتْ ملابسها المبعثرة بالأخرى، وكوَّمتهن وسط الخيمة، وقالت ثانية:

- (شكرا عزيز غلبتك معي).

حملتُ ملابسها القذرة وخرجت، ولم أجد حججا لأطيل البقاء، وقبل خروجي قالت:

- أتريد أن أساعدك؟

لم تنتظر لتسمع ردي:

- (شكرا عزيز غلبتك معي).

انصرفتُ محدِّثًا نفسي؛ سيراني الجميع أغسل ملابسها، وسيسخرون مني سرًا وعلانيةً، فكيف سأتجنب الحرج؟ كان بإمكاني أن أعطيها لسالم أو أحمد شيخة، كما اعتدت أن أفعل مع ملابس جودت مقابل سجائر وشوكولاتة، ولكني لا أريد أن يشتم رائحتها غيري، بدايةً حرصتُ على أن أقوم بذلك سرا، ويبدو أني تناسيت بأني سانتور وهذا دوري، ومثل هذه المهمة ستعزز مكانتي السانتورية، غسلتها وكدت أمزقها محاولا إزالة بعض البقع، واكتشفت أن مهمة غسيل ملابس النساء الناعمة أصعب من غسيل ملابس الرجال الخشنة، وكلاهما أكثر إرهاقا من الحفر.

بعد الغسيل لم يتبقَ من الشمس ما سيساعد على تجفيف الملابس، وكان لابد من نشرها لتجف، ومن الأفضل أن تكون بجانب خيمتها بعيدا عن أعين الأوباش، فعدت لها بالغسيل وأعددت لها منشرا، وكافأت نفسي بالاحتفاظ بأحد سراويلاتها الداخلية؛ تركته يسقط بين الصخور ولم أغسله، حتى لا أفقد رائحتها، سأعود إليه لاحقا وأحتفظ به إذا لم تتذكره، أما إن تنبهت

لفقدانه سأدَّعي بأنه سقط سهوا، وسار كل شيء كما أردت، وحصلت على مكافأتي واحتفظت بسروالها، ومن ثم ساعدتها بتنظيف وترتيب الخيمة، وفرحتْ لذلك كثيرا، لم تقم بأي مجهود، أكتفت بالمراقبة، وأرهقتْ نفسها بين الحين والآخر بتكرار كلمات:

- (شكرا عزيز غلبتك معي).

قبل خروجي من الخيمة وصل الكعب، وكنت أعتقد أنه سيُسر حينما يرى ما أحدثته فيها، ولكن عيناه اتقدت غضبا، وأخذ يبحث في أرجاء الخيمة مرتابًا حتى اعتقدت أنه سيتهمني بالسرقة، ثم صرخ قائلا:

- من طلب منك ذلك؟!

هنا تبرمت نيروز، وقفزت الدموع من عينيها لفظاظته معي، وقالت:

- أنا طلبت منه ذلك.

فقال:

- لا أقصد أن هذا سيئ، وإنما نحن على وشك الانتقال بعد قليل وما كان يجب أن يتعب نفسه.

وأخذ يتظاهر بأنه يضحك، وقهقهته كانت أشبه بالنهيق، وقال:

- أحسنت عزيز، عليك دائما أن تأتي لتساعد ناره، اتفقنا؟ والآن تعال معي أحتاجك في أمر.

مشينا سويا حتى ابتعدنا قليلا ثم أمسك بذراعي وضغط عليه حتى شعرت بأنه سيسحقه، وقال همسا:

- أتذكر ما حدث مع رشيد؟

فأجبته:

- نعم يا سيدي أذكُر.

فقال بلهجة تفيض تهديدًا ووعيدًا:

- اقطع لسانك، وإن سمعت أنك تحدثت فيما رأيته داخل الخيمة ستلاقي مصير رشيد، أفهمت؟

رددت عليه:

- لن أفتح فمي يا سيدي ولن يعلم أحد بما رأيت.

لم أجد منطقا لما حدث...ابتعد وتركني في حيرة، ما الذي يخشى أن أخبر عنه! أيقصد جودت أفندي! لا يُعقل أن يكترث لغيره، ومن المؤكد أن هذا الخنزير لا يقصد تلك القذارة التي ملأت الخيمة، ولو أراد ذلك لأخبرني بعد دخولي أول مرة لإطعام نيروز...هناك شيء خطير يخفيه داخل خيمته وأعتقد أنى رأيته، ربما استنتج ذلك حينما رأى كل الحقائب قد تحركت من مكانها، لقد شغلتني نعناعتي عن التلصص، وها أنا ذا مهدد بالموت إن أخبرت أحدا بما لم أره...إنه يعتقد أنى قد رأيته ولن يكون حريصا على ألا أرى ما يظن أني رأيته، وعاجلا أم آجلا سأكتشف السر...لعنة الله على كعب الحذاء، أفسد عليَّ روعة يومي.

كانت القافلة جاهزة للانطلاق بعد صلاة العشاء بقليل، تحركنا ووصلنا أراضٍ قاحلة على أطرافها نار مشتعلة دلت على خيم العرب، اضطررنا للالتفاف لتجنب المرور بجوارهم، وفي طريقنا رأينا قلعة توَّجها نور القمر، شامخة تتربع على جبل، وكأنها حصن يتحدى الغزاة، ويبدو أنها قد ألهمت جودت ليبحث عن مكان لدفن الذهب، فتكون علامة ثابتة، وعندما أرسل المسلَّحين بعيدًا، حرصًا على ألا يشاهدا شيئًا له علاقة بالذهب، علمتُ أنه لا نية لذبحهما.

أربعة جرار صغيرة وأخرى كبيرة حملناها على حمارين، ومع تحميلها واهتزازها أصابها بعض الشروخ، وقد لا تصمد لحين دفنها، فتوقفت القافلة وعرجنا عن الطريق، ولم نبتعد كثيرا، فقاد سلامة حمارا وسالم استلم الحمار الآخر، وبرفقتنا كان نعمة وسعدون، والكعب وخادمه بيبرس، والأمهق إيليا، انطلقنا وهذه المرة حدَّد جودت مواضع الدفن.

بدأت عملية الحفر وكان نصيبي من الحفر برفقة سلامة وسالم بجوار كهف، أما نعمة وسعدون وبيبرس فكانوا في مكان آخر، وذهب جودت والأمهق للبحث عن صخرة لنقش الرموز،

والكعب يستكشف المحيط...بعد توزيع المهام لم أكن لأجهد نفسي في الحفر كما كنت أفعل مُسبقًا، فلا أحد يراقب.

جرة الذهب الكبيرة المشروخة كانت بجوارنا، وعينا سلامة مصلوبة عليها، وكاد الفأس يهوي على قدمه أكثر من مرة، فقلت له:

– عمي سلامة، انتبه حتى لا يقتلك الفأس.

وكنت أُلمِّح لغير ذلك، وفَهِم ما قصدت...تعلو ضربات الفأس وأنفاس اللُّهاث المتقطعة وتدوِّي أصداءُ النقش، إلا أننا سمعنا عويلاً مرعبًا داخل الكهف، فصرخ سلامة:

– ضبع... ضبع.

لم ينطق بالثالثة حتى أطلقت ساقي لتسابق الريح، ولم يخطر ببالي أن هناك مكانا أكثر أمنا من العودة إلى القافلة، فسبقني صراخي إليها:

– ضبع... ضبع...

هبَّ الجميع لنجدتي متسلحين بما وقع تحت أيديهم من فؤوس وعصي وحجارة، وقفت لألتقط أنفاسي وكل من حولي يسأل:

– (وينه؟! وينه الضبع؟!)

لم أدرِ كيف أُجيب على السؤال، وعندما رأيت سالم واقفًا مع الجمع في انتظار الجواب ولم أجد تفسيرا لكيفية وصوله قبلي، أشرتُ بيدي إليه وقلت:

– اسألوا سالم!

انتقلت أبصارهم لسالم فأجابهم قبل أن يسألوا:

– الضبع عند سلامة...

وليته اكتفى بما أجاب، بل أخذ يشرح مفصلاً، وجعل مني الجبان الذي تخلى عن أصدقائه لينجو بنفسه، وتناسى وصوله قبلي...كنت أعتقد حينها أني تركته لتلتهي به الضباع، وأنجو بنفسي.

مرت ساعة ولم تهاجمنا الضباع، ونلت النصيب الأكبر من سخريتهم، وعاد جودت ومن معه بسلام، أما الكعب اللعين فقام بصفعي وتوبيخي فور رؤيتي، ولم يترك شتيمة إلا وشتمني بها، فأشفق جودت على حالي وصدَّه عني، ثم لامني في هدوء على ما فعلت.

أشرقت الشمس ولم نتوقف حتى وصلنا موقعا للاختباء، ونصبنا الخيام، وحين انتهينا من واجباتنا المعتادة التف الجميع حول سلامة وقد استغل ما حدث، وخرج بمظهر البطل الشجاع الذي واجه الضبع بعد أن تخلى عنه رفاقه، وادعى أنه عالجه بضربة فأس، والكل امتدح بطولته.

ليس من الحكمة أن يشكك جبان في قصة شجاع، ففضلت دعم قصته، وإن كان قد روى مُسبقًا أن طبيلة ابن الغولة التي كانت تعيش بالمغارة، فلن يعجز أن يقنعنا بأن الكلب الذي عضه ضبعا، فشاركت البقية تحت الشجرة حول سلامة، لتهنئته بالنجاة من الموت، والاستماع لقصة الضبع بتفاصيلها المملة؛ مدَّ ساقه المصابة لاستعراض العضة وأخذ يروي ما حدث:

- عندما سمعت عويلا يخرج من الكهف، أيقنت أنه صوت ضبع، وربما ضباع، فحذرت رفاقي، ولكنهم فاجأوني بهروبهم، ولو هربت مثلهم لطاردتنا الضباع وقتلتنا، فرفعت الفأس قائلاً: "يا مُعين أعِن عبدك سلامة".

كنت على ثقة بقدرتي على قتله، ولكني كنت حذرا أن يبول علي، فبَول الضبع يسرق العقل! ويا إخوان جدي حسان –رحمة الله عليه– كان عائدا لبيته ذات يوم، واعترض طريقه أحد الضباع وتبول عليه، وما كان من جدي إلا أن سار خلفه فاقد الوعي حتى باب المغارة، وستر الله جدي بارتطام رأسه بحافة مدخل المغارة، فعاد إليه وعيه وهرب مسرعا، ولو دخل إلى جُحْر الضبع لافترسه...

لو لم ينادِ علينا الكعب لنساعده لتعرفنا على كل أفراد عائلة سلامة وبطولاتهم، وسرده للقصة مقنع، ولكنه عجز عن إخبارنا أين اختفت جثة الضبع الذي غرس الفأس برقبته، أثناء سرده للقصة كدت أضحك أكثر من مرة، واكتشفت أن للبول عند العرب أسرار، بول الجمال فيه علاج، وبول الضباع يخدر العقول، فلا عجب إن كان بول روهان بيك يطرد العفاريت.

طلب منا الكعب الحفر بالقرب من الخيام، وهذه المرة ليس من أجل دفن الذهب، وإنما لطهي أحد الخراف، حفرنا وأشعلنا النار حتى جمرت، ثم جلبنا أغصان شجر وحجارة مسطحة كما طلب، وقام الكعب بذبح الخروف، وطلب منا تنظيفه بعد أن استحوذ على كبده، وشارك فيه نيروز وخادمه بيبرس، عاد إلينا وشبك الأغصان وصف الحجارة فوقها ووضع الخروف، ثم صفَّ حجارة مسطحة فوق الخروف مجددا، ثم غطَّاها بجلد الخروف، وترك فوقه طينًا...طمر الحفرة بالكامل ولم يرقص الـ"قاقا باقا"، كانت طريقة غريبة فعلا، وقد راودني الشك في نجاحها، وبخاصة أن التراب سيختلط باللحم، وربما نستطيع القول وداعا للخروف...

طلبني جودت أفندي فذهبت إليه، وطلب مني ملء ثلاثة جرار ذهبًا خالصًا بغير تراب؛ إحداها كبيرة الحجم، وقبل خروجه وتَركِي بمفردي مع الذهب، عاد وعاتبني على ما حدث بالأمس، وحذرني من تكراره.

عندما خرج شعرتُ أنِّي بمنزلي، حتى أني تواقحت وأخرجت بعض الفستق للتسلية، ثم ملأت الجرار كاملة، وأدهشني استيعاب الجرار لهذا الكم من آلاف القطع، أغلقت الصندوق ولم يتبقَ فيه الكثير من الذهب، وبحذر شديد اقتربت من الصناديق وتأكدت أنه لم يُترك أية علامات خبيثة لتخبره إن فتحتها، معظمها كان مقفلا وتمكنت من إلقاء نظرة على صندوق واحد غير مقفل.

كان مزدحما بالعصمليات الذهبية، وإن كانت بقية الصناديق مملوءة بالقدر نفسه فسنحتاج للكثير من الجرار والوقت، وإن بقينا على هذه الوتيرة البطيئة في دفن الجرار فلن ننتهي بعد عدة أشهر، ولو قمنا بدفن ثلاثة أضعاف ما كنا ندفنه يوميا ربما نستطيع خلال شهر إخفاء الذهب، ولو لم أكن ملتزما بدور السانتور لاقترحت طرقًا مُبتكرة لتسهيل إنجاز المهمة وتسريعها.

انتهيت من التنظيف وقد أنجزت ذلك بطريقة تلائم وسواس النظافة عند جودت، ولم أنسَ المرور على الكثير من الأوراق بين الحين والآخر، وبخاصة دفتر يومياته وأشعاره ذو الجلدة الخضراء، وبشيفرة ساذجة كتب جودت:

- *"لقد آمن الباشا بأن المستقبل الحقيقي يكمن في البحر والسماء، والعقول التي تقودنا مازالت تعيش في أمجاد الماضي، ومازالت الإبل قادرة على وقف زحف المستقبل، وأي غد سيكون في انتظارنا ما دمنا نسير بأذيال عباءات عفا عنها الزمن...*

إيماني عظيم بمشروع الباشا، ومستقبلنا جميعا يدعونا أن نصطف خلفه، هذا الرجل الذي لن يتردد في بذل دمه من أجل مستقبل بلادنا، وعظمتها ومكانتها بين الأمم، وما كنت لأتردد بأن أقوم بأي شيء من أجله، إيمانا به وليس لصلة الدم التي تربطنا. سافرت إلى بيروت بِناءً على طلبه، والتقيته سرا. وقال لي وقتها: "في هذا العالم لا أثق بأحد أكثر منك ومن فاطمة"، ثم أخذ يشرح لي خطته المستقبلية من أجل تركيا، كانت خطة جريئة وما كان ليقدم عليها غيره، يومها فقط علمت بأن مهمتي كانت استلام الكثير من الأموال والكنوز التي تم تجميعها في القدس ، بعد أن يقوم شكيب ويعقوب وفاطمة بإيصالها إلى بيروت حيثُ أستلمُها وأشرفُ على نقلها للمحطة القادمة في حلب.

بذلت جهدا كبيرا في محاولة إقناعه بأن يعقوب وشكيب أكثر كفاءة وخبرة مني، إلا أنه قطع الطريق وقال "لهذا احتاجهم في القدس وليس بحلب"، ومرت أيام في انتظار وصول الذهب والكنوز، وعاد الباشا وكان متكدر الحال، وأخبرني أنه اشتم رائحة خيانة من قبل شركائه في إسطنبول، ومن وراء ظهره خططوا للتلاعب فيما تم الاتفاق عليه مع إنكلترا سرا، والبقاء على التحالف مع ألمانيا، وأن لديه الكثير من الأسباب ليخشى على حياته في هذه المرحلة، ولذلك أوعز إلى يعقوب وشكيب بإبعاد كل الرجال الموالين لإسطنبول عن الأموال التي قرر نقلها، حتى تتضح الصورة وتنكشف نواياهم الحقيقية...لقد كانت مهمتي تستوجب الإشراف على إبقاء هذه الأموال بعيدا عن أيدي الجميع.

بدايةً اعتقدت أنها مهمة سهلة، وبخاصة أن عشرات الأشخاص الذين سيساعدونني هم من الموالين، وأعرفهم جيدا، ويكفيني وجود شكيب ويعقوب برفقتي، ولكني قلقت قليلا حينما بدأ الباشا ممهدًا لإخباري بأن شخصًا آخر سيرافقني لمساعدتي في إنجاز المهمة على أكمل وجه، وحين أخبرني أنه أهلا للثقة، ويملك الكثير من الخبرة، وأنه عرفه منذ زمن في العراق، اعتقدت أنه يتحدث عن صديقنا عديد، ولو كان هو لسرَّني ذلك كثيرا، ولكن حين حضر وتبين أنه لم يكن عديد، خاب أملي كثيرا، لمَّا وقف أمامي رجل أسود فارع الطول، يُدعى الشيخ طبرق، ولم يخفَ عليَّ أنه أقرب إلى المشعوذ، فأردت الاعتقاد أنه مجرد دليل لإرشادنا، وحينما كرر الباشا على مسامعي أكثر من مرة أن هذا الشيخ سيقوم بما تستدعيه الضرورة، ويتوجب ألا أعترض على كل ما قد يقوم به تساءلت: ما الذي يمكن أن أعترض عليه! فالتزمت الصمت".

مللت مما كتبه جودت وحفظت ذاكرتي ما تبقى، ثم خرجت لأطمئن على نبش القبر وإخراج الخروف لعلي أُصيب منه شيئا، وخاب أمل الجميع حين استولى عليه الكعب وخادمه، وجلسا بجانب خيمته ولم يشاركا أحدًا...قد أفعل أي شيء من أجل النجاة، وما كنت لأتذلل من أجل طعام، ولكن لا بأس من بعض الحيل؛ اقتربت منهم في كبرياء، وكانت نيروز قد انضمت لهما، وتظاهرت بأن جودت قد أرسلني لطلب الطعام ولم يبخلا علي بضلع خروف كامل حملته وابتعدت، وكان شهيا لا يقاوم، وما كنت لأتركه لجودت دون أن أنال منه نصيبي، وفكرت في حيلة أخرى قد تكون خطرة بعض الشيء، ولكن كراهيتي دفعتني إليها دفعًا، فاخترت طبقا يليق بالبهائم لا البشر، وحرصت على تنظيفه جيدا، فلست أنا من يتناول الطعام بوعاء قذر، وبأصابعي فتفتُ القليل من اللحم، وأبرزت الدهن، حتى كدت أشمئز من مظهره، ثم ذهبت إليه وقدمته له وقلت:

- لقد قام الشيخ طبرق بذبح خروف وطهوه، والكمية كانت صغيرة لهذا لم تكفيهما، وبعد أن شبِعا قام خادمه بإعطائي هذا الطبق لأحضره لك، وأنا ما كنت لأوافق على حمل مثل هذا الطعام لك، ولكني خشيت من غضب الشيخ وخادمه، لهذا أرجو منك أن تعذرني لتسببي في اشمئزازك...

ما إن أكملت كلامي حتى كاد يتقيأ، وما كنت بحاجة لكل هذا الشرح، فيكفي أن أَذْكر خادم الكعب لأدفعه للتقزز، أصبت هدفي ولكن...حدث ما لم يكن بالحسبان فبدلاً من قوله: خذه يا عزيز، سار وطلب مني أن أتبعه، وأخذ ينظر إلى الجميع وعلمت أنه يحاول أن يختار أحدهم ليعطيه الطعام فأشار إلى طبيلة وقال:

– أعطِ هذا الطعام لذلك الرجل الضخم، اسمه (طبلونه)، أليس كذلك؟

أجبته:

– اسمه طبيلة يا سيدي.

حملت الطعام واقتربت منه وأعطيته إياه، ومسدت على شعره للمرة الأولى، وأخفيت غيظي، وتظاهرت بالسعادة لفعلي ذلك، وعدتُ وقلت لجودت:

– خيرًا فعلتَ يا سيدي، فحتى أنا ما كنت لأتذوق طعامًا عبث فيه خادم طبرق.

تمنيتُ لو أن طبيلة ترك لي قطعة صغيرة، ولكن كيف ذلك وهو لم يوفر حتى العظام التي تركها الكعب خلفه...قضيتُ ما تبقى من هذا النهار اللعين حتى عاد القمر، وحانت لحظة الرحيل.

سرنا لساعات عدة، ثم توقفنا وغاب الكعب عنا ما يقارب العشر دقائق، وعاد إلى جودت وكنتُ قريبًا منه حيث قال:

– هذا المكان فيه ماء، وأقترح أن نخيم هنا، وهو مناسب لإنجاز عملي، وسآخذ معي جرة كبيرة...

فهمتُ أنه سيمارس طقوسه الخاصة لحراسة الذهب، ولم يَرُق لجودت التخييم بمكان لم يختره الدليل، ومع ذلك لم يعترض، ثم أخذت عينا المسخ تتفحص الجميع لاختيار مرافقيه فوقع اختياره على خلدون صاحب الأكتاف، فبالرغم من اعوجاجه إلا أنه صلب العود، لا يهادن من يسخر منه، فقبل أيام سخر الخادم بيبرس وسعدون من عوج كتفيه، فما كان من خلدون إلا وأن رفع ثوبه وأنزل سرواله، وقال بعد أن أشار إلى ذكره:

– هل تريدونه مستقيما أم معوجا؟

أبغضُ الخادم اللعين، ولكن ما كان على الأعوج أن يتصرف بمثل هذه الوقاحة، وبخاصة بالقرب من نيروز.

أصرَّ الكعب أن نقوم بنقل الجرة الكبيرة التي حملناها سابقا على ظهر بغل إلى حمار، وشق علينا ذلك، كما شق على الحمار حملها بعد موازنتها بمجموعة من الحجارة الثقيلة في الجانب الآخر، وأشكُّ في قدرته على الصمود.

سار الكعب ومن خلفه خلدون والحمار، وارتاب جودت وقال لي على مسمع من الكعب:

– اذهب يا عزيز وساعدهم.

التفت إليه الكعب قائلاً:

– لا داعٍ لذلك، فبعد تحديد المكان سأستدعيك لترسمه وتنقش العلامات.

ولكنه أصر على أن أرافقهم بحجة ثقل الجرة، ارتسمت على شفتي الكعب ابتسامة خبيثة ولم يعترض، ووافق وعيناه استهزأت بالباشا الذي لا يبدو أنه يثق به، ولم أكن أرغب بمرافقة هذا الحقير إلى المجهول، وتعريض نفسي للضباع، وما كنت أملك الحق في الاعتراض، ويبدو أن جودت يأتمنني على الذهب أكثر منه، كنتُ أتمنى لو يرافقنا سلامة وفأسه، كان ذلك سيشعرني بالأمان أكثر بالرغم من أني لم أصدق قصته.

سرنا لمسافة تزيد عن ألف متر، وأخذ يتفحص الكهوف والمغاور التي كان أغلبها أشبه بالجحور، حتى استقر على أحدها في باطن تلة تحيط بها عدة تلال، فاقترب من الجحر وجلس أمامه، وأخذ يقوم بحركات الهراء التي اعتاد عليها، ونادى على خلدون الأعوج وأدخله الجحر ليخرج منه التراب ليتمكن من حشو الجرة داخله، وضيق الجُحر لم يسمح باستخدام معول، فبدأ يحفر ويجرف بيديه، ولم يطلب مني مساعدته، تركه وعاد للتربع على الأرض في انتظار انتهائه، وأمرني بالجلوس أمامه فأطعت، وللمرة الأولى يهتم الكعب بمعرفة بعض التفاصيل عني، فسأل:

– ما اسمك أنت؟

هو يعرف اسمي جيدا ونادني به عشرات المرات، فأجبته على طريقة المجندين، الاسم الكامل، العمر، مكان الولادة، العمل...

ثم سألني مرة أخرى عن علاقتي برشيد، لم أفهم الهدف من سؤاله وهل يعقل أنه قد وصلته معلومات جديدة، فلم يكن أمامي إلا أن أخبره بالحقيقة كاملة، دون أي ذكر لحيان وما بداخل الكهف، وتعمدت التركيز على احتجازي في البئر لأشتت انتباهه عن أية تفاصيل فقاطع حديثي، وسرعان ما اكتشفت أنه ليس بحاجة لمعرفة شيء، وإنما ليذكرني بذبحه فقط، ثم مدَّ يديه وأمسك برأسي قائلاً:

– انظر في عينيَّ، هل أخبرت جودت عما رأيته في الخيمة؟

أجبته على الفور:

– لا يا سيدي لم ولن أخبره.

وتمنيت لو أعرف ما الذي يعتقد أني رأيته، ثم سألني:

– ماذا تفعل مع الباشا في الخيمة؟

لم أتفاجأ بالسؤال، لقد كنت أتوقعه منذ فترة، وقلت له:

– أساعده بترتيب الذهب وعدِّه.

فقال:

– ولماذا لم تحضر وتبلغني بذلك كما اتفقنا؟ أم أنك نسيت رشيد؟

قلت:

– لم أجد حاجة لأزعجك بهذا، واعتقدت أنك تعرف كل شيء يا سيدي.

عيناه الخبيثة وابتسامته الصفراء فاجأتني بسؤال:

– لماذا كنت تحفر داخل الخيمة؟

وهز رأسه ليوحي إليَّ بأنه كاشف الغيب، وملك الجان، والهراء وهبله المعتاد، ارتبكت قليلا وأدركتُ ضرورة استدلاله على ذلك من آثار التراب، أو الغبار العالق بثيابي، أو أن خادمه كان يراقبني، وقد رصدته أكثر من مرة يحوم حول خيام جودت.

وجدت نفسي في اختبار حقيقي، فأية إجابة تدل على ذكاء أو خبث، أو تظاهر بالغباء قد تكلفني حياتي، واحتجت وقتًا لأفكر، فسكتُّ وهذا أثار حفيظته فكرر سؤاله في حزم:

– ماذا كنت تفعل داخل الخيمة مع جودت؟

فأجبته:

– يا سيدي أنت تعرف كل شيء، وأنا أقسمت على كتاب الله ألا أخبر أحدا عن الذهب الذي ساعدته في دفنه بالخيمة، وأفضل الموت على أن أحنث في يميني، وقد أصاب بالشلل جراء ذلك.

لمعت عيناه الحقيرتان، فجوابي حافظ على تظاهري السانتوري، وقال:

– لا تحنث في يمينك يا عزيز، انظر في عينيّ وسأترك قرينك يخبرني الحقيقة.

أمسك يديَّ وحملق في عيني، ولم يخطر ببالي حينها إلا ما قاله العربي حين هاجمنا، وقلت سرًا:

– يا ولد السقيطة، على من تستهبل؟!

وبصوت أراد أن يوهمني أن الجان من يحدثني، قال:

– لقد دفنتم خمسة جرار كبيرة، والكثير من الجرار الصغيرة، وكلها تفيض ذهبًا يا عزيز.

تقمصت دور المرعوب المصدوم، فأخذت قدمي اليسرى ترتعش، وأصابعي تهتز، وعياني لم تتوقفا عن الرمش المتكرر، وفغرت فاهي ودفعت بعض اللعاب ليسيل على ذقني من هول الصدمة أمام قدرات عفاريته على كشف المستور، تاركا الحقير يثمل باعتقاده السيطرة عليَّ وامتلاكي، ثم أحنيت رأسي لأؤكد قوله، فابتسم وترك يدي، وقد وجدت الأمر مسليا فأخذت

أتأتئ ليفهم أني أرجوه أن يصرف عفاريته عني، وما كان منه إلا أن عاد لهرائه ليزيد من وهمي قائلاً:

– لقد صرفتُ الجان عنك، بإمكانك أن تحرك جسدك، ولكن تذكر أنه يُمنع عليك أن تحدِّث أحدًا بما سألتك عنه.

في تلك اللحظة شعرت أني أعطيت هذا التافه أكبر من حجمه، أصابني شعور بالتقزز والقرف، فصفعته وبصقت في وجهه، وأمسكت بشعره وألقيته أرضا، وبحذائي دستُ رأسه وصرخت فيه قائلا:

– قبِّل حذائي أيها الحقير السافل.

وطبعا –كعادتي– لقد حدث هذا في مخيلتي، فلا أمتلك هذا القدر من الجرأة لأبصق في وجه هذا الحقير، وسأكتفي كلما سنحت لي الفرصة بالبصق في طعامه فقط.

يا للإعجاز! لقد عرف عدد الجرار التي تم دفنها بالخيمة، ولم يتساءل للحظة بأن أي أحمق قادر على الوصول لهذا الاستنتاج، وبخاصة إذا كان على علم مسبق بعدد الجرار التي حملناها، هذا الحقير يزداد طولا كلما تغذى على سذاجة الآخرين.

انتهى خلدون من الحفر وخرج من الجحر، وقد قصر عنقه وازدادت أكتافه عوجا، كان ينضح عرقا فتحول التراب الملتصق بجسده طينًا، لم يتركه ليلتقط أنفاسه، بل طلب منا رفع الجرة إلى الجحر، أشفقت عليه وكنت أود لو باستطاعتي رفعها لوحدي، لم نتمكن من تحريك الجرة، ولم يكن أمامنا إلا إخراج الذهب منها ثم تعبئتها مجددا عند الجحر، ولكن الحقير عندما رأى فشلنا في تحريكها اقترب وحملها وحده، وسار بها إلى الجحر دون مساعدة.

أشهد أن هذا أول عمل خارق يقوم به ويستحق الذكر، لقد كان بغلا بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ثم طلب من خلدون أن يدخل قبل الجرة وفعل، ودفعها إليه وتساعدا معا حتى استقرت في المكان، وطلب مني أن أنقل إليه حجارة، وأخذ يدفعها باتجاه خلدون، وكنت على يقين بأنه سيضطر لإخراجها من جديد ليفسح له مجالا للخروج، ولكني فضلت الصمت على إبداء أية ملاحظة تخالف قواعدي السانتورية، فغبيٌّ مثلي لا يفطن لأمر.

نقلتُ الحجارة في صمتٍ حتى أمرني بالتوقف، وجلب الوعاء الفضي الذي تركه بالقرب من الحمار، فأحضرته، وحينما اقتربت ومددت يدي لأعطيه إياه، رمقني بنظرة قسمت روحي نصفين، وراودني إحساس فظيع، شعرت معه بالصقيع على جبهتي وعنقي وبطني، بل وتسرب إلى عظامي أيضا، وأخذت أرشح عرقا باردا وأصابتني رجفة، حتى كدت أفقد توازني وأسقط أرضا، لقد رأيت المستقبل قبل حدوثه بثوانٍ، وربما بنصف دقيقة.

لقد طلب من خلدون أن يُخرج رأسه ليستنشق الهواء حتى لا يختنق، وبصعوبة مد رأسه، وما إن فعل حتى أمسك الكعب بشعره بيده اليسرى وأحكم قبضته عليه حتى لا ينزلق، ثم قام بشدِّه عاليًا، وباليمنى أمسك الخنجر وأخذ يحز عنقه ببطء شديد، وكأنه حرص ألا تتسرب الحياة منه دفعة واحدة، ارتخى واستسلم ولم يشخر كما حدث مع رشيد، وكانت عيناه مصوبة نحوي، فشعرت بأنه يتوسل مساعدتي، فرفع الكعب صوته وقال:

– تعال وتشرف بجمع دمه يا عبد الـ"قاقا باقا".

اقتربتُ وقرَّبتُ الوعاء من عنقه، وكان الدم يسيل بطيئًا، ولاتزال الحياةُ تسري في عروقه؛ يحرِّك شفتيه مُتمتمًا وعيناه تتوسلان مساعدتي، ولكن كيف لي ذلك! فالمسخ اللعين يمسكه بيد وبالأخرى خنجر مسنون، ومازال ينحره في هدوء وسكينة.

أغمضتُ عيني ودعوتُ الله أن يأخذَ الكعب ما يريد من دمه وألا يكمل نحره، وهنا صرخ بي:

– افتح عينيك أيها الكلب، لقد شرفتك بجمع دمه، وكل قطرة ستهدرها سأستوفيها منك.

فتحت عيني فحزَّ ما تبقى من عنقَه مرةً أخرى، وارتخى جفناه ولم تنغلقا تمامًا، وطلب مني إمساك الوعاء بيد وبالأخرى إمساك شعر خلدون ورفعه عاليا، ثم أجهز على رقبته هذه المرة، وما لبث الدم يتدفق من عنقه كالشلال، حتى تعرى هذا المسخ الشيطاني، ومازلت ممسكا برأس خلدون وحاملا الوعاء كما أمرني، وبكفيه غَرَف من الدم وارتشفه، ومسح وجهه وجسده وخصيتيه، وحينما انتهى مدَّ يدَه وأخذَ يرسمُ بالدم على وجهي قائلاً:

– شرفتُك يا عبد الـ"قاقا باقا"، شرفتُك، شرفتُك.

وبدأتْ رقصة السعادين، تجمد الزمن ألفَ ساعة، ألفَ شروقٍ وغروب! ربما مرَّ كل هذا وأنا متيبسٌ لا أتحرك حاملا الوعاء وممسكا بالرأس، مبصرا كل ما يجري، يبدو أن نحر رشيد فيما مضى قد جعلني أعتاد هذا النوع من الموت، ولكن...حين قال" اشرَبْ يا عبد الـ "قاقا باقا" امتقع لوني، ولم تقوَ ساقي على حملي، وسقطت على الأرض أرتجف، وسقط الوعاء على الأرض وانسكب منه بعض الدم، لم أعد أقوى على تحريك جسدي، وخُيِّل لي أن شللا قد أصابني، كنت أسمع صدى صوت ينادي باسمي ويتكرر ألف مرة:

- عزيز...عزيز.

انعقد لساني فلم أستطع الإجابة أو الحراك، فأخذ يركلني ويصفعني على وجهي عدة مرات حتى أغمضت عيني، وكنت على أمل أن أفتحها وأجد نفسي مستلقيا على الأرض نائمًا في البيت، كنت أتمنى أن يكون كابوسًا لعينًا.

فتحتها...ولم أكن إلا عبدًا مطيعًا، نفذت ما طلبه، أحضرت له الماء، وخلطته بالتراب، وقام بدفع رأس خلدون بقدمه إلى داخل الجحر، وأخفى بابه بالحجارة والطين ثم ضيَّع الأثر بالحجارة، كنت أتحرك بلا وعي، وكأن ضبع سلامة قد تبوَّل وخدَّرني، أو أني –بالفعل– كنت أصارع كابوسًا مفزعًا.

انتهى من إغلاق الفتحة وإخفائها باحتراف، ثم عدنا أدراجنا إلى المخيم، وفي الطريق اقترب من جحر آخر وأحكمه كسابقه، ولكن هذه المرة بلا جثةٍ ولا ذهب، وبعيدا عنه رسم صليبا من حجارة، وقال لي:

- تذكر هذا المكان.

كنت أسير خلفه كعبد طوَّقت عنقه سلسلةٌ خفيةٌ، ومازال يكرر على مسامعي:

- (عبد القاقا يسمع كلام، يقطع لسان، عبد القاقا يعيش).

كنت أصغي له وأهز رأسي، وقد تملكني الرعب، أحدث وأشتم نفسي "ما بك يا عزيز؟! الانسان يموت مرة واحدة! لِم كل هذا الخوف؟! استجمع شجاعتك يا عزيز ولا تدعه يسيطر عليك" خدشت خاصرتي بأظافري وكأني أعاقب نفسي على الخوف الذي اعتراني وتملكني، كان

يجب أن يكون هذا القتل أقل رعبا، وبخاصة بعد نحر رشيد، ولكن يبدو أن الموت هو الموت مهما تكرر حدوثه.

الاشتباك الذي وقع مُسبقا مع العرب، والعدد الكبير من الضحايا الذين سقطوا أمام ناظريّ، لم يتركوا مثل هذا الأثر في نفسي، حينها كنت وسط جمع من الأشخاص، فاستمديت بعض الشجاعة منهم، وربما أنا جبان لدرجة كبيرة حتى أني لم أعرف هذا الجُبن عند ذبح رشيد، شعرت وقتها بأنني كنت سببا، ولكن سرعان ما تخلصت من ذاك الشعور، ففي هذه المرة ساهمت في ذبح خلدون.

قبل وصولنا المخيم قال لي:

– امسح الدم عن وجهك، وتذكَّر، المكان الذي دفنَّا فيه الذهب حيث وضعت الإشارة، تذكر ذلك جيدا يا عبد الـ" قاقا باقا".

وصلنا وآثار الدم مازالت تغطيه، ولم يفكر في الاغتسال، ثم اقترب من جودت وكان يحمل الوعاء وما تبقى به من دماء، وابتسم قائلاً:

– خذ عزيز ليدلك على الموقع لترسم وتنقش علاماتك.

أثناء حديثه ركضت نيروز تجاهه وعانقته بقوة، فالتصقت بها آثار الدماء، وانتظر جودت انتهاء العناق ثم سأله:

– وأين سائس الجمال الذي رافقك؟

فأجابه بثقة وهدوء:

– انتهى أجله، (انت شوف شغلك وأنا بشوف شغلي).

لم يعلق أبدا بل هتف للأمهق وعدنا سوية إلى الموقع، لم أنبس ببنت شفة، ولاحظ ذهولي، فسألني:

– ماذا فعل طبرق بالعربي؟

لم أتمالك نفسي وأجهشت بالبكاء لمَّا استعادت ذاكرتي مشهد الرعب، وخجلت من بكائي كفتاة صغيرة، وزادني خجلاً شفقة جودت، لم أقل إلا كلمة واحدة كلمة واحدة فقط "ذبحه"، ثم التزمت الصمت، ولم يقل شيئا؛ لم يسأل لماذا، كيف أو متى، ردة فعله أثارت استيائي وحنقي تجاهه، ألا يستحق الموضوع أن يسأل سؤالا واحدا! أم أن الذبح ليس بالأمر الغريب! هل حين يحين دوري ليتذوق خنجر الكعب دمي لن يسأل أيضا؟! ربما سيسأل أين عزيز ويجيبه الكعب "انتهى أجله".

وصلنا إلى الجحر الوهمي الذي لم يدفن فيه شيئًا وأشرتُ إليه، وأخذ يسجل ملاحظاته، وطلب من الأمهق نقش الإشارات على صخرة قريبة، ثم عدنا إلى المخيم وكانت شمس الثلاثاء قد سبقتنا إليه، ولم أتساءل إن تم ذبحه قبل منتصف الليل ليبرأ من دمه الثلاثاء اللعين، ما عاد يشغلني إن حدث صدفة، أم أنه القدر المحتوم بمواعدة الموت عند كل ثلاثاء، لقد حدقتْ فيَّ عيون الموت مطولا هذا اليوم، ولن يتركني، وليذهب إلى الجحيم هو وكل ثلاثاء لعين!

أتساءل: "لماذا سألني جودت عن خلدون ولم يسأل عن رشيد؟ هل هذا يعني أنه كان على علم مسبق بذبح رشيد؟! لم أجد إجابة لذلك، ولم تكن لدي شهية لطعام أو شراب، فأخذت حقائبي وبحثتُ عن زاوية بعيدة عن الجميع، ولم أتزحزح من زاويتي، فشعرتُ بوحدة الأموات وعدت أسترجع ما حفظتْه ذاكرتي من يوميات جودت أفندي لعلي أفهم ما يدور حولي، ومنها:

- ***"انطلقنا كما هو مخطط تجاه مرج ابن عامر برفقة طبرق وثلاثة من مرافقي الباشا المخلصين، ومن خلفنا سار خادم الشيخ وعشيقته بعد أن اشترط مرافقتهما لنا، ولم أعترض -كما أُمرتُ- ولكنهما ما كانا قادرين على مجاراتنا في سرعة السير، فتركناهما مع أحد المرافقين ليسيروا على إثرنا، وصلنا وكان بانتظارنا من يقودنا حيث كان شكيب الغالي على قلبي ينتظرنا في إحدى المعسكرات الموالية، وأخبرني أن الأمور أخذت منحىً أكثر تعقيدًا مما خُطط لها، فاضطروا لخطط الطوارئ التي أعدها الباشا سلفا، اتفقنا معًا على التنفيذ وتركته ينظم لنا الحماية من خلال المعسكرات الموالية، وإمدادنا بكل ما نحتاجه، ولا أحسده على الكثير من المهمات التي وكِّل بها من قِبل الباشا. انطلقتُ لقيادة القافلة في***

رحلة الهرب والاختباء، وما كنا لنحتاج ذلك لو سارت الأمور كما خُطط لها مُسبقا، بلغتُ القافلة ولم أشغل نفسي كثيرا، فصديقي يعقوب قائد بالفطرة، أدار الأمور وأدهشني بحنكته العسكرية، وحرصه على ترك قافلة صغيرة تسير أمامنا وتكون طعما، كان سعيدًا بهذه المهمة ولكن لم يسره وجود فاطمة لتشاركه ذلك، ولكن مَنْ منَّا سيعترض على غالية الباشا! وحين سألني عن الشيخ طبرق أجبته بأنه أغلى من الغالية فلا تعترض، فضحكنا وعلَّق قائلا: "بعد انتهائنا من هذه المهمة عليَّ أخذه معي إلى خالتك لعل حلمُها يتحقق وتُزوجِني!"

أمَّا فاطمة فقد استقبلتني بابتسامة مصطنعة، ولابد أنها قالت في نفسها: "ألا يكفيني يعقوب لتُحضروا لي جودت"، وما كنا لنسيء لها يوما ونحن نعرف مكانتها عند الباشا، هذه المهووسة بكل ما له علاقة بالآثار، بدأت على الفور تنفيذ خطة الطوارئ التي تقضي دفن أكبر كمية ممكنة مما نحمله، حتى لا تقع تحت أيدي مطاردينا لو تمكنوا من الوصول إلينا، لم تفوت فرصة إلا وذهبت مع خدمها وواحد من الأمهقين لدفن ما تحمله معها من كنوز، وأنا على يقين أنها كانت تتألم بشدة مع كل قطعة تدفنها، ويعقوب كان مضطرًا لمرافقتها كل مرة ليرسم خرائط المكان، للاستدلال علي مواقع الدفن لاحقا، سارت الأمور كما خطط لها وأرسل لنا شكيب كل ما نحتاجه من مؤن.

ولكن الأمور انقلبت رأسًا على عقب صبيحة الثلاثاء، حيث تعرضت "القافلة الطعم" لهجوم قطاع طرق ما كنا نتوقعه، وتم التعامل معه بسرعة من قبل رجالنا، وانطلقت برفقة الشيخ لتقييم الموقف، ورسم خطط جديدة، فاستقبلنا من كُلفوا بحمايتنا بالرصاص، هزأ الموت منا ومر، وترك رائحته تفوح في أرجاء المكان، كان لابد من دفن هؤلاء الذين كانوا طعما، وحين تم ذلك بطريقة غير لائقة التزمتُ أوامر الباشا بألا أعترض، ولكن حين همس المشعوذ بأذني بضرورة التخلص من الجرحى كي لا يعيقوا طريقنا، كان لابد أن أعترض، وهنا رأيت في عيني يعقوب بريقا شاذا يشابه ما في عيني طبرق، واسترضاء لي أمر رجاله بأخذ الجرحى إلى شكيب، وأتمنى ألا يكون قد همس لهم بغير ذلك.

بعد هذا الهجوم غير المتوقع أدركنا أننا لن نصمد أمام هجوم منظم من قِبل فرق الجيش، التي لا نشك في قدومها على أثرنا، فقررنا الانفصال إلى فريقين، وأسرعنا بإخفاء ما نحمله، فودعت يعقوب وفاطمة، وانطلقنا كلٌّ في طريقه، على أن نجتمع لاحقا في المكان الذي يحدده شكيب فيما بعد".

لم أشعر كيف غفت عيناي واستيقظت وقت قدوم الكعب ونيروز تجاهي، جلستْ بجانبي وسألني الكعب:

- هل كل شيء سار كما يجب؟

وقصد أن يسألني إن أخبرت جودت عن المكان الوهمي للذهب وأجبته:

- كما أردت يا سيدي...

فاجأتني وأخذت تمسد على شعري وتسأل:

- ما بك يا عزيز؟ لِمَ تبدو شاحبًا؟ أين اختفى مرحُك؟!

لمساتها أصابتني بالقشعريرة الممزوجة بالخوف من نظراتِ اللعين، ومراقبتة ما تفعله فتاته، فقال:

- اهتمي به يا نارة فرحلة الأمس أرهقته.

تركنا وانصرف وشعرت بأنه طلب ذلك منها لغاية في نفسه، وأكاد أجزم بأنها ليست من النوع القادر على الكذب والخداع لتشارك في مؤامرة، عيناها تخلوان من أي شر، وعلاقة هذه البراءة بذاك السعدان تثير جنوني، وما كنت لأجرؤ على سؤالها سابقا عن سر علاقتها به، فكيف أسألها الآن بعد أن اغتسل بدم البشر أمامي للمرة الثانية!

ألحَّت أن تعرف سر الانطواء والحزن الذي ظهر جليا، فالتصقت بي لتخفف من حزني، وكأنها تحضن طفلا صغيرا، ولم أفلح في الهرب، فاقتربت أكثر وأكثر...تنقل إليّ حرارة جسدها، والإثارة أخذت تلهب جسدي، وتكاد تفضحني، لا أشك ببراءة ما تقوم به، ولكن ماذا أفعل! لم تقترب مني امرأة هكذا من قبل، وعلاقاتي بالنساء لا تتعدى أحلام اليقظة، وما كان لكَتِفي أن

يشبع نهمه من ملامسة نهديها بعفوية، وينقل ذلك الشعور الرائع لبقية أعضاء جسدي لتنتفض وتنتصب معًا، انتفاضة جسدي رافقها خوف شديد، خوفٌ من أن يُجن جنون الكعب، فيقترب وينحر عنقي، وما الذي سيمنعه من فعل ذلك! وهو القائل عند ذبح خلدون: أيها الكلب، كل قطرة ستهدرها سأستوفيها منك؛ وأمام إلحاحها ولذتي من ملامسة ركبتها لفخذي، ونهديها لكتفي، وأصابعها لشعري، لم أجد غير الهراء حِجةً، فقلت لها:

– أشعر بأن الجان قد مسَّني.

فقالت:

– ارفع رأسك حبيبي عزيز وانظر إليّ...

قتلتني بلفظها حبيبي، فرفعت رأسي ونظرت إليها من طرف كتفي، فرأيت الحنان ممزوجا بالشفقة يفيضان من عينيها، ثم قالت:

– عزيز...عزيز لا تخف.

انظر وتقول عيناي:

– (يا عيون عزيز).

وتابعتْ:

– لا تخف! سأطلب من طبرق أن يطرد الجان الذي سكنك.

تركتني وانصرفت، وكل اللعنة على الجان الذي أبعدها عني، فلاحقها خيالي ليعبث بجسدها بلا حذر، وما لبثت تغيب عن ناظري حتى عادت تجر المسخ خلفها، ما يرتديه وطريقة سيره خلفها لا تدل على الرضا بالمجيء، اقترب مني على عجل، وكأن هناك عمل عليه إنجازه بسرعة ليعود إلى نومه، أمسك بيدي وأخذ يضغط عليها ويتمتم بالهراء:

– اخرج يا جان، اخرج وابتعد عن عزيز بأمر الملك طبرق، وإلا سيتم سجنك وحرقك، اخرج، اخرج الآن.

استمر بالتمتمة بكلمات غير مفهومة لا معنى لها، وأقسم أنه اختلقها في حينها، ولن يتمكن من تكرارها لو طلب منه ذلك، وردد على مسامعي كلمات إيحائية أشبه بالتنويم المغناطيسي، ومنها:

– ستشعر أن الجان الذي سكن جسدك وأثقله قد غادرك، ستبدأ الإحساس بالراحة والنشاط...

بعد انتهاء هراءه غادرنا وانصرف، والفرحة ترقص في عيني نعناعتي لعلاجي على يد طبرق، وها أنا أكتشف بأنها على قناعة بأنه أحد ملوك الهراء، وربما هذا سيكون لي مفتاح اللغز لطبيعة العلاقة الشاذة بينهما، فسألتني وعلى شفتيها ارتسمت ابتسامة بريئة بلهاء:

– هل خرج الجان؟ هل خرج يا عزيز؟

وماذا كنت لأجيبها سوى بـ:

– نعم، لقد خرج الجان يا نيروز خرج.

حقيقةً كل ما فعله هذا المسخ بالنسبة لي، لم يثر بداخلي سوى التقزز، ولولا خنجره الملعون ناحر الأعناق لفضحتُه وسخرت منه علنًا، ومع هذا أسعدني أنه ذهب وتركها برفقتي، وسيسعدني أكثر إن التصقت بي مرة أخرى، ولكن خاب أملي حين وقفت على قدميها مرددةً:

– الحمد لله، الحمد لله، خرج الجان وأنت بخير وأمان.

استدارت وانصرفت الأخرى، ولوهلة كدت أنادي عليها:

– عودي يا نعناعتي والتصقي بي، لقد عاد الجان وسكن أذني.

لم أفعل، ولكني اكتشفت أن الشهوة أقوى من الخوف، وجسد نعناعتي نجح في إبعاد كل الافكار التي التصقت بي، فعاد لي الكثير من الحماس، وتجاهلت عيني خلدون المحدقة بي داخل رأسي، واستجمعت شتات نفسي، ثم أخذت استعرض كل الأحداث الماضية لإعادة تعديل خطتي المستقبلية.

في هذه القافلة الملعونة يجب تحديد مكانة كل فرد وحجمه فيها؛ جودت أفندي المسؤول الأول، فهو مَن يحدد كمية الذهب التي يجب دفنها، ونقش الرموز، وإعداد الخرائط لكل موقع. حاليا أنا على يقين مطلق بألا علاقة تربطه بالعسكر، وإنما على صلة قرابة ودم بالأشخاص المنفذين الذين يقفون خلف كل هذا الذهب، ولابد أن يكون على قدر كبير من الثقة بالنسبة له أو لهم؛ ليُؤتَمن على مثل هذه المهمة.

أما الشيخ طبرق، فهو إفريقي يتحدث التركية والأمازيغية، ومهمته تحديد المواقع المناسبة لإخفاء الذهب، وهراء الجان والرصد يدل على أن أصحاب الذهب يؤمنون بقوة الشعوذة، ومن المؤكد أن الكعب يحظى بثقة عالية، ومثل هذه الثقة لا تكتسب بين يوم وليلة...أذكر أن روهان بيك كرر في أكثر من مناسبة: إن كل طربوش في الدولة يجر خلفه مشعوذًا ليحميه من السحر والحسد، وحينما يبلغ عدد علمائنا عُشر عدد مشعوذينا لن نحتاج إلى إمبراطورية من ورق.

جودت يسرق من الذهب لنفسه؛ فلا تفسير آخر لدفن الجرار في خيمته سرًا، والكعب يسرق أيضا، فقد سرق جرة كبيرة من الذهب على حين غفلة من جودت الذي لا يؤمن كثيرا بشعوذات طبرق، ويبدو أنه مجبر على التعامل معه بناء على طلب مسؤول أعلى شأنا، وما قام به الاثنان يدل على انعدام الثقة بينهما.

نيروز عشيقة طبرق، ولا أشك في أنه يعشقها بجنون، وقد فرض وجودها على الجميع، وبساطتها تدل على نفي أية علاقة تربطها بما يدور من مؤامرات، ومن الواضح أنه استغل سذاجتها وسيطر عليها بطريقة ما، وربطها به بسلسلة من الأوهام، حبها له يفتقد العقل والمنطق، ولا يمكن تفسيره، هي صغيرة تضج بالأنوثة، وهو مزيج من القرف والبشاعة، وخنزير سيأنف ويترفع عن إقامة علاقة معه...أمَّا بيبرس خادم الكعب، فلا يبدو أن هناك ما يميزه سوى علاقته بالمسخ، وسيبقى عائقا أمامي إن لم أجد طريقة للتخلص منه.

بقية الأشخاص ليس فيهم من يستحق أن أشغل تفكيري به، ويجمعنا مصير واحد، وبخاصة أن أغلبهم عرف بعض أمكنة الدفن، وما حدث لرشيد وخلدون دون أي اعتراض من جودت يؤكد أننا جميعًا في طريقنا للذبح...ولكن هل سيسمح جودت لنيروز أن تغادر مع الأسرار؟! وهل سيسمح الكعب حين تنتهي المهمة أن تُذبح عشيقته؟! وهل من المنطق أن يغادر

طبرق وبجعبته كل هذه الأسرار أم أنهم بحاجة لهرائه عند إخراج الذهب؟! أعتقد أنهم سيكتفون بالخرائط التي رسمها جودت، ويتدبرون مشعوذًا آخر عند الحاجة، فنظراتُ الاحتقار التي كانت تظهر في عيني جودت تجاهه بين الحين والآخر لا تشير إلى رغبته في ترك هذه الأسرار بين يديه، وهل الكعب أحمق حتى لا يدرك ما سيحدث؟! وهل حرصه على دفن جرة كبيرة في مكان لا يعلمه إلا أنا وهو يدل على أنه فكر بهذا جيدا؟!

إن الوحيد الذي لن يُقتل هو جودت؛ إنه ذو الثقة المُكلف الأول بالمهمة، والفرق الخاصة لا تأتمر إلا بأمره، كما أن كاظم الدليل ورفيقه المسلح، لم يقتربا من مواقع الدفن.

إذًا الذبح سيتم تدريجيا بِناءً على كمية الذهب المتبقية، والحاجة للحفر والدفن، أنا أمين سر جودت أفندي وخادمه، هو بحاجه لي في هذه المرحلة، ولكنه سيحرص أن يتم ذبحي للحفاظ على سر سرقته، والكعب لن يتعجل على ذبحي حاليا، وبإمكانه استخدامي لخدمة أهدافه، وسيحرص على ذلك في الوقت المناسب؛ لأني الوحيد الذي يعرف مكان جرته، ويبدو لي أن القاسم المشترك بين الجميع هو التأكد من ذبحي...

نيروز ستكون الأوفر حظًا؛ ستكون الأخير في قائمة الذبح، ولن يتم ذلك إلا بعد الخلاص من عشيقها، وهدفي اليوم أن يكون ترتيبي في الذبح بعدهما، وإن بلغته فإني أمتلك الكثير من الوقت، ونجاحي سيعتمد على الكعب وليس جودت، لأنه سيحتاج أن يحيط به أشخاص لا يخشاهم حتى النهاية...أفكر كثيرًا في النجاة كما أفكر في الذهب، ويراودني شبح الموت فأكاد أجزم بأن الهرب مستحيل في هذه الرحلة، فلا أحد يعرف أين اختفى الغربان السود، تنشق الأرض عنهم عند الحاجة كما حدث عند مهاجمة العرب للقافلة، ولابد أنهم قد شكلوا طوقا من بعيد حول قافلة الموت ولن ينجو منه أحد.

مع غروب الشمس انطلقتُ في حيوية ونشاط، وأتممت كل المهام الموكلة إليّ، ولم يسألني سوى سالم الساذج عن خلدون، أما البقية فيبدو أنهم فضلوا الصمت، وربما اعتقدوا أن شجاره مع خادم الكعب هو السبب وراء اختفائه.

انقضى الثلاثاء اللعين وانطلقنا نشق طريق الموت والذهب، حفرنا ودفنا في الكثير من المواقع، وعند شروق الشمس وصلنا مكانا صالحا للاختباء، الطحين الذي أحضره الكعب لم ينفد، ولكن ذبح خلدون حرمنا من الخبز الطازج اللذيذ، فهو خير مَنْ عجن وخبز، وسلامة يبرع في ذلك أيضًا، ولكنه ما عاد مثل سابق عهده، فمنذ قصة الضبع وهو يتظاهر بالمرض، ولم يفعل شيئًا، حتى أنه أهمل الاعتناء بطبيلة، وبدا كأنه أصيب بهوس غريب، وكان يمضي كل الوقت بمراقبة ساقه، وكأنها ستتركه وتهرب، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل أخذ يعامل الجميع بعدائية.

لم يتبقَ غير سالم الأهبل ليقوم بمهمة العجن والخبز، والنتيجة أننا جميعا هجرنا الخبز إلا عبد القادر، فيبدو أنه استفاد من هذا الخبز المقرمش المحروق لإعداد وجبة لذيذة بعد إضافة الحليب الذي لا يعرف سره أحد.

في الأراضي الجرداء القاحلة وإن صحَّ تخميني، بِناء على ما وصل إلى مسامعي من حديث الدليل مع جودت، نكون الآن شرق مدينة بيت لحم، بساعات الظهيرة هذا اليوم لم يصلحْ الخبز الذي أعدَّه سالم للأكل فاكتفينا بالفتات، وابتهجنا للإفطار الثاني غير المتوقع، جمل قرر أن يغادر الحياة فجأة، فعجَّل خادم الكعب بذبحه، وبالرغم من أننا جميعا كنا على ثقة بأنه ذبحه ميتا، إلا أننا كنا سعداء، وكالمعتاد استحوذ الكعب على الكبد، وأعد إفطاره بنفسه، وما كان ليهمنا الأمر كثيرا، وانطلقنا للشواء، والوحيدان اللذان لم يأكلا من هذا الجمل كان جودت أفندي وعبد القادر.

لم نشعل نارا واحدة، بل كل منا أشعل ناره الخاصة وخدم نفسه، حتى الدليل ومرافقه انضمَّا إلينا بعد ساعة، وغرقا في اللحم بعد اجتماع سريع مع جودت، ومن بعيد أطل خيال مسرعا إلينا، فاعتقدت أن النار ورائحة الشواء هي ما جذبته، ولكن حين اقترب منَّا توقف وانتظر إشارة من جودت ليسمح له بالاقتراب أكثر، كان واضحا أنه متفاجئ لهذه الزيارة غير المتوقعة؛ فأغلب زيارات الفرق الخاصة تكون ليلاً عبر إشارة ضوئية، وندر حدوث ذلك، اقترب الخيال وتحدثا معا وأشار جودت إلى الكعب والدليل، فاقتربا ليستمعا لحديث الخيال، وكان جليا أن حالة من الارتباك قد أصابتهم، فاعتقدت أننا ربما نتعرض لهجوم قطاع الطرق.

عاد الخيال أدراجه ولم يمضِ الكثير من الوقت حتى أطل علينا قطيع كبير من الأغنام، يتجاوز عددها المئتين، يقودها راعٍ وثلاثة أولاد، اقتربوا منا وأغنامهم جالت بيننا دون كلفة، كنا نتجنب الاقتراب من آبار الماء إن حط الرعاة بجوارها، والكثير من الأسئلة تلف هذا الحدث، فكيف استطاع هذا الراعي مباغتتهم! وهل يعقل عدم رصد قطيع بهذا الحجم؟! وإن وصل عبر إحدى الطرق الجانبية، فهذا يشير إلى وجود ثغرات يمكن اختراقها، وقد يستغلها قطاع الطرق لمهاجمتنا!

وقفنا جميعا نترقب مرور الراعي وقطيعه، ولم يتوقف عن تفحصنا جميعا، وأخذ يسأل كل من يقترب منه عمَّن نكون، وماذا نفعل هنا، هذا الراعي الفضولي لا يعلم أن عيون الموت تحدق به لولا أن أغنامه حالت دون ذبحه؛ فلا أحد يرغب في إحداث الفوضى حتى لا يهبّ سكانُ المنطقة للبحث عن راعٍ فُقدت آثاره.

الكعب ذهب إليه ليطرده وأغنامه من بيننا، إلا أنه جلس على الأرض متربعا، ونظراته الجريئة التي رمى بها الجميع قالت: "أنتم الغرباء وهذه المنطقة لي ولأغنامي"، وأخرج من جيبه علبة تبغ وجهز سيجارةً وأشعلها، وانبعثت منها رائحة كريهة، وهنا تدخل كاظم الدليل، وكان أكثر ذكاء وحكمة من الكعب، وطلب منا بلهجة أهل المنطقة:

- (جيبوا الزاد للضيف).

أسرع سالم وجاء بلحم الجمل المشوي على النار، وأخذته من يده وذهبتُ إليهم لاستمع لما سيدور بينهم من حديث، وكان قد فاتني الجزء الأكبر، قضم الراعي قطعة لحم وشعرت بأنه سيبصقها، ولكنه بذل جهدًا حتى بلعها، ولم تقربْ يدُه اللحم مرة أخرى وقال:

- (يِخْلِف عَليكم).

ثم طلب أن نعد له القهوة، وقاحة هذا الراعي أدخلت السرور إلى قلبي؛ فقد تسبب بإغاظة الكعب، الذي أخذ ينظر إلى الأولاد ويعدُّ الأغنام، وأظنه فكر في ذبحهم جميعا اختصارا للوقت، لم تتوقف أسئلة الراعي الفضولية وكان الدليل بارعا في الرد عليه، وشرب الاثنان القهوة

معا وكنت أعتقد أن هذه ستكون نهاية القصة، ولكن الراعي استرخى ولم يتبقَ إلا أن يطلب فرشة ووسادة ليأخذ قيلولته...كدت أضحك، وسرًا قلت له:

- (اهرب أيها الراعي وانفد بجلدك قبل أن تشرب عفاريت الـ "قاقا باقا" من دمك).

تبا لهذا الراعي، لقد التقط اسمي عندما نادني سالم، فوجَّه كلامه لي وقال:

- (وانت يا عزيز من أي عرب؟)

عجزت عن الرد عليه، فجودت والكعب قريبان، وأنا سانتور ولابد أن أجيبه بتلك السانتورية التي اعتدت عليها، فلا يجوز أن أتحلى بالذكاء فجأة، إلا أن الكعب أدرك أني سأفعل ذلك، وليس من المستبعد أن أخبره عن الذهب إن سألني، فقال له:

- (هذا عزيز من عرب الحويطات بالأردن).

وما قاله شجع الراعي على فتح حوار جديد، فقال الراعي:

- (يا أهلا وسهلا، الحويطات أهل ونسب، وشو بتعمل بالوديان يا عزيز؟)

وهنا غمزني جودت بطرف عينه فابتعدت مسرعا، حتى لا أفتح مجالا لأسئلته، ولا أريد أن أثقل ضميري بأن أكون السبب في ذبحه، استطاع الدليل كاظم السيطرة على سير الأحداث، وبدا أن الراعي لن يطيل البقاء، ولكن وقعت المصيبة، حيث خرجت نيروز من الخيمة، وأخذت تتبختر، واقتربت من الأغنام لتلاعبها، وقد انسدل شعرها على ظهرها، وحاول الراعي أن يغض بصره، إلا أنها كانت تسبق بصره وتعترضه أينما أشاح بعينيه لتطارد الخراف، فامتعض جودت كثيرا، وشعرت أنه يرغب في ذبحهبا على الفور، فقد أثارت فضول الراعي أكثر من الجمال والحمير، والخيام والأمهق، فلم يعتد سكان المنطقة على رؤية امرأة لا تخفي شعرها، وتتجول بين الرجال بمثل هذه الحرية، وهنا وقف الدليل ورفع صوته وقال:

- (أعدِّوا الشاي لأخونا).

ثم تركه وانزوى مع الكعب وجودت، فأيقنت أن دماء الراعي ستسيل قريبًا، لم أسمع ما دار بين ثلاثتهم، ولكن كان بإمكاني التنبؤ بأنه لن يُسمح للراعي بالعودة إلى قومه، فما سيحدثهم

عنه سيتسبب في جذب الكثير من الفضوليين للبحث عنا وتعقبنا، ولا أظن أن قافلتنا قادرة على سبق الأخبار إن انتشرت بين الرعاة.

انتهى الاجتماع وتعمد الكعب مجالسة الراعي، ولم يبدُ عليه الضجر، أما الدليل فقد انطلق مع مرافقه، وعاد إلينا بعد ما يقارب النصف ساعة، همس لجودت ثم عاد أدراجه، وعلى أثر ذلك اقترب جودت من الكعب وربت على كتفه، وغادرنا الراعي إلى المجهول وعليه السلام... تحركت القافلة قبيل غروب الشمس، وبعد مسافة تتجاوز الألفي متر، كان على جانب الطريق عدة نعاج مذبوحة، وآثار دماء تشير إلى اتجاه عكس ما نذهب إليه، كان واضحا أنها تُركت عمدا، ليتم تتبعها من قبل من سيهب للبحث عن الراعي، وبعد ربط الأحداث وتحليلها استنتجتُ أن الدليل قد ذهب في المرة الأولى ورتب الأمر مع من يتواجد من الغربان السود، ثم عاد وأخبر جودت بانتهاء الأمر، وبعدها انطلق الراعي وتم اختطافه مع قطيعه باتجاه معاكس لسير القافلة، وتم ترك آثار مضللة للباحثين عنه لاحقا، ولا بد أنهم سيصلون بعد يوم أو أكثر إلى أغنامهم وجثث أبنائهم، وسيعتقدونه من فعل اللصوص، وتتجه أنظارهم حيث أراد الدليل كاظم. هذا ما كنت سأفعله أنا، وفي أحسن الأحوال سيتم ترك الراعي حيا بعد ابتعادنا لمسافة يصعب بها تتبعنا، ولكن ما كان لمثل هؤلاء القتلة تركه يعود حيا.

شققنا طريقنا تجاه الشرق، وكانت الطرق التي تُجنبنا الاقتراب من الناس وعرة جدا، ويعدُّ السير فيها نوعًا من الجنون، ولانعدام الطرق كان لابد أن تسير القافلة عبر الأراضي المنبسطة، وكل نار نشاهدها من بعيد كانت تدل على وجود عرب، فلم نعد نسير وفق الإشارات التي يتركها الدليل، فهذه المرة سار بنفسه في مقدمة القافلة.

انشغلنا بالابتعاد عن السكان، فاحتار الدليل في أمره، وكأنهم احتلوا كل الطرق، ولخطورة مرور هذه القافلة الليلية وسطهم اضطررنا إلى العودة للخلف، والبحث عن طرق بديلة، سبقنا الدليل واستدارات القافلة وعدنا لاتباع الإشارات التي تركها لنا، وهنا كانت مجموعة من الحجارة مصفوفة على شكل سهم تشير إلى الأمام، والسهم يقودنا عبر طريق ضيقة تنحدر بنا نحو واد...نرى بأعيننا طريقا أكثر انبساطًا إلى اليمين، تم شقها في باطن الجبل، وهنا وقعت البلبلة بين السهم وما تراه العين.

كان جودت حكيما وأرسل الكعب لتفحص الطريق إن كانت تسمح لعبور الدواب، وبعد عودته والكثير من المشاورات والإشارت بالأيدي نحو الشرق، تم اتخاذ القرار، وقادنا الكعب نحوها، كانت الطريق واسعة وسهلة وعلى يسارنا وادٍ سحيق واسع، سرنا ما يقارب الساعة، ثم بدأت الطريق تضيق تدريجيا، وتزداد صعودًا، والوادي يضيق ويزداد عمقا، وانقطع الطريق بفعل عوامل الطبيعة ليترك لنا خيارين، إما السير تجاه الأعلى، وهذا الخيار كان ليكون مقبولا لو كنا نملك أجنحة نطير بها، والخيار الثاني هو العودة للخلف، ولن يكون ذلك سهلا لأننا وقعنا في مصيدة الطريق الضيقة، والدواب بحاجة لبعض المساحة لتتمكن من الاستدارة.

لم يخطر ببالي أن هناك خيارا ثالثا إلا بعد أن نبح الكعب، وطلب منا جلب المجارف والفؤوس لشق طريق خاصة بنا، كان قرارا جريئا لا يخلو من الجنون، ولكنه وقتها كان الحل الأمثل.

بدأنا العمل بجد لوصل الطريق المقطوعة، وحمدنا الله لوجود طبيلة الذي عوضنا عن غياب صاحبه سلامة المتمارض، وأنجزنا عملنا سريعًا وتمكننا من مواصلة السير...تضيق الطريق وتتسع، ويزداد الوادي ضيقا وعمقا، وخطوة واحدة في المكان الخطأ ستردي إلى الأسفل، وهنا وقع ما لا يمكن لعقل تفسيره.

وقف أحد البغال محملا بصندوق وأعلن تمرده، وأعاق مرور النصف الثاني للقافلة، ولم تفلح محاولات الجميع في إقناعه بمواصلة السير، وللمرة الأولى يتحدث عبد القادر ويبدي رأيا، فاقترح أن ننقل ما يحمله إلى دابة أخرى. ولكن وسط الضجيج لم يسمعه أحد، وغضب الكعب وتجاوز الجميع ووصل إلى المتمرد وخلفه سار خادمه بيبرس، وأخذ يشتم ويصرخ بأعلى صوته لعجزنا عن إقناع البغل أو إجباره على التحرك، وأثبت المسخ أنه أكثر البغال بغولةً، فشده وسحبه، ونجح في إنهاء تمرده بالقوة، وما هي إلا ثوانٍ حتى انتفض البغل لكبريائه وأسقط الصندوق عن ظهره وألقى بنفسه من فوق الجرف، انتحر بكل ما تحمله الكلمة من معنى، كان مدركا لما يقوم به، لم يتعثر، فقط قرر إنهاء حياته.

لم يقصدْ أن يأخذ الكعب معه إلى الوادي، ولكنه حين انتفاض البغل تعثَّر الكعب وسقط وراءه، وخادمه الأمين أمسك بعباءته ولكنه لم يحافظ على توازنه فسقط وراء سيده، وتعثَّر جملٌ

قريبٌ من البغل وسقط أيضًا، وكاد سلامة يسقط مع الحمار الذي أمضى أغلب وقته نائمًا عليه، لولا ستر الله وطبيلة الذي أعاد توازن الحمار في اللحظة الفاصلة.

كل هذا حدث في أجزاء من الثانية، وبجهد جهيد سيطر الجميع على الدواب، وكأنها دعوة انتحار جماعية في ضوء القمر الذي قارب أن يكون بدرًا، مرت ثواني ثلاث، ولم يمنع الضجيج سماعنا صوت ارتطام البغل بالوادي...حزنت علي البغل، وسُعدت بالخلاص من الكعب وخادمه بيبرس، وأخذ سالم يردد:

- (دَّبْ الشيخ، دَّبْ الشيخ).

أطربني ما قال، ولكن ما إن صحونا من الصدمة ونظرنا إلى الأسفل حتى كانت الفاجعة الكبرى في انتظاري، على بعد أمتار أسفل الطريق، الكعب اللعين تعلق بصخرة وأركز جسده على أخرى، ولا يبدو أنه قد أُصيب بسوء، وبيبرس اللعين أسفله مستلقٍ على بعض الصخور، ولا يبدو أنه بخير، ودعوت الله أن يكون ميتا عقابا له على شدِّ عباءة الكعب وإنقاذ حياته، وحينما حرك رأسه علمتُ أن الحظ لم يصبني هذه الليلة.

أسعدني أن الصخور منعتْ سقوطَ الجمل، والمصيبةُ الكبرى التي أصابتْ جودت أفندي -أعانه الله على حملها- هي انكشاف أمر الذهب للجميع؛ فقد جلس على الأرض متكدر الحال، وهو ينظر إلى مئات آلاف القطع الذهبية التي انتشرت على مد البصر، وعلق جزء كبير منها بين الصخور، والجزء الأكبر شق طريقه إلى الوادي المظلم العميق إلا أننا نرى بريق الذهب فيه.

نيروز كانت آخر من استوعب ما حدث، وحين وصل إلى مسامعها أن طبرق سقط في الوادي أخذتْ تنوحُ بِأعلى صوتها:

- طبرق، طبرق، لا تتركني يا حبيبي، لا تتركني يا سمو الأمير.

استوقفني قولها: "يا سمو الأمير" وما كنتُ لأمر عليه مِرور الكرام، انتشلنا المسخ سليمًا معافى، وعادت الحياة إلى الحسناء، ثم انتشلنا خادمه، وكانت بهجتي لأنه لم يكن سليما

معافى؛ فقد انكسرت ساقه...ولا بأس في أن يدرك المرء جزءًا ممَّا يتمنى، وهذا سيكون كافيًا ليعجز عن مراقبة نعناعتي، وسأتمكن من الاقتراب منها.

لم يشغل بال أحد كيف يمكن أن ننقذ الجمل المسكين العالق بين الحياة والموت، من المُحال رفعه ولو اجتمعنا جميعًا على قلب رجل واحد، وأي خطوة ستأخذه إلى الوادي، لم يكن أمامنا إلا ذبحه والاستمتاع بلحمه في هذا اليوم، ولكن من سيخاطر بحياته! تمنيتُ أن يبتسم لي الحظ ويفعلها الكعب ويكون فيها هلاكه، ولكنه لم يفعل.

عاد الهدوء وسقنا الدواب لمسافة ثلاثمائة مترًا، وزاد الطريق اتساعًا، وبقي معها عبد القادر وخادم الكعب المكسور وسلامة وطبيلة، وعاد البقية لتبدأ لعبة صيد الذهب العالق بين الحجارة والصخور بتوجيهات جودت والكعب، وبمساعدة الحبال جمعنا جزءًا من الذهب، أما الأماكن التي استحال وصولنا إليها قمنا برمي الحجارة تجاهها لتسقط في الوادي السحيق، وحين أدرك جودت أن الوقت الذي نهدره بتَصيُّد قطع الذهب أثمن منه، طلب منا سرعة الخروج من الطريق والعودة إلى الوادي، لجمع الكم الأكبر من الذهب، وتركنا الجمل المسكين عالقًا بين السماء والارض ولا أدري إن كان مدركًا أنه يشرف على الموت.

أخذت منا الطريق ما يزيد عن الساعة وأبعدتنا عن الوادي كثيرا، فاحتجنا لنصف ساعة أخرى لنصله، وتبين أنه سيل أحدثته مياه الأمطار بين الجبال، وكان فيه أثر ماء لا أدري منبعه في مثل هذا الصيف، وانطلقنا في سباق لجمع الذهب الذي انتشر لآلاف الأمتار.

أشرقت الشمس من السماء والأرض، وسرق بريق الذهب العقول، وجُنَّ جنون القوم، وكان من الغباء الشديد الاعتقاد بأنهم سيتمكنون من سرقة قطعة واحدة وينجون بحياتهم، ومع ذلك فعلوا.

تحيط بالسيل صخور متعددة الألوان؛ الأسود والبني والأبيض، وترتفع لمئات الأمتار من الجانبين، وخيوط الشمس الذهبية أصابت كل قطعة من الذهب، ومَنْ كان قادرًا على مقاومة هذا السحر! حتى طبيلة سحره المنظر وبدأ يقلد جنون القوم، ويبدو أنه قد فهم أننا نجمع الذهب لأنفسنا، ولأن صاحبه سلامة مريض ولم يشاركنا، اعتقد أن من واجبه أن يجمع لصاحبه القليل

من هذا المعدن اللامع، وكلما امتلأت كفه بالقطع ينظر إليها ثم يلقيها على الأرض، ويذهب ليطارد قطعا أكثر لمعانا، لم ير المسكين في الذهب إلا بريقا فقط، ولم يدرك أن كفه العملاق يحجب الشمس عنها، فيبهت لونها، مما كان يدفعه لاستبدالها في كل مرة بقطع أكثر لمعانا.

امتلأت الجيوب سذاجةً وذهبًا، وبعضُه تم إخفاؤه تحت الحجارة أملاً في العودة لاستخراجه، كنت أراقب كل ما يدور حولي، وجودت لم يغفل عن ذلك بالرغم من عجزه عن مراقبة كل هذه المساحة الشاسعة، وتلاشى بريق الذهب بعد جمع الجزء الأكبر منه، ولم يملأ نصف صندوق، أما الباقي فقد اختفى بين الأتربة والصخور.

اكتفى جودت بما تم جمعه ولم يخاطر بانكشاف أمرنا من أجل البحث عن عشرات آلاف القطع المتبقية، تحركنا بسرعة وقاربت الساعة على التاسعة، فهرولنا وركضنا لنبتعد عن السيل، ولا أثر لكاظم ليقودنا أو يدلنا على الطريق، فقد فقدنا أثره منذ الأمس.

بين الجبال والتلال وصلنا الى مكان ملعون، ولكنه فسيح ومثالي للاختباء ريثما يعود الليل لسترنا، لا ينمو فيه شيء، أرض جرداء، جبالها وتلالها ماتت منذ زمن، وتحلق فوقها الغربان، ملآنة بالصوان، والحجار الكِلْسية والسوداء، وكأن شهب السماء قد غزتها، مررنا من جانب صخور يفوق وزنها النصف طن مغروسة في الأرض، ولم أشك أنها أجزاء من نيازك سقطت من السماء.

لستُ خبيرَ فلك ولا نجوم وما اكتسبته من معرفة كان من خلال سنواتي برفقة روهان بيك، وما أراه يشير إلى قربنا من البحر الميت، كان الجميع يتضور جوعا وعطشا، والقِرب التي أخفيتها جيدا فيها من الماء ما يكفيني لأسبوع، لقد تعلمت من التجربة الأولى، ومع هذا ما كنت لأهدر قطرة ماء على أحدهم.

واقعة البغل أعيتنا وأهلكت طاقاتنا، ولكن الموقع وقانا حرارة الشمس، وساعدنا على تحمل العطش، لم ننصب الخيام، وأنزلنا حمولة الدواب لترتاح، وتركنا جودت والكعب وذهبا للبحث عن مخرج لهذا المأزق، وتساءلت أين الفرق الخاصة التي تحرسنا خفيةً؟! هل ضلّت

الطريق مثلنا؟ أم أن الكعب اللعين بتجاهله تعليمات الدليل واختياره طريق أخرى قد أوقع فوضى بالخطط المتفق عليها! ولماذا تعمد جودت غض البصر عن الجيوب التي امتلأت بالذهب؟!

طبيلة مازال يحمل ما جمعه من ذهب ولا يخفيه، بل ينقله من يد إلى أخرى ليرى إن كان سيلمع من جديد..بيبرس مستلقٍ على الأرض يتألم بشدة ولا يشعر بما يدور حوله، ولا يبدو أن الطريقة التي قام بها الكعب لتجبير ساقه ستفلح.

نعناعتي الحنونة تجلس بجواره وتحاول التخفيف من آلامه، ولا تدري ماذا يجب أن تفعل، فتارة تضع يدها على رأسه وتارة على ساقه، اللعنة على هذا الخادم الحقير، حتى وهو عاجز نجح في إبعاد نعناعة عني! ذهبت لأطمئن على حاله وقلبي يكاد يتمزق إشفاقا عليه، وعيناي تفيض حزنًا، وإن زدتُ في تقمص هذا الدور الحاني لانهمرت دموعي، وفور رؤيتها لي وضعت السبابة على شفتيها، ففهمت أنها لا تريد إيقاظ الحقير الذي يبدو أنه قد أُغميَ عليه، ولكنها اعتقدته نائمًا...ابتعدنا حتى لا نزعجه، ثم قالت والحزن يعتصرها:

– أرأيت ما حدث لبيبرس؟

بتعاطف شديد:

– سيشفى بإذن الله.

وسرًا أقول: "لا شفاه الله"، ثم قالت وعيناها تترقرقُ لؤلؤًا:

– ساقه مصابة بعدة كسور، هل تستطيع أن تأخذه إلى الطبيب يا عزيز؟

هذه الساذجة تتحدث وكأني من يقرر، وكانت فرصة لاستغلال الحالة النفسية التي فيها ودفعها للثرثرة قليلا، فقلت لها:

– لا تخافي سمو الأمير طبرق قادر على كل شيء، وسيشفيه ويعيده أفضل من السابق.

فقالت:

– يا رب، يا رب، أتمنى أن يعود سمو الأمير بسرعة ليشفيه.

ليس من الحكمة أن أسألها مباشرة عن سبب تسميتها للكعب بالأمير، فقلت لها:

- سيعود جلالة الملك طبرق بإذن الله.

فقالت ببراءة الاطفال:

- لا، هو حاليا أمير، ولكنه سيتوج ملكًا بعد أن يقضي على أعدائه ويستعيد العرش.

أسعدني أنها بدأت تكشف الأسرار، فجاريتها:

- نصر الله الأمير طبرق على أعدائه وعلى أهل مصر.

ويبدو أن الدعوة لم ترق لها فقالت:

- أهل مصر ليسوا أعداءه، إنما الجن الأحمر الأشرار الذين قتلوا والده الملك، إلعنهم هم.

فقلت:

- لعنة الله على الجن الأحمر ورحمة الله على جلالة الملك والد الأمير طبرق.

صمتتْ ولم تنطق، فبادرتُها:

- هل الأمير طبرق من الجان؟

فالتفتت حولها وكأنها تخشى أن يسمعنا أحد، وهمست:

- ولكن لا تخبر أحدا، هو من الجان يختبئ بجسد بشر حتى يستعيد العرش.

وهنا تقريبا استطعت الإمساك بطرف الخيط لهذه العلاقة الشاذة التي تجمعهما، وسألتها:

- ولكن لماذا اختار سمو الأمير هذا الجسد المُسن؟

فالتفتتْ أكثر من مرة، ثم قالت:

- هو أجمل أمراء الجان ولا أحد يستطيع رؤيته غيري واختار هذا الجسد حتى لا يشكَّ فيه أحد...
- وهل رأيتِ هذا الأمير الوسيم ليلاً أم نهارًا؟
- بإمكاني رؤيته متى أريد، وحين يتوَّج لن يتغير شكله، وسيتزوجني وسأصبح ملكة.

هنا شعرت بأنِّي داخل إحدى حكايات ألف ليلة وليلة، فتمالكت نفسي مقاومًا ضحكي، ثم سألتها:

- هل ترينه وعيناك مغلقتان أم مفتوحتان؟
- وهي مغلقة أراه أكثر وضوحًا.

فقلتُ سرًا "وسترينني وسيما طويلا مفتول العضلات إن أغلقت عينيك أيتها البلهاء"، غلبتني الحيرة...كيف يمكنني انتشال هذه الساذجة من الأوهام التي زرعها في رأسها هذا اللعين، ولكني فضلت أن أثير عواطفها، لأكون أكثر إحاطةً بطبيعة علاقتها بهذا المسخ.

الجميع بحاجة للحديث عن قصته، وبخاصة الجانب الدرامي والرومانسي منها، وكل ما أحتاجه هو أن أتفوه بما يلهب مشاعر هذه الصغيرة، فأفتح مخرجًا لأسرار غائرة في سراديب نفسها البريئة، ثم أنصت جيدًا...امتدحتُه بكل الصفات التي تثير عواطفها، وكنت حذرا في كل كلمة قد تتسبب في ذبحي لاحقا، وكلما انتابها الصمت عاودت أنصب شَرَكًا حقيرًا من جديد...رَوَت قصتها مع كعب الحذاء منذ كان عمرها أربعة عشر عاما...وليتني لم أفعل! لعنت نفسي ألف مرة، فما كنت بحاجة لأسمع قصتها المأساوية، وتجمدت الكلمات في حلقي ولم أجد سوى الصمت.

عاد الكعب وجودت، ولا يبدو على مُحَيَّاهم السرور، قضينا بقية النهار بلا ماء ولا طعام، وتحركنا عند الغروب، وكان واضحا أننا نسير بلا طريق، تأخذنا أقدامنا صعودا من الشرق إلى الغرب، عكس ما فعلناه بالأمس، ولا منطق في هذا الأمر، ولم يمضِ الكثير من الوقت حتى أدركت أنهم بحاجة لمرتفع يمكننا من تحديد وجهتنا، وربما لنسهل على الدليل التائه العثور علينا.

احتاج بلوغ القافلة لمرتفع أكثر من ثلاث ساعات، بينما يحتاج الفرد الواحد أقل من ساعة سائرًا على قدميه...أهدرنا الكثير من الوقت وأضنانا التعب في بحثنا عن طريق تفضي بنا إلى مرتفع، وحينما تمكنا من ذلك باغتتنا الشمس...كان إشراقها ساحرا، إنها تسكن وتنام وتصحو خلف تلك الجبال القاحلة.

وحدنا في العراء بلا مخبأ يسترنا، وبلا ظل يقينا حرارة الشمس التي ستتفنن في حرق الأمهق بعد ساعات، ثم تحرقنا بعده...اختفت علامات الدليل، ولم يكن أمام جودت سوى خيارين؛ الأول هو نصب الخيام في هذا المكان المكشوف على مرأى من الجميع، والثاني أن ننزلق الى أحد الوديان...لم نتحرك من مكاننا آملين عودة الدليل، ومازالت الشمس باردة ولكنها بدأت بإزعاج أعيننا إذا استقبلت الشرق، جفَّت الحلوق وأصابتها غُصَّةٌ، ولم يكن جودت والكعب أفضل حالا منا، بعدما تيبست قِربهم، فأخذ الكعب يصرخ:

– أين هم؟ أين هو ذاك الحقير؟ لقد تركنا له ألف علامة ليجدنا؟

أحدثه سرًا:

– أين خُدَّامك من الجن يا (ولد السقيطة!) وأين نفوذك يا أمير الهراء! ولماذا لا ترقص رقصة الـ "القاقا باقا" لينفجر ينبوع ماء تحت قدميك فيشهد لك الجميع جودت يتأمل خارطة يحملها، لعلها تساعده في الاهتداء لطريق، والكعب يختطفها في وقاحة، ثم ينظر فيها صارخًا:

– أين جدول الماء؟

تساءلت أنا "أين الفرق الخاصة التي تحرسنا؟!" في مثل هذا الظرف لو كان رشيد وخلدون أحياء، وسلامة بصحة جيدة، لتمكنا من السيطرة على القافلة وسرقتها بالكامل، بيبرس اللعين أرهقنا بحمله، وصديقه الوفي سعدون ابتعد عنه، ولم يكترث لأمره سوى نعناعتي، وبسببها أكترث أنا أيضا، أما سلامة الذي اشتد به المرض فقد كان محبوبا من قبل الجميع، ولم يبخلوا عليه بالعناية، حتى أن عبد القادر دأب على سقيه من الحليب العجيب...لم يتوقف بحثي عن الناقة الحلوب...قد يطول بحثي، ولكني سأجدها.

طبيلة كان سعيدا حين اكتشف أن الشمس تشرق من بين كفيه، ولم يتوقف عن اللعب، وقد حارتْ قطع الذهب بين يديه على مرأى من الجميع، وجودت ينظر ويبتسم، فاطمأن البقية آملين ألا يكترث أحد بما سرقوه، وهنا تيقنت أن موقفه أضعف من أن يتخذ قرارًا بشأن هؤلاء اللصوص؛ سارقي ذهبه، بل ذهبي المستقبلي.

بقدر ما تكون النُّدرة بقدر تكون الأهمية، وهنا لم يكن الذهب نادرًا، بل أصبح في متناول الجميع، ولم يندر سوى الماء...قطرة ماء تساوي الحياة، والحياة أغلى من كنوز الأرض جميعها؛ يتكرر الأمر ثانيةً في هذه الرحلة الملعونة، وتتكرر محاولاتي في توطيد علاقتي بجودت...أخرجت قربة ماء ووعاء وأخفيتهما بين ملابسي...أترقب عيني جودت التائهتين حتى صادفاني، فأسرعت بجر نجمة وابتعدت بها عن الجميع لمسافة تثير الشبهات، فلحق بي مذعورا، وأمسك بكتفي حتى آلمني، وقال:

- إلى أين تعتقد أنك ذاهب أيها الأحمق؟!

تبرمت وطاوعتني عيناي فترقرقت بالدموع، وأخرجت القِربة والوعاء، وقلت له:

- نجمة تكاد تموت عطشًا وأخذتها لأسقيها الماء.

رمقني بنظرة شك، وقال:

- ولماذا لم تفعل هذا حيث كانت؟ ومن أين جئت بالماء؟
- أصبتُ الهدف وقلت:
- لا أحب أن تشرب نجمة من ماء الدواب، حتى لا تمرض، ولهذا أحمل معي دوما قربة ماء نظيف من أجلها، فرأيت أن أسقيها بعيدًا عن أعين الظامئين، ولو رأى الشيخ طبرق الماء لضربني وشربه وتركها تموت عطشا.

ضحك جودت وحضنني للمرة الأولى، والتفت نحو القوم، ثم وقال:

- هل هذه المياه نظيفة؟
- طبعا هي نظيفة جدا، فأنا لا أسقيها إلا من المياه التي أشرب منها.

شرب حتى ارتوى، وكان حريصا ألا يراه أحد، وشعرت أنه يرغب في حملي على أكتافه، أما الفرس فلم تشرب من الماء الكثير، لأني تركتها تشرب مع الدواب من ماء السيل المتجمع.

لم يطل انتظارنا حتى أطل كاظم ومرافقه وثلاثة من غربان الفرق الخاصة، وعادت الحياة الى جودت، وصرخ الكعب:

- (سويه فرف) أعطني ماء.

اشتد الجدل بين الرؤوس الثلاثة على مسامعنا، وتبين أن كاظم محترف ومدرك لكل خطوة يخطوها، ولو لم نخالف إشاراته لما تكبدنا كل هذا العناء، والخطأ يقع على عاتق مَنْ اختار الطريق الأسهل وتسبب في هذه الفوضى.

بعدما هدأت العاصفة، وتحولت العقول إلى التفكير نحو إعادة التنظيم من البداية، ولم يكن الدليل يمتلك مُخططًا، ولكنه ارتجل لتعديل سير القافلة محاولاً إخفاءها عن عيون البشر...سرنا نهارا، وحُرِّمت الراحة علينا، ومنعني الإرهاق من تقدير وقت المسير، حتى وصلنا إلى نقطة رأينا منها معسكرا كبيرا للجيش العثماني، وهذا لم يرق لجودت، فأغلظ القول للدليل الذي آثر الصمت على الكلام، واضطررنا للالتفاف صعودا تجاه القدس، مجاوزين مقام النبي موسى –عليه السلام– ومعسكر الجيش القريب منه.

يسبقنا كاظم ولم يبدُ عليه الرضى، والطرق أمامنا مفتوحة لمسافات طويلة، والدليل ترك مرافقه المسلح معنا، والغربان الثلاثة، لم يبتعدوا عنا، وذاكرتي الرائعة أحصتهم عددًا منذ اليوم الأول؛ قسَّمتُهم على القافلتين، ومن بقي لمرافقة روهان ومن معه، ومن غادرنا لسرقة الأغنام ...إن العدد الذي يقوم بحراستنا لا يزيد عن خمسة أغربة؛ ثلاثة معنا، واثنان في المؤخرة، ويراودني الشك في وجودهم؛ جغرافيَّة المنطقة التي مررنا بها لا تتستر على حراسات خفية، ولو كان عددهم كبيرًا –كما اعتقدت سابقا– لما تمكن الراعي وأغنامه من مفاجأتنا؛ أعي وجود ثغرات للهرب يمكن اغتنامها.

الاختلاف الظاهر بين كاظم وجودت يؤكد أن هناك مكانًا للطوارئ، مرسوم على خرائط يحملها، ولكنها تتناقض مع خبرته، ممَّا اضطره إلى اتباع أوامره مجبرا...كميات الذهب التي دفناها كبيرة جدا، وحمولتنا مازالت ضعفي ما دُفن، ومازال أمامي الكثير من الأيام الذهبية لأعيشها قبل ذبحي، والكثير من الفرص لأستغلها.

اقتربنا من تجمعات سكن العرب فرأينا الكثير منهم، والكثير من الرعاة، ولم ترحمنا الشمس، وكأنها تصر على أن تجفف ما تبقى في أجسادنا من ماء...نستظل بظل الجمال،

وعاد الدليل مرتبكا وقد بدا عجزه عن إيجاد طرق تبعدنا عن عيون العرب، مما اضطرنا للالتفاف مرة أخرى، والبحث عن مكان للاختباء حتى غروب الشمس.

وصلنا مكانا منعزلا، لم يكن واديًا سحيقًا، بل كان مرتفعا نوعا ما، ومُحاطًا بمناطق أكثر ارتفاعا...ملامح جودت دلت على اليأس، فكتب رسالة وطلب من كاظم أن يحملها، فانطلق مع مرافقه إلى جهة مجهولة، وطلب من الغربان الثلاثة أن يحرسوا القافلة، وألا يقتربا منها لمسافة تقل عن ثلاثمائة متر، وكان جليًا أنه لم يرغب في حديثهم مع أحد.

لم تصل الشمس إلى كبد السماء بعد، نصبنا الخيام وأرحنا الدواب، ولم نكن قريبين من نبع ماء، فطلب الكعب أن اصحبه لنملأ القِرب، وسرني أن طلب منه جودت أخذ غيري.

دخل جودت خيمته ليستلقي في انتظار عودة الدليل من المكان المجهول، وطلب مني إيقاظه فور وصوله، كنت مرهقا وبحاجة إلى النوم، ولكن في غياب الكعب لن أفوت الفرصة للاطمئنان على بيبرس، ومن يعتني به، بعدما تم نقله إلى خيمة الكعب، وكانت مرفوعة الجوانب لتسمح بدخول الهواء من أجل تخفيف الحرارة عن المسكين، لم تكن هناك حاجة إلى الاستئذان، فقد أصبحت من أهل المكان، وقلت لها:

- كيف حاله الآن؟

يطل الإرهاق والنُعاس من عينيها:

- إنه يتألم ولا يكف عن الصراخ يا عزيز.

فأجْهَشتُ بالبكاء مثل الأطفال، ما كان بالإمكان أن اقترب وأحضنها لأخفف عنها، فعينا اللعين تنظران، وقد صكَّ على أسنانه وقال:

- أنا بخير اذهب الآن.

لم أعد أشعر أن بإمكاني البقاء، بعد أن طردني، وقبل خروجي سألتها إن كان هناك ما يمكن فعله من أجله، فقالت:

- أريد ماءً يا عزيز، إنه ظمآن.

لو كان الماء لها لما ترددتُ لحظة، فقلت لها:

– تعلمين أنه لا وجود للماء، والشيخ طبرق ذهب للبحث، وبإذن الله سيحضره.

هزت رأسها:

– بإذن الله.

لمعتْ فكرة رأسي، فقلتُ لها:

– سمعتُ أن بول الإبل يروي من العطش، ويعالج الأمراض ويخفف الأوجاع، هل تريدين أن آتي له به؟

فقالت:

– أرجوك يا عزيز أسرع وأحضر منه ليخفف آلامه.

أخذت وعاء، وكلما سألت أحدًا سخر مني، فأسرعت إلى سالم ليساعدني، وما كان ليرفض لي طلبا، وهو لا يدعي الحماقة، بل هو أحمق بالفطرة، فتوجب علينا أن نقضي كل الوقت بمراقبة الجمال حتى يقرر أحدها أن يتبول.

رغبت في رؤيته يشرب بول الدواب، وجبرًا تنازلت عن الفكرة، وأثناء ذهابي إليها لأعتذر، فاستوقفتني كراهية بيبرس، وسألت نفسي؛ مَنْ يستطيع التمييز بين بول البشر وبول الدواب؟ وانزويت حتى لا يراني أحد، فلن أبخل على اللعين بالقليل من بولي، ثم حملت لها الوعاء وفيه القليل من الدواء، وشكرتني كثيرا وقربت الوعاء من فمه وقالت:

– هيا اشرب يا بيبرس اشرب.

اشمأز من الرائحة، وعافَ الدواء، وامتنع عن الشرب، ولكنها أصرت وتبرمت، فلم يجد أمامه خيارا سوى إرضائها، وارتشف القليل منه، فتقززتُ وخرجت مسرعا قبل أن أتقيأ.

غفوت قليلا بعدما طالبني جسدي بإراحته، ثم جاءني جودت ولم يعد قادرا على انتظار عودة كاظم، فطلب مني مرافقته بعد أن اقترب من الغربان وأوصاهم بمراقبة القافلة جيدا، وعدم السماح بمغادرة أحد.

سار وكنت خلفه، فأخذنا نتسلق عدة تلال حتى وصلنا أرضا مستوية، منها استطعنا رؤية البحر الميت، وبدا قريبًا للوهلة الأولى ولكن التلال التي تفصلنا عنه تنبئ بمسافات شاسعة.

انفرجت أساريره وكأنه وجد ضالته، وأصبح أقل ضياعًا..أسير بلا هدف، ولكنه يبحث عن شيء لا يفصح عنه، ثم طلب مني أن أتذكر الطريق حتى نتمكن من العودة، فأجبته على الطريقة السانتورية:

- أية طريق يا سيدي؟

رمقني بنظرة ساخرة:

- الطريق التي سلكها موسى هاربا من مصر يا عزيز.

فأجبته على الفور:

- حاضر يا سيدي سأتذكرها.

يبدو أن جوابي قد استفزه، فصكَّ على أسنانه قائلا:

- ماذا ستتذكر يا عزيز؟
- طريق مصر التي هرب موسى منها يا سيدي.
- وهل تعرفها يا عزيز؟ .
- لا أعرفها ولكني سأحفظها، من واجبي إطاعتك يا سيدي.
- لا تجهد نفسك، فقط تذكر اسمك، وإن صادفنا عرب لا تتكلم معهم إلا بما أخبرك، هل تستطيع تذكر ذلك؟
- طبعا يا سيدي، فأنا كنت مسؤول الآثار، والبيك كان...

قاطعني وأطبق فمي على ما تبقى من كلامي، وقال ممتعضا:

- نعم أعرف أنك تتذكر مكان كل الأحذية الأثرية، جيد، رائع، ممتاز، عظيم! والآن اصمت وتوقف عن الثرثرة.

منعه مزاجه من الاستمتاع بغبائي، وما صحبني إلا لأكون لسانه إن احتاج التحدث مع العرب...اقتربنا من أحد العرب وطلب مني أن أسأله أين أقرب معسكر للجيش في المنطقة وسألته، فأشار إلى أول الطريق، ثم أدار ظهره وبصق على الأرض...سرنا مئات الأمتار واكتشفنا أن العربي خدعنا، فعدنا أدراجنا، ومن بعيد لمحنا خيالة؛ دورية من الدرك، لم يقترب منهم إلا بعدما تفحصهم جيدا، كان ثلاثة منهم عربًا واثنان من الأتراك، فانزوى بقائد المجموعة جانبا، ودار بينهما حديث لم أسمعه، ثم أعطاه رسالة، فالتقطها وانطلق مسرعا إلى جهة مجهولة، وكانت ردة فعله كمن حصل على جائزة.

أخافتني قدرته على الاتصال بالجيش، فلن يعجز عن تكليف العديد من الجند للبحث عني وقتلي إن هربت...عدنا إلى الطريق ناشدين العودة، ولم يكن ليضل طريق العودة طفل صغير، ولكن الأحمق ضل طريقه أكثر من مرة، ولم أجد طريقة لإرشاده حفاظًا على غبائي السانتوري...أتخبَّط وراءه حتى وصلنا القافلة عند الغروب، ولم تكن هناك نية لمغادرة المكان قريبا، وتوقعت أن تكون ليلتنا مريحة، ولكن هيهات أن تذوق هذه القافلة طعم الراحة! لم يتبقَ معنا سوى ثلاث جرار فارغة، كانت إحداهم تعاني شرخًا، ومع ذلك طلب مني جودت أن أملأها ذهبا، ودفناها بثلاثة أماكن قريبة من الموقع، وعدنا لقضاء ما تبقَّى من ليلتنا، إلا أن الكعب كانت لديه خطة أخرى، فقال لجودت:

– حضِّر لي كمية كبيرة من الذهب تستحق الاحتفال.

نظر إليه جودت وقد اتسعت حدقتا عينيه، وهز رأسه مستوضحًا قصده، فابتسم الكعب وأشار بإصبعه إلى القمر، وكان قد اكتمل بدرا.

فقال جودت:

– لم تتبقَ معنا جرار، والبدر لن يرحل غدا.

رد عليه:

– بالنسبة لك لن يرحل، بالنسبة لي ثمن هذه البدر غالٍ، وأرجو أن تقوم بعملك لأقوم بعملي.

بعدما اتفقا على استبدال الجرة بصفيحةٍ اعتدنا ملأها ماءً رافقت جودت داخل الخيمة وبعدما ملأتها لم أتمكن من حملها إلى خارج الخيمة، فساعدني في جرها، ثم طلب من أحدهم أن يحملها معي على الحمار، وهتف بالأمهق ليرافقنا، وهنا اعترض الكعب قائلاً:

- هذا اليوم خاص بي، وأحتاج إلى بعض الخصوصية، بإمكان عزيز مرافقتي، وبعد ذلك سيصحبك لإنهاء عملك.

لم يعترض جودت، ويبدو أن وجودي برفقة الذهب كان كافيا له، تركناهم وتوجهنا إلى خيمته، واستغربت طلبه من خادمه أن يستعد ليرافقه، وزادني غرابة تلك الفرحة التي غمرت نيروز عند قولها:

- شكرا حبيبي.

يأخذني الشرود قليلاً في حاجته لخادمه المُصاب، أيعقل أن يذبح مُنقذَ حياته؟! لم يراودني الشك وحدي، فخادمه ارتعب متضرعًا لنيروز:

- لا تتركيه يأخذني...أرجوكِ.

وهنا عضت على شفتيها وأشارت بالسبابة نحوه وقالت:

- ستذهب معه وإلا لن أتحدث معك في حياتي يا بيبرس.

ابتسم الكعب وانحنى وجلس بجانبه، وبحنان أبوي حمل رأسه وضمه إلى صدره، وأخذ يمسِّد عليه قائلاً:

- لا تخف يا صديقي، لن أتخلى عنك أبدا، فلولاك لكنت الآن في مكان آخر، اطمئن سننهي عملنا، وسأصحبك لأقرب طبيب ليجبِّر ساقك ويخفف من آلامك...

تأثَّر كثيرًا بالعواطف الجياشة التي فاضت من سيده، وتأثرتُ أيضًا بهذا الممثل البارع...أدخلت حمارا داخل الخيمة، وتساعدنا في رفعه، وربطنا وسادة ليسند ساقه إليها، وودعتنا نيروز وانطلقنا نجر خلفنا حمارين؛ أحدهما يحمل ذهبا والثاني يحمل بيبرس.

مشاعر غريبة تجتاحني وأفكار شاذة تدور في رأسي، دفعتني لأتساءل هل هذا أنا عزيز الذي كنته قبل خمسة وثلاثين يوما؟! ماذا يحدث لي؟ يا الله! ماذا فعلتْ القافلة بي؟! ما هذه المشاعر الغريبة! لقد فرحت وطربت وامتلأت بالحماس والنشوة حين شككت أنه سيذبح خادمه، وشعرت بخيبة الأمل والحزن لمجرد الشك بأنه لن يذبحه، هل من المعقول أن وحشا سكن أعماقي ونام في هدوء منتظرًا خروجه إلى العلن؟! هل غضبي من أولاد الحي وكل من حولي صنع هذا الوحش؟! لماذا لا يرعبني الموت كما اعتدته من فعل دولت كل ثلاثاء؟!

حينما سقط الكعب عن الجرف فرحت كثيرا، إلا أني شعرت بأن جزءًا مني قد ذهب معه، لو كنت أؤمن بهراء الـ "قاقا باقا"، لقلت إن هذا جراء تأثيرها عليّ، ولكني لن أبلغ هذه الدرجة من الحمق، ولن أتوه بعيدا لأبرر ما أشعر به، هذا أنا بطريقة أو أخرى، ولم تكن القافلة سببًا...نعم قد ساعدتْ أن تُخرج أسوأ ما فينا، ولكن لم تصنعه من البداية...ولِمَ التلذذ بالموت! هل يعقل أني أجد به ما يسد الفراغ من عقد النقص التي أشعر بها؟ ربطة العنق وتقمص دور الباشوات ملأ كل حياتي، وحينما افتقدته خرج شبح الموت ليسد ذلك الفراغ.

لا وألفُ لا، أن أعيش تلك الكذبة طوال حياتي خيرٌ من أن أسبح في دماء البشر، لا! أنا أبسط من تقبل هذه الأفكار، لا أذكر يوما أني تجرأت على شتم أحدٍ علنا، ولم أدافع عن نفسي أبدا، كنت خاضعا للجميع، وكل حروبي خضتها في خيالي، كنت ماكرا لعينا أتلصص...أتجسس، ولكن ما اجترأت يوما على أذيَّة أحد!

ما أشعر به الآن ربما لا يكون أكثر من سحابة صيف، وهمٌ آخر أحمي به نفسي من الشرور التي تحيطني، وَيلي إن كانت هذه حقيقتي! اعتقدت أن ذبح خلدون ورشيد سيدمر حياتي، والآن أعود كل ليلة بإرادتي لأستمتع بكل لحظة عشتها...جسدي الهزيل وقصر قامتي، وفقري وحرماني، وطفولتي البائسة، كل هذا اجتمع ليصنع وحشا! ما كنت لأمانع أن يعيش في خيالي، أمَّا أن يتجسد هذا الوحش على أرض الواقع...فهذا أمرٌ آخر...لا أريد أن أصدق أن توهمي وتخيلي أنني جبار في معارك وهمية قتل داخلي ذلك الكائن الضعيف، وغذَّى ذلك الوحش الذي يستلذ ويكاد يسكر من رائحة الدماء، كل اللعنة على التخيلات، ألم أتخيل دومًا أنني باشا من سلالة عريقة! ألم أعش هذا في واقعي...مظهري... ومعاملاتي! ألم أكره أن

تتعرى حقيقتي، كما حدث عندما أهانني روهان بعد خروجه من الكهف! وقتها لم أفق ولم أتنازل عن باشويتي المزعومة، ولكني اندفعت أفكر في تبرير كاذب لأحافظ على كذبتي...كثيرًا كانت متعتي بجسد نيروز في خيالي، وأخاف أن حرماني، وتعاظم شهوتي في مخيلتي يصنع وحشًا حقيقيًا من نوعٍ آخر... آمنت قديمًا أن ذاكرتي تدمرني، والآن أصبح خيالي...

أغمضت عيني ودعوت الله أن يأخذ الكعب خادمه إلى طبيب، ويجنبني اختبارا جديدا لشهوة دموية أعتقد في أنها تمكنت مني...أفضِّل أن أكون كائنًا ضعيفًا مُهانًا من الجميع على أن أكون مسخًا متوحشًا مثل ذلك الكعب.

لم نبتعد كثيرا، وكان يعرف وجهته جيدا، اقتربنا من مغارة...حفرنا بجانبها سويا، وأثار إعجابي بقوته، وتلك هي المرة الأولى التي يحفر فيها بنفسه، ربما لأنه أدرك أني بمفردي لن أتمكن من إنجاز حفرة كبيرة لاحتواء تَنَكة الذهب، انتهينا من الحفر، وكانت المفاجأة؛ حمار الذهب لم يتحرك، أما حمار بيبرس فقد اختفى، وجُنَّ جنون الكعب، انطلق مسرعا ناحية الجنوب، وأمرني بالانطلاق شمالاً للبحث عنه، وقد سهَّل البدر علينا الرؤية لمسافات بعيدة.

فضلت اعتلاء الصخور والانتظار بدلا من البحث، وتعريض نفسي لخطر الضباع، فتمكنتُ من رؤية بيبرس يزحف بين الصخور ليختبئ، والحمار اللعين على مقربة منه...سيكتشفه الكعب فور استدارته، وعلقتُ بين خيارين؛ الأول أن أذهب لأبعد الحمار، والثاني أن أنال رضى الكعب عني.

بعد تردد أمات نفسي وأحياها، وجدت أن إصابته جعلت احتمالية نجاته ضئيلة جدا، ولو لم يعثر عليه الكعب سيعود إلى القافلة ويكلف الحراس القريبين بالبحث عنه، وسيعودون به لا محالة...أسرعتُ إلى بيبرس وفور رؤيتي بكي وتوسل كي أبتعد وأتركه.

هذا اللعين تفنن منذ اليوم الأول في إذلالي، ونصَّب نفسه سيدا عليّ، بل وحرمني من الطعام أكثر من مرة، وتسبب بموت رشيد وخلدون، فلا منطق في أن أُعرِّض نفسي للمخاطر من أجله، هذه ليست مشكلتي، هو خادم الكعب وشريكه بطقوسهما الشيطانية، أليس هو من وقف وقال خذ دمي وشرفني! ومع كل هذا جزء مني حثني على الابتعاد، ولكن تدخل القدر

وبطرف عيني رأيت الكعب يهرول تجاهي، فلم يعد الخيار الأول متاحا، فرفعت يدي مشيرًا إليه فحضر يلهث، وأسعده الإمساك بطريدته، ربَّت على كتفي ولم يبق سوى أن يضع في فمي قطعة حلوة كصياد يكافئ كلبه.

بيبرس يبكي كالنساء، ويتوسله ليبقي على حياته، ومثل الكعب لا يحمل قلبا بين ضلوعه...أمسك بشعره الطويل وجره على الأرض، وبيبرس يستغيث بلا مُغيث، تردد صدى صراخه وكسر صمت الليل، وأيقظ الأموات من سباتها الأبدي، فدعوت أن يقتله سريعًا ليريحه من عذابه.

أدخله المغارة وجثم على صدره، وأمرني بإمساك يديه، وما كان أمامي خيارٌ سوى الانصياع، ركعتُ على ركبتي خلف رأسه وأمسكت بيديه وشددتهما، في انتظار أن يذبحه، ولكنه لم يفعل بل أخذ ينظر إليه في حنان، ويتمتم بكلمات غير مسموعة، وبعدها أخذ يمزق ثيابه ليكشف عن صدره، وحين اقترب نصل الخنجر من صدر بيبرس انتفض بقوة، وأفلت إحدى يديه، ولَكَم الكعب على وجهه، وبمقبض الخنجر بادره الكعب بعدة ضربات على رأسه، وكان حريصًا على إضعاف مقاومته وليس إغمائه، تمكنت من يديه ثانيةً، وغرس الكعب الخنجر في صدره.

كادت المغارة تتهدم فوق رؤوسنا من صرخة بيبرس فكتم المسخ صوته، وأغمضت عيني لبشاعة ما أرى، ولكن جزء مني كان يرغب في المشاهدة، شق صدره ونزع قلبه من مكانه وحمله في كفه، ومازال ينبض، والمسخ يحدق فيه، وعينا بيبرس تحدقان أيضًا...تراقب قلبه النابض...يفغر المسخ فاه... يغرس فيه أنيابه...يلتهمه...انفجر القلب...تدفقت الدماء الحبيسة...غطت وجهه...أصابت أنفي...وانهارت قدرتي على التحمل...تقيأت على وجه بيبرس، وكأن ذلك ما كان ينقصه وهو يودع الحياة! المسكين شرب بولي مساءً، وتقيأت على وجهه ليلا، لم يكمل المسخ أكل القلب، يبدو أنه قد شبع، والغريب أنه كرر أكثر من مرة:

– سامحني يا بيبرس كان عليَّ أن أشرفك بأكل قلبك.

لم أتأثر كثيرا، ولا شك أن روح بيبرس قد غادرته، إن لم يلتهمها أيضا، رفع جسده القذر من فوق صدره، وقد تخضب سرواله بالدماء، مدَّ كفه بالقلب الممزق نحوي وقال:

– تذوق يا خادم الـ "القاقا باقا".

فتقيأت ثانيةً فوق وجه بيبرس، فضحك الكعب بأعلى صوته، ثم انتصب وتعرَّى ومسح جسده وأعضائه القذرة بالدماء، وبدأت طقوس الرقص وهراء الـ "قاقا باقا"، وحينما انتهى طلب مني الركوع أمامه، ففعلت، ومسح وجهي بالدماء، ونزع من إصبع خادمه بيبرس الميت خاتما فضيا كبيرا وأعطاني إياه وقال:

– يا عبد الـ" قاقا باقا"، أقسِم بمنحي دمك وولائك...

فكررتُ ما طلب من هراء، وقلت سرًا: "يوما ما سأتبول عليك وعلى الـ "قاقا باقا يا ابن السقيطة"، جرَّ الجثة إلى الحفرة، وساعدته في حمله ودفنه مع تنكة الذهب، وانتظرتُ أن يعد مكانا وهميا آخر ليدَّعي ليضلِّل جودت عن مكان الذهب، ولكنه لم يفعل.

عدنا أدراجنا وفي الطريق لُمت نفسي قليلا لإخباره بمكان اختباء خادمه، ولكن سرعان ما وجدت ما يبرر عجزي، ويخرس ضميري، فأقسمت حينها ألا أروي هذه القصة لأحد من البشر، وأخذت أردد: ستعزَّز مكانتي في قافلة اللصوص والقتلة بغياب بيبرس إلى الأبد، هذا اللعين الذي لم يتركني أشعر بالراحة، والآن بإمكاني الاقتراب من نعناعتي متى شئت.

وصلنا المخيم وعدت مع جودت والأمهق لأدلهم على الكهف لرسم الخرائط ونقش الرموز، والتزم جودت الصمت ولم يسألني شيئا.

استرحتُ ثلاث ساعات أو أقل قبل بزوغ الفجر، ولم يصبر سالم حتى تنشر الشمس نورها الشمس وجاءني مزعجا منامي، لأعطيه ما اعتاد من حلوى، أعطيته عدة قطع وما كنت لأبخل عليه وهو يفعل كل ما أطلبه.

لم يكن هناك ما أفعله سوى تظاهر الاعتناء بنجمة، وقد مللت تمثيل هذا الدور، وحاولت سرقة بعض النوم وأنا جالس بجوارها، ولم أصحُ إلا على صوت جودت ينادي:

– عزيز تعال، عزيز هيا تعال.

أسرعتُ إليه ككلب يلبِّي نداء صاحبه، ورافقته من جديد، صعدنا المكان نفسه حيث التقينا الجنود، وكان حذرا، انزوينا نراقب من بعيد، وحين اقترب أربعة خيالة لم يتعجل مقابلتهم حتى تأكد أنهم قصده وبُغيته؛ ثلاثة برتبة ملازم أول، ورابعهم يوزباشي احتضن جودت طويلاً، ثم قال:

– اعتقدناكم عبرتم النهر دون المرور علينا، ماذا حدث؟ لِمَ كل هذا التأخير؟

فقال جودت:

– هذه قصة طويلة سأرويها لك لاحقا.

توجهنا جميعا إلى القافلة، وانطلقنا برفقتها على طرق سهلة في حراسة الجيش، وعلى مرأى من الجميع، فالمنطقة تخضع لنفوذ موالٍ لمن يقف خلف هذه القافلة.

سرنا ساعة أو أكثر، وإذا بالطريق تأخذنا تجاه المعسكر الذي تجنبنا الاقتراب منه من قبل عندما نشب الخلاف بين جودت والدليل كاظم، يومًا كاملاً أهدرناه لنبتعد عنه، وكل ما كنا نحتاجه هو مسير نصف ساعة للوصول إليه، هذا المعسكر كان المكان الذي توجب علينا الوصول إليه قبل أكثر من عشرة أيام، لذا لم يتوقف الدليل الذي يرافقنا عن الابتسام، وكاد يصرخ بأعلى صوته:

– لا تعلموني عملي أيها الحمقى.

عينا الكعب كان فيها الكثير من الشماتة لقرار جودت بالابتعاد والهرب من الهدف المنشود منذ البداية...لابد أن هناك مِن الجيش مَن هو موالٍ للقافلة، وهناك من يسعى للنيل منها، وهذا أحد أسباب الهرب والاختباء، وحذر الاقتراب من العسكر قبل التأكد من ولائهم.

لقد تبادر إلى مسامعي أن قافلة وهمية سارت باتجاه سوريا عبر الجولان، لتبعد الأنظار عن القافلتين، أما نحن فقد مررنا بجوار قلعة النبي موسى وتجاوزناها باتجاه جبل يطل مباشرة على البحر الميت، وهناك تربع المعسكر، وكان فيه ثلاثون خيمة، وعدد كبير من الدواب، وحفنة

من الجنود، أسعدني أن جميعهم أتراك، ولم يسرني وجود خمسة أفراد من الفرق الخاصة ليبلغ عددهم مع مرافقينا منهم ثمانية.

عدنا للرفاهية؛ فالخيام تفيض بالمؤن من كل صنف، وبالرغم من بعدنا عن مصادر الماء، إلا أنه توفر بما يكفي ويزيد عن حاجة الجميع، حينما بدأنا نصب الخيام انسحب جميع أفراد المعسكر تجاه القلعة، للحفاظ على سرية ما تحمله القافلة. ولم يبقَ برفقتنا إلا اليوزباشي.

كان الجميع أوفر حظا مني في نيل قسط من الراحة، أما أنا فبدأت بإعداد الطعام لجودت واليوزباشي الأبيض صاحب العينين الزرقاوين، والشعر الأشقر، قصير القامة، ممتلئ الجسم، حليق الوجه في الأربعين من عمره، يبدو أنه نتاج علاقة بين ألمانية فارعة الطول وتركي قزم، مظهره يوحي بالبلادة، لم أجد له اسما يليق بهيئته، وعلمت لاحقا أن اسمه شكيب.

أعددت الطعام ولم أشعر بمرور الوقت، فكانت نعناعتي تساعدني، وكم كانت رائحتها تمدني بالقوة وتنعش حياتي على كونها بعيدة المنال! ولكن بعض اللمسات العفوية والخبيثة، كانت مثل لعق قطعة حلوى في رمضان، والصيام لبقية اليوم.

مللتُ منها قليلا؛ فلم تتوقف عن التساؤلِ؛ وماذا قال الطبيب عن بيبرس؟ وهل سيشفى سريعا؟ ومتى يعود؟...أجبتها عن كل أسئلتها بما تحب أن تسمع، ولكني كنت سأشعر بالسعادة أكثر لو تمكنت من إخبارها أن حبيبها أمير السعادين قد أكل قلبه حيًّا، ولكن قصة حياتها المأسوية تمنعني من فعل ذلك، كما أن خنجر الكعب لن يرحمني.

انتهيت من إعداد الطعام اللذيذ وقدمته لهما، ولم يتوقفا عن الحديث أو الأكل، شكيب كان يلتهم الطعام سريعًا، ودل ذلك على أنه لم ينشأ بأكناف عائلة راقية، أما جودت الأصغر منه سنا، فكان مثلا للرقي على المائدة، وهذا دليل أنه سليل باشوات، ولم يخْفَ عليّ أنه أرفع شأنا ومكانةً من شكيب، قبل أن تجمعهما المائدة.

أخبره جودت بأني مستشاره الخاص، وعالم آثار كبير متخصص في الأحذية الأثرية، وضحكا معا، وروى له الكثير من النوادر، وأصر أن أروي بعضها بنفسي، وبخاصة عندما هربت بفرسه لأسقيها الماء...لم أمانع أدائي دور المهرج لتسليتهما قليلا، اقتحمتُ خلوتهما مرات

بغير استئذان، ولم يكترثا لوجودي، وما كان ليتوقف الحديث بينهما، ولا أعلم إن كان هذا لقناعتهم بأني أحمق سانتوري، أم لأنهم يعلمون بأني سأُدفن قريبا، ولا يهم ما يمكنني معرفته من أسرار.

ومن أطراف ما سمعت من أحاديث، أنه يتم جمع أكبر عدد من عرب سكان المنطقة للحرب القادمة، وأنهم مثل الأرانب لا يتوقفون عن الإنجاب، ومن ردود جودت:

- العرب نتاج عَفن الإمبراطورية، ولا يجب أن نلومهم على ما صنعنا.

لم أرَ في أغلب كلامه أي هجوم على العرب، بل أحيانا يدافع، وفي أغلب الأحيان يلتزم الصمت، لم أكن أسمع إلا أطراف أحاديث، ولكني اجتهدتُ في ملء الفراغات، وممَّا وعيتُه جيدًا أن معسكرات الجيش العثماني يتم تفكيكها ونقلها الى أماكن تساعدها على الانسحاب عند الحاجة دون أن يصيبها ضرر مع الحفاظ على المظهر العام للوجود لحين الانسحاب وترقية ضباط عرب من خارج المنطقة وتسليمهم مسؤولية مناطق داخل البلاد، ونقل أكبر عدد من الجنود ذوي الأصول التركية للمعسكرات الجانبية، وتجهيز ثلاث فرق من الجيش أغلبهم من الأتراك لحين صدور الأمر بالعودة وتحرير القدس، ومن تعليقات جودت:

- أخشى أن يتم خداع الباشا ونجد أنفسنا نحارب الألمان والإنجليز معا؛ فالإنجليز ليسوا أهلا للثقة.

ومما قاله شكيب:

- الباشا ليس أحمقًا، لهذا نعد جيشا وطنيا قادرًا على خوض معركة في حال عدم التزام الإنكليز بالاتفاق.

ما تناثر إلى مسامعي من حديث، أن هناك مؤامرة مشتركة بين جمال باشا والانكليز، وأن هناك حربا استعراضية يتم الإعداد لها قبل نهاية العام فور الاتفاق على الحدود، ومن أجلها يتوجب إبعاد عرب المنطقة وتفريغ المعسكرات، وبعد ذلك سيسمح للباشا باستعادة القدس وجعلها عاصمة لدولته الإصلاحية، مع الحفاظ على تواصل جغرافي مع سوريا عبر الأردن...كل هذا

الحديث لم يشغلني كثيرا، فلتحترق القدس ومعها كل العرب، وأكثر ما أهمني أنني لم أسمع حرفا واحدا له علاقة بدفن الذهب.

وأبهج قلبي كثيرا عندما عرفت أنه يتوجب علينا الانتظار عدة أيام لحين توفر الظروف المناسبة، وبعدها سنعبر نهر الأردن، وهناك ستنضم إلينا القافلة الثانية، وهذا يعني أن أياما قليلة تفصلني عن لقاء روهان بيك.

بعد راحة الجميع وتعبي استطعت سرقة عدة ساعات للنوم، وبعدما انتصف الليل جهزنا القافلة للرحيل، وتسللنا كاللصوص تجاه الشمال بقيادة كاظم، سرنا لساعات برفقة الدواب التي زاد عددها في الوقت الذي قل فيه عدد البشر. وبعد عناء استطعنا الوصول إلى منطقة منخفضة محاطة بالجبال، ويتخللها سيل ماء يلفظ أنفاسه الأخيرة، ولكنه كان نعمة من الله وراحة لمن يعتني بالدواب.

هذه المرة نصبنا عددا أكبر من الخيام، مما دل على أننا سنمضي أياما دون رحيل، واختيار الموقع كان مثاليا من كل النواحي، ماءٌ وظلال، ومكان منعزل تحيط به تلال متلاصقة، وأصبحت الوريث الشرعي لعرش المؤن، فأنا خادم جودت الوفي، وعبد الـ "قاقا باقا"، فمَن يمكنه منافستي! المؤن كثيرة واحتاجت لأربع خيام، ومن يرغب ألا يقرصه الجوع فيتوجب عليه تملقي، وإلا سيكون لي شأن معه، وما عدت بحاجة لمراقبة حقائبي خوفًا من سرقة ما فيها، فاليوم ستنام معي في خيمة خاصة تليق بمكانتي المرموقة، والأوباش سينامون بالعراء.

أشرقت الشمس وفتحتُ أبواب الخيام وأرسلت في طلب سالم، وبدأت ممارسة عملي الجديد للمرة الأولى، ووزعت حصص الطعام على الجميع بالتساوي، فلم أرغب في معاقبة أحد منذ يومي الأول، وأصدرت أمرا بتعيين سالم مساعدا لي، وحارسا للخيام في غيبتي، فأنا لست أحمقا مثل بيبرس لأئتمن هؤلاء اللصوص، وبعدما انتهيت من توزيع الطعام خصصت لسالم مساعدي حصة أكبر، وطلبت منه مباشرة عمله في الحراسة، وذهبت لخيمة الكعب لأستأذنه في إشعال النار وإعداد إفطارٍ شهي له ولنعناعتي، اقتربت من الخيمة وسمعت أصواتا عجيبة:

– (هوو اه ووو ايه هوو ياااا)

لم اشك هذه المرة بأن أحدا يستغيث ويتوجب علي إنقاذه، فهذه الأصوات تدل على حدوث "قلة أدب"، امتعضت قليلا فلا يجوز حدوث مثل هذه الأفعال المشينة بالصباح الباكر!

تملكني شغف التلصص، ولكني أردت العودة لولا أني تذكرت أن عيني بيبرس قد أغمضت إلى الأبد ولن تراقبني ثانيةً...اجتمع الخوف والرغبة لرعشة تسري في جسدي...أسترق النظر عبر شِق في ساتر الخيمة، نظرت ورأيت أبشع مما تخيلت؛ الجميلة والمسخ في تلاحم عنيف حتى كادت تختنق، وهو لا يتوقف عن الاهتزاز فوقها...لم أرَ منه إلا مؤخرته العارية، أنتظر أن يميل قليلاً لأغور بناظري في جسدها اللَّين، فأفزعني صوته:

- ماذا تريد يا عزيز؟

تجمد الدم في عروقي وذهبت حرارة جسدي، كيف رآني هذا المسخ! أيمكنه رؤيتي عبر فتحة مؤخرته القبيحة! أم فيها عينان يختفيان خلف هذا الشعر الكثيف! لم أجد مفرا من إجابته:

- جئت أسالك إن كان بإمكاني إشعال النار لأعد لك الإفطار.
- اقترب أكثر لا أسمعك جيدا.

فأعدت السؤال مرة أخرى، فقال:

- ادخل الخيمة لأعطيك شيئا.

تصنَّمتُ مكاني ولم أتحرك، فرفع صوته:

- ادخل يا عزيز.

لم يكن أمامي سوى الدخول، ولكني أغلقت عينيّ حتى لا أرى، ويبدو أنه التفت نحوي قائلاً:

- افتح عينيك وخذ الكبد من ذلك الوعاء الفخاري، واقليه ولا تتركه حتى النضج.

انفتحت عيناي على استحياء وخوف في آن واحد، فأخذت الكبد وخرجت، ولم يستتر أو يتوقف عن الرقص فوقها، ورغم تلاقي عيني بعينيها إلا أنها لم تشعر بحرج مما رأيت.

عدت إلى سالم خادمي الأمين، وطلبت منه إشعال النار...ما أفقتُ من تأثير رؤيتي لجسدها ومشهد استسلامها لشهوة هذا الكلب، وكأنني كمن أصابه بول ضبع –على قول سلامة شفاه الله– كنت أحمل الكبد وأسير تائهًا، فيسألني سالم عمَّا أحمله في يدي، فأتركه وأسير في اتجاه آخر، فيتبعني مُكررًا، مرات ومرات؛ أسير ويتعقبني حتي وقف أمامي وهزني، فقلت:

– لا أدري لا أدري.

عاد رشدي فجأة، ودبت القشعريرة في جسدي فألقيت الكبد بسرعة، وسألته مُستغربًا:

– ما هذا؟ ما هذا؟

استجمعت شجاعتي وحملت الكبد مجهول الهوية وغسلته من التراب، وأخذتني الرهبة من أن يكون كبدًا بشريًّا؛ فتفقدت كل زاوية لأتأكد من كون الجميع على قيد الحياة، حتى أني تسللت إلى خيمة جودت لأتأكد من وجوده، وأيقنت أنه كبد حيوان أو بشر خارج القافلة، ولم أجد داعيا للتفكير، فهو لا يتوقف عن التجوال بعيدا عنا.

أعددتُ الكبد وبصقت فيه حتى جفَّ حلقي، ولوهلة كنت سأطلب من سالم أن يبصق أيضا، ولكن ما كنت لأئتمن سذاجته، وأخذته إليهما وأصرَّ أن أشاركهما الطعام، وما كان أمامي مهربًا، لم يصبني القرف من بصاقي، ولكن من مجرد الظن في كونه كبدًا بشريًا كان كافيا ليدفعني للتقيؤ.

نعناعتي الحنونة أخذت تقطع من الكبد وتطعمني بيدها أمام الكعب، ولم يتوقف عن الابتسام، وعندما وصلت إلى حد الهرب سريعا أو التقيؤ على الطعام، خرجت مسرعا بحجة أن جودت ينتظر قهوته، وانزويت خلف الخيام وأخرجت كل ما في معدتي دفعة واحدة.

أعددتُ القهوة، وذهبت إلى جودت، وجلبت له البسكويت من صندوق بخيمته؛ وهو طعامه في الصباح مثل روهان، وكان مُفعمًا بالحيوية والنشاط، وبمزاجٍ عالٍ...طلب مني إحضار بعض الجرار، فأخبرته أنه لم يتبقَ لدينا، فقال:

– أحضر ممَّا جلبناه من المعسكر.

وهنا أدركت أنَّ حمْلنا عشرات الجرار الملآنة بالتمر لم يكن الهدف منها حفظ التمور، وإنما لتمويه النظر عن حاجتنا لجرار فارغة، وبغباء سانتوري سألته:

- وماذا أفعل بالتمر يا سيدي؟

فقال:

- جِد له مكانًا مناسبًا، أو أطعمه للدواب، افعل ما ترى.

ذهبتُ وجلبتُ تسعةً من الجرار بعد إفراغها من التمور، وملأتُ ثلاثةً منها بالذهب فقط، وتركتُ الباقي بالخارج، لم ندفن شيئًا في الخيمة، وطلب مني الجلوس، فعلمت أنه أراد التسرية عن نفسه، وبدأ بأسئلته التي لا ينشد من ورائها إلا الضحك على غبائي قائلا:

- من تُفَضِّل أن تتحالف معه الألمان أم الإنجليز؟

فأجبته:

- الألمان يا سيدي لأنهم أطول قامة.

ضحك وسألني:

- وكيف تعرف ذلك؟

فبدأت أحكي مفصلاً أحداث استقبالي لبعثة ألمانية، وقبل أن أكمل حديثي قاطعني وقال:

- أرجوك يا عزيز لا تذكر أمامي ما له علاقة بالآثار ومكانتك العلمية، حتى لا تعكِّر مزاجي.

لم أجد ما أقوله فالتزمت الصمت، ثم سأل:

- يا عزيز، لو كنت قائد جيوش السلطنة، فماذا كنت تفعل لتقضي عنا الديون التي تراكمت علينا؟

لم أجبه حتى أعاد السؤال وشرحه بشكل مبسط، فقلت:

- سآمر جيشنا العظيم –نصره الله– بقتل كل العرب لعنة الله عليهم، ومن ثم قتل كل أهل مصر، ومصادرة دوابهم وبيعها.

ضحك وقال:

- أهل مصر أيضا عرب يا عزيز، ولكن أخبرني لماذا تكره العرب؟

حقيقة أنا أكره العرب مثل أغلب الأتراك وأزيد عليهم قليلا أنا وعائلتي، بسبب مقتل شقيقي الأكبر، أخبرته بالحقيقة ولم أكذب، لم يبدُ عليه أنه مُحب للعرب، ولكنه استاء من تطرفي وعلَّق قائلا:

- قتل العرب وبيع دوابهم لن ينقذ دولة تحتضر، ومستشارون من أمثالك أحاطوا السلاطين وأوصلونا إلى هذه الحال، اذهب يا عزيز وسأستدعيك إن احتجتك.

أدركت أني لم أوَّفق في الترفيه عنه، ولُمتُ نفسي على مشاعري التي أفسدتْ دور المهرج الذي كنت أتقنه...مرتْ ساعة ثم خرج من خيمته واجتمع بالكعب، ثم ناداني وطلب أن أجمع كل مَن بالقافلة لأمر هام، ففعلتُ ما أُمرتُ، ومرض سلامة وهوسه بقدمه منعاه المشاركة.

أخفيتُ دفاتر روهان والحجر، عندها حدث ما توقعته ولم يتبادر إلى ذهن أحد؛ طلب من الجميع الوقوف وإخراج ما في جيوبهم وما يحملونه معهم ووضعه على الأرض، وفتَّش الكعب متاع الجميع بلا استثناء، وعاد محمّلاً بما وجده من ذهب، ولم يكن هناك اهتمام بمعرفة صاحب المتاع، أو مَن أخفى الذهب...ليس مهمًا إن كان الشخص بريئًا أم مذنبًا.

خرج من الجيوب الكثير من الأغراض، وقبل البدء في التفتيش طلب جودت من عبد القادر العودة للاعتناء بالدواب، وهذا دلَّ على أنه راقب جيدا ما حدث وأن عبد القادر –بالفعل– لم يقترب من الذهب، بل فضل الابتعاد والبقاء مع الدواب، بادرتُ وأخرجت ما في جيوبي من بسكويت وشوكولاتة، ولكنه أشار لي وطلب مني الخروج من الصف، وهذا دلَّ على أنه لاحظ أيضا عدم اكتراثي بالذهب، وعلى ثقته بي التي منعتْه من تفتيشي.

الأمهق الحزين أول من تم تفتيشه، وكان غبيًا في حمله ما يزيد عن خمسين قطعة في جيبه، ومساعدي اللعين سالم –سود الله وجهه– كان محشوًا بالذهب، وحين انتهى جودت من

تفتيش الجميع ابتسم الكعب وقام بتفتيشهم مرة أخرى، وكان خبيرًا فأخرج صرة فيها أكثر من خمسين قطعة أخفاها أحدهم خلف مؤخرته، وصرة أخرى أخفاها آخر في ملابسه الداخلية، وآخر تحت إبطه، ولم يسرني أن سعدون ونعمة قد نجوا بالذهب، ولم يُكتشفْ أمرهما، وطبيلة الوحيد الذي لم يفتِّشه أحد، فمازال يحمل الذهب ويلعب به على مرأى من الجميع، ولم يكن من اليسير إقناعه بالتخلي عنه...حملتُ ما تم جمعه من ذهب والكم الأكبر كان مخفيًا في متاعهم، وكان يزيد عن ثلاثة آلاف قطعة أخذتُهم إلى خيمة جودت، وكنت على قناعة بأن الكثير من الذهب مازال مخفيا، لم يتم توبيخ أحد، وكأن أمرا لم يحدث؛ فمِن العبث أن يتم عقابهم مادام قد خُطط لذبحهم جميعا.

أحبُ الوقوف كثيرا بجوار نعمة القبيح صاحب العينين الساحرتين، وهو مغمض العينين، لأغتر بوسامتي مقارنة به، لسانه السليط لم يرحمني، وأحمل له في قلبي من البغض الكثير، فهو من أطلق عليَّ لقب عزيز ناقة، بسبب بحثي الدائم عن الناقة الحلوب، واستطاع أن يوقعني في فخ لن أنساه أبدا؛ حين هاجت الجِمال وبدأت في عضِّ بعضها صرخ بأعلى صوته:

– أبعدوا عزيز حتى تهدأ الجِمال.

ابتعدتُ، وسخر مني الجميع وترسخ في عقولهم لقب "عزيز ناقة"، لم أفهم قصده –وقتها– بأن الجمال تتنافس وتثور من أجل الفوز بأنثى، ومذ يومها وأنا أراقبه جيدا وأتحين الفرصة للإيقاع به...بعد انتهاء التفتيش وعودة الحياة لطبيعتها، ذهبتُ إليه فرحب ساخرًا:

– (هلا هلا بالغالي والله التبن يرخصلك يلعن أبو المصاري)

ابتسمت بثقة وقلت له:

– لا حاجة للعلف يا نعمة، أريد فقط أن تعطيني الماء ليشرب منه جودت أفندي.

حاول إخفاء ارتباكه وقال:

– (غالي والطلب رخيص بس النبع جف!)

فقلت له:

– سيكتفي بما في قِربتك الجلدية.

ارتبك وقال:

– (ضاعتْ مني، لا يضيع منك غالي...)

فقلت له:

– إذًا سأطلب من جودت والشيخ طبرق مساعدتك في البحث عنها.

فأعلن استسلامه وعلم أني كشفت سر الذهب الذي يخفيه في قربته، وتحولت من عزيز ناقة إلى عزيز أفندي، وأعلن ولاءه التام مقابل ألا أفضح سره، والمهمة الأولى التي أوكلتها له هي مراقبة سعدون، والكشف عن طريقته في إخفاء الذهب، وسرَّه ذلك، ثم عدتُ إلى خيمتي فرحًا بما أنجزته اليوم، وأخذت أرتبها من جديد، ومعها أفكاري، أيامُ وسألتقي بروهان بيك، وسأقص عليه مغامرتي وما أنجزته من تقمصي لشخصية السانتور، لن أخبره بكل شيء، سأخفي عنه ما قد يتسبب في حرجي.

اقتحمتْ نعناعتي الحسناء خيمتي وأفكاري، وأخبرتني أن الكعب قد ذهب بعيدا، ولن يعود قبل المساء...انبهرتْ بنظافةِ خيمتي ونظامِها، وجلستْ على الفراش بجواري، وبادرتْ بخلع ملابسي فاستسلمت لها، ثم أخذتْ تتجرد من ملابسها قطعةً تلو الأخرى وتلقيها على وجهي، فأسكرتني رائحتها...أمطرتُها بالقبل، والتحمنا فتأوهت:

– عزيز عزيز.

ذبتُ خجلاً عندما انتصب فوقي اللعين سالم مُقتحمًا خلوتي...لقد رآني عاريا، ولم يتوقف عن تكرار: عزيز عزيز، سترتُ عورتي على عجلٍ، ولم يكن هناك حاجة لأستر نعناعتي وليدة خيالي، وصرخت:

– ما بك؟

والأحمق سألني:

جرة ذهب

فوزي عبده



- لماذا أنت عارٍ؟

فلم أجد ما أجيبه به سوى أني أستعد للاغتسال، فسأل في سذاجة:

- وأين الماء؟

وهنا حسمت الموقف وسألته عما يريد، فقال:

- لقد طُلب منا أن نستعد للرحيل...

اللعنة عليهم جميعا، ارتديت ثيابي وخرجت لأستوضح الأمر، وتبين أن كاظم قد عاد وطلب من جودت نقل المخيم أعلى الوادي، فأشرفتُ على تحميل خيام جودت، ولم أشرفْ على تحميل متاع نعناعتي.

أثناء صعود القافلة تجاه أعلى السيل سقط سلامة عن الحمار، واقتربت منه كغيري وأشفقتُ على حاله عندما أصابتْ أنفي رائحةُ العفن الكريهة المنبعثةُ من ساقه...تعلَّق نظر سلامة بالكعب كما تعلَّق نظر الكعب به...أشعر أن خنجر الملعون سيزور عنق سلامة قريبا؛ ففي هذه القافلة لا مكان لعاجز...بلهفة صامتة حمل طبيلة صاحبه وضمَّه إلى صدره، وترك رأسه يتدلَّى فوق كتفه...كان مشهدًا مؤثرا مُفعمًا بمشاعر حانية تفوق أضعاف ما نحمله في صدورنا جميعا...الطريقة البلهاء التي طوَّق بها صاحبه كانت أشبه بأم تحتضن ابنها المريض، وقد فقدتْ عقلها حزنًا عليه، فهي شاردةٌ لا تدري ماذا تفعل.

ألفا متر هي المسافة التي قطعناها، واستغرقت منا ما يقارب النصف ساعة وربما أقل، وعدنا لنصب الخيام من جديد، ولم يكن المكان بفساحة الأول؛ فقد ضاق السيل، وكادت تخنقه التلال، فاحتجنا مساعدة طبيلة في نقل الصناديق ولكنه رفض إنزال سلامة، فتركناه وشأنه، وتكبدنا العناء...نتناوب على حمل الصناديق ونقلها، وكلما حطَّ أحدُنا صندوقًا نظر إلى طبيلة وازداد حزنًا عليه وشفقةً على صاحبه، ثم يعود لحمل صندوقٍ آخر، ومع انتهائنا أيقن جميعُنا بأن ما يقوم به طبيلة يحتاج عشرةً منَّا لفعله.

طلب مني جودت إعداد القهوة، ففعلت، وفي طريقي إليه رقَّ قلبي كثيرا تجاه طبيلة، فمازال يحمل صاحبه ويضمه إلى صدره، وللمرة الأولى عاينت الدموع تسيل من عيني هذا

العملاق، فذهبت إلى عبد القادر وهو الوحيد بعد سلامة الذى تمكن من التواصل مع طبيلة، وكيف يعجزه ذلك وهو القادر على إتقان لغة الدواب! طلبتُ منه أن يحدثه كي يترك سلامة ليرتاح قليلا، فأخبرني بمحاولته ولكنه لم يفلحْ، وطلب مني تركه حتى يتعب وينزله من تلقاء نفسه، ولم تمر دقائق حتى سمعتُ نعمة يردد بأعلى صوته:

– إنَّا لله و إنَّا إليه راجعون، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

هرعنا جميعا تجاهه، وكان يتفحص سلامة واقفًا، ومازال طبيلة مُصرًا على عدم تركه، وعندما اقترب عبد القادر ولمسه بكى، وارتفع عويله:

– رحمك الله يا سلامة.

اجتاح الجميع حزنٌ عميقٌ، وذرفتُ دموعًا صادقةً، لقد شعر طبيلة المسكين بموت صاحبه منذ اللحظة الأولى فحمله وحرص على ضمه إلى صدره لأكثر من ساعتين، ولم يجد طريقة ليخبرنا بها، شعرتُ بالكثير من تأنيب الضمير على كل ما قمت به تجاه سلامة، وبعد جهد جهيد أقنعنا طبيلة بأن ينزل صاحبه، وتجادل نعمة وعبد القادر حول الطريقة المناسبة للدفن، وهنا اقترب الكعب منا ونظر إلى سلامة وتأكد من موته وحسم الجدل وقال:

– البقاء لله، يرحمه الله، احفروا قبرا وادفنوه كما هو، وسيُحتسب عند الله شهيدا، هيَّا تحركوا.

كان عبد القادر أكثرنا حزنا وألمًا، فذهب بنفسه واختار مكانًا بباطن التلة لن تصله المياه وحفر قبرا، وذهب سالم ونعمة ليساعداه، وبقيت بجوار طبيلة ونعناعتي التي تأثرت وبكت كثيرا، حاولت التخفيف من ألم طبيلة فذهبت إلى خيمة المؤن وأحضرت له الكثير من الطعام والتمر، حتى أني جئت له بالبسكويت، ولكنه فاجأني بالرفض، وما كان ليفعلها سابقا، ولم تفلح كل محاولاتنا للتخفيف عنه أو إقناعه بتناول الطعام...عاد عبد القادر بعد أن بنى قبرا يليق بولي صالح استغرقه بناؤه أكثر من ساعتين، ثم أمَّ المصلين لصلاة الجنازة ولم يصطف طبيلة بل وقف بجوار جثة سلامة ينظر إليه ولم يحرك ساكنًا، وبعد انتهاء الصلاة والدعاء لم يسمح عبد القادر لنا بحمل سلامة، وأراد أن يوهم طبيلة بأنه مازال حيًا، فأجلس جثة سلامة وأخذ

يتحدث إليها، وطلب مني أن أصحب طبيلة لنأتي بالماء لسلامة فرفضت وطلبت من نعمة أن يذهب مع طبيلة؛ لستُ أحمقا لأكون هدفا لغضب هذا العملاق حين يكتشف خداعي.

أشغله نعمة حتى انتهينا من دفن سلامة، ولم أفهم كيف استطاع عبد القادر إقناع العملاق بأن صاحبه قد ذهب وسنلتقي به لاحقا، وربما لم يقتنع وأدرك موت صاحبه فاستسلم للأمر الواقع...زادت شفقتي على ذلك العملاق البائس، وبالرغم من خوفي من ضخامته حرصتُ على البقاء بالقرب منه ولكني لم أفلح في التواصل معه، فتذكرتُ ما تعلمتُه من عبد القادر؛ فالخيول تفوق البشر في شعورها بمن يحبها، فحاولتُ أن أجد لمشاعري طريقًا إلى قلبه، وكانت نعناعة أكثر نجاحًا مني؛ ربما لأنوثتها، ربما لأنها تصدق في حبها لكل شيء، ربما لأن قلبها يخلو من الشر، شرب من يدها وأكل حبة تمر واحدة، وأعتقد أنه ما فعل إلا إرضاءً لها.

غابت الشمس وغاب معها سلامة وأصبح جزءًا من الماضي، وترك طبيلة يتيمًا، وجزء مني حملني مسؤولية موته أيضًا. في تلك الليلة المشؤومة هربت جبانًا ولحق بي سالم، وليتني لم أفعل! ربما تجرأ ذلك الحيوان على عض سلامة لأنه تصدَّى له وحده، لا يهم إن كان كلبا أم ضبعا فالعضة تسببت في موته، عزمتُ أن أخصمَ من حصصِ طعامِ الجميعِ، وأطعمُ العملاقَ اليتيم لترتاح روح سلامة.

قبيل منتصف الليل انطلقنا لدفن الجرار، ولم تميز هذه الليلة تلك الجرار الثلاث التي تم دفنها، ولا سعدون الذي خانه ذكاؤه وكشف نفسه عندما بالغ في التلفت نحو التلال ليرسم خرائط في عقله لموقع الدفن، وإنما ميزها حقًا ذلك الغضب الشديد الذي انفجر من داخل جودت في وجه المسخ اللعين، قائلاً:

– ألم تمل هذا الجنون والهراء الذي تقوم به؟! ألا تكفي الـ "قاقا باقا" لمرة واحدة؟! هل هناك ضرورة لتكرارها عند كل جرة؟!

ابتهج قلبي كثيرا، وامتعض الكعب كثيرا، وفي طريق العودة كرر جودت على مسامعي أكثر من مرة:

– هذا جاهل ومعتوه.

وكأنه كان في أمس الحاجة لإخبار أحد بعدم إيمانه بهذا الهراء، وبأنَّه مجبر على احتماله، وكنتُ في أمس الحاجة لسماع شتائم دسمة مثل؛ (اوغلو بوغلو) ابن عاهرة، ولكن هذا الناعم المثقف ما كان ليتلفظ بها، ولكنه أسعدني حين بصق أكثر من مرة على الأرض وردَّدَ:

- (تفووو علي) كيف وافقت على مرافقة هذا المجنون؟

ندر لقاء الاثنين إلا للتشاور في أمر خارج الخيام، متجنبا أحدهم الآخر، ولكن أن تصل الأمور إلى حد السخرية من الـ "قاقا باقا"، هذا تطور مفيد ولابد من استغلاله جيدا.

عدنا إلى القافلة، وعدت إلى خيمتي الرائعة، ولم أنسَ أخذ الكثير من التمر إلى طبيلة، والاطمئنان عليه، فوجدته متربعا على الأرض والدموع في عينيه، ولم يقترب من الطعام الذي أحضرته مسبقًا، تركت التمر بجانبه ومسدت على شعره وتركته لأحزانه وعدت إلى خيمتي، وامتنع النوم عن زيارة عينيّ فاستعرضت من ذاكرتي بعض ما كتبه جودت أفندي في يومياته:

- ***" بدأ سحر الذهب يبرق في عيون الجميع، وتساءلت كل ليلة: مَنْ منهم سيذبحني في أول فرصة تسنح له؛ ليستولي على الذهب؟ وبدأنا في دفن الذهب، وأشفقت على الفتى إيليا الذي اضطررنا لفصله عن والده؛ لينقش ما أزوده به من رموز، وطبرق الذي قيل لي عنه: إنه ذو منفعة، لم أجد تفسيرا لذبحه حمارا، ولا لكل الوقت الذي يهدره على الشعوذات، وما علاقة قائدنا صاحب المشروع التقدمي، وقدرتنا على صناعة الطائرات والتحليق بها خلال خمس سنوات، بهذه الممارسات التي تناقض كل ما نادى به، فهل يُعقل أنه ارتدى عباءة مثقوبة هو الآخر!***

احتفلنا بذبح حمار ولم أعترض، وبعد أيام ذبح عربيا بحجة أنه يخطط مع الآخرين لقتلنا جميعا ولم أعترض، ثم ذبح آخر، ولم يرحم خادمه ولم أعترض، فأي مشروع يؤمن به هذا القاتل؟! وأية أخلاق يتحلى بها قد تمنعه من خيانتنا جميعا؟! لن يكون هذا الذهب بمأمن مادام هذا السفاح الخائن يعرف كل شيء، ولابد من العودة سريعًا لإخراجه فور استقرار الوضع، وهنا ما كنت بحاجة لأوامر من الباشا لأطبق ما ردده

دوما: "إنقاذ ما يمكن إنقاذه"، فبدأت في إخفاء الكثير من الذهب دون علمه، وأرسلت رسالة مشفرة لشكيب حملها إليه كاظم، أفصحتُ فيها عن مخاوفي، فوصلني الرد وبدأ كاظم يفاجئنا بزيارات غير متوقعة كل عدة ساعات، ولابد أنها ستكون كافية لردع أية خطط تهدف إلى الخيانة ممن يرافقنا، وعلى رأسهم طبرق؛ هذا الجسم الشاذ الغريب عنا جميعا.

مرت أيام ولا أذكر بأني استطعت النوم لساعة كاملة دون أن يقطع نومي صدى صوت أو حلم مزعج، ولم أكف عن التساؤل؛ لماذا اختارني الباشا لهذه المهمة، وهو أدرى الناس بأني لست أهلا لها...ربما وجد أني منيع أمام سحر الذهب.

وبالرغم من بؤس الجبال التي تحيط بي من كل جانب إلا أني اكتشفت صدفةً أن بصحبتنا شاب تركي كان شديد البلاهة والظرافة، وكل كلمة كان ينطق بها تدخل البهجة إلى قلبي، وجوده معنا كان قصة تستحق أن تروى، لم أتذوق طيلة حياتي طعامًا أشهى من الذي تعده أمي إلا ما يقوم بإعداده، هذا الشاب مفعم بالحيوية والسعادة، يشعرك بأنه يمتلك الدنيا وما فيها، لا يشغل باله شيء، واثق الخطى، يجد في سخرية الآخرين منه إطراءً، حريص على أناقته وارتداء ربطة العنق، ولولا بعض الغبار والثقوب التي ظهرت على ثيابه لاعتقدت أنه ذاهب لحفل استقبال كبار رجال الدولة، مهذب بطريقة مستفزة، ومدهش في كل ما يقوم به، حتى نجمة أحبته، ومن أجمل ما قاله لي: إنه لم يتعلم كيف يكون سلطانا".

باكرًا أيقظني سالم؛ بعد صلاة الفجر، وكان يبدو عليه الإرهاق، فلم يستطع النوم ليلاً لأننا اعتدنا النوم نهارا، أشعل النار وأعد لي القهوة، ولم أكن من عشاقها، ولكن لن يضرني تقليد جودت أفندي، والشعور بأن هناك من يخدمني مثله.

أرسلته ليزعج منام نعمة ويحضره لمساعدتنا، انتظرنا حتى أتمت الشمس شروقها، وبدأنا توزيع الطعام، وأضفت لهم جميعا الكثير من التمر رحمةً لروح سلامة، وأخذت بنفسي طعام طبيلة، ولم يخلع عنه الحزن وإن كان أفضل حالاً من ذي قبل، حاولت التحدث إليه، فأخذت أشير بيدي لصدري وقلت:

- أنا عزيز، أنا عزيز.

ورد علي وقال:

- اذيذ، اذيذ...

أفرحني تجاوبه معي، فناولته قطعة شوكولاتة وعدت لأتم عملي، وأترقب حبيبتي حتى تستيقظ لأعد إفطارها، وسار كل شيء كعادته، وفي ساعات الظهيرة ناداني جودت أفندي، وشعرت أنه في حيرة من أمره، وأشار إلى صندوق كان في آخر الخيمة، وسألني إن قمنا بفتحه من قبل، وذاكرتي لم تغفل أدق التفاصيل، وأنا على يقين بأننا لم نقترب من ذلك الصندوق، ولكنني أجبت:

- ربما فعلنا يا سيدي.

هز رأسه وكأنه أدرك سؤاله قائلاً:

- نعم، نعم، ربما تغيرت مواقع الصناديق حين انتقلنا أعلى الوادي... اذهب الآن وأحضر لي شوالا من الخيش وعُدْ.

ذهبت لخيمة المؤن، وأفرغت شوالا وعدت به، فطلب أن أحفر داخل الخيمة الثالثة، وهي الأكثر بُعدًا عن مجرى سيل الماء، وكما توقعت ملأناه ذهبًا وجررناه ودفناه، ثم أخفينا الأثر، وعلى حين غفلةٍ من جودت ألقيت نظرةً سريعةً على الصندوق فإذا بنصف الذهب المحفوظ فيه قد اختفى، فعلمتُ أن أحدا قد اقتحم الخيمة وسرقه، لم يكن من السهل حمل هذه الكمية الكبيرة أو إخفاؤها؛ ولذا كان جودت متحيرًا بين أمرين؛ هل سُرق كل هذا الذهب، أم أننا فتحنا الصندوق وملأنا منه الجرار مُسبقًا؟ لا أفهم كيف يمكن أن يكون بهذا الإهمال، لا يعقل أنه لم ينتبه لاختفاء نصف صندوق من الذهب! أيعقل أنه يجهل الكمية التي نحملها معنا!

خرجت ولم يشغل بالي سوى معرفة سارق الذهب، من المُحال أن فردًا واحدًا استطاع ذلك، والمتهم الأول كان سعدون المقدوني، وسيسعدني أن أكشفه، وذاكرتي تؤكد أن السطو كان بعد النقل وليس قبله، وسعدون كان برفقتي عند دفن الجرار الثلاث، وهذا يبرئه ويشير إلى اتهام نعمة...عاجلا أم آجلا سأكتشف الأمر.

ذهبت إلى المسخ وأخبرته بأننا قمنا بدفن شوال من الذهب في الخيمة، من الذكاء أن أكون عبد الـ "قاقا باقا" مخلصًا ووفيًا كي أتقي شره، وفي الوقت ذاته أحسن استغلال الخلافات، سرَّه ما فعلت وربَّت على كتفي، وكنت آمل أن يدعوني لقضاء وقت ممتع مع نعناعتي مكافأة لي على إخلاصي وولائي، ولكنه قال:

- يا عزيز أنا مضطر إلى أن أقسو في معاملتك أمام جودت حتى لا يساوره الشك في علاقتنا.

بعفوية حمقاء، ولا أدري كيف زل لساني سألته:

- متى سنذبح أحدا للـ "قاقا باقا"؟

اعتقدت أنه سيصفعني؛ لامتلاء نبرة صوتي بالسخرية، ولكنه فاجأني قائلاً:

- اختر من تريد وسأشرفك بذبحه بنفسك...

كان جادا في قوله، فوجدت نفسي في ورطة انزلاق لساني، وحاولت التهرب إلا أنه أصر على سماعي أنطق باسم أحدهم، فما كان مني إلا أن طلبت منه الوقت للتفكير والاختيار، لعلي أجد مخرجا لهذا المأزق.

تركتُه وأنا على يقين أن عدم نطقي باسم ضحية الـ "القاقا باقا" سيشعره بالإهانة، ولا يجوز العبث مع أمثاله...لم أستطع منع أفكاري عن البحث، فطاف خيالي على الجميع، وكلما فكرت في أحد قفزت صورة سعدون أمامي.

انقضى النهار وملأت أربع جرار ذهبًا، ثم ذهبنا للحفر والدفن ولم يرافقنا جودت، بل اعتمد على الأمهق ليقوم بالمهمة، ولم يفعل هذا من قبل، وميز هذه الليلة أنها المرة الأولى لابتعادنا كثيرا عن القافلة، والمرة الرابعة لمرورنا بجوار أحد الأديرة، وهطلت الأمطار بغزارة، أنهينا مهمتنا، ولم نتمكن من العودة إلا بعد بزوغ الفجر.

تركتُ مهمةَ توزيع الطعام لسالم ونعمة، بعد أن طلبتُ من كليهما أن يراقب الآخر سرًا، وأخذتُ الطعام بنفسي لطبيلة ففرح لرؤيتي، وذهبت باحثًا عن راحتي آملاً ألا يوقظني أحد،

فصحوت على هدير الماء؛ فقد سببت أمطار الأمس سيلاً جارفًا أخذ في طريقه بعض أغراضنا، وكانت فرصة للاستحمام وغسل ملابسنا، فأعطيت ملابس جودت لنعمة، وملابس نعناعة تركتها لسالم؛ لثقتي فيه أكثر.

ومع الساعة العاشرة صباحا حضر الدليل ومرافقه، وحان وقت عبور النهر، وجمعنا الدليل هذه المرة ووقف بجانبه جودت، وأخبرنا بأننا قد نمر بالقرب من سكان المنطقة، فحذَّرنا من الحديث معهم أو الاقتراب منهم، وأطال في توصيتنا وتبصيرنا كيفية التصرف إذا طرأ طارئ، وأمرنا أن نحرص على أن يكون طبيلة بين الجمال، وأمر الأمهق إخفاء وجهه بارتداء عمامة وعقال، وتوَّج خطبته بطلبه من الكعب استبدال ملابسه بأخرى أقل جذبًا الانتباه.

كان واضحًا أن العبور إلى الضفة الأخرى للنهر هي المرحلة الأكثر دقة في رحلتنا، ربما لأننا سنخوض مناطق غير موالية لهؤلاء اللصوص، أو أنهم حريصون على عبور النهر دون تسرب الخبر.

أعددنا القافلة جيدًا وتزودنا بالماء، ولكثرة الاجتماعات بينهم شعرت بالقلق لشيء ما قد يواجهنا في الطريق، وأكثر ما كنت أخشاه هو قطاع الطرق والرصاص، ولم أفهم لماذا ستتحرك القافلة نهارا، سارت القافلة لما يقارب الخمسين مترا فقط، وهنا قام جمل بمهاجمة آخر وعضِّه، ويبدو أنه لم يتم لجمه جيدا، وحاول الدليل تهدئته قبل أن تعم الفوضى، وحاول أيضا نعمة ولم ينجحا، وهنا قال لي جودت:

– نادِ على العربي مغمض العينين.

هرولت لمناداة عبد القادر، بحثت فوق الجمال وأسفلها، وكأن الأرض قد انشقت وابتلعته، وبصعوبة بالغة تمت السيطرة على الجمل وعادت القافلة لتواصل سيرها، إلا أن جودت أمر بالتوقف، وبدأ بنفسه البحث والسؤال عن عبد القادر، وحين اتضح أنه ليس مع القافلة أطلق الجميع للعودة والبحث، ووصلت السذاجة إلى أن يبحث البعض عنه بخروج الحمير، وحين تلاشت البراءة من وراء اختفائه تم البحث عنه بدقة بالغة، ولم تبقَ زاوية فيما يحيطنا إلا وتم تفتيشها.

تسلق كاظم التلال، وأخذ يقص كل أثر، وعاد وهو على يقين أنه قد هرب عبر السيل؛ إمَّا الى مدخل الوادي وإما إلى الخلف، لهذا لم يخلف أثرًا وراءه، وقبل البدء في رحلة البحث عن الهارب، سأل جودت الجميع عن آخر مرة شوهد فيها، ليحدد زمن الهرب والمسافة التي قطعها...عبد القادر شبح نائم لا يلفت الأنظار؛ لم يستطع أحد الرد على جودت سوى الكعب الذي أكد على رؤيته قبل نصف ساعة، وآخر أكد على كلامه.

هنا أمر جودت الدليل بالإسراع في تجنيد كل الحراسة للبحث عنه، وقطع الطريق أمام هربه، وأخذ مرافق الدليل وانطلقا معا بعد أن أوصاني بالقافلة، لم أكره عبد القادر يوما، ولا أتمنى له مكروها، بل لعنتُ الجمل الذي كشف أمره.

لم أجد منطقا في هذا كله...نعم هو درويش، ولكنه ليس أحمقا، كانت أمامه أكثر من فرصة للهرب ليلا، مررنا بأماكن أكثر مناسبة للهرب، هذا الوادي تحيط به التلال وحتى سالم الساذج ما كان ليختار هذا المكان ليهرب منه، والتوقيت الذي اختاره كان سيئا للغاية، لماذا لم يهرب عند غفلة المراقبين! لماذا لم يهرب عند غياب الدليل ومرافقه! كنا نذهب لدفن الذهب لماذا لم يهرب حينها!! أيعقل أن موت سلامة أثَّر على عقله!

ما فعله اليوم سيفسد الكثير من خططي، لقد ذُبح رشيد ولم يفلحْ في الهرب، وهذه هي المحاولة الحقيقية التي أربكتْ الجميع...لم أتفاجأ حين أخذ مَنْ في القافلة يرددون: عبد القادر شبح ولي صالح ولم يكن له وجود، وما شاء الله أخذ كل منهم يروي قصته، ولو استمع قاضٍ لكل هذه الشهادات لأعلن على الملأ أن عبد القادر ملاك في صورة بشر جاء لهداية المُضلين في هذه القافلة.

حقيقةً يتمتع هذا الرجل بالكثير من الصفات الطيبة، وقام بأعمال لم أجد لها تفسيرا، ولكن عقلي الصغير لن يصل إلى حد رؤيته ملاكًا أو شبحًا، واختفائه لا يفسر إلا باستغلاله انشغالنا، ربما بدافع الحزن الذي أصابه، وربما لأنه ملَّ من كل شيء.

الدواب محملةٌ وأنا –في غيابهم– المسؤول الوحيد، أنا الرجل الثالث في سُلَّم القيادة...ضحكتُ سرًا وتساءلت من أنا؟! طباخ، مهرج، حفَّار، حمَّال، عبد الـ "قاقا باقا"، خادم،

أمين الذهب، حارس نيروز، أمين أسرار الكعب وجودت، سانتور...أنا كل هؤلاء، والأهم من ذلك كله أنني أكثر العارفين بمكان كل جرة ذهب، وخرائطي هي الأدق لا محالة.

ذهبتُ إلى نعناعتي وكانت متعكرة المزاج، ولا أعرف السبب، ولم أذهب إلى العملاق بل أتى إلي وأفرحني ذلك، وتساءلت هل أنا فعلا أشعر بشيء من العواطف تجاهه، أم أجد فيه لعبة بعدما زال خوفي منه؟! ناداني قائلا:

- اذيز، اذيز.

هذا تقدم ملحوظ، بالأمس كنت "اذيذ اذيذ"، حسدته على استطاعته التغلب على أحزانه بهذه السرعة، وأنا مازلت أحمل أحزانًا منذ أكثر من عشرين عاما...لم أكن بحاجة لأتكبد العناء بإنزال حمولة أحد الجمال لإطعامه، فقد احتفظت ببعض التمور والطعام بخرج أحد الحمير من أجله، فأطعمته حتى شبع، وأقسمت أني لن أتركه يجوع أبدا، فما يميزني عن صاحبه السابق سلامة هو امتلاكي سلطة الوصول للطعام متى شئت.

جاءت نيروز وأخذت تراقبه في سعادة وهو يلتهم الطعام، وها أنا أُكافأ على رعايتي لهذا العملاق، وما كنت أريد شيئًا بعد الذهب إلا أن تكون قريبة مني، راضية عني، لقد أسعدها حصولُها على اسم جديد من طبيلة "نونوز" كان لفظ اسمها على لسانه ساحرا، وأحببتُه كثيرا، حتى أخذت أناديها به، وسرَّها ذلك.

حذرته ألا يفكر في سرقتها مني، وإلا سأجعل عفاريت الـ "قاقا باقا" تشرب دمه، لم أكن جادا، فقط سخرت سرًا كعادتي، جلسنا وقضينا وقتا ممتعا في انتظار عودة فريق البحث، واتكأ طبيلة على حجر وتمدد على الأرض وتجاهلنا ونام، وضحكتُ و"نونوز" على ما فعل، وفاجأتني حينما تركت رأسها على صدره وتمددت بجانبه، والابتسامة لم تفارق شفتيها، كانا طفلين بريئين افترشا التراب؛ مشهد ساحر يفوق في جماله أجمل ما رأيت، أعادا لي بعض براءتي المسلوبة في طفولتي...براءتي التي ساهم كل من حولي في قتلها...أنظر في عيني نيروز دون التوقف عند نهديها، لم أتذوق هذه المشاعر من قبل، في تلك اللحظة تجاوزت مشاعري جسدها ولامست

روحي، فابتعدت عنهما قبل أن تطغى أنوثتها على أفكاري مجددا؛ فلا أحب إفساد هذه اللحظات التي ربما لن تتكرر ثانية.

عدت للتفكير في عبد القادر ومصيره الأسود، وهل سيعود إلينا مُكبّلاً أم جثة هامدة؟! سامحه الله، ألم يكن في مقدوره أن يصبر قليلا حتى أكتشف مكان الناقة الحلوب، أغلقتُ عينيّ في محاولة لتقليده، وضحكت واستعرضت كل ما جمعني به في هذه الرحلة منذ اليوم الأول، وذاكرتي اللعينة ما كانت لتغفل عن شيء يراه بصري...لم أسعَ لذلك ولكن ما التصق بذاكرتي أخذ يترابط ليشكل صورة واضحة ما كنت لأستوضحها لو نظرت لكل حدث بمعزل عن الآخر، فضحكت وذهبت إلى قبر سلامة الذي لا يبعد عنا عشرين مترا لأقرأ على روحه الفاتحة، وأدعو الله أن يرحمه، وجلست بجوار القبر وحرصت أن أعطي ظهري للقافلة وقلت:

– رحمك الله يا سلامة وجعل الجنة مأواك، لقد أقسمت أن أعتني بصاحبك طبيلة، ولن يجوع أبدا، وصديقك عبد القادر بارك الله فيه قضى ساعات ليعد لك قبرا مريحا، حتى أنه حين أرسلت له سالمًا ونعمة ليساعداه، كان يرسلهم بعيدا لجلب الحجارة، وفعل ذلك طمعا في الثواب، والقبر الذي بناه لك يليق بولي صالح، ولكن صديقك المسكين قد اشتد به الحزن على فراقك وهرب، وما كان لأحد أن يكتشف غيابه لولا هيجان جمل ملعون تسبب بفضح أمره قبل عبور النهر، كنت أتمنى لو أن صديقنا عبد القادر قد هرب وأخذ معه جرة ذهب صغيرة تكن له عونًا في حياته، ولكن لم يخطر ببالي أنه سيتجاوز أحلام الجميع المتواضعة في السرقة، هذا جشع وطمع لا يقبله عقلي الصغير!

لم أتفاجأ حينما نطق القبر قائلاً:

– فضحتني يا عزيز، وسنموت سويًا في يوم واحد.

ابتسمتُ وأجبتُ عبد القادر الذي حرص على ترك فسحة له داخل قبر سلامة ليختبئ فيه:

- لا تخف، الكبار مشغولون بالبحث عنك، والصغار سيعتقدون أني أدعو لسلامة بالرحمة والمغفرة.
- لعنة الله عليك وكيف اكتشفتَ أمري؟
- حرصُك على أن يجلب سالم ماءً نظيفا لخلط التراب والتمور التي حملتها معك، ؟ وتلك كانت المرة الأولى التي رأيتك تهتم فيها بالطعام، وتواضعك الشديد وحبك البالغ للنظافة، وما كنت لتلفت انتباه أحد كلما اقتربتَ من الخيام، والكثير من الملاحظات الصغيرة، والآن حان الوقت لتكشف لي عن أسرارك.
- لا توجد أسرار، اذهب ويكفيك ما اكتشفته.
- يبدو أنك لا تستوعب أن لعبة إغماض العينين لن تجدي نفعًا هذه المرة، وأنت الميت وأنا الحي الذي يجلس على قبرك، هيا لا تهدر الوقت واكشف لي كل أسرارك.
- وماذا تريد أن تعرف أيها اللعين.
- لنبدأ بحليب الناقة.
- الحليب ليس سرًا، إنه حليب أتان أيها الأحمق، حمارة، حمارة، أفهمت؟

بتقزز:

- أسقيتني حليب حمارة يا عبد القادر؟!
- وماذا تريد أن أسقيك؟ حليب ماعز يا عزيز؟!
- وملابسك كيف لا تتسخ؟
- لدي عشرة أثواب أخفيها بخرج الحمار، وكلها متشابهة كلما اتسخت واحدة كنتُ أستبدلها بأختها على حين غفلة من الجميع.
- وكيف تغمض عينيك وتمشي؟
- لو نظرت جيدًا لرأيت أني لم أغمضهما تمامًا.

شعرت أن أسئلتي سخيفة لا تليق إلا بطفل، فسألته:

- أخبرني كيف سرقت الذهب؟

- هذا أمر سهل، الكل بإمكانه السرقة بعد التسلل ودخول الخيمة من أطرافها، ولكن الصعب هو ألا يلاحظ أحمق مثلك.
- أنت محقٌ، الهروب بالذهب أصعب من سرقته، وأخبرني متى سرقت الذهب ولماذا اخترت هذا المكان؟
- الذهب...كان بإمكاني سرقته في أي وقت، ولكنِّي فضَّلتُ الانتظار حتى تفرغ عدة صناديق، وكان بإمكاني الانتظار أكثر فلم أكن بعجلة من أمري، وموت سلامة المفاجئ وفَّر المكان والوقت المناسبين، والآن ابتعد عن القبر قبل أن تتسبب بموتي وموتك، اذهب يا عزيز.
- موتك أنت فقط يا صديقي.
- عزيز اذهب الآن، إن أُكتشف أمري سأحرص على كشف أمرك أيضا، أتعتقد أني لم أراقب كل ألاعيبك وتصرفاتك المريبة بَدءا بالفرس وانتهاء ببصقك في طعام الشيخ ؟ وذلك الخادم المسكين الذي أسقيته من بولك واختفى بعدها، هل سقيت الجميع من بولك يا عزيز؟؟؟ أتريد المزيد أم حان وقت ذهابك عني؟

صعقني واستطاع السيطرة على الموقف، ولكني ما كنت لأُظهر ضعفي، فكيف يُعقل أن يسيطر عليَّ من داخل قبر! حرصتُ على التحكم في نبرات صوتي لأكتِّم خوفي، وقلت:

- وهل تعتقد أن من الحكمة أن أتركك تهرب وتفسد كل خططي.
- أي خطط أيها الأحمق! ستموتون جميعا، لن ينجُ منكم أحد، اذهب وخطط كما تشاء ودعني وشأني.
- وهل تظن أنك ستنجو؟
- إن لم تفضح أمري وتموت معي سأنجو، لن يهدروا وقتهم في البحث، فأنا الوحيد بينكم الذي لا يعرف شيئا.

لقد صدق فعلا وكان حكيما بإغلاق عينيه طوال الرحلة، وبإلحاح شديد طلبت منه أن يروي لي قصة انضمامه إلى القافلة، ولم يكن أمامه مفرًا فأخبرني، وبعد سماعها كان لابد من محاولة أخيرة معه، قبل أن أتركه لثرائه الفاحش، فقلت:

- أريد منك أن تترك ذهبا في قبر سلامة، فقد مات وهو يحلم به، وأنا أريده أن يأخذ حصته حيا أو ميتا.

ضحك وقال:

- أُقسم أنك أبله.
- أَقْسِم أن تفعل ذلك، وإلا لن أبتعد عن القبر، وسأفضحك.
- أُقسم بالله العلي العظيم أن أترك بعض الذهب في قبر سلامة.
- أَقسِم أن تترك نصف ما سرقت لسلامة.
- لن أترك أكثر من حفنة ذهب.
- لن أذهب حتى تُقسم أن تترك له النصف.
- وما حاجة ميت لأترك له نصف ما أملك!
- لقد قلتها بلسانك، وما حاجة ميت في الذهب؟ إذًا أَقْسِم اليمين لتكون لك حاجة في نصف ما سرقت.
- سأترك عشر حفنات من الذهب، وإن لم يعجبك اذهب وأخبرهم عن مكاني ليقتلوننا معا.

حقيقةً لو لم يوافق على ترك قطعة واحدة ما كنت لأغامر باكتشاف أمره وتعريض حياتي للخطر، ولكني حرصت على ألا يشعر بذلك وقلت له:

- تعال لنتفق، اترك لسلامة خمسة آلاف قطعة، وأَقسِم على ذلك، وسأذهب في حال سبيلي.

رد عليَّ مستفزا وقال:

- أقسم بالله أنك أغرب أبله رأيته في حياتي لتعتقد أني في وضع سيسمح لي بالعد والتقسيم! لأوفي يميني سأملأ كفي عشر مرات بالذهب، (والله يطرح البركة).
- كفك صغير يا عبد القادر، ولن يصل العدد الى ألف وخمسمائة قطعة.
- لا حول ولا قوه إلا بالله، أقسم بالله أن أترك له عشرين حفنة، اذهب يا عزيز.

– أوافق شريطة أن تقسم اليمين على نيتي، ولا تضيق كفك، بل تملأ وسعه بالكثير من الذهب.

أقسم عبد القادر اليمين، وكرره أكثر من مرة، وذكرته بأنه يرقد بجوار ميت، ولن تحل عليه البركة إن حنث في يمينه، ثم ودعته قائلاً:

– ليطرح لك الله البركة فيما سرقتَ أيها اللص المبارك.

عدت ويعتصرني الألم على ما ضاع من ذهبي، وقررت عند عودتي أن أمر على قبر سلامة لآخذ ما تركه فيه عبد القادر إذا لم يحنث في يمينه، وربما حينها أعيد النظر في فتح قبر رشيد، عدت أدراجي واستقبلني سالم، ويبدو أنه الوحيد الذي لا يطيق فراقي، وفاجأني عند سؤاله:

– مع مَنْ كنت تتحدث يا عزيز؟

لم يخطر ببالي حينها إلا ما قاله روهان يوما عندما اكتشفت سرا أخفاه عني:

– هل تعلم يا عزيز إن أخطر المؤامرات وأذكاها عبر التاريخ تم كشفها على يد أحمق؟ وفي كتابي الذي سأنتهي من كتابته يوما سأذكر أنه يتوجب الحرص من الحمقى أكثر من الأذكياء حين يتم إخفاء الأسرار.

ابتسمتُ وقتها، ولم أدرك قصده إلا الآن.

أجبت سالم:

– لقد كنت أقرأ الفاتحة على روح سلامة.

هز أكتافه أكثر من مرة وقال:

– لا أصدقك، لقد كنت تتحدث مع أحد.

يستحيلُ الوصول إلى نتيجة مع سالم، ولم أرغب في اكتشاف ما يدور في عقله، ولا في إطالة الحديث معه، فحسمت الموقف بإجباره على تغيير الحديث، وقبيل العصر عاد جميع الباحثين عن الهارب، وتجادلوا لأكثر من ساعة حول قرارهم القادم.

للمرة الأولى منذ عرفت جودت أفندي لم أجد تفسيرا عقلانيا لما قام به؛ اقترب مني وسألني عن عبد القادر، وعن تصرفاته في الساعات الأخيرة، مصرِّحًا بأني أستيقظ قبل الجميع لأشرف على توزيع المؤن، فارتبتُ كثيرا وشعرت بالخوف، واحترتُ في إجابته، وتعمدت إخباره بأن عبد القادر لم يتوقف عن البكاء على سلامة، وأعطى حصته من الطعام لطبيلة...قصدتُ بذلك أن أدفعه للشك بأن حزنه على سلامة هو السبب الأوحد وراء هربه، فبدا عليه الارتياح لِمَا سمعه، وعاد إلى اجتماعه مع كاظم والكعب، وتركني مع ألف سؤال؛ أولها: لماذا يسألني وهو أدرى الجميع بحُمقي؟! أيعقل أنه يشك في أمري ؟! أم أنه ما عاد يثق في أحد سواي ولو كنت أبلها؟!

انفض اجتماع الثلاثة، ورحل الدليل وطلب منا جودت أن نريح الدواب وننصب الخيام مرة أخرى، ساعات مرت ومازال عبد القادر قابعًا في قبر سلامة، ولم يهدأ عقلي عن طرح التساؤلات المُقلقة: إلى متى سيصمد عبد القادر في قبر سلامة؟ تُرى ماذا سيحدث إن فُضح أمره؟ ساعات مرت وأنا أراقب القبر في حذر شديد، وأرتعب كلَّما تحرَّك جودت أو نظر الكعب.

ومع غروب شمسُ الثلاثاء عظُم خوفي وأحسست ببرودة نصل خنجر الكعب فوق عنقي، وخُيِّل إليَّ أنه يرقص فوق جثتي وينشد الـ"قاقا باقا"، أعلم أن الخوف لن يفارقني، وأن الراحة لن تسكن قلبي إلا بعد رحيلنا عن القبر، وقتها سأوقن بأنَّ سرَّ عبد القادر لم يخرج من قبر سلامة؛ إنَّ جودت لا يكشف عن نواياه، ولا يتعجل في اتخاذ قراراته، لم أنسَ كيف صبر وتجَاهَل الجيوبَ الملآنة بالذهب حتى اعتقد الجميع أنه لا يهتم بما سرقوه، وفي الوقت والمكان المناسبين فَعَلَ ما لم يطرقْ بالَ أحد.

لم أستطع فهم التغير الذي طرأ على الخطط، وتساءلت: كم يبعد نهر الأردن عنَّا؛ ساعة، يوم أم أكثر؟! متى سنرحل؟ وعادتْ لي الحياة بعدما أرسل جودت في طلبي، وذهبتُ إليه وملأت جرة كبيرة ذهبًا ولم أرَ منه ما يشير إلى تغيُّر، أخرج من جيبه سجائر فاخرة، ودفع لي سيجارة، وأشعل سيجارته، وضحك على الطريقة التي نفثت بها الدخان، ثم قال:

- لا يبدو لي أنك مدخن؟

فأجبته:

– لا يا سيدي ولكني سأتعلمه.

ابتسم وقال:

– لا تفعل ذلك يا عزيز، فهذه لعنة نفثها هندي في وجه برتغالي غازٍ، وأهداها لفرنسي طموح، وسبقه باستثمارها إنكليزي خبيث، ويوما ما لن يتعاطها غيرنا.

فقلت محاولاً استعادة دور المهرج:

– ولكن يا سيدي لقد أخبرني روهان بيك أن مخترعها هو مولانا السلطان.

فرد علي:

– نعم الهندي سرقها من السلطان! قم وأحضر لي زجاجة نبيذ من التي اخترعها مولاك.

أشار إلى صندوق النبيذ، فأحضرت له زجاجة، وحرصت على اتباع طقوس تقديم النبيذ التي تعلمتها من السيدة الراقية "نازلي هانم" التي لم تكتشف يوما أن زوجها روهان الخبيث كان يستبدل النبيذ الفاخر بآخر رخيص قبل كُلِّ حفلةٍ تقيمها في منزلها، وتدعو إليها كبار الباشوات، كان الثعلب يهددني وينذرني البوح لها بجرائمه، ويهمس في أذني:

– ضيوفنا الباشوات بارعون في تذوق الأناقة، ولا يميزون بين نبيذ معتق منذ ألف عام، وشاي مخمر منذ الأمس، يليق بهم احتساء النبيذ الرخيص في كوب فاخر، ويليق بي احتساء النبيذ الفاخر ولو في حذاء.

سكبت النبيذ وقدمته في أناقة، فرَاق ذلك جودت كثيرا، وطلب مني أن أحضر كوبًا وأشاركه الشراب، وبالرغم من مرارة طعمه إلا أنه كان أقل حدة من العرق الذي جربته مرة واحدة ولم أكررها.

ضحك وقال:

– لا يبدو لي أنك احتسيت النبيذ من قبل؟

- لا يا سيدي أنا أفضل العرق على النبيذ.
- اذهب إلى الصندوق واجلب زجاجة عرق.

لم يكن أمامي إلا أن أجاريه، ولاحظ إغماض عيني وتشنج عضلات وجهي كلما اقترب الكوب من فمي فضحك بأعلى صوته وقال:

- كم مرة احتسيت الخمور في حياتك يا عزيز؟
- كثيرا كثيرا يا سيدي.
- وكم مرة الـ "كثيرا كثيرا" هذا؟
- مرة واحدة يا سيدي، تذوقته في عيد زواج روهان ونازلي هانم.

ضحك كثيرا وأجبرني على مشاركته، وشعرت بدوار ولكني لم أفقد عقلي، وكنت بارعا في حواري، وكلما ضحك تبدد خوفي وأيقنت بعدم شكِّه في أمر عبد القادر، وحين ثمل وملَّ أمرني بالرحيل لسؤال طبرق عن رغبته في دفن الذهب هذه الليلة، فذهبتُ ثم عدتُ إليه بعدما بحثتُ عن طبرق ولم أجده، فسأل:

- وهل فتاته موجودة أم اختفت هي الأخرى؟

فأجبته :

- لا أثر لها.
- سيعود قريبا لابد أنه ذهب ليريها عفريته الأسود.

صرفني وخرجتُ من خيمته فرأيت البغال ترقص والجمال تغني، وناديت على سالم وذهبنا إلى خيمتي الراقية وطلبت منه أن يجلس على الأرض، فرفض في بادئ الأمر، ولكني رشوته فوافق وجلست على أحد الصناديق التي فرغت من الذهب، وجئت بعلبة سجائر، وأشعلت واحدة وأعطيته واحدة ووضعت ساقا فوق أخرى وقلت له:

- لا يبدو لي أنك مدخن يا سالم.

- (أنا بدخن التتن وعمري عشر سنين)

- لا تفعل يا سالم هذه لعنة بصقها هندي في وجه فرنسي وباعها إنكليزي لنا، هيا اذهب وأحضر لي زجاجة نبيذ من الصندوق وقدمها لي برقي وأحضر كوبا وتعال لتشرب معي.

لم يتحرك، وربما تساءل: ما النبيذ؟ ومن أين أحضره؟ فتنازلت عن طلبي، واكتفيت بأن يحضر الماء، وأجبرته على أن يشرب معي، وسألته:

- أخبرني يا سالم كم مرة احتسيت النبيذ في حياتك؟

- (وسو هذا الببيذ؟)

فصرخت فيه:

- أيها الأبله هذا الذي تشربه الآن.

فنظر في الكوب وقال:

- (قصدك المي؟ أنا بشرب كل يوم لما بعطش)

فقلت له:

- أنت تقصد كثيرا كثيرا، والآن أخبرني: كم هذا الكثير؟

صمت سالم ولم يجبني فقلت:

- هيا قم واذهب إلى الشيخ طبرق واسأله عن رغبته في دفن الذهب هذه الليلة.

تجاهل طلبي ولم يتحرك من مكانه فقلت له:

- أخبرني يا سالم، ما رأيك في التحالف مع ألمانيا أم تفضل إنكلترا؟ ولو كنت أنت السلطان هل ستضاجع الجواري أم ستدخن السجائر؟

صمت سالم وأفسد عليَّ متعتي لابد أنه اعتقد أنني قد مسني الجنون، صرفته بعدما شعرت بالملل، وقلت له:

– هيا اذهب واحضر لي بعض الجرار واملأها ذهبًا، ثم نظف الخيمة واذهب للاعتناء بفرسي الجميلة.

تجاهلني الحقير؛ خرج ولم ينحن ولم يقل: سمعًا وطاعةً سيدي، ولم يكن أمامي إلا أن أُحضر خادما من خيالي وأجلسه على الأرض وأواصل حديثي معه، وكان أكثر براعة من سالم، وقهقهت كثيرا على أجوبته، وحين مللت منه صرفته بعدما كافأته بقطعة شوكولاتة لم يأكلها سواي.

سقطتُ عن الصندوق وغططت في نوم لذيذ أفسده علي سالم حين أيقظني باكرًا لتوزيع الطعام، غسلت وجهي، وذهب ليحضر قهوتي التي لا أحب فيها سوى الإحساس بأن هناك مَنْ يقوم على خدمتي، وحين طالب بالسجائر كما وعدته أمس لم أعطه عقابًا على أدائه السيئ، وغفرت له بعدما دافع عن نفسه قائلاً:

– (والله ما فهمت عليك شو هذا ألمانيا وبلكلترا وببيذ ما فهمت والله!)

كان مزاجي رائعا في صبحِ الأربعاء بعدما مرَّ الأمس ولم تزورني الموتى في منامي، تجولت في المخيم حَذِرًا ومن بعيد ألقيت نظرة سريعة على قبر سلامة، وتأكدت أن لصنا النظيف مازال مختبئًا، وفي ساعات الظهيرة عاد الدليل، ولم يدم اطمئنان قلبي بعدما علمتُ أن تغيير الخطط لا علاقة له بالهارب؛ فقد أقلقني ما تبادر إلى أذني بأننا ربما سنضطر إلى التخييم عدة أيام بِناء على أمر من شكيب، وهذا وقت طويل يتجاوز قدرة عبد القادر على البقاء في قبر مغلق بجوار جثة سيدب فيها العفن...أخشى أن ينتبه جودت أو الكعب فينتهي أمري.

زاد الطين بلَّةً أن نعناعة قد صحبت طبيلة ليزور قبر سيده، فخلعتُ شخصيتي السانتورية وأسرعت إليها وأخبرتها أن ما تقوم به سيزيد الأمور تعقيدا؛ لأن طبيلة قد تعود على غياب سلامة، ومن الأفضل ألا نذكره؛ هدفتُ إلى إبعادها عن القبر حتى لا تلاحقها عينا الكعب ويلفت القبر انتباهه، ولم أفعل ذلك حرصا على عبد القادر، وإنما حرصا على حياتي.

وبعد عصر اليوم جاءني الكعب وسألني:

– هل اخترت أحدًا؟

لم يخطر لي ببال أن يعود ويسأل عمن سُيذبح، وعندما أعاد السؤال أبلمتُ فقال:

– مَن اخترت لأُشرفك بذبحه وتذوق دمائه؟

كلماته حفزت خيالي على خلق الكثير من المشاهد المرعبة، ولم أجد ما أرد به عليه، وأمام عجزي وصمتي قال:

– إما أن تختار أو سأختار أنا.

وما كنتُ لأتركه يختار خوفًا من وقوع اختياره على خادمي سالم، فقلت:

– اخترت سعدون.

هزَّ رأسَه وقال:

– ومن منهم هذا السعدون؟

فأجبته أنه صاحب العينين الخضراوتين، فقال:

– لا لا اختر غيره فهذا أريده لاكتمال البدر القادم.

احترتُ مَنْ يتوجب عليَّ اختياره؛ نعمة يخدم أهدافي حاليًا، وأحمد شيخة يغسل الملابس، وأحمد الكبير مسالم ويشبه سلامة، فاخترتُ الأمهق، وأنا على يقين بأنه لن يجرؤ على الاقتراب منه لحاجة جودت إليه في نقش الرموز؛ لم يرق له اختياري، وحكَّ رأسه، وبدا عليه الحرج ثم قال:

– إذًا سأشرفك بذبح سعدون.

انصرف وترك خلفه خيالي غارقًا في دماء سعدون مما أصابني بالاشمئزاز والحزن لكن كراهيتي لسعدون خففت من وخز ضميري، وبعد غروب الشمس طلب جودت أن أعطي جرة الذهب للكعب، وأوصاني أن أهتم بإيليا، وأن أجاوره حتى ينتهي من نقش الرموز، انطلقنا ولم أجد سببا يمنع جودتْ من مرافقتنا سوى حرصه على حراسة الذهب.

كانت وجهتنا أعلى السيل، وغاظني كثيرا ما لاحظت من فرح سعدون لمرافقتنا، هذا المقدوني اللعين لا شيء يسعده أكثر من معرفة مكان دفن الجرار، وبالرغم من أنه لم يفصح عن نواياه إلا أني كنت على يقين –من خلال مراقبتي– بأنه على ثقة بنجاته وعودته ليسرق ذهبي، ولكن في زاوية ما من نفسي أتمنى ألا يقتله الكعب، وفي الوقت نفسه أدعو الله أن يتعثر ويموت، لا شيء يسرني أكثر من الخلاص منه، ولكن لا أريد أن أكون سببا في هذا.

وصلنا أعلى السيل وعبرنا طريقًا ضَيقةً لم نتمكن من عبورها إلا بِشِق الأنفس، ولم نتجاوز التلة حتى اعترض طريقنا غراب مسلح، وإشارة واحدة من يد الكعب كانت كافية ليعود ويختفي خلف الصخور، صعدنا ما يقارب الساعة، وساعة أخرى ألقتْ بنا على مشارف مساكن العرب، وسرنا أقصى اليمين حتى وصلنا إلى نبعة ماء مكثنا بجوارها قليلاً، ثم اعتلينا إحدى التلال، وكان القمر بدرا فدعاني إلى إطالة النظر، وعندما نظرتُ إلى الأسفل علمتُ أن نهر الأردن يبعد عن هذه التلال مسيرة نصف يوم، وأننا نطل على أقدم مدينة في التاريخ، وأن المكان الذي تركنا فيه جودت لا يبعد عن أريحا مسيرة ساعة وربما أقل.

لاحظت أن الكعب لم يقطع بنا كل هذه المسافة للبحث عن مكان لدفن الجرة وإنما كان يستكشف المنطقة لغاية ما في رأسه، وصدق ظني عندما عدنا أدراجنا وفي منتصف طريق العودة طلب منا أن نحفر وأشار إلى صخرة قائلاً للفتى الأمهق: انقش الرموز التي أعطاك إياها جودت، وانتظر الفتى إيليا حتى بدأنا الحفر وبدأ يرسم خريطته على ورقة، كان واضحا أنه تعلم الكثير من جودت، وبعدما انتهى سار بخطي منتظمة أبعدته عنا، واختار صخرة أخرى غير التي أشار إليها الكعب، وبدأ يصلنا صوت عزف الإزميل والشاكوش، حفرنا ودفنا الجرة، ومثل كل مرة رافقنا بها سعدون، وأخذ يجول ببصره، وحرص على تدقيق النظر ليرسم بعض علامات في مخيلته حتى ترشده طريق العودة للذهب، ولم يشعر الغبي بأنه على موعد مع خنجر الكعب ليزيل ابتسامته الصفراء ويدخله في سبات أبدي.

بدأت أترقب بدء نهايته وتباطأت الثواني ولم يبدر عن الكعب ما يشير إلى نحره ولكنه فاجئني حينما التقط حجرًا صلدًا وهوى به على مؤخرة رأس سعدون، هذا الوحش الدموي أجبن

من مواجهة فريسته وجها لوجه، أفقده توازنه فأوثق وثاقه قبل إفاقته، وبدأ يرقص وينشد الـ "قاقا باقا" وفور انتهائه نظر إليَّ وقال:

- هيا أيها العبد، تشرف بقربانك الأول.

لم أكن مرتعبًا مثل كل مرة، ولكني لم أعِ قصده، هل أرقص أم أنشد الـ "قاقا باقا" لأتشرف بالقربان؟

ألقى بخنجره تحت أقدامي وقال:

- هيا افعل ذلك ببطء ولا تتعجل حتى لا تتدفق الدماء دفعة واحدة.

هنا ارتعبت وارتجفت، فلم يخطر ببالي أنه سيطلب مني هذا الجنون، كدتُ أموت خوفًا عند مراقبة الذبح، فكيف لي أن أفعلها! كرر ما طلبه عدة مرات، ولمَّا نفد صبره للبلادة التي حلَّت عليَّ صرخ بأعلى صوته:

- التقط الخنجر واذبحه.

ارتعدت أوصالي وفي سذاجة طفل يبحث عن مخرج قلت:

- لقد نسينا أن نحضر الوعاء الفضي.

فقال:

- قربانك الأول لا تنفع دماؤه في شيء، هيا اذبحه واترك أسيادك يتذوقون دماءه الطازجة.

تصلبت فصرخ بي مرة أخرى فانحنيت والتقطت الخنجر واقتربت من سعدون، ولم ترتسم في مخيلتي أية صورة لتدلني على ما يجب فعله، أو كيفيته، وبدأ سعدون يستعيد وعيه ويفتح عينيه بتثاقل، فتلاقت عيناي بعينيه وحين لمح الخنجر في يدي ولم تعد تفصلني عنه خطوات بدأ يبكي ويرجوني ألا أفعل، وعندما وصلتُ إلى جواره لم أجرؤ على لمسه، ولم تقوَ ساقي على حملي فجلستُ بجانبه، ولم نتوقف سويًا عن البكاء، والكعب يراقب في صمت ثم انتفض فجأةً

وبصق على الأرض بقوة واندفع نحونا كخنزير بري، فصرخ كلانا، وأمسك اللعين بشعري وشَدَّ رأسي للخلف ووضع نصل الخنجر على عنقي وقال:

– أترغب أن تكون بدلاً منه؟

تجمدت الكلمات في حلقي وانسابت دموعي بغزارة، وأصابتني رجفة، واصطكت أسناني، وبللتُ بنطالي، وأمسك الكعب بكف يدي وألقى فيه الخنجر، ولمَّا لم أقوَ على ضم أصابعي أحكم قبضته عليها، وباليد الأخرى أمسك رأس سعدون الذي بدأ يرفس ويصرخ بأعلى صوته:

– لا... لا... لا...

لم يهدأ إلا بعدما عالجه الكعب بضربة أخرى على رأسه، فاستسلمت وأغمضت عيني، وشعرت بأنني صبي صغير تضع امرأة في يده سكينا وتقوم خلاله بذبح دجاجة لتحللها، وحينما أصابت وجهي دماء سعدون الساخنة جاهدتُ نفسي، ورحلتُ بخيالي بعيدًا حتى ينتهي من الذبح فضربني على صدري وحثني على فتح عيني للمراقبة، لم أستطع النظر إلى الجثة واكتفيت بمراقبته وهو يقوم بطقوسه المعتادة، وبعدما أنهاها غمس أصابعه في الدم وقرَّبها من فمي وأصر على أن أتذوق دماء سعدون، ولم يكن هناك مفرٌّ من تذوق طعمَ الدِّماء للمرةِ الأولى فارتسمت على شفتي البغيض ابتسامة شيطانية وقال:

– ستعتاد هذا الطعم وتسعى إليه بنفسك.

دفنا سعدون وأخفينا كُلَّ أثر، ولم يبقَ ما نفعله سوى اصطحاب الفتى الأمهق والعودة، وحين اقتربنا من الصخرة التي ذهب لينقش عليها سابقا وجدناه واقفًا كجذع شجرة، وعيناه جاحظتان نحونا، فأشار إليه الكعب ليتبعنا ولكنه بقي متسمرا، فاقترب منه الكعب وصفعه ليفيق مما أصابه، وكرر صفعه مرات، وأغرقه بما نحمل من مياه فلم يفق وكأنه صار تمثالاً لا روح فيه فدفعه فسقط على الأرض كلوح خشبي، لم نترك طريقة ليستعيد وعيه ولم تبدر عنه ردة فعل، وممَّا أثار دهشتي أن الكعب بكل قوته لم يستطع ثني ذراعه أو ركبته ولم يتبق إلا أن

ندلِّك جسده كي يرتخي! وحينما باءت كل محاولاتنا بالفشل حملناه على الحمار، وأحكمنا شدَّه بالحبال بعدما تحول إلى عامود رخامي.

وطأنا أرض السيل حيث تركنا القافلة ولم يعد الفتي لطبيعته، وبناءً على أوامر الكعب نقلته إلى خيمتي لأعتني به؛ مددتُ له بساطًا وجررته فوقه، وجلستُ بجواره، ووجدت نفسي أمام سر مدهش؛ كيف يمكن أن يتخشب إنسان فجأة بهذه الطريقة الغريبة! قربت النار من يده وساقه ووجهه حتى كادت تحرقه دون ردة فعل، لم أجد تفسيرا لما حدث لإيليا سوى أنه شاهد ذبح سعدون، وارتعب لهول ما رأى، وإن كان النطق يتجمد عندي جرَّاء الخوفِ، فلا عجب أنَّ يتجمد جسد صبي لبشاعة ما رأى، أخرجت الورقة من جيبه، وأثار إعجابي خطه المُنمَّق، كان قد دوَّن عدد الخطوات وبعض الرموز والأسهم، ورسم التلال والصخور والطرق، وأشار إلي الجبال البعيدة بخطوط تفصح عن بُعدها.

أشرقت الشمس وأيقظني سالم لتوزيع الطعام، ولمَّا لم أكن بمزاج يسمح لي بممارسة طقوس القهوة والباشوية فأمرته بالتوزيع وحده، وتفقدت الفتى فإذا به على حاله ولم يتغير فيه شيء سوى أنه بال في ثيابه، تركته وخرجت لأقضي حاجتي وتفقدت قبر سلامة من بعيد، ثم ذهبت إلى الكعب الجالس بجوار الخيمة وكنت أتمنى لو كان داخلها لأتمكن من إلقاء نظرة خاطفة على نعناعتي وهي نائمة، أخبرته أن إيليا مازال على حاله، ففرك أنفَه وقال:

- هل تأكدتَ أنه يتنفس؟

- نعم، ولكن جسده مازال متخشبًا وقد ظهر بعض الإزرقاق على ذراعه الأيمن، عُد إليه وأغلق أنفه وفمه لبضع ثواني لعل ذلك يحفز جسده على الاستيقاظ!

أوهمته بأني سأفعل، وما كنت لأتحمل مسؤولية ما قد يصيبه من جراء كتم أنفاسه، سأراقب وأنتظر لحين اكتشاف جودت ما حدث لصبيه الأمهق، وسأرى كيف ستكون ردة فعله حينها، مارست أعمالي اليومية وحرصت على توفير الطعام لطبيلة وأفرحني أنه بدأ يتعلق بي كثيرا ويسير خلفي كلما انتقلت من مكان إلى آخر كما اعتاد أن يفعل مع سلامة، عدت إلى

إيليا وخلعت الحذاء من قدميه، وطويت بساطًا وجعلت منه وسادة لرأسه وغطيته بلحافي الخاص وبجانبه وضعت ماءً وطعامًا ولم أفعل هذا شفقة به وإنما لغاية في نفسي.

حين استيقظ جودت أعددت قهوته وأخذت جواربه وكلفت أحمد شيخة بغسلها، وبعد ذلك طلب مني جودت أن أحضر إيليا، فأخبرته بأنه مريض وقد سهرت طوال الليل للاعتناء به، لم يكترث وانتقل إلى موضوع آخر وكان لابد لي أن أعيده إلى إيليا من جديد فقلت:

- لا أعتقد أن إيليا سيشفى يا سيدي.
- وما به؟
- يبدو أن جان الشيخ طبرق قد أصابه وحوَّله إلى تمثال حجري يا سيدي.

ضحك ولم تصدر عنه إشارة تدل على اهتمام فتمددت على الأرض وفتحت فمي وشددت عضلاتي مقلدا ما حدث لفتاه فسألني عمَّا أفعل فقلتُ:

هذا ما أصاب إيليا سيدي، وهنا نجحت في شد انتباهه وخرج مسرعا للاطمئنان عليه، فأخذته إلى خيمتي ليرى كيف اعتنيت بفتاه الامهق، وحينما وقع بصره عليه جن جنونه، وبدأ يحاول إخراجه من حالة التيبس، ولم ينجح وسألني:

- كيف حدث ذلك؟

فقلت له:

- هذا من فعل الجان يا سيدي .

فصك أسنانه وسأل:

- ماذا فعل طبرق بالأمس؟
- حفرنا ودفنا الجرة وأدى صلاة الـ "القاقا باقا" للجان مثل كل مرة يا سيدي.
- ألم يفعل شيئًا آخر أمام إيليا؟
- مثل ماذا يا سيدي؟

- أصابت إيليا صدمة رعب وفزع، ماذا فعل طبرق أمامه؟

- دفنَّا الجرة وذبح سعدون فقط وعدنا يا سيدي.

- وما هذا السعدون؟

فقلت:

- الحمَّال صاحب العينين الخضراوتين.

هنا بدأ الشرر يتطاير من عينيه، ولم يتوقف عن فرك وجهه وحك رأسه، وأدركت أنه متفاجئ من الذبح الأخير، ورقص قلبي فرحا؛ فكلما زاد الخلاف بين الاثنين أكون أكثر أمنًا، مرت دقائق من الصمت ثم أمرني بإبلاغ الكعب أن يأتي للقائه وعاد إلى خيمته، وكدت أخطأ في قولي: "ولكني لم ألحظ أنك تجتمع بطبرق في خيمتك سابقا يا سيدي" لولا أني ابتلعت الكلمات في اللحظة الأخيرة.

ذهبت إلى الكعب وأخبرته بما طلب مني، فسأل متهكمًا:

- ماذا يريد الكلباشا مني؟

فقلت:

- ربما يريد أن يسألك عما حدث لإيليا يا سيدي.

فقال مهددًا وساخرًا:

- وماذا أخبرتَه أنت؟

فقلت:

- أخبرته الحقيقة.

- وما الحقيقة التي أخبرته بها؟

- أخبرته بأن عددًا كبيرًا من الجان قد اجتمع لحراسة الذهب ويبدو أن إيليا أقترب منهم دون إذن من سيدي الشيخ طبرق فعاقبوه.

لم يخفِ النظرةِ البلهاء التي أطلت من عينيه وسأل:

- هل رأيتهم فعلا أم أنك تخيلت ذلك؟

فأجبته:

- لقد رأيتهم وكان عددهم يزيد عن الثلاثين، وثلاثة منهم كانوا يسيرون خلفك أينما تذهب يا سيدي.

رماني بنظرة غامضة لا تخلو من حيرة فارتعبتُ قليلا، لا شك أنه سأل نفسه هل هذا الأحمق يسخر مني أم أنه رأى الجان حقًا؟! حاول أن يبحث في عيني وعبر ملامحي عن أثر لخداع ولكني كنت بارعًا في تقمص كلِّ ما نطق به لساني، وحُسم الموقف لصالحي وفاحت منه رائحةُ الغرور، وانطلق تاركًا عباءته تسير خلفه وكأنه اعتقد أنَّ في أذيالها قبيلة من الجان تتبعه.

وصل وأغلظ جودت استقباله وتركتهما للاعتناء بنجمة القريبة من الخيمة، وأرخيت أذني وأرهفت سمعي حتى لا أفوت كلمةٍ، وخاب أملي كثيرًا حين لم يتشاجرا، وبدا أن كل منهما يسعى لاختصار الحديث؛ قال الكعب ردًا على اعتراض جودت بما يقوم به:

- قم بعملك وأنا سأقوم بعملي وهذا كان اتفاقنا بحضور الباشا الكبير.

- وهل الباشا طلب منك أن تذبح العمَّال عن بكرةِ أبيهم؟

- أنا أقوم بعمل كل ما هو ضروري.

- لم تترك لنا من يقود الدواب ويعتني بها.

- ثلاثة فقط انتهى أجلهم على يدي.

- أربعة وخامسهم إيليا.

- ثلاثة فقط وبيبرس رجلي أنا، وما حدث مع الفتى لستُ مسؤولا عنه.

- لن أسمح لك بالاقتراب من أحد آخر.

– سأقوم بما تقتضيه الضرورة لحماية الأمانة التي نحملها وبإمكانك أن تشكوني للباشا الكبير.

وساد الصمت، فابتعدت خشية أن يخرج أحدهما ويفاجئني، وأيقنت بأنه لن يستطيع أحد كبحَ جماحِ الكعب وتعطشه للدماء، وأن الكلمة الأخيرة في هذه القافلة ستكون لخنجره، والرِّهان عليه أفضل من رهاني على جودت الناعم الذي يبدو أنه عاجز عن حماية مؤخرته ليجرؤ على مواجهة الكعب؛ فمرافقة الموت خير من مواجهة هذا الكعب البغيض.

انقضى النهار ولم يزعجني إلا قبر سلامة، وأشك أن عبدَ القادر سيصمد ليوم آخر بجوار جثة بدأت بالتعفن، وخروجه من القبر قبل رحيلنا سيتسبب في أزمة قد تطيح بي في طريقها.

عاد إلينا الدليل مع آخر خيط لشمس اليوم وعلمت أننا سننطلق مع منتصف الليل، وبالرغم من أني لم أعرف وجهتنا إلا أني كنت سعيدا لقرب ابتعادي عن هذا المكان، واستثمرت ما تبقى من وقت قبل تحميل القافلة لألعب مع طبيلة، لعله يجذب نعناعتي لأستمتع بها في مخيلتي قليلا، وربما كنت محظوظا ولامستها تحت جنح الظلام، ولكن الحمير سبقتني وجذبتها، وكان برفقتها أحمد شيخة، وشعرت بأن هذا الملعون الصغير قد تجاوز الخطوط الحمراء، وأقسمت سرًا لأجعلنه يتضور جوعا.

التفاتة عفوية ناحية قبر سلامة أسكنتُ الرُّعبَ في قلبي، الكعب يجلس بجواره ويتأمله فعادت إليَّ البلادة وتجمدت مكاني خوفًا، ولم أملك سوى الدعاء كي يترك القبر وشأنه...نادى الكعب علينا جميعًا، وطلب أن نجلب الماءَ ونخلطه بالتراب ونطمس كل الفتحات المُتخللة حجارة القبر بحجة أن الرائحة الكريهة بدأت تفوح، ولكن عينيه أخفتْ أمرًا آخر، لابد أنه لاحظ المبالغة في صفِّ الحجارة واتساع عرض القبر، وشكَّ في اختباء عبد القادر داخله، ربما لم يجد الشجاعة أو لم يرغب بمواجهة جثة متعفنة فأمر بإغلاق منافذَ الهواء ليموت عبد القادر إن صح شكه.

بدأنا إغلاق الفتحات وكان الكعب حريصًا على طمس كلِّ منفذ، وبالغ في رصِّ كُتَلٍ ضخمةٍ من الطين فوق الحجارة، وحين انتهينا من مهمتنا ظلَّ بجوار القبر لأكثر من نصف ساعة، ثم عاد لخيمته فتنفست الصعداء، فإن مات اللص النظيف بسبب الطين يموت سري معه، ولكن حبي لهذا اللص قادني لارتكاب حماقة كانت كافية لتنسف كل شيء، قمت بمغافلة الجميع وعدت إلى القبر، وبغصنٍ جاف ثقبت الطين من عدة أماكن لأسمح بمرور الهواء، لعلي أنقذ حياته! وما إن ابتعدت حتى شعرت بندم شديد على هذا التصرف الطائش، وفكرتُ في العودة لأعيد إغلاق الفتحات.

انشغلنا بتحميل القافلة وعيناي لم تتوقفا عن مراقبة الكعب، داعيًا الله ألا يمر بجوار القبر قبل رحيلنا، وتجهيز القافلة لم يكن يسيرًا، ولو بيننا من يمتلك خبرة بشأن الدواب والقوافل لنفعتنا قوة طبيلة، ولكن أغلبنا يجهل هذه الأمور باستثناء نعمة وأحمد الكبير، ولولا تدخل الدليل والكعب لما تمكنَّا من إكمال الاستعدادات للرحيل.

الفتى إيليا لم يستعد وعيه بعد سوى تحسن طفيف في حالته وتحول من تمثال صلب إلى آخر رخو، ولم تعد هناك حاجة لصناعة حمَّالة خاصة به وصار بالإمكان طيه ورميه على ظهر حمار، وانطلقتْ القافلة قبل منتصف الليل تضج بالكثير من الدواب، ويصحبها القليل من البشر.

قبل منتصف ليل الخميس نتسلل من بين الجبال والتلال التي سترتنا عن الأعين ونتجه جنوبا عبر أراضٍ قاحلة واسعة مكشوفة أمتعتْ الدواب بالسير فيها، وبعد ما يقارب الساعة قادنا الدليل جنوبًا، ثم مال بنا شرقًا، ثم شمالاً، ولو سرنا منذ البداية في خط مستقيم لما أهدرنا الكثير من الجهد والوقت، ولكن يبدو أن هناك عائقًا في طريقنا أجبرنا على الالتفاف حوله.

وأثناء سيرنا انضم إلينا أربعة من الأغربة المسلحين ترجلوا عن خيولهم وساروا بيننا، واتخذوا من الجمال ساترا يخفيهم عن الأعين، وقد أخبرتني بنادقهم بأن خطرا ما سيواجهنا على الطريق، وعلى الفور تنازلت عن موقعي الذي يسمح لي بمراقبة الجميع وسرت وسط القافلة لأكون في مأمن، وسرَّني كثيرا أن طبيلة لم يبتعد عني، وبإمكاني استغلال جسده الضخم ليكون ساترا يصد عني الرصاص.

مررنا بجوار دير، ثم منطقة زراعية فيها الكثير من الأشجار والنخيل، وتعمد الدليل أن يمر بينها ولم يفطن إلى أنها ستكون مرعى يدفع الدواب الجائعة على عصياننا، وسيصعب علينا حثها على مواصلة السير، وسادتْ الفوضى، ولم يعدل عن رأيه لأنه كان بحاجة إلى هذه الأشجار لإخفائنا عن مجهول ما، وفاجأني أحمد شيخة الصغير حينما تسلق أحد أشجار النخيل مثل قرد وأسقط علينا الكثير من التمور، ثم نزل وتسلق أخرى، وكرر الأمر وأكلنا جميعا تمرًا طازجا ولذيذا لأن نعناعتي الجميلة طلبت من الكعب فأعطى خنجره لأحمد شيخة وأمره بذلك.

تزحف القافلة ببطء شديد حتى اعترض طريقها بيت طيني متواضع أثار داخلي فتوةً لم أعهدها وتخيلتُ وقتها أن بإمكاني هدمه في أقل من ساعة، وأن طبيلة سيفعلها في دقيقة واحدة، وبينما أنا في مقارنة قوتي المزعومة ببطش طبيلة الذي لا يملك شيئًا من أحقاد البشر ألفيتُ نفسي خلف الجميع فرحل عني الشعور بالأمان وأكثرتُ من التلفت إلى الخلف حتى اصطدمت عيناي ببريق لمع بين التراب خلفنا، وانتشر البريق حتى تلألأت بقع من الأرض كما تتلألأ السماء بنجومها في ليلٍ بهي المنظر، وعندما نظرتُ أسفل قدمي رأيت قطعة ذهبية لم أنحنِ لالتقاطها، وهنا أدركتُ أن أحدَهم يقوم بنثر قطع من الذهب في طريقنا، ولم أكن لأجرؤ على ترك رسن الجمل لأتجاوز الدواب وأكتشف ناثر الذهب تحت أقدامنا، فأخذت أتطلع وأحدُّ النظر حتى لمحت شخصًا ينحني كل عدة أمتار فأيقنت أنه يلتقط قطع الذهب في سذاجة، ولمَّا تابعته بناظري اكتشفتُ أنه سالم الذي يليق بمثله ارتكاب الحماقات، وتحتم عليَّ إنقاذ مساعدي الأحمق قبل أن يُكتشف أمره، فقمت بالخدعة التي اعتادها سلامه –رحمه الله– وربطت رسن الجمل في ذيل البغل الذي يسبقه، وأسرعت إلى سالم وما كان لأحد أن يلاحظني لولا طبيلة الذي كان يتبعني كظلي ولفت انتباه الجميع فتلقَّفتُ قربةَ الماء من سالم متظاهرًا بالعطش، وقبل عودتي همستُ في أذنه كي يلحق بي، ولكنه تجاهلني، ولم يكن لدي حيلة سوى السير في صمت حتى انقطع بريق الذهب.

ودعتنا البقع الخضراء وعدنا إلى القاحلة، ومنها قادنا الدليل شرقًا، لقد تكبدت القافلة كُلَّ هذا العناء لتخفي آثارها، وتركتْ خلفها دعوة ذهبية لمن يسعى إليها ومن لا يسعى، ولم يمر الكثير من الوقت حتى اكتشفتُ أن ناثرَ الذهبِ بغلُ المرحوم سعدون؛ لقد أخفى سعدون الذهب

الذي جمعه من السيل في حِلس البغل ولم يكتشف أمره، ويبدو أن ثقبًا قد حدث في الحِلس فتساقطت القطع الواحدة تلو الأخرى، والله وحده يعلم بعددها، تُرى ماذا سيكون عند شروق الشمس ولمعان الذهب! هل سيعتقد المزارعون أن أرضهم قد أنبتت ذهبا! لابد أن رؤيتهم لآثار الدواب وما أحدثته من خراب ستدفعهم للاعتقاد أنها تتغوط ذهبا، وسينتشر الخبر ويهب الجميع لتقفي آثار القافلة لعلها تصيبهم بالثراء.

جفتْ حلوقنا حتى اقتربنا مرةً أخرى من الأشجار والحقول التي أخفتْ خلفها الكثير من الجند المسلحين من حُماةِ القافلة، نلحظهم ولم نكترث لوجودهم، وقد أنبأتْنا طريقةُ اختبائهم على اتخاذ أهبة الاستعداد لاشتباكٍ مُحتملٍ مع عدوٍ شرس.

تجاوزناهم واستقبلنا هدير الماء ولم نر النهر، سرنا بمحاذاته، ثم عرجنا يمينًا بضعة أمتار حتى علقنا بين مئات الأشجار المتشابكة التي سدتْ طريقنا ومنعتنا الاقتراب من النهر بعدما أخبرنا هديره بأنه على مقربة منا، وكان الدليل بارعا فأعاد صفنا وأرشدنا واستأذن الأشجار فسمحت لنا بالمرور فُرادى في هدوء حتى لا نوقظ الطير في وكناته، حينها استفزني غرور المكان، ولو كنت صاحب الأمر لأمرت الجميع بأن يستلوا سيوفهم ويدمروا كل عائق، لأعبر غازيًا فاتحًا بقوة السيف، وبعدما عبرتُ واستقبلتني ضفة النهر سحرني المكان وأصابتني الدهشة: هل يوجد على سطح الأرض أكثر سحرًا من هذا! القمر لم يغادرنا، وكانت الشمس في انتظارنا وعزفت الطيور أعذب الألحان واقتربت منا السماء في هذا المكان، غرقت عيون الجميع في صمت وانبهار، وحدثتني نفسي حالمةً: عند عودتك لاستخراج الذهب لابد أن تشتري هذا المكان ولو دفعت فيه نصف ما تملكه من ذهب، وأخذني خيالي بعيدا وشيدتُ قصرًا عظيمًا ولكن سرعان ما هدمته حتى لا أثير الشبهات حولي، وأقمت على إطلالة كوخ صغير ليضمني ونعناعتي فقط، وربما تركت طبيلة يعيش معنا ليحرس باب الكوخ.

الدليل يحثنا على التحرك يرشدنا كيفية عبور النهر، وكنت أول العابرين وعلى ضفته الشرقية استقبلتنا طيور النورس ورحبت بنا وكم تمنيت أن أحيى تلك اللحظة إلى الأبد! ولكن هيهات هيهات؛ فالغراب المُسلَّح كان في انتظارنا، مهمته اصطحابُ كُلِّ مَنْ يعبر النهر إلى المخيم، حتى لا يكتظ المكان ويسمح بعبور الجميع، تبعناه مغادرين النهر حتى احتضننا مكانٌ

فسيحٌ تطوَّقه الصُّخور والتلال، يحتلُّه عددٌ كبيرٌ من الخيام الخالية على بقعةٍ واسعةٍ من الأرض، ومن المخلفات المنتشرة هنا وهناك يمكن الاستدلال على أن هذا المعسكر الكبير قد أقيم قبل سنوات، وتم إخلائه من الجنود قبل أسابيع، الموقع وما يحيط به يدل على قدر كبير من السرية، حتى أنه كان أشبه بالسجن الكبير، والطريقة التي وزعت بها الخيام، وبُعدها عن بعض لمسافات كبيرة تدل أن قادة كبار كانوا بالموقع.

ولمَّا كنت ونعناعة وطبيلة ضمن أول فوج عبر النهر إلى المخيم امتلكنا فُسحةً الوقت لانتظار وصول الآخرين، فاقترحتْ نعناعة أن نلعب الغُمِّيضة، وعلى الفور اختبأتُ ولم يفهم طبيلة معنى الاختباء فأمسكت به نعناعة وجاء دوره فأغمض عينيه، وأردت الاختباء مع نعناعتي ولم أتمكن، فبرزتُ لطبيلة الذي لم يبرح مكانه حتى فتح عينيه وأمسكني، وحين جاء دوري أغمضتُ عيني وفتحتها فإذا بطبيلة واقفًا يضحك وينظر إلى إحدى الخيام ويشير إلى حيث اختبأت نعناعة، فهرعت إليها لأغتنم فرصة لملامستها وربما لأكثر من ذلك، ولكن خاب أملي، فقد وصل الفوج الثاني ولم أكمل أمنيتي الصبيانية.

وصل جودت مع الفوج الأخير للقافلة، وقام بجولة سريعة بين الخيام واختار أكبرها، وطلب أن ننقلها إلى زاوية أخرى، وأمرنا بنقل الصناديق إليها، وبعدما انتهينا أمرَنا بضرب خيمته الخاصة ودمجها فيها، وأثار جنوني بالترتيب الذي بالغ فيه، كنتُ على عجلةٍ من أمري حتى لا أفوت الفرصة في مساعدة نعناعة، وتعليمها القليل من النظام والاختلاء بها قليلا، وربما تمكنت من اكتشاف ما يخفيه الكعب في خيمته، ولكني أهدرت كل وقتي على جودتْ ونجمة هانم، ونامت نعناعة، ولا شك في أنها ألقت ثيابها وأحذيتها وغرقت في فوضى عارمة، هذه الحسناء تحتاج لمن يصفعها على مؤخرتها ليذكرها بأنها هانم ولا تليق بها هذه الفوضى.

وزعت الطعام على الجميع واخترتُ خيامَ المؤن وخيمتي الخاصة، وأسوأ ما في هذا المكان أن كُلَّ واحد بإمكانه الحصول على خيمته الخاصة، وعلى أكثر من خيمة إن أراد، ولن ينام أحد بالعراء، ولن يكون هناك فرق بين الثلاثة الكبار –أنا وجودت وطبرق– وبين هؤلاء الأوباش، وأسفاه على هذا الأمر! فما عادت الخيمة تميزني عن بقية العوام.

دعانا الدليل لنرافقه في جولة ليطلعنا على علامتين لا ينبغي تجاوزهما، أطلق على الأولى علامة الخطر، وعلى الثانية علامة الموت، وأخبرنا أن مَنْ يتجاوز الأولى سيحدق به الخطر، والثانية تعني الموت المؤكد، وبالرغم من ذلك فإن مساحة حريتنا في التحرك تعادل قرية صغيرة، وتمكننا من إقامة سباق خيل لو أردنا، وبعدما انتهت الجولة ساعدناه على ربط عدد كبير من الدواب، وعاد بها غرب النهر، وكان واضحًا أن مكوثنا في هذا المخيم سيدوم طويلاً.

الشجر يحيط بنا، والماء البارد يتدفق علينا من بين الصخور قبل أن يشق طريقه إلى النهر، وفي غمرةِ الفرحة بهذا المخيم الجميل يبدو أني أغفلت شيئا مهما، ومن أجله اقترب مني أحمد، وقد اعتدنا أن نطلق عليه الكثير من الألقاب لنميزه عن أحمد شيخة ومنها؛ أحمد الكبير؛ فهو في منتصف الخمسينيات من عمره، أو أحمد الشايب؛ فقد غزا الشيب رأسه ولحيته، أمَّا أنا فقد اعتدت أن أطلق عليه الكثير من الألقاب المسيئة التي لا تليق بكبر سنه، وتوقفتُ عن ذلك بعد موتِ سلامة لأنه يشبهه كثيرًا، نال منه الهزال حتى بدت عظام صدره وأكتافه، كسا رأسه بحطة مرقطة، واعتاد ارتداء سروال أسود ودشداشة يربطها على خاصرته، هادئ لا يشاركنا السخرية من أحد، وحينما يقصده أحدنا ليسخر منه يشتد به الغضب، ويطلق لسانه البدوي:

– (يا خال سوقت عليك الله تبعد الساعة عن وجهي! الوضع مو زين يا خال! علامك؟ انت طبيعي! لف وجهك وعاود ابعد عني! فالك مو زين...)

رحبت به وتوقعتُ أنه –كغيره– قصدني من أجل الطعام، سألني عن الفتى الأمهق وإلى متى سيتم تركه موثقا على ظهر الحمار؟ شعرت بالقليل من تأنيب الضمير لأني انشغلت ولم أنتبه فأسرعت إليه وساعدني ظلي طبيلة في حمله إلى إحدى الخيام، وجلبت له الطعام والماء؛ ليجد ما يأكله إذا أفاق من غيبوبته، وحمدت الله أن جودت لم يره...لعنة الله على سانتور! فقد حولني إلى خادم خارق، ولم يعد هناك شيء لم أقم بعمله سوى شيء واحد، فخطرت ببالي فكرة أضحكتني كثيرا؛ حملت فأسا وبحثت عن الشجرة المناسبة، وبمساعدة طبيلة اقتلعناها من الأرض وحملناها، وبدأنا نحفر لنزرعها عند مدخل خيمة جودت أفندي، وضربة الفأس دفعته للخروج، فسألني عما أفعل فأجبته بأني أنوي أن أزرع له حديقة لتساعده على الاسترخاء، وكنت

أقصد أن يكتمل طاقم خدمته وما كان ينقصه إلا جنائني، فضحك كثيرا وطلب مني مرافقته للاطمئنان على الفتى إيليا، وحينما اقتربنا من الخيمة التي تركته فيها سمعنا نفخ ألحان الناي الحزينة التي اعتاد على عزفها فابتهج جودت، وعند دخولنا خاب أمله كثيرا، فمازال إيليا على حاله، وسالم الأبله لا يتوقف عن مفاجئتي؛ لقد كان بارعا في نفخ الناي، ولم يهدر جودت من وقته سوى دقيقة واحدة للتعاطف مع الفتى؛ لأنه لم يحتمل الروائح الكريهة التي فاحت منه واستمتع سالم باستنشاقها، انصرف جودت بعدما أوصاني بأن أهتم بغسل الفتى واستبدال ملابسه فأحنيت رأسي طاعة لأوامره وسرًا لعنته ولعنت الأمهق، وطلبت من سالم أن يقوم بهذه المهمة ولكنه رفض بشدة، فعرضت عليه الكثير من السجائر فتواقح وعرض أن يشتري سجائري مقابل قطعة ذهب من التي جمعها في الطريق، لم أغضب كثيرا فقد اعتدت على تمرده بين الحين والآخر، وعندما يشتد به الجوع سيعلم أن كل ما التقطه من ذهب لن يطرد جوعه، وعرضت الأمر نفسه على نعمة ورفضها أيضًا، وخجلتُ أن أطلب هذا من أحمد الكبير، ولم يتبق أمامي إلا أحمد شيخة الكذاب، كان أسمر البشرة، مستطيل الوجه، رفيع الأنف، صغير الأذنين، قوامه وهيئته لا يدلان على بلوغه السادسة عشر من عمره، بارع في قيادة الجمال، وكأنه وُلد لهذه المهمة، كان ضمن مَنْ استأجرهم جمال الدين ليساعدوه في إيصال قافلة المؤن، تقربت منه في الأيام الأولى لأروي ظمأ فضولي، ومنذ اللحظة الأولى أدركت أنه مفطور على الكذب بفضل ذاكرته الضعيفة التي فضحته؛ أخبرني أن والده تدبر له العمل في القافلة، وما لبث حتى حكى حكاية موت أبيه في الحرب، وبعدها ادعى أن القائمين على القافلة اشتروا الجمال من عمه في نابلس، وفي رواية أخرى من خاله في الأغوار، وبلغ به الأمر إلى ادعائه أن عشرة من الجمال ملكٌ له.

من عشرات القصص التي اعتاد على سردها، وقدرته على تسلق النخيل بتلك البراعة دل على أنه من الأغوار، ولابد أنه أحد الصبيان الذين اعتادوا على التردد على المعسكرات في محاولة لبيع الجنود تمورا وخضروات، ويبدو أن قَدره قاده إلى القافلة الملعونة مثل بقيتنا، وبالرغم من ضآلة حجمه إلا أنه يلتهم من الطعام ما يشبع اثنين ضعف حجمه، كان يتملقني ليل نهار لأزيد من حصة طعامه فتعاطفت معه في بادئ الأمر ثم بدأت استغلاله في الكثير من الأعمال؛

تنظيف الأواني وغسيل الملابس، وكنت أستمتع بإصدار الأوامر لأمثاله؛ لأكون سيدًا ويكونوا خدمًا، وما كنتُ أكترث بأنهم يسعدون باستغلالي والسخرية مني كلما سنحت لهم الفرصة بسبب شخصية السانتور التي حرصت على التظاهر بها أغلب الوقت، عرضت عليه الصفقة فالتقطها على الفور، ومن ملابس روهان التي أحملها معي أعطيته ليستبدل ملابس الفتى، وبعدما انتهى تبعني طبيلة إلى خيمة جودت، وبقي جالسًا على بابها بعد دخولي، وتباهيت بإنسانيتي العظيمة لاعتنائي بفتاه الصغير فشكرني وطلب مجالسته قليلا، وسألني عن الرجل الضخم الذي تربع على باب خيمته فأجبته بأني أعتني به بعد موت صاحبه، ولم يتعجبْ من كيفية تواصلي معه؛ ربما لأنه يدرك أن البلهاء يفهمون لغة بعضهم البعض، ولكنه سألني:

– أخبرني يا عزيز بِمَ كنت تشعر حينما يقتل طبرق أحدًا أمامك؟

فاجأني ولم أتوقع يوما سؤله، لقد تجاهلت الكثير من القواعد السانتورية في الآونة الأخيرة، وأخشى أنه فطن لادعائي البله، لقد اعتدت منه على أسئلة تحاكي غبائي المصطنع لا على سؤال خرج من بين شفتيه بتثاقل وعصر عينيه قبل أن يسأله، فأجبته:

– في المرة الأولى حينما ذبح رشيدًا بكيت كثيرًا، وفي المرة الثانية ذبح خلدون وبكيت أيضًا، ولكنه أخبرني أن كل من يقوم بذبحه سيدخل الجنة ولهذا فرحت لهم.

فتح فمه، ورفع حاجبيه، ثم قال:

– هل أنت مجنون لتصدق هذا الهراء؟

أسررتُ في نفسي: ولِمَ لا أصدقه فأنا مجرد خادم أبله، وأجبتُه في خشوع:

– وأخبرني الشيخ طبرق أيضًا أن سيدك جودت باشا سيدخل الجنة قريبا.

كلماتي الأخيرة جاوزت حدود البله والتهور والغباء، هزته فعلا وانتصب على ساقيه وقال:

– ماذا أخبرك ابن القحبة؟

وهذه المرة الثانية التي أسمعه يتلفظ فيها بلفظ سوقي، وهنا شعرت بأني قد ورطت نفسي في كذبة من السهل كشفها، وكان لابد أن أجد طريقة سريعة للتراجع عن قولي خشية ردة فعله التي ستورطني مع الكعب، وأخذت أخلط الكلمات لعلها تغير المعنى، وأطلت الحديث، ولكن لم يعلق برأسه سوى أن الشيخ طبرق يهدد بإرساله إلى الجنة، وفي هذا نية مبيتة لقتله، وقبل أن يستقر الخوف في قلبي طلب مني أمرا، وفور سماعه كدت أختنق وأنا أجاهد لأكبح ضحكاتي التي وصلت إلى حلقي، وأخذت أصدر أصواتا رغمًا عني "أخ اوووف اع..." حتى أمنع نفسي من الضحك، وحينما هدأت قليلا أجبته:

- سأفعل ذلك فورا يا سيدي

خرجتُ بعدما أذِن لي وأسرعت إلى خيمتي وألقيت جسدي على الفراش، وضحكت كمجنون حتى سالت دموعي؛ فقد طلب مني جودت بطرق ملتوية أن أنقل خيمتي بجوار خيمته، بحجة أنه يريدني قريبا منه عندما يحتاجني، وكان سببا معقولا، ولكن عندما طلب أن أجلب معي طبيلة لينام أمام الخيمة حتى لا يجرؤ أحد على الاقتراب من نجمة، ما عدت أشك في أنه يسعى ليكون في مَنعةٍ من الكعب إذا أراد ذبحه وهو نائم.

يا لسخرية القدر! كيف لو علم قائد القافلة الجبان بأني بلت في ثيابي أكثر من مرة رعبا من الكعب وخنجره، وأني أتجمد خوفا إن رماني بنظرة، كان الأجدر به أن يبحث عمن يحميني ويحميه، ولكن لا بأس إن ظن أني قادر على حمايته، ولن أتقاعس، سأبذل قصارى جهدي ما دام لا ينوي أحد قتله، وحينما يقترب منه الموت سأجلس في هدوء وأراقب، وربما أرقص وأنشد الـ"قاقا باقا" وإن طلب الكعب مني حمل الإناء الفضي والإمساك برأسه ليملأه بالدماء فمن الحكمة ألا أعترض، ثم شطح خيالي بعيدا، فرأيت الكعب يذبحه بينما أمتطي نجمة وأحتضن نعناعتي لنقوم بنزهة بين حفر الذهب.

وفي عصر اليوم ذبح الكعب بعيرا وبعدما غرقنا في اللحوم أردت أن أعيد سالمًا إلى حظيرتي مرة أخرى، وساعدتني بعض السجائر في احتواء ذلك المتمرد الذي لم يتنازل عما يحمله من قطع ذهبية في يسر، ولكنه وافق أن يدفنها في مكان لا يعرفه غيره، لم يستوعب هذا الأبله أن هدفي حمايته ولا أسعى لسرقته.

وقبيل الغروب طالعتْ من شرق المخيم قافلة قوامها ثلاثون جملا، قادها الدليل ومرافقه؛ عشرة منها تم تعليمها وفرزها وكل حمولتها تخص جودت، وعشرون لمؤن القافلة وتحوي ما لذَّ وطاب، وجميع ما نحتاج من المؤن، ومِمَّا أفرحني أنني وجدتُ بين الحمولة صابونًا معطرًا، فأخذت منه القليل لنعاعتي لتستحم وتفوح منها رائحة طيبة، ففي الآونة الأخيرة لم تستحم كثيرًا، وهذا لا يليق بحرم عزيز أفندي المستقبلية.

ومع غروب شمس الجمعة كان الجو معتدلاً، وحين غادرتنا الشمس هبت علينا رياح عاتية كادت تقتلع خيامنا، ودمدمة الرعد صمت آذاننا، وسنا البرق كاد يحرق متاعنا، ثم هطل المطر بغزاره ولم يتوقف حتى منتصف الليل، ولما هدأت الأجواء غططت في نوم عميق بعدما أخفيت كل جسدي بلحاف ليقيني قطرات الماء التي تسربت من سقف الخيمة المُثقَّب، وقبل بزوغ الفجر أفقت على ضجيج وخرجت لاستطلاع الأمر وأول ما وقعت عليه عيناي كان إيليا الأمهق وبجواره سالم يسيران جنبًا إلى جنب ويتجهان شرق خيمتي، أفرحني أنه تعافى ولحقتُ بهما إلى الخيمة التي دخلاها، وفاجئني ما رأيت وكان لابد أن أفرك عيني عدَّةَ مراتٍ؛ أمامي اثنان من إيليا، أحدهما نائم، والآخر يجلس بجواره يبكي، وبعدما عجز عقلي عن التفسير بدأتْ تتضح الفوارق بين كليهما، الأمهق الباكي ممتلئ الجسم، وحواجبه البيضاء أكثر كثافة، وعمره ضعف عمر إيليا النائم، وبعدما أدركتُ أنه والده نطق سالم وقال:

– هذا أبوه لإيليا يا عزيز.

التفت إليَّ الأمهق الكبير ومد يده وصافحني قائلاً:

– شكرا يا عزيز لقد أخبرني سالم بأنك اعتنيت بابني وأنك الوحيد الذي تعرف ما أصابه.

لم أفهم بأية لغة تواصل معه سالم! ولكن لا عجب؛ فهذا الأبله فاجئني مُسبقًا حينما اكتشفت أنه الوحيد الذي تواصل مع الأمهق الصغير. كان أبو إيليا يتحدث تركية ركيكة جدا ولكني تواصلت معه جيدًا؛ أخبرته أن ابنه صديقي وأني لم أتوان عن الاعتناء به ليل نهار، وتهربت من الإجابة عن سر ما أصابه؛ فليس من الذكاء أن أخبره الحقيقة حتى لا يتخشب هو

الآخر ويرقد بجوار ابنه وأجد نفسي مجبرا على الاعتناء بالولد وأبيه، ولكنه أصر واستحلفني بكل غال وتوسل كي أخبره الحقيقة فصمت وفكرت ولم أجد الجواب الذي قد يقنعه، ونظر في عينيّ الصامتين، ورأيت في عينيه ذكاءً ودهاءً، طال صمتنا ثم نظر إلى سالم وبعربية ركيكة قال:

– (يا ابني اعتني مي اشربهوا) يا ابني اجلب لي ماء لأشرب.

ولمَّا خرج سالم ليجلب الماء أمسك بيدي وشد عليها وواعدني أن يبقى كُلُّ ما سأخبره به سِرًا، ونظر إليَّ بعينين متوسلتين تفصحان عن حاجته لمعرفة ما أصاب ولده، وأمام عاطفة الأب الحزين، ورغبتي في اكتسابِ حليفٍ آخر رأيتُ ألا ضِرار إن أخبرته طالمَا أنه سيكون سرًا، ولكن عليَّ أن أتوخى الحذر مع رجل ظهر فجأة من العدم، فقلتُ له وتعمدت أن يفهم عكس ما أقول:

– صدقني من الأفضل لك أن تؤمن بأن ابنك سقط على الأرض، أو أصابه مرض مفاجئ، وربما خاف من نباح الكلاب، وألا تبحث عن أسباب أخرى ربما لا يكون لها وجود.

تحدَّث مَعِي طَوِيلاً، وكنتُ صَبُورًا في سماعه حتى أفرغَ كُلَّ ما في جعبته؛ علمت أن لسانه ثقيل في نطق العربية والتركية ولكنه يفهمهما جيدا، وأنه من أصل ألباني، امتهن فن النقش على الحجر، وعمل في إسطنبول، وتعاقد للعمل في القدس لأكثر مِنْ نصف عام، وبالإغراء والتهديد وجد نفسه واقفًا أمام اليوزباشي شكيب الذي أرسله لاحقًا إلى القافلة، وحظُّه التَّعِس جَعَله يصر على أن يرافقه ابنه إيليا الذي امتهن هذا الفن ليساعده.

وحين انتهى وعدته أنِّى سأخبره قريبًا بالسر الكامن وراء ما حدث لابنه، ثم سألته عن كيفيةِ وصوله مُخيمنا فأخبرني أنه عبر النهر مع الفوج الأول للقافلة فسألتُه وصفَ بعض الأشخاص المرافقين لها، ولمَّا وصف وأصاب خفق قلبي وأمطرته بالعديد من الأسئلة حول روهان بيك، ووصفته مُشيرًا إلى شاربه الفضي الكبير الذي يميزه، ولمَّا نفى رؤيته زادني حزنًا وهممتُ بالانصراف، وقبل مُغادرتي استوقفني ليسألني عن الوقت الذي مضى على إيليا بغير

طعام، كنت في عجلة من أمري ولم أفطن أن معظم من بالقافلة قد ضاعت منهم الأيام، وجوابي ناقَض ما أتظاهر به من غباء، فقلت له أثناء خروجي:

- منذ مساء الأربعاء حتى يومنا هذا لم يأكل ولم يشرب.

الشمس لم تشرق بعد، والكثير من الدواب كانت تتجول حول برك المياه التي صنعتها الأمطار بين الخيام، والوجوه التي أراها لا أعرف منها أحدا، اقتربت من أحدهم وسألته عن صاحب الشارب الفضي الكبير، فأخبرتني عيناه قبل لسانه بأنه يجهله، أطوف مسرعًا أبحث في كل الوجوه، أين أنت يا روهان بيك؟! ولمحتُ من بعيد سالمًا ونعمة يتضاحكان مع شخص أطول منهما قامة، ومن نصف القبعة السوداء التي رماها على رأسه عرفت أنه جوهر الحكواتي بالرغم من طول لحيته، ومنْ غيره سيحمل لي الأخبار، وهو من نافسني وسبقني إلى كلِّ جديد! كرهته لأنه أبرع مني في التلصص وأكثر مني جرأةً، لم يمتلك جزءًا من ذاكرتي ولكنه كان بارعا في تحويل العدو إلى صديق حميم، ولطالما حسدته على شاربه الممتلئ وقامته الطويلة، ولم أحسده على عينيه الصغيرتين وأنفه الكبير، كان يعمل عند تاجر دواب، وقاد قطيعًا منها ليسلمه للمعسكر بعد شرائه، وعلق بالقافلة كالبقية، عندما قابلته للمرة الأولى نظر في ربطة العنق التي حرصتُ على ارتدائها، وتعجب من حديثي عن نفسي بأني عالم الآثار الكبير وأيقن بأنني أبله قبل تقمصي لشخصية سانتور.

اقتربت منه فأسرع وحضنني، وقال:

- (عزيز باشا والله العظيم اشتقتلك! شو هذا يخرب بيتك طولان ونصحان!)

لم يكن لدي الرغبة لأرد على سخريته فسألته عن روهان بيك، استغرب كثيرا من سؤالي قائلاً:

- (الختيار معكم مش معنا)

لم أستدل من رده على سخرية، وأمام إلحاحي في تكرار السؤال أقسم الأيمان بأن روهان لم يرافقْ القافلة فشعرتُ بخيبة أمل وكنت أرغب في التوجه إلى النهر لعل الأفواج الأخرى تحمل أخبارا مختلفة!

لم أجرؤ على مخالفة الأوامر وتجاوز حدود المخيم، ولم أكن لأعرض حياتي للخطر من أجل أحد ولو كان روهان بيك، وسرعان ما أطلَّ الفوج الثاني من بين الأشجار قادما من النهر، جمالٌ وبغالٌ وخدم وحمالين، وكان برفقتهم الملط المخنث، وقد ضاعت هيئته النسائية واكتست ثيابه طبقة من الوحل أنبأتْ عن وقوعه في أحد الحفر، وليته غرق عند عبور النهر.

أشرقت الشمس ونشرتْ نورَها وتجمع الماكثون لاستقبال الوافدين، وحاجتي في السؤال عن روهان دفعتني لاستقبال الملط، وما إن راني حتى هرع إليّ وأخذ يعانقني ويقبلني باشتياق الحبيب الظمآن، فاحمرت وجنتاي خجلا مما أثاره نحوي من شبهات، وكنت أعتقد أن الوحل الذي أخفى تبهرجه وثيابه البراقة سيقف حائلاً عن معانقتي، ولكنه جذبني إليه بقوة، ولم أجد سبيلا للخلاص من عناقه، وكل ما كنت أخشاه أن يبدأ في تقبيل فمي، فهو لم يكترث للعيون التي تراقب وتبتسم في سخرية.

توقف عن العناق بعدما كساني وحلاً، وقبل سؤالي عن روهان طلب اصطحابه إلى مكان الماء ليغتسل، هذا اللعين الذي لم يتوقف يوما عن الثرثرة كان يجيد لُعبة الكلمات والتشويق، ومن بين كل خمسة أسئلة كان يجيب على سؤال باقتضاب شديد، ولمَّا بدأ يزيل الوحل عن جسده قال:

- هل تقصد العجوز صاحب الشارب الكبير؟
- نعم.
- لم أره، ولو رافقنا لرأيته.

انتهى من إزالة الوحل، وتركني ليتجول في الخيم وهو على يقين بأني سأتبعه، وقبل معاودة سؤالي عن روهان قاطعني قائلاً:

- اصبر يا عزيز، الجماعة في طريقه إلينا ويجب أن أعدَّ له الخيام قبل وصوله.

سألته عن قصده بالجماعة فضحك وقال:

- (الباشا الكبير الكبير يا حبي)

لم أشك في أنه المجهول الذي اعتاد على إخفاء وجهه، وبعد تفحص كل أرجاء المخيم وقع اختياره على الجانب الشمالي حيث تركنا الدواب ترعى في حرية، فأسررتُ في نفسي: اختيار مناسب يليق به وبسيده. تركني واجتمع بالخدم والعبيد الذين كانوا برفقته، واقترب مني سالم ونعمة اللذان لم يتوقفا عن تتبعنا ولحق بهما جوهر وكأنهم جميعا يترقبون حدوث أمر غريب، ولم يخف عليّ ما دار في عقولهم المريضة، سألوني عمَّا يخطط له هذا المخنث في منطقة الدواب، فأخبرتهم بأنه ينتوي نصب الخيام لسيده، وفور سماع جوابي ابتعد جوهر مسرعا واختفى بين الخيام، وقصدنا الملط وأمر نعمة وسالم بعربية ركيكة:

– (خدوا الهمير والبعال نوقلوها الى جنوب من هنا)

ولكنهما سخرا من مظهره ونعومة صوته وقهقها وتجاهلاه، وقبل ذهابهما علَّق نعمة:

– هيا يا سالم لنترك عزيز يحلب الناقة.

هذا الحقير الذي وعدني –فيما مضى– أن يطيعني ولا يسخر مني أبدًا مقابل أن أكتم سر الذهب الذي يخفيه في قربة الماء أطلق عليَّ لسانه السليط، ولن أغفر له حنثه في عهده...ابتسامة هادئة ارتسمت على شفتي الملط وقال: تعال يا عزيز ساعدنا ودعك من هؤلاء العرب، فأخبرته أن يضرب الخيام في مكان آخر؛ لأن خيمة الشيخ طبرق في الجهة الجنوبية، ولن يسمح بنقل الدواب إلى هناك، لم يكترث الملط بما أخبرته وطلب من الخدم طرد الدواب، فابتعدتُ قبل أن تشيع الفوضى ولكنه أمسك بيدي وطلب مجالسته لحين إبعاد الدواب، فسألته عن حيان فلمعت عيناه وابتسم في خبث قائلاً:

– منْ يكون حيان؟

وعندما بدأت في وصفه قاطعني ضاحكًا، وقال:

أنا أمازحك وأعرف حيان جيدا. وعض على شفته السفلى وبدأ في وصفه متغزلاً في قوامه ووسامته، ويردد بين كل جملة وأخرى "نار...نار...!" أصابني الاشمئزاز من شذوذه، وتبجحه، وكلَّما انتقل إلى الحديث عمَّا حدث في الرحلة ولاحظ أنني أتابعه في شغف عاد ليثير

جنوني بوصف قوام حيان، وعندما أحس نفاد صبري أخبرني أنه تشاجر مع أحد أفراد الفرق الخاصة وألحق به بعض الإصابات، وصمت ولم يكمل، فعاودت السؤال فأجاب:

– هرب يا حبيبي هرب.

انتظرت أن يكمل القصة، وانتقل إلى حديث آخر فاستفزني ذلك وتركته وقبل ابتعادي قال مُتخابثًا:

– ألا تريد أن تعرف ماذا حدث معه بعد هروبه؟

تسمرتْ قدماي وسألته:

– هل قُتل؟

فضحك قائلاً:

– ومَنْ يجرؤ على قتل حبيب الباشا الكبير!

وهنا لم أتمالك نفسي وقد أثار استغرابي، ولكنه أجابني وهو يغمز بعينيه ويمصمص بشفتيه:

– الباشا يحبه كثيرا وينام في أحضانه سرًا.

على الرغم من أسلوبه الماكر إلاَّ أنِّي تمنيتُ أن يكون في قوله شيء من الحقيقة، وأن حيان المغرور تحوَّل إلى ملط آخر لسيده الباشا، كنت أود معرفة المزيد حول الباشا المجهول، ولكن الجواب أطل قادمًا من النهر يتبعه بقية القافلة، كان اللعين أبو سعد يمتطي حصانه وبجواره غجرية، ومن الجواد المرقط الذي امتطته علمتُ أنها لابد أن تكون المجهول الذي اعتاد إخفاء وجهه، فسألت الملط من تكون هذه المرأة فضحك وقال:

– هذا الباشا الكبير...الكبير.

تركني وهرع لاستقبالها، وابتسامة عريضة ارتسمت على شفتي جودت الذي لم يبعد عني عدة أمتار، وترجل أبو سعد عن حصانه وعانق جودت بحرارة تدل على علاقة وثيقة، ومن على صهوة الحصان المرقط ارتسمت على شفتي الغجرية ابتسامة مُصطنعة وقالت:

- كيف أنت يا جودت؟

فردَّ عليها بابتسامة مماثلة:

- أهلا فاطمة كيف أنت أيضا، أتمنى أن يكون يعقوب قد اعتنى بك جيدا؟

اتسعت ابتسامتها وقالت:

- يعقوب خير أخ وصديق وقد بذل كل جهده لراحتي.

ضحك أبو سعد يعقوب وقال:

- لا تصدق هي التي اعتنت بي.

وشدت رسن المرقط ولكزته بقدمها، وقبل أن تستدير قالت:

- والآن ماذا أريد أكثر من ذلك وأنا برفقه جودت ويعقوب معا؟!

ابتسمتْ وتركتْهم، ونطقت شفتا أبي سعد أحرفًا لم أسمعها ولكني على يقين أنها شكلت كلمة (عاهرة)، تبادل الاثنان نظرات ساخرة وتأبط أحدهما ذراع الآخر وسارا تجاه الخيمة، أمَّا فاطمة فقد نصبتْ هامتها فوق صهوة حصانها لتجول بين الخيام وخادمها الملط يسير بجانبها راجلا، وأنا أتبعهما مثل البقية وطبيلة يتبعني كظلي والكل يراقب اللبؤة الغجرية، ودون أن تكلف نفسها الترجل عن المرقط أخذت ترسم حدودا لتفصل الجزء الذي تم احتلاله من أجلها، وأمرتْ بحل عدة خيامٍ قريبةٍ؛ لتفصل خيامَها الخاصة عن بقية المخيم، وانطلق عبيدها يترأسهم الملط لتنظيف الساحة الواسعة المحيطة بخيامها، ولم يكلفوا أنفسهم إلقاء القمامة بعيدا بل ألقوها بين خيامنا، وهكذا انشطر المخيم شطرين؛ النظيف الخاص بالغجرية، والمزبلة حيث نكون، ولمَّا لم يرق لي هذا الأمر أسررتُ أن أستثمر الكثير من السجائر والطعام لاحقا لتنظيف البقعة التي تخصني وجودت لتكون أكثر نظافة من البقعة التي تخص هذه الغجرية، وتكون المزبلة حيث خيام البقية.

فضولي يدفعني لاكتشاف أسرار فاطمة وخدمها، ولمَّا بشرني سالم بوصول بقية القافلة أسرعت لاستقبالهم وتعلقتُ بخيط رفيع من الأمل متمنيًا رؤية روهان! وأول مَنْ وقعت عليه

عيناي كانت القطة الناعمة؛ تسير في كبرياء واثقة الخطى تحمل على ظهرها حقيبة جلدية صغيرة، وبيمناها أمسكت رسن حصان قادته خلفها فكان طوعًا لها، وتدلَّى من يدها اليسرى صندوقٌ خشبيٌّ صغيرٌ اكتستْ جوانبه طبقةً من جلدٍ ذي صِباغٍ أحمر، اكتست ملابسها طينًا لم يفلح في إخفاء مفاتنها، وفوق خُصل شعرها التي تناثرتْ في فوضى عارمة استكان الكثير من ورق الشجر الذي يأبى السقوط كلما داعبتْ نسائمُ الهواء شعرها الناعم، كافأتْ كل مَنْ في طريقها بابتسامة ساحرة، وأعلم أنها لن تخصني بواحدة فابتعدتُ عن طريقها لتجنب صفعة أخرى، فمازالت آثار صفعتها الماضية عالقة على وجهي، استترتُ خلف شجرة حتى ابتعدتْ رباب المصرية وعدت لأراقب الطريق في انتظار وصول البقية حتى أطلَّ عدة أشخاص من بينهم جمال الدين، وما عاد ذلك الشخص الذي تركته منذ أسابيع؛ طالت لحيته وتغيرتْ ملامحه وذبلت عيناه وضاع بريقهما، بدا شيخًا كبيرًا، وكأنني لم أقابله منذ سنوات، كان يسير ذليلا في خطواته انكسار، ويبدو أن الغرور الذي كان يرافقه تركه في مكان ما...تجنبته وخفق قلبي فجأة حينما رأيت خصمي اللدود حيان يسير في كبرياء، كنت أتمنى أن أراه منحنيا وأقصر قامة، ولكنه ازداد طولا، ما كرهتُ أحدًا وأحببته في الوقت ذاته سوى ذلك العنيد، ربما لأنه يستحق التقدير، وربما غيرتي هي السبب.

مشاعري المتناقضة قادتني لأندفع نحوه بغير وعي كطفلٍ صغيرٍ يسعى لملاقاةِ شقيقه الأكبر بعد طول فراق، كان بعيدًا وكانت عيناي معلقتين به وقدماي تسوقاني إليه؛ تدورا يمينًا وشمالاً حتى تقصر المسافة بيننا، وحين رآني مندفعا نحوه رفع عينيه عاليًا عدة مرات ليحذرني من الاقتراب، ومازلت مندفعًا راغبًا في أن ألقي بنفسي بين أحضانه بينما هو يكثر من الغمز والتحذير وقد ارتفعت ذراعي في الهواء لملاقاته حتى لمحت سلسلة حديدية تطوق ساقه اليمنى لتثقل حركته، يجرها خلفه فتحدث رنينًا يتبع خطاه، ولم يكن لدي ما أفعله ليبرر هرولتي المفاجئة سوى معانقة مَنْ يجاوره، وقد أوقعني حظي التعس في أحضان عبد تفوح منه روائح كريهة، عانقته متظاهرا بأني أعرفه، ووقف المسكين مذهولا من هذا العناق الحار، ولابد أنه سأل نفسه ألف مرة: من أكون؟! ولماذا أعانقه؟! سرت بجانبه وسألته عن حاله وأولاده وزوجته، ولم يرد

على أسئلتي، ربما كان أخرسا، أو لم يفهم اللغة التي أتحدث بها، وربما حيرتُه أطبقتْ فمَه، تركته وأخذت معي رائحته الكريهة التي علقت بي جراء هذا العناق النَتن.

انزويت أراقب القادمين وقد بدا على الجميع أن عبور النهر لم يكن يسيرًا، ولم يكن روهان بينهم، أتلهف لرؤيته، ولابد أن أكون صبورًا فقد تجاوزتُ في الآونة الأخيرة كلَّ القواعد السانتورية وأثرتُ حولي الكثير من الشبهات.

الفوضى والأحداث المتلاحقة كانت سمةُ ذلك اليوم، حتى ذاكرتي الخارقة عجزتْ عن إعادة النظام إلى حياتي وفقدت السيطرة على كل شيء، طال عنق جودت أفندي ولمعت عيناه مع عودة أبي سعد، ومن رآه بالأمس لا يعرفه اليوم، لم أشعر بالرضا لطلبه أن أنتقل ومعي طبيلة إلى خيمة أخرى ليفسح المجال لأبي سعد كي يكون على مقربة منه، انتقلت وحرصت على أن اختار موقعا يبقيني قريبا منه، وكلفني هذا الكثير من السجائر والطعام، وحينما بدأت بإعداد مسكن أبي سعد ونقل أغراضه كان حريصا على مراقبتي، وكأني سأسرق شيئا، لم أحظَ بوده واهتمامه بالرغم من أن جودت لم يتوقف عن امتداحي، ودور المهرج الغبي لم يفلح معه، هذا الطويل الرفيع لا يضحك إلا على النكات التي يطلقها لسانه، وكان يتوقف عن الحديث فور دخولي ولم أجرؤ على أن أرخي أذني أو أتلصص في وجوده، لم يكن مهذبا في طريقتي أكله وكلامه، يبدو أقل ذكاءً من جودت، ومع هذا فشلت في سرقة ابتسامة أو لفتة احترام منه، وسرني حين عرفت لاحقا أنه يحب النوم كثيرا، ولم أكن مضطرا لرؤية عينيه الباردتين التي تخلو من أثر الحياة.

انتقلت الى خيمة الجبان جودت ونظفتها ولمعت أحذيته وكانت فرصة مواتية لالقاء نظرة خاطفة على ما كتب في يومياته:

- ***فضَّل شكيب وكاظم أن ننتظر يعقوب وفاطمة لنعبر نهر الأردن معا بقافلة واحدة حتى يتوفر العدد الكافي لحراستنا، وبخاصة بعدما وصلت برقية أعلمت شكيب بانطلاق فرقة مطاردة في أثرنا، اختبأنا بين الجبال بالقرب من أريحا في انتظار أن تنضم إلينا قافلة يعقوب، المكان الذي قبعنا فيه كان كئيبا وخانقا لم يكن يصل***

إليه الهواء، وفقدنا اثنين من العرب؛ أحدهما مات بمرض والآخر اختفى فجأة، وبعدما تبين أن يعقوب ومن معه سيتأخرون، وأن البحث عن العربي سيكلفنا الكثير من الجهد، وأننا لم نملك العدد الكافي لهذه المهمة قررنا عبور النهر، ولم يعد بصحبتنا من يكفي للسيطرة على هذا الكم الكبير من الدواب، فشيخنا المبارك قد نحر منهم الكثير ليشبع جنونه.

في طريقنا إلى نهر الأردن عبرنا شرق أريحا وشعرت بأني أحد مهربي إسطنبول الصغار؛ هؤلاء الذين حرصوا على قتل اقتصادنا ببطء شديد، تفاءلت خيرا متأملاً في أن أترك الموت خلف ظهري ولكن هيهات؛ فكل مكان نعبره يتوجب علينا أن نترك خلفنا جثة لتذكرنا، في طريقنا لعبور النهر مررنا بجوار بيت طين واكتشف رجالنا شابًا نام فيه ولم يزعجنا، ولكن كاظم قرر إزعاجه، وما كان بحاجة لمشورتي قبل أن يسرق حياته حتى لا يبوح بسرنا لأحد...أي حظ تعس قاد هذا الشاب لينام في هذا المكان! وأي جرم اقترفه! لم أقتله ولم آمر أحدا بفعلها، ولكن هل سأجرؤ على نفي مشاركتي في هذه الجرائم الشنعاء، كل ما يحيطني حولني شريكًا في هذه الجرائم، وكيف لا أكون قاتلاً وأنا لا أعترض، ولا أحرك ساكنًا! تهدف هذه القافلة إلى تمويل ثورة ضد حكم الجهل والتخلف، وفي كل يوم تقتل بريئًا، وها أنا أعبر نهر الأردن فوق جثة شاب لم يرتكب جُرمًا سوى أنه نام في طريق قافلتنا الملعونة.

خلعت عني كل همومي وتركتها غرب النهر، وعاد إليّ الأمان وسط حراسة أكثر من مئة جندي، وبدأت أستمتع بسحر المكان وعدت إلى قلمي لأبحث عن كلمات لوصف الأشجار والنوارس وهدير الماء بعيدا عن الذهب والموت، واكتملت فرحتي وأطل يعقوب خان؛ هكذا اعتدت على تسميته نسبةً إلى جنكيز خان، كم أحب هذا المشاغب! وكم اعتدنا -في صغرنا- على لعب القاضي والجلاد! لم يتنازل يوما عن حمل السيف من أجل أن يكون قاضيًا أو ملكا، حملتُ القلم وحمل السيف ومن كان يجرؤ على مخالفة أوامري ويعقوب إلى جواري.

حينما رأيت فاطمة أول ما خطر ببالي كيف استطاع يعقوب احتمال رفقة هذه اللعينة التي اقتحمت عالمنا من المجهول وتربعت في قلب الباشا وحولتنا إلى رجال مهمتهم حراستها وإخفاء أمرها عن الجميع، لم تحبني يوما ولم أحبها، وعندما ابتسمتُ لها وابتسمتْ لي همس يعقوب في أذني:

- ***يوما ما سيفيض صبري وسأطلق النار على رأسها.***

ضحكتُ وقلت له:

- ***لن تجرؤ على أن تطلق رصاصة في قلب الباشا.***

فرد ساخرا:

- ***إذًا سأطلق النار على رأسك ثم على رأسي ونرتاح منها معا".***

أثناء ساعات الظهيرة أطلَّ علينا الكعب الذي اختفى وانقطعت آثاره منذ الأمس، وبدا أنه تفاجأ بالتغيرات التي حدثت في غيابه وبخاصة الدواب التي جاورت خيمته، فأمطر الجميع بالسباب والشتائم وعلى صراخه خرج جودت مسرعا لتهدئة الأجواء وكانت النتيجة لصالح الدواب التي لم يسرها أن تكون على مقربةٍ من خيمته ونُقلتْ غرب المخيم.

أعددت لهم القهوة، وحرصتُ على أن أبصق في الماء عدة مرات قبل إعدادها، وكانت هذه المرة الأولى التي سيتذوق فيها جودت طعم بصاقي، حملتُ القهوة إلى خيمة أبي سعد حيث اجتمع ثلاثتهم، لم تكن فيها طاولة ولا مقاعد، وجلسوا على الأرض وأنا ما كنت لأجرؤ على إطالة بقائي فخرجت مسرعًا لعلي أجد السبيل لإخراج ضجيج هذا اليوم من رأسي! هربت إلى مملكتي بجوار خيام المؤن، وكان سالم نائما، أيقظته ولم أسأله عمَّا فعله؛ فهذا الأبله قد دفن ذهبه داخل الخيمة، ولم أكن لأكتشف هذا أبدا لولا أنه يأتي لتفقده كل ساعة، سألته عن عدد المرات التي أعد فيها لي القهوة، وطلبت منه أن يقسم بأنه لم يبصق في الماء قط؟ ولعنة الله عليه صمت ورفض القسم، وبعد إلحاحي قال:

- (والله ماني متذكر)

امتعضتُ وأخبرته أني لن أشرب القهوة من يديه ثانيةً. حك رأسه وفكر قليلا ثم قال:

- (بس انت يا عزيز بتشمها وما بتشربها)

فقلت:

- وأيضا لن أشم القهوة التي تعدها لي.

فقال:

- (طيب بعملك شاي)

ثم سألني إن كنا سنوزع حصص الطعام اليوم، فأمرته أن يطعم طبيلة فقط وسننتظر قليلا لعل طبرق يذبح بعيرًا ويوفر علينا استهلاك ما نملكه من طعام بعدما تضاعفت الأعداد، وطلبت منه أن يذهب سرًا ويبحث عن حيان ويعود ليخبرني عن مكانه، تجاهلني وأخذ يروي لي ما سمعه من قصص القافلة القادمة، لم أمنع نفسي من الاستماع فقد حمل لي الكثير من الأخبار التي كنت أجهلها، وحينما ذهب ليقوم بما أمرته به عاد بعد دقائق، وقال:

- (حيان بقلك روح عنده بستناك بخيمه احمد الكبير)

منعني الإرهاق من التروي قبل أن أرسل هذا الأبله، لابد أنه أخبر الجميع بأني أبحث عن حيان، وقبل خروجي إليه اعترض طريقي أبو إيليا الأمهق وسألني عن حليب أو لبن أو أي شيء ليطعم ابنه فاعتذرت ولكن سالم اللعين هز رأسه وقال:

- (في عمي أبو إيليا خذ جبنه واعمل منها لبن وإذا بدك حليب احلب حماره)

لم يفاجئني سالم بمعرفته حليب الأتان وإنما تعجبتُ من فهمه حديث التركية، فسألته كيف فهم ما طلبه أبو إيليا، فأجاب:

- (الحمار بفهم شو يعني لبن وحليب بالتركي)

تركتُهم وأسرعتُ إلى حيان وفي طريقي اعترضني الكعب وأمرني باتباعه إلى خيمته، وعند دخولنا كانت نعناعة نائمة، فتربعنا خلف خيمته بعيدًا عن الأعين، ووضع يده على كتفي وأخذ ينظر في عيني وكأنه يبحث عن شيء ضاع فيهما وقال:

– لقد أخبرتني أنك رأيت الجان عدة مرات؟

– نعم يا سيدي الشيخ.

– هل رأيتهم هذا الصباح؟

– لا يا سيدي لقد رأيتهم ظهرا عند حضورك.

هزَّ رأسُه وقال:

– صِفهم لي بدقة.

هنا أدركت أنه يختبر إن كان كلامي سيتطابق مع ما ذكرته له سابقا من هراء، ومن هو مثلي لا يعجز عن ذلك، فوصفتهم له وابتسم وقال:

– عزيز، ستُكَلف اليوم بمهمة سرية إن نجحت فيها ستنال رضا ملوك جان "القاقا باقا".

فأجبته:

– أنا طوع أمرك، وأمر الـ"قاقا باقا" يا سيدي.

وتابع قائلاً:

– سنخرجُ اليومَ في مهمةٍ لإحدى المغاور وحينما أعطيك إشارتي ستفتح ذهنك جيدًا وسترى الكثير من الجان يقفون على بوابتها، منهم الأحمر والأصفر والأسود، طوال وقصار، عيونهم حمراء وصفراء وبرتقالية، لبعضهم شوارب طويلة، ووجوههم غريبة، يحملون سيوفًا وسلاسلَ ليقطعوا أوصال الناس، لا تخف سأربط خيطًا في يدك ليعرفوا أنك منا.

الخنزير البري أخذ يردد كلماتِ الرُّعب محاولاً غرسها في نفسي، ولم يخفَ عليَّ أنه يقوم بتنويمي ليوحي إلي برؤية ما يريدني رؤيته، ولو كان فَطِنًا لطلب مني تأدية هذا الدور، ولأني سانتور أديتُ بعض الحركات العشوائية مرتعشًا لأوحي إليه بالخوف الذي اعتراني فاقتنع هذا المريض بأني أرتعد من الخوف وأنه أصاب ما أراد وعاد وقال:

خُذ هذه الرواية للمكان الذي تستحقه فقط!

جرة ذهب

فوزي عبده

شكرا لمرورك على هذه الرواية
إن كانت تستحق... انصح
أصدقاءك بها ولا تبخل عليها بعدة
كلمات على حسابك
الخاص.



- ولكن إياك أن تهرب قبل رؤيتهم يا عزيز

أحنيتُ رأسي، وماذا أفعل غير ذلك أمام هذا المعتوه! ولكني ارتعبت عندما طلب أن أصحب سالمًا معي، وهنا وسألته:

- هل ستذبحه؟

فقال:

- لا لا سأذبح حمارًا فقط، وإنما أريده أن يكون برفقتك، ودورك أن تحذره عندما ترى الجان ليهرب قبل أن يؤذيه أحدهم.

لا أشك أن المسخ يخطط لاستعراض كبير، ورأى أن حضور سالم سيضيف إليه شيئا، لم يتركني حتى تأكد أنه قد زرع الأوهام داخلي لتهيئتي.

سألته:

- سيدي، هل ستذبح اليوم للطعام؟

ويبدو أنه لم يفهم ما قصدته فقال:

- لا لا اليوم لن أذبح أحدًا، سأذبح حمارا فقط.

فقلت:

- سيدي، هل تريد أن أعد لك كبد بعير؟

فرد:

- اذهب واذبح ما تشاء من الجمال.

تركته وانصرفت للقاء حيان، وكان بصحبته أحمد الكبير ونعمة وجوهر، وقبل أن أخطو داخل الخيمة خاطبني بالعربية وقال:

- اجلس يا عزيز أفندي لقد اشتقت لك كثيرا.

وكانت هذه المرة الأولى لحديثه معي بالعربية، ربما أراد أن يفهم الجميع ما يقوله وأراد أن يقطع الطريق أمام أية مصافحة أو عناق، لم أكترث وبتباهٍ بمكانتي طلبت من نعمة أن يذهب ليذبح بعيرا، فقفز أسرع من البرق ولحق به أحمد الكبير، وأخذ جوهر يسخر كعادته قائلاً:

– ألم تعلم يا حيان أن عزيز أفندي هو المسؤول الأول عن القافلة.

ابتسم حيان وقال:

– علمتُ كلَّ شيء.

التزمتُ الصمت، حتى لا أتسبب في بدء حديث جديد، وحينما تركنا ولحق بالبقية ليشارك في حفل الذبح شكرتُ البعير الذي تسبب في رحيله، لم يبتعد ظله حتى دخل أحمد شيخة، وتلذذتُ حينما أمرته بأن يذهب لإشعال النار وبدء الشواء، وعدنا إلى الحديث بالتركية وقبل أن يسألني عن حالي سألني عن رشيد، وهذا ما كنتُ أخشاه، فسألتُه عن روهان، ولكنه أصرَّ على أن أجيبه لأنه سمع بأني آخر مَنْ كان برفقته.

لم أتفاجأ، فكنت أعلم أن يوما ما سنلتقي ويسألني عن رشيد، أغلقت في قصتي كل الثغرات لتكون مقنعة له:

– كسر رشيد جرة ذهب وملأ جيوبه وفرَّ مُختفيًا بين الجبال ولم أسمع عنه بعدها.

بالغ في أسئلتي ليتأكد من صحة روايتي، ولم يكن أمامه إلا أن يصدق، ولمَّا اطمأن سألته:

– لماذا أشرتَ إليَّ كي أبتعد عنك عند وصولك؟

فأجاب:

– كان بإمكانك أن تصافحني في هدوء مثل الجميع ولكنك اندفعت نحوي لتثير حولك الكثير من الشكوك، ألم ترَ رجال يعقوب؟ كانوا خلفي أيها الأبله.

ضحك وتابع:

– وأشهد لك بالذكاء وحسن التصرف بمعانقتك ذلك الرجل صاحب الرائحة الفوَّاحة.

مئات الأسئلة تدور في رأسي وكلُّ ما أهمني هذه اللحظة أن أسأل عن روهان، فردَّ وشابه نبرةَ صوته التوتر:

- هو بخير...بخير.

فامتعضتُ وأعدتُ السؤال:

- أين روهان يا حيان؟

أحنى رأسه وحمل صوته الكثير من الذنب:

- لا أعلم، لا أحد يعلم، آمل أنه بخير وأن يعقوب قد نقله إلى أحد المعسكرات.

لم يقتنع بما يقول ليقنعني، ولم يجد بُدًا من إخباري الحقيقة؛ لقد كان حيان في طليعة القافلة وبعد ساعات انتبه لغياب روهان فاعتقد في بادئ الأمر أنه انضم إلى قافلتنا، وحين عبر النهر كان ينتظر لقاءه، وتفاجأ حينما نفى الجميع تواجده معنا، ولم يجد تفسيرا إلا أنه نُقل في ذلك اليوم المشؤوم إلى جهة مجهولة برفقه رجال يعقوب، ففضَّل اعتقاد الخير عن التفكير في السوء، ثم صمت برهةً وانفعل ولعن نفسه أمامي على أنه غاب عن ناظريه، وسرًا لعنتُه أيضا ولكني أشفقتُ عليه، فقلت له:

- عدد المسلحين الذين تواجدوا عند تقسيم القافلة ما كان ليردعهم أي شيء، لندعو الله أن يكون بخير.

كنتُ في أمسِّ الحاجة لمعرفة الكثير من الأجوبة لكنني خرجت مسرعا إلى خيمتي، ولم أبكِ في حياتي مثلما بكيتُ في ذلك اليوم، حاولت أن أعلق نفسي بأمل صغير، رجلٌ مثل روهان بيك يختفي فجأة، ولا يعرف أحد كيف وأين ومتى! لو كان شابا صحيحًا لكان أمر هروبه مُحتملاً، أعجز عن تفسير ما حدث له، ولا أجرؤ على التفكير في سوءٍ أصابه، لم ألق صدمةَ اختفاء أحب الناس إلى قلبي دفعة واحدة، وإنما تجرعتها بدءًا من لقاء جوهر وانتهاءً بلقاء حيان، يوم ملعون صاخب...أقسم أني على استعداد أن أتنازل على كل قطعة ذهب -لا أشك أنى سأملكها يوما- مقابل أن يكون روهان بخير.

ومع غروب الشمس ذهبت إلى خيمة الذهب كما أمر جودت الناعم الجبان، ثم خرج وتركني وحيدًا، وكانت معظم الصناديق مغلقه عدا صندوقين، لم أتعجلْ في ملء ثلاثة جرار كبيرة، وكنت ألهو بالذهب بين الحين والآخر، وراودتني فكرة كبحت جماحها بشق نفسي، كنت أرغب في التبول فوق الذهب، ولكن خوفي من انتشار الرائحة ردعني فاكتفيت بالبصق على الصناديق وما فيها، وعاد الجبان بعدما ملأتُ جرةً واحدة فحثني على الإسراع، وأمرني أن أحضر طبيلة فقط وأحملها على ثلاثة بغال.

انتهيت وامتطى جودت نجمة، ونادرا ما كان يفعل عند ذهابنا للدفن، وامتطى الكعب حصانه، وكذلك فعل الملعون يعقوب، ولم أره منذ حديثي مع حيان بشأن اختفاء روهان، ومذ وقعت عليه عيني رأيت أن لقب أبي سعد أرفع من أن يستحقه حتى لا أظلم طائر (أبي سعد) بصحبة هذا المجرم الفاجر، وعند أول المخيم كان في انتظارنا سالم وأبو إيليا وحمار وآخران، اعترض الكعب على مرافقه طبيلة لنا، خشية أن يثور فطمأنه جودت قائلاً:

- اطمئن عزيز يستطيع السيطرة عليه.

نظرات يعقوب نحوي لم تكن ودية؛ لقد بدا ساخطًا على مكانتي عند جودت، غادرنا حدود المخيم، وبعد ما يقارب الألف متر وخلف الهضاب التي تطوِّق المخيم لاحظتُ تشكيلاً عسكريًا كالذي كان غرب النهر، فأيقنتُ أن هذا المخيم يخضع لحراسة مشددة من كل اتجاه، وبدت ملامح الغضب على وجه الكعب عندما انضم إلينا –على حين غرة– اثنان من الفرق الخاصة عند رأس الطريق، لقد كان يعقوب أكثر حذرًا من جودت، وأقل ثقةً فيمن حوله، ولم يكن ليترك نفسه بلا حراسة.

وبعد ما يقارب ساعاتٍ ثلاث تكبدنا فيها عناء الطريق صعودا بين الجبال اقترب الكعب من جودت وهمس في أذنه، ثم همس جودت في أذن يعقوب فطلب من المسلحيَن المكوث وحراسة الطريق؛ فلا داع لأن يقترب من الذهب سوى الخراف المَنْوِيّ ذبحها، طفنا حول جبل كسته الأشجارُ، ثم أشار الكعب عاليًا وعدنا إلى الصعود مجددًا، كانت الطريق أقل وعورة من ذي قبل، اقتربنا من مغارة كبيرة لم نبلغها في يُسر، حفرنا داخلها وأخذ أبو إيليا من جودت ورقة تحتوي الرموز التي يتوجب عليه نقشها ثم ابتعد، ولم يرافقه جودت كما كان يفعل مع إيليا، وحان

وقت نقل الجرارِ التي يستوجبُ حمل كلٍّ واحدة منها أربعةَ رجال لعبور حاجز صخري مرتفع يقطع الطريق عن المغارة، ولم تكن تسمح الطريق إلا بمرور اثنين منا فقط، لقد تعقد الأمر كله لولا طبيلة الذي نقل بمفرده الجرار الأربعة، وما كان علينا إلا أن نستلمها منه وندفعها داخل الحفرة ونهيل عليها التراب، فارتسمت ابتسامة نصر على شفتي جودت وربت على كتف طبيلة للمرة الأولى وقال:

- (برافوو يا بطل.)

انتهينا ولكز جودت يعقوب وابتسم الاثنان؛ أراد أن يقول له: لقد حان وقت هراء الكعب وجنونه، صعد إلى المغارة وطلب منا النزول، وجعل منها مسرحًا ليؤدي عرضه أمام الجميع، كان مُفعمًا بالحماس، تألق وبرع في أداء رقصة السعادين، وأنشد الـ"قاقا باقا" ولحَّنها مازجًا بين صياح الديكةِ ونهيق الحُمُر، وبرشاقة فهد قفز بيننا وقبل أن ندرك ما حدث أخرج خنجره وحزَّ عنق الحمار.

تفرقنا حتى لا يصيبنا الدم، وخاف البعض من إصابة الجان، وغمس الكعب كفيه في الدماء وأطال الرقص والنشيد، وزاد عن كل مرة بقطع ذنب الحمار وأذنيه وألقاهم عند مدخل المغارة، لا يخشى جودت العفاريت، وإنما يخشى ذابحَ الحمير والبشر، ولكنه سخر من طقوس المسخ علنًا مُستمدًا شجاعته من وجود يعقوب، وكانت المفاجأة التي لم يتوقعها أحد أن يعقوب الحازم البارد صاحب النظرات الجليدية تراجع عدة خطوات، ولم يتمكن من إخفاء الخوف الذي اعتراه من هراء الكعب وهذيانه، لقد كان مؤمنًا بمثل هذا الهراء، وهذه أول ثغرة اكتشفها في هذا الجاهل المغلَّف بالصلابة والقوة.

تركنا المغارة وهبطنا أسفل الجبل حيث تركنا الخيول وحين وصلنا طلب منا الكعب أن نتنحى جانبا، وبدأ القيام بطقوس لم يفعلها من قبل، رقص مجددا وأنشد وأخذ ينثر مادة صفراء في الهواء، وكلما نظر إلى يعقوب ازداد حماسا، واستمرت طقوس الهراء الجديدة حتى استاء جودت كثيرا أمام الضعف الذي اعترى صديقه، وهنا غافلهم الكعب وغمزني بطرف عينه وقال لي أمام الجميع:

- خذ معك أحدًا يا عزيز وعد إلى المغارة وآتني بأذني الحمار وذنبه.

فطنت أنه أرادني أخذ سالم، وقبل أن نشق طريقنا أراد طبيلة أن يتبعنا فوضعتُ له طعامًا فجلس يلتهمه، وبدأنا الصعود بين الأشجار تجاه المغارة، ولم نجاوز منتصف الطريق حتى التصق بي سالم وأخذ يتمتم فَزِعًا:

- (مشان الله عزيز خلينا نرجع الجن بلمسنا)

قوَّيتُ من عزيمته، ولم يتوقف عن قراءة آيات من القرآن بأعلى صوته حتى بلغنا المغارة والتقطت الذنب والأذنين، وتصنمت مكاني واحترت بما يتوجب علي فعله، هذا اليوم برمته ليس مناسبًا لأي شيء، تكدر صفوي، وانشغل ذهني، وأشعر بقرف شديد، ولا رغبة لي في التمثيل، ولم أجد أمامي إلا أن أستغل خوف سالم وأدفعه على البكاء والهرب، لعل ذلك يساعد في لفت انتباههم، ويخفي عجزي عن أداء دور المرعوب الملموس، سرت عدة خطوات داخل المغارة وقلت:

- اهرب يا سالم لقد خرج الجن.

لم يتحركْ، فأردت أن أكون أكثر حماسًا لأثير خوفه، وملأت رئتي بالهواء وشحذت نفسي بما تبقى من طاقة وضغطت على خنجرتي، وبلهجة سالم قلت:

(يا ويلنا...! الجن الجن... الجن طلعوا من المغارة! اشرد يا سالم قبل ما يذبحوك)

التفت إليه وكان مازال واقفا يحدق داخل المغارة ويبحث في زواياها، فسألته:

- ألا ترى الجني الطويل؟
- (مش شايف)
- ألا تري الجني السمين؟
- (مش شايف)
- ألا ترى القصير؟ الأحمر؟ الأسمر؟ الأخضر الأحول؟ الأكتع؟

علق لسانه:

- (مش شايف شي يا خوي)

هذا الأبله الذي بكى من الخوف قبل دقائق صار الآن شجاعًا ليفسد خططي ويفضح أمري مع ذابح الحمر والبشر، وبعدما اشتد بي اليأس كان لابد من تقمص الأدوار؛ نظرت في عيني سالم، ووضعت إصبعي فوق فمي وقلتُ له:

- (هووووش).

فقال هامسًا:

- (شو في يا عزيز؟)

صرختُ بأعلى صوتي:

- ضبع يااااا سااااالم ضبع.

أسرع من نطق الأحرف قفز فوق حاجز المغارة واختفى بين الأشجار، ضحكتُ وتخيلتُ ضباعًا تتسلُّ من الظُّلمة لتهاجمني، ولكن فزع سالم ملأ قلبي حماسًا فجلستُ وراودتني فكرةٌ مجنونةٌ، ولم أستطع منع نفسي عن تنفيذها؛ ولجت المغارة ووقفتُ حيث دفنَّا الجرار وأسقطتُ سروالي، وجلست القرفصاء وتغوطت على الذهب، أفرغت ما في معدتي وامتلأت بالسعادة والسرور، شعرت بالحماس وبدأتُ في هزِّ مؤخرتي مُقلدًا الكعب، ومُنشدًا الـ"قاقا باقا" ولم أخشَ سوى أفعى أو عقرب يلدغ مؤخرتي ويفسد نشوتي، تملكني الشعور بالفخر والكرامة، وشعرت أني باشا حقيقي، فأي باشا يمتلك الجرأة ليتغوط فوق كل هذه الثروة! أهتف سرًا:

- (أنا عزيز باشا وها أنا أتغوط فوقكم جميعا وأنتم جميعا بالأسفل تنتظرون حضرتنا لينتهي من تغوطه)

واشتد جنوني حتى خطر ببالي أن أحفر وأخرج بعض قطع الذهب لأمسح بها مؤخرتي الذهبية وتساءلت سرًا إن كان سيسهل عليَّ أن أحدث أحدًا بما فعلت يوما، ليس من اللائق أن أصف هذا المشهد المشين، اجتاحتني ثورة عارمة وغضبت من هذا المهذب الذي يسكن أعماقي وصرخت فيه:

- ألا يحق لي أن أفخر بشجاعة مؤخرتي التي تحدتهم جميعا؟

لو كنت شاعرا لنظمت الشعر فيها ، وهل وصف التغوط سيكون أكثر قرفا من خرافات استعبدت عقول البشر! هنيئا للشيخ طبرق وملوك الـ"قاقا باقا" ومعهم جودت ويعقوب بالروائح العطرة التي نشرتها على باب مغارتهم، كم أتمنى لو استطعت أن أطيل هذه اللحظات لتستمر إلى الأبد! ولكن هيهات هيهات، يتوجب على العودة قبل أن يقلقهم غيابي، طمرت ما خلفته خشية أن يصعد أحدهم ويكتشف ما فعلت، ومسحت عن وجهي علامات السرور، وفركت أنفي وعيني حتى احمرت، وشددت عضلات وجهي وصككت على أسناني، حملت أذني الحمار وذنبه وركضتُ في مكاني حتى أغرقني العرق، واستلقيت على التراب وتمرمغت حتى صار العرق طينًا، ثم جررت ساقي حتى وصلت إليهم، وارتميت في أحضان الكعب وأخذت أغمغم وأهمهم :

- جاااججا جان ععءروت جا جاااجا....

فسألني:

- ماذا بك؟

كان ردي عليه ارتجاف وغمغمة فبدأ يمارس هراءه ؛ أمسك برأسي وتمتم بصوت مسموع:

- لا تخف أنا حاميك ، أخبرنا بما حدث معك؟

أشبعت غروره وجنونه بعدد الجان وأوصافها والسلاسل والسيوف التي يتصاعد منها اللهب، والرؤوس الكبيرة التي تحرس مغارة الذهب، ثم توقفتُ، فقال:

- أكمل ولا تخف.

فقلتُ:

- ظهروا فجأة، بعدما التقطتُ أذني الحمار وذنبه، فهرب سالم، وتعثرتُ فوقعتُ على الأرض مستسلمًا لمَّا رأيت ظلالهم الضخمة تتجاوز رأسي بأمتار طويلة، وحمدت الله بعدما قال أحدهم بصوت مرعب:
- اتركوه فقد أرسله سيدنا طبرق.

ازداد عنق الكعب طولاً، وقال:

- ماذا رأيت يا سالم؟

فأجابه:

- (لحقني لحقوني شردت كان والله كثير اه ستر الله)

لهجة سالم لم تساعد غير العرب على الفهم، وامتعض جودت، وغرق يعقوب في هراء الكعب حتى أذنيه، وبدأنا طريق العودة وكل منا لديه قصة ليرويها، لم يتوقف الكعب عن الابتسام لما حققه من نصر عظيم، ولم أتوقف عن الابتسام لأني تغوطت على نصره، ولمَّا أدركنا هدوء المخيم توجه كل منا صوب خيمته، وسالم الذي لم يرَ الجان في المغارة رآهم في عيون الآخرين أثناء العودة، فالتصق بي وتوسل ليقضي ما تبقى من الليل في خيمتي، ونام طبيلة هادئًا عند باب الخيمة؛ فهو الوحيد الذي لم يع شيئًا ممَّا حدث.

أشرقت الشمس قبل أن تغفو أعيننا، وفي الساعة السابعة جاء نعمة وكانت حاجتي للنوم أقوى من حرصي على المؤن فأوكلته بتوزيع الطعام، وحينما استيقظت كان الكبار الثلاثة نيام، ولم يلمني أحد على إهمالي، ومعظم المهام كنت قادرا على شراء من يقوم بها، إلا الاعتناء بنجمة وجودت، فما كنت لأعطي فرصة لأحدهم ليسرق مكانتي، انتهيت من خدمة الآخرين ومازلت نشيطًا، جودت ويعقوب غادرا المخيم إلى جهة مجهولة، والكعب اختفى منذ الصباح، ونعناعتي تجاوزت الخط الوهمي الفاصل بيننا وبين خيام فاطمة، ولم أجرؤ على ملاحقتها، وحيان غط في النوم، وحين يصحو ويتحرك صوت السلسلة التي يجرها خلفه كفيلة لتعلمني بوجوده، ولم يعد هناك ما يزعجني.

وبالرغم من اقترابنا من ساعات الظهيرة لم أكن لأتنازل عن ممارسة طقوسي اليومية؛ أخرجت الصندوق الذي جعلت منه مقعدًا لي وألقيتُ عليه سجادة وأعددت عرشي الملكي وتربَّعْتُ عليه أمام خيامِ المؤن وأخرجتُ الكثير من السجائر وأمرتُ سالمًا أن يعد لي قهوةَ الصباح وحرصت أن يقوم بذلك أمامي خوفًا من أن يبصق فيها مثلما أفعل مع الكعب. على بعد عشرات الأمتار كان أبو إيليا جالسًا أمام خيمة ابنه وقد انشغل بالنحت على جذع شجرة، فأسرعت إليه بعدما خطرت لي فكرة أن ينحت لي سيفًا أو بندقية من الخشب لأقدمها هدية لطبيلة وسأكون مدينا له إن صنع لي ثلاثة خناجر من الخشب كتلك التي يتمنطقها الشيخ طبرق فوعدني بذلك، ثم عدت لأجلس على عرشي وقريبا سأدرب طبيلة ليحمل السيف ويقف خلفي ليكتمل المشهد، وكان أول الوافدين عليَّ جوهر الحكواتي، وفور اقترابه تعمدت أن أسقط عدة سجائر على الأرض وأرضيت غروري بأن جعلته ينحني أمام عرشي، قدمت له القهوة والسجائر والتمر وبدأ يروي رحلة القافلة، ويفصِّل في كل حدث غريب، وبخاصة تلك العلاقة السرية التي ربطت فاطمة وحيان وبات يعرفها الجميع.

وجد الغرور طريقه إلى نفسي وشعرتُ باستطالة قامتي حينما سألني جوهر إن كنت سأسمح لهم بذبح بعير اليوم، تعجبتُ من هذا الحكواتي البارع في مراقبة أدق التفاصيل وتحليلها، هل اختلطت عليه الأمور واعتقد أني من أصحاب القرار في هذا المخيم؟ لم يحظ مني بالموافقة أو الرفض، فقد تسرب إليَّ بعض الشك في احتمالية سخريته مني.

انصرف فجأة بعدما جذب انتباهه أحد خدم فاطمة وبدأ بملاحقته لعله يجد قصة يرويها لاحقا، وجاء غيره وغيره وجزلت لهم العطاء، ثم أطلَّتْ من بعيد رباب المصرية وقد أسرت ناظري بارتدائها أحد بنطالات العسكر بعدما أعادت تصميمه ليلائم قوامها ويبرز مفاتنها، ومن فوقه قميص عسكري شدت طرفيه السفليين وعقدتهما فبرز نهداها، وطوَّقتْ خاصرتها بشال ليخفي أردافها، هذه اللعينة حولت بدلة جندي إلى ملبس نسائي يجذب عيون الرجال وتهفو له أرواحهم، أسدلت شعرها في فوضى مغرية وسارت في زهو وكأنها تقول لنا: (تبًا لكم جميعا!) غرورها يلامس غيوم السماء، وعدم اكتراثها بما ترتديه يزيدها سحرا، وابتسامتها قادرة على إذابة الجليد وعلى الرغم مما فعلته بي فلن أمانع أن أعدها بجرة ذهب إن وافقت على منحي قبلةً واحدة.

تسير ناحيتي تجر خلفها عددًا من الخدم يحملون سِلالاً فارغة، ولا يبدو عليها أنها ستنحني أمامي، وعلى غير إرادة أسرعت واختبأتُ قبل وصولها، ولكني عدت حتى لا أتنازل عن عرشي أمام هذه الخادمة الوضيعة، وأي جرم اقترفتُه! ألا يكفيها أن صفعتني لمجرد أن لامستُ فخذها! لو تعلم هذه المصرية كيف قطعتُ رأس سعدون وفقأت عينيه وأكلت أذنيه لانحت أمامي وطلبت المغفرة حتى لا أجعل عفاريت الـ"قاقا باقا" تشرب من دمها، تبًا لها وللخوف الذي يعتريني دائما! أقسم لو تمادت هذه المرة سأصفعها، ولو كان سالم قريبًا سآمره بطردها.

اقتربتْ ولم أر في عينيها أية ضغينةٍ فاستفزني هذا، لابد أنها تشفق عليّ بعدما اكتشفتْ أنِّي مجرد خادم، اقتربتْ من طبيلة ولمَّا وجدته نائما انحنت ومسدت على شعره، وخاطبتني بالعربية:

- مرحبا عزيز.

ما أرق وأعذب اسمي حينما ينساب من بين شفتيها، ولو لم أكن مرتبطا بحب نعناعة لعدت ووقعت في حبها مرة أخرى، جاوبتها بالتركية:

- أهلا رباب.

وأصرت أن تحدثني بالعربية وبلهجة أهل مصر وقالت:

- (المؤن في أي وحده من الخيم دي).

أخبرتها أن الخيم الأربعة المتلاصقة جميعها للمؤون، ابتسمت واقتحمت الخيمة الأولى ومن خلفها الخدم في وقاحة وبغير إذن، لحقت بها داخل الخيمة وكانت تحدث أحد الخدم بالتركية، وتطلب منه أن يملأ السلال الفارغة، فاستشطت غضبا لتجاوزي بهذه الطريقة، وأخبرتها بالتركية أن ما تفعله لا يجوز ويجب أن تطلب مني أولاً لأني المسئول عن المؤن، فردَّت عليَّ بالعربية وقالت:

- (اتكلم عربي علشان أفهمك).

تجاهلتني ولم تتوقف عن العبث بمحتويات الخيمة، وانتقلت إلى الثانية ولحقت بها وقلت لها:

– ولكنك تتحدثين التركية جيدا.

فردت عليَّ باستهزاء:

– (عاوز تكلمني اتكلم عربي).

وسألتني عن مكان الصابون، ولأقطع عليها طريق الوصول إلى الصابون الفاخر الذي وصلنا مؤخرا جلبت لها عدة قطع من الرديء، فقالت:

– (متشكره الصابون الثاني فين).

أخبرتها بانعدام الأنواع الأخرى فتجاهلتني وحين انتهتْ من ملء السلال بما أرادتْ تركتني في غيظ، وخفف من همي أنها لم تعرف مكان الفاخر من الصابون، وقلت سرًا: لا يليق بها إلا الرديء، تبا لها! لقد عكَّرتْ صفوي، وحتى أفيق مما فعلته هذه العاهرة خرجت لأتجول وأتفقد أحوال الرعية وقبل ذهابي جاء الملط وجلس على عرشي وقال:

– هل أنت مجنون يا عزيز لتمنع الصابون عن الهانم.

اعتقدتُ أنه يقصد رباب بالهانم، فقلت له:

لقد أخذت كل ما تريد ولا يوجد صابون، قهقه بأعلى صوته وقال:

– حبيبي عزيز أنت مجنون فعلا، الصابون المعطر الفاخر الذي وصل مؤخرا لفاطمة هانم وليس لكم، وأنت مدين لي بالكثير لأني حرصت ألا تعلم فاطمة بما فعلتَ وإلا لكانت...

وفي صمت حملت إليه الكمية التي وصلتنا من الصابون الفاخر، فإن كان جودت ويعقوب يخشون هذه الفاطمة فلن أكون أحمقًا لأتحداها واكتشف ماذا سيحدث بعد (لكانت...) الملط طلب مني ترك الصابون على الأرض وأشار إلى أحد العبيد فحمله العبد، ولم يتزحزح

عن عرشي ووجدها فرصة ليثرثر، وأحمد الله أن العرش لا يتسع لجلوس اثنين وإلا لحسَّس وتلمَّس.

ينتقل من قصة إلى أخرى، في هذه القافلة لم أر أحدا يحب الثرثرة بقدر جوهر والملط الذي لديه من الأخبار الكثير، ولكن خشيتي من الشبهات التي يثيرها اقترابه مني دفعتني لأبحث عن حجة لينصرف، رحل وأخبرني بما حرص على ألا أخبر به أحدا، أخبرني أن جمال باشا سيزور المخيم في الأيام القادمة ولهذا ستتعطر فاطمة، هذا الملط اللعين يراقب ويتلصص حتى على ما يدور خفيةً داخل الخيام.

أردتُ أن أعزز مكانتي بين هؤلاء الأوباش ولو كان الثمن إفساد خطتي السانتورية، وكان لابد من اتخاذ قرار خطير؛ هرعتُ باحثًا عن جوهر لآمره بذبح بعير، وفي طريقي لمحت جمال الدين يتسلل كالجرذ خارجًا من خيمة جودت، وما يحمله معه دلَّ على أنه سرق شيئا، اختبأت وراقبته واختفى خلف خيمة الفتى إيليا، فتركت مراقبته بعدما رأيتُ جوهر وأمرته أن يذبح بعيرا، وأغلظتُ له كي لا يسمح لأحد بالاقتراب من الكبد ووعدني بذلك ثم انصرف.

جولةٌ سريعةٌ حرصتُ خلالها على مروري خلف خيمة إيليا لأتفحص ما فعله جمال الدين هناك، وكانت رباب قادمة برفقة أبي إيليا ودخلا معا الخيمة، فأسرعت وجلبت بعض التمر ليكون حجة تبرر دخولي خلفهما، شكرني أبو إيليا على اهتمامي بزيارة ابنه، وانشغلت المصرية بفحص الفتى ولم تعرني انتباهًا وبعدما انتهت نصحتُ أبا إيليا باستمرار تدليك جسده، وإخراجه من الخيمة بين الحين والآخر، وألا يتوقف عن محادثته، وألا يتركه ينام كثيرا، وحينما خرجتْ سألته عن سبب اختياره لها تحديدًا ليسألها عن حال ابنه، فاختصر جوابه قائلا:

- إنها طيبةُ القلب.

ساعدتُه على حمل الفتى تحتَ ظلِّ شجرةٍ وجلس بجواره وأمسك بالناي لينوح ألحانًا شجيةً، ولمعت عيناه، فآثرتُ الابتعاد؛ فلديَّ من الأحزان ما يكفيني...

عاد جودت ويعقوب وأعددت لهما طعامًا شهيًا ولم أتلقَ من يعقوب إلا نظرات الازدراء، أمرني بالذهاب ودعوة الكعب ليشاركهما الطعام، وابتسم جودت حينما أخبرته بأنه ليس في المخيم.

نتمتع بالرفاهية في هذا المكان، ولكنني أشعر بالملل والرتابة وأتنقل بين الوافدين الجدد وأستمع إلى قصصهم، وكلٌّ يحكى على طريقته، ويخفي خلف عينيه حلمًا؛ كنوز الذهب سحرت الجميع وما عاد الموت يخيفهم.

حيان وحده كان يروي قصة القافلة بموضوعية، ولكنه كان يتجنب الحديث عن مغامراته مع فاطمة، ولم يتطرق إلى الليالي الحميمة التي قضاها في خيمتها وتفنن البعض في وصفها، وبخاصة الملط المخنث الذي تلصص ورأى أدق التفاصيل، لم أرَ حيان يشرب الخمر قط، ويبدو أن الفترة التي قضاها بصحبة روهان غيَّرتْ فيه كثيرًا، تعجبتُ عندما سألني عن احتفاظ جودت بزجاجات العرق في خيمته، ووعدته بأني سأسرق واحدةً من أجله، ولستُ أحمقًا لأورط نفسي في سرقة تافهة، وسأحضر له زجاجة العرق التي مازلت احتفظ بها في حقائب البيك، وسأجد ما أساومه عليه لاحقا؛ فأنا بحاجة لأعرف علاقته بفاطمة من وجهة نظره، وليس كما رواها الآخرون.

تركت حيان فور اقتراب جوهر ونعمة، وعدتُ أترقب اللحظة التي سيظهر فيها جودت وهيأت نفسي لانتظار أن يدعوني ويسألني عن شيء سُرق من خيمته وما كنتُ لأتردد في إخباره عن جمال الدين، وأن أقوده بنفسي إلى حيث أخفى ما سرقه، وبعدها طلبني جودت وكان صافي المزاج أيقنت أنه لم يكتشف شيئًا، أو لم يُسرق منه شيء، وكل ما أراده مني هو محادثته؛ سألني إن كان طبرق قد طلب مني ادعاء رؤية الجان، لم أكذب فالكعب لم يطلب مني؛ لأن هذا المعتوه اعتقد أني أرى الجان صدقًا، أو توهم ذلك، فقلت بسانتورية:

– لا يا سيدي لقد رأيتهم فعلا ولولا ستر الله لقبضوا علي وحبسوني في المغارة.

ضحك وقال ساخرا:

– وماذا قالوا لك؟

استغبيتُ سائلاً:

- من هم يا سيدي؟
- عفاريت الشيخ طبرق يا عزيز.
- لم يتحدث سوى واحد.
- وماذا قال؟
- اتركوه فقد أرسله سيدنا طبرق.

وهذا الناعم الجبان أثبت أنه بارع في التحقيق والتحليل، فأعطيته إجابات سانتور وأحد الأسئلة المخادعة التي سألها:

- لقد أخبرتنا وأنت مرتعب أنك رأيت جنيًا له رأس حمار وأربعة أرجل؟

الأحمق لا يعرف أن ذاكرتي لا يمكن خداعها، ولكن من الحكمة أن أتركه ينجح في خداعي فقلت:

- نعم يا سيدي لقد رأيت جنيًا برأس حمار.

جاريتُ مراوغته حتى أيقن أنِّي مجرد أبله غرق في خُزَعْبِلاتِ الكعب، ثم تنهد قائلا:

- لا عجب أن ترى كل هذا مادام يعقوب نفسه قد رأى.

أمرني بإحضار ثلاثة جرار، وأمرني بترك صندوق الذهب المفتوح، وفتح لي صندوقًا آخر لم تنقص منه قطعة واحدة، وأحضر صحنًا خزفيًا اعتاد أن يتناول فيه الطعام، وملأته ذهبًا كما أراد، ثم أخذه وجلس به على الطاولة، ثم طلب مني إفراغه في الجرة، وهكذا بدأت أملأ الصحن أولاً ومنه إلى الجرة حتى امتلأت وقام بتدوين الرقم في مفكرته، لم يخف أنه يشك في سرقة الذهب، ويسعى ليعرف الكمية داخل كل صندوق، أما الجرتان الفارغتان فملأتهما بالطريقة القديمة وانتظر حتى انتهيت وأغلق الصندوق بيده، وتركني أنظف الخيمة وخرج فقلت متابعًا خروجه: هذا الأحمق يحاول ضبط الأمور بعد فوات الأوان، وإن كان سالم الأبله قد سرق ذهبا وأخفاه فمن لم يسرق! أي أحمق يترك الذهب في متناول أيدي العرب ويغيب عنه دون حراسة.

نظرةٌ خاطفةٌ على الصندوق ولست بحاجة إلى صحن خزفي، أو عدِّ القطع لأعرف بأن ما يزيد عن جرة ذهب قد نُهبت منه، أيقنت أن جمال الدين قد سطا –هو الآخر– على الذهب، وطالما أن جودت ليس متيقنًا، وما في رأسه لا يتعدى شكوكًا يسعى لاختبار صحتها فلا داعي لفضح السارق بغير كسبٍ أحققه، نفضتُ الغبار ولمعت أحذيته وأخذتُ جواربه وملابسه المُتَّسخة، وألقيتُ نظرةً على يومياته المشفرة في سذاجة لمتابعة ما قرأتُ مسبقًا:

- *" لم أشعر بالسعادة والأمان مثلما هي الحال في رفقة صديقي يعقوب، ولكن الوقت الذي قضيتُه بصحبته كشف لي أنَّ كُلَّ شيءٍ في هذا العالم يتغير، رأيتُ فيه قاتلاً ومُجرمًا يتفاخر ويتباهى بقسوته، لم أرَ في حياتي أحدًا يفوق عزيز في كراهيته للعرب إلا يعقوب، وصعقني حينما عرفتُ مخططه في التخلص ممّن رافق القافلتين، وتساءلت هل يعقوب صاحب هذا المخطط الدموي، أم هو منفذ لأوامر الباشا؟ وكانت صدمتي الثانية حين اكتشفتُ أنَّ يعقوب يخفي خلف هذا الحزم العسكري جهلاً عشَّش في عقله، لم أصدق أنه لا يختلفُ عن عزيز في إيمانه الأعمى بشعوذات طبرق، لقد بهره، وسرق عقله حتى أنه نعتني بالمثقف الأخرق الذي لم ير من الحياة شيئا، لقد ألقى كلَّ ما تمتع به من دهاءٍ عسكري تحتَ أقدامِ طبرق حينما وافقه على دفن كلِّ ما نحمله في مكان واحد ليحرسه الجان ونوفر على أنفسنا العناء عند عودتنا لإخراجه.*

بذلتُ كُلَّ جهدي لأقنعه بأن عزيزًا لا يتعدى كونه أبلهًا، وأن طبرق أوهمه بوجود الجان، وكل ما ادعاه لا يتعدى أوهام دأب طبرق على زرعها في عقله لأسابيع...ولكن ما كانت هناك كلمات لتقنع يعقوب بأن طبرق لا يتعدى كونه دجالاً أتقن دوره، لقد أفحمني وأخرسني عندما قال:

– الباشا ليس أحمقًا ليرسل الشيخ معك، لولا ثقته في قدراته لما فعل.

وهنا أجبرني صديقي الجاهل أن أذكِّره بأني المسؤول الوحيد ولا أحد سواى، وسأواصل إخفاء الذهب بالطريقة السابقة نفسها، وبعد قدوم الباشا ليقرر ما يشاء، وكنت أعلم أن يعقوب ما كان ليغضبني فضحك وقال:

- أنا طوع بنانك يا صديقي، سأنفذ أوامرك فقط.

ضحكتُ وأخبرته بأن ربَّما عليه أن يقنع فاطمة بالانضمام إلى طبرق وبخاصة أنها تدعي علم الغيب، فقال: هي خائنة ولن يرحمها الباشا حين يعرف حقيقتها. ما كنت لأكره يعقوب يومًا ولكني شعرت بالأسى لمَّا عقدوا العزم على تنفيذه من الجرائم خلال الأيام القادمة، تمنيتُ أن يكون للباشا رأي آخر لمنع هذه الأباطيل، وأخاف أن نبدأ بحشد المشعوذين ليطلقوا عفاريتهم لخلع السلطان والانتقال بنا إلى عالم أكثر تمدنا".

لمحت ظل جودت قبل اقترابه فتظاهرت بتنظيف الغبار، ولم أخفِ القلقَ الذي اعتراني ممَّا قرأتُ في يومياته المشفَّرة، وسألني عن العبوس الذي ظهر على ملامحي، ووجدت له جوابًا، وحين انتهيت صرفني.

عدتُ إلى خيمتي وكان أحمد شيخة في انتظاري ليتسول السجائر فقلت له:

- أرى أنك صغير السن ولا أريد أن يلحق بك التدخين ضررًا؛ فلن تحصل مني على سجائر بعد اليوم.

- عمري عشرون عاما كما أنك كنت تعطيني السجائر دوما.

- لقد اكتشفت أنك لم تبلغ السادسة عشرة.

فقال بسذاجة:

- كنت تعتقد أنى في الرابعة عشرة وتعطيني السجائر.

- وقتها لم تكن مشغولاً بخدمةِ جمال الدين.

- هو من سيدفع لي أجري عند وصولنا إلى حلب.

هذا الولد مازال يعتقد أنه سيقبض أجرا من جمال أو غيره، أعطيته سجائر ومهمة ليقوم بها، لم يمر الكثير من الوقت حتى رأيت الكعب متجهًا إلى خيمته فتبعته وقدمت له تقريرًا مفصلاً عمَّا جرى أثناء غيابه، ولم أنس أن أخبره بما دار بيني وبين جودت من حديث بخصوص الجان، وسرَّه ذلك وربت على كتفي وقال:

– أريد منك أن تشيع هذا الأمر كي يعرف الجميع قوة الـ"قاقا باقا" وأنا أعتمد عليك في هذا الشأن.

أحنيت رأسي سمعا وطاعة، ثم سألني:

– وماذا عن يعقوب؟

وجدتها فرصة لزرع بذرة حقد فقلتُ في حمق:

– يعقوب معجب بك كثيرا يا سيدي، وقد سمعته يقول لجودت بأنك تستحق أن تدفن مع الذهب.

لم يرق له ما قلت وصك على أسنانه وتمتم بكلمات لم أسمعها، كان واضحا أنها تحمل تهديدا ووعيدا ثم قال:

– وماذا سمعته يقول أيضا؟

أجبته:

– سمعته يصف لجودت شخصًا، وأخبره أن رائحته مثل خنزير ولا يطيق الاقتراب منه.

أحنى الكعب رأسَه وترك أنفَه يشتمُّ روائحَه الكريهة وبنبرةِ صوتٍ غاضبةٍ –جاهد في إخفائها– قال في هدوء:

– وماذا سمعتَ أيضا؟

وقلت له:

– سمعته يقول سأخلصك منه.

امتعض ولم يعجبه إيجازي، وقال:

– أريد منك أن تعيد ما سمعتَه منهما حرفًا حرفًا.

وأنا كالعادة لا أتعلم من حماقتي السابقة، وأنجرف خلف حماسي مثل كل مرة، فقلت:

– قال جودت: هل تصدق يا يعقوب ما رأيت فضحك يعقوب (ها ها ها ها) ثم قال: أنا أتظاهر بأني أصدقه ولكني سأخلصك منه ومن رائحته الكريهة قريبا قريبا يا صديقي جودت، فَرَدَّ عليه جودت وقال: لا لن أسمح لك أن تتخلص منه ورائحته ليست كريهة كما تدَّعي.

فجحظتْ عينا الكعب وقال:

– هل أنت متأكد أن هذا كان رد جودت؟

أصبتُ الهدف؛ فليس من الحكمة أن أثيره ضد جودت الناعم كي أحافظ على توازن القوى في الوقت الحالي، فأجبته:

– نعم جودت قال ذلك وأعتقد أنهما يقصدان طبيلة المسكين بهذا الحديث، أليس كذلك يا سيدي؟

فهز رأسه وقال:

– نعم يقصدان الرجل الضخم طبيلة.

اقتحمتْ نيروز الخيمةَ والنظرات التي رَمَاها بها أوحتْ بأنه يرغب في أن يختلي بها قليلا لينفس عمَّا ملأته به من غضب، تركتهما وانصرفت ودعوت الله ألف مرة ألا يتهور الكعب ويصارح يعقوب بما ادعيته على لسانه، فلو اكتشفا الأمر لن يكتفيا بذبحي بل سيقومان معًا بتعليقي وسلخي حيًا.

تربعت الشمس على قمم الجبال الغربية ونصفُ قمرٍ باهتٍ أطلَّ علينا، وحملنا الجرار واختار الكعب مرافقينا وامتطى جودت ويعقوب جواديهما استعدادا للانطلاق نحو المجهول ولم

يكن هناك شيء يمنع بدء رحلتنا، عشر دقائق مرت وتأفف جودت وترجل عن الحصان وضحك يعقوب وتمتم له:

- ألم تر شيئًا بعد؟

عشر دقائق أخرى وأطلَّت فاطمة تمتطي المرقط وترتدي زي الرجال وشعرها المنسدل يفضح أنوثتها، ومن خلفها سار الملط وعبيدها الثلاث وحارسها الزنجي، وثلاثة بغال أجهل ما تحمله، انطلقنا جميعا وفي طريقنا اقترب الملط مني وهمس:

- (اشتقتلك عزيز)

أشغلت نفسي بسوق الحمار وابتعدت عنه، وكان واضحا أن الكعب الذي تجنب الاقتراب من يعقوب ليجنبه اشتمام رائحته الكريهة لم يرفعْ عينيه عن الملط ولم يتوقف عن حك ذقنه ، جودت يسير بجوار فاطمة ولم يتوقفا عن تبادل الابتسامات الصفراء كلما التقت عيونهما، ويعقوب يلفت انتباه فاطمة بأننا اقتربنا من حدود المخيم فلملمتْ شعرها وارتدت حطة عربية مرقطة، وتركت فوقها عقالا، وتلثمت، وأخفت كل أثر يدل على أنها امرأة، تجاوزنا حدود المخيم ومررنا بالقرب من كمائن الجند، وبعد نصف ساعة من المسير انفصلنا إلى فريقين، أنا وجودت ومن معنا فريق، وهي ويعقوب ومن معهم فريق آخر ورافقهم أبو إيليا، وقبل ابتعادنا عاد إلينا يعقوب وسأل جودت:

- أين سلاحك؟

فأجابه:

- معي.

ضحك يعقوب وقال له:

- أرني إياه إذًا.

وهنا ابتسم الاثنان ومدَّ يعقوب يده وسحب مسدس أخفاه خلف ظهره وأعطاه لجودت وقال له:

- لا تذهب للتبول دون سلاح ولا تمشِ في هذه البلاد دون حراسة.

وأشار بيده ومن العدم ظهر مسلح رافقنا طيلة الطريق، ولم يرق الكعب كل ما حدث ولا أعرف لِمَ لا يشعر بالراحة في وجود المسلحين! ومثل كل مرة اختار الكعب مواقع الدفن وحفرنا ودفنا الذهب ورسم جودت خرائطه وطلب من نعمة أن ينقش على صخرة بالإزميل وكان واضحًا أنه يحتاج فقط إلى علامة، وأبدع نعمة في تكسير الصخرة ورض أحد أصابعه...أما المسلح الذي رافقنا فلم يسمح له بالاقتراب من مواقع الدفن وبعدما انتهينا عدنا إلى المخيم.

صباح الاثنين لم يكنْ ثقيلاً، ولم يعد هناك ما أقوم به سوى الجلوس على العرش لممارسة طقوسي الخاصة والاستمتاع بدفء الشمس ونعناعتي بعد ليلةٍ باردةٍ، لقد أفاقت على غير عادتها وانضمت إليَّ مع سالم وحارسي طبيلة الذي بدأ يرقص ويلوح بالسيف الخشبي وكاد يقتلع عيني، ولم يتوقف عن ترديد اسمها "تنوز ننوز"، لم أفلح في تعليمه لفظ اسمها ولا في تعليمه الوقوف خلفي مع سيفه دون حراك ليكون الحارس الذي يحسدني عليه الأمراء والملوك، فعدلت عن الفكرة برمتها بعدما أيقنت أن عاجلا أم آجلا سيشج رأسي بطريقة ما، واكتفيت أن يجلس إلى جواري ساكنًا.

ضحكنا واحتسينا الشاي وغارت الشمس من السعادة التي استقبلنا بها هذا الصباح ولم نرغب فيمن يفسد علينا فرحتنا، وانضم إلينا جمال الدين وما كنت راغبا في لقائه منذ عبوره النهر لما يدور حوله من شبهات؛ قيل: إنه أحد رجال السرخفية، ولم يكن سرًا كونه من رجال يعقوب، احتسى الشاي ودخن سيجارة وصنع دوائرًا من الدخان، ولم يرفع عينيه عن نيروز حتى اشتد غيظي، وماذا أستطيع أن أفعل لأبعده عن حبيبتي سوى أن أصدر أوامري لحارسي الشخصي ليعالج رأسه بسيفه الفولاذي الحاد! وضربة واحدة كانت كافية ليتدحرج رأسه تحت قدمي وركلته بعيدا ونفستُ الغضب الذي خنق أنفاسي.

ليتَ أحلامي تصنع من الخشب فولاذًا! ومن حارسي الأبله جلادًا! ومازال هذا السرخفي اللعين يواصل إهانتي بتغزله في حبيبتي، وتعبث عيناه الخبيثتين بجسدها ولا حيلة لي، احترقتُ غيظًا حين شعرت أنه راقها وأطربها ببعض تغزله، هممتُ لأطلب النجدة من شريكي في حبها؛ ذلك الكعب البغيض لعله يذبح جمال الدين قبل أن يسرقها، وحين تركتنا نيروز بعدما آذنتنا في

رقة أنها تشعر بالنعاس لم يبعد الحقير عينيه عن أردافها حتى توارت، وأقسمت لأجدن طريقة أقنع بها الكعب ليذبحه ويأكل قلبه ويروي عفاريت جنونه من دمائه.

الحقير لم يحترم عرشي وتمدد على البساط الذي أعددته ليجلس عليه رعاياي الأوفياء، وكان وقحًا عندما طلب من سالم أن يعد له القهوة، وما كنت لأجرؤ أن أطلب من الأبله أن يبصق في القهوة حتى لا يفضحني ولكني فعلت ذلك بنفسي، احتسى قهوته قليلة السكر كثيرة البصاق، وطرح عليَّ الكثير من الأسئلة ولفت انتباهي محاولته في أن يكون ودودا، وبعد عشر دقائق لم أرَ فيه أثرًا للرجل المتعجرف الذي عرفتُه قبل أسابيع، تحيرتُ في طريقة معاملته، وما كان أمامي إلا التظاهر بالغباء، ولم يخفَ عليه أني لا أثق به، وبدأ يكشف أوراقه لعله بذلك يحوز ثقتي فقال:

– أنا تركي مثلك يا عزيز ولستُ عربيًا.

في البدء لم أفهم ما الذي يسعى إليه عبر هذا الاعتراف الذي لم يضف لي شيئا لم أكتشفه، ولمَّا كان ردي صمتًا زاد في اعترافه:

– أنا أعمل مع الاستخبارات أيضًا.

فضلت أن أظل صامتًا، فرماني بنظرة وقال:

– وأنتَ لستَ أبلهًا كما يعتقد الجميع.

تظاهرت بالغضب قائلاً:

– أنا أستاذ عالم آثار باشا ابن باشا ولستُ أبلهًا.

ابتسم في خُبْث وقال:

– القصص التي سمعتها عن بلاهتك من الجميع تتناقض مع المكانة العالية التي بلغتها، ولا أستبعد كونك أحد رجال السرخفية المتنكرين.

سألته عما يسعى إليه من وراء هذا الحديث، فقال:

– سيقتلوننا جميعا يا عزيز.

- ولماذا يقتلونك وأنت منهم؟

- الآثار التي دفنتها فاطمة والذهب الذي دفنه جودت لا يحتمل وجود شهود، وهل تعتقد أن يسمحوا لنا بالنجاة لكوننا أتراكًا؟ لقد قُتل أتراكٌ أرفعُ نسبًا وشأنًا منا لما هو أقل من ذلك.

لم أشتم في حديثه رائحةَ الخداع، ولم يبد وراءه إلا خوفٌ حقيقيٌّ، دفعتُه ليروي قصته بدقةٍ تستوجب الملل؛ لقد التحق بفرقة خاصة تابعة لاستخبارات الجيش، تنشط في بلاد الشام، ومهمتها اختيار بعض الجنود شريطةَ أن يكونوا أتراك الأصل لآبائهم وأمهاتهم لضمان وفائهم، ثم تدريبهم على التظاهر بكونهم عربًا حسب ما تقتضيه الحاجة لزرعهم بين العرب المشكوك في نواياهم، أنهى تدريبه وبدأ ممارسة مهامه شرق الأردن، ولم يمضِ على خدمته عدة أشهر قضاها بين البدو حتى تمَّ استدعاؤه على عجلٍ ليكونَ في خدمة اليوزباشي شكيب، وكُلِّف باستئجار مجموعة من العمال العرب ليساعدوه في إيصال قافلةِ المؤنِ الأولى التي وصلتنا مُسبقًا، وكانت مهمتُه التالية بعد وصول المؤن أن يبقى متخفِّيًا داخل القافلة الطعم ليراقب كُلَّ شيءٍ ويحرص على ألاَّ يغادرها أحدٌ حتى تصل وجهتها، وأن يأتمر سرًا بأمر الضابط كاظم دليل القافلة، ولم يكن لديه ما يقلقه لولا هجوم العرب في ذلك اليوم الذي تسبب في فضح الكثير من الأسرار وقلبِ الخطط رأسًا على عقب، لقد أُثير داخله الكثيرُ من الخوف والأسئلة عندما شاهد تلك الطريقة التي دُفن بها الجنود، وعندما ألحقوه سرًا لخدمة يعقوب تفاجأ بإخفاء ثروة ضخمة من الآثار والذهب، وأدرك أن مصيره لن يختلف عن الآخرين، وبخاصة عندما أُمر بتسليم المسدس الذي كان يحتفظ به سرًا منذ بداية الرحلة، أخبرني أنه مازال يخفي مُسدسًا آخر بعيدًا عن أعين الجميع، وأقسم أنه عندما اكتشف شخصية حيان العسكرية عقد العزم على التبليغ عنه مع أول اتصال بالدليل كاظم، ولكن دفن الجنود بتلك الطريقة المُهينة وتسارع الأحداث جعله يتأنى حتى يفهم ما يدور حوله.

تتلقَّى ذاكرتي ما يبوحُ به في صمت، واندفع عقلي يحلل ويستنبط حتى تبين صدق جمال الدين؛ فمن السخافة أن يكون هناك هدف آخر يسعى إليه وجميعنا أسرى سيتم ذبحنا مع

انتهاء رحلة هذه القافلة عاجلا أم آجلا، ولن يُترك جمال الدين على قيد الحياة بصحبة ما عرفه من الأسرار، هذا ولم أتخلَ عن حذري فسألته:

– وما يهمني في هذه القصة! ولماذا ترويها لي؟

– توقف عن تظاهرك بالغباء، لقد كشفتُ لك كُلَّ أوراقي، ثلاثةٌ من الأتراك لو تعاونوا سيحظون بالنجاة.

– ومن هؤلاء الثلاثة؟

– أنا وأنت وحيان.

– ولماذا لم تطلب هذا من حيان مباشرة؟

– لقد فعلت ولكنه لم يثق في حديثي، وأعتقد أنه أكثر ثقة بك.

– وما حاجتك به؟ ولماذا لم تهرب وحدك؟

– يحظى حيان باحترام العرب، ولن يتخاذلوا عن مساعدتنا بصحبته، كما أنه أكثرنا خبرةً بهذه البلاد.

– أمازلت تتجسس لصالح يعقوب؟

– نعم، وهل لدي خيارٌ آخر! لقد كلفني ألاَّ أغفل عن حيان.

ابتسمت وقلت:

– ولكني سمعت عن علاقة حميمة بين حيان وفاطمة.

فأجاب على الفور:

– وهذا سبب آخر يدفع يعقوب ليأمر بقتله.

سألته عن روهان بيك فأقسم بأنه لا يعرف عنه شيئا، ولكنه يشك في أن يعقوب وراء اختفائه، ثم أطرد قائلاً:

– لو لم يهاجمنا العرب لمَّا افتضح أمر الذهب، ولما احتاجوا قتل أحد، ولكنه حظي وحظكم اللعين!

لم أكن حكيما في إطالتي معه، وكل ما خططت له سيذهب في مهب الريح إن لم أجد طريقة للخلاص منه سريعا، فطلبتُ منه المغادرة ووعدته بأن أتحدث مع حيان سريعًا.

فقال:

– لا وقت لديه، فالباشا الكبير في الطريق إلينا، وعندما يعرف بأمر علاقة حيان بفاطمة سيصلبهما معًا، وهذا ما بلغني.

ثم فصَّل القول في حكوه عن العلاقة السرية الحميمة التي جمعت فاطمة بحيان، وأخبرني أن يعقوب علم بأمرهما ولن يخفي عن الباشا هذا الأمر، ثم تركني وذهب بعدما أفسد صباحي، غافلت طبيلة حتى لا يتبعني، وتسللت إلى خيمة حيان فوجدته نائما ولمحت طرف مدية أخفاها تحت بساطه، أيقظته وحاول التملص مني فسألته عن حاجته للمدية التي أخفاها بإهمال ورفض أن يجاري حديثي قبل أن أحضر له القهوة، ولم يكن أمامي خيارًا فأعددتُها، وقبل انتهائي من روايةِ ما أخبرني به جمال الدين قاطعني ضاحكًا.

– ألا ييأس هذا النذل من المحاولة؟ يريد أن يستغلنا جميعا لأهدافه الخاصة!

– إذًا اهرب معه ولا داعي لمشاركة أحد، أنت لديك مدية، وهو يمتلك سلاحًا.

فضحك وقال:

– وأنت، ألا ترغب في الهرب؟

– لا، سأتدبر أمري في الوقت المناسب، أما أنت فلابد أن تعجِّل بالهرب.

فقال:

– وأنا أيضا لست على عجلة من أمري، فالبقاء هنا أكثر أمنًا من الثقة بجمال الدين.

امتعضت لجوابه وقلت:

– لا أحد يطلب منك أن تثق به، تعاونا على الهرب وليذهب كل منكما حيث يشاء.

فقال:

– لو أراد جمال الدين الهرب لفعل ذلك بمفرده منذ زمن، ألم تسأل نفسك: لماذا هو في حاجة إليك يا عزيز؟!

فقلت :

– أراد مني إقناعك.

فضحك وقال:

– لا أظن أنه السبب الوحيد، هذا النذل لا يخطو خطوة عشوائية.

لا رغبةَ لدي لأفكر في أسرار وأحجيات، ولم يشغلني سوى التخلص من جمال الدين، ولن أبلغ مرادي إلا بالتعاون مع حيان الذي بدا عليه أن عدوى الشك قد انتقلت إليه من روهان، فقلت له:

– يعقوب ينوي قتلك، وعشيق فاطمة قادم في طريقه وسيقتلك، لذا يجب أن تأخذ جمال الدين وتفر بحياتك.

تلاشت ابتسامته فور سماعه: عشيق فاطمة قادم، وسألني عن مدى صحة كلامي، فأكدت له سماعي من مصادر عدة، وأخبرته بأن اسمه جمال باشا، وأن الجميع يتناقل الحديث عن علاقته بفاطمة حتى سالم الأبله يعرف أدق التفاصيل، اعتدل في جلسته بعدما فاجأته بانعدام الأسرار في القافلة، وأن الجميع يراقب ويثرثر فقال:

– هذا موقع عسكري محاط بمئات الجنود، ولن يخترقه عصفور بغير إذن مسبق، ولكن ربما سنحظى بفرصة إن تمكننا من الوصول إلى النهر، ربما سأفكر في الأمر إن وافق جمال الدين على شروطي.

فأجبته على الفور:

– أثق في موافقته، أخبرني شروطك لأحدثه.

فقال:

– اذهب وأبلغه بأن شرطي الأول أن يسلمني سلاحه، والثاني أن اختار الوقت والرفقة، وأنت سترافقنا أيضا يا عزيز.

قلتُ سرًا: لكلِّ حادثٍ حديث، المهم أن أزيح جمال الدين عن طريقي حتى لا يفسد خططي، وحاولت أن أحثه على الإسراع وعدم المماطلة، فضحك وقال:

– يبدو أنك لم تلاحظ أغلالي، سأحتاج المفتاح أولا.

فوعدته أني سأجد طريقة لدخول خيمة يعقوب وجلب المفتاح، ففاجئني بقوله:

– المفتاح مع فاطمة وليس يعقوب.

تركته لأفهم هذا اللغز الجديد، وبحثتُ عن جمال الدين ووجدته يغط في النوم، أيقظته وسرني إزعاجه كثيرا وأبلغته بشروط حيان فوافق وفاجأني بقوله:

– والآن جاء دورك لتساعدني.

فسألته عمَّا يريد، فقال:

– أريد أن تساعدني في إخراج كمية من الذهب دون أن يلاحظ جودت.

فأجبته:

– إن كان هذا مستحيلا فيما مضى، فما بالك باليوم ويعقوب ورجاله يراقبون كلَّ شيء! كما أن خطة الهروب ستكون عبر السباحة مع النهر، ولن يتمكن سابح هارب من حمل شيء.

فضحك وقال:

– وما حاجتي في الهروب إذًا! لو أردت أن أهرب خالي الوفاض لفعلت منذ زمن.

شعرت بأني يجب أن أصفع نفسي عشرات المرات على وجهي وفمي الذي لا أجيد أن أبقيه مُطبقًا، يبدو أنه لا حاجة لأتصنع البلاهة بعد اليوم، فأنا لا أكف عن الانتقال من مأزق إلى آخر بسبب غبائي، وهنيئًا لجمال الدين، فقد نجح في خداعي ودفعني لأخلع جلد السانتور وجرَّني إلى مصيدته، وسرعان ما سأكون تحت رحمته، هذه القافلة اللعينة تثير جنوني، لا أحد يرغب في الهرب خالي الوفاض، الكل يفضل الموت على الهرب بغير ذهب! تبًا لهم! ماذا سيتبقى لي إن سرق كل واحد منهم شيئا، ألا يكفي ما سرقه عبد القادر، لن أساعد أحد في سرقة ذهبي، انتابني الصمت؛ بريق وتهديد ووعيد في عيني جمال الدين، وكأنه يقول: إن لم تساعدني سأفضح أمرك، هذا الحقير تحول من حمل وديع إلى ذئب، كم كنتُ غبيًا! لقد وضعت روحي في قبضته!

أشغلني جمال الدين عن خدمة جودت، فأسرعتُ وأعددتُ قهوته، وقمتُ على خدمته، ولم يكنْ راضيًا عن كسلي هذا اليوم، سألته:

– هل ترغب في أنْ أُعدَّ شيئًا ليعقوب؟

فقال:

– بعدما يصحو سأرسل في طلبك.

تركتُه وذهبتُ لخدمةِ الكعب؛ حليفي وشريكي في نعناعة؛ مددت رأسي داخل الخيمة وكان شارد الذهن وعندما انتبه لي أمرني بالدخول، وأحزنني أن نعناعتي قد عادت إلى النوم ولم يظهر من جسدها ما يثير، سألني عن الجديد من الأخبار، وكنت سأبدأ باختلاق الأكاذيب لأحرضه على جمال الدين لعله يذبحه ويريحنا منه! ولكنه سبقني وطلب إعداد كبد لإفطاره، فتلفتُّ حولي وسألته:

– أين الكبد؟

فقال:

– اذهب واذبح بعيرا.

لم يرق لي ذلك في هذا الوقت المبكر من اليوم، ولمّا رأيتُ أن عدد الإبل يفوق حاجتنا، وذبحها أهون عليّ من استهلاك ما في خيم المؤن قررت الذبح بنفسي لعلني أنفِّس عن غضبي! وطلبتُ من نعمة أن يحضر سكينًا ويلحق بي حيث الدواب، ولم يخطر لي ببالٍ أنه سيجمع كُلَّ الأوغاد لمراقبة هذا الذي لم يميز –مُسبقًا– الناقة من البعير، واليوم يريد أن يذبح جملاً، التفوا حولي وكتموا أنفاسهم استعدادا لضحكاتٍ ساخرة، ويجهل جميعهم أني شاهدت ذبح البشر، وشاركتُ فيه، وما كنتُ لأخشى ذبحَ بعير.

أخذتُ السكين من نعمة وطلبت من جوهر أن يسوق لي بعيرًا فذهب وعاد إليَّ بأضخم بعير لأعجز عن ذبحه وأصبح هدفًا للتندر والسخرية، فقبلتُ التحدِّي وأسررتُ ألا أمنحهم الشماتة، وبدأتُ باستعراض ذاكرتي لعلي أسترجع مشهد ذبح بعير! فلم أجد سوى الدجاج والخراف، والحُمُر والبشر التي ذبحها الكعب أمامي، ووقفت حائرًا كيف يمكن أن أبطح هذا الحيوان الضخم صاحب العنق الطويل! وما كنت لأتراجع فطلبت منهم تغطية عينيه حتى لا يراني عند ذبحه، ومن ثم بطحه والإمساك به لأجهز عليه وما إن أنهيت جملتي حتى قهقه الجميع، ولم أعِ سبب سخريتهم، فأسرع أحمد الشايب لإنقاذي والتقط السكين من يدي وقال:

- (خلي عنك اخوي عزيز لا تتعب حالك)

وكانت هذه المرة الأولى التي أشاهد فيها ذبح بعير، حيث قام بعقْل يسرى البعير إلى الخلف مع ركبته وظل البعير قائمًا ببدنه على ما بقي له من قوائم، واقترب مُسرعًا وأدخل السكين في لبَّته، وبدأتْ الدماء تتدفق من أعلى صدره وبداية عنقه، ولكنه بقي واقفًا في كبرياء ولم يركع حتى جفَّتْ دماؤه وغادرتْه روحه، وسقط اللَّحم على الأرض، أشفقتُ عليه كثيرا وشعرت أن ذبحه كان أشد ألمًا وقسوةً من ذبح رشيد على يد الكعب، وأقسمت ألا آكل لحم الجمال ولو تضورت جوعا، وبعد سلخه سيطرتُ على الكبد وابتعدت به استعدادًا للطهو والشواء، لم أبخلْ على أحمد الكبير بحصةٍ ولا على سالم وطبيلة، ولمّا كان شهيا رأيتُ أن أحنثَ بيميني هذه المرة فقط، وحمَلتُ ما أعددتُه من طعام إلى خيمة الكعب ولم أبصق فيه وتربعنا وأكلنا معا، وتركنا القليل لنعناعة لتأكل بعدما تستيقظ، ووجدتُها فرصةً لأزرع بذرة بغض جمال الدين في صدر الكعب، ولن أتردد في إنشاد هراء الـ"قاقا باقا" إن كان هذا سيخلصني من هذا البغيض.

وقف الكعب ورمى عباءته الشيطانية على كتفيه وقال:

- سأذهب لأتمشى قليلا.

أصبحت علاقتنا وطيدة، وما عاد للحواجز والكُلف مكانا بيننا، لم أتحرك من مكاني وقلت له:

- اذهب وسأكمل طعامي وأعيد ترتيب الخيمة قليلا.

رماني بنظرة وقال:

- احرص على ألا تزعج نيروز.

تركني، وكانت فرصتي لأبحث قليلا عمَّا يخفيه ولكني فضلت الاستمتاع بتأمل جسد نعناعتي على أن أعود للبحث عمَّا يخفيه في وقت لاحق؛ فخيمته لم تعد محظورة عليَّ، وبحركة خبيثة سحبت اللحاف عنها وعندما كشفتُ عن فخذيها لم تكفيني متعة التخيُّل وشعرت بالرغبة في ملامسة نهديها، واستقرتْ عيناي بين فخذيها فلم أنتبه عندما فتحتْ عينيها إلا عندما أمسكت بكفي وشدت عليه، اتسعت حدقتا عينيها تجاه كفي فسكن الرعب قلبي، ولم يتبقَ إلا صراخها حتي يأتي الكعب وينحرني فوقها، رفعتْ ظهرها واعتدلت ومازالت تمسك بكفي وقالت:

- ما هذا يا عزيز.

لم يسعفني عقلي في تبرير ملامسة نهديها، وضاقت أنفاسي، وتجمدتْ الكلمات في حلقي، ولم يخرج منه إلا المأمأة، والتأتأة، والفأفأة:

- مئ مئ مئ...تأ تأ تأ...فأ فأ فأ.

شدت على كفي بقوه وقالت:

- ما هذا الخاتم التي ترتديه في إصبعك؟

فأجبتها:

- إنه إنه خا خا خاتم خاتم.

فقالت:

– ألیس هذا خاتم بیبرس؟

تنفست الصعداء ورفعت قلبي بعدما هوى إلى أسفل أقدامي ورُدَّتْ شجاعتي، وحُلَّتْ عُقدة لساني بعدما اطمأنت نفسي بأن ردة فعلها لا علاقة لها بلمس نهديها، وقلت:

– نعم هو خاتم بیبرس وقد أعطاني إياه عربونا على صداقتنا المتينة.

فقالت:

– لا لا بیبرس كان يفضل أن يقطع إصبعه قبل خلعه منه وله مكانة عظيمة في قلبه.

فقلت سرًا: "لقد أكل عشيقُك قلبه، والآن يستمتع الدود بما تبقى من جسده ولن يتبقَ منه إصبعٌ أيتها البلهاء"، وأجبتها:

– بیبرس أخي وصديقي وأحب الناس إلى قلبي وقد أعطاني الخاتم لأحرسه له حتى يعود إلينا سالمًا معافى.

فأخذت تبكي، وتكرر:

– اشتقتُ إليه، أين هو؟ متى سيعود؟

أسررتُ قولي:

– "أكله الدود يا حبيبتي ولن يعود أبدًا".

وأخبرتها بأن الشيخ طبرق تركه بيد أفضل الأطباء ليعالجوه فقالت في سذاجة:

– ومتى سنزوره؟

أسررتُ قولي ثالثةً:

– سيكون ظلمًا أن يسبقني الدود إلى نهديك يا حبيبتي.

وتسرعت في قولي:

– سلامتك يا نيروز.

أمطرتني بعشرات الأسئلة ولعنت سرًا الخنوص بيبرس الذي خرج إليَّ من قبره ليفسد يومي، وغربت الشمس ولم يحدث خلال هذا اليوم ما يسر بالي باستثناء الثواني التي لامست فيها نهدي نعناعتي، وتساءلت كيف ستكون خاتمة يوم أفسد صباحه جمال الدين وسخرية العرب وشبح بيبرس ويعقوب الذي استعبدني، والأسوأ من ذلك كله أن الليل سينتصف بعد ساعات وسيبدأ يوم الثلاثاء.

وها نحن نستعد مجددًا لرحلةِ الحفرِ والدَّفن، أعددنا جرار الذهب والبغال، وتوجب على الجميع التأهب في انتظار قدوم فاطمة وانطلقنا مع حضورها، وبعدما خرجنا من حدود المخيم اتجه كل فريق في ناحية؛ اتجهتْ فاطمة وبغالها شمالاً، ورافقها يعقوب، وأنا وجودت والكعب ومَنْ برفقتنا اتجهنا جنوبًا، ولم أجد سببًا لخروجنا من المخيم معًا ما دمنا سنفترق لاحقًا، كان القمر مشطورًا بين النور والظلمة، ولم أستطع منع نفسي من التشاؤم من خاتمة هذا اليوم.

مررنا بمنطقة أثرية وطبيلة الذي اعتاد أن يسير خلفي سبقني فجأة، وما هي إلا أمتار حتى سقط في حفرة يزيد عمقها عن عشرة أمتار، وضخامة جثته منعته من الانزلاق داخلها، ولو لم يسبقني لسقطتُ فيها، وحينما أسرعت لأمسك بيده سبقني أحمد الشَّايب وأمسك بيده فاختل توازن طبيلة وسقط بسبب ذلك الشايب فوق حجارة أعمدة أثرية وأصيب بالكثير من الكدمات، ولولا ستر الله لانتهت حياته في ذلك اليوم المشئوم.

حفرنا ودفنا الجرة الأولى، وواصلنا طريقنا ودفنا الثانية واقترح الكعب أن ندفن الثالثة في جحر يشبه ذلك الذي دفنا فيه خلدون الأعوج، ولم يعارض جودت وهنا دق الخوف بابي؛ فقد انتصف الليل، وبدأ يوم الثلاثاء فارتعب قلبي، وتساءلت: مَنْ سيختار الكعب لهذا اليوم؟ ودعوت الله ألا يكون سالما، ومن بين الجميع أمرني بدخول الجحر لأحفر، ثم يدفع لي الجرة لأدفنها، حاولت أن أطمئن نفسي مبررًا أن حجم طبيلة يمنعه من دخول الجحر، والشايب تعرض لكدمات، وسالم أبله، ولم يبقَ إلا أنا، ولم يكن أمامي إلا الطاعة، زحفت داخل الجحر مرعوبا، وتساءلت: بعد أن يحز الكعب عنقي مَنْ سيمسك بالوعاء ليملأه بدمي؟ وهل سيغضب جودت لذبحي؟ وسيحذِّره ألا يفعلها مجددًا أم سيبول في بنطاله فقط؟

المسافة التي زحفتها لم تتجاوز المتر، وكان شبح خلدون في كل زاوية من الجحر، وبدأت الأفاعي والعقارب تزحف حينما تأقلمتْ عيناي مع بصيصٍ من ضوءِ نصف القمر الذي تسرَّب إلى الداخل، اختفى شبح الأعوج إلاَّ أن الخوف من الزَّواحفِ مازال باقيًا، حفرتْ مكانَ الجرة ودفعها الكعب إليَّ ودفنتها ولم يتبقَ إلا القليل من التراب لأنهي عمَلي وهنا التقتْ عيناي بمفاجأةِ الثلاثاء وأصابتني قشعريرةٌ لا مثيل لها.

المستحيل ذاته في احتمالية حدوث مثل هذا الشيء؛ مَنْ يصدق أن نقوم باختيار مكانًا في البراري لغاية دفن ذهب وعند الحفر نجد ذهبًا في انتظارنا! قبل انتهائي من طمر الجرَّة ارتطمت يدي بطرف الحفرة فانهال القليل من التراب وظهر صندوق حديدي صغير يزيد عن حجم كَفَّ اليد بقليل، ويشبه صناديق الحلي، وحينما فتحته وجدتُ فيه أساور وسلاسل وعصمليات ذهبية، لم أتفحصها فكلُّ ما شغل بالي هو أنْ أُخفيها في جيوبي قبل أن ينتبه إليَّ أحد، والفرح الذي غمرني بهذا الكنز المفاجئ أنساني خوفي من الكعب، دفنتُ الصندوق الصغير بعدما أفرغْتُ محتوياته في جيوبي، وخرجتُ ولم يكن خنجر الكعب في انتظاري، أغلقنا الجُحر وأخفينا آثاره، وواصلنا طريقنا وقلبي كان يرقُصُ طربًا كُلَّما لامستُ الكنز.

زاد على كَونِه يوم ثلاثاء أنه كان يحمل الرقم المشؤوم 13 من تشرين الاول ، ومع هذا أنقذني طبيلة وسقط في الحفرة بدلاً مني، وسبقني الشايب وتعثر بدلاً مني أيضًا، ثم يختارني الكعب للحفر والعثور على الكنز، كان أروع ثلاثاء في حياتي، علمتُ فيه أن حظِّي بدأ يأخذ منحنى آخر، كنتُ متلهفًا إلى خلوتي بكنزي لأتفحصته جيدًا وكان عبارة عن ثلاثةِ أساور من الذهب، وسلسلتين إحداهما ذهبية والأخرى فضية، وخاتمين وخمس عصمليات، وهذه كانت أكبر كمية من الذهب أمتلكها في حياتي.

كم شعرت بالسعادة وأنا أحاول أن أخمن وزن كل إسوارة لأقدر ثمنها! وانجرفتُ بعواطفي ولم أتوقف عن الحراك، أرقص تارةً، أقف ثم أجلس، أستلقي، أقبِّل كنزي، أحضنه، أغطيه باللحاف، أعود وأكشف عنه، وحينما مللت من تحسس الكنز وبدأتُ أصحو من ثمالة الثراء التي أصابتني، وجمَّدتْ تفكيري مثلما يحدث معي في كل مرة إن تعرضت لحادث سار أو حزين، ثم عاد إليَّ رشدي ومعه منطقي، فقررتُ التخلص من العَصمليات الخمس حتى لا تؤدي إلى

هلاكي، فأي منطق سيقنع جودت بأني لم أسرقها من الصناديق! أما الحلي فلا حاجة لإخفائها، وليس من حق أحد أن يسالني من أين جئت بها، هي لأمي، لأختي، لروهان، لا يهم لمن، ما دمتُ لم أسرقْهَا من أحد.

كان التخلص من العصمليات الخمس مؤلمًا، فدفنتها داخل خيمتي، ورسمتُ خارطةً لأعود إليها لاحقًا، وبعدما زال الخطر عدتُ لأتساءل عن السِّر والدافع وراء إخفاء هذا الصندوق من الحلي في ذلك الجحر، مثل هذه الحلي لا بد أن يكون ملكًا لزوجة أو ابنة شيخ أحد قبائل شرقي الأردن، ومن المرجح أن يكون اللص الذي سرقها من داخل عائلتهم، وأخفاها بعيدا حتى يطمئن قلبه ويعود إليها..."يعوووووود إليها..." هذه الجملة كانت كافيه لتسرق مني فرحتي وتخرجني من غبائي الذي لا أدري لما يصيبني بين الحين والآخر... وهنا بدأ سحر كنزي الصغير يتلاشى، ولم أجد تفسيرا لسذاجة تفكيري وفرحتي لخمس عصمليات وأنا قمت بدفن جرة ملآنة بها، يا لسذاجتي وغبائي، لقد خسرت جرة ذهب كاملة في لحظات فرحة غبية.

كان عليّ أن أجد طريقة لأعدل عن دفن الجرة في هذا المكان، ولكني فضلت خمس عصمليات على جرة ملآنة بها...حتمًا سيعود مَنْ أخفى صندوق الحلي ليخرجه، وأنا بسذاجة سانتور حقيقي تركت له جرة ذهب! هذا اللص المحظوظ سيصبح أثرى لص شرقي النهر، ضحكتُ محاولاً تعزية نفسي على خسارتي الفادحة وأنا أفكر في ثقل السر الذي سيحمله معه هذا اللص إلى قبره، وكيف سيجرؤ أن يخبر أحدًا بهذه القصة الخيالية ومن سيصدقه إن روى أنه دفن القليل من الذهب ليسرقه أحدهم ويترك له جرةَ ذهب، لا أعرف كيف يمكن لعقل بشري أن يفسر ما حدث! لو كنتُ مكانه وتعرضت لمثل هذا الموقف لهربت وتركت جرة الذهب...فما يحدث لا يفسره إلا عقل شيطان.

أكاد اختنق وأموت غيظًا عندما أفكر في هذا اللص المحظوظ، لعنة الله عليَّ وعليه، ليتني أستطيع العودة وإخراج الجرة لأخفيها في مكان آخر! فمن الظلم أن يكافأ اللص على جريمته، عبثا حاولت أن أطمئن نفسي؛ لقد غطى الصندوق الحديدي القليل من الصدأ، وهذا يعني أنه لم يمر على سرقته ودفنه وقت طويل، ومن ثَمَّ سيكون اللص صبورًا ولن يعود إلى كنزه الحقير في الأشهر القادمة وهكذا سأسبقه وأخرج الجرة وأتركه يموت غيظًا.

مرت الليلة والكوابيس تطاردني وأشعر بأن آلاف اللصوص يسبقوني إلى الذهب ولم يبقوا لي شيئا، تبا للصوص الأنذال! لن أعارض يوما قطع أياديهم حتى لا يتجرأ أحدهم على سرقة ذهب أحد، واللعنة على يوم الثلاثاء المُخادع؛ لقد سخر مني بطريقه ملتوية.

صبيحة اليوم سار كل شيء كعادته سوى أن الطقس كان باردا مما اضطرني لنقل عرشي والجلوس حيث لا تحجب الخيام ما وصلنا من خيوط الشمس، والتف حولي الرعية لاحتساء القهوة وبرعوا في تملقي، ولماذا لم يفعلوا ما دام هذا يوفر لهم السجائر والمرح والسخرية من خادم أبله جعل نفسه سلطانًا، وبالرغم من ذلك أشعر بالسعادة في ممارسة هذه الطقوس بالرغم من سذاجتها، ولم أفكر بأن أتوقف عنها، وكما قال روهان يومًا:

– "في أحلامنا كلنا ملوك وفي واقعنا لسنا إلا خدمًا لجاهل قال إنه ملك ولم نعترض"

وماذا سيضرني إن سخر مني الآخرون ما دُمتُ أستمتع بهذا الحلم! ألسنا جميعا نحلم في يقظتنا بأننا ملوك وقادة وأبطال؟! ولعلي أصْدَق من الجميع حين أحاول أن أجعل من أحلامي واقعًا للحظات! وكما تعوَّدت كُلَّ يوم لابد أن يأتي أحدُهم ليفسدَ عليَّ طقوسي، تطل المصرية من بعيد متجهةً نحو خيم المؤن، وقبل اقترابها كان لابد أن أتجنب الحرج أمام رعيتي فقلت لسالم:

– اذهب إلى رباب وأخبرها بأني مشغول ولتأخذ ما تريد من المؤن ولاحقا سأراها.

اقتربتْ وما كانت لتستأذن أحدًا، وربما نجحت في إيهام الجميع بألا يتم شيء دون إذني، وحمدت الله أن غيمتها السوداء انقشعت سريعا ولم تمطرني، وبدأ جوهر الحكواتي يخبرنا أن هذه المصرية لها خيمة خاصة بجوار خيمة فاطمة، وأنها تلازمها ليل نهار، ولا تفارقها إلا عند ذهابها لدفن الكنوز، وفي إحدى مرات الدفن عاد مالت واصطحبها لتلحق بها، وأنه رآها أكثر من مرة تركض بهستيرية تجاه خيمتها فور إشارة مالت المخنث بيده إليها، فقاطعتُه قائلاً:

– يبدو أنها خادمة نشيطة.

فرد جوهر وقال:

- لا رباب ليست خادمة، هناك أمر غامض في علاقتها بالغجرية فاطمة.

فعلق أحمد الكبير بعد أن حك رأسه وابتسم:

- (أحيانا الناقه بتوالف ناقه)

ولم يضحك ويفهم ما قاله إلا جوهر الذي قال:

- (معك حق ما ظل فحول)

أطل جودت من خلف الخيام وأشار إليَّ واستدار عائدا، فنزلتُ عن عرشي الملكي لأعود عبدًا يتبع سيده، وجدته سعيدًا على غير عادته وكان بحاجة ليعيد تنظيم مسكنه ليلائم استقبال ضيف كبير قد يفاجئه في أية لحظة، وبدأنا بنقل الكثير من أغراضه الشخصية إلى الخيمة الأخرى، وبخاصة أحذيته وبدلاته التي اعتاد أن يعلقها على أطراف الخيمة من الداخل، أخرجتُ الأبسطة وحرصتُ على إزالة الأتربة التي التصقت بها جراء دخوله وخروجه المتكرر، ثم بسطتها وبدأت بمطاردة كل ذرة غبار في خيمة هذا المهووس الذي لا يريد أن يفهم أنه يعيش في البراري لا في القصور، تركني وذهب ليمضي القليل من الوقت مع يعقوب حتى أنتهي، ووجدتها فرصة لألقي نظرة على ما كتبه في يومياته المملة:

- ***" عقارب صفراء سامة اجتمعت في صناديق جعلت منها بيتًا لها، وأوهمتنا جميعًا أنها تجلس في هدوء، والحقيقة أنها لا تتوقف عن الرقص والعزف والغناء، ليصل صوتها العذب إلى أبعد مكان، والأذن التي تصغي تطرب ولا تعي حينها أنها تلقت اللَّدغة الأولى، وكانت وخزة ناعمة لطيفة منعشة لكل الحواس، والعين تندفع لتنال نصيبها، وتكون اللدغة الثانية أشد، وتنطلق العقارب لتلدغ القلب وتنشر سمها ببطء حتى يصل إلى الروح.***

لم أبغض شيئا في حياتي كما أبغض عقارب الذهب، وكلما نظرت إلى الصناديق أُصاب بالقشعريرة، وأتساءل عمَّن ستهاجمه هذه العقارب، في كل ليلة تغزوني كوابيس أرى نفسي فيها ممدا بين الصخور وملايين العقارب الصفراء تحيط بي من كل جانب، والغربان تحوم فوقي وكلما اقترب مني عقرب تهبط وتلتقطه وتعود

لتحلق مجددا، وفجأة يقترب أحدها ويبدأ بنقر عيني، أصرخ ولا يخرج صوتي، أحاول أن أحرك ذراعي لأبعده عني ولا أقوَ على ذلك، أصحو مفزوعًا وأخشى العودة للنوم مجددا، وها أنا أخشى الذهب والنوم وكلَّ ما يحيط بي.

حتى قلمي الذي كنت أرى فيه الصديق الوفي تآمر عليَّ أيضًا، وكلما أمسكت به لنتحد معًا ونطلق الكلمات من أسرها لم يخط على الورق إلا عدة أحرف تجتمع معًا لتكون " الموت والذهب"، كنت أتساءل دوما عن لون الحب، أم أنه كالماء؟ واليوم لا يشغل بالي إلا سؤال واحد؛ ما لون الوجه الثاني للموت ما دام الوجه الأول ذهبي اللون؟ ربما لو سألت طبرق البغيض لوجدت عنده الجواب عن اللون الذي يراه كلما ذبح أحد هؤلاء المساكين، اليوم حلَّقتُ بخيالي إلى أحد مقاهي باريس، جالستُ أصدقائي، ولم أقرأ عليهم آخر قصائدي، وإنما أخذت أروي لهم حكاية مرافقتي لمشعوذ يقتل البشر ليروي ظمأ جنون عشعش في عقله وعقل نصف الأمة، وكيف كنت أرافقه وأقف صامتا كل يوم عدة مرات حتى ينتهي من طقوسه الوثنية، فيسألني أحد أصدقائي وهو يحتسي قهوته، ألم تشعر بالرغبة في أن تشاركه رقصاته؟ لم أجد ما أجيب به نفسي، وتساءلت ربما أشاركه بلا وعي وربما أنا جزء من طقوسه.

ما دوري؟ وماذا أفعل هنا إن لم أكن كذلك؟! هذه القافلة حطمت روحي وحولتها إلى شظايا، ماذا سأحمل معي إلى الغد؟ أي ذكريات سأجرؤ على روايتها؟ أي قلم سيكون قادرًا على خط كلمات تصطف لتشكل جملة قادرة على تجاوز ذكريات هذه القافلة الملعونة، ولا يكون فيها حرف يشير إلى الموت والذهب؟! وهل المرايا التي ستنظر في عيني غدًا سترى الشخص نفسه؟!

سامحك الله يا باشا ماذا فعلت بي؟! أهذا هو الغد الذي من أجله...! ألا يجوز لي أن أعترض! وحينما تطلب مني غدا أن أعد لك خطابا لتلقيه في مناسبة ما كما اعتدت طوال السنوات الماضية فأي كلمات سأختارها لك لترددها ويصفق لك الجمهور بحماس! ربما من الأفضل أن نقتبس نشيد الـ"قاقار باقار" من شيخك

العظيم طبرق، وربما سيقف بنفسه بين الجمهور ليعلمهم رقصة القرود، ولِمَ نعترض إن قرر ذبح أحدهم أو ذبحهم جميعا طالما أنه المستقبل الذي نختبئ خلف عباءته لينقلنا إلى عالم أكثر تمدنا! لا يجب أن نلومه، نحن لا نختلف عنه في شيء، هيا يا باشا ربت على كتفي -كعادتك- ودع صوتك الحنون يتردد: "جودت كلماتك من ذهب." وأنا سأمدك بالمزيد من الـ"قاقار باقار" لتشحذ بها حماس جمهورك العظيم".

أسعدني واستفزني هذا الذكي بما كتبه في يومياته وشعرت بأنه على وشك انفجار عظيم، ولمَّا علمت أننا لن نخرج اليوم للدفن جلستُ أفكر لرسم خطط جديدة.

أمضيت بقية النهار في الاستماع إلى ما يُحكى عن الغجرية فاطمة وما تحمله معها من كنوز، وعزمتُ أن أسخِّر كل وقتي بعد الغروب لاستدراج حيان الذي لم يختلف عن الآخرين كثيرا في ثرثرته، ولكنه كان يتحفظ في حديثه عن علاقته الحميمة بفاطمة، ويهرب من أي سؤال يتعلق بوالدته العربية، لم يعرف هذا التركي ابن العربية بأن قريبه رشيد -رحمة الله عليه- قد روى لي ولسلامة قصة والدته وجده العربي، الذي أقسم أمام الجميع أن يقتل والد حيان يوما، لقد تفاخر رشيد وتباهى وثرثر كثيرا، وأنا لم أهتم بإطلاع حيان على ما عرفته عن عائلته، وكلُّ همي كان مُنصبا على إحاطتي بالصورة الكاملة لرحلة قافلة فاطمة، وستبقى القصة مبتورة إذا لم يثرثر حيَّان بعلاقة الحب التي ربطته بهذه الغجرية، سيكون اليوم مثاليًا لأعطيه زجاجةَ العَرَق التي منعتُها عنه في الأيام الماضية لأني كنتُ حريصًا على ألا أهدرها بلا مقابل.

ذهبتُ إلى خيمته وتخلصنا من المزعجين، كنتُ بارعًا حقًا في تقديم العرق بطريقةٍ تشجع على الشربِ وتحقِّقُ الإمتاع، وافتتحتُ أول حديثنا بتأكيد خبرِ زيارة جمال بَاشَا للمُخيم في الأيام القادمة، هزَّ رأسه وقال ساخرًا:

- إذًا ستلتقي بمنقذ تركيا وبطل الأمة الإسلامية القادم، مُحرِّر مَسْرَى النبي -صلى الله عليه وسلم- من احتلال الصليبيين الجدد.

هذه الكلمات صكتْ مسامعي عدة مرات أثناء رحلتنا وها هو حيان يكررها أمامي، وتسلل الشك إلى قلبي بأن أكون جاهلا، وسألته بسذاجة:

– هل القدس بحاجة لمن يحررها؟

ارتشف كأس العرق دفعة واحدة كما كان يفعل روهان وضحك وقال:

– إن سارت الأمور كما خططوا لها ففي بداية العام القادم أو منتصفه ستحتل الإنجليز القدس، وقبل نهاية العام سينطلق جمال باشا ليحررها وسيتوج بطلا للأمة الإسلامية، ويجعل منها عاصمة لبلاد الشام، وستحتفل الأمة بنصر الناصر صلاح الدين الثاني، وسيحل السلام، والجزء الأكبر من فلسطين سيبقى تحت حكم الإنجليز، ولن يقلق أحد ما دامت القدس بخير وإن سارت الأمور كما شاءوا ونجح الاستعراض الهزلي لا أستبعد أن تكون لندن مقرًا للخلافة الإسلامية.

كم أمقت السياسة! ولكن ما قاله يحتاج إلى تفكر، لم أسأله عن مصدر معلوماته المفاجئ، فلا أشك في أن فاطمة هي مصدره، ولكني سألت:

– إذا كان هذا ما خطط له وهو يملك كل هذه القوة، فما حاجته لإخفاء كل هذه الكنوز؟ ألم يكن من الأذكى أن يحرسها في مكان واحد؟

قال:

– صدقني هذا السؤال حيرني لفترة من الزمن، وما اكتشفته هو أن الباشا يؤمن بأن المال هو القوة الحقيقية لإنجاح خططه وتحقيق أحلامه، وهذا الرجل لا يثق بأحد ويبدو أنه قد انقلب على شركائه في المؤامرة ومن ثَمَّ خاف أن يغدر به الإنجليز ويستولوا على كل ما نهبه وجمعه هو وشركاؤه.

وتابع قائلا:

– الخائن يا عزيز دومًا يخشى الخيانة لهذا عزم ألا يترك كنوزه في مكان واحد، وفيمَا فعله منطق، إخراج هذه الكنوز سيكون سهلاً عليه في أي وقت يشاء، ويصعب ذلك على الآخرين، ولو جمع ما نهبه في مكان واحد لوجدت الخيانة طريقها إلى نفوس البعض.

بدأت تظهر عليه آثار الثمالة ولم يتوقف عن حديث السياسة، وهذا ليس ما خططت لأهدر عليه زجاجة العرق، وبذلت جهدا لأعيده للحديث عن فاطمة وحين انطلق لسانه وبدأ يطربني بما أريد أن أسمعه توقف فجأة وسألني:

– أخبرني يا عزيز، عبد القادر الدرويش الذي كان برفقتنا ماذا حدث له؟ لقد سمعت قصصا أغرب من الخيال عن اختفائه المفاجئ.

ضحكت وسألته عما سمعه فأخبرني أن بعضهم أخبره بأنه تحول إلى شبح واختفى أمام أنظارهم جميعا، ضحكت وقصصتُ عليه حكاية اللص الدرويش الذي اعتاد على التجول بين المدن، والتردد على المعسكرات، تحدث التركية وبرع في خداع الأتراك وسرقتهم، ووصل إلى مسامعه أن هناك بيتًا في البلدة القديمة في نابلس يقوم عشرات الجنود على حراسته ليل نهار، ولا يسكنه أحد، وشكَّ أن بداخله شيء ثمين، فقرر أن يجد طريقة لدخوله، ولكن شاءت الظروف أن يتزامن ذلك مع تحميل كل ما في المنزل على البغال، والتوجه بها إلى مدينة جنين، وما كان منه إلا أن يتبعهم ويراقبهم من بعيد وحينما وصلوا جنين ومنها انطلقوا إلى مرج ابن عامر تسلل عبد القادر إلى المخيم، واكتشف ألا أحد يعرف أحدا، فاندمج بين الجميع، ولم يخفَ عليه أمر الكنوز، فوجدها فرصة العمر لينهب الأتراك وحرص أن يجعل له مكانًا ضمن القافلة ولم يجد صعوبة في ذلك، وكان بارعًا في إبعاد الأنظار عنه، ويتحين اللحظة المناسبة ليسرق الذهب ويختفي وحينما علم أن القافلة في طريقها لنهر الأردن خاف أن تنقلب الأمور، وكان موت سلامة المفاجئ فرصة لا تعوض ليستغلها ويهرب بما غنمه من ذهب.

كانت قصة عبد القادر أشد تأثيرًا في ثمالة حيَّان من العرق، ولم يتوقف عن الضحك بالرغم من أني لم أخبره الجزء الأخير الأكثر تشويقا، لم أنجرف خلف عواطفي ولم أفش له سر اختباء عبد القادر في قبر سلامة؛ فمثل هذا الأمر يصعب أن يكتمه من يعلمه، ولابد أن يشد الفضول أحدهم للبحث عن القبر يوما، ليستطلع إن كان عبد القادر قد خرج منه أو مات اختناقا،

وحينها ربما سيجد الذهب الذي أقسم أن يتركه لسلامة، وربما يكون قد مات بجواره وترك الذهب كله، وفي الحالتين سأكون أنا الخاسر الوحيد، والأخطر من هذا أن ينجو حيان ويذهب بنفسه ليسرق ذهبي.

اكتفى حيان بما احتساه من عرق، ولكني كنت بارعا في تشجيعه ليحتسي المزيد، ولم تكن بداية حديثنا سارة؛ لقد تحدث عن روهان وبكى وأبكاني، واكتشفت كم كان يحبه، وامتعضت كثيرا عندما شبَّه روهان بجده العربي، فلا يجوز إهانةَ البيك بتشبيهه بالعرب، ولكني تغاضيتُ عن توبيخه حتى لا أفسدَ خططي، ثم انتقلنا إلى فاطمة، واستمر حديثه لساعات، لم يغفل أي تفصيل؛ تحدث عن طعامه وشرابه وكيف كان لقائه بالغجرية، أدخلني في أجواء من الإثارة، وانتقل إلى أجواء الموت وعاد إلى الطعام والشراب، طريقته في سرد الأحداث كانت مُمِلَّة جدًا، وقصته مشوقة، ذاكرته لا بأس بها، ولكن ثمالته أفقدته بعض تركيزه فتركتُ لذاكرتي تجميع الصور والمشاهد والأجزاء المبعثرة بناءً على ما سمعته من الملط وجوهر والآخرين، وكنت أساعده في وصف الأشخاص وأسمائهم إذا اختلطت عليه الأمور، وعندما كان يقطع المشهد وينتقل إلى آخر كنت قادرا على إعادته إلى المشهد الذي اقتطعه، كان يقفز من غروب يوم إلى غروب آخر، وكنت أعيده إلى الفجر وأوصله بالظهيرة، وصف لي الوشم الذي تحت سُرَّتها، وأخبرني بالأحرف التي وشمتها على فخذها، ونسي وصف الوشم الذي على رقبتها فذكّرته به، وذهل وسألني:

– كيف؟ هل أخبرتك أنا بذلك؟

آلاف التفاصيل والأحداث التي أغرقني بها هو وغيره استطعتُ أن أعيد ترتيبها، كان يرى الصورة من وجهة نظره فقط، وكنتُ أزيد عليها رؤيتها من خلال عيون الآخرين بما رووه طيلة الأيام الماضية، ارتخت جفونه وغفى وهو مازال يثرثر، وكنت على ثقة أنه إذا تذكر ما أخبرني به في الصباح سيحنق عليَّ إلى يوم القيامة، تركته لينام وما عاد في جعبته شيئًا لا أعرفه.

حملتُ معي ما تبقى من زجاجةِ العرق وعدتُ إلى خيمتي وغرقت في حب فاطمة التي لا يأتيها النوم إلا بعد أن تحضن أحد التماثيل الذهبية التي تحتفظ بها في خيمتها وأخذت أفكر في طريقة لأدفعها لتربطني بسلسلة وتتركني أنام في أحضانها قليلا.

هذه المهووسة التي أمرت حارسها الزنجي أن يذهب ويطلق النار على رأس حيان أمام الجميع ليكون عبرة لكل من سيجترأ عليها، أو ويتواقح معها، ودقيقة واحدة فصلت بين وصول الزنجي لتنفيذ الأمر ولحاقها به لتشير إليه أن يعود وتطلب من حيان أن يساعدها لتترجل عن حصانها وتقع في حبه.

حيان كان عنيدًا جريئًا وما كان يكترث لعواقب الأمور وما كان لينحني لبندقية مصوبة نحو رأسه، وفاطمة المتعجرفة ترتدي ملابس العسكر واعتادت على إخفاء وجهها الأنثوي وإصدار أوامرها في خشونة الرجال وجفاء القادة، كانت حريصة كل الوقت على مراقبة الكنوز التي حملتها على الجمال والبغال، وما كانت تسمح لأحد أن يغيب عن ناظريها، وبرشاقة غزال كانت تنتقل من مقدمة القافلة إلى مؤخرتها، وخلفها حارسها الزنجي لمراقبة كل شيء، وكانت الطاعة العمياء سمة الجميع حتى يعقوب كان مطيعا لها، ينادونها بـ "الباشا" ولم يخف على أحد أنها امرأة.

غرور حيان وكبريائه جذب انتباه فاطمة المتعجرفة، وبهرها منذ أن رافقهم، واقترابها الأول منه لم يكن من قبيل الصدفة، ولكنها سعت اليه، توقفت القافلة وبدأ الخدم والعبيد نصب خيمتها، واقتربتْ منه وخاطبته من فوق صهوة حصانها المرقط وقالت:

- أنت يا هذا اذهب وساعدهم في شد حبال الخيمة.

ولمَّا لم ترق له الطريقة التي حدثته بها أدار ظهره لها ثم تولَّى إلى ظل شجرة، ولاحقه صوتها الغاضب:

- أنت...أنت، لا تدر ظهرك لي وأنا أحدثك.

جلس في الظل ورماها بنظرة ساخرة قائلاً:

- اعذريني أيتها الأميرة فلم أراكِ لأسمع صوتك!

تمتمت: وقح! ومدت يدها لجيب سرج الحصان وأخرجت قربة ماء وألقتها على الأرض وقالت:

– هيا يا اذهب واملأها بالماء.

ابتسم حيان وتجاهل النظر إلى القربة، ووقف وقدم لها قربة الماء التي يحملها معه وقال:

– تفضلي يا سيدتي الماء.

– هيا التقط القربة واذهب واملأها يا هذا.

فرد عليها ساخرا:

– اسمي حيان يا سيدتي وبإمكان أحد خدمك أن يملأ لك الماء.

قالت متوترة:

– أريدك أنت.

– يسعدني أن أحضر الماء لسيدة مهذبة في طلبها.

أشارت لحارسها الزنجي فاقترب، وقالت بنبرة صوت لا تخلو من تلميح لتهديد:

– هل ترغب أن أطلب منك هذا بطريقة تليق بوقاحتك؟

اقتراب الزنجي والرسالة التي أرادت فاطمة إيصالها لحيان استفزته فتجاهلها واستدار وعاد إلى مكانه ولحق به الزنجي وأمسك بكتفه والتفت إليها حيان قائلاً:

– مري عبدك هذا أن يبتعد إن رغب أن يعيش يوما آخر.

اقترب المخنث مالت وسألته:

– من أتى بهذا الوقح إلى القافلة؟

فتمتم مالت بعدة كلمات وعلى أثرها هزت رأسها وأشارت للزنجي وانصرفوا جميعًا، رباب المصرية كانت قريبة وراقبتْ كلَّ شيء، ثم اقتربتْ من حيان بحذر وهمست له:

– ما فعلته لن يمر دون ثمن، اهرب وانج بنفسك؛ لن تغفر لك فاطمة ما بدر منك اليوم.

لم تمر ساعة حتى عادت فاطمة مسرعة وكان الزنجي يسبقها إلى حيان أشارت له أن يعود واقتربتْ وبإصبعها أشارت إلى حيان أن يتقدم إليها. وبعناده المعتاد قال من مكانه:

– بماذا يمكنني مساعدتك يا سيدتي؟

فقالت:

– ليس من التهذيب أن تتكلم مع سيدة وأنت جالس.

فقال:

– لم أعتد أن أتحدث مع أحد وهو على صهوة حصانه.

فقالت:

– إذًا تعال وساعدني لأترجل.

تقدم وأمسك برسن الحصان ومد إليها يده، وترجلت وبلهجة هادئة سألته:

– ما العمل الذي كلفوك به في هذه القافلة؟

فأجابها:

– لم يكلفني أحد بشيء، ولست راغبًا في ذلك يا سيدتي.

فقالت:

– إذًا سأكلفك من اليوم بالإعتناء بحصاني.

وتركته وعادت راجلة، ونادى حيان على أحد الخدم وقال له:

– خذ حصان سيدتك واعتنِ به.

مر ذلك النهار بسلام، وبعد منتصف الليل تسلل مالت –مثل القطط– إلى صخرة استلقى أسفلها حيان، لم يكن ينوي له شرا، والطريقة التي تلمس بها جسده ليوقظه خلت من البراءة، وبأسرع من قدرة مالت على استيعاب ما حدث وجد عنقه تحت رحمة ذراعي حيان، حيث قال له:

– ماذا تريد أيها المخنث؟

أرخى حيان قبضته قليلا عن عنقه ليحصل منه على جواب، فقال:

– الباشا يريدك أن تذهب إليه الآن.

اعتقد حيان أن طالبه اليوزباشي يعقوب، ولكن مالت أخبره أن فاطمة هي الباشا الذي يريد حضوره، فضحك وقال مُستهزئًا:

– وماذا تريد مني الباشيه؟

تبع حيان مالت وتوقَّع أنه يقوده إلى كمين، ولم يدرك أن الطرق الملتوية كانت لئلا يراه يعقوب داخلاً خيمتها، اعترض طريقهم حارسها الزنجي وابتعد بإشارة من مالت الذي ترك حيان يدخل الخيمة وحده وعاد ليبحث عن الموقع المناسب الذي سيمكِّنه من التلصص علي حيان وفاطمة فأذهله ما رأى.

لم تكن الخيمة الملكية وما بداخلها هو ما أذهله، وإنما الأندلسية السمراء فائقة الجمال كانت ترتدي ثوبًا من الحرير الأحمر، طُرِّز بورود ذهبية، مشدودا على جسدها ليبرز ثناياه المُثيرة، ونهداها كانا يجاهدان لتمزيقه والتحرر من قيوده، شعرها الأسود الغجري انسدل على كتفيها، وعدة خصلات منه حاولت أن تخفي شق نهديها، عيناها مكحولتان، ورموشها حالكة السوداء، أنفها دقيق وشفاهها ترسم فمًا شبقيًا، أسفل عنقها وشم أفعى تتحرك مع أنفاسها الحارة، جمالها أصاب حيان بالذهول، وعقد لسانه وشعر بأن الثياب التي ارتدتها لاستقباله فيها دعوة صريحة لقضاء ليلة صاخبة شرسة وسره ذلك كثيرا.

ولكن سرعان ما خاب ظنه عندما طلبت منه الجلوس وارتدت عباءة سوداء مطرزة بالذهب، لتخفي ما استقبلته به من جسدها، وأدرك أن ما حدث لم يتعد الاستعراض وأن هذه

الليلة ستمر دون أن يتذوق شيئا، واكتفى بأن يترك عينيه تستمتع بما تقع عليه من جمال لم ير مثيلا له من قبل...سمع صوتها وسألته عن اسمه سابقا، ولكنه تفاجأ حينما سألته ثانية:

- ما اسمك؟

الصوت الذي يسمعه كان أنثويا ناعسا ساحرا ونبرة الصوت التي سمعها مُسبقًا كانت جافة حازمة متعجرفة...أغلق حيان عينيه لحظةً وعزم على الخروج سريعا من سطوة سحر جمالها، واسترد ما غادره من غرور بابتسامة ساخرة سرقت نصر جمالها، وقال:

- مازال اسمي حيان ولم يتغير منذ الأمس.

ضحكت وقالت:

- وماذا كان يعمل حيان قبل التحاقه بالقافلة؟

- اعذريني عن هذا السؤال فلست معتادا على الكذب.

فقالت بغنج:

- سأغفر لك إن كذبت.

- أنا سائس دواب.

- لا هذه كذبة ساذجة.

- أنا حمَّال.

- وهذه ساذجة أيضا.

- أنا ملازم أول بالجيش العثماني وقد فررت من الخدمة.

- لماذا هربت من الجيش؟

ضحك وقال:

- صديقي العجوز روهان أقنعني بذلك.

- خيرًا فعل.
- ومن تكونين أنت يا سمو الأميرة.
- أنا ريهان ابنة السلطان
- لا لست ابنة سلطان.
- ألا يليق بي أن أكون ابنة سلطان؟
- الحقيقة أني أرى أنه لا يليق بك أن يكون السلطان والدك.
- وماذا تعتقد أني أكون يا حيان؟
- لا أجد تبريرًا لحسناء ناعمة تضج بالأنوثة كي تكون على رأس قافلة من هذا النوع!
- في خيمتي أنا فاطمة، وعلى صهوة الحصان لابد أن أرتدي خشونة وقسوة الجند، وأنت لن تخبر أحدا بهذا السر، أليس كذلك يا حيان؟
- وإن فعلت ماذا سيحدث يا سمو الأميرة؟
- لن يسرني أن اقطع رأس رجل نبيل، ولن أتردد أن أفعلها إن اضطررت.
- وكيف تعرفين إن كنت نبيلا فعلا؟

ضحكت وقالت:

- أنا فاطمة وأعرف كل شيء والآن أخبرني ما الفكرة التي كونتها عن هذه القافلة.
- مجموعة من المهربين واللصوص اجتمعوا ليخفوا ما نهبوه.
- ربما هذا ما يدل عليه الظاهر، ولكن الحقيقة نحن أصحاب مشروع سينقل هذه البلاد من الجهل والتخلف إلى مستقبل أفضل.

- لم تخبريني باسمك الحقيقي يا أميرة.

- لقد أخبرتك اسمي فاطمة.

- لا اسمك ليس فاطمة.

- ألا يليق بي أن يكون اسمي فاطمة؟

- تليق بك كل الأسماء، ولكن فاطمة ليس اسمك الحقيقي.

- وماذا تعتقد أن يكون؟

- لا أدري، ولكنه ليس فاطمة.

- لأعيش يوما آخر يجب أن يكون اسمي فاطمة.

- وما علاقة الاسم بموتك وحياتك؟

ضحكتْ بأعلى صوتِها وقالتْ:

- سأسألك سؤالاً وإن أجبت عليه بصدق سأخبرك باسمي الحقيقي.

- اسألي.

تخيَّل أنك وقائدك في جولةٍ في أحد الأقاليم العثمانية وصادفتما في طريقكما فتاتين واحدة اسمها فاطمة والثانية فردا وأمرك قائدك أن تختار واحدة لتعتدي عليها وتقتلها، فأي واحدة لن تثقل ضميرك حينما تعتدي عليها وتقتلها؟

- أنا...ما كنت لأقتل أي منهما.

- لا خيار أمامك إمَّا أن تنفذ أو سيقتلك قائدك على الفور ولن تعيش يومًا آخر.

صمت حيان، وبعدها ارتبك واحمرَّتْ وجنتاه وشعر بالاختناق والغضب، وبنبرة صوت مستفزة قال:

– لقد علمتني الحياة أن يومي الأخير كان أمس ولا حاجة لي لأعيش اليوم، ولن أطمع في الغد وعندما يصادفني مثل هذا الموقف يومًا سأقتل قائدي.

– أيها الأحمق العنيد تعال لنصيغ السؤال بطريقة أخرى، قائدك أمر أحد الجنود وليس أنت، من سيختار؟ أجبني بصدق.

– قتل فردا أسهل من قتل فاطمة.

– إذًا ماتت فردا وعاشت فاطمة.

– أسفًا هذا يحدث في كل مكان في العالم، ولكن السؤال، لو حدث هذا الموقف في أوروبا ألن يقتلوا فاطمة لتعيش فردا؟

– ولماذا سيقتلونني أنا؟

– لأنهم سيختارون قتل فاطمة.

– ثق بي سأعيش ولن أموت لا هنا ولا هناك.

– والآن جاء دورك لتخبرينني عن اسمك الحقيقي.

– لقد أخبرتك عن اسمي الحقيقي.

– لا اصدق أن اسمك فاطمة.

وارتسمت على شفتيها بسمة خبيثة وقالت:

– اسمي ڤردا.

ودَّعتُّ الثلاثاء فَرِحا؛ فقد انتهى بغير نوائب، وحدثني حيَّان فيما أردت، وغرقتُ في أحلام الغجرية، وصحوتُ من نومي لأستقبل الأربعاء والشروق الساحر، ومازلتُ عاجزًا عن وصف هذه الرُّقعة من العالم، شمسها تدفئ أرواحنا قبل أجسادنا، ليتني أستطيع تسلق الجبال المحيطة لأراقب الشمس تستيقظ صباحا وتغرق روحي بخيوطها الذهبية! لو كنت قادرًا على شراء هذه الشمس لبذلتُ ثمنَها الكثير من الذهب الذي سأحصل عليه لاحقًا، وحبستها في قصري صباحا، حتى لا يستمتع بها غيري، وعند الظهيرة كنت لأطلق سراحها لتحرق الجميع، كم أعشقها وأعشق معها نعناعة! أعددت إفطارها وذهبت إلى خيمتها لإيقاظها آملاً ألا يكون الكعب قد عاد من رحلاته الليلية الغامضة في صيد القلوب والأكباد والله وحده يعلم إن كانت لبشر أم لحيوانات.

كان نائمًا على غير عادته ولم تكن في أحضانه، وأخذتُ أبحث عنها في أطراف المخيَّم، هذه البلهاء بحاجة لأن يتم تقييدها حتى لا تقترب من حدود المخيم المحظورة، رأيتها قادمة من بين الصخور، أشرتُ لها بيدي فجاءت، وأخذتها لتناول الإفطار، كانت على غير عادتها شاردة الذهن مشغولة البال، لم تتناول شيئًا، فسألتها عمَّا يشغلها فأجابت:

- الولد يا عزيز الولد.

وفور سماعي ما قالتْ نظرتُ إلى بطنها باشمئزاز، ولم يخطرْ ببالي إلا أن طبرق اللعين قد زرع في رحمها ولدا، وخيالي أخذني إلى أبعد من ذلك ورأيت طبروقا صغيرا يرتدي عباءة ويسير خلفها...سألتها عن قصدها، فقالت:

- سمعت طفلاً يبكي بين الصخور.

تنفستُ الصعداء واختفى المسخ الصغير من خيالي، ليست حُبلى ولكنها تحلم فقلت لها:

- خيرًا؛ بكاء الطفل في المنام إشارة لخبر سار.

فقالت:

- لا ليس حلمًا، لقد سمعته بالأمس واليوم بالقرب من الصخور.

أشفق عليها لغرقها في أوهام الخرافات الطبرقية والعفاريت الذين اختلقهم طبرق للسيطرة عليها، وليس غريبًا أن تسمع طفلاً يبكي وتشاهد أمه ترقص، هذا اللعين قد أغرق حياتها بكل أصناف الجن من الأحمر إلى الأرجواني! والحكمة السانتورية تقتضي أن أنتشي من الخرافات لا أنفيها، فقلت لها:

- ربما هو أحد أبناء الأمير طبرق.

وقالت:

- لا... الأمير ليس لديه أولاد من الجان، ولم يتزوج من بنات جنسه.

قلت لها لأخفف عنها:

ربما ابن أخته، أخوه، عمه، عفريت صغير من قبيلته يلعب مع أبناء عمومته، لا تفكري كثيرا في هذا الأمر يا نيروز.

وسرًا قلت: ليس من الغريب أن يختبئ الكعب خلف الصخور ويبكي كالأطفال ليقنعها بالمزيد من هرائه، لم يكتف بادعائه أنه أمير وسيم ابن ملك.

قالت:

- تعال معي لتسمع بنفسك الولد يبكي.

وما كنت لأتردد في مرافقتها والاختلاء بها ولن أمانع أن أبكي أيضا لعلها تضع رأسي على صدرها لتخفف عني وتواسيني، أسير خلفها نحو الصخور البعيدة وولدي يبكي من الفرحة، ولكن الخوف اعتراني وبخاصة أننا بدأنا الاقتراب من الإشارات التي حذرنا الدليل من تجاوزها، وحاولت أن أقنعها بالعودة وأنه من الواجب أن نخبر الشيخ طبرق بابتعادنا.

ردت:

- لا تهتم سأخبره أننا ذهبنا لنتأكد من الولد الباكي.

سألتها:

- وهل يعلم الشيخ شيئًا عن قصة الولد؟

ردَّت:

- نعم لقد أخبرتُه وقال إنه من أولاد الجان وسيغادر المنطقة، وحذَّرني من تجاوز الصخور تفاديًا لأشرار الجان.

فقلت:

- نعم نعم هناك الكثير من الجان الأشرار.

كيف أقنع هذه البلهاء التي لا تعي أن خلف الصخور يكمن العشرات من رجال يعقوب المسلحين، وسيطلقون النار على مَنْ يتجاوز حدودَ المخيم دون تصريح؟

اقتربنا من الصخور ولم تفصلنا عنها إلا ثلاثة امتار وهي المسافة التي أخبرنا الدليل أنها منطقة الخطر وتجاوزها يدخلنا منطقه الموت، دق قلبي بعنف عندما ركضتْ تجاه فتحة ضيقة بين صخرتين غير مبالية بإشارات التحذير، حذرني الخوف من الاقتراب، والشهوة قادتني لأندفع وأدفع جسدي بين الصخرتين لألتصق بها، أرخت أذنيها وأرخيت يدي لتلامس ظهرها كلما سنحت الفرصة، قربت أذنها من كل شق باحثة عن مصدر الصوت، وتركت جسدي يقترب، لم أسمع بكاءً ولكن الولد الذي يسكن بداخلي صرخ من الفرحة، وفجأة انتفضتْ واتسعتْ حدقتا عينيها، فابتعدت عنها، ولكنها أمسكت يدي وقالت:

- هل سمعت؟ هل سمعت؟

شددت على كفها بقوة وكأني أعتصر وأمتص ما فيه من حرارة وقلت:

- نعم سمعت...سمعت.

لم أسمع إلا دقات قلبها وقلبي وعادت تحشو جسدها بين الصخور، وما كنت لأترك جسدها يفلت، حشرت جسدي ورأسي معها، وفقدت السيطرة واجتاحتني نوبة من الإثارة، ووصلت إلى لحظات اللاسيطرة، تلف عنقها جاهدة بسبب ضيق الفسحة بين الصخرتين وتضييقي الخناق عليها، نظرت إلي وكانت شفتاها قريبتين من وجهي وأنفاسها تلفح بشرتي وقالت منفعلة:

- أسمعت؟ أسمعت؟

عيناي مغمضتان وألهث ممَّا حل بي فأجبتُها بكسل:

- سمعت...سمعت.

حاولت أن تسحب جسدها، ولكنها لم تستطع وتوجب عليّ أن أفسح لها ولكني أبيت وقلت:

- أريد أن أسمع أكثر ابقي لنتأكد.

ولكنها رفضتْ وقالت:

- تعال نتسلق الصخور وننظر داخل الفتحات ربما يكون الولد هناك.

وما كان أمامي إلا أن أطلق سراحها، ولكني لست أحمقًا لأجاريها من أجل موتي، وما أدراني أن بين الصخور لا ينتظرني زنجي لعين سينحر عنقي، ولا أرغب أن أبدو أمامها جبانا، فبذلت جهدي لأثنيها عن هذا الجنون وما قد يصيبنا من عفاريت الجن، وأمام عنادها اتفقنا أن نلقي نظرة سريعة فوق الصف الأول من الصخور ولا نبتعد.

اعتلينا عدة صخور وبدأنا البحث بين الشقوق عن الولد الباكي، وكنت حريصا على ألا أرفع رأسي حتى لا يراه أحد الغربان ويطلق عليه رصاصة، حبست أنفاسي وهُيئ لي أني أسمع صوتا يشبه بكاء طفل ينبعث من بين شقوق الصخور، ويلي إن كان الكعب يختبئ بين الصخور ويقلد البكاء، وليس من المستبعد أن أحد زنوج يعقوب يفعلها، فزعت من كل الأفكار التي غزتني، فسحبتها من يدها وقلت لها:

- هيا لنهرب لقد رأيت جنيا شريرا يحمل سيفا، ولا بد أنه قادم ليقتلنا.

نجحت في إخافة نفسي وإخافتها، وهربنا لننجوا بحياتنا، وولجنا وسط المخيم سالمين.

اقتربنا من سالم وقد أشعل نارا وبدأ إعداد الإفطار، هذا المسكين لم ييأس من كل محاولاته الفاشلة لصنع خبزٍ صالح للأكل، تصبب عرقا وارتسمت على شفتيه ابتسامة بلهاء، ولم ينتبه لطبيلة الذي تربع خلفه يلتهم بشراهة كل ما يخبزه.

هذا العملاق الذي لا يستيقظ إلا بعدما أرشه بالماء، استيقظ اليوم وحده، ولم أوبخه لصفاء مزاجي هذا الصباح، فتعمَّدتُ إشغاله بمهمة تصرف تفكيره قليلا عن الطعام؛ كلفته بجمع أوراق الشجر التي تساقطت، وأعددتُ إفطار جودت وقهوته، وأخرجت طعاما يكفي بقية الحيوانات البشرية، ولم أنسَ البصق في الطعام الذي حملته للكعب، وأخذ يحشو فمه بالطعام ويتكلم في آن واحد:

– اذهب يا عزيز وتلصص على ما يدور من حديث بين يعقوب وجودت

فأخبرته بأن الوقت مبكر ويعقوب مازال نائما، فقال:

– لا لا لقد استيقظ وذهب إلى خيمة جودت قبل قليل، هيا أسرع.

هذا المسخ يراقب ولا يفوته شيء، أحنيت رأسي وأوهمته بأني سأنفذ ما أمرني به، نعم أحب التلصص، ولكني لست أحمقا لأقترب من خيمة الباشوات دون سبب مقنع حتى لا أُثير حولي الكثير من الشبهات، ولا داعي للتنصت مادام بإمكاني اختلاق القصص وروايتها لتشبع فضوله وتخدم أهدافي، ولم يمر وقت حتى أتتني الأسباب؛ طلب مني جودت إعداد إفطار يعقوب، لم أتأخر وأعددته على عجل وبصقتُ فيه، وقدمته وغادرت الخيمة، واحتللت زاوية بالقرب منها، وأرخيت أذني لعلي ألتقط شيئًا ممَّا يدور بينهما من حديث.

انصب حديثهم في الدقائق الأولى حول الإفطار والشاي وطعام أم أحمد ونوادرها، استغرقني وقت حتى أدركت أن المقصودة هي أم يعقوب، وأن له أخ يكبره اسمه أحمد، ومنها انتقلا بالحديث إلى شكيب ووصلا للشيخ طبرق مرورًا بـ كاظم، استهزأ جودت بـ طبرق ولم يترك وصفا قبيحا إلا وصفه به، وكان يعقوب شرسًا في دفاعه عن الشيخ وقدراته الخارقة وسرعان ما فاضت الخيمة بالتوتر، وممَّا لفت انتباهي من الحديث الذي دار بينهم، يعقوب:

– أنا أثق بالباشا ومادام يثق بالشيخ طبرق فهو أهلٌ للثقة، ويجب أن تتوقف عن مهاجمته والسخرية منه، أفسح له المجال لينجز عمله.

يرد عليه جودت:

– سأنفذ المهمة كما طلب مني، وكوني تركت له اختيار أماكن الدفن فهذا لا يعني أني أثق به وبجنونه!

– أنا لا أرى أن هناك داعيا لمرافقة الشيخ يوميا وتعريض نفسك للمخاطر، بإمكانك تكليف الأمهق برسم الخرائط وقد أثبت براعته في ذلك.

– لن أترك كل هذا الذهب بين أيدي مشعوذ معتوه.

– لقد تركت الذهب دون حراسة بين أيدي العرب لأسابيع لتحرص على ألا يسرق الشيخ القليل ممَّا يُدفن، أي منطق في هذا؟!

– لا تخف أنا حريص على كل شيء، ولاختصار الحديث لن أقوم بدفن الذهب في مكان واحد بناء على رغبة المشعوذ.

– أنت أخي وصديقي ولا أريد أن تتعرض لأذى، شرق النهر ليس كغربه والمخاطر كثيرة، دعه يقوم بمهمته، واترك الأمهق يرسم الخرائط بدلا منك، لا داعي لمرافقتهم.

استمر الحديث وبالرغم من أني مازلت أسمع صوت يعقوب إلا أن يده أمسكت بكتفي وسحبني إلى داخل الخيمة وطرحني أرضًا، ووضع حذاءه على صدري وقال:

– لماذا تتنصت علينا؟

المفاجأة والصدمة أعادت إليّ التأتأة:

– انااااا يببب شوو دددا اناااا...

تدخل جودت وقال:

– دعك منه.

إلا أن الحقير أصر أن أجيبه وبذلت جهدي لعلي أتمكن من جمع بضعه أحرف دون تأتأة وقلت:

– جودت باشا طلب مني أن أتصنم على باب الخيمة كلما كان عنده ضيف حتى أخدمه.

وهنا وقف جودت ودفع يعقوب بلطف وأمسك يدي وقال:

– عُد إلى عملك يا عزيز.

ورمى يعقوب بنظرات غاضبة، أما أنا فهرولت سريعا لابتعد عن الحقير الذي لا أعرف كيف لاحظ وجودي، انتظرت لأكثر من ساعة قبل أن اذهب لأبحث عن الكعب وأختلق له الأكاذيب، وأحرضه على يعقوب، ولكن الأرض قد انشقت وابتلعته كالعادة.

وقبل الغروب استدعاني جودت ولم يعاتبني أو يسأل عمًّا حدث وسرني أنه على قناعة بأني فقط أنفذ أوامره، وكما اعتدنا أعددنا الجرار المنوي دفنها ونظَّفتُ الخيمةَ ومسحت الغبار، ولم يمر الكثير من الوقت حتى انطلقنا مع غروب الأربعاء، ورافقنا شيخة وسالم ونعمة وأبو إيليا، أما طبيلة فحيث أكون يتبعني وقد اعتاد الجميع وجوده.

انطلقنا تاركين يعقوب خلفنا في انتظار فاطمة وقافلتها ليدفنوا ما يحملوه من كنوز، عبرنا حدود المخيم وكان في انتظارنا اثنان من الغربان المسلحين، سارا خلفنا بهدوء، وتركا مسافة فاصلة تزيد عن الخمسمائة متر بيننا، وبعدما مرت ساعة واحدة على سيرنا نحو التلال نشب خلاف بين الكعب وجودت حول المكان الذي يتوجب التوجه إليه لدفن الذهب، ولاحظت أن الكعب يتعمد السير لمسافات طويلة جدا ويختار طرقًا وعرة لإرهاق جودت وإثارة جنونه، وكأنه يتعمد ذلك كنوع من الانتقام، وجودت كان يجاريه إلى أبعد حد ولا يظهر أية معارضة، ربما أراد أن يخبره أنه صلب وليس ناعما.

في طريقنا شدني الكعب وسحبني إلى الخلف فجأة، وأدركت أنه أنقذ حياتي من سقوط قاتل داخل بئر، وصلنا إلى تلة صخرية وكانت قريبة من العرب، وأخذ الكعب يدور ويدور للبحث عن المكان المناسب لدفن الذهب حتى رسي اختياره على بئر ماء روماني، ومن مراقبتي لخطواته تأكدت أنه قد زار الموقع مُسبقًا، ربما خلال ساعات النهار التي يختفي فيها بطريقة غامضة.

طلب منا أن نحضر حبلا، وأمر نعمة بنزول البئر والحفر فيه، وهنا أثبت جودت تمتعه بدقة الملاحظة في سؤاله الكعب:

– وما أدراك أن البئر فارغة من الماء وأنت لم تلق نظرة لتتأكد؟

ارتبك الكعب وردَّ عليه في زهو:

– لا يخفى عليَّ شيء.

وردد عبارته المعتادة:

– (انت شوف شغلك وأنا بشوف شغلي).

ولكن جودتْ هذه المرة أخذ يُلَوِّحُ برأسِه يمنةً ويسرةً، ثم قال:

– لن ندفن الذهب في هذا البئر، نحن على أبواب الشتاء وقد يمتلئ البئر ماء، اختر مكانا آخر.

ما حدث أثار استغرابي حقًا، لم يُدفن الذهب في قاع بئر قبل ذلك، أتكهن بأن الكعب تعمَّد إثارة خلاف مع جودت في هذه الأيام وبخاصة أن الجميع يعلم بقدوم الباشا، والاحتمال الآخر هو إرادته أن ينحر نعمة ويمارس طقوسه بالقرب من البئر، والأهم من هذا كله أن اعتراض جودت يرجح أن الذهب الذي سيتم دفنه لن يبقى لفترة طويلة قبل استخراجه.

ابتسامة صفراء رافقتْ بحث الكعب عن مكان آخر وقُمْنا بدفن الذهب وانتظرنا حتى أنهى أبو إيليا نقشَ الرموز بعيدًا عن الموقع وانطلقنا وفي طريقنا قال لجودت:

– عليك باختيار مواقع الدفن مادمتَ لا تريد أن أتمَّ عملي على أكمل وجه.

واختار جودت المواقع وتم دفن الذهب بدون طقوس الـ"قاقا باقا"، وكانت طريق العودة طويلة فعدت أستعرض ذاكرتي قبل أن ينقذني الكعب من السقوط، لو لم أتتلمذ على يد روهان بيك لاعتقدت أنه ساحر حقًا، لقد استطاع رؤية البئر المردوم في طريقنا قبل الوصول إليه، ولكن التفاصيل الصغيرة قادتني إلى الحقيقة؛ الطريق التي مررنا بها لم تكن مثالية وقادنا إليها ببراعة، واستطاع أن يجعل جودت أول مَنْ يعبرها لأنه المستهدف من السقوط، ثلاثة أمتار قبل

وصول الكمين تنحى جودت جانبا ليتبول، وكنتُ خلفه مباشرة، ولأن الكعب في حاجة لي هذه الأيام، ولم يكن له مصلحة في سقوطي، لهذا أنقذني اللعين.

بإمكانه قتل جودت في أية لحظة ولكنه يسعى ليكون الأمر طبيعيا ولا يثير حوله الشبهات، وما حدث دفعني لمراقبة الاثنين مستمتعا بالتنافر والكره الذي تبادلاه كلما ابتسمَ أحدهما للآخر، ما يحدث بينهما نتاج مكري ودهائي، كنت سعيدًا بإنجازي العظيم، ولكن راودني إحساس بأن هذا الإنجاز لن يصبَّ حاليًا في مصلحتي؛ ففي غياب جودت لن أطمئن في ظل يعقوب المؤمن بخرافات الكعب والغارق فيها حتى أذنيه؛ ولذا لابد أن أعكف على رسم مخطط لمنع أي تقارب يعقوبي طبرقي، وأن أخفف من التوتر السائد بين جودت وطبرق لعله يعدل عن قتله في المرحلة الحالية فقط.

كانت الشمس باردة –على غير عادتها– صباح الخميس، وظهرت في السماء عدة سحب، واجتمعت العصافير لتعزف ألحان حب، وهبت نسمات الهواء المنعشة حاملةً معها رائحة الأشجار، ولا ينقص هذا الصباح إلا حضور نعناعة لنذهب معا للاستمتاع ببكاء الولد بين الصخور، ولعلي هذه المرة أتمكن من إقناعها بولوج شق صخري أضيق من سابقه!

ولكن أطلت مَنْ ستفسد صباحي الجميل، إنها المصرية اللعينة وبرفقتها عبيد فاطمة، جاءت لتقتحم خيم المؤن دون استئذان مثل كل مرة، هذه اللعينة لا تقيم لي وزنا، ولم يكن أمامي سوى الدخول خلفها والمراقبة في صمت، لم تترك شيئا إلا وملأت به السلال، ولم تتوقف عن رميي بنظرات الاحتقار فأتمتم بالشتائم حتى انزلقت إحداها من بين أسناني لتصل إلى مسامعها فانتفضتْ وصرختْ بمصريتها:

– (انت بتقول ايه؟ سمَّعني إن كنت راجل).

أجبتها:

– لا شيء، خذي ما شئتِ وارحلي في سلام.

وقلت سرًا بلا تمتمة: لعنة الله عليك وعلى أهل مصر والعرب جميعا.

انصرفتْ وتركتني أختنق بغيظي وتمنيت لو أني أقنع الكعب ليأكل قلبها ويشرب دمها.

أسمع صرير سلسلة ولا حاجة لألتفت لأعلم أن ابن العربية حيان قادم نحوي، طلب مني أن أجلب له عدة علب سجائر، تبرمت وقلت له:

– أنت لا تدخن وكل يوم تأخذ السجائر وتعطيها للعرب، والكمية قليلة، ولا أريد أن أتعرض للمساءلة عن المؤن، وتصرفاتك هذه ستعرضنا للخطر.

قال غاضبًا:

– كراهيتك للعرب وسوء معاملتك لهم، وانتقاص حصتهم من المؤن هو ما سيعرضنا للخطر، لا تنسَ أن مصيرك مصيرهم ولستَ أفضل حالا منهم.

أجبته:

– أنا لا أتعامل معهم هكذا لأنهم عرب، فأنا أعتني بطبيلة وهو عربي، وإن كنت أخصم من حصص طعامهم فهذا لتوفير ما يسد رمق هذا العملاق حتى لا يجوع.

لم يعجبه ما قلت، ورد علي قائلا:

– لقد وعدتُ روهان بيك أن أعتني بك ولكن أسلوبك هذا يصيبني بالغثيان، هات السجائر ودعني أنصرف قبل أن أفجر جم غضبي فوق رأسك.

جلبتُ السجائر وسخرتُ منه سرًا: هذا الأحمق المقيد بسلسلة في ساقه مثل بغل يعتقد أنه قادر على الاعتناء بي!

لقد بدأ اليوم يزداد سوءا بعدما نحسته المصرية، كانت نعناعة تسير تجاهي ببطء وحينما لمحت حيان انطلقت نحونا مثل غزال، هذه اللعينة لا تفوت فرصة للالتقاء به وتبادل الابتسامات الحارقة لقلبي وروحي، عيناها لا تخفي الإعجاب الشديد بهذا الحيوان المُسلسل، وعندما رآها لم يعد بعجلةٍ منْ أمره، جلس يتبادل معها الحديث، تبًا لها! أنا مَنْ يعتني بها ويطعمها ويسمنها مثل بقرة، ثم تلقي بنفسها في أحضانه! لا أدري ما الذي يثيرها به ! لم تتوقف عن الغنج والتدلل أمامه وقالت لي:

– هل أخبرت حيان عن الولد الذي يبكي بين الصخور يا عزيز؟

اختصرتُ قولي حتى لا يطول الحديث:

- لا سأخبره لاحقا.

ولكنه سأل:

- عن أي ولد تتحدثان؟

انتابتها الرقة والليونة في حكوها، ولم يبق إلا أن تجلس على ركبتيه، فتمنيت لو يظهر الكعب اللعين ويغمد خنجره في قلبيهما معًا...أصغى حيان لكل كلمة نطقتها، وكأن بصره أصبح عاشقًا لحركة شفتيها، وكيف سيكتمل هذا الصباح المنحوس بدون جمال الدين! أطل يهز ذنبه ويشمشم ككلب أثر ليتبع كُلَّ رائحةٍ تقوده لنيروز، وانضم إلينا، يبدو أن الجميع سيشاركنا في الولد اللعين الذي رغبتُ أن نحتفظ به سرًا لأرافقها إليه ونستمتع ببكائه سويًا.

تحقَّقَتْ أمنيتي وأطل شريكي قرد الـ"قاقا باقا" من بعيد، وما إن لمحته نيروز حتى تركتنا جميعا مسرعة ملهوفة للقائه، وجمال الدين لم يرفع عينيه عن مؤخرتها حتى توارت عن الأنظار وأخذ يحك رأسه متمتمًا في عنف:

- (شو! شو القصة؟! كيف هاي صارت؟!)

سألته ساخرا:

- ماذا بك يا جمال الدين؟

واستمر بحك رأسه وفرك وجهه ويتمتم:

- (مشْ فاهم والله العظيم اشي بطير العقل! ما الذي يعجبها بهذا القرد؟)

بالرغم من وسامة جمال إلا أنه لم ينجح في التقرب من نيروز، ويكاد يصيبه الجنون في محاولة كشف السر وراء تعلقها الشديد بالكعب القبيح، فقلتُ له ساخرًا:

- (عفاريت يا حبيبي عفاريت).

وعلَّق على ما قلت:

- (اه والله هذا سحر يلعن ابوه شو ساحر).

رغبت في تلك اللحظة أن أخلع بنطالي وأتبول على جمال الدين، اجتاحتني رغبة جامحة لم أكن لأجرؤ على فعلها ولكن كنت على استعداد أن أساومه على نصف سجائر المؤن كي يسمح لي بالتبول على رأسه ووجه، هذا ما خطر ببالي وما كان جمال ليرحل دون أن يسلبني الكثير من السجائر، وما كنت لأجرؤ على معاداته فجلبت له علبةَ سجائر وحرصتُ على أن أبصق عليها قبل أن أعطيها له.

انفض عني الجميع بعدما أفسدوا صباحي، وعزمتُ على تفيذ عمل بطولي خططتُ له منذ أكثر من أسبوع، استدعيتُ سالمًا واتفقنا على سرقة خروف لأذبحه في عيد الأضحى، واختبأ سالم خلف الشجرة ليراقب خيمة الكعب وإعطائي إشارة عند خروجه، وأنا تسللتُ إلى الدواب وسرقتُ خروفًا، وانطلقنا معًا لإخفائه في خيمة سالم، وأثناء تسللنا بين الخيام لمحني جودت أفندي عند خروجه لقضاء حاجته وقبض علينا بالجرم المشهود، وقال:

- ماذا تفعل يا عزيز؟

أحرجني السؤال والصدق فيه نجاتي، وخسارتي للخروف معًا فأجبته:

- أُخفي الخروف عن الشيخ طبرق.

- ولماذا تخفيه عنه يا عزيز؟

- حتى لا يأكله يا سيدي، فكل الخراف التي يأتي بها السيد كاظم يأكلها الشيخ ولا يطعم أحدًا، وأنت لا تأكل لحم الإبل لهذا أردتُ أن أخبِّئه وأذبحه من أجلك.

ضحك جودت وقال:

- اخفِه جيدا واحرص ألا يجوع طبرق حتى لا يأكلك.

ذهب وتركنا وصار الخروف ملكًا له ولن أتمكن من ذبحه وشوائه، وعرضت على سالم أن نخفي خروفًا آخر ولكنه رفض خشية أن يكتشف الشيخ فعلته.

مرَّ اليوم واجتمع جودت ويعقوب لساعاتٍ عدة، وبالرغم من جودة الخدمة التي قدمتها إلا أني لم أحظَ بابتسامة من هذا الخنزير يعقوب.

قبل غروب الخميس أرسل جودت في طلبي، ذهبتُ إليه وكان برفقة أبي إيليا يفصل له الحديث عن الخطوات التي يجب اتباعها في رسم الخرائط، وبعدما صرفه قال لي: إنه سيتخلف عن مرافقة الكعب معنا هذا اليوم لأنه في انتظار ضيف، وطلب مني أن أعتني بالأمهق الكبير وألا أتركه وحده عند نقش الرموز حتى لا يتكرر ما حدث مع ابنه...لم يكمل جملته ولم أتظاهر أو أتغابى وبعفوية جحظت عيناي وانفتح فمي ونطق لساني:

– وماذا أفعل سيدي إن قرر الشيخ طبرق إرساله إلى الجنة؟

قال في غضب:

– حينها سأرسله إلى جهنم.

كتمتُ ضحكي وأسررتُ سخريتي من أجل هذا الناعم الذي أرهقه السير خلف الكعب لمسافات طويلة، ويبدو أنه استمع لنصائح يعقوب واختبأ في الخيمة خوفًا من تعريض نفسه للخطر، كيف سيجرؤ على مواجهة سفاح الـ"قاقا باقا" ذابح الحمير والبشر، هذا ما اعتقدته قبل اكتشاف مكره حينما طلب مني ملء ثلاث جرار صغيرة ذهبا، وبعدما انتهيت طلب مني تركها مكانها وهو يعي جيدًا أني لن أتمكن من حملها بمفردي، وأمرني بإحضار ثلاث جرار أخرى وملؤها ترابا، وانتهيتُ من ملء الجرار كما طلبَ منِّي، ثم تسللتُ لألقي نظرة سريعة على يومياته المشفرة التي كتب فيها:

– ***" قال أحدهم يومًا لا تثق بأصدقاء الطفولة أبدًا؛ لأن الطفل صديق جيد تلعب معه نهارًا، وتنسجا قصصًا حول ما يخفيه عالم الليل من وحوش، والأيام تدفعكما لاكتشاف الظلام، وحينها تبدأ الأسرار، وها أنا أتساءل أي أسرار يخفيها صديق طفولتي يعقوب! هل حوّله الظلام إلى أحد تلك الوحوش التي نسجها خيالنا وأسكنتْ الرعب في قلوبنا صغارًا؟! أم أن الجيش صاحب هذا التغير؟! وأتساءل لو تركت كتابي والتحقت بالجيش هل كنت سأكون مثله؟! أم أن لُعبة الحرب***

والموت نتعلمها في طفولتنا؟ هل يصنع جيشنا وحوشًا لا تعرف إلا لغة الموت وسفك الدماء؟! هل يعي أحدهم أن هذه الوحوش عندما تتذوق طعم الدماء يجنُ جنونُها، ويصعب السيطرة عليها.

لدينا من الجهل ما يكفي ويفيض وسنورث أحفادنا منه الكثير ولدينا قادة حرصوا على أن يطوروا الجهل لنتمكن من زراعته ليحصده من يأتي بعدنا، ولكن هل هناك في هذا العالم دماء تكفي لتروي زروعنا من الجهل؟ مَنْ صنع منك وحشًا يا صديق طفولتي؟".

لم أجد فيما كتبه جودت أفندي شيئًا يستحق الاهتمام، وبعد عودته طلب مني إحضار الماء، ولاحظت أنه استبدل مكان جرار الذهب جرار التراب، ابتسم وأشار بيده إلى الجرار المملوءة بالتراب وقال:

- انظر إلى الجرار الثلاثة وأخبرني ماذا ترى.
- جرار يا سيدي.
- وماذا فيها يا عزيز؟
- فيها ذهب يا سيدي.

عاد وكرر سؤله عدة مرات وأجيبه "ذهب ذهب"، هذا الحمار الأحمق يمارس معي لُعبة الإيحاء فشعرتُ بالاستياء كثيرا لأنه بالغ في استغبائي، إنَّ نجاح خطتي السانتورية خيرُ دليل على دهائي، ولكن يبدو أننا في أعماقنا لا نحب أن نبدو بُلهاء ولو كان هذا هدفنا.

لا يروق لي هذا التغير في نظرته لي، فعندما دفنا الذهب في خيمته طلب مني ألا أخبر أحدًا بالأمر، واليوم يجد أني على درجة من البلاهة تمنعه أن يأتمنني على حفظ سر، ووجد أن الإيحاء هو أضمن وسيلة مع أبله مثلي، لا بأس يا باشوات اسخروا كما تشاؤون! لن يضرني إن كنت سانتورًا وبفضل الذهب الذي سأستولي عليه سأعيش ملكًا أبد الدهر.

صرفني لأعود لاحقا مع طبيلة لتحميل الجرار مع وقت الرحيل، وتساءلت هل سيدرك هذا العبقري أن وزن جرة واحدة مملوءة بالذهب يعادل خمسة جرار مملوءة بالتراب! وأن أي أحمق سيكتشف ذلك، حينما خرجت ذهب إلى خيمة يعقوب وسرني ذلك كثيرا ولحقت به، وكنتُ وقحًا في اقتحامي الخيمة وسألته إن كان بحاجة لأعد له شيئا، امتعض يعقوبَ لقلة حيائي وأشار إليَّ أن أقترب منه وابتسم جودت وقال:

– اهرب يا عزيز بسرعة ولا تقتحم خيمة أحدهم دون إذن.

هربت بسرعة، لم يكن اقتحامي لخيمة يعقوب عفويًا، وإنما لتأكيد بلاهتي، وأيضا للتأكد من وجود يعقوب، حتى أتمكن من نسج أكذوبة للكعب إن اكتشف أن الجرار ملآنة بالتراب، سأدّعي أنها فكرة يعقوب، والمسخ الملعون قد يسألني عما كان يرتديه من ملابس أو أية تفاصيل صغيرة تكون سببًا لكشف خداعي.

انطلقنا مع الغروب لدفن التراب في التراب، وربع القمر كان يجاهد في إنارة طريقنا، مررنا بأراضٍ منبسطة، واقتربنا من صخورٍ ملساء، سلكنا ممرًا ضيقًا بين الصخور أفضى بنا إلى مرتفع يمكّننا من رؤية النهر لو أن القمر كان بدرًا، كان الكعب سعيدا لعدم مرافقة جودت، وكان بودي أن أمسح السعادة عن وجهه بحذائي وأخبره بأن ما يحمله لا يتعدى جرارًا مملوءة بالتراب، ولكني صبرت لأختبر فطنته.

اقتربنا من صخرة عملاقة، كانت يتيمة، وكأن الأرض أنبتتها ولم تنبت غيرها، أو أنها تركت أقرانها وسقطت من مكان ما، طاف حولها الكعب، وأمرنا أن نبدأ الحفر، وعلى الفور أصدرت أوامري لسالم وأحمد شيخة ليحفرا وأشرت إلى صخرة قريبة ليتوجه إليها أبو ايليا وينقش الرموز، ولكنه تجاهلني وبحث عن غيرها، وامتعض الكعب لإصداري الأوامر بدلاً منه وقال :

– (انقلع واحفر معهم).

هذا البغيض لن يحترمني يوما، حفرنا ودفنا الجرة الأولى ولم يلحظ أحد شيئا، واختصر الكعب طقوسه ولم يبذل جهدًا، وهنا تساءلت هل اكتشف سر التراب أم أنه لم يجد مدعاةً لإرهاق نفسه بالهراء في غياب الكبار؟ وانتقلنا إلى مكان آخر ودفنا ولا أعتقد أحدهم لاحظ أنه يواري

التراب بالتراب، أمَّا الكعب فلم يبدر عنه شيئًا يدل على أنه اكتشف خدعة جودت وأنا التزمت الصمت.

هذا المشعوذ الهرائي عكف على دفن الجرار طوال الوقت ولم يفحصها، ربما سأجد فرصة وأقنعه بأن الذهب تحول ترابًا كي أبول عليه وعلى الـ"قاقا باقا"، وتساءلت سرا: ألا يجدر بهذا الغارق في كذبه أن يكتشف أن جودت سخر منه وأرسله لدفن التراب؟!

لم يستطع أحدنا –خلاف طبيلة– حمل جرة ذهب وحده، وعندما حمل أحمد شيخة الجرة الثالثة وحده شككتُ أن المسخ سيكتشف الأمر، لستُ أدري كيف لم يلحظ ذلك! وهذا الأمر ليس بحاجة لهراء الجان.

أبو ايليا اقترب من شيخة ومد يده ليساعده، ولم يخف عليَّ أنه فعل ذلك ليتفحص الجرة، فالحفر والدفن ليس من اختصاصه، أنجزنا مهمتنا مبكرًا وعدنا الى الطريق، وطلب الكعب من الأغربة أن يرافقوا البقية إلى حدود المخيم واصطحبني معه في جولة سيرا على الأقدام ولم يفعلها من قبل، تجاوزنا تلالاً وجبالاً وعبرنا قرى عربية، وأشرقت الشمس ولم ينبس بحرف واحد، وفي طريق العودة انفكت عقدة لسانه وأخذ يسألني عن الأخبار، ووجدتها فرصة لأختلق الكثير من الأكاذيب، أحرضه من خلالها على يعقوب ولم أبح له بسر التراب.

عدنا إلى المخيم بعدما توسطتْ شمس الجمعة كبد السماء، ولم أفهم السر وراء هذه الجولة؛ أكان يتفحص الطرق، أم مواقع للدفن، أم أمر آخر أجهله؟

وقبل دخول الخيمة لأنال قسطا من الراحة توافد الجميع لاستقبالي والاطمئنان على عودتي سالما، وكان النعاس أقوى من الاستمتاع بهذا النفاق فاختصرت عليهم الطريق وأخبرتهم بنفاد السجائر، وبعد استيقاظي سأذهب إلى جودت أفندي وأعود لهم بها، هؤلاء الأوباش نهبوا خيم المؤن في غيبتي هذا الصباح، ولو تركت السجائر في متناول أيديهم لاستولوا عليها، وما بذل أحدهم بعدها جهدا لإلقاء التحية، ثلاث ساعات كانت نصيبي من النوم، وخرجت بعدها لأبذل العطايا للمنافقين، وسالم كان أول الوافدين تسبقه ابتسامته البلهاء وقال لي:

– شفت الولد عزيز.

في بادئ الأمر اعتقدت أنه يقصد أحمد شيخة ولم يخطر ببالي أنه قصد ولد نيروز الباكي الذي لم تترك أحدا إلا وأخبرته عنه، وحينما سألته عن بقية الشعب قال:

- (راحوا يشوفوا الولد مع نيروز).

امتعضت كثيرا لهذه الوقاحة، فمواقع الصخور محظورة ولا يجوز الاقتراب منها، وحينما أخبرني بأن جمال الدين وحيان ورباب ضمن مرافقي نيروز هرولت مسرعا تجاههم، وهو من خلفي وما هي إلا دقائق حتى أدركتهم، هؤلاء الأوباش تجاوزوا حدود الحذر واقتربوا من الصخور غير آبهين بالعواقب، ولا بالموت المسلح القابع في الاتجاه الآخر، انسل حيان بين الصخور وعاد بعد فشله في الوصول إلى مصدر الصوت، وفشل الأمر مع جمال الدين كذلك، وحين تفحصا أكد الاثنان شقوق الصخر جزما بوجود شق بين الصخور ينتهي إلى بئر حيث ينبعث صوت الولد، ولبلوغه يتوجب أن يزحف شخص ضئيل الحجم بين صخرتين حتى وصول البئر.

وثلاثة تنطبق عليهم الأوصاف التي تسمح أحجامهم بالدخول؛ سالم وشيخة وأنا ثالثهم، لذا فكرتُ في الاختفاء سريعًا قبل توريطي في هذ الأمر، ولكن سالم تطوع قبل استدارتي، هذا الأبله الذي طالما رددَّ (ثلثين المراجل الشرود) قرر أن يكون بطلا وبِناءً عليه عزمتُ على البقاء واستعراض شجاعتي.

أسرع شيخة وأحضر حبلاً وطوَّق به وسط سالم، وضحكنا جميعا فلم يكن هناك حاجة لذلك، بدأ سالم الزحف ومن أعلى الصخور تمدد جمال الدين ليرشده إلى فتحة البئر، وسالم يردد بأعلى صوته:

- (وينها وينها اه شفتها).

مد له جمال الحبل من الأعلى وربط فيه مصباحًا، وعندما سمع سالم صوت الولد يبكي دبّ الرعب في قلبه وخرج يصرخ ويهذي:

- (والله هذا صوت ولد جني انا بطلت انزل).

ومع انسحابه وتنازله عن لعب دور البطل الشجاع وجدت نفسي محاطا بنظرات الجميع التي أخبرتني "أنت قصير، رفيع، ضئيل ونكرة، هيا ازحف بين الصخر ومُت ولن نبكي عليك أيها التركي اللعين!"

الكل يترقب أن أعلن تطوعي وما كنت لأفعلها لولا أن اقتربت مني نيروز ولامست ذراعي ورمتني بنظرة ناعسة وقالت في دلال:

- عزيز...عزيز ساعد الولد يا عزيز.

قلتُ سرًا:

- يا عيون عزيز، يا روح عزيز، وماذا سأربح حينما ألقي بنفسي إلى التهلكة؟ هل ستحزني وترمي نفسك بأحضان حيان لتبكي علي قليلا! وإن خرجت سالما ستقولين لي: غلبتك معي عزيز؟! سانتور أدمى رأسه متظاهرا بالبلاهة لينصِّبوه ملكًا وما كان ليفعلها لو طلبوا منه أن يزحف بين الصخور حيث تنتظره الأفاعي.

صمت وتظاهرت بأن ساقي تؤلمني، ولعنة الله على رباب المصرية اندفعت إلى الشق ولم تستأذن أحدًا، والحقير حيَّان أمسك ذراعها وجذبها للخلف وكأنه قال بتلك الحركة: ألم يبقَ رجالا لتفعلها النساء! لقد كان مُحقًا؛ لم يبقَ رجالا بحجم النساء غير عزيز أفندي، وجدت نفسي في موقف لا أُحسد عليه فتوكلت على الله وانطلقت إلى التهلكة.

ولجت بين الصخور وأرشدني جمال الدين من الأعلى ومدَّ لي الحبل، وأشار إلى الفتحة التي سأنزلق عبرَها، وحين وصلتُها مددتُ رأسي فنظرتُ داخل بئر عميق من صنع الطبيعة، لم أسمع بكاءً ولا أنينًا، وتساءلتْ إن كان حفيف الهواء يمر بين الشقوق ليصلنا نحيبًا، فلا يُعقل أن أفكر في خرافاتِ الجان، ربطت وسطي بالحبل وعلقت المصباح في رقبتي وبدأت أنزلق إلى عنق البئر، لم يكن بذلك العمق الذي اعتقدته في بادئ الأمر، وحين وطأتْ قدماي الأرض كنت أرى موضع قدمي فقط، أمَّا باقي زوايا الشق الصخري فكانت مظلمة، ناديتُ على جمال لأستأنس بصوته، وأنا على يقين بأنه لن يتمكن من المرور بين الصخور ليساعدني إن احتجت لذلك، فقال:

– لا تخف أنا موجود.

أشعلتُ المصباح وسمعت الأنين الذي سمعتُه أولَ مرة، وأرخيت أذني لأتاكد من أني لستُ واهمًا فسمعتُ صوت حشرجة وحين دققت النظر رأيت طيفًا أسودًا مغطىً بطبقة من الطين فصرخت بأعلى صوتي ليسحبني جمال قبل أن يفترسني الوحش، ساقي ترتجف باحثةً عن الحواف لأتسلقها، وزلت قدماي وسقطتْ، والحبل المشدود تركني مُعلقًا في الهواء، ولم يستطع جمال أن ينتشلني إلى الأعلى، ولستُ قادرًا على الوصول إلى الأسفل، وتحولتُ إلى جدي جاهز للسلخ وفي انتظار هجوم الوحش ليمزقني، ولعنتُ نيروز ونفسي ألف مرة.

واجتاحني الخوف الذي قد يصنع المعجزات أحيانًا، وصرختُ على جمال ليرخي الحبل حتى أتمكن من إعادة ربطه بما يسمح لي بالتسلق، وعادتْ قدماي لترتعشان على أرض البئر لأجد نفسي في مواجهة الوحش فانزويت والتقطتُ الأحجار التي وقعتْ عليها يداي، وألقيتُها ناحيته في هياج فشرع في البكاء، وهدأتْ نفسي، ودققتُ النظر فوجدتُ أن طوله لا يزيد عن المتر والعشرين سنتيمترا، ولا يبدو أن وزنه أكثر من عشرين كيلو جرامًا، حجمه الضئيل شدَّ من عزيمتي لشعوري بأني قادر على حمله وبطحه إن استدعتْ الضرورة.

أطوف بنور المِصباح في زوايا البئر حتى رأيتُه قد تكوَّر في زاويةِ الشَّق الصَّخري الذي صنعه الماء عبر آلاف السنين، وقد غطته الدماء وبعث بكاؤه بداخلي الطمأنينة، وكان لابد من الحَذَر والتأكد من عدم وجود آخر قد يباغتني على حين غرة، أطوف بناظري داخل البئر فوجدتُ العديد من قرب الماء وكسرات الخبز، وأكياس من التمر والتين المجفف، وعدة أرغفة من الخبز، وفضلات بشر منتشرة في كل مكان.

زال خوفي واقتربت من ولد صغير ربما لم يتجاوز السابعة من عمره، ينبئ طول شعره وأظافره والقذارة التي غطته بأنه يسكن هذا الشق منذ عام أو أكثر، وأن أحدًا ما قد أخفاه لسبب ما، وأنه كان حريصًا على أن يوفر له الطعام، وينبئ الخبز الطري بأنه زاره منذ ثلاثة إلى أربعة أيام أو أكثر، وربما رطوبة الشق حافظت على بقاء الخبز طريا، حاولتُ الاقتراب منه، ولكنه زاد تكورًا وبكاءً خوفًا مني؛ يلحُّ عليه النَّزفُ من رأسه إثْر ما رميته به من الأحجار...شعرتُ

بتأنيب الضمير، وبذلت كل جهدي لحمله وإخراجه من البئر، وما كان هناك داعٍ لأربط نفسي بحبل فحواف الصخور تسمح لي بتسلقها في سهولة، وربما الرعب أعماني عن التركيز قليلا.

وحملت الولد وخرجت إليهم بطلا منقذا، سالم وأحمد شيخة ابتعدا معتقدين أني أحمل عفريتا صغيرا، أما رباب فأسرعتْ إليه وعملتْ على إيقاف النزيف، وأنا اختلقتُ لهم قصة ثعبان ضخم اضطررت لمحاربته لإنقاذ الصغير، وأن الجرح الذي أصابه كان بسبب ارتطام رأسه بحافة الشق.

أعلم ألا أحد منهم صدق روايتي باستثناء نيروز التي تصدق كل شيء، ولكن لن يقدر أحد على إثبات خلاف ذلك إلا إن تكلم الحقير الصغير وأخبرهم بأني ضربته بالحجر على رأسه، وأنه يسكن هذا المكان منذ زمن ولم ير فيه ثعبانًا قط.

انتهت الحفلة وأخذت رباب ونيروز الولد للاعتناء به، وجمال الدين استغل الفوضى ليتسلق الصخور ويتأكد من المسافة التي تفصل القوات الخاصة عن الصخور، وأنا عدت لأغتسل وأتخلص ممَّا علق بي من روائح كريهة، وأتباهى بشجاعتي في خوض الأهوال لإنقاذ الولد المسكين، ودعوت الله أن يُخرسه إلى الأبد حتى لا يفضحني.

غَرَبت شمس الجمعة وأطل القمر هلالاً، ومازال ولد المغارة يشغل بال أهل المخيم، ولم يتبق أحد إلا وذهب لمشاهدته، ليتأكد أنه بشرا وليس جنِّيًا، انتظرت حتى يرسل جودتْ في طلبي لتحميل جرار الذهب ولكنه لم يفعل، خرجتْ قافلة فاطمة ومعها يعقوب، ولسبب أجهله لم يُطلبْ منَّا الاستعداد، انتظرتُ لساعات وتأكدتُ أن هذه الليلة ستخلو من الذهب ولا حاجة لأشغل فكري بالبحث عن الأسباب، هي فرصة للتلصص وجمع الأخبار.

وقبل انطلاقي لمحتُ أبا إيليا يتسلل بطريقة تثير الشبهات، فضحكت وقلت:

– حتى أنت يا أمهق!

كان يتسلل مثل القطط فتساءلت هل يخطط لسرقة شيء؟ وهل سيبلغ من الحماقة ليتسلل إلى خيمة جودت وهو بداخلها؟! وجدتُ في مراقبته أمرًا مسليًا وسيشغل وقتي أكثر من صحبة حيان وسالم، لم أبرح مكاني حتى ذهب تجاه الدواب واختفى عن الأنظار، وعلى الفور

ذهبت إلى خيمة الفتى إيليا لأتأكد من وجوده، فلن يهرب أبوه ويتركه خلفه، لقد صنع حمَّالة بطريقة عبقرية تسمح بربط ابنه على ظهر فرس أو بغل، وهذا ينبئ عن نيته في الهرب من أجل ولده، ولابد أنه قد تسلل ليختار الدابة المناسبة، لن يهمني إن هرب أبو إيليا، ولكن لو شفي إيليا وعاد له النطق فهو يعرف مكان دفن كلِّ جرار الذهب وربما سيدمر أحلامي، وما كنت لأسمح بذلك بعد كل ما قدمته من تضحيات، لذا لابد من منع هذا الهروب مهما كلفني الأمر.

خرجتُ من الخيمة واختبأت في انتظار عودته وبعد دخوله الخيمة انتظرت حتى انتهى من نقل ابنه فوق الحمَّالة، واقتحمت الخيمة، فتظاهر بانشغاله، وكنتُ صريحًا في حديثي معه:

– صديقي...اجلس ولا تتهور، الهروب من هذا المخيم أمر مُحال وستتسبب في مقتلك ومقتل ابنك.

في البداية تظاهر بأنه لم يفهم ما قصدته، ولكنه انهار وأخذ يبكي وقال:

– إنه يموت أمام ناظري وأعجز عن مساعدته.

فقلتُ كي أطمئنه:

– لن يموت، لقد تعرض لصدمة خوف وسيشفى منها يوما.

لم يكن صعبًا أن أزرع في قلبه الخوف، ولا أن أنسج له القصص عن آلاف الجنود والغربان الذين يحرسون المخيم على مدار الساعة، ولم يطمئن قلبي إلا بعد أن سمح لي بأخذ الحمَّالة التي صنعها لأبعدها وأحطمها حتى لا تثير الشبهات حوله، وسيحتاج لأيام لصنع واحدة أخرى إن عزم الهرب، وعزمتُ أن أراقبه جيدًا منذ هذه اللحظة.

أشرقتْ شمس السبت وخرجت لعلي أبدأ هذا الصباح بوجه حبيبتي، توجهت إلى خيمتها، ولم أجد أي أثر لها ولا للكعب وعلى الفور أسرعتُ إلى خيمة حيان لأطمئن أنها لا تنام في أحضانه، فأنا لا أثق في زير النساء هذا وحينما اكتشفت أنها بصحبة رباب والولد الغامض ارتاح قلبي، ووددتُ الذهاب إلى خيمة رباب للاطمئنان على الولد ولكني خفت أن يتذكر وجهي ويصرخ قائلاً:

– هذا الذي حطَّم رأسي بالحجارة.

كما أن خيمتها قرب فاطمة وقد حذرتنا جميعا من تجاوز الخط الوهمي الفاصل، وبالرغم من أن الجميع تجاوزه إلا أني أحب الالتزام بالقوانين، وبخاصة في ساعات النهار.

أشغلت نفسي في القيام بواجباتي اليومية المعتادة وطقوس الصباح مع سالم وأحمد شيخة، وكالعادة جاء جمال الدين بلا دعوة، وجديد هذا اليوم أن أحمد الكبير الشايب قد وافق أن يلبي الدعوة وينضم إلينا، وكنت كلما أدعوه كان يرد علي قائلاً:

– (والله فالك مو زين يا خال).

في أول مرة سمعتها لم أفهم معناها، ثم أدركتُ بعد ذلك أنه قصد أن مجالستي لن تجلب له سوى الشؤم، وفور جلوسه مازحه جمال الدين البارع في لهجة أهل البلاد قائلاً:

– (النار كلت ثوبك يا ابو اسماعيل).

– فرد عليه أحمد.

– (ثوبك بالي ما يشبع نار يا جمال).

– فقال جمال:

– (ثوبي ثوب شيوخ يا لخوو).

فرد أحمد أبو إسماعيل:

– (لخري خري مكسي ولا عري يا ابن عمي).

لم أعِ دلالة الكلمات الأخيرة، ومن ملامح وجه جمال علمت أنها ستتسبب في شجار بينهما ولا حاجة لأجلب (فال مو زين) فقاطعتهما حتى لا يصير حديثهما شجارًا، وأطل من بعيد "فال مو زين"؛ يعقوب يقوم بجولة بين الخيام ولم يفعلها من قبل، نادى عليَّ وطلب أن أرافقه وأخذ يسألني عن كل خيمة يمر أمامها وعمَّنْ يسكنها، ولم يرق له حين اكتشف أن لكل فرد خيمته الخاصة، ووددتُ أن أخبره بأن هذا الأمر لم يرق لي كذلك، وكان لابد من جمع العرب في خيمة واحدة، فلا يجوز أن يتشبهوا بنا نحن الأتراك، ولكن عدد الخيام كبير ومعظمها فارغ،

ولا منطق في حشرهم في خيمة واحدة، أو تركهم ينامون في العراء، نتجول من زاوية إلى أخرى، لم يدخل خيمة وعاد إلى خيم المؤن ودخلها، وأخذ يتفحص كل الزوايا ويهز رأسه، لا أدري عمَّا يبحث أو ماذا توقع أن يكتشف، نظراته لم تحمل خيرًا، وحقًا (فاله مو زين).

شعرتُ أن هذه الزيارة لا هدف لها سواي، لا أعرف ماذا وصل مسامعه عني، كنت أسير بجواره وأستعرض ذاكرتي، تُرى ماذا وصل إلى مسامعه؟ أين أخطأت؟ سلامة، رشيد وعبد القادر لا وجود لهم ليفضحوا أمري، وجمال الدين يأمل أن أساعده في سرقة الذهب، وكشفي لن يعود عليه بالنفع، لم يتبق إلا أن يكون أحد خدم فاطمة قد رآني أبصق في طعامه وأخبره، ولو كان الأمر كذلك، فهل سيقوم بهذه الجولة بحثًا عن بصاق؟! من المؤكد أنه كان سيصلبني بعد سماعه الخبر، ومثل كل مرة أنا بارع جدا في إرعاب نفسي وإن لم يكن هناك سبب فخيالي يخلق الأسباب.

انتهت الجولة وقبل رحيله ربت على كتفي وابتسم، وكأنه يسعى ليطمئنني، وطلب مني إعداد قهوته، إنها مجرد جولة عابرة، وابتسامته دلت على ذلك، ولكن عقلي اللعين وجد في ابتسامته أمرا مريبا.

أعددت قهوته وأخذتها إلى خيمته، قدمتها له باحترام شديد، ثم طلب مني الجلوس، جلست ودعوت الله أن يكون -هو الآخر- بحاجة إلى مهرج، ولابد أن صديقه جودت قد حدثه كم أنا مسلٍ! أشعل سيجارة وارتشف القهوة ولم ينطق بكلمة لدقائق وأنا كنتُ منكس الرأس حتى لا تتلاقى أعيننا، ولكني كنتُ ألاحظ أصابع يده اليسرى تحمل السيجارة وتتراقص في توتر فأقلقني هذا كثيرا، وعندما أراد أن يكسر الصمت قال:

- عزيز أتريد واحدة؟

رفعت رأسي وقبل ردي ألقى علي بسيجارة فالتقطتها وتعمدت أن أضعها في جيبي، وفاجأني بسرعة سؤاله:

- أين يعمل والدك الآن؟

فأجبته:

- يعمل في بيت طلعت باشا

- ولماذا لم تعمل معه؟

وهنا حاولت أن أستغبي قليلا فقلت:

- لأني عالم آثار يا سيدي، وعملي يختلف عنه.

لم يبتسم بل سأل على عجل:

- أين تعلمت استخدام السلاح؟

سرعة سؤاله وغرابته فاجأتني ولم أجد له الجواب الغبي المناسب، فأجبته بصدق:

- لم أمسك سلاحا قط يا سيدي.

- كم عمرك؟

- 23 عاما سيدي.

- ولماذا لم تخدم بالجيش؟

- لم يقبلوني سيدي.

- لو كنت مجبرًا على قتل أحد الاتراك فمَنْ تختار لتقتل؟

- لن أقتل أحدا.

- أنت مجبر، من ستقتل؟

- سأقتل مَنْ يحب العرب.

وهنا ابتسم وأعاد الطمأنينة إلى نفسي، فسألني:

- ولماذا؟

فأجبته:

- لأن العرب قتلوا شقيقي.

فقال:

– اذهب يا عزيز.

وقفت وقبل خروجي تعمد أن يرفع صوته ونطق بكلمة لم أتبينها، فالتفت وسألته:

– هل تريد شيئا سيدي؟

فقال:

– اذهب يا عزيز.

خرجت وابتعدت ولم أجد تفسيرًا لهذه الجلسة الغريبة، ماذا أراد أن يختبر؟ ولماذا؟ وكيف؟ وما علاقة أسئلته بكل هذا؟! كان بإمكانه أن يسألني أسئلة أخرى حول الذهب، ولكن ما علاقه والدي الطباخ؟ وما علاقة السلاح وقتل الأتراك؟ ما دخلي بكل هذا؟! اللعنة عليه، أيعقل أنه أحمق لهذه الدرجة؟ أو أنه لا يجيد الحديث، لا مقارنة بينه وبين جودت المثقف الذكي، حتى أسلوبه في حواره كان همجيا، نعم من يؤمن بخرافات طبرق لابد أن يكون غبيا، ساعات من التوتر قضيتها في محاولة تحليل ما حدث وغربت شمس السبت.

غابت الشمس ولم يترك القمر إلا ضوءًا باهتًا، وقد اعتدنا عدم الخروج لدفن الذهب في الليالي المُظلمة فاعتقدت أن هذا اليوم سيمر بلا حفر ودفن، ولم تمض ساعة حتى أرسل جودت في طلبي، وكالعادة أسرعتُ برفقة طبيلة لتحميل جرار الذهب، وحين وصلت أبلغني جودت أن أقوم بتحميل جرة واحدة صغيرة فقط على حمار، وأن يعقوب هو مرافقنا اليوم.

فعلت ما طلب وانطلقت إلى الكعب لأساله عمَّن سيرافقنا لأخبرهم مثل كل مرة، ولكنه أخبرني بعدم مرافقة أحد سوى يعقوب، وفهمتُ أن طبيلة أيضا لن يرافقنا، وهنا تسرب الكثير من الشك إلى قلبي.

لم ينطلق سوى ثلاثتنا وتجاوزنا حدود المخيم، وكان بانتظارنا اثنان من الزنوج وازدادت مخاوفي حينما لاحظت الانسجام الغريب بين الكعب ويعقوب، وتساءلت هل اكتشفا أكاذيبي ومحاولاتي المتكررة للإيقاع بينهما فعزما على ذبحي؟ لا أعتقد أنهما تواجها، ربما لم يكتشفا

شيئا، وأن الكعب اللعين أراد أن يمارس طقوس الـ"قاقا باقا" على جثتي، ويمسح أعضاءه بدمي، وفي كلتا الحالين سأموت هذه الليلة المشؤمة.

أراقب يعقوب والكعب بطرف عيني وهما يبتسمان، وأصرخ في أعماقي "ويلي الوحوش تبتسم" وكان محرم عليها مُسبقًا، كل شيء يشير بأن هذا يومي الأخير وكل خطوة تأخذني إلى النهاية المحتومة، لا لا هي ليست مصادفات، اللعنة! سأموت اليوم! سأُذبح! كيف سيكون شعوري عندما يحز الكعب عنقي، هل سأتألم كثيرا؟ وبعد موتي ماذا سيحدث هل سأذهب إلى جهنم بجرائمي أم إلى الجنة بمغفرة ربي؟ إن الله رحيم، لقد كانت معظم جرائمي في خيالي فقط، والله لا يحاسبنا على ما في دواخلنا، إنما على ما نرتكبه، يا رب يا رحيم ارحمني برحمتك، وإن قدَّرت موتي هذه الليلة فخفِّف عني العذاب.

نذرتُ ثلث الذهب الذي سأسرقه لاحقا للفقراء والمحتاجين إن قدَّر الله نجاتي، وأقسمت أني سأتزوج ولن أرتكب الفاحشة حتى في خيالي، وسأبني مسجدا وأداوم على الصلاة، ومدرسة لتعليم الفقراء، ومستشفى لعلاجهم ولن أتقاضى ثمنًا، كانت صفقات عقدتها مع نفسي بما سأقوم به إن نجوتُ من الذبح.

وهنا تساءلت أليس من الحكمة أن أحاول الفرار بدلاً من الاستسلام للموت، ولكن نجاتي مستحيلة في وجود أربعة من الوحوش حولي، يعقوب، الكعب، واثنان من الزنوج، وأنا الذي أُشْبِه الفأر كيف سأنجو في هذه البراري! رافقني الموت واشتممتُ رائحته، سرنا لساعات وساعات، وكان يعقوب والكعب في غاية الانسجام يتنقلان من مكان إلى آخر ويتجادلان، ومِمَّا سَمِعتُه وأنا مُرتعب قول يعقوب:

– يجب أن تختار مواقع أقرب إلى درعا.

الكعب:

– الباشا طلب أن نحافظ على مسافات بين كل موقع وآخر وألا نتبع خطًا منتظمًا يمكن تتبعها يوما.

فأشار يعقوب تجاه جبل قائلاً:

– صواب، ولكن يجب أن تختار مواقع تصلح لتكون تحصينات عسكرية تحسبًا لنشوب الحرب، ومن منظور عسكري أرى أن الأقرب إلى سوريا سيكون أكثر أمنا.

– شرق النهر كله سيكون آمنًا، اطمئن.

– لقد علَّمنا الباشا أن الحرب خدعة، ويجب أن نتوقع خيانة الإنكليز.

– شرق النهر آمن، ونحن نهدر الوقت في توزيع الذهب على مئات المواقع.

– أدعِّم رأيك ولكن تنفيذه يحتاج إلى موافقة الباشا وحتى حضوره سنلتزم بأوامر جودت في دفن كميات صغيرة من الذهب، واحرص على أن يكون الدفن في مواقع تصلح لتكون تحصينات عسكرية.

حديث الاثنين دلَّ على أنهما عادا على وفاق، وسأدفع أنا ثمن هذا الانسجام، كانت الجولة استكشافية، راقبا فيها الكثير من المواقع، وأحيانا كان يتركاني بصحبة الغرابين ويصعدا تلة، وكنت أراهما بالرغم من اختفاء القمر يشيران إلى كل اتجاه، لم ندفن الجرة وعدنا في طريقنا واقتربنا من مغارة بوابتها تشبه علامة الاستفهام، أشار إليها الكعب وابتسم يعقوب، وأيقنت أن ذبحي سيكون في هذه المغارة، وسيكون الاحتفال بدمي عند بابها، وما كان هناك شيء أفعله سوى الخنوع للموت المؤكد، وتحسس عنقي بين الحين والآخر، بدأت الحفر بناء على أوامرهما، وحينما رأيت بطرف عيني الغرابين المسلحين لم يبتعدا وبقيا ملاصقين ليعقوب كان ذلك مؤشرًا لانعدام نية دفن الذهب، وهنا ما عاد لدي شك بأنه سيتم ذبحي وأكل قلبي وكبدي.

بدأت أحفر واقرأ القرآن وأدعو الله واستغفره، وسالت دموعي وفقدت الإحساس بكل شيء، وربما فقدت عقلي، وأخذت أضحك وأنشد "كز عزيز كز" احفر قبرا يناسب مكانتك الباشوية! وحين لمحت الكعب يدخل المغارة صرخت بأعلى صوتي:

– أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

وأكرر الشهادتين، أمسك الكعب بكتفي وبلت في بنطالي، وأخذ يسألني:

– ماذا بك، ماذا بك؟!

وأنا لا أتوقف عن ترديد الشهادتين بأعلى صوتي، وحينما نظر إلى حيث حفرت قال:

– لماذا وسَّعت الحفرة أيها الأحمق؟ لقد طلبت منك أن تحفر لدفن جرة واحدة لا لدفن حمار!

وعادت الطمأنينة إلى قلبي مجددا، وأسرعت لحمل الجرة ودفنها، وبالرغم من صغرها إلا أنها كانت أثقل من أن أحملها، وفعل الكعب ذلك ودفنها وطلب أن أهيل التراب وأبتعد.

عادت إليَّ روحي بعدما حلقت في عالم الأرواح، فلم تكن هناك نية لذبحي، ولكن خيالي برع في إرعابي، وعزمت أن أوفي نذري عندما أسرق الذهب، سأمنح ربعه للفقراء، وسأبني مستشفى ولن أتقاضى من المرضى إلا رسوم قليلة، خلع الكعب عباءته وذبح الحمار على باب المغارة، ورقص ونهق الـ"قاقا باقا"، ونال إعجاب يعقوب وانتهينا ولم يتبقَ إلا أن نعود إلى المخيم.

كانت المفاجأة بأن طلب يعقوب من الكعب العودة وحده، وأنه بحاجة إلى أن يصحبني معه لمكان ما حتى أترجم له من العربية إلى التركية، وأخبرتني عيناه أنه ينوي بي شرا، وهز الكعب الحقير رأسه غير مبالٍ وكأنه على علم مسبق بما سيحدث، وكدت أصيح فيه: "لا تتركني معهم أنا عبد "القاقا باقا"! أنا خادمك أيها اللعين!" وعاد شبح الموت يحلق فوق رأسي من جديد.

جلس يعقوب فوق صخرة وبدأ يشعل السيجارة تلو الأخرى، ويرمقني بنظرات فيها الكثير من الكراهية والبغض وبعد مرور ما يقارب العشر دقائق أشار إلي بيده وقال:

– هيا يا عزيز.

وقفت مستعدًا للرحيل، ولكنه فاجأني بأن طلب مني أن أدخل المغارة، وحينها ما عاد لدي شك في النهاية اللعينة، ولو نذرت كل ما سأسرقه من ذهب لن أنجو، دخلت المغارة وهو خلفي وزادني دهشة حينما طلب مني خلع كل ملابسي، فخلعتها باستثناء الملابس الداخلية، وأشار بإصبعه:

– هيا اخلع كل شيء.

فعلت ووقفت أمامه عاريا كما ولدتني أمي، وتساءلت إن كان ينوي قتلي لمَّا عرّاني؟! وهل يعقل أنه ينتوي بي شيئا آخر؟ وذهب خيالي بعيدا بعيدا، وحين أخذ يتفحص جسدي الهزيل بعينيه الجليدية وطلب أن أستدير أيقنت أني في ورطة لن يحسدني عليها إلا الملط المُخنث...أدرت وجهي إلى الحائط وانهمرت الدموع من عينيّ، وحلَّق خيالي بلا حدود، وأقسمت إن نجوت من الموت سأحرص ألا يعرف أحد ما حدث في هذه المغارة، دقائق مرت ولم يحدث شيء، وركبتاي لا تقويان على حملي، وهنا نطق الحقير وسأل ما لم أتوقعه:

– من أنت يا عزيز ولصالح من تعمل؟

لم أجد داعيا للاستغباء ولا للذكاء فأجبته:

– أنا عزيز وأعمل خادما لروهان بيك.

رفع صوته وصرخ :

– من ساعدكم في الانضمام إلى القافلة، ومنذ متى تعرفون بأمرها؟

حاولت توضيح الحقيقة، ولكنه كان يقاطعني ويعيد الأسئلة نفسها، ويتوقع مني أن أعطيه جوابا مختلفا، ومن أسئلته أدركت أنه يشك بأني جاسوس لأحد الباشوات المعادين لهم، ولم يخطر ببالي إلا ما قاله روهان يوما "حينما يعتقد الحمار أنه بلبل لن يميز بين التغريد والنهيق" ويبدو أن هذا الحمار قد فاض صبره بعد أن فشل بنزع اعتراف بأني جاسوس، وانهال عليَّ بالسوط، ومن شدة الألم صرخت وبكيت ورجوته أن يخبرني بما يريدني الاعتراف به، فقال:

– لا داعي لاعترافك أنا أعرف كل شيء، أعرف من أرسلكم ومن خطط لكم وما هي مهمتكم بالضبط، والآن أخبرني من تعاون معكم لأجعل موتك سريعا.

هذا المعتوه لم يتوقف عن ضربي وركلي واستدعى الزنجي ليساعده ولو تركني ألفظ أنفاسي قليلا لنسجت له قصة جعلت فيها من أمي وأبي أخطر الجواسيس إن كان هذا سيوقفه عن جَلدي، أخبرته عن المعسكر وعن حيان ورشيد، وجعلت من روهان جاسوسًا عظيمًا، وأني مساعد الجاسوس وحين أصر أن يعرف لصالح من نعمل زل لساني وأخبرته أننا نعمل لصالح

عبدالحميد مباشرة، هذا المعتوه انتشى لهذه الاعترافات، ولم ينتبه بأن عبدالحميد قد تم عزله منذ سنوات، وربما لا يعرف حتى...

لعنة الله عليك يا سانتور! لم تضمِّنُ قواعدَ الغباء كيفيةَ التعامل مع مَنْ هو مثل يعقوب، صبَّ أسئلته حول حيان ولم أخفِ عنه شيئًا، هذا اللعين ثمل لنصره بعدما أجبرني على الاعتراف وأراد المزيد فأخرج من جيبه مفكرةً وقلمًا وقال:

- هيا أخبرني مَنْ يتعاون معكم أيضا.

أخبرته بأنه لا يوجد أحد آخر لأخبر عنه، وهنا استشاط غضبا وعاد يجلدني بالسوط، وليت الأمور توقفت عند الجلد بل أشار إلى الزنجي وطلب منه أن يتعرى، وهددني بأني إن لم أخبره بكل شيء سيجعله يعتدي علي وبعد ذلك يقتلني.

الزنجي الذي تعرى أمامي كان خير علاج لتأتأتي وخوفي، حينها علمت أن احتمال نجاتي من الموت معدومة، وما عاد يهمني موتي بقدر أن أموت بعيدا عما سيفعله هذا الزنجي الضخم بي، فصرخت بأعلى صوتي:

- سأعترف سأعترف، سأخبرك بكل شيء.

وبدأت أعدد الأسماء؛ سعدون، خلدون، سلامة، حسن، مراد، الحج حسين، وكان يدوِّن كل ما أقوله، والطريقة التي أمسك بها القلم دلت على أنه يشقُّ عليه جمع الأحرف، وحين سألني عن الخيمة التي يسكنها رشيد، أيقنت أن هذا الحمار غير ملم بتفاصيل ما حدث معنا، وتأكدت بأنه لم يفطن بأن معظم من ذكرتُ أسماءهم قد ماتوا، وبالرغم من الألم الفظيع الذي أشعر به كان لابد أن أسخر منه؛ أخبرته أنه يسكن خيمة طبيلة، وأردتُ إخباره أن الرجل العملاق هو أيضا جاسوس كبير، ولكن يبدو أنه أُرهق واكتفى بما حصل عليه من اعترافات، وستكون كافية ليتباهى بها عند حضور الباشا الكبير.

أدار رأسه للزنجي وراودني شعور بأنه سيطلب منه قتلي ودفني، وهنا كان لابد أن أدافع عن نفسي وأجرب طريقة قد تكون فيها نجاتي، فأدرتُ وجهي بعيدا عنهم وأخذت أتحدث بأعلى صوتي وأردِّد:

- أخبروه أنتم أنا لن أخبره لا دخل لي.

نظر إليَّ يعقوب وقال:

- مع من تتحدث؟!

- أتحدث مع جن سيدي الشيخ طبرق.

فتراجع عدة خطوات إلى الخلف وسأل:

- أين هم؟

فأشرتُ بيدي إلى كل مكان لإيهامه بأنهم ملأوا علينا المغارة، وسأل الحمار:

- بِمَ يريدون إخباري؟

- قالوا: يجب عليك أن تأخذ عزيز إلى جودت أفندي ليسمع اعترافاته بنفسه.

ترك يعقوب المغارة؛ ربما ليبتعد عن الجان قليلا...وربما ليفكر فيما طلبوه منه، ودعوت الله أن يطيع العفاريت ويصحبني إلى جودت أفندي لأنجو من الموت.

لقد اختفت بوابة المغارة خلف سحابة من دخان السجائر منذ الشروع في استجوابي، وحين رأيت العتمة تتراجع أمام نور الشمس أيقنت بنفاد حظي؛ فالبشر يكونون أكثر شجاعة نهارًا، ولغة جسد يعقوب لا تشير إلى موافقته على طلب العفاريت، وهنا حدثت المعجزة؛ وقف يعقوب فجأة وفي الوقت نفسه اقترب منه ظل حجب النور عن المغارة وأظلمها، وانشرح قلبي وشعرت بالقليل من الطمأنينة حين رأيت أن الذي يقف مع يعقوب هو أخي وشريكي وصديقي ملاك الرحمة الوسيم.

استمر الحديث بينهما لأكثر من نصف ساعة، لم أسمع حوارهما، ولم أر إلا حركات أيديهما وهز رأسيهما، ثم دخل الملاك المغارة وقال:

- ارتد ملابسك يا عزيز وهيا بنا.

ارتديت ملابس وخرجت أسير خلفهم ذليلا، الكعب أنقذ حياتي ولن أنسَ له ذلك أبدا، لم أجد جوابا يشفي غليلي، كيف حضر وماذا دار بينه وبين يعقوب ليعفو عني، وهل هو شريك فيما حدث لي؟! والشيء الوحيد الذي كنت موقنا منه أن نظرات الكعب لي كان فيها بعض الشفقة، وأنه استاء جدا عندما رأى آثار السوط على جسدي، ومازال يعقوب يرمقني بنظرات تحمل الكثير من الكراهية والشك، ولعله لا يريد أن يقتنع بأني مجرد أبله، حتى لا يرى بنفسه الأبله الذي أراد أن يجعل من أحمق جاسوسا.

قاربتْ الساعة العاشرة صباحا عند وصولنا حدود المخيم واقتراب أحد افراد القوات الخاصة وتمتم ليعقوب بعدة كلمات وأشار لنا اللعين أن نتبعه، مررنا خلف الصخور بمحاذاة المخيم ولم أر جندًا عند حدوده، لقد أبعدوهم وحلَّ محلَّهم بضعةُ رجالٍ من الفرق الخاصة، وأشك في أنهم قادرين على مراقبة مساحة المخيم الشاسعة، وسرنا لما يقارب العشر دقائق وبدأنا نرى كمائن الجنود والمتاريس التي أقاموها للتصدي لأي هجوم مباغت، والمسافة التي تفصلهم عن الصخور المحاذية للمخيم تزيد عن الألف متر، وعدد من نراهم لا يزيد عن العشرين...توجهنا بعيدا وبين الجبال كانت هناك خيمة كبيرة حولها أغربة مسلحون.

دخلنا مع يعقوب، ورأينا عربيًا في الأربعين من عمره مقيد اليدين، تعرض لضرب مبرح، والدماء التي سالت وجفت على لحيته وشاربه أخفت ملامحه، استقبله يعقوب بركلة على وجهه ثم داس رأسه، وقال لطبرق: اسأله من أرسله ليتسلل إلى المخيم، وأخذ الكعب يستجوبه بالعربية والرجل ينفي تسلله، واستشاط يعقوب غضبا وأخذ يضربه بوحشية لا مثيل لها، وهنا نطق العربي وقال:

– جئت لأحضر طعاما لابني.

وعلى الفور أدركت أن هذا الرجل هو والد الولد الذي أخرجناه من البئر، وأصابني الارتباك، ولاحظ يعقوب ذلك وسألني:

– هل تعرف هذا العربي يا عزيز؟

فقلت:

– لا لا أقسم بالله لا أعرفه، ولم أره في حياتي قط.

وأعاد السؤال:

– عزيز هل تعرف هذا العربي؟

فأجبته:

– لا أعرفه وأظن أني أعرف ابنه يا سيدي.

لم يصبر حتى أشرح وعاد وأمسك بعنقي وبطحني على الأرض وأخذ يصرخ:

– هيا اعترف ما علاقتك بهم ومن أين تعرف ابنه؟

ارتبك الكعب وشعر بأني أخفي أسرارا، وربما في النهاية سيتبين أني جاسوس كبير، فقلت:

– دعني أشرح لك يا سيدي؛ ابنه ولد صغير عمره سبع سنوات وجدناه بين الصخور وهو الآن يعيش معنا في المخيم.

رويت له القصة كاملةً، وأقسمت له الأيمان وتبين أن الكعب أيضا متفاجئ من وجود الولد داخل المخيم، وهنا أخذ يعقوب يصك على أسنانه ويتمتم:

جودت...جودت...شكيب...كاظم ...عليكم اللعنة! مغفلون.

غمغم وهمهم بكلمات غير مفهومة، فحواها أنه يلومهم على جهلهم بما يدور حولهم، ووجهه كلامه إلى الكعب وقال:

– وأنت يا شيخ طبرق ألا تعرف ما يدور حولك؟

كانت نبرة صوته تحمل استهزاء بالكعب، وأشار بيده وقال:

– هيا اذهبا وأحضرا لي الولد بسرعة.

كانت المرة الأولى التي أراه فيها يأمر طبرق وكأنه خادم لا شيخ وملك عفاريت، رافقنا غراب مسلح وعدنا إلى المخيم، وفي الطريق زاد وجه الكعب اسودادًا وسألني باستياء:

- لماذا لم تخبرني بأمر الولد؟ لماذا؟
- اعتقدت أنك تعرف يا سيدي.
- اللعنة عليك! لا تعتقد...لا تعتقد! أخبرني فقط بكل شيء.
- نيروز قالت إنها أخبرتك.
- اذهبْ وخذْ الولد وسلِّمه ليعقوب.
- لن يعطوني إياه تعال معي لتقنعهم.

ذهبنا معًا للبحث عن الولد، ومن خيمة إلى أخرى أخبرنا الجميع بأنه مع نيروز، وصلنا خيمة الكعب وكان الولد نائما في أحضانها، وكأنه صغيرها، وقد شعر بالأمان بعودته إلى أحضان أمه، أفاقت ولم يكن من اليسر إقناعها بأن أم الولد في انتظاره، ارتعب الولد مني وتعلق بها ورفض الذهاب معي، واضطر ثلاثتنا إلى التوجه معًا حتى حدود المخيم، وهناك أمسكتُ بيده وأخذ يبكي وأمسك الكعب بيد نيروز ليبعدها عنه، وبكت هي الأخرى، وجررت الولد وكان بانتظاري غراب مسلح أخذه مني وأمرني بالعودة إلى المخيم.

شعرت بمرارة لأخذي هذا البريء إلى موته المحتم، ولكن ماذا يمكن أن أفعل غير ذلك، هل سأحارب هؤلاء القتلة لإنقاذه! والده الذي حبسه مسؤول عن مصيره، وفي طريق عودتي تساءلت هل هذا الرجل والده حقًا؟ وإن كان كذلك لماذا حبسه في هذا المكان؟! لا أجد منطقا لذلك، ربما اختطفه لغاية ما، وكان هذا أحد الأسرار التي لم أجد لها جوابًا إلا بعد أسابيع.

عدتُ إلى الخيمة وناديت سالم ليساعدني على خلع ملابسي وتنظيف الجروح التي أحدثها السوط على ظهري، وارتعب مما رأى من آثار، استلقيت على بطني لعلي أتمكن من النوم، وغفلت عن وصية سالم بأن يبلع لسانه، وقبل أن تغفو عيني اقتحم حيان الخيمة وسألني عما حدث، فأخبرته بكل شيء وحذرته من معرفة يعقوب بأنه ملازم فار من الجيش، ولم أستطع إخباره بأني من وشى به، وتأثرت حقًا عندما أقسم حيان بأن يعقوب سيدفع ثمن ما فعله بي، وأقسمت سرًا أن أتوقف عن كرهه إن ابتعد عن نعناعة.

تركني ونمت ولم أستيقظ إلا بعد غروب الشمس، وعلمت أن جودت قد أرسل في طلبي أكثر من مرة، فذهبت ووبخني على إهمالي، وكنت أهز كتفي بسبب لسعات السوط التي مازالت تحرق جلدي فسألني:

– ماذا بك؟

فأخبرته بأني ظهري ارتطم بالأرض لزلة قدمي، وعلى الفور وقف وكشف عن ظهري، ودمدم قائلا:

– ماذا فعل بك طبرق ابن الحرام؟

أخبرته بأن الشيخ طبرق بريء مما حدث معي، وأن يعقوب اعتقد أني جاسوس وهو من فعلها، استشاط جودت غضبا وأخذ يشتم، ثم خرج وتركني وعاد مع يعقوب وأشار بيده إلي وقال له:

– هل هذا جاسوس؟!

فرد عليه:

– حركاته، تلصصه على الجميع تثير الشبهات.

رد عليه جودت ساخرا:

– وهل أخبرتك عفاريت شيخك بهذا أم اكتشفته بدهائك العسكري؟

وسبحان الله! تلاشى الغضب فجأة وتبادلا الابتسامات في هدوء العشّاق، ثم أمرني جودت بالذهاب...محقان هما؛ ومن سيأبه لخادم حقير! عدت لخيمتي وشعرت بألم فظيع لم أشعر به من قبل، يبدو أن الخوف قد ساعدني سابقًا على التغلب عليه، وانقضى الأحد ولم نخرج لدفن الذهب، ليس تضامنا لما حدث معي ولكن لاختفاء القمر.

انقضى ليل كئيب شاع خلاله خبر ما حدث معي بين أفراد عشيرة المخيم ومع إشراقة شمس الاثنين وجدت الكثير من التعاطف، وجاءني أبو إيليا يحمل مرهمًا وساعدني على دهن

آثار السوط على ظهري، وكأنه دهان سحري؛ فما هي إلا دقائق معدودة حتى ذهب الألم عني، شكرته كثيرا وأخبرته أني مدين له بالكثير، فقال:

- لا تشكرني، واشكر مَنْ أعدَّ لك هذا العلاج، فأنا لم أفعل شيئًا سوى أني جلبتُه.

بالغتُ في إلحاحي كي يخبرني بمَنْ أدين له بالفضل، ولكنه أبى بِناءً على طلب مَنْ أرسله، وهنا تساءلت:

- مَنْ يجيد إعداد مثل هذا العلاج في مخيمنا؟ ولماذا حرص ألا أعرف حتى لا أشكره ولولاه لالتهبت جروحي؟!

توجهت للاطمئنان على نعناعتي ووجدت الكعب ولم أجدها، وطلب مني مجالسته وأخذ يسألني عمَّا دار من حديث بيني وبين يعقوب في المغارة وفكرت أن أختلق بعض القصص لأحرضه عليه، فعلت ولكن لم أشعر بأن أكاذيبي تركت فيه أثرًا، واستفزني ذلك وقفزت الكلمات فوق لساني وقلت:

- قال إنه سيهتم بأمر نيروز.

وحينما ذكرت اسمها جحظت عيناه، وشعرت أني أصبت الوتر الحساس فسألني:

- ماذا قال؟ أخبرني حديثًا مُفصَّلاً.

فاختلقت له من الكلام ما دفعه ليصك أسنانه ويقسم أن يعقوب سيدفع الثمن غاليا، تركته وانصرفت، وفرغ اليوم من أية أحداث باستثناء تنظيف خيمة جودت للمرة الألف استعدادًا لقدوم جمال باشا الذي طال انتظاره.

فات الاثنين وأشرقت شمس الثلاثاء، وحينما استيقظت استعذت بالله من هذا اليوم، الكثير من المآسي رافقت أياما أخرى، إلا أن هذا اليوم ستبقى له رمزية خاصة تبشر بقدوم مصيبة ما، أتممت مهامي وجلست مع سالم وشيخة وأحمد الكبير في بقعة مشمسة لتبادل الحديث واحتساء الشاي واشتمام رائحة القهوة، ورأيت جودت قادما نحوي تفوح منه رائحة الثلاثاء اللعين فهوى قلبي.

كان يسير على غير هدى وخطواته تدل على ضياع وحيرة عيناه تبحث عن شيء وفور رؤيتي لوح بيده مرارا وتكرارا فأسرعت إليه وقال لي:

- تعال تعال اتبعني بسرعة.

أربكني التوتر الذي اعتراه، وسرتُ خلفه، وكانت قبضتيه مشدودتين وأقدامه تضرب الأرض بقوة وتنشر خلفها الغبار، وصلنا إلى خيمته وجلس على أحد صناديق الذهب، وترك مقاعد أكثر راحة لمؤخرته المرفهة، وأخذ يضرب بقبضته على كفه، وتغير لون بشرته وأطل من عينيه بركان يقذف حمما، يصك على أسنانه، يغمغم، تتحشر الكلمات في حلقه، ويعود ليبتلعها، يقف ويجلس، يضرب فخذه بكفه، يمسح وجهه، يفرك رأسه، يمسك أذنه يشبك أصابعه خلف عنقه، ويشد عليه، يغمض عينيه ويفتحها، يخفي وجهه بكفه وينظر من بين أصابعه، يقف ويخطو عدة خطوات، يركل أحد المقاعد بقدمه، يجلس يهز ساقه ويعود يضرب بقبضته على فخذه، أراقب كل ذرة في جسده وهي تهتز، أصابني بتوتر شديد، وبدأت أرتجف خشية أن يكون قد اكتشف شيئا بشأني، لم أبصق في طعامه ليكتشف ذلك، ولكن ربما أقنعه يعقوب بأني جاسوس خطير، أو تعرض لسرقة جديدة، وربما استطاع أن يحصي كمية الذهب التي كانت بحوزته، وكان المفقود أكبر من قدرته على استيعابها، مازال ينظر إليّ ولا أجد تفسيرا، وبدأت أشك في أن الحقير جمال الدين قد كشف سري وفضحني، فأدرك أن عزيزًا الأبله خدعه، ويلي إن كان ذلك!

هذا الناعم لم أره بهذا التوتر من قبل، ولابد أن كارثة قد وقعت على رأسه، أصابني بالدوار؛ فهو لا يتوقف عن الحراك، وفاجأني وكدت أتبول في ثيابي حينما أخرج المسدس من خلف ظهره وأحكم عليه قبضته وكأنه يخشى أن يفلت من يده، وأخذ يدمدم ويصرخ في وجهي:

- سأقتلهم، سأقتلهم جميعا...لن أرحم أحدًا!

وصاحبت الكلمات دموع ترقرقت في عينيه، كلماته ودموعه أعادت إليَّ القليل من الطمأنينة...قال "سأقتلهم" ولم يقل "سأقتلكم أو سأقتلك" لن يهمني إن قتل الجميع وترك لي نعناعة، جميعهم لصوص يستحقون الموت، وهنا تأكدت أنه اكتشف الكمية الحقيقية للذهب

المفقود، ولكن عندما بدأ يبكي كالأطفال راودني الشك في أنه يبكي من أجل أمر آخر ولم يكن الذهب ليبكيه هكذا، تمتم وسألني:

- ماذا أفعل يا عزيز؟

ملأتْ الدموع عينيه ولم يعد قادرا على منعها حتى سالتْ على خديه، وقال: "ماذا أفعل يا عزيز؟" أدخلني هذا في حيرة؛ هل جُنَّ جودت ليسألني مثل هذا السؤال! أنا سانتور الأبله سأخبره ماذا يفعل! كان واضحًا أنه بحاجة ليتحدث، وأن سرًا غامضًا قد أقلق مضجعه ولم يجد غيري ليحدثه، وكنت حريصا على التزام الصمت، ففي مثل هذا الموقف قد تتسبب الأجوبة الغبية السانتورية في انفلات رصاصة بدلاً من ابتسامة، وعاد يلوح بالمسدس في وجهي وقال:

- أقسم لأطلقن النار عليهم واحدا واحدا ولن أستثني أحدا.

قلتُ سرًا: ابعد المسدس عن وجهي واذهب واقتلهم جميعا، وتذكرت المثل القائل: إن السلاح بيد الجبان قاتل، وإن استمر في تلويحه ستنفلت رصاصة حماسية تزور رأسي قبل رؤوس مَنْ يهدد بقتلهم، في مثل هذا الموقف لم أجد إلا الصمت والدعاء ليهدأ قليلا، وحين هدأ تنفست الصعداء ولكنه عاد يركل المقاعد والصناديق، يتمتم ويدمدم وتتحشر الكلمات في حلقه ولا تخرج واضحة وقال:

- عزيز، أيعقل أن يكون الشيخ طبرق مَنْ فعلها؟

كم كنت أود أن أقول: نعم هو فعلها، وأتركه يذهب ويطلق الرصاص على رأسه وأتخلص منه ومن الـ "قاقا باقا" إلى الأبد، ولكني مازلت أجهل قصده؛ أيقصد سرقة ذهب أم أمر آخر؟ كما أني مدين للكعب بإنقاذ حياتي، ويمكن أن أتجاهل هذا الدين، لست مدينا لأحد، الله وحده بيده الموت والحياة، وقدري أنا أن أصبح ثريا وأغرق في الذهب لهذا لم أمت ولن أموت قبل ذلك، ولكن صورة نعناعتي تمثل أمام عيني، إن قُتل الكعب مَنْ سيحميها؟ وأنا أحتاج لمن يحمي مؤخرتي من يعقوب.

- عزمتُ أن أترك صمتي وسألته:

- ماذا حدث يا سيدي؟

رفع رأسه وانهمرت الدموع من عينيه وقال:

- ابن خالتي يا عزيز ابن خالتي.

لم أفهم القصد من وراء قوله المبتور، ومَنْ ابن خالته؟ وماذا حدث؟ ودموعه تشير إلى أن مكروها قد أصاب ابن خالته، لابد أن أكون ذا نفع مادام اختارني ليبكي أمامي، فسألته في حذر شديد:

- وماذا حدث لابن خالتك يا سيدي؟

انتحب كالنساء، وقال:

- قتلوه يا عزيز قتلوه.

حدثتُ نفسي:

- إن شاء الله ستلحق به سريعا ومعك ويعقوب وفاطمة وبقية عائلتك ولكن ارحمني وأخبرني، مَنْ يكون الخنزير الذي قتلوه ليفرح قلبي؟

لم أجد ما أتلفظ به سوى "رحمة الله عليه ولعنة الله على العرب" ولم أصطنع الغباء في قولي بل كان أحد أجوبتي الغبية التي تقفز رغما عني في عفوية، فرمقني بنظرة حادة وقال:

- ولماذا تعتقد أن العرب قتلوه؟

لم أجد جوابا يليق بهذا الغموض، فكرر سؤاله وأجبته:

- لأن العرب يكرهوننا نحن الأتراك.

مسح دموع النساء ورفع كتفيه وشد ظهره للخلف، وملأ رئتيه بالهواء واستعد كفارس في طريقه للمعركة وقال:

- تعال معي.

سرتُ أتبعه حتى دخل خيمة يعقوب، واعتقدت أنه ينوي إيقاظه ليرافقه ويساعده في قتل الجميع، وحينما دخلت الخيمة رأيته نائما في فراشه غارقا في دمائه.

لم أصدق ما أرى، فتحت عيني وأغلقتها مرات، وأغلقتها طويلاً وخفت أن أفتحها ويتلاشى الحلم الجميل، وحينما أيقنتُ بأني لستُ حالمًا تمالكت نفسي من الصراخ بأعلى صوتي "الخنزير مات الخنزير مات" انفعلت وصرخت وأخذت أهذي سرًا ولغة جسدي كادت تفضحني، أردت أن أركع وأقبل الأرض، يا لسعادتي وفرحتي! يعقوب غارق في دمائه، لفظ روحه النجسة، لن أعد قهوته ولا طعامه ولن أنظف خيمته بعد اليوم، أقسم لأخصص جرة كاملة من الذهب لغاية الدعاء ليصطلي نار جهنم، ولعنه مع كل عائلته وأقاربه وجيرانه والمدينة التي يسكنها، لا جرة واحدة لا تكفي، لأخصصنَّ ثلاث جرار.

أشك في أن صديقي العظيم طبرق قد قتله انتقاما لما فعله بي، نعم لا يجوز الاعتداء على رجال الـ "قاقا باقا" سلمت يداك يا صديقي، وربما حيان الرجل الشهم الشجاع انتقم لي وقتله، أقسم –إن فعلها حقًا– لأعطينه جرة ذهب كبيرة... كنت أهذي وأهذي سرًا، وجودت المفجوع المصدوم لا أشك في أنه أحضرني فقط لكي يأنس بوجود أحد لن يطعنه من الخلف، ولم يكن هناك ما أفعله سوى التصنم مكاني والهذيان سرًا.

عبق الثلاثاء برائحة الموت والدماء، نظرات سريعة، تفحصتُ الجثة وما يحيط بها؛ طعنةُ خنجر في صدر يعقوب، وكانت إحدى الوسادات بعيدة قليلا وعلي طرفها آثار دماء، فمَنْ غرس الخنجر في صدره حرص على أن يكتم صرخة الموت الأخيرة في حنجرته، إن القاتل يمتلك جرأة وقوة جسدية، وثلاثة فقط يستطيعون ذلك في هذه القافلة الملعونة، ولكلٍّ منهم سببه؛ الأول جمال الدين وقد أخبرته أن من المُحال سرقة الذهب في وجود يعقوب، والثاني الكعب وقد زرعت في رأسه أن يعقوب هدَّد بدفنه في قبر من ذهب، وأنه لسَّن على حبيبته، وهذا سبب كاف ليقتله، والثالث حيان وعلاقته بفاطمة وما قد يحدث إن أبلغ يعقوب الباشا بأمرهما عند حضوره، وهذا سبب كاف ليقتله إن لم يكن الانتقام لي.

لم أكن لأصرح بشيء من هذا وأنا السانتور، فأخذت أراقب جودت أفندي وهو يتعثر في خطواته، يبعد عينيه عن الجثة، يغضب ويهدأ، يبكي وينوح، يهدد ويتوعد، ويتشنج كلما مس حذاءَه الدمُ الذي سال وأغرق الأبسطة المفروشة، لم يملك الجرأة على ملامسة جسد قريبه،

وانتفض فجأة وطلب مني حراسة الخيمة وعدم السماح لأحد بالاقتراب، وخرج مسرعا وتركني برفقة يعقوب، لم أرَ وجهته ولكن صهيل نجمة دلَّ على أنه امتطاها لجهةٍ مجهولة.

ارتسمت على شفتي ابتسامة وأنا أقف فوق رأس الخنزير، وبدأتُ أحدث نفسي: لم أكن أمتلك الجُرأة لأقف بجوار جثة قتيل قبل أسابيع؟! وها أنا أقف فوق جثة يعقوب! هل يعقل أن الأيام القليلة التي رافقت فيها القافلة الملعونة حولتني إلى ما أنا عليه! رميته بنظرة وكدت أبصق على وجهه، ولكني ارتعبت خوفًا من عودته إلى الحياة فجأة فيعريني من ملابسي ويبدأ بجلدي مجددا، خرجت مسرعا وأسدلت غطاء الخيمة، ووقفت مثل عسكري منضبط، وسمعت صوت طبيلة ينادي:

- (عذيز عذيز).

أحضرته ليحرس الخيمة معي، وسيطر على خيالي ذلك الإذلال الذي تعرضت له في المغارة، وتذكرت المشهد الذي وقف فيه يعقوب وأخذ يرمق روهان بيك بنظرات احتقار عندما رفض أن يرافق المصابين، اشتعلت غضبا واستجمعت شجاعتي وعدت إليه، ووقفت فوق رأسه وسألته:

- أين روهان بيك يا يعقوب؟ هل اتهمته بأنه جاسوس وقتلته أيها الحقير؟

- ماذا فعلت بروهان أيها الكلب الجبان؟ هيا تكلم قبل أن أصفعك على وجهك.

لم يرد عليَّ فصفعته على وجهه، ووجدت متعة في ذلك فصفعته مجددا، وخلعت حذائي بحذر وضربته على رأسه، هذا الجبان النذل لا يجرؤ على رد الإهانة، قلت له:

- قم أيها الخسيس وواجهني إن كنت تمتلك ذرة كرامة واحدة.

بصقتُ على وجهه مرات واستمتعت بذلك حتى قفز إلى عقلي ما قاله روهان يوما: (حينما تبصق على أحد تذكر أن البصاق يخرج من بين شفتيك)...لقد كان مُحقًا، ولكنه قال أيضا إنه يرغب في دفع نصف عمره ليتبول في طربوش السلطان، وأنا لن أغرم شيئا إن تبولت في فم يعقوب، واجتاحتني رغبة في أن أخلع بنطالي وأفتح فمه وأبول فيه، ولم أجد الجرأة لأفعلها، هذا الحقير مازال يثير بداخلي الخوف حتى وهو جثة هامدة.

خرجت من الخيمة قبل أن تدب فيه الحياة، ووقفت أفكر لمن أدين بهذا الفضل؟ للكعب أم لحيان؟ وخطر ببالي أن أحذر حيان إن كان هو القاتل قبل عودة جودت، ولكني خشيتُ عودته فجأة ففضلت البقاء أمام الخيمة، ولم أمنع نفسي من إدخال رأسي بين الحين والآخر لأتفحص الجثة في فضول وأتساءل: كيف تحول هذا المغرور الذي عراني وشوه ظهري بسوطه إلى جثة هامدة في لحظات.

وقفت أحرس الحقير والابتسامة لا تفارقني، قلبي يدق وروحي ترقص وتفيض عيناي بهجة، واقترب مني أبو إيليا وسألني إن كان يعقوب مستيقظا لأنه بحاجة لمحادثته، أشفقت على هذا الرجل الذي يسعى منذ أيام للانفراد بأحد الكبار لإقناعهم بضرورة نقل ابنه إلى أحد الأطباء، فقلت له:

- أبو إيليا، يعقوب لن يستيقظ أبدًا، وأنصحك أن تبتعد أقصى ما يمكنك عن هذا المكان.

فرد علي:

- يا ابني، اسأله إن كان بإمكاني أن أتحدث معه؟

فقلت:

- وأنا أرجوك أن تبتعد عن هذا المكان.

استاء من أسلوبي واعتقد أني أسخر منه ولم آبه، فساعات وسيكتشف الأسباب وراء ما قمت به، مرت ساعة وأكثر ولم يعد جودت، وطبيلة جائع وإن لم يأكل سيثير الفوضى، تركته واقفا وأسرعت لأحضر له الطعام، وحينما عدت وجدته قد اقتحم خيمة جودت بعد أن جذبته روائح اللحم المقدد التي تفوح من الصناديق، هذا الطبيلة الذي يشتم رائحة الطعام، لم يكن باليسير إخراجه فهذا اليوم ليس مناسبًا لسرقة شيء، وحقيقةً هو أكثر الأيام مناسبةً لسرقة الكثير من الذهب، ولن يفطن لهذا سوى قاتل يعقوب.

عدنا لحراسة الجثة وجاءني أحمد شيخة وأخبرني بأن الشيخ طبرق يطلب ذهابي إليه، فقلت له:

- اذهب وأخبره أني مشغول مع يعقوب في أمر هام جدا وسأوافيه بعد فراغي.

شعرت بالزهو لما نطقت به، وجاءني أحد خدم فاطمة يسأل عن يعقوب، فأخبرته أن يعود ليخبر سيدته بأن يعقوب مشغول في اجتماع هام مع عزيز أفندي، ولا وقت لديه ليهدره مع أحد، وقبل أن ينصرف الخادم ناديت عليه ورجوته ألا يخبرها بالرسالة، وأن يكتفي فقط بإخبارها أن يعقوب نائم وسأبلغ رسالتها بعد استيقاظه.

لم تمر دقائق حتى عاد نفس الخادم وأبلغني بأن أوقظ يعقوب وأبلغه بأن يذهب إلى فاطمه توًا، وددتُ أن أخبره أن يبلغ سيدته بأن تحضر بنفسها لإيقاظه، وأنقذني جودت حينما أطل بصحبة اثنين من الفرق الخاصة، صرف الخادم وأوقف أحدهما على باب الخيمة، وطلب من الآخر أن يتبعه، وأوقفه على باب خيمته ليحرسه، وطلب مني إعداد قهوته سريعا وفعلت، وبدأ يشعل السيجارة تلو الأخرى، ولم ينطق بكلمة حتى حضر الدليل كاظم، وفور رؤيته قال له:

- قتلوه يا كاظم قتلوه.

ودار بينهما حديث فحواه: إنه أرسل مَنْ يبلغ شكيب بالأمر، وعزم الاثنان على التزام الصمت لحين حضوره، وبعد ثلاث ساعات اقتحم علينا شكيب الخيمة وكنت حينها أتربع على الأرض بجوار جودت كما اعتاد الخدم أن يفعلوا بحضره السادة، ولم يكترث أحد لوجودي، وسأل شكيب وهو يلهث:

- أين هو؟

وأشار جودت بيده وذهب شكيب وكاظم إلى خيمة يعقوب، مرت دقائق وعاد شكيب وتعانق الاثنان وبكيا معا، وهنا أدركت أن علاقة عائلية تربطهم معا بالرغم من أن الأشقر ازرق العينين لا يشبه الاثنين في شيء، عاد كاظم وانضم إليهما ليتباحثوا معا، وبدأ جودت المفجوع يروي لهم كيف اكتشف جثة يعقوب، ولم يبقَ إلا أن يخبرهم بأن وحيا هبط إليه وقال: "اذهب يا جودت وتفقد قريبك يعقوب لقد أصابه مكروه" تعذبت واختنقت وشعرت بألم في صدري لإخفاء

شماتتي وفرحتي عن الجميع، هذه القافلة الملعونة حولتني لشخص يفرحه الموت، وهنا نطق اليوزباشي شكيب وقال:

- سنفتش الجميع بحثا عن أثر يقودنا إلى القاتل ولن نستثني أحدا.

اقترح كاظم كتم الخبر حتى يمنحوه القليل من الوقت لعله يستطيع أن يقص الأثر، احتسوا ما أعددت من قهوة وطلب مني أن أعد المزيد، خرجت وأخذت أهز جسدي وأغني سرًا "يعقوب مات. أبو سعد مات..."، وفي الوقت نفسه شعرت بالقلق وكنت حائرا بما يتوجب عليَّ فعله، هذا الثلاثاء حمل لي السعادة، ولكن التفتيش سيقلب الأمور رأسا على عقب، ولن تعود الأمور إلى سابق عهدها، جمال الدين يخفي مسدسا، وحيان يخفي مدية، والكعب يخفي سرا في خيمته، وسالم يخفي ذهبا، ونعمة كذلك الأمر، وأنا أخفى مذكرات البيك والذهب الذي وجدته بالجُحر، والله وحده يعلم ماذا يخفي الآخرون، وإن اكتشفوا كل هذا ستنقلب حياتنا جحيمًا، ماذا أفعل ومَنْ أحذر وكيف؟!

انتهزت أول فرصة وأسرعت إلى حيان وقلت له أن يخفي مديته وقبل رحيلي رأيت على طرف بنطاله آثار دماء، ارتعبت وقلت له:

- اخفِ آثار الدم أيها الأحمق سيكتشفون أمرك سريعا.

تأكدت أنه القاتل وعدت مسرعًا لأناولهم القهوة، وهذا كل ما استطعت أن أفعله، احتسيا القهوة وخرجا معا ورافقهما المسلحان وأربعة من الجنود المرافقين لشكيب، ووقفا بجانب صخرة وطلبا من الجميع التجمع، وبدأ الكل بالتوافد باستثناء الكعب وفاطمة، وأصر شكيب على حضور الكعب ونيروز، وطلب ذلك في حزم وتغاضى عن حضور فاطمة وكأنها فوق الشبهات، إلا أنه أصر على حضور كل مرافقيها، ووصل الكعب ممتعضا ومستاء وبرفقته نيروز وبدا أنها كانت نائمة، ولم ترفع نظرها عن حيان الذي لم يرفع ناظريه عنها أيضًا وأغاظني ذلك كثيرا وتمنيت أن يُكتشف أمره ويُقتل، ومن بعيد جلست فاطمة تراقب ما يدور بفضول.

الكلُّ كانَ مُندهشًا، مرَّتْ دقائق من الصمت والجميع يتساءل عن سرِّ هذا التجمع الغامض، ولم يخفِ جمال الدين ارتباكه عن الجميع، أمَّا الكعب فكان مُغتاظا لأنه لم يحظَ

بمعاملة خاصة، وحيان يجول بعينيه بين رباب ونيروز، ولم يبذل جهدا لإخفاء آثار الدم التي علقت على بنطاله.

وحين أنهى كاظم جولته بين الخيام اقترب من شكيب وهمس في أذنه عدة كلمات، وعلى الفور سأل عن ساكن الخيمة ذات السِّتْر الأخضر، والخيمة التي تجاورها، والتي خلفها، والخيام الخمس المقابلة، وكانت الأولى لأحمد الكبير والثانية لنعمة، والثالثة لجوهر، والبقية لي وللمؤن، فاصطحبانا معا وذهبا وكانت خيم المؤن الأقرب الينا، إلا أن جودت الذي يعرفها جيدا طلب أن يتم تفتيش الخيم الأخرى، وكأنه على يقين بأن خيمي بريئة من هذه الجريمة.

كانت البداية بنعمة، وسألاه أين ينام وأشار إليهما ورافقاه وسارا إلى مكان نومه، وفتشا أمتعته القليلة وتفقداه بحثا عن آثار دماء، وكان اليوزباشي دقيق في تفتيشه، ووجدا الكثير من الطعام الذي نهبه، ولم يلتفت أحدهما إلى قربة الماء وما تخفيه من ذهب، وانتقلا إلى خيمة جوهر ووجدا فيها صرة ملآنة بالخبز والتمر والزيتون، العربي الحقير كان –أيضا– يسرق الطعام ويخفيه، لم يكترث الاثنان بما اكتشفاه بل ألقياه على الأرض، وأخذ اليوزباشي يتلمس التراب ويفتش عن آثار حفر جديدة، كان واضحا أن هناك آثارا تقودهم إلى هذه الخيام تحديدًا، وانتقلا إلى خيمة أحمد الكبير، لم يستغرق التفتيش لحظات، كل ما احتاجاه هو أن يرفعا البساط الذي ينام عليه، ليريا آثار الدماء، ويكتشفا الخنجر وبالقرب منه مسدس يعقوب.

آثار الدماء كانت كافية لتثبت عليه الجرم، وتهللت وجوهم فرحا أمام اندهاش المسكين واستغرابه الذي ينفي علاقته بما وجدوا، وأمسك به اثنان من الغربان وقاداه إلى الساحة الواسعة حيث الحشد الكبير، وطلبا منه الركوع أمام الجميع حتى أنهم لم يخبروه بتهمته، وأخرج شكيب مسدسه وأطلق النار على رأسه أمامنا جميعا، وتراشقت أجزاء من دماغه وأصابت بعضنا.

سقط الملط مغشيًا عليه، ورباب أشاحت بوجهها، ونعناعة دخلت في حالة البكاء الهستيري فأخذها الكعب وابتعد، وكان ممتعضًا بطريقة لا تليق بسفاح، وربما استاء لأنه أراد أن يذبحه بنفسه وكان العرب أكثر امتعاضا، ، أمَّا حيان فقد اشتد به الغضب مما ينفي تلفيقه هذه التهمة لأحمد الكبير، وتلك هي المرة الثانية التي أرى فيها رصاصا يطلق على رأس أحدهم، وكانت الأولى عندما قتلوا العربي صاحب مقولة (يا ولد السقيطة).

انصرف الجميع وكأن شيئا لم يحدث، وانشغل العرب بحمل الجثة وساعدهم حيان وحفروا له قبرا، وما كنتُ لأتأثر لموت عربي، فأسرعت لأعد القهوة للمرة الثالثة لعائلة الباشوات، ورفض سالم مساعدتي، وحملتُ القهوة وفكرت أنه ربما يتوجب عليّ أن أعزيهم في مصابهم، وأهنأهم على الأخذ بالثأر من بريء مسكين لا علاقة له بقتل يعقوب، احتسوا القهوة وتحيروا فيما يجب أن يفعلوا بجثة قريبهم، ودار بينهم حديث طويل استمتعت إلى بعضه:

جودت:

- يجب أن نعيده إلى سلوكيا.

شكيب:

هذا مستحيل في ظل هذه الظروف.

جودت:

- لن أسامح نفسي إن دُفن بعيدا عن البلاد.

شكيب:

- صدقني، أريد له ذلك أيضا ولكن لا خيار أمامنا.

جودت:

- إذًا لننتظر قدوم الباشا ليقرر.

شكيب:

- لا نعرف متى سيصل، اليوم، غدا، وربما بعد أسبوع.

وبعدما تجادل الاثنان تنازل جودت عن مطلبه في نقل جثة يعقوب إلى مسقط رأسه واقترح أن يتم دفنه في القدس بجوار الأقصى، وسيكون في هذا عزاء لوالدته، وكان شكيب ميالاً لهذا الرأي، وهنا تدخل الدليل كاظم وكان واضحا أنه ليس أكثر من صديق للاثنين، وربما مجرد ضابط، وحذرهم من مخاطر العودة إلى غرب النهر ويبدو أن ما قاله قد أثر فيهما.

أعددتُ قهوتهم واستمعت إليهم، ولم يشعروا بوجودي، وأسفاه! لم يحتاجوا إلى رأيي ولو فعلوا لاقترحت أن يتركوه للكعب يأكل قلبه وبدمائه يدهن عضوه ليساعده على الانتصاب، وهكذا ستكون جثة الخنزير ذو منفعة لأحدهم على الأقل.

رضخ جودت أفندي واتفقا على أن يدفنوه شرق النهر وبعد جولة تفقدية لم يجدا مكانًا مناسبًا بالقرب من المخيم وقررا أن يكون في أحد الجبال المطلة على المخيم حتى لا يتأثر قبره بعوامل الطبيعة مع مرور الزمن، وذهب الدليل للبحث عن المكان المناسب وعدتُ لإعداد القهوة للمرة العاشرة...وحينما عدتُ كان واضحًا أن الأبلهين يتجادلان حول طقوس دفن صاحب الدم المهدور، وعندما عزما على غُسله وتكفينه فزعت وارتعشت وتقززت؛ فمن في هذه القافلة غير الخادم الخارق عزيز أفندي سيكلف بهذه المهمة القذرة! وما أعرفه في هذا الشأن لا يتعدى دقائق تلصصت فيها على غُسل خالتي دولت لعنة الله عليها، لقد أقسمت في هذا الثلاثاء السعيد أن أتبول عليه إذا كلفوني بهذه المهمة ولو كلفني ذلك قتلي.

شعرت بشيء من الراحة حين أرسلني جودت لأستدعي الكعب لمشورته في الأمر فأسرعت الخطى لأتملص من الفضولين الذين يسعون لمعرفة السبب وراء إعدام أحمد الكبير، مددت رأسي داخل خيمة الكعب في وقاحة وشاهدت ما لا يليق بهذا السفاح قاسي القلب؛ كان يحضن نيروز ويمسد على شعرها ويبدو أنها غفت في أحضانه، وآثار الدموع مازالت على وجنتيها، وحينما رآني أُطل برأسي أشار إليَّ ألا أتكلم، وفي هدوء نقلها للفراش وخرج، وكان –كغيره– بحاجة لمن يثرثر معه وحينما بادرني قائلاً:

– أرأيت ما فعله اليوزباشي أزرق العينين؟

نبرة صوته وملامحه أوحت إلي أنه لا يعرف شيئًا عن مقتل يعقوب، مما برَّأه أمامي من شرف قتله واستأت كثيرا؛ للحظة ظننتُ خلالها أنه قتله دفاعًا عن شرفي وشرف نيروز، اللعنة عليه! هذا الحقير لا يجيد إلا قتل المساكين. قلت له:

– ملوك الـ "قاقا باقا" ستعاقب من يتطاول على سيدي الشيخ طبرق.

سره قولي وسألني:

- ما الأخبار يا عزيز؟

فأجبته:

- جودت أفندي يريدك.

هزَّ رأسه مستهزئًا، وقال:

- وماذا يريد كلباشا؟

وتعمدت أن أتأكد من علاقته بالجريمة، فقلت:

- لقد سمعت ولست متأكدا مما سمعت أنهم بحاجة إليك لتغسل أقدام يعقوب.

فهز رأسه واعتقد أنهم يسخرون منه وقال:

- ويعقوب هل شاركهم السخرية؟

- لا يا سيدي يعقوب لم ينطق بكلمة واحدة منذ قتله.

يبدو أن الكلمة الأخيرة أربكت أذنه، فقال:

- ماذا قلت؟

أجبته:

- يعقوب لم يسخر منك يا سيدي.

فقال:

- وأين كان حينما تم جمعنا قبل ساعتين.

فقلت مُستغبيًا:

- كان ميتا يا سيدي.

وهنا انتفض وأمسك كتفي وأخذ يهزني ويقول:

- لا تثر جنوني يا عزيز، ماذا تقصد بقولك مات.

وهنا أجبته مُتخابثًا:

- ملوك الـ"قاقا باقا" قتلته يا سيدي لأنه تطاول على سيدي الشيخ طبرق.

وبظهر يده صفعني على وجهي ليزيل أي أثر للشك في أن هذا الحقير القذر نال الشرف بقتله، وقال:

- بماذا تهذي أيها الأبله؟!

وأجبته:

- أحدهم قتله لهذا مات.

تفاجأ حقًا ولم يصطنع المفاجأة وسألني:

- مَنْ قتله يا عزيز؟

هذا المسخ يسألني عن القاتل وكنتُ أود أن أخبره أن يسأل العفاريت الذي تظاهر بوجودها وتوج نفسه عليها ملكا، ولكني تعمدتُ الحمق:

- قتله القاتل يا سيدي.

واندهش مرة أخرى حينما أخبرته بصلة القرابة التي تربط جودت ويعقوب وشكيب، وهنا شعر ألا جدوى من الحديث معي، وأسرع إليهم وتبعته، عزاهم وعاتبهم لأنهم لم يخبروه ليساعدهم في البحث عن القاتل، وحين استشاروه في الغسل والتكفين لم يرقْ له أن يتورط في هذه المهمة وقال:

- رحمة الله على يعقوب لقد مات أثناء قيامه بواجبه وهو شهيد يدفن كما هو لا يُغسَّل ولا يُكفن، ودماؤه الزكية ستفوح برائحة المسك، ومثواه سيكون الجنة.

أنهى الشيخ خطابه الديني المؤثر وسبحان الله قد تحول آكل أكباد البشر وقلوبهم إلى داعية يقف على أبواب الجنة ليميز الخبيث من الطيب! وأجمعوا الرأي على قوله، وهنا قرر شكيب وجودت أن يبلغا فاطمة بموت يعقوب لتودعه قبل دفنه، وأرسلوني لأبلغها بضرورة حضورها، وهي فرصة قد تمكنني من دخول خيمتها الملكية، وربما حالفني الحظ ورأيت شيئا

من جسدها، فمما سمعته: إنها تصير حورية عارية داخل خيمتها، وهنا توجب عليَّ التسلل حتى لا يعترض طريقي الملط أو غيره، وعزمتُ اقتحام خيمتها متظاهرا بالبله وإن كانت عارية وغضبت لوقاحتي سأرميها بالكلمة التي تدغدغ عواطفي كلما نطقت بها: "مات يعقوب يا فاطمه ، يعقوب مات" يا فاطمه ، يا إلهي! كم أستمتع بلفظها! ومن المؤكد أن الصدمة ستمتص غضبها وتنسيها أنها تقف أمامي عارية بجسدها الساحر الذي أثار جنوني بوصف الملط له في كل مرة بالرغم من استمتاعه بوصف جسد حيان، وقبل اقترابي من خيمة فاطمة باغتني الزنجي وأمسك عنقي وبطحني على الأرض وإثر صراخي هرع الملط ليفلتني من يديه، وسألني عما أفعله بالقرب من خيمة فاطمة فأخبرته بأن شكيب أرسلني لأستدعيها لاجتماع هام فقهقه بأعلى صوته وقال:

- في المرة القادمة لا تتسلل تعال إليَّ مباشرة إن رغبتَ في رؤيتها عارية.

حاولتُ التخلص من التهمة، وما كان الملط ليقتنع، هذا المخنث يفهمني جيدا، عدت أدراجي خائبا وأخبرت شكيب بأنهم طردوني قبل وصولي خيمتها، وذهب بنفسه وما هي إلا بضعة دقائق حتى حضرت الغجرية وفُجعت لسماع الخبر وذرفت عليه بعض الدموع، لم يخف عليَّ أنها دموع مبللة بالفرح، ألقت عليه نظرة الوداع الأخيرة وتركتنا.

لففنا الخنزير بأحد الأغطية وحملنا وسرنا خارج حدود المخيم، ودفناه إلى جوار تلة قريبة، وغربت الشمس وغادرنا يعقوب إلى غير رجعة، وحرصت أن أرسم خارطة دقيقة لقبره في ذاكرتي حتى عودتي لإخراج الذهب، وعندها سأحرص على أن أعرج على قبره لأبول عليه، وسأعلن عن مكافأة كبيرة لمن يحضر أكبر عدد من الأشخاص ليبولوا على قبره النجس.

ساعات مرت بعد دفن يعقوب وانطلقت الغجرية وبغالها المحملة إلى جهة مجهولة هذه الفاطمة لا يبدو أن لديها وقتا لتهدره على الحِداد.

وانقضى الثلاثاء السعيد وأشرقت شمس الأربعاء وغادرنا شكيب ومرافقيه بعد دفن يعقوب وقتل العربي عقابا على جرم لم يقترفه، وتركا بصحبتنا غرابين مسلحين، كان الأمس جميلا راودتني الكثير من الأحلام السعيدة، وصحوتُ مفعمًا بالحيوية، وسالم لم يكن بمزاج ليجاريني

في طقوس القهوة والعرش، وغضضت الطرف عن ممارستها هذا اليوم وذهبت لإحضار العلف لنجمة وأنتهي من هذه المهمة.

على باب الخيمة تصنم غراب مسلح وبالقرب منه آخر جالس في استراحة، اعترض طريقي ولم يسمح لي بالاقتراب وفي محاولة لإنارة عقله بأني عزيز أفندي يُسمح لي ما لا يسمح لغيري به كدت أفقد أسناني، وعلمت أن الأمور ما عادت كسابق عهدها، وعدت إلى مكاني الأول، الأجواء متوترة ولا رغبة لأحد في تناول الطعام، والكل يبحث عن السجائر، تلاشت الابتسامات، وكان يوما ثقيلا مملا قاتلا، لم تخرج نعناعة من خيمتها، ولا يرغب أحد في شيء حتى شريكي الكعب لم يكن على عادته، لم يخفَ عليَّ أن سكان مملكتي يعيشون أجواء الصدمة للطريقة التي قتل بها أحمد الكبير –رحمة الله عليه– والأصح أن كل منهم مذنب بطريقة ما وشعر بأن الرصاصة التي فجرت رأس الشايب كادت تصيب رأسه، أو أنها ستصيب رأسه يومًا ما.

وتساءلت ماذا كان سيحدث لهم لو شاهدوا الذبح والرقص وأكل القلوب وارتشاف الدماء، هل كانوا سيتخشبون كالفتى إيليا؟ أيعقل أنِّي أشجع منهم جميعا ولا أدرك حقيقة نفسي؟! اللعنة عليهم! لا أحد يريد الحديث لا أحد قادم إلى عرشي حتى سالم غادرني وانزوى، وطلبني جودت وأعددتُ قهوته وصرفني أيضًا بعدما أوصاني أن أهتم جيدًا بالغرابين ويبدو أنهما لن يفارقانا قريبًا.

لم أجد ما أفعله سوى البحث عن قاتل يعقوب وبعد أن برَّأت الكعب وجدت أن كل الشبهات تدور حول حيان، فقد أقسم أن يجعل يعقوب يدفع الثمن، حيان رجل شهم، ولابد أنه قد قتله انتقاما لما فعله معي، ذهبت إليه وبدون تمهيد أو مقدمات وجهت إليه التهمة ووبخته على إهماله في ترك آثار جريمته على مرأى من الجميع فاستاء من اتهامي له وقال:

– يسعدني قتل هذا المجرم ولكني لم أقتله، وهل تعتقد أنى لو فعلتها كنت سألفق التهمة لأحد المساكين؟

خُذ هذه الرواية للمكان الذي تستحقه فقط!

جرة ذهب

فوزي عبده

عدة كلمات على حسابك الخاص عن الرواية تساوي توقيعك عليها

أحزنني جدا ما قال، كنت آمل أن يكون قاتله انتقامًا لي، ولكن هذا الحقير لم يكلِّف نفسه عناءَ قتله، وأكاد أجزم أن أحمد الكبير بريء من التهمة ومع هذا سألته:

– لماذا تعتقد أن العربي بريء من قتله؟

فأجاب:

– أحمد الشايب لا يقوى على ذبح دجاجة.

ضحكت وقلت:

– لو رأيته كيف ذبح البعير لغيرت رأيك.

ثم سألته عن آثار الدماء التي رأيتها بالأمس، فرفع بنطاله وأشار إلى جرح في قدمه من أثر السلسلة، وتيقنت بأنه لم يفعلها حقًا، وبرَّأته من الجريمة وأيقنت أن جمال الدين هو القاتل.

أعددتُ القليلُ من الطعام للغرابين وبصقتُ فيه، وحينما قدَّمته لهم أخذاه ولم يشكراني، تجاهلتهما ولكني عدتُ وفكَّرت أن هذين القردين أصبحا جزءا من مملكتي، ولن يغادرانا قريبا، وأشك أن هؤلاء الرجال لهم علاقة بالبشر، تساءلت عن الطرق التي تم تدريبهما بها لعلي أجد طريقة لترويضهما! لابد أن أجد لغة للتواصل معهما ربما تخدم مصالحي لاحقًا، ذهبتُ إليهما وحرصت ألا يتبعني طبيلة؛ فتصدر عنه حركة عفوية ويقتلوه؛ وما كنت لأنسى عندما قام أشباههم بإطلاق النار على الكعب وجودت قبل أسابيع، أخذت لهم الماء ولم يطلبوه، ولم أر أسنان أحدهما، ولم أيأس، فلا شيء يشغلني اليوم ولدي الكثير من الوقت، عدت وأحضرت تمرا، وحينما جئت لهما بالسجائر لم يدخنوها، وبعد جهد جهيد نطق أحدهم بالتركية وقال شكرا، أسعدني هذا وعلمتُ أن أحدهما ليس أخرسا.

بعد العصر خرج جودت من خيمته معلنا انتهاء العزاء، وقد ارتدى بدلة عسكرية شدها حزام فيه قراب مسدس، وانسجمت جزمته ذات العنق الطويل مع ملامح وجهه الحادة، بالأمس دخل خيمته يبكي وينوح كالنساء، واليوم خرج منها قائدا مقاتلا متشبهًا بيعقوب، فهل يُعقل أن روح القتيل قد سكنته؟

وبصوت خشن قال:

- عزيز أحضر كل الجرار التي بحوزتنا إلى الخيمة هيا أسرع ولا تتلكأ.

أجبته:

- سمعًا وطاعةً سيدي.

وقلت سرًا:

- سبحان مقلِّب القلوب ومغير الأحوال! انقلب جودت الرقيق الناعم إلى خشن حازم.

بحثت عن سالم وحينما وجدته خشنت صوتي وقلت:

- سالم أحضر لي كل الجرار هيا أسرع ولا تتلكأ.

تجاهلني ذلك الأبله، ربما لو كنت أرتدي حذاءً طويل العنق لقال: "سمعًا وطاعةً سيدي"، لم أجد من يطيعني سوى طبيلة، جمعت الجرار وكان عددها يقارب الأربعين وحين عدتُ إلى الخيمة استوقفني الغراب ولم يسمح لي بالاقتراب، وأغاظني ذلك كثيرا وحين خرج جودت أشار بيده نحونا وقال:

- هذان الاثنان يسمح لهما بالاقتراب في أي وقت ولا تعترضا طريقهما.

نعم نحن أبلهان لا نشكل خطرا على الأفندي ولن نغرس خنجرا في صدره، لم أشعر بالرضا لأنه يخشى الآخرين ولا يخشاني، وودت لو أخبره كيف قطعتُ رأس سعدون وركلته بقدمي ليرتعب مني أيضًا.

أدخلت الجرار حتى ازدحمت بها الخيمة ولم يعد هناك موقع قدم، وطلب مني أن أملأها جميعا ذهبًا بمساعدة طبيلة، هذا الناعم الحقير ساوى بيني وبين حارسي الشخصي، أعددت صف الجرار، وبدأت أملأها بالذهب، وانشغل طبيلة باللهو بالقطع الذهبية، فوجوده بالإضافة إلى رائحته الكريهة كانت عبئا علي، وحينما اشتم رائحة الطعام بالجوار ترك الذهب واندفع لالتهام ما يقع تحت يديه، واضطررنا إلى إخراجه بعيدا لإنقاذ الطعام الفاخر الخاص بالأفندي.

اشتد بي الإرهاق ولم أتمكن من ملء عشر جرار، وألحت عليَّ الراحة، وحينما خرج لقضاء حاجة أسرعت بإلقاء نظرة على يومياته المشفرة، وكتب فيها جودت أفندي:

- " ***سألني يعقوب قبل أيام هل الأفعى غبية؟ فأجبته: حرصها أن تبتعد عن البشر يدل على ذكاء.***

فسأل: هل خطر ببالك يوما أن تكتب شعرا في أفعى؟

فضحكت وقلت:

- ***لقد كتبت الكثير من الشعر في الكثير من الأفاعي.***

فقال:

- ***لا أقصد النساء إنما الأفاعي الحقيقية فمنذ ثلاث أيام تزورني أفعى غبية ليلا أطردها وتعود وقتلتها بحذائي وألقيت بها بعيدا، وبالأمس عادت لتزورني.***

ابتسمت وقلت له:

- ***وهل تقتل الأفعى تنينا.***

أعجبه ما قلت فقال:

- ***أحسنت يا جودي هذا شعر جميل.***

فأجبته:

- ***هذه مقولة قالها زارا ولستُ قائلها يا صديقي.***

لم أعلم أن هذه ستكون المرة الأخيرة التي أضحك فيها مع يعقوب حينما قال:

- ***هذا الزارا يجب أن نضمه الينا.***

راودني كابوس لعين رأيت فيه يعقوب يغرق في نهر الأردن ويمد يده لأنتشله ففزعتُ من نومي وهرعتُ إلى خيمته لأطمئن عليه، كان نائمًا كطفلٍ صغيرٍ مسربلٍ بالدماء،

أغمضتُ عيني وفتحتها ووجدت نفسي في كابوس داخل كابوس، تصنمتُ مكاني وتهتُ بأفكاري ولم أعد أميِّز الواقع من الحلم، سأصحو من هذا الحلم ولن يكون يعقوب ميتا، صحوتُ منه ومازال غارقًا في دمائه...مَنْ قتله سيقتلني ولكن لماذا؟!

أسرعتُ إلى التلة وأرسلتُ في طلب شكيب وكاظم، وعدتُ لأبكيه وأبحث عن قاتل صديق طفولتي، غرسوا خنجرًا في قلبه، لا أعرف أحدًا يقدر على القتل بمثل هذه الوحشية غير طبرق، هذا المشعوذ الذي لا يرتوي من الدماء، فكرتُ للحظات أن أحمل مسدسي وأطلق النار على رأسه لأريح العالم وأريح نفسي منه ولكني عدلت عن ذلك...لقد تحوَّل يعقوب إلى دمية يحركها طبرق وكان يسره أن ينشد معه الـ "قاقار باقار" وهذا المشعوذ بحاجة لقتلي أنا لا يعقوب...ونجا طبرق من لحظة غضب، وعثرنا على القاتل؛ عربي غزاه الشيب رافقني منذ أسابيع وكان بإمكانه قتلي في أي وقت شاء، كل الأدلة أشارت إليه وفاجأني ؛ شكيب المتهور أعدم العربي أمام الجميع بلا محاكمة ولا شهود، ما كان شيء سيسرني أكثر من قتل قاتل يعقوب ولكن ليس بهذه الهمجية، أردتُ أن أعرف الدَّوافع التي دفعت رجلاً أشيبًا لهذه الجريمة اللعينة، ولكن شكيب نصَّب من نفسه قاضيًا وجلادًا! فهل قتل هذا العربي يعقوب حقًا؟ سيبقى هذا السؤال يؤرقني، غادرني يعقوب وترك أوجاعًا في قلبي لن تشفيها الأيام، وداعًا يا صديقي".

عاد جودت أفندي وأشفق عليَّ وأدرك أن ملء الجرار ليس هينًا، وطلب مني أن أغلق فوهات الجرار التي انتهيت منها وأذهب لأرتاح قليلاً، ولم يكن إغلاقها هينًا أيضًا، خرجت من الخيمة، وكانت الشمس قد غربت منذ زمن.

ألقيت جسدي لأرتاح، وعاد وطلبني لأجهز البغال وأستعد للانطلاق وبما أني الخادم الأمين والذي لا يسمح لغيره بدخول الخيمة حملتُ خمس جرار بمساعدة طبيلة وانطلقنا بعد ترك أحد الغربان يحرس الخيمة ورافقنا الآخر مع مَنْ اختارهم الكعب، وهم؛ سالم ونعمة وأحمد شيخة الذي تظاهر بالمرض فاستُبدل بجوهر، وكانت هذه المرة الأولى التي رافقنا فيها شخص طويل القامة.

في الطريق لاحظت أن نعمة يحمل قربة ماء وذاكرتي لا تخطئ، هي القربة التي ملأها ذهبًا، وما حاجته ليحمل الذهب معه! والنظرات التي تبادلها جوهر ونعمة دلَّت على أن الاثنين يخططان لأمر ما، فظننتُ أن شيخة تظاهر بالمرض بناء على طلبهما، راقبتهما طوال الطريق وتيقنت أنهما خططا للهرب معا، ونجاحهما في الهرب لن يكون لمصلحتي أبدا، وبدأت البحث عن أية طريقة قد تجهض خطتهم فالتقطت حجرًا حاد الرأس وسرتُ بجوار البغل وحين غفل عني الجميع غرستُ رأس الحجر في مؤخرة البغل وابتعدتُ مسرعًا، هاج وكاد يسقط الجرار وكان ذلك كافيا للفت انتباه جودت والكعب إلينا، ولكن سرعان ما عادا وانشغلا عنا، فرأيتُ أن أصبر قليلا، فلن يهرب هذين الغبيين قبل دفن الذهب وإبعاد الغراب الأسود عن موقع الدفن، وبعد ساعة ونصف من السير مررنا بطريق ضيقة بين التلال، لا تسمح إلا بمرور اثنين معًا، ويبدو أن إعدام أحمد الكبير قد أثر في عقل هذين الأحمقين ليعتقدا أنه المكان المناسب للهرب.

رصدتهم عين الكعب فور تخليهما عن أرسُن البغال بدأ الكعب والغراب المسلح في مطاردتهما، وجلست مع البقية في الانتظار، ولم يرفع جودت عينيه عن سالم خشية هربه أيضًا.

بعد نصف ساعة فقط عاد الكعب واصطحبني لأجد نفسي واقفا فوق جثة نعمة الذي تعرض لعدة طعنات من الخلف، وطلب أن أحمله مع طبيلة على حمار وفعلنا ثم سرنا عائدين ومن خلفنا طبيلة، وفي الطريق عرج بالقرب من مجموعة من الصخور وطلب منا أن نحفر وندفنه، أغلق نعمة المسكين عينيه، وكانت كل ما يملكه من وسامة، ولم ينتبه الكعب لما تحويه قربة الماء من ذهب، وحرصت أن أتركها في قبره؛ فليس فيها من الذهب الكثير ليستحق أن أشغل بالي به اليوم ولا بعد اليوم.

وحينما انتهينا طلب منا أن نحفر حفرة ثانية بجوار نعمة وتركنا وذهب دون مراقبة، لماذا يعتقد الجميع بأني وطبيلة أصغر شانا من الجميع ولن نفكر في الهرب! عاد المسخ برفقة جودت وسالم والذهب، ودفنا جرة ذهب في الحفرة الثانية، ولم ينتبه سالم بأننا دفنا الذهب بجوار صديقه المقتول، ثم قام الكعب بطقوس الـ"قاقا باقا"، وحدث ما لم يخطر لي على بال حينما اصطحبني جودت بالقرب من أحد الصخور، وأعطاني إزميلا ومطرقة، ورسم سهمًا بقطعة فحم، وكان رأس السهم يشير إلى عكس الاتجاه الذي دُفن فيه الذهب، وقف إلى جواري، وبدأتُ النقش

فوق ما رسمه بالفحم، وأبدعت في نقشٍ لا علاقة له بالرسم، ولمَّا رأى جودت إبداع الفنان عزيز ابتسم، ويبدو أنه تنازل عن السهم واعتمد على ما نقشتُه، ونقلني إلى صخرة أخرى وطلب أن أنقش عدة نقاط فقط، وفعلت ولمَّا انتهيت ابتسم ثانيةً وربت على كتفي. أكملنا طريقنا صعودا وسرنا عدة ساعات، وشعرت بأن في رأس الكعب خطة ما أو أنه عاد لأسلوبه القديم لإرهاق جودت فما كان هناك داعٍ لسير كل هذه المسافات والاقتراب من القرى العربية من أجل البحث عن مكان للدفن، ولم يخف عليَّ أن جودت شعر بالارتياب قليلا، وحفرنا ودفنا في عدة مواقع وحينما أدرك جودت بأني لا أحسن نقش الرموز تولى الأمر بنفسه، وعدنا ولم يظهر أي أثر لا للغراب ولا لجوهر حيًا أو ميتًا، وعدنا بسلام.

ومع صبح الخميس خرجتُ من خيمتي وكان سالم في انتظاري، بالأمس بذلت جهدا لأتملص منه ومن أسئلته الفضولية، وقبل صباح الخير سألني عن جوهر ونعمة، فأخبرته بأنهما هربا، فسألني "إلى أين؟" أسئلة هذا الأبله لا نهاية لها ويعتقد أننى العارف بكل شيء، لم أخبره بأن نعمة دُفن بجوار الذهب، ولو علم سيحزن عليه كثيرا مما سيتسبب في إفساد طقوسي اليومية، أمَّا عن جوهر فلا أعرف عن مصيره شيئًا؛ فالغراب لم يعد ليزف لنا نتيجة المطاردة.

حملتُ قهوة جودت إلى خيمته، ووجدت الغراب جالسًا بالقرب من رفيقه ولم أستطع سؤاله إن أغمض عيني جوهر أم تركه مع الكثير من الحكايات ليرويها، لم أر على الأفندي أية علامات تشير إلى قلقه من هرب أحد ليفضح مكان القافلة، وما كانت هناك طريقه لأسأل عن مصير جوهر، ولا داعي لقلقي؛ فقد رافق قافلة الغجرية لا يعرف مكان ذهبي، لا يشغلني ما دفنته فاطمة من كنوز ولا أفكر في البحث عنها، سأكتفي بالذهب وأترك لهم آثارهم الغبية التي لم أصنفها لأعرف قيمتها الحقيقية، بالرغم ممَّا سمعته عن عشرات تماثيل الذهب والفضة، ولكن القناعة كنز لا يفنى، كما أني لا أعرف طريقة لمعرفة أماكن كنوز فاطمة...لمعتْ في رأسي فكرة جهنمية تساعدني على معرفة كل أماكن الدفائن؛ أبو إيليا...نعم أبو إيليا نقش الرموز وبإمكانه أن يعطيني إياها، وإن كانت ذاكرته جيدة سيخبرني عن المسافة الفاصلة بين مواقع الدفن ومكان نقش الرموز، وهذا سيكون كافيا لأحدد مواقع الدفن بدقة.

لن أصبر على لقاء نعناعة، فلم أرها منذ يومين، وذهبتُ إلى خيمتها، ولجتها فجأة ولم أشعر بأن هناك داعيًا لاستئذان، وما كان يهمني كونها عارية أو تحت المسخ الذي كان مستلقيا على فراشه متكأ على سرج حصان شارد الذهن، لقد كانت نعناعتي نائمة على فراشها تنضح عرقا، جلست على طرف فراش وأدرت لها ظهري وخاطبت الكعب:

- صباح الخير سيدي طبرق.

دون أن يلتفت:

- أهلا.

سألته إن كان بحاجة إلى شيء، فقال:

- لا سأذهبُ الآن، وأنت اعتن بنيروز، يبدو أنها مريضة، وحين تفيق أعد لها الإفطار.

خرج وما كان شيء ليسعدني أكثر من الاعتناء بحبيبة القلب، وكان لابد أن أتفحص حرارتها تفحصت كل جزء من جسدها وصلت إليه يدي، وكنت حريصا على ألا تستيقظ ولمَّا ارتفعت حرارتي غمستُ خرقةً في ماء بارد لأخفض حرارتي وحرارتها، وضعتُ الخرقة الباردة على جبينها، وأثارني الشق الظاهر بين نهديها وأشعل ناري وكان لابد أن أتحسس هذا المكان لأتفحص حرارته أيضًا، وأفاقت فجأة وسألتني عمَّا أفعل فلوحتُ لها بالخرقة وأخبرتها بأني أسعى لخفض حرارتها فشكرتني وأخبرتني أنها لا تشعر بمرض، وإنما تعرقت بسبب لحاف الصوف.

تركتُها لأعد لها ما تأكله ولمتُ نفسي لأنني لم أخفض حرارتها بكفي دون ماء حتى لا تفيق، وسرني أن الكعب اللعين استطاع أن ينسيها ما شاهدته من بشاعة إعدام أحمد الكبير، وتساءلت إن كان أخبرها أنه قادر على بعثه من جديد؛ هذه الساذجة تصدق كلَّ ما يخبرها به...لم أعد طعامها حتى لحقتْ بي، وسرني ذلك فأخرجت عرشي لتجلس عليه ملكتي، وقبل أن تمس يداها الطعام انضم إلينا السيد حيان الجبان الذي أقسم أن يجبر يعقوب على دفع ثمن ما فعله بي ولم يقتله، وغاظني أنها لم ترفع عينيها عنه، هذه الحقيرة بحاجة لمن يعلمها ألا تنظر إلى أحد سواي.

شاركنا الطعام ولم أجد طريقة لطرده، وشعرت بإصراره على سرقتها مني مثلما سرق روهان بيك، وحقيقة لم يكن هناك داعٍ ليبذل جهدا فقد قدمت نفسها إليه منذ أيام، تجاهلني الاثنان ولم يتوقفا عن الثرثرة، ونظراتهما المُتبادَلة كانت كالحراب تُغرس في قلبي ولم يكن هناك ما أفعله لأمنع هذا الانسجام القاتل لمشاعري، وفات الأوان على بصقي في الطعام لأفرغ غضبي.

لستُ بحاجة لأكون مُنجِّمًا لأعرف أن جمال الدين سيطل علينا؛ فرائحة نيروز تجذبه، جاء ولم أستاء من حضوره؛ فهو اليوم بناظري بطل، قام بما لم يقم به الحقيران؛ حيان والكعب، قتل يعقوب، وعند تأكدي من كونه القاتل الحقيقي سأكافئه بالكثير من السجائر لحين إقناع الكعب بقتله، جلس وعيناه الوقحتان زارتا نهدي نيروز، ولمَّا لم يرق وجوده لحيان استأذن وتركنا، وامتعضت الجميلة لفراقه وهمَّتْ بالانصراف إلا أنه أمسك يدها في وقاحة وقال:

- لِمَ العجلة؟

لم يبدر منها ردة فعل، سحبت يدها في هدوء وتركتنا، وتمالكت نفسي حتى لا أفقأ عينيه وأقطع لسانه الذي لم يتوقف عن التغزل في مؤخرتها، وبعدما غابتْ سألني عمَّا حدث لنعمة وجوهر فقلتُ له: لقد سرقا جرة ذهب وهربا. فقال:

- لن يبتعدا كثيرا وسيمسكون بهما ويقتلونهما.

وحاولت إغاظته وقلت:

- بل نجحا في الهرب ولن يمسك بهما أحد.

فضحك وقال:

- شرق النهر ليس كغربه وهناك مئات السرخفية.

وسألته:

- متى تخطط للهرب يا جمال الدين؟

فأجابني:

- ازدادت الأمور تعقيدا و تضاعفت الحراسة على ضفتي النهر.

فسألته:

- وكيف تعرف ذلك وأنا لا أرى شيئا قد تغير سوى وجود المسلحين؟

فقال:

- علمتُ أن الحراسة منذ الأمس تضاعفت، وخيم رجال شكيب بالقرب منا.

فقلت:

- إذًا كان من الحماقة أن تقتل يعقوب.

رمقني بنظرة استغراب وقال:

ولماذا تعتقد أنى قتلته وما مصلحتي في ذلك؟!

- كان وجوده بجوار جودت يعوق سرقة كمية كبيرة من الذهب.

وقال بلا مبالاة وكأننا نتحدث عن إعداد الإفطار:

- لست أحمقًا لأقتله وأثير كلَّ هذه الضجة، والحصول على الذهب ليس بالأمر الصعب في غيابهما عنه كل يوم، أردتُ فقط أن تساعدني في سرقة كمية منه دون أن يشعرا بذلك حتى لا يسخِّرا كل قدرات الجيش لمطاردتنا.

لم يتوقف عن الثرثرة وربما استطاع أن يقنعني بألا علاقة له بموت يعقوب وأن قتله كان ضد مصالحه...لم يكشف عن نواياه الحقيقية في حاجته لحيان والعرب خلال مخطط هربه السابق، إلا أني لمحتُ بين ثنايا كلامه خطة جهنمية تستوجب ضحايا ليخفي آثار مُخططه، وصدق حيان في قوله: "إن مثله ليس أهلاً للثقة" وفي نهاية حديثنا علمتُ أنه قد أجَّل مخطط هربه لحين ارتحالنا عن هذا المكان أو مؤاتاة الظرف المناسب، وبذل جهده لإقناعي بمساعدته في بدء سرقة كميات من الذهب وإخفائها شريطة ألا يشعر جودت بذلك، ولم يكن أمامي إلا أن أجاريه لحين إيجاد طريقة للخلاص منه، ولن يكون ذلك صعبًا وفي مملكتي قرد الـ"قاقا باقا" إذا عرف أنه أمسك يد عشيقتنا لن يرحمه.

انزاح عني جمال وبدأ الكل يطاردني بحثًا عن أخبار، ويبدو أن الأمور تشابكت واختلطت معها صورتي، وما عاد أحد يريد أن يرى في السانتور علاقة بأصحاب القرار، جعلتهم يشعرون بأني مصدر للأخبار، تبا لهم جميعا! لم يستمر حزنهم على أحمد الكبير يوما، وها هم يبحثون عن حزن جديد، وسؤالهم عن نعمة وجوهر أزعجني قليلا، حرصتُ على كوني أبلها فعلا وقولا منذ رواية سانتور إلا أني استمتعت كثيرا بدور الرجل الذي يعرف كل شيء؛ أخبرتهم بأنهما قد هربا وسرقا جرة ذهب كاملة، وقلت سرًا "هيًّا اسرقوا واهربوا أنتم أيضًا" وأمضيتُ بقية النهار في تحليل الأحداث والبحث عن قاتل يعقوب الحقيقي بعدما تبين أنه لم يُقتل على يد أحد من الأنذال الثلاث، ولم يتبق سوى الشرس الوحيد الذي يمتلك قدرة جسدية تمكنه من السيطرة على يعقوب وقتله؛ لا بد أنه الزنجي الأسود حارس فاطمة، بيَّض الله وجهه إن كان قاتله.

غربت شمس الخميس، وبعد مقتل يعقوب ومحاولة هروب نعمة الفاشلة أصبح الكل يشكل خطرا على حياة جودت أفندي وأسراره، وبعدما تم استبعادي من قائمة المشتبه فيهم صرتُ –حقًا– عبدًا من عبيد السخرة؛ لقد أوصى جودتْ حرسه الجُدُد بإطلاق النار على كل من يقترب من خيمته دون إنذار مما تسبب في إصابة أحد خدم فاطمة، ومن سيجرؤ ليساعدني في شيء إن تعلق الأمر بالاقتراب من خيمة جودت.

هؤلاء الأغربة لا عقل في رؤوسهم وقد تم تصميمهم لتنفيذ الأوامر بحذافيرها، وليس من المستبعد قتلهم أي شخص مرَّ –بلا قصد– قريبًا من خيمة جودت، أرهقني ملء الجرار بالذهب وتحميلها على البغال ولم يرافقنا سوى طبيلة، حتى الأبلهين سالم وأحمد شيخة لم يعد يسمح لهما بمرافقتنا، ومهمة الحفر والدفن وقعت كلها فوق رأسي، ثلاثة أيام لم أذق فيها طعم الراحة ولا النوم، اختفى عرشي وطقوسي اليومية لم يعد لها وجود، وخيم المؤن أصبحت في متناول الجميع، ولولا حرصي على إخفاء السجائر لفقدت كل نفوذي وما عاد لي وزن بين هؤلاء الأوباش؛ جمال الدين يقضي معظم وقته في مطاردة نعناعتي والتحرش بها كلما واتته الفرصة، بينما هي تقضي معظم وقتها في مطاردة حيان، والله –وحده– أعلم بما حدث بينهما في غيابي وعلى حين غفلة من شريكي الكعب، وأنا أصبحتُ ضائعًا بين حاجتي للنوم ومتابعة أبناء مملكتي وإرضاء الناعم الذي سكنته روح يعقوب، وما عدتُ قادرًا على إضحاكه، وكل تصرفاته تدل

على أنه قد مسَّه الجنون...غامتْ السماء، واختنق القمر، ولم تسمح له الغيوم بأن يطل علينا، وأظلمت في وجه جودت ولم نخرج للدفن فكانت فرصة للراحة والنوم.

استيقظت مع إشراقة شمس الأحد، وكنت أعلم أن سالمًا استغل غيابي في الأيام الثلاث الماضية ولم يعد يقيم لي وزنًا، وأقنع نفسه بأنه السيد الجديد وأخذ يوزع الطعام أمام عجزي عن أداء مهامي وما كان بيدي شيء لأفعله سوى التزام الصمت...واليوم قررت أن أستعيد السيطرة على خيام المؤن من جديد، خرجت من خيمتي وصعقت من الوقاحة التي بلغها سالم؛ لقد أخرج الصندوق ونصب العرش وجلس عليه كما اعتدت أن أفعل، فاختبأت خلف الخيمة أراقبه يرتشف القهوة ويخاطب أحمد شيخة مقلدا صوتي ولساني في نطق العربية وقال له:

- ما رأيك في شاربي يا أحمد؟

رد أحمد بلهجته:

- (أعطيني سجاير بقولك عظيم عظيم)

قال سالم:

- لا يوجد هنا سجائر سأعطيك طعاما.

رد أحمد:

- (أنا شبعان ما بدي أكل أعطيني سجاير مثل عزيز بقولك انو شاربك عظيم عظيم)

اعتدل سالم على العرش وقال له:

- خذ ملابسي واغسلها جيدا وسأكافئك.

فرد عليه:

- (انت ما معك سجاير ما بدي العب معك)

فقال سالم:

- اذهب يا ولد ونادي نيروز لتحتسي معي الشاي.

وعندها لم أصبر لأسمع رد أحمد، فاقتربت منه ودفعته عن العرش وجلست مكانه وقلت له:

- أيها الحقير جلست على عرشي وسرقت خزائني ووصلت بك الحقارة أن تلسِّن على نيروز! أقسم إن لم تتحنِ أمامي الآن وتقبل يدي لأبلغنَّ الشيخ طبرق ليذبحك كما ذبح الحمار، ويراقص عفاريته فوق دمائك.

انحنى وقبل يدي ورجاني ألا أبلغ الكعب بما سمعت، شعرت بالقوة والفخر ففي مملكتي لا أحد يخيف الجميع كما يفعل شريكي المسخ، ابتهج قلبي بعدما استعدت عرشي الوهمي وقلت لسالم:

- اذهب وأعد قهوتي وعفاريت صديقي الشيخ طبرق ستراقبك حتى لا تبصق فيها.

أسرع سالم لخدمتي كما اعتاد وهنا نطق أحمد شيخة وقال:

- (شاربك عظيم عظيم يا عزيز بيك).

كنت –فيما مضى– أحب تقمص شخصية روهان وأدعي بأن لي شاربه العظيم، ولكني الآن يملأني الحزن والكدر، وأشرت إلى شيخة ألا يكرر هذا مرة أخرى فسألني:

- (طيب شو بدك نلعب اليوم يا عزيز بيك؟)

ابتسمت لمَّا قال ولعل هذا الولد الذي فُطر على الكذب قد وجد وصفًا مناسبًا لطقوسي اليومية، أستمتع بهذه اللعبة ويستفيد من يشاركني فيها، وغيابي ثلاث أيام عن ممارستها أفقدني البراعة، وحقيقة لم تعد لدي الرغبة في لعب دور جودت أفندي الجبان ولا روهان ولا أحد الباشوات، سألته عن الأخبار وانطلق لسانه بسرد الأكاذيب فأخرسته قبل أن ينهي كذبته الأولى وأعطيته ملابسي ليغسلها، وعاد سالم وناولني قهوتي، وتلفتُّ يمنة ويسرة، وهززتُ رأسي وتمتمتُ متظاهرا بأني أتحدث مع عفريت لا يراه غيري فسألني سالم:

- (مع مين بتحكي يا عزيز).

- أتحدث مع عفاريت الـ"قاقا باقا.

- (ما بصقت في القهوة لا تتعب حالك وتسألهم يلا اعطيني سجاير زي احمد).

- أنا لا أكافئ الخائن على خيانته بل أقطع رأسه.

- (أعطيني سجاير وبعدين اقطع راسي).

لم أرغب في خوض جدال مع هذا الأبله، أعطيته السجائر وحاول أن يقنعني بأن أمنحه المزيد ليوزع على البقية، وما كنت بهذا الغباء لأمنحه ما يساعد على تعزيز مكانته، فالسجائر التي أخفيتها أغلى من الذهب، وقبل انصرافه أخبرته أن يبلغ الجميع "من يريد السجائر فليأتِ وينحنِ أمام العرش"، ولم يختفِ ظله حتى جاء جمال الدين ساخرًا قائلا:

- أين السجائر يا مولانا السلطان عزيز؟

وما كنت لأجرؤ على ممارسة طقوسي على أمثال جمال الدين وأعطيته ما أراد وعاتبني على إخفاء السجائر عنه طوال الأيام الماضية، احتسى قهوتي التي أعدها سالم وأشعل سيجارة وقال:

- أقسم بالله العلي العظيم أني لم أعد قادرا على فهم شخصيتك، هل أنت أبله حقًا أم تدعي البله؟! ما وصلتُ إليه من مكانة يدل على ذكاء عظيم، وما تمارسه يوميا لا يصدر إلا عن الحمقى! لا يمر يوم إلا وأسمع عشر قصص عن بلاهتك، أيعقل أنك تظاهرت بالبلاهة حتى أصابتك؟!

ثم قهقه بأعلى صوته وتابع:

- مصيبةٌ لو اكتشفتُ أنني الأبله الذي خطَّطَ مع أبله!

سرَّني ما أوهم به نفسه، وانتابني شك عابر في كوني أحمقًا لا يعي حمقه، ثم اعتدلت في جلستي على العرش وقلت له:

- أنا سليل باشوات وأستاذ كبير ولا يهمني رأي البلهاء يا سيد جمال الدين.

– لا يهم أيّنا الأبله، والآن هل فكرت في طريقة لبدء سرقة الذهب؟

أقول ضاحكًا:

– ومن يجرؤ على الاقتراب من خيمة جودت هذه الأيام!

– لا يُسمح لأحد غيرك.

– لخيبة الأمل لم أُترك في الخيمة دون مراقبة، ومما وصل إلى مسامعي أن المزيد من الحرس سيصلون قريبا لذا أنصحك أن تجد طريقة للهرب وتعود لاحقا لإخراج كنوز فاطمة ولابد أنك تعرف مواقع دفنها، لقد سمعت أن فيها عشرات التماثيل الذهبية.

فضحك وقال:

– فاطمة ليست في غباء جودت يا عزيز، ولا يعرف أين دفنت كنوزها إلا خمسة، يعقوب ومالت المخنث، وثلاثة من العبيد، وبالرغم من كونهم خُرسًا عزلتهم عن الجميع، وأبو إيليا الذي رافقها دوما ونقش لها العلامات أشك في اقترابه من موقع دفن واحد.

ما قاله جمال تناقض مع ما سمعته من جوهر ومن بعض خدمها وقلت له:

– ولكني سمعت أنه لم يبق أحد باستثناء حيان إلا شارك في الحفر والدفن.

فضحك وقال:

– نعم شاركنا عشرات المرات في الدفن، ولكني أشك أننا دفنا شيئا ذا قيمة، وربما فعلت هذا للتمويه عن الكنوز الحقيقية التي أخفتها مع مالت.

– ولماذا لم تتسلل إلى كنوزها وتسرق شيئا قبل الدفن؟

فاختصر جوابه:

– فاطمة قادرة على اشتمام رائحة ما يدور في رأس أحدنا، ويعقوب لا يفكر مرتين في إطلاق الرصاص على رأس أحد.

– ومع هذا لم يجرؤ على قتل حيان.

– لم يُرِد أن يغضب فاطمة ولكنه أقسم أن يقتله، لهذا أنا على يقين بأن صديقك حيان قاتل يعقوب وليس أحمد العربي، وسأكتم هذا السر مادمت آمل في تعاونه معي.

أتاني سالم مهرولا وأبلغني أن جودت أرسل في طلبي فأسرعت إليه واستقبلني غاضبًا وسألني:

– لماذا تأخرت وقد أرسلت في طلبك منذ وقت؟

لم أجد ما أقوله إلا أني كنت مشغولاً في إعداد الطعام للشيخ طبرق والآخرين، وثار غضبه وأخذ يشتم الكعب وقال:

– لا تحضر طعام أحد إن لم آمرك، دعهم يعدون طعامهم بأنفسهم، أنت هنا لخدمتي فقط، هل فهمت؟

– نعم سيدي أنا خادمك فقط.

وقلت سرًا:

– سأبول على قبرك قريبا بعدما يقتلك صديقي طبرق.

جلس على مقعده، يلهو بمسدسه كما اعتاد يعقوب –عتَّم الله قبره– أن يفعل وهنا أيقنت أنه مازال يعاني صدمة موته...وقفتُ في انتظار أوامره ولم يطلب شيئًا، ولمَّا انتبه لانتظاري أمرني بتنظيف الخيمة ولم يكن أمامي إلا التظاهر بذلك؛ فقد نظفتها بالأمس ما يزيد عن خمس مرات...عاد وطلب مني الجلوس على أحد المقاعد، ولم أجد مقعدا صالحا؛ فهو لم يترك شيئا في خيمته لم يخربه غضبا لمقتل قريبه في يوم الثلاثاء السعيد...جررت أحد الصناديق الفارغة وجعلت منه مقعدا وجلستُ أمامه.

اتكأ على الطاولة وطلب أن أحدثه عن شقيقي العسكري الذي قتله المصريون، وسألني:

– هل قتل أخوك أحدًا في هذه الحرب؟

لقد سيطر القتل على تفكيره، وكان خجولاً في سؤاله عن المشاعر التي تتملك القاتل، ولكن انعدام قيمتي أزاح عنه الخجل قليلاً، ومثل هذا الحديث لا مُزاح فيه، وما كنت لأجعل من

ذكرى شقيقي موضعًا للسخرية، ولهذا وصفتُ له مشاعري وكأنها على لسان أخي، وجعلت من الموت أمرا ممتعا حتى اندفع في غباء شديد، ودلت عيناه على جِديته في سؤاله:

- كيف كان شعور المقتول حين قتله؟

أقسم أن سالمًا كان ليخجل من طرح مثل هذا السؤال الساذج...تحيرتُ في إجابته؛ فلم يقتلني أحدهم لأصف له الشعور وقلت له في غباء يفوق غبائه:

- شعر بالسعادة يا سيدي.

فابتسم وقال:

- لماذا يكون سعيدًا؟

فقلت:

- لأنه سيذهب إلى الجنة يا سيدي.

وجوابي كان كافيا ليعيده إلى طبيعته التي افتقدها، وضحك بأعلى صوته وقال:

- أنت جنتي يا عزيز.

صرفني وقبل خروجي استوقفني وقال:

- ما اسم العربي الذي قتله شكيب؟

- أحمد الشايب

فقال:

- هل هو متزوج ولديه أطفال؟

أدركت أنه يشعر بوخز ضميره، وأجبته:

- لديه عشرة أطفال، أصغرهم في الرابعة من عمره يا سيدي.

وحقيقة كان لديه ثلاثة شباب، وأصغرهم كان في الثالثة والعشرين.

تركته وانصرفت وحرصت على أن أعطي الغرابين الواقفين على باب خيمته بعض ما حملته في جيبي من التمر وكانت هذه إحدى الطرق التي انتهجتها في ترويضهما، ولمَّا بلغتُ عرشي وجدت الكعب في انتظاري وأخذ يوبخني لأنني لم أعد طعامه، لم أكذب وأخبرته أن جودت منعني من خدمته فقال مُتحديًا:

– اذهب واذبح بعيرًا، وأعد طعامي الآن.

فقلت:

– أمرك سيدي.

لم يعد برفقتنا ذابحو البعران، فاستعنت بجمال الدين، وأعددتُ الطعام وحرصتُ على إطعام الذئبين الحارسين لجودت أفندي والذهب، كانت لدي خطة لهذا اليوم ولكن حينما رأيت شكيب يمتطي حصانه وإلى جانبه ثلاثة من الجنود يتجولون في المخيم وينتقلون من خيمة إلى أخرى دعوتُ الله ألا يُعدم أحدًا آخر باستثناء جمال الدين.

كان أزرق العينين يقترب من كل خيمة ولم يغادر صهوة حصانه ومرافقيه يُخرجون مَنْ فيها ولم يقترب من خيام فاطمة وطلب من مالت أن يستدعي الجميع، ولم تمر دقائق حتى جُمع أغلب من في المخيم في خيمة واحدة، ولمَّا انضممت إليهم وبصحبتي طبيلة أمرني أن أدخل رجلي الضخم وألقي نظرة داخل الخيمة وأتمم على حضور الجميع، وألقيت نظرة سريعة وأخبرته أن الجميع موجود باستثناء مالت، والشيخ طبرق، ونيروز، والزنجي حارس فاطمة، فطلب مني الذهاب إلى الكعب وإخباره بضرورة انضمام فتاته إلى الجميع داخل الخيمة، وأسرعت إلى الكعب وكان لابد أن أصيغ ما طلبه مني بطريقة تناسب أذنه القذرة فقلت له:

– اليوزباشي شكيب يأمرك أن ترسل نيروز لتنضم للخدم والعبيد.

وسرني أن رده كان يليق بملك الـ"قاقا باقا" وقال:

– اذهب وأخبره أن يذهب إلى الجحيم.

عدت لأنقل الرسالة لشكيب ولكني وجدت من الحكمة ألا أستفزه حتى لا يقتل الكعب وهذا لن يصب في مصلحتي حاليا وأخبرته بأن نيروز مريضة ولن تتمكن من الحضور، فطلب مني أن أسرع إلى خيمة جودت دون توضيح الأسباب.

وكان جودت في أبهى صوره وطلب مني ترتيب الخيمة وساعدني بنفسه للمرة الأولى، وكان واضحا أنه يستعد لاستقبال ضيوف على قدر كبير من الأهمية ولم يخفى عليَّ أن جمال باشا الذي بُشرنا بقدومه منذ أكثر من أسبوع سيكون على رأسهم، أعددنا مائدة تليق بباشوات واكتشفت أن هذا الجودت يخفي في صناديقه التي لم أتمكن من فتحها حلويات من النوع الفاخر، تين مجفف ومكسرات، وفاكهة طازجة لا أعرف كيف وصلته حديثا، لم تتوفر مقاعد تليق بمؤخرات ضيوف الغفلة وجعلنا من الصناديق مقاعد فاخرة بعد أن كسوناها بما توفر من السجاد وألحفة فاخرة.

فتح أحد الصناديق وأخرج منه زجاجة نبيذ أبيض فرنسي، وتمنيت لو كان البيك موجودًا لأسرق واحدة من أجله، قاومت إغرائي سابقا ولم أحمل قطعة ذهب ولكني لم أتوقف عن التفكير في السطو على هذه الحلويات التي تذوقتها عيناي وغافلته وأخفيت القليل منها في جيبي.

لم ننتهِ من إعداد المائدة حتى فاجأنا أحدهم بوقوفه على باب الخيمة حاجبًا ضوء الشمس، كان رجلاً متوسط الطول ملتحٍ، وقفته وشاربه وحذائه وبدلته اجتمعوا ليدلوا على كونه باشا، انطلق جودت ناحيته وعانقه، الاستقبال كان عائلي حار يخلو من الرسميات، وجلس الباشا ولم يعرني انتباهًا وخاطب جودت:

- (كيف انت جودي البقية بحياتك حبيبي).

وطلب مني جودي الخروج من الخيمة وأوصاني أن أصلب نفسي على بابها وألا أتحرك إلا بإذنه، صلبتُ نفسي وأرخيتُ أذني وأرهفتُ سمعي، وكان بالقرب مني عسكري صلب نفسه ولم يتحرك أيضًا، ولم أر أي أثر للغرابين، وكأنه تم إبعادهما ليفسحا المجال لحرس الباشا.

نصف ساعة مرت ولم يهل أحد، وناداني جودي وطلب على عجل دعوة الشيخ طبرق والعودة لأتصنم مكاني، وذهبت مسرعا واستخف الكعب بدعوته وسخر قائلاً:

- وماذا يريد الكلباشا هذه المرة؟

وشوقي بألا يفوتني شيء من الحديث الذي يدور بين جودت والباشا كانت أقوى من رغبتي في زرع البغضاء، فأخبرته أن هناك رجل يحمل أوصاف الباشوات ويريد مقابلتك، فسبقني هرولة وركضت خلفه، ولكن العسكري اعترض طريقه وصوب سلاحه ليمنعه من التقدم، وامتعض ملك الـ"قاقا باقا" لهذا الاعتراض المهين، وهنا رقص شاربي الهزيل الذي يُسمح له بالمرور إلى مجلس فيه جمال باشا شخصيا، ودخلت الخيمة لآخذ للكعب إذنا بالمرور، خرج جودت وأمر الحارس بالسماح له ولم يسدل شادر الخيمة وربما فعل ذلك حتى لا تزعج رائحة الكعب الكريهة أنف الباشا، وشعرت بالقرف حقًا حينما انحنى الكعب وقبل يد الباشا وأخذ يدعو له بطول العمر ويخاطبه بألقاب التمجيد، هذا الحقير تحول في لحظات من ملك إلى عبد وعفَّر أنف الـ"قاقا باقا" التي بدأتُ أستغلها لإخافة سالم وأحمد شيخة، ويبدو أن ما فعله قد سرَّ جودت كثيرا وعلق بكلمات لم أسمعها، مما دفع الباشا ليطلب منه الخروج من الخيمة لحين انتهاء اجتماعه مع الكعب.

تهامس الباشا والكعب لعدة دقائق ولم أستطع إرخاء أذني بجوار جودت، وقبل خروج الكعب فرض العناق على الباشا، وبدا عليه أنه لم يكن راغبًا فيه، وقبل انصرافه وصلت إلى أذني:

- أتقن عملك وستجد ما وعدتك به في انتظارك.

عاد جودت إلى الداخل ولم أسمع سوى بضع كلمات وكان منها:

- لا تسخر من أحد في حضرتي، وهذا الرجل أعرفه قبل أن ينبت الشعر على وجهك فحذار أن تسخر منه مرة أخرى.

صمت جودت، أو ربما لم أقدر على سماع شيء، وما قاله الباشا كان كافيا لأعرف أن الكعب من مشعوذيه، وكما قال روهان بيك "لكل طربوش مشعوذ يرضعه الخرافات من ثديه الثالث".

خرج الباشا وتوجه إلى خيام فاطمة التي تعطرت ألف مرة لحين وصوله، وعدت داخل الخيمة وكنت أعتقد أن جودت سيكون متكدر الحال ولكنه كان في غاية السرور حتى أنه مازحني وسأل:

- هل سرقت شيئًا في غيابي من الخيمة يا عزيز؟

وأجبته على الفور:

- نعم سرقت ثلاث حبات تين مجفف.

وأخرجتها أمام عينيه، فضحك بملء شدقيه وقال:

- ألا تجيد الكذب يا عزيز؟

أجبته:

- نعم يا سيدي أنا أجيد الكذب وكل شيء.

وضحك وقال:

- أعد ترتيب كل شيء كما كان، وكُلْ ما شئت.

وتعمدت أن أبدأ بملء جيوبي أمامه حتى فاضت بما حشوتها وقال:

- يا عزيز قلت لك كُل ما تريد، ولم أقل املأ جيوبك.

فأجبته:

- نعم يا سيدي سآكلها وحدي، ولن أطعم احدا.

خرج وتركني، وانتهيت من الترتيب والتلصص على بعض الخرائط والأوراق التي كان يحملها الباشا الكبير وتركها لجودت، وكانت في أغلبها خرائط عسكرية لم أفهم منها شيئا، انتهيت وخرجت، ومازال الجنود يحرسون الخيمة التي حُجز فيها الجميع، ولا يبدو أن جمعهم كان لغاية أخرى غير الحفاظ على سلامة الباشا وسرية زيارته.

اقترب مني الملط الذي يبدو أنه فوق الشبهات ليتم حجزه مع الآخرين وهزَّ رأسه قائلاً:

- لقد استقبلت الباشا قبلي يا عزيز.

أخرجت حبة شوكولاتة ومررتها له خفية إلا أنه قال:

- لدينا منها الكثير، والوليمة التي أعددناها أكبر من وليمتك.

وضحك مثل عاهرة قائلا:

- بعد قليل ستشتعل النار في خيمة فاطمة ولو كان بالإمكان لأخذتك معي لتراقب وتدفئ جسدك بالقرب من نار لقاء الكبار.

تركني، ولم أجد أحدا لأتحدث معه فذهبت إلى الكعب النذل المتسول، وسألته وكأني لم أر كيف انحنى يلثم يد الباشا:

- من هذا الرجل الذي لم ينحن أمامك يا سيدي؟

- فقال: هذا الخليفة القادم يا عزيز.

حاولت أن أتغابى مرة أخرى ولكنه قاطعني، وسألني عن أي شيء سمعته يستحق أن أبلغه به، فكرت قليلا ووجدتها فرصة مناسبة لبث الخوف في قلب المسخ فقلت:

- لقد سمعتهم يتحدثون عن شخص مجنون تفوح منه رائحة كريهة ولم أفهم ماذا يقصدان.

وقفت موهما إياه بأني أستعد للرحيل، وقلت:

- هل تريد أن أعد لك شيئا يا سيدي قبل ذهابي؟

فأمسك بيدي وقال:

- اجلس يا عزيز وأخبرني بما سمعته حرفًا حرفًا.

فقلت له:

- لقد سمعت جودت يسأل الباشا ماذا ستفعل مع هذا المجنون؟ ورد عليه الباشا: قريبا سيتبخر ولن يعود له وجود، اصبر وراقبه جيدا.

امتعض الكعب وللمرة الأولى أرى أن وجهه الأسود ظهر فيه مثل هذا الاحمرار وقال:

- وماذا سمعت أيضا؟

فقلت:

- لقد سمعت الباشا يقول إن أحد ضباط السرخفية يعيش معكم وسيتولى بنفسه مهمة تبخيره عندما يحين وقته، وسأله جودت: من يكون؟ هل هو عربي؟ فقال الباشا: لا هو تركي يتظاهر بأنه عربي.

وهنا سأل الكعب:

- هل سمعت اسم هذا التركي؟

- لم أسمع جيدا الاسم كان مثل كمال...جفال...جلال...لم أنتبه يا سيدي عليَّ أن أحاول التذكر، هذا الأحمق ملك الجان لم يُخفِ ارتعابه، تجمد عقله عن التفكير ورغم كل الإشارات التي وفرتها له ليستدل على هوية الشخص إلا أنه لم يفهم ما رمزتُ إليه، ولم يتبقَ إلا أن أرفع صوتي وأصرخ:

- هو جمال الدين اذهب واقتله وأرحني منه أيها الأبله.

وهيهات أن يصل لهذه النتيجة بمفرده، وما كنت لأسهب حتى لا يكتشف كذبي، استأذنته في الرحيل ولكنه أصر على بقائي فضحكت سرًا وقلت: أيعقل أن الكعب أيضا بحاجة لحمايتي؟! لم يتوقف الكعب عن استعراض كل فرد يسكن المخيم لعله يعرف التركي المتخفي وبعد جهد جهيد حصر الأمر في اثنين حيان وجمال الدين، ولم يكن بوسعي أن أتذاكى أكثر وأخبره أن حيان لم يتظاهر يوما بأنه عربي، وخرجت وتركته لعله يصل إلى هذه النتيجة لاحقا!

بعدما أصابني الملل وجلست ساعة في انتظار مغادرة الباشا والإفراج عن البقية لأجد من أتسلى معه ويشاركني غروب الشمس الذي حان موعده أتاني جودت وأشار أن أتبعه إلى خيمته، تبعته وكان يحمل حقيبة بنية كتلك التي أعدت لتناسب سروج الخيل، طلب مني أن

أحضر الأكواب بسرعة وفعلت، وأخذ أحدها وملأها بالعصمليات بعد عده كل قطعة، وعند انتهائه طلب أن أملأ الأكواب التي جعل منها ميزانا ليوفر على نفسه عناء العد.

ملأت الأكواب وأفرغتها في الحقيبة بما يساوي ثلاثة آلاف عصملية، وطلب مني حمل الحقيبة واللحاق به، سرنا ما يقارب المئتي مترًا، وابتعدنا عن المخيم ما يزيد عن المئة وخمسين، ووجدنا الباشا الكبير على حصانه وبجواره حارسه العسكري فقط، وألقى جودت الحقيبة أمامه على الحصان، ومدَّ الباشا يده ومسد على شعره، ورأيت على مرمى البصر عددًا كبيرًا من الجنود في انتظاره، واسترعى انتباهي أنه لم يَسمحْ لموكبه بالاقتراب من المخيم...عدنا أدراجنا وصرفني جودت وغادرنا شكيب ومن معه بعد ساعة وعادت الحياة إلى المخيم وعلمت أننا الليلة لن نخرج لدفن الذهب.

أشرقت شمس الاثنين ونلت من النوم ما يكفي ويزيد، أنهيت أعمالي وتربعت على العرش ومارست طقوسي، ولمحت شريكي الكعب قادمًا، سأكون سعيدا لو رأيته يلتفت خلفه خوفا من القاتل المجهول الذي أوهمته بوجوده، لم أقف احتراما له مثل كل مرة، كان يحمل صرة ملابس في يساره وعلَّق بيمناه شيئًا مجهولاً، ولمَّا وقف أمامي لم أزحزح مؤخرتي عن العرش، وقلت له:

– اجلس يا شيخ طبرق وسآمر لك بإعداد الشاي.

فرد علي بنهيق:

– قم يا حيوان وخذ هذا الكبد واطهه واغسل هذه الملابس بسرعة.

استدار وعاد من حيث أتى...اللعنة على هذا المسخ لا يتوقف عن معاملتي كعبد، وأقسمت لأتبول على يدي وأجعله يقبلها كما قبل يد جمال الباشا، هذا اللعين منذ أيام لم يقززني بالقلوب والأكباد الغريبة المجهولة الهوية، وها هو اليوم يعود ويحمل كبدا سيدفعني للتقيؤ قبل طهوه.

أسعدني وصول كاظم الدليل ليقوم بجولته المعتادة لتفحص المخيم والتأكد من وجود الجميع لأكون على يقين بأن فطور الكعب لهذا اليوم لا علاقة له بسكان المخيم، وناديت على

سالم ليأتي بأحمد وأعطيته الملابس ليغسلها، وعندما تفحصها ليحدد عدد السجائر التي يجب أن يتقاضاها أجرًا اشمأز أولا ثُمَّ ضاعف السعر بحجة أنه سيعاني رائحتها، ووافقت على ما طلب شريطة أن يشعل النار أولا لأبدأ بالطهو، وعاد واشترط أن أطعمه مما سأطهو فأخبرته أنه طعام الشيخ طبرق فاشمأز وتنازل عن طلبه، وقرفص ليشعل النار، ويبدو أن جيبه كان مثقوبا لتسقط منه أمامي قطعة ذهبية، وقف على قدميه وتتابعت سقوط القطع حتى وصل عددها إلى عشر قطع، مدَّ يده والتقطها ولم يبد عليه الارتباك والخوف، وحقيقةً لم يرتبك سواي؛ فهذا الكم من الذهب قد يزجني في ورطة، وأنا الوحيد الذي اقترب من الذهب، وقد يتسبب في عودة شكيب وفرض قواعد أخرى إن لم يعدم أحدًا.

لم أجد في امتلاك أحمد للذهب أمرا غريبا فربما أخفى مما جمعه عند السيل حيثما انتحر البغل، أو التقط ما تناثر في طريقنا من الأغوار، ولكن المصيبة لو تسلل لخيمة جودت وسرق، سألته عن كيفية حصوله على الذهب، وأخبرني أن أمه أعطته إياه ليشتري لها بعض الأغراض عند عودته، هذا الأحمق يسخر مني وكأني أجهل قيمة هذه القطع، فبإمكانه شراء أم وأب وعم بقيمتها، تجاهلته قليلا ثم سألته ثانية:

– من أين لك هذا الذهب يا أحمد؟

فأخبرني أن عمه أعطاه إياه ليشتري ملابس من حلب...تركته برهة وسألته مجددا فأجاب بأن خالته أعطته الليرات...أدرك أنى لو أعدت السؤال ألف مرة سأحصل على الكثير من القصص ولن أصل إلى نتيجة، وحماقته تدل على أنه عاجلا سيكون أول المذبوحين ولا رغبة لي في إثارة الشكوك بالرغم من حاجتي في التأكد من أنه لم يتسلل إلى خيمة جودت، وفي تلك الأثناء اقتربت نعاعتي وأخذت تمسد على شعره وقالت:

– كيف أنت يا حمودي؟

رد عليها:

– مليح خالتي نيروز.

أثناي التقطت استخدامه تسمية خالتي في رده، وظننتُ في علاقتها بما يحمله من ذهب، وعشرات الأفكار راودتني وخوفي عليها دفعني لسؤالها:

- هل تعرفين يا نيروز أن أحمد يحمل في جيبه الكثير من الذهب؟

وأجابت على الفور بلا تريث:

- حمودي مسكين وأنا أعطيته الذهب ليشتري طعامًا لأمه وإخوته الصغار.

صعقني ردها، وكنتُ في حيرة بين الضحك والبكاء! عشر ليرات ذهبية من أجل الطعام، وكم ستعطيه من أجل الملابس؛ جرة أم أكثر! وتساءلت من أين أحضرت هذه المجنونة الذهب الذي قد يتسبب في إعدامها وإعدام قلبي معها! هي لم تقترب من الذهب، ولابد أن حبيبها طبرق سرق من الذهب بطريقة أو بأخرى، وطالما أن نيروز حصلت على بعض الذهب فلابد أن طبرق قد احتفظ ببعضه في خيمته، وربما هذا هو السر الذي اعتقد أني رأيته، وهو ليس غبيًا ليسمح لها بالتصرف في ذهب مسروق، ولن يتوانى شكيب عن إعدام الكعب إن اكتشف الذهب مع أحمد وقادهم إلى مصدره، وحينئذٍ سيفرح قلب جودت وقلبي أيضًا، ولكني في أمس الحاجة إلى أن يخلصني الكعب من جمال الدين أولا، كما أخشى أن يصيب نيروز شرًا بعد موت الكعب، فلن يتركها شكيب على قيد الحياة...وجدت نفسي أمام أمر معقد؛ يتوجب على أن أحمي من يستعبدني ليل نهار ليحمي حبيبتي، ويخلصني من أعدائي، وكيف لي ذلك وأنا في ورطة بين أحمق يحمل الذهب في جيبه وبَلْهاء لا تعي أنها حفرت قبرًا لها ولعشيقها المسخ!

عشرات الاحتمالات وجميعها تقود إلى النتيجة ذاتها عاجلا أم آجلا، سيكتشف الأمر وسيُنزع قلبي إن أصابها مكروه، لقد صار أحمد شيخة مصدرًا للتهديد، ولابد أن أجد طريقة للخلاص منه، انتهيت من إعداد الكبد المجهول وحملتْ نيروز القلاية بما فيها، ولم تنس أن تقول:

- (غلبتك معنا عزيز).

انشغالي بالتفكير فوَّت الفرصة لألمس يدها أو أي جزء من جسدها لاستمتع بذلك الشعور الذي يسري في عظامي ليصل إلى قلبي وينعش روحي.

بحثتُ عن جمال الدين وحيث توقعت وجدته، يجلس تحت شجرة ويتلصص على رباب، ولا أشك في أنه قد عراها في خياله المريض، وما كان يهمني مادام سيكون بعيدا عن نعناعتي، جلست بجواره ورحَّب بي –كما اعتاد– بطريقته الساخرة قائلا:

– مولانا السلطان عزيز شرفنا بزيارة!

وقلت سرًا:

– لن أيأس حتى أقنع الكعب بقتلك أيها الحقير وعندها سأبول على قبرك.

لا وقت لدي، ولا مجال للمراوغة فقلت له مباشرة:

– أريد منك يا جمال أن تخلصنا من أحمد شيخة في أسرع وقت.

اللعين استفزني حينما ضحك وقال ساخرا:

– لماذا تريد الخلاص منه، ألم ينحن أمام عرشك اليوم وهل تريد مني أن آمر السياف بقطع رأسه يا مولانا!

لم يجرؤ أحد على السخرية مني مثلما يفعل هذا الوغد وكان لابد أن أستثمر ما عرفتُه مُسبقًا وأكشف بعض الأوراق ليعلم أنى قادر على تهديد وجوده، فقلت له:

– ستقطع رأسه وإن لم تفعل سيتسبب هذا العربي في تفتيش المخيم، وربما سيقلب شكيب –هذه المرة– كل حجر ليرى ما تحته وعندها قد يكتشف الذهب الذي سرقتَه من خيمة جودت وخبأتَه خلف خيمة أبي إيليا قبل خمسة عشر يوما.

فاجأته وفاجأت نفسي بالجرأة التي تملكتني لأهدده بهذه الطريقة، فغر فاهه واحتاج لوقت ليجاوز الصدمة، وقال وهو يخبئ خوفه:

– ولماذا تعتقد أني سرقت ذهبًا؟ ألم نتفق أنك ستسرق لي الذهب؟

لأمنعه من المراوغة قلت له:

– لقد سرقتَ الذهب قبل يومٍ واحدٍ من حديثك مَعِي، سرقتُك كانت يوم أحد وحديثك معي كان يوم الاثنين، لنتوقف عن المراوغة وتذكر أنك مدين لي لأني أخفيت آثارك وإلا لتمَّ إعدامك أمام الجميع.

صمت لثوانٍ وسأل:

– وهل سرقت أنت أيضا؟

فأجبته:

– لا حاجةَ لي في سرقة شيء لن أتمكن من إنفاقه يومًا، والذهب لا يهمني في شيء.

فقال بصوت خوفه:

– لقد فاجأتني يا عزيز، وكيف يمكنني الوثوق بك وأنت تملك كل هذا القدر من الدهاء والمكر، أليس من حقي أن أشك في أنك أيضا أحد رجال السرخفية؟

ابتسمتُ وأعجبتني ابتسامتي الواثقة أمام هذا الجرذ المرتعب، وحقيقةً كنت أكثر منه رعبًا، واصطنعت نبرة صوت واثقه وقلت له:

– خلصنا من أحمد شيخة وأعدك بأني لم أرَ ولم أسمع شيئا.

ردَّدتُ ما قاله حيان:

– "في هذا المخيم كلنا خراف نسير إلى الذبح ولا أحد يأبه بما نفكر أو نخطط مادمنا داخل الحظيرة"

سألني:

– ولِمَ أغضبك أحمد لترغب في قتله؟

فأخبرته أن هذا الأبله يحمل في جيبه ذهبًا ولسانه لا يتوقف عن الثرثرة ويقضي أغلب وقته مع عبيد فاطمة وخدمها، ولابد أن أحدهم سيخبرها وهي ستخبر جودت.

تركته في حيرة وانصرفت وبالرغم من أني استمتعت كثيرا بالشخصية الحازمة التي ارتديتها إلا أنها لم تخفِ قصر قامتي وخوفي، ثم لُمت نفسي على كشف أوراقي بهذه الطريقة، والعبث مع أمثال جمال الدين لا تُحمد عُقباه.

لم تمض عدة ساعات وناداني وصافحني وشدَّ على كفي حتى لامستني قطع الذهب، وسألته:

- هل هي عشر قطع؟

ضحك ورمقني بنظرة خبيثة وقال:

- هي تسعة فقط، تعلَّم العد جيدا.

وسحب يده ومعها الذهب الذي أخفاه سريعا في جيبه وقال:

- سأحرص أنا عليه هذه المرة، وأنت حذِّر حبيبتك عشيقة السعدان كي تكون أكثر حرصا عندما توزع الذهب.

ظللتُ صامتًا فسألني:

- كم أخفى الشيخ طبرق من الذهب في خيمته؟

فاجأني الحقير واستعاد المبادرة، أعلم جيدا أنه ليس غبيا ويجيد المراقبة والتحليل والاستنتاج ولم يجد صعوبة في الكشف عن مصدر الذهب، تظاهرت باللامبالاة وأجبته:

- أخذك للقطع من أحمد لا ينهي المشكلة ومن مصلحتنا جميعا أن نتعاون حتى لا نثير جلبة.

رد علي ساخرا:

- دعك من هذا العربي فأنا خبير بمن هم على شاكلته وقتله حاليا لن ينفعنا في شيء، والآن عليك بإيجاد طريقة للحصول على كمية أكبر من الذهب.

على الرغم ممَّا حدث إلا أن اللعين يشعر بأنه مازال قادرًا على التحكم بي، لم أعلق على قوله، وتركته وشعرتُ بالقليل من الراحة لأنه لم يطاوعني في قتل أحمد، ولكني لم أشعر بتلك الراحة عندما جنَّ الليل، وانتابني قلق شديد.

إن محاولتي لإخفاء حقيقة تسبب في كشف الكثير من الأسرار وعلى رأسها سر الكعب وما يخفيه، ولا أشك في أن هذا اللعين سيجد طريقة ليستغل ما عرفه وإن شعر الكعب أنى قد استغفلته كل هذا الوقت لن يتردد في ذبحي.

وصل شكيب اللعين بعد غروب الشمس، فما يكاد يختفي ظله حتى يظهر من جديد ولا ينقص إلا أن يحتل إحدى الخيام ويتربع فوق صدورنا، ولم أتوقف عن خدمته وخدمة رجاله لساعات، قهوة، طعام وماء، ويبدو أن الأحزان قد تلاشت وعاد الضحك والهرج وكأن يعقوبا ما كان له وجود.

استرقت سمع الكثير مما دار بينهم من حديث، ولم أكن الوحيد الذي أرخى أذنيه هذه المرة؛ فقد زحف الملط اللعين على بطنه والتصق خلف الخيمة وبالرغم من أنى كشفت وجوده منذ اللحظة الأولى إلا أني تغافلتُ عنه، وأيقنت أن فاطمة قد أرسلته ليتجسس على رفاقها، لا أحد يكترث بما تفعله الخراف أمثالنا ولكن الذئاب حريصة على مراقبة بعضها البعض، ومما دار بينهم من حديث لن يسر سيدة الملط؛ حيث قال جودت:

- ستثبت الأيام للباشا أن فاطمة ليست أهلاً لكل هذه الثقة التي منحها إياها.

رد عليه شكيب:

- الآن ليس مناسبًا لإثارة أي خلاف معها، اصبر حتى ننهي هذه المهمة وعندها لكل حادث حديث.

علق جودت:

- ستثبتُ الأيام صحة كل ما قاله يعقوب.

- ولماذا لم تخبر الباشا؟

– لقد كان في عجلة من أمره ولم يمنحني فرصة الحديث، وثار غضبه لمجرد محاولتي شرح خزعبلات الشيخ، فكيف لو ذكرت اسم حبيبته فاطمة!

– مرَّ الكثير ولم يبقَ إلا القليل فلا داعي لتتوتر وتوتر الأجواء.

وتابع ساخرا:

– والآن أخبرني أين ستقضي عطلة عيد الأضحى؟

فرد عليه:

– سأذهب إلى فرنسا بصحبة الشيخ طبرق.

وضحك الاثنان، ثم سأل شكيب إن كان ينقصه شيء ليرسله مع كاظم، فقال جودت:

– إن أمكنك أن توفر السجائر والقليل من الحلويات من أجل العيد.

مر أكثر من دقيقة من الصمت قبل أن ينطق شكيب ويقول:

– أصدقني القول، ما الذي تتوقع حدوثه بعد الانتهاء من مهمتنا؟

في حزن يقول جودت:

– رحمة الله على يعقوب، ولا أعتقد أن الباشا يوافقه الرأي.

– عزيزي جودت نحن عسكريون ونؤمن أن لكل حرب ثمن، ويعقوب كان مجرد منفذ لأوامر الباشا.

– أعلم ذلك ولكني سأتحدث معه، وسأحاول أن أعدله عن قراره.

ولما خارت همتي عن إرخاء أذني أكثر من ذلك ابتعدت بعدما فهمت أن شكيب يحرص على صيام يوم عرفة خلاف جودت الذي لا يؤمن بشيء، ولم أكن بحاجة لأجتهد حتى أفهم أن الحديث كان بشأن إعدام الجميع، وأنها أوامر الباشا نفسه، وسرني أن جودت يعارض ذلك.

الأحداث تتابع مُتسارعة حتى أنها فاضت من عيني، وليس لدي من أثق به أكثر من حيان لأفرغ له بعض حمولتي، ذهبت إليه وكان نائمًا فأيقظته وخرج لقضاء حاجته واستلقيت

على فراشه قليلا في انتظار عودته، ويبدو أن النعاس قد غلبني وحينما فتحتُ عيني كانت الشمس قد أشرقت ووجدت أن حيان تركني نائما وألقى عليَّ لحافه الذي تفوح منه رائحة العرق وعدة روائح كريهة أخرى.

طلعتْ شمس الثلاثاء، ولم أتشاءم مثل كل مرة؛ فالثلاثاء الماضي مات يعقوب، وكان أسعد أيام حياتي، والذي سبقه وجدت كنزا بالرغم من احتمالية خسارتي جرة ذهب، واليوم ربما يقتل أحدهم جمال الدين أو شكيب، وهكذا سيتحول الثلاثاء إلى يوم سعد أبدي؛ قال أحد الباشوات في حضور روهان:

– "إن أيام النحس بعد زمن تتحول إلى أيام حظ، وما علينا إلا أن نعرف متى يكون التحول".

وعلق روهان:

– "الحظ والنحس مسميان نَصِف فيهما النجاح والفشل ولن تنفع كل تعويذات العالم لتجعل من رجلٍ سلطانًا مادامت أمه لم تضاجع آل عثمان...الحظ لن يأخذ فاشلاً إلى القمة، والنحس لن يهوي بناجح إلى الهاوية، والقرارات التي نتخذها في حياتنا تأخذنا إلى نجاح أو فشل."

وبالرغم من إيماني الأعمى بكل ما يقوله روهان إلا أنى أؤمن أن يوم الثلاثاء هذا لا علاقة له بقرار أتخذه، وها هو يتحول إلى يوم سعد، وأمي تزوجت طباخًا وأنجبتني لأكون أغنى أغنياء العالم، قراراتي ستساعدني على سرقة الذهب لأحقق هذا الهدف...بدأت بإنجاز مهامي وسألت نفسي ماذا سيحمل لي هذا اليوم من مفاجآت! لم يعد الوقت يمر سريعًا بل تثاقل ووجدت نفسي مجبرا على مراقبة نيروز التي يجب أن أجد طريقة ما تمنعها من توزيع ذهب كعب الحذاء على الخدم والحمالين.

أعددت الشاي وعدت إلى حيان لنحتسيه سويًا فلم أجده، وذهبتُ للبحث عنه فلمحته شرق المخيم بالقرب من الأشجار قد اختلى بنيروز في حالةٍ من الانسجام، واختبأت خلف شجرة وراقبتهما وأقسمت اليمين إذا لمسها لأخبرن الكعب حتى لو أدى ذلك إلى قتلهما معا، ومرتْ

عشر دقائق من المراقبة ولم يحدث شيء وحينما انضمت لهما رباب اطمأن قلبي، وباغتني سالم من الخلف ليخبرني بالذهاب إلى جودت أفندي، ولم يكن بالأمر المهم، هذا الناعم يشعر بالوحدة دائما ولا يجد غيري ليستأنس به وعاجلا سيصيبني بالملل، قضيتُ في خيمته أكثر من ثلاث ساعات متواصلة بين تنظيف وحديث ممل جدا، وحقيقةً زادت الأمور عن حدها وما عدت قادرًا على احتمال الهوس الذي أصابه بعد موت الخنزير.

ومن خيمته بدأت أسمع صوت غريب لم أسمعه من قبل:

– هوهو هوهو هي هي هي هي يا يا ايا وا وا وا.

هذا صوت طبيلة هل جُن هو الآخر فوق جنونه! واستأذنت جودت وأسرعت لأطمئن عليه، اتبعت الصوت ووصلت إلى حيث يجتمع الماء المتدفق من النبعة عبر الصخور قبل أن يشق طريقه إلى نهر الأردن، ويبدو أني لست الوحيد الذي شده الصوت، اقتربتُ وكان طبيلة يجلس عاريا لا يرتدي إلا ما ستر عورته ومن حوله الحسناوتان نيروز ورباب، واحدة تفركه بالصابون والأخرى تصب الماء على رأسه وهو يردد:

– هو هو هو هي هي هي يا يا يا.

كانت هذه طريقته في الضحك ليعلن عن سعادته، تجمع أغلب أهل المخيم يراقبون المحظوظ السعيد وهو يحصل على حمامه الأول بعد موت سلامة، كم حسدته وتمنيت أن أكون مكانه في تلك اللحظات! وما كنت لأمانع أن أردد "هو هي ها" مثله، انتشر رذاذ الماء الذي يحمل معه السعادة، أصابنا وضحكنا جميعا وشاركنا الحسناواتين بمتعة غسل العملاق، هذا الطبيلة استطاع بضحكه العجيب أن ينشر الفرحة والسعادة وينسي الجميع الموت المتربص بهم وأشك في أن ينسى أحدنا تلك اللحظات التي تساوي أكثر من جرة ذهب.

تساءلت كيف استطاعت هذه المصرية اللعينة أن تقنع الفيل بالاستحمام ولم ينجح أحدنا بفعلها، وتذكرت ما قاله عبد القادر يوما: "إن الحيوانات تشتم رائحة الحب وتطيع من يحبها...كنت في غاية السرور ومع هذا لم يرق لي أن تسيطر المصرية على فيلي فأنا من

اعتني به وأطعمه وانتظرت اللحظات القادمة حيث سأشمت بها وبخاصة أن معظم ملابس العملاق قد تمزقت وقلت سرًا:

- والآن أيتها البارعة هل ستتركينه عاريا بعد هذا الحمام المنعش؟!

وما كانت لتتركني لأشمت؛ فهذه المصرية أعدت كل شيء سلفا، يبدو أنها خاطت له ملابسًا تلائم حجمه، لا أدري كيف فعلتها هل جمعت عدة بدلات عسكرية وقامت بتوسيعها، أشهد أنها كانت ساحرة بارعة، طلبت منا أن نساعده في ارتدائها، كنا نساعد طبيلة في ارتداء ملابسه ومن بعيد أشار أحد خدم فاطمة إليها فركضتْ إلى خيمتها.

لم تمضِ عشرُ دقائق حتى عادتْ وبدا على ملامحها الارتياح، وأخذت تراقب طبيلة وتدور حوله وتغمز بعينيها:

- (ما شاء الله عريس بجد!)

أخرجت من جيبها ربطة عنق ولفتها حول رقبته الغليظة فتدلَّتْ فوق صدره الضخم، وضحك الجميع وشعرت بأنها تعمدت أن تفعل ذلك سخريةً مني، فلا يرتدي ربطة عنق غيري، وهكذا سأتميز أنا وطبيلة بربطة العنق، لعنة الله عليها! أفسدتْ سعادتي في يوم الثلاثاء هذا.

غربت الشمس وأضاء نصف القمر المخيم، وودعت الثلاثاء دون حدث يُذكر، ونمتُ مطمئن النفس، ثم كان صباح الأربعاء 28 من تشرين الأول الموافق 8 من ذي الحجة عام 1332هـ، ومرَّ اليومُ هادئًا لا جديد فيه حتى غربت الشمس، وقبل انتصاف الليل تعاون الجميع في إعداد الطعام وإشعال نار تجمع حولها أغلب سكان المخيم، وتناولوا الطعام وعقدوا نية صوم يوم عرفة، وهي المرة الأولى التي يجتمع فيها كل هذا العدد حول النار، ليلة باردة ولم تدفئنا النار بقدر شعورنا بالسعادة، لم أنتوي الصوم ولكني انضممت لهم مثل غيري، وانضمَّت نيروز وتضاحكت كثيرا، والتهم طبيلة من الطعام ما يكفي عشرة، وأثق بأنه الوحيد الذي سيصوم حتى يفيق من نومه، وانفض الجمع.

طلعت شمس يوم جميل، بدأته بتحضير طعام الكعب ولم أبصق فيه، حملته وفي طريقي إليه أقسمت لو أخبرني بأنه صائم لأبصقنَّ في وجهه مباشرة، وكفاني الله شر القتال؛

فقد التقفه والتهمه وشاركته نيروز، وتركتهما لأعد قهوة جودت أفندي مثل كل يوم فهذا الناعم صاحب شخصية ثابتة لن يزوره الإيمان فجأة ليصوم يوم عرفة.

هدوء يوم عرفة أصابني بالملل فلا يوجد شيء لأفعله، ويبدو أن الصائمين قد عزموا منذ الأمس على إطالة فترة نومهم لتجاوز ساعات الصوم، أيقظت طبيلة من نومه وحشوت معدته بالطعام وأكلت معه وأكملنا معًا صيام هذا اليوم وعند الغروب كان الجو باردا فأشعلنا نارًا، وتعاون الجميع في إعداد وليمة الإفطار.

انقضت ساعات الليل واجتمع في الأرض عيدان؛ يوم الجمعة، ويوم عيد الأضحى، وكانت صلاة فجر الجمعة والعيد وأمّ المصلين جمالُ الدين، بارك الله فيه، نعم التقي الورع هذا اللعين! وعلت أصوات التكبير والتهليل، ومع ارتفاع الشمس قدر رمح عاد جمال الدين ليؤم المصلين في صلاة العيد، وأمر الكعب بنحر جملين إحياءً للسنة في يوم النحر، واجتمع حشد كبير ليشهد النحر، ثم غمرتنا السعادة حول وليمة واحدة، ولم يفكر أحد في صلاة جمعة أو ظهر، وجلس طبيلة الوسيم النظيف المعطر صاحب البدلة العسكرية، وساهم الكل في إطعامه، وكان يوما لن أنساه ما حييت، وجاءت المفاجأة من فاطمة هذه المرة، فقد أرسلت مع الملط الكثير من الحلويات، "وكل عام وأنتم بخير أيها الأحبة انعموا بهذا العيد جيدًا قبل أن يتم ذبحكم جميعا! لا يجوز لأحد أن ينسى هذه اللفتة الجميلة، ما ألطفهم وأروعهم هؤلاء الكبار يدللون الخراف قبل ذبحها! مما دفعني لأفكر أن أقترح على جودت توزيع عدد من جرار الذهب على سكان المخيم ليفرح قلبهم قليلا ويدفعهم للاسترخاء قبل أن ينحرهم الكعب ويرقص الـ"قاقا باقا"، ثم يعود ويجمعها بعد ذبحهم، ماذا سيخسر إن تركهم يفرحون قليلا!

ومع غروب شمس العيد انطلقت فاطمة وجماعتها وأخذت معها أبا إيليا، أمَّا جودت فقد استعد للانطلاق برفقة الكعب وكاظم فقط واصطحباني معهم ولم يكن هناك نية لدفن الذهب، وقبل خروجنا من المخيم رماني بنظرة فيها الكثير من الحب وقال:

– عد يا عزيز واستمتع بما تبقى من العيد ونم مبكرا.

عدتُ إلى النار وشعرتُ بأجواء عيد حقيقية ذكرتني بأيام طفولتي في بورصة عندما كنا نشعل نارًا ونجتمع حولها إلى بزوغ الشمس حتى لا تهرب منَّا لحظة واحدة من العيد، أعادنا العيد إلى إنسانيتنا وانشغلنا بعيدًا عن التفكير في طمع الدنيا ودوَّامة الذهب.

انتهى عيدنا، وعدت بالقيام بمهامي المعتادة وقبل الظهيرة جاءني أحد خدم فاطمة الذي اعتاد أن يلعب مع أحمد شيخة وأخبرني بأن جودت يريدني سريعًا، ولمَّا دخلت خيمته كان برفقته شكيب ورجل آخر لم أره من قبل، وطلب أن أعد لهم الطعام وقبل أن أسأله عن نوع الطعام الذي يريده قال:

– اذبح الخروف الذي أخفيته عن الشيخ طبرق حتى لا يأكله.

ضحك الثلاثة، وخرجت وطلبت من سالم أن يأتيني بالخروف الذي أخفيناه قبل أيام، ولم يكن ذبحه بالأمر الصعب مقارنة بالبعير؛ تعاونا سويًا على ذبحه بعدما قيدناه بعدة حبال وغطينا رأسه بالخيش حتى لا نعذبه برؤية السكين، ولكن سالم –بغبائه– ذبحه ألف مرة، حرصنا على السرية، ويبدو أن رائحة الدماء جذبت إلينا جمال الدين وأحمد، ودعوت الله ألا يشتم الكعب رائحة الدم ولم يُستجب لدعائي، فسرعان ما وصل قبل أن نبدأ في تقطيعه، وسأل:

– من أين جاء هذا الخروف؟

فرد عليه سالم:

– من السما.

لم ينتبه لرد سالم وقال آمرًا:

– خذ كبد الخروف لنيروز بعد أن تنتهي من تقطيعه.

فأجبته:

– لقد طلبه جودت.

هز رأسه وقال:

– إذًا خذ منه شيئا لها.

ابتعد وسألني جمال عن الضيوف ولم يكن هناك شيئا لأخبره وأنقذت ما يمكن إنقاذه من الكبد بعيدًا عن يدي جمال وأحمد شيخة، وبالرغم من شكي في أن نيروز تخونني والكعب مع حيان إلا أني أعددتُ لها طبقا فاخرا لم ينقصه إلا أن أقوم بتزيينه ببعض حبات الزيتون وذهبت لجلبها من المؤن، وعدت سريعا لأجد جمال الدين قد حمله وذهب به إلى خيمة المسخ.

كدت أموت غيظًا ولم يكن هناك ما أفعله سوى مضغ القهر الذي شعرت بطعمه في فمي، ومراقبه جمال الدين الذي دخل الخيمة ولم يخرج، قدمت الطعام لشكيب ولضيفهم متوسط القامة، أسمر البشرة ملتحٍ، فيه الكثير من ملامح الأكراد وكان اسمه عديد وما ميزه أنه لا يتوقف عن الابتسام، ويرتدي ملابس مثل العامة، وبتواضع شديد وقف وساعدني في حمل الطعام لأفسح مكانا على الطاولة، وبعد ذلك قال لي بنبرة صوت دافئة تبعث على الراحة:

- (شكرا يا خوي).

ربما قالها بالعربية لظنه أني عربي، أمرني جودت بالجلوس خارج الخيمة، وأرخيت أذني، وكان حديثهم حول العديد من المقربين إلي جمال باشا، والعديد من نوادره في بغداد، وكان ضيفهم خفيف الظل، ومن النكات التي ضحكوا عليها كثيرا، قال عديد:

- (سألني الباشا هل تعتقد يا عديد أني أستطيع إقناع العراقيين بأني عربي؟ فقلت له هذا سهل يا باشا ولكن هل ستستطيع بعدها إقناع السلطان أنك تركي!)

وتابع عديد:

- (سألني الباشا هل سيحبني أهل العراق بعد أن أقنعهم بأني عربي؟ فقلت له سيقنعونك أنهم أتراكا ليكرهوك.)

وتابع عديد:

- (بعد أن ترك الباشا العراق بعام سألني مازحا: هل حزن العراقيون على فراقي، فقلت له: لقد دعوا الله أن يشبهك مَنْ سيأتي بعدك ويغادر بسرعة قبل أن يسقط الثلج مرة أخرى على بغداد.)

لم يتوقف عديد عن إلقاء النكات حول الباشا حتى أني ضحكت على بعضها، وهنا سأل جودت:

- أخبرني يا عديد هل اقتنعوا فعلا أنك عراقي؟

فأجابه عديد:

- ولكني عراقي.

ضحك جودت وقال:

- اعتقدت أنك تركي.

فرد عليه عديد:

- وأنا أيضا كنت أعتقد ذلك حتى أقنعني الباشا بأني عراقي.

ضحكا معا وانتقلا للحديث حول القافلة والمُخطط القادم وضرورة الإسراع بتنفيذه؛ لأن بقية القوافل قد أنهت مهمتها وعادت، ويعني حديثهم –وقد أكون مخطئا– أن هناك عدة قوافل غيرنا خبَّأتْ بعض الأسرار.

نادى عليَّ جودت وكانا قد انتهيا من تناول الطعام وتركا خلفهما الكثير، وهذا يعني أن طبيلة وسالم سينعمان بالكثير من لحم الخروف، فقد ملَّ المسكينين لحم الإبل، طلب مني جودتْ أن آخذ ما تبقَّى من طعام للرجال ، وتقدم عديد في تواضع شديد وحمل معي وقال:

- (يلا أنا بساعدك يخوي).

وخرج أمامي وسار في اتجاه معاكس لسيري وحاولت أن أعيده إلى الطريق التي توصلني إلى خيم المؤن، وسرعان ما تبين أنه يعرف طريقه وأن قصده غير ما قصدت، تفاجئت من وجود قافلة جديدة تضم أكثر من ثلاثين جملاً والكثير من البغال والحمير وبرفقتها خمسة أشخاص لا أعرف زمن وصولهم؛ فاتساع رقعة المخيم لا تسمح بمعرفة كل ما يدور عند أطرافه، قدمنا الطعام للغرباء وبالرغم أن عديد قد تناول طعامه مع الباشوات إلا أنه تربع بجوارهم وشاركهم، لم يأكل لقيمات وعاد ليحدثني بالعربية وقال:

– (أخوي عزيز) لو تكرمت علينا بإعداد القليل من القهوة للشباب أو احضر لي القليل من البن وانا ساعدها لهم وان كان بالإمكان أن تأتي لهم بالسجائر.

احترام عديد يدفع الصخر ليحبه ويحترمه ولكني لست أحمقا لأهدر السجائر على هؤلاء الغرباء وهي سلاحي الوحيد الذي لن أسمح لأحد أن يجردني منه، عدنا معا إلى خيمة الباشوات وأخبرت جودت بنقص السجائر وأعطاني أكثر من ثلاثين علبة كان يحتفظ بها في أحد صناديقه المغلقة، هذا الأحمق حرص على المؤن أكثر من حرصه على الذهب!

خرجت وطلبت من أحمد إعداد القهوة واقتربت من طبيلة الذي كان يغط في نوم عميق وصوت شخيره ملأ المخيم، ركلته بقدمي عدة مرات حتى أفاق وأشرت له أن يتبعني، حمّلته وعاء القهوة وتوجهت إلى القافلة الجديدة وحينما وصلت أمرت طبيلة أن يضع الحَلَّة على الأرض وأشرت لأحدهم أن يأخذها ويوزع على البقية وكان قصدي أن يفهموا بأني سيد ولست خادمًا لأحد، ووقوف العملاق إلى جانبي ببدلته العسكرية الجديدة زاد من هيبتي؛ فهم لم يروا في حياتهم جنديًا بهذا الحجم.

دبَّ الرعب في قلوبهم وأحنوا رؤوسهم احتراما لي ولحارسي، ويبدو أن هؤلاء الغرباء قد تركوا خلفهم الكثير من الأرز واللحم، وكان لابد من استعراض قدرات حارسي الشخصي الخارقة على ابتلاع الطعام لعلهم يفهموا أن إشارة مني ستدفعه ليلتهمهم أيضًا، وما كان العملاق بحاجة لإشارة مني ليهجم على بقايا الطعام، وأسعدني ذلك؛ فلن أنشغل اليوم في التفكير بتوفير طعامه، وانشغلت بتفحص وجوههم وحمولة القافلة المغطاة التي مازالت فوق الدواب، وهذا يدل على أنها لن تتوقف طويلاً.

أنبأتني ملامحهم أن أحدهم كردي، وآخر عربي، أمَّا البقية فهم أقرب إلى (البلطيق)، ووجوههم جميعًا كانت تدل على وفاق، شرب الغرباء قهوتهم ودعوت أن تكون سمًّا في بطونهم، ولم يتبق أمام طبيلة ما يلتهمه سوى صدور التُّوتِياءُ، دعوتُ له بالصحة والعافية ومزيدا من الضخامة، وفاجأني الغرباء بأن بدؤوا نصب خيمة، ولم تمر دقائق حتى اقترب الملط وسألهم:

– ماذا تفعلون هنا؟

ونعومة صوته وطريقة سيره المتخنثة جعلتهم يسخرون منه، استفزه ذلك وأخذ يرقص بكتفيه ويعزف على الهواء بأصابعه ناظرًا إليَّ فقلت:

- إنهم ينصبون خيامهم.

وقال:

- من هم ومن سمح لهم بنصب خيامهم بجوارنا؟

كان بإمكاني أن أخبره بأن جودت وشكيب على علم بالأمر ولكني فضلت الاستمتاع بشجار، فأوحيتُ له بعيني ويدي أنى أجهل ما يحدث، فقال لي:

- قل لهم أن يذهبوا من هنا وإلاااااا؟

لم يكن هناك حاجة لأترجم إلى العربية ما قاله بالتركية، فأحدهم يفهمها وضحكوا من جديد وسألوه:

- (والا ماذاااااا يا عسل؟)

غضب الملط وقال:

- سترون وإلا ماذااا.

وعاد من حيث أتى يسير على أطراف أصابعه حتى لا يغبر حذاءه الناعم، وتوقعت أن يعود برفقة الزنجي ليوسعهم ضربا ويكون الجواب على "وإلا ماذا"، ولكنه عاد برفقة فاطمة، ونظراتها الملتهبة سبقتها إليهم، شتمتهم ولوَّحت بيديها لينتقلوا إلى مكان آخر، تجاهلوها وانشغلوا بتفحص جسدها، وأخذت تضرب الأرض بقدميها في طريقها إلى خيمة جودت، وخلفها يسير الملط على رؤوس أصابعه، وأنا أتبعه وطبيلة من خلفي، كان مشهدا عفْويًّا مضحكا، ولجتْ داخل الخيمة ونحن من خلفها، وطبيلة حجب النور ووقف شكيب لاستقبالها وتجاهلته، وأخذت تلقي أوامرها على الجميع، وهزَّ شكيب رأسه ووعدها بأنه سيبعدهم وامتعض جودت وصمت، وابتسم عديد وبادلته الابتسامة وعادت من حيث أتت، ولاحظ جودت الابتسامات المتبادلة بين فاطمة وعديد، وسأله:

- هل تعرفها؟

ونطق عديد بالعربية ساخرا :

- (حصة مين هاي الفرس)

ضحك شكيب وقال:

- (غض بصرك هاي حصة الكبير.)

هز عديد رأسه وقال:

- أكيد أكيد ومن يستطيع ترويض مثل هذه الفرس الجموح غير الباشا!

ضحك الجميع وانتبه جودت لوجودي أنا وطبيلة في وسطهم فصرخ بي:

- ماذا تفعل أنت وهذا هنا؟

وأشار إلى طبيلة:

- هيا اذهب واصحب الشباب لينصبوا خيامهم بعيدا عن فاطمة.

وقبل خروجي رافقني عديد ليوصيهم بذلك، وفي الطريق أخذ يتفحص طبيلة ويسأل:

- لمن هذا العملاق وكيف تطعمونه؟

فأجبته إنه لي، وأذبح له كل يوم بعيرًا ليشبع فقال:

- ما شاء الله ما شاء الله.

وصلنا وطلب ممن يرافق القافلة أن يحملوا ما تم إنزاله ويتبعوه، وأمسك جملاً وقاده لتتبعه بقيه الجِمال وسرت أمامه وتبعني واستقبلتنا عيون الجميع بفضول، ولمَّا اقتربنا من الرقعة التي يجب أن يخيموا فيها طلب الكعب أن نبحث عن مكان آخر ليبتعدوا عن خيمته وفعلنا، وسألني عديد ساخرا:

- ومن هذا السعدان؟

أجبته:

- هذا ملك ملوك الجان طبرق.

هزَّ رأسه وقال:

- (الله يحفظنا فيل وملك جان، شو في عندكو كمان يا عزيز؟)

اللهجة التي تحدث بها كانت مزيجا من عدة لهجات عربية، وكان يتجاهلني إن حدثته بالتركية متظاهرا بأنه لا يتحدثها بالرغم من أنه لم يتحدث غيرها مع شكيب وجودت.

لم ينصبوا إلا خيمة واحدة كبيرة، وكان عديد يساعدهم في كل شيء ولا يأنف من ذلك، وكان مُهذبًا للغاية، لم يطلب مني أو من أحدهم شيئا إلا وسبقه بكلمات "أخوي"، "لو سمحت"، "شكرا لك".

أشعل النار بنفسه وأعدَّ الشاي ووزعه على الجميع وكأنه خادمهم، ولم ينساني وطبيلة، وشكر طبيلة على مساعدته في إنزال الحمولة فلم يرد عليه ورددتُ بدلاً منه وابتسم...ما تحمله قافلتهم من أسرار مُختفية لم تثر فضولي بقدر هذا الرجل المتواضع الذي ينادي عليه رفاقه باسم الحج نعيم، وجودت وشكيب يخاطبانه باسم عديد، ونظرات فاطمة وابتسامتها دلَّت على أنه يعرفها، والذي لم ينتبه له جودت أنه حينما سأله "هل تعرفها؟" تهرب من السؤال بسؤال ولم يجب.

أمضيت معهم عدة ساعات زودتهم بكمية كبيرة من المؤن كما طلب مني، وفي طريق عودتي اعترضني الكعب واتبع طرقًا ملتوية ليسألني عنهم دون أن يكشف جهله بما يدور حوله فضحكت سرًا وودت لو استطعت أن أصفعه وأقول له:

- أنت يا طبرق عار على الـ"قاقا باقا" والكل يستخف بأمرك لهذا لا يستشيرك أحد فيما يحدث.

لم يكن هناك ما أخبره به فأنا لا أعرف من هم ولكني أخبرته بأن جودت أوصاني بتوفير كل ما يحتاجونه فتظاهر بأنه لا يهتم وسألني:

- أين نيروز هل رأيتها؟

عليه اللعنة! تجاوزت الساعة التاسعة مساء ونامت العصافير ويسألني إن كنت رأيتها! وأنا كنت معتمدا عليه ليراقبها، لا أشك في أنها برفقة حيان إن لم تكن نائمة في أحضانه، ولأني رغبتُ في أن أثير داخله القليل من الغيرة قلت له:

- ربما هي برفقه جمال الدين.

ورده على ما قلت كان هزيلا فاترا يخلو من حرارة الرجال؛ قال:

- جمال الدين كان برفقتي وهي ليست معه.

امتعضت من سؤاله وجوابه وقلت سرًا:

- لقد سرقوا نيروز من تحت شاربك.

ثم انتبهت ألا شارب له، وقلتُ:

- لابد أنها تجول بين الخيام.

وانطلقنا للبحث عن أنثانا ولم يطل الأمر حتى أطلت قادمة فأخذها الكعب وعاد بها إلى عش الغرام، وقررت أن أضع النقاط على الحروف مهما كلفني الأمر، وهذه المرة لن أسمح لحيان أن يتمادى ويتعدى على ما يخصني فذهبت إليه واقتحمت خيمته ولاحظ أني مستاء وسأل عن سر تبرمي فأجبته:

- أريد منك أن تبتعد عن نيروز.

ابتسم وقال:

- وبمَ يزعجك هذا؟

فأجبته:

- هي صغيرة جدا وليس من اللائق أن تلاحقها.

ضحك وقال:

أعتقد أنها تكبرك بعام يا عزيز وأنت لست صغيرًا.

- ولكنها طفلة بريئة.

الحقير وجد متعه في استفزازي وقال:

- سأفكر في الأمر، وإن أقنعتني بسبب آخر سأبتعد عنها فقلت:

- إنها متزوجة من الشيخ طبرق أتحتاج سببا أقوى من هذا؟

ضحك مجددا وقال:

- إن كانت متزوجة فإن الله أحلَّ الطلاق يا عزيز.

- أرجوك يا حيان ابتعد عنها.

فقال ساخرا:

- أعطني سببا وجيها وسأبتعد عنها.

خجلت أن أخبره بأني أعشقها، ولا أتخيل أن تكون مع أحد غيري وقلت له:

- أنت لا تعرف قصتها؟

كان وقحًا في قوله:

- أعرف قصتها كاملةً.

- لا يعرف قصتها غيري.

- أعرف أن عائلتها قد تم سرقتهم وقتلهم أمام عينيها وهي في الرابعة عشرة.

- هذا جزء من القصة فقط.

- وأعرف أيضا أن طبرق قتل اللصوص الثلاثة وأنقذها قبل أن يعتدوا عليها ومنذ ذلك اليوم وهو يعتني بها.

فاجأني فسألته:

- هل أخبرتك بذلك؟

- لا لم تفعل.

أغمضتُ عيني واستعرضت ذاكرتي ولم أجد إلا أنها باحت بسرها لرباب التي أخبرته، فقلت:

- القصة ليست كاملة.

- إن قصدتَ الجان وما تعتقده عن طبرق فهذا أيضا أعرفه.

- إذًا أنتم جميعا لا تعرفون القصة الحقيقية.

فضحك وقال:

- بما أنك الوحيد الذي يعرف كل شيء هيا أخبرني القصة.

فضحكت وقلت:

- وهل تعلم أنها تعشق طبرق إلى حد الجنون؟

فقال ساخرا:

- الكل يعرف ذلك يا عزيز.

- ولكن لا أحد يعرف، ولا تعرف هي أيضًا أنها تعشق الرجل الذي ذبح أهلها أمام عينيها.

أربكته وأخرجته من غروره واستحوذت على انتباهه وسأل:

- وكيف تعرف ذلك؟

سخرت وقلت:

- لقد علمني روهان بيك أن كل قصة تخفي بين ثناياها قصةً أخرى ولو كنا نجيد الإصغاء لعلمنا أن الأسرار تختبئ بين التفاصيل، وتحتاج إلى الأسئلة المناسبة لتكشف عنها، ونيروز روت القصة بعيني طفلة عمرها أربعة عشر عاما، جلست مرعوبة تراقب وتشاهد ذبح

عائلتها وممارسة طقوس السحر الأسود، وشق صدورهم وانتزاع قلوبهم، وما روته أن مجموعة من اللصوص اقتحموا بيتها وأمسك كل واحد منهم بأحد أفراد عائلتها، وذبحوهم في اللحظة نفسها، هذه القصة مليئة بأسئلة تعجز طفلة عن إجابتها فلا يمكنها في أجواء الرعب والصدمة تحديد عدد اللصوص أو وصفهم، وبما أن عدد أفراد عائلتها كان أربعة يمكننا أن نرجح أن الذين اقتحموا بيتها أربعة على الأقل، وعدد الذين قتلهم طبرق عندما حاولوا الاعتداء عليها كان ثلاثة، فأين اختفى الرابع إن كانوا أربعة فقط؟ وكيف ظهر طبرق فجأة لينقذها؟ هناك جوابان لهذا السؤال، الأول؛ أنه فعلا من أمراء الجان وظهر من العدم، والثاني أنه الرابع، وبإمكانك أن تختار بين الهراء والمنطق والكثير من التفاصيل التي اختبأت بين السطور دلت أن نيروز كانت صغيرة والصدمة شلَّت قدرتها على التفكير ووجدت في طبرق الملاك المنقذ والمنتقم، ودفعها انهيار عالمها بكامله لتتعلق به وكما قال روهان يوما: "لكل شخص وجهان ملاك وشيطان وما نراه يتأثر حسب علاقتنا به والشيطان الذي يشعرنا بالأمان سيتحول إلى ملاك" وطبرق أراد أن يستحوذ على هذه الصغيرة لنفسه لهذا قتل رفاقه وزرع في عقلها أوهام إنقاذه لها وحينما رأى أن هناك من يرى قباحته جمالا، وشره خيرا تعلق بها وحاول أن يعوضها عن كل شيء، ولعله يعلم أنه بدونها لن يكون سوى مسخ لعين.

وللمرة الأولى منذ عرفت حيان أبدى إعجابه بي وقال:

– صدق روهان! أنت أكثر الحمقى ذكاء، والآن أخبرني أيها العبقري كيف يمكن أن نخبرها بهذه الحقيقة لننقذها من هذا الوحش؟

– ابتعد عنها فقط، نيروز لم يتبقَ لها سوى الأوهام لتعيش، وطبرق الوحيد الذي يحبها ويحميها ولن يؤذيها يومًا.

– الآن عدت تتكلم كالحمقى، مثل هذا المسخ لا يمكن أن يكون خيرا لها يوما.

– في مثل هذه القافلة تحتاج لمن هو مثله، وبدونه سيتم دفنها حية، ابتعد أنت عنها، وستكون بخير.

– لا علاقة بيننا، وكل هذا يدور في خيالك المريض يا عزيز.

– لست الوحيد الذي يشك في علاقة تجمعكما، الجميع يتحدث، وإن بلغ آذان طبرق شيئًا لن يرحمك.

ضحك وقال:

– الجميع يتحدث عن عشقك ولعك أنت بها، وربما يجب أن تحذر أن يصل خبر لطبرق بدلاً من تحذيري.

أجبته على الفور:

– طبرق لا يقيم وزنًا لتصرفاتي، وأنا في نظره مجرد أبله لا أكثر، أرجوك ابتعد عنها.

– ماذا أفعل حتى أخرج هذه الأوهام من رأسك؟ وهل كلما تحدثت معي يجب عليَّ طردها.

– تحدث معها، ولكن تجنَّب أن تجالسها بعيدا عن الأعين.

ضحك وقال:

– أعدك كلما جاءتني سأدعوك لتكون محرما بيننا.

تركته يضحك وعدت إلى خيمتي، وأقسمت أن أنتقم منه إن لم ينفذْ ما طلبت، عدت لأبحث عن تفسيرٍ للعلاقة المُبهمة بين جمال الدين والكعب، ولم أجد منطقا.

أشرقت شمس الأحد، وأوصيت سالمًا أن ينوب عني في عمل الصباح كي أبدأ يومي باستكشاف أسرار قافلة عديد، فأعددت طنجرة كبيرة من القهوة وبعض التمر وملأت جيوبي بالحلويات لأكافئ الثرثارين من رجاله، ولمَّا بلغتُ الرقعة التي خيموا فيها لم أجد لهم أثرا، ولم يثر ذلك استغرابي بقدر رؤيتي لجمال الدين والكعب وقد انزويا تحت شجرة في هذه الساعة المبكرة، وما نمت أفكر فيه أمس وجدته في انتظاري صباحا!

جرة ذهب

فوزي عبده

عدة كلمات على حسابك الخاص عن الرواية تساوي توقيعك عليها

أرى أن احتمالية تآمر الاثنين عليَّ بعدما فضح أمري جمال الدين للكعب أكثر منطقا من أن يكون الكعب حكيما وقرر أن يبقي عدوه تحت ناظريه...حملت القهوة وتوجهت إليهما، وتظاهرت أني أعددتها من أجلهما، وقدمت لهما التمر ومازحني جمال:

– شكرًا مولاي السلطان على كرمك.

أما الكعب فليس معتادا على احترام أحد ليشكره ولو كان مازحًا، كنت أمام أربعة عيون ممتلئة خبثًا ومكرًا ولم تخلُ من بعض المودة والكثير من الانسجام، لم يكن هناك داعيا لأفكر في أن أكون مهذبا وأتركهم لحديثهم الخاص، فقد طردني الكعب اللعين ولم يسمح لي بالجلوس، تركتهم ولم أتردد لحظة في التوجه مباشرة إلى خيمته لأطمئن على حبيبتي، فوجدتها نائمة مثل ملاك، الجزء الأكبر من جسدها مكشوفا وعلى كتفيها آثار خدوش، وقفت أتأملها وأستنشق رائحة الصباح من خلال جسدها، وتركت ظهر كفي تلامس فخذيها، لقد تعلمت من تجاربي السابقة فكنتً حريصًا هذه المرة على أكون هادئًا حتى لا تستيقظ وأحرم عيني من الاغتسال بما يظهر من مفاتنها، لم أقاوم الرغبة في معاودة التلذذ فتأوهتْ وفتحت عينيها الناعستين وانفرجت شفتاها عن ابتسامة وقالت في دلال:

– عزيز.

ثم عادت وأغمضت عينيها فأمسكت اللحاف لأتظاهر بأن اقترابي منها لتغطيتها في هذا الصباح البارد، وعادت وفتحت عينيها من جديد وقالت:

– صباح الخير عزيز.

وقلت:

– صباح الخير

وسرًا:

– صباح الخير حبيبتي.

وقالت:

– عد ونظف الخيمة لاحقا يا عزيز.

وأغمضتْ عينيها ونامت، هذه البلهاء اعتقدت أني جئت لأنظف خيمتها، وقبل خروجي لمحت شيئا يتحرك بجوار فراشها، ودبت القشعريرة في جسدي وكدت أتجمد مكاني، إلا أن خوفي بعث الحياة في جسدي وخرجت أصرخ بأعلى صوتي:

– أفعى! أفعى!

هرع الكعب ومن خلفه جمال الدين إلى صوت استغاثتي، وأشرت بيدي إلى فراش نيروز، ولم يتردد الكعب لحظة قبل دفعه الأفعى بقدمه بعيدا، وقتلها جمال، واستيقظت نيروز ولم تفهم ما يدور حولها، وتمنيت لو أني دفعتُ الأفعى لأكون مُنقذها من الموت، وبعد أقل من دقيقة عدلت عن أمنيتي وحمدت الله أني لم أفعلها، جلس الكعب الشجاع على الأرض واسترخى، وأشار إلى أحد سراويل نيروز الملقاة بزاوية الخيمة فناولته إياه وطلب أن أقرب له قربة الماء وأجلب قطعة قماش نظيفة وفعلت، ورفع سرواله وشد السروال على ساقه وبدأ في هدوء ينظف المكان الذي لدغته فيه الأفعى، كم تمنيت لو أن اليوم كان الثلاثاء؛ يوم النوائب! وحينما أخرج خنجره تركت جمال الدين ومعه جمال نيروز الصباحي، وأدرت ظهري لأبتعد كثيرًا حتى لو اضطررت لعبور النهر، ولم أهرب لأن الكعب يريد بي شرا بل لأن لدغة الأفعى تحتاج إلى جرح ومتطوع ليمتص السم قبل أن ينتشر في الجسد، ولو لم أهرب فمَنْ غيري سيمتص السم من قدم الكعب القذرة! تركت هذا الأمر لجمال الدين الشهم، ولابد أنه حاليا ركع على ركبتيه واحتضن ساق الكعب وبدأ في تقبيل قدمه ومص السم والدماء النجسة، وأنا اختبأت خلف إحدى الخيام أراقب خيمة الكعب، وأتساءل عن احتمالية موت الذي لم يترك كهفا أو جحرا إلا ودخله، وسار في ظلمة الليالي بين الصخور والحفر ولم تلدغه بعوضة، وفي فراش عشيقته الناعم تلدغه أفعى! اقشعرَّ بدني عندما تخيلت أن هذه الأفعى لدغتني بدلاً من الكعب، وعزمتُ على توخي الحذر في المرة القادمة التي ألامس فيها جسد نعناعتي وهي نائمة.

جمال الدين يخرج من الخيمة وخلفه نيروز يتحدثان قليلا ويتركها ويذهب، ولغة جسدهما لا تنبئ بأن الكعب قد مات، حملتُ بعض الطعام وعدت إليهم ووجدت الكعب مستلقيا مكانه،

حزينا كئيبا وهموم العالم اجتمعت فوق رأسه، لم يسألني أين ذهبت ووفر علي الحرج، تركت الطعام وخرجت، فلحقتْ بي نيروز وقالت:

– (الله يستر يا عزيز، الأفعى كانت سامة والحمد لله ان جمال الدين كان موجودا)

وشرعت في البكاء –كعادتها– وعلمت أن الوقت مبكر على معرفة نجاة الكعب من موته، ولكن من المؤكد أن جمال أمسى بعينيها بطلا، وأي ظلم أكثر من هذا! أنا الذي اكتشف الأفعى وأنا من أنقذها بصراخه، والحقير يحصد كل الفضل لنفسه!

ومع الظهيرة عاد عديد ورجاله ونصبوا خيمتهم مرة أخرى، واجتمع مع جودت وأعددت لهم القهوة وانضمت لهم فاطمة، وأشغلني الملط بثرثرته ولم يتسنى لي الاستماع لشيء مما دار بينهم من حديث، ولكن حينما خرجت فاطمة أوحتْ ملامحها ومشيتها بعدم الرضا.

لم تمر ساعة حتى أطل الملط ومن خلفه خدم يجرون أربعة من البغال المحملة، وتم تسليمها لعديد، فاستنتجت أنه يقوم بالدفن وإخفاء الكنوز، ويبدو أن فاطمة لم يرق لها ذلك، وما كانت لترضخ لجودت أو لغيره، لولا أن هناك أوامر وصلت من الباشا الكبير...راقبت الجميع حتى مللت، وذهبت أبحث عن جديد حتى غربت الشمس، والكعب لم يخرج من خيمته.

القمر بدر هذه الليلة ولا يبدو أننا سنخرج لدفن جرار الذهب، ولم أجد ما أفعله سوى جولتي التي اعتدت القيام بها بين الحين والآخر لأتلصص وأسترق السمع عبر الشقوق، هذه العادة اللعينة التي لم أقلع عنها يوما كادت تقتلني بعدما اشتبه في أمري يعقوب أسكن الله أفعى في قبره.

خادمي المتمرد سالم مازال يحفر الأرض ويخرج ما أخفاه من قطع ذهبية ليطمئن على وجودها ثم يدفنها، ولا أدري كم مرة يفعل ذلك في اليوم الواحد! أحمد شيخة في خيمة خدم فاطمة يقص عليهم الأكاذيب، وأحدهم يقوم بدور المترجم لمن لا يفهم العربية، وحيان في خيمته يترقب...لابد أنه ينتظر زيارة سرية غرامية، ونيروز مشغولة في لدغة الكعب، وأشك في أنها الشخص الذي ينتظره، وسأعود لاحقا لأرى ضيف حيان المُنتظر...اقتربت من خيمة أبي إيليا

ومن فتحة صغيرة رأيته وجمال الدين يتهامسان، وبين أيديهما مفكرة صغيرة يرسم أبو إيليا عليها ويراقبه جمال باهتمام شديد، وعلمت أن اللعين قد فكر فيما فكرتُ فيه، وها هو يحصل على الرموز والإشارت التي نقشها أبو إيليا، لم أقلق كثيرا على كنوز فاطمة، ولكنه رافقنا لعدة أماكن لدفن الذهب، لم يكن من اليسر أن أسمع ما يدور من همس، ولكن نظراتهما إلى الفتى النائم أخبرتني بأن الصفقة بينهما لها علاقة بالرموز وإيليا، ربما أوهمه جمال بأنه قادر على مساعدته مقابل المعلومات التي بحوزته.

انتهى الاجتماع وتسلل جمال عائدا إلى خيمته، تُرى ماذا يخطط وكيف؟! عزمت على إنهاء تلصصي ولكن فضولي اللعين حثني على المغامرة قليلا والاقتراب من خيمة رباب، لعلي أحظى برؤيتها عارية! وبالرغم من خوفي من الوقوع بين يدي الزنجي حارس خيمة فاطمة التي لا تبتعد عن خيمة رباب تسللت وبحثت عن شق، وخاب أملي لعدم تواجدها، وقبل عودتي أردتُ التلصص قليلا على الملط، لعلي أكشف بعض الأسرار! وما كان من السهل التلصص على متلصص، فقد بحثت عن شق أو ثقب صغير يسمح لي بإلقاء نظرة فلم أفلح، وحينما استدرت لأعود وجدته واقفًا خلفي مراقبًا فارتعبت قليلا ولمَّا ضحك اطمأن قلبي، وقال:

- لن تجد في خيمتي ثقبا صغيرا يمكِّنك من النظر، تعال معي.

سار وسرت خلفه، وما كنت لأجرؤ على رفض ذلك، دخل الخيمة ودخلت خلفه وبهرني ما رأيت، هذه الخيمة تليق بسلطان وليس بخادم، فيها مقاعد فاخرة وفراش ملكي ناعم، والكثير من التحف الثمينة وملابس حريرية، وأحذية ثمينة، وسلاسل ذهبية وفضية، ومشروبات مصفوفة بزاوية، أوراق وأقلام ومخطوطات، سيوف، وخناجر وبندقية مُذهَّبة، وزجاجات فارغة وأخرى مملوءة بمواد سائلة متعددة الألوان، وأفاعٍ محنطة وعقارب وخفافيش وغربان وأجنة بشرية، والكثير من الأواني الفخارية، وتساءلت إن كانت هذه خيمة الخادم فكيف تكون خيمة فاطمة! قدم لي شرابا أخضر اللون لم أذق أشهى منه في حياتي فأردت المزيد ولكنه ابتسم وقال:

- لا هذا يكفي أريدك يقظا يا حبي.

وكان للملط ما أراد، لا أعرف إن فقدت رشدي بسبب الشراب، أم أني رغبتُ أن يحدث ما فعلتُه به!

شعرت بالنعاس وأردت أن أغفو على فراشه الوثير الناعم، إلا أنه صرخ:

– ماذا تفعل؟ هيا عُد إلى خيمتك ونم فيها.

طردني بطريقة حقيرة –لعنة الله عليه– بعدما جرني لفعل شائن سأخجل منه طوال عمري، شعرت بالقرف منه ومن نفسي، ماذا وضع لي في الشراب ليجرني لمثل هذا الفعل المشين!

عدتُ إلى فراشي وحاولت النوم بعدما أقنعت نفسي بأن كل ما حدث كان من أثر الشراب، لم تغفو عيناي حتى شعرت بيد باردة تلامس وجهي، فتحت عيناي ورأيت شبحًا أسودًا ينحني فوقي ويحاول خنقي، تجمد الدم في عروقي وأخذت اقرأ ما استطعت من آيات لعله يتركني! ولكنه بدأ يصفعني على وجهي قائلا:

– تعال معي.

أغمضت عيني وأيقنت أنه ملك الموت جاء ليعاقبني على ما فعلته مع الملط، أمسك بأذني وشدها، وشعرت بألم شديد، فتحت عيني ورأيت الكعب، لابد أنه مات وجاء شبحه لينتقم مني، فالأشباح تعرف كل الأسرار، وعدت لأقرأ المعوذتين لعله يبتعد! ولكنه شد أذني حتى شعرت أنه سيخلعها، وطار النوم من عيني ومعه الشبح، ولم يبقَ سوى الكعب اللعين ينظر إلي ويقول:

– أنا مريض يا عزيز وأحتاج إلى طعام .

فقلت له:

– سأعد لك الطعام توًا.

– أحتاج قلبًا أو كبدًا.

– اذبح بعيرًا وسأعد لك من الطعام ما تشتهيه نفسك.

– اذهب وأحضر الولد العربي أحمد وسأنتظرك بجوار الدواب.

فقلت له لعله يعدل عن رأيه:

– أحمد شيخة ينام مع خدم فاطمة، وهناك زنجي حارس، ولكن ما رأيك أن آتي لك بجمال الدين لتأكله وتُشفى من مرضك؟

– هيا اذهب وأحضر لي الولد، ستجده نائمًا في خيمته، أسرع قبل أن تشرق الشمس.

خرج من الخيمة وتأكدت بأني لست حالمًا، والخيارات أمامي محدودة، إما أن أطعمه قلب أحمد شيخة أو سيأكل قلبي لاحقا، وماذا كان بوسعي أن أفعل! ذهبت إلى أحمد وأيقظته ولم يكن الأمر سهلاً، وما حملته معي من سجائر تكفل بإقناعه فرافقني وهو نصف نائم وربما اعتقد أنه يسير في حلم، اقتربنا من الدواب ودخلنا بين الأشجار، وبدأتْ السماء في الاحمرار، وأسرع من التفاتتي فتح شيخة فمه ليتثاءب فظهر الكعب من خلفه وأغلق فمه بيده وعالجه بطعنة في خاصرته أسقطته أرضا وشلت حركته، لم يسعَ المسخ لقتله وإنما أراد أن يشل حركته ليتمكن من شق صدره وإخراج قلبه وهو مازال ينبض بالحياة، كان ذلك أمام ناظري ولم أشعر بشيء، لا خوف! لا حزن! لا شفقة! لا قرف! لا شيء! تبلدت أحاسيسي! قضم من قلبه قضمة واحدة ، وأخرج لسانه ليلحس ما سال على ذقنه وشفتيه من دماء.

طلب عودتي سريعًا لأجمع كل ما له علاقة بأحمد، وأُحضر فأسا ومجرفة، لم أفهم لماذا أراد إثبات محاولة هربه! هذا المسخ لو قتلنا جميعا لن يعترض أحد، ربما اعترض جودت وقال له "لا تفعلها مرة أخرى يا شيخ طبرق" وكان سيرد عليه "انت شوف شغلك وانا بشوف شغلي".

اللعنة عليهم جميعا! لم يبقَ في قافلتنا إلا أنا وسالم، على من سيتغذى لاحقا؟! ربما سأقنعه أن ينتقل إلى قافلة فاطمة، حفرتُ ودفنتُ أحمد مع كل مقتنياته، وكانت الشمس قد أشرقت.

الخنزير تركني وذهب بعدما أعطاني ما تبقى من قلب أحمد لأطهوه، أفاق سالم وتفاجأ أني استيقظتُ قبله، وساعدني في إشعال النار، وحينما بدأت قلي قلب شيخة مع القليل من البصل فاحت الرائحة، وسال لعاب سالم وحاول أن يمد يده لتذوقه فمنعته من ذلك، وسألني إن كنت قد بصقت كعادتي لهذا أمنعه، وكنا قد تعاهدنا ألا يبصق أحدنا في طعام الآخر أو شرابه، صمت ولم أجد جوابا للسبب الذي دفعني لمنعه من تذوق قلب صديقه، ربما حبي له، ربما وجدت أن بساطة سالم لا يجوز أن تتلوث بأكل قلوب البشر...ربما خفت أن ترافقني هذه اللحظة كلما رأيته... وبالرغم من أن هذه اللحظة لا تذكر مقارنة بما شهدته من شق صدر أحمد وإخراج قلبه إلا أنه لم يرافقني سوى اللحظة التي حاول فيها سالم تذوق القلب.

مع شروق الشمس ناولتُ الكعب طعامه الشهي بعدما طهوته كما يحب مع الكثير من البصل، وشرع في التهامه بمتعة غريبة، وليت الأمور توقفت عند هذا الحد بل مد يده إلى نيروز وجذبها من ساقها وهو يقول:

- ناره ناره، أفيقي وكلي معي.

أفاقت الكسولة وجلست بجانبه ورمت رأسها على كتفه، وأخذ يطعمها بيده، كانت عيناها نصف مغمضة ولم تنتبه لوجودي، وجلست أراقب، لم أتقزز، ومرت لحظات قبل أن أعود لطبيعتي وأترك العنان لخيالي:

- ماذا سيحدث لو أخبرتها الآن بأنها تأكل قلب الشخص الذي أشفقتْ عليه فأعطته الذهب ليشتري طعاما لإخوته؟!

وسألتها سرًا:

- نيروز هل طعم أحمد شيخة لذيذ؟ هل يحتاج إلى المزيد من الملح ؟هل نضج جيدًا؟! كلي أيتها اللعينة أنت وقردك هذا، ولا تحلما جميعا أن تتذوقا لحمي! سأطهوكما وأطعمكما للكلاب، وأقسم إن ذُبح جمال الدين لن أمانع من تذوقه ولو بغير طهو.

أغمضتْ عينيها ونامت على كتفه ومازالتْ تلوك بقايا القلب في فمها، وأشفقت عليها، ما ذنبها لألعنها معهم! إنها ملاك ينام في أحضان شيطان! أنا المذنب الأول فيما حدث، واختيار

أحمد شيخة لم يكن اعتباطيًا، بل نتيجة التقارب بين المسخ وجمال الدين، التفكير الساذج الذي اتبعته أتى بعكس ما أردت.

تركت العاشقين يلتهمان أحمد وذهبت لجمال الدين، أيقظته من نومه وباغته بسؤال:

- لماذا أخبرت طبرق عن أحمد شيخة وتسببت في قتله؟

فقال:

- وبم يضرك ذلك؟ ألم تقل مُسبقًا أن مصلحتنا في التخلص منه؟
- وهل تعرف أن صديقك الخنزير يتناوله الآن على الإفطار؟!

فرك عينيه ويبدو أنه لم يفهم ما قلته، وقال:

- يتناول معه الإفطار! ألم يقتله؟

وشر البلية ما يضحك فقلت له:

- أحمد شيخة بنفسه هو إفطار الشيخ طبرق، وأنا طهوته بعدما ذبحه.

تقزز جمال الدين وقال:

- هل جئت لتمارس لعبة البلاهة معي؟
- أمازحك فقط، لا أحد يأكل لحم بشر، فقط أردت إبلاغك بموت أحمد.
- وما الفارق في موته الآن أو بعد أيام؟ أنت تعلم أن الجميع سيموت في هذه القافلة.
- الأعمار بيد الله يا جمال الدين.
- آمنت بالله.

أشعل سيجارة وتابع:

– أعقلها وتوكل يا عزيز، وتوقف عن ممارسة دور الأبله معي وأعدك أن تصبح أثرى أثرياء إسطنبول.

استفزني ما قال وسخرت منه بشفتي وعضلات وجهي، وقلت له:

– لا حاجة لي في الثراء أنا راضٍ بما كتبه الله لي.

عض على شفته السفلى وقال:

– هل ترغب أن أهمس باسمك في أذن كاظم لتلحق بأحمد شيخة؟

وأسرع من صدى كلماته أجبته:

– وهل ترغب أن أهمس في أذن جودت عمًّا فقده من ذهب؟

فقال:

– نعم أرغب في ذلك، هيا افعلها، ولكن في أي خيمة سيجدون الذهب المفقود؟

هذا اللعين حسم الأمر وأثبت أنه يفوقني دهاء ومكرًا، وأعادني لأرى قصر قامتي وانعدام خبرتي في عالم المتآمرين، هذا الماكر احتاط لكل شيء وليس من المستبعد أنه قام بدفن الذهب في مكان ليورطني في سرقته، وكما قال روهان يوما "بعض الأبواب تتطلب أن ننحني لندخلها" فصمتُّ، وأعلم أنه سيرى في صمتي هزيمة، وارتسمت ابتسامة النصر على شفتيه القذرة وقال:

– والآن يا صديقي أرى أنك اخترت الثراء والعيش في قصور بدلاً من زيارة معسكر شكيب والتعرف على المدرسة التي تعلَّم فيها يعقوب.

أحنيت رأسي والتزمت الصمت، فتابع:

– الشيخ طبرق على قناعة بأنك مجرد أبله لذا أريد منك أن تستمر في أداء هذا الدور وقد رسمت خطة فيها نجاتي ونجاتك.

ولم يكن أمامي خيارًا إلا مسايرة هذا الحقير فسألته:

– وما أدراني أنك لن تقتلني لاحقا؟

فأجابني:

– أقسم لك بشرفي أني لن أفعل إن عاهدتني ألا تخونني.

ضحكت وقلت سرًا:

– أقسم بشرفك يا جمال الدين ألا أخونك!

واستحضرت قصةً رواها روهان بيك حيث قال: إن السلطان جمع وزراءه وطلب منهم أن يقسموا بشرفهم ألا يخونوه، وأقسموا جميعا، وحينما طلب من مستشاره أن يفعل المثل قال أقسم بشرفك وشرفهم ألا أخونك يا مولانا...أقسمت لجمال الدين بشرفه وشرفي ألا أخونه، فابتسم وطلب مني أن أذهبَ وأعدَّ قهوته، وأحنيتُ رأسي وقلتُ بصوتٍ خافت:

– سمعًا وطاعةً يا سيدي الجديد، وسأتبول على قبرك قريبا.

حديثنا أكَّد لي أن جمال الدين استغل قصة شيخة والذهب، واستطاع أن يمدَّ جسرًا بينه وبين الكعب الذي أكل قلب أحمد لإخفاء سِرِّ الذهب في خيمته، وغبائي والقصص التي اختلقتُها ساعدتْ على أن يرى الكعب في جمال حليفًا له، وقبلة جمال والأفعى لقدم الكعب عززت الثقة بين الماكرين، ليدركا أن مصلحتهما في التعاون لا الخصام، وكلُّ الشكر لعزيز أفندي الذي مهَّد لكل هذا، وجاء بسيد جديد فوق رأسه...لا أعرف ماذا حدث مع نيروز، هل عاقبها الكعب على أخذ الذهب دون علمه، أم أنه وفَّر على نفسه عناء مسح دموعها طوال الليل واكتفى بتحذيرها وتجاهل الأمر.

ومع العاشرة صباحًا حضر كاظم كعادته وتفقَّد الجميع فاكتشف غياب أحمد شيخة، وسألني عنه فأخبرته أن يذهب إلى الشيخ طبرق ويسأله ففعل، دقيقة دار بينهما حديث وانتهى كلُّ شيء، الكعب لديه تصريح بقتل من يشاء متى شاء، الجميع افتقد أحمد وسأل عن سرِّ غيابه: هل هرب؟ هل قُتل؟ لا جواب، ولا أحمد شيخة بعد اليوم.

انزوى جمال الدين بكاظم ودار بينهما حديث لا أعلمه، فكاظم مسؤوله المباشر قبل يعقوب وبعده، وهو صلة الوصل مع شكيب، كما اجتمع كاظم مع جودت لأكثر من ساعة، وقد أعددتُ القهوة وقدمتها ولم أتمكن من سماع حرف واحد، فذهبت إلى جمال وأعلم جيدا أنه

سيكذب فيما سيقول، ولكن أملتُ في فهم شيء، أخبرني بألا أقلق لأن كاظم وشكيب لا يهتمان بأحد سوى حيان ومراقبته، أما البقية فلا يكترثان بما يفعلون.

وبعد العصر اجتمع شكيب وجودت وشربا القهوة، وجزء ممَّا دار بينهما من حديث كان حول نقل الفتى خارج المخيم إرضاء لوالده الذي أعلن تمرده على الخروج للنقش قبل نقل ابنه للعلاج، وطلب جودت أفندي من شكيب أن ينقل الفتى للعلاج رحمة بوالده، ولكنه اعترض بحجة انعدام المكان الذي يأخذه إليه، وأن وجوده بجوار أبيه أفضل من نقله، وأمام إلحاح جودت وافق أن يجد حلا، ونبرة صوته كانت توحي بحل من نوع آخر، وأستطيع الجزم أن جودت بريء مما قد يحدث للفتى.

نادى عليّ وطلب مني إخبار أبي إيليا أن يعد ابنه ليصحبه رجال شكيب للمشفى، وغمرته الفرحة لمَّا أخبرته، ولأتأكد من صحة توقعي في استغلال جمال الدين له كي يحصل على الرموز مقابل مساعدة ابنه، قلت له وفاجأته بالسؤال:

– لقد أوفى جمال الدين بوعده أليس كذلك؟

فردَّ عليَّ في غمرة فرحته وقال:

– نعم لقد أوفى بوعده ولن أنسى له هذا الجميل أبدا.

لم يكن هناك شيئًا لأفعله سوى مساعدته في تجهيز ابنه وإرساله إلى موته المؤكد، فمثل شكيب لن يهدر وقته، ولن يترك الفتى ينجو وهو يحمل معه مفاتيح ورموز كُلِّ الدفائن، وذهب إيليا وإن عاد أحمد شيخة يومًا سيعود.

كان سالم المستفيد الوحيد بعد جمال الدين من مغادرة الفتى الذي حرص والده على إعطائه الناي الخاص به كعربون وفاء لمساعدته واعتنائه بابنه، وأخيرًا حصل على ما هو أغلى من الذهب الذي دفنه، ولم يتوقف عن النفخ وعزف الألحان الحزينة والمفرحة...هذا السالم الأبله يفاجئني دوما.

وضعفت الشمس أمام وحدة الغيوم الرقيقة، وآثرتْ أن تحتجب عنا خلف الجبال، وخلبت معها ناظري جودت أفندي فراقب غروبها وربما كتب قصيدة ما في دفتر أشعاره ويومياته، وليتني

لم أكن سانتورا لأخبره بأن مقاهي باريس التي تغنَّى بها لن تجعل منه شاعرًا! لو قرأتُ له بعض ما كتبه روهان بيك في باريس ونبيذها لثمل على إيقاع كلماته ومزق أوراقه واحتسى قهوته في صمت.

أخذنا أهبة الاستعداد لرحلة الدفن المعتادة، وحملنا ما استطعنا من ذهب، وانطلقنا، وترك جودت غرابيه الأسودين ليحرسا الخيمة في غيابه...اصطحابي طبيلة يرهقني بطعامه وشرابه وقضاء حاجته فرغبت في اصطحاب سالم ليكون لي عونًا وتسلية، ولكن المثقف رفض طلبي، وأبو إيليا الذي كنت استأنس بوجوده كان من نصيب فاطمة في هذه الليلة.

وصلنا حدود المخيم ورافقنا كاظم للمرة الأولى، ويبدو أن جودت رغب في اصطحابه لغاية ما في رأسه المرتاب من كل شيء...لا يمتلك سانتور حرية التعبير، ولكني قلتُ سرًا:

- رحمة الله عليك يا كاظم، ستكون ضمن قائمة الذين تشرفوا برؤية قبور الذهب، وسيدفعك وسواس الثراء لتحلم بجرة أو اثنتين، ورجال الباشا كرماء؛ لن يبخلوا عليك بقبر يليق بمكانتك ورتبتك العسكرية.

وجاء دور الكعب ليمارس لُعبةَ الاستفزاز باختيار الطرق الوعرة وتكبد عناء السير لساعات طويلة، وهذه المرة لم يتذمر جودت بل جاراه في لعبته وسار خلفه كالولد المطيع، ولعل اصطحابه كاظم قد منحه القوة والشعور بالأمان!

وصلنا موقع الدفن الأول وانطلق عبدا السخرة؛ أنا وطبيلة، ومن بقي غيرنا ليحفر ويدفن! وقام الكعب بطقوس الـ"قاقا باقا" أمام صمت جودت وذهول كاظم الذي يشاهد المسرحية الهزلية للمرة الأولى...البريق الذي أطل من عينيه، ومسحة الخوف التي برزت مع تجاعيد جبينه يدلان على أنه من أهل الخرافات، ومن موقع إلى آخر قمنا بدفن كل الجرار، ونقش جودت نفسه الرموز هذه المرة، وكان يكتفي بنقش سهم أو صليب أو تقاطع وعدة نقاط لا تشير إلى شيء يُفهم، رحمة الله على إيليا الصغير كان مبدعا في نقشه، كان يأسر أسماعنا قبل أعيننا مع إيقاع تنميقه، كما كان يطربنا ويهيج أحزاننا مع ألحان نايه، لعله بألحانه الشجية كان ينوح علينا قبل أن يزفّنا هؤلاء الوحوش فرادى إلى الذبح!

عدنا إلى المخيم وكانت شمس الاثنين قد أشرقت، وأيقظت سالمًا وكلفته بمهامي وذهبت للنوم، ولم أستيقظ إلا على صوت رصاص على مقربة من خيمتي، فغمرت رأسي في لحافي والتزمت فراشي، لقد تعلمت جيدا عندما يتحدث الرصاص يتوجب عليَّ أنا عزيز أفندي أن أنحني في صمت وأغلق عيني ولا أفتحهما حتى يأتي من يقتلني أو يطمئنني بأن كل شيء على ما يرام؛ كنتُ نعامةً حقًا ولم أتقمص دورها حتى جاءني سالم وأخبرني أن جودت هو من أطلق النار فسألته:

- ومَنْ قتل البطل الناعم؟

فقال:

- (والله ما بعرف طخ في خيمته وما شفت).

خرجت من الخيمة بطلاً بعدما اطمئن قلبي، وظننتُ أن أحدهم دخل خيمة الذهب سارقًا وقتله الأفندي، وتأملت خيرا وخاب أملي حين رأيت جمال الدين يعتلي عرشي ويحتسي القهوة، ولمَّا لمحني قال ساخرًا:

- مولانا السلطان عزيز أفاق من نومه.

فجاريته قائلاً:

- نعم مولاك أفاق من نومه وسيهبك علبة سجائر إن انحنيت له.

ضحك جمال، وقال:

- سمعا وطاعة لمولانا، ولكن هذه المرة أحضر لي علبتين ولا داعي لأن أهدم مملكتك لأجد المكان الذي تخبئها فيه.

استفزني تهديده وبعفوية قلت له:

- أنا ملتزم بما اتفقنا عليه، ولكن أقسم بالله العلي العظيم إن حاولت أن تستولي على سجائري سأقتلك ولا يهمني إن قتلتني بعدها.

فضحك بأعلى صوته، وقال:

- لا لن أجرد مولانا من سلاحه الذي يُخضع به رقاب العباد، سأكتفي بما تجود عليّ به، ولكن كن كريما معي يا مولانا.

عاد الهدوء إلى نفسي وبالرغم من حقارة هذا التركي إلا أنه كان خفيف الظل أحيانا، يجيد معاملتي عندما أكون غاضبا...سألته عن سر الرصاص فأخبرني أن المخيم انقلب رأسا على عقب بعد سماع دوي الرصاص، وفي النهاية تبين أن جودت أطلق النار في خيمته، ربما كان يتدرب!

ولمّا طلب مني جمال أن أخبره بأحداث الأمس، قدمت له تقريرا مفصلا عن مواقع دفن الجرار كما اتفقنا مُسبقًا، ولو كتب الله له النجاة وذهب للبحث عنها فلن يجد سوى الصخور وبعض الحجارة، لست أحمقا لأعرض ذهبي للخطر، وعندما أخبرته بأن كاظم رافقنا وشاهد مواقع دفن الذهب، علق قائلا:

- رحمة الله عليك يا كاظم فمن يقترب من الذهب سيدفن بجواره.

لم يرق لي قوله الذي يشير إلى نهايتي فألقيت له ما أراد، وتجاوزت الغرابين ودخلت خيمة جودت، وكان جالسًا على أحد المقاعد مُلقيًا رأسه على الطاولة، يبدو أنه غفى ومازال ممسكا مسدسه، وخرجت مسرعا فلا أريده أن يصحو فجأة ويطلق النار بلا وعي، هذا الرجل ما عاد إلى طبيعته بعد مقتل يعقوب، لم يكن هناك داعٍ لأطعم الغرابين فقد كلفت سالمًا أن يترك الطعام بعيدا عنهما ويشير بيده ويفر هاربًا، ونسيتُ أن أوصيه أن يبصق فيه، وسأفعل لاحقا.

مرت ساعات مملة قبل أن يرسل جودت في طلبي، فأعددت كل ما يحتاجه وحينما بدأت تنظيف خيمته شاهدتُ ثقوبا والكثير من الغبار المتطاير فأدركتُ أنه أطلق النار على فراشه القطني المريح، ربما شبح ما تجاوز الحارسين واستراح على فراشه الناعم مما دفعه لإطلاق النار عليه وقتله، ولعل هذا الجودت المكتئب عزم على قتل نفسه، وعندما أفاق من نومه وقف وتخيل أنه مازال نائمًا وأطلق النار على ظله! أشك في أنه استخدم سلاحًا من قبل، وكل ما أدركه الآن أنه يتوجب عليَّ أن أكون أكثر حذرًا عند اقترابي منه حتى يتعافى من صدمة موت يعقوب لعنهما الله جملةً واحدة.

ومع هبوب نسائم العصر ظهر عديد ورجاله فجأة، هذا الرجل يظهر ويختفي كالأشباح ولا يمكن التنبؤ بطريق حلوله أو رحيله، ورجاله غريبو الأطوار، ولكنهم بارعون، يصدعون بما يؤمرون، متناغمون في أدائهم وتحركاتهم، والأشد غرابةً منهم هذا العديد؛ عند اقترابه من خيمة جودت يتصلب الغرابان، وكأنهما أمام قائد يعرفانه جيدا ويهابانه بالرغم من أنه يفيض بالحب والتواضع والحنان، ولا تفوح منه رائحة شر؛ تراه يشبه عبد القادر في تواضعه، وسالمًا في بساطته، وأبي إيليا في هدوئه، وأحمد الكبير في ابتسامته، ونيروز في طيبة نفسها، وفاطمة في انزوائها عن الجميع؛ إن له وجوه عدة، لستُ أدري إلى أية شخصية ينتمي، وأتمنى ألا أرى فيه يومًا قسوة يعقوب، أو طغيان شكيب.

استقبلني بحفاوة، ولم أشعر أنه فعل ذلك نفاقا، أعددت لهم القهوة واحتسوها، وكانوا بمزاج رائع، وأراد جودت أن يضفي البهجة على الجلسة فطلب مني أن أذكر لعديد سبب إخفائي الطعام عن الشيخ طبرق، فقلت له:

- يأكل بعيرًا في إفطاره، وخروفًا في عشائه، ولا يأكل عندما يكون نائما.

وضحكا معًا وقال لي جودت:

- اذهب وأخبر فاطمة هانم أن جودت وضيفه عديد يرغبان في زيارتها.

تركتهما ولم أرد إخباره بأني لا أجرؤ على الاقتراب من خيمتها اللعينة لأنها تحب أن تتعرى داخلها، وإن تجرأت واقتربت لن أرى إلا زنجيها اللعين، وخطر ببالي أن أحمل علمًا أبيضًا قبل الاقتراب من حدودها لأمنع حارسها الزنجي من ضربي مثلما فعل مُسبقًا، ولكني آثرتُ ألا أقترب، ومن بعيد أخذت أنادي بأعلى صوتي:

- يا فاطمة، يا فاطمة.

ونجحت الخطة وخرجت من خيمتها، وحين رأتني شبكت أصابعها، وصرخت:

- يا ماااالت، يا كيمو، ابعدوا مجنون جودت من هنا قبل أن أقتله.

وتجاهلتني لعنة الله عليها وأمسك الملط بيدي وقال:

- تعال معي عزيز، كم أخبرتك ألا تقترب من فاطمة! فلا شيء يستفزها أكثر منك في المخيم بأسره.

وسألته:

- ولماذا أستفزها أنا؟ ماذا فعلت؟!

ابتسم وقال:

- الكل أخبرها أنك لا تتوقف عن التلصص، وبسببك (كيماني) لا ينام الليل.

- ومن هذا الـ (كيماني)؟

- حارسها الأسمر.

تبرمتُ وقلت له:

- لا أتلصص على أحد يا سيد مالت، أخبر السيد (كيماني)، وأخبرها أني جئت الساعة لأنقل لها رسالة مهمة من الباشوات، وسأكلفك بها؛ اذهب إليها وأخبرها أن جودت وضيفه يرغبان في زيارتها، ثم عد لي بالجواب.

ضحك الملط، وقال:

- اذهب وأخبرهما أن فاطمة لا تستقبل أحدًا في خيمتها.

استدرتُ وقبل أن أبتعد استوقفني وتراجع عمَّا قاله:

- عزيز أخبرهما فقط بأنها سترسل مَنْ يبلغهما حينما تستعد لاستقبالهما.

عدتُ إليهما بالجواب، ولم يمرْ الكثير من الوقت حتى اضطررت إلى الاختباء خلف الخيمة؛ حتى لا تراني فاطمة وهي قادمة، يبدو أنها لا تحب أن يدخل خيمتها غير عشاقها؛ جمال باشا وحيان لهذا حضرت بنفسها.

لم تلق التحية، وقالت:

- جودت إن أمسكت بخادمك المجنون بالقرب من خيمتي سأقتله وها أنا أحذرك للمرة الأخيرة.

تفجَّر بركان من القهقهة داخل الخيمة حتى أنَّها ضحكتْ، ولم يلتفت جودت إلى تحذيرها وقال:

- هذا الأخ عديد يا فاطمة.

ردَّت:

- أهلاً عديد.

دقائق من النفاق المُمِل حتى قالَ جودت:

- لقد قرَّرنا أن يقومَ عديد بنقل الجزء الأكبر مِمَّا تحملينه إلى الأماكن المتفق عليها.

ضحكتْ بأعلى صوتها:

- ومن أنتم لتقرروا؟!

ومن الشق الذي أراقب منه ما يدور في الخيمة لاحظت أن عديد تعمد ألاَّ تلتقي عيناه بعينيها، وكان ذكيًا ولبقًا بانسحابه حين أدركَ أنَّ شِجارًا سيقعُ بينهما، وبمنتهى التهذيب وقفَ وقَال:

- إذا سمحتما لي، يجب أن أطمئن على الرجال وسأعود إليكم سريعًا.

خرج وتركهما لشجارهما، وأنا أبعدتُ عيني عن شقِّ المراقبة حتى لا يراني عند خروجه، وعدتُ مُجددًا لألصق أذني وعيني، ولم يفتني إلا القليل...فاطمة كانت حازمة في موقفها عازمة على ألا تفعل إلا ما تراه مناسبا، وأخبرته بأنها تستقل بقيادة قافلتها، وأن لها اليد العليا فيما يخص قراراتها، وحذرته من محاولة التدخل في شئونها فهدَّد بأن يرسل إلى الباشا يعلمه بأنها ترفض التعاون معه، فقالت ساخرة:

- افعل ما يحلو لك جودي.

لا يبدو أن اسم جودي يروق، فقال وقد بدا منه الغضب:

- إذًا حان الوقت لنحسم الكثير من الأمور.

- احسم كما تشاء يا جودي.

فقال:

- وأولها أمر الملازم الفار الذي تعترضين على نقله لمعسكر شكيب.

- افعل ما يحلو لك جودي.

أسعفني الحظ بالابتعاد قبل خروجها...تركتْه وانصرفتْ والغضبُ يفورُ من عينيها، ولم أحب الدُّخولَ على جودت وهو غاضب، فذهبتُ إلى حيث خيَّم عديد ورجاله، وزودتُهم بما يحتاجونه وقضيتُ معهم أكثر من ساعة استمتعت فيها بصحبته وظرافته، تحدث بلهجةٍ عربيةٍ وترك التركيةَ التي لا يتلفظ بها سوي في خيمة جودت، وعندما هممتُ بالإنصراف طلب أن أعود إليه بعد ساعة وألا أصحب طبيلة، وعند عودتي دعاني لأشاركه وجبةَ سمك مشوي شهي، وأفرحني بلطف حديثه، ومما قال:

- لم أرغب في حضور طبيلة؛ لأن سمك البحر كله لن يشبعه.

وبعد العصر حضر شكيب وأعددت قهوته دون طلبها حتى لا تكون سببًا في ذهابي، فهو يوم الإثارة والثرثرة.

انحنيت لأقدم قهوة شكيب في أدب الخدم فأمسك بأذني مداعبا، وقال:

- هيا أخبرني: مَنْ تحبه أكثر؛ أنا أم جودت؟

وبسنتورية متقنة أجبته:

- أنا أحب جودت ولا أحبك لأنك لم تحضر لي البدلة العسكرية والبندقية التي وعدتني بها.

فضحك وقال:

- حينما يعتمد مولاك السلطان قرار تعيينك ملازما في الجيش سأحضرها لك، والآن واظب التدرب على أداء التحية العسكرية كما علمتك.

أديتُ له التحيةَ في زي سانتور وتركته يضحك على بلاهتي ولم يكن من الخطر التنصت عليهما، ولو لم أترك الخيمة ما كانا ليكترثا لوجودي، وأغلب حوارهما تعلَّق بفاطمة والحاجة لإنهاء المهمة بأسرع وقت، وتطرق جودت بحديثه إلى حيان وعلاقته المشبوهة بها، فضحك شكيب وقال:

- رحمة الله على يعقوب، كان يساوره الشك في كل شخص لا يعرفه، ولطالما يتهم الضباط بالخيانة لأتفه الأسباب، وأنت أخبرتني بنفسك أن عزيز هذا لم يسلم منه واتهمه بالتجسس.

- إذًا أخبرني عن الفائدة من رجل لا شيء يفعله سوى أنه مكبَّل بسلسلة حديدة يحجلُ بها في المخيم؟ ولماذا لا تسمح بنقله إلى معسكرك حتى ننتهي من مهمتنا؟!

- لم أظفر معها بشيء في آخر حديثٍ بشأن هذا الملازم الفار.

- وماذا حدث؟

- أخبرتها بلهجة العسكر أن ضابط الجيش يحمل أسرارًا لا محالة، ولابد من خضوع هذا الملازم لمحاكمة عسكرية لمعرفة أسباب فراره ومعاقبته، وطالبتُها بنقله بِناءً على طلب يعقوب فادَّعت أنه أهانها، وأقسمت بأن تبقيه مقيدا لحين انتهاء المهمة، وأصرَّت على عدم تركه انتقامًا لكرامتها وبرًا بقسمها.

جودت ساخرا:

- وهل تجد منطقًا في هذا؟

- المنطق الوحيد ألا تثير خلافا معها في الوقت الحالي، وألا تشغل عقل الباشا وقلبه في هذه المرحلة الحرجة من حياتنا جميعا، فالحديث يدور حول استلامه قيادة بلاد الشام

كاملة، وإن حدث سنحتاج عدة أسابيع لتنظيف المعسكرات والقضاء على مَنْ يتعقبنا، وحينها لن يعود هناك داعٍ للخوف والاختباء...اترك الباشا يكتشف حقيقتها بنفسه.

- خيانة هذه المرأة لن تتوقف عند علاقتها بحيان، قلبي يحدثني أنها ستخوننا جميعا، ماذا تعتقد في امرأة تجرأت على خيانة الباشا؟ هل ستبقي على أحد؟!

- سأجد طريقةً تخلصك منه دون إثارة أي خلاف معها، ولكي يطمئن قلبك فاعلم أن أحد عيوني بين خدمها، وعند انتهاء المهمة سآخذه بنفسي إلى الباشا ليخبره بكل شيء، ونتجنب حرج الخوض في هذا الحديث المشين.

لقد شفَّ حوارهما عن عدم امتلاكهما سلطةً تنفيذيةً تبيح لهما التصرف في الكثير من الأمور إلا بأمر مباشر من الباشا، وأن فاطمة مثل الشيخ طبرق تملك حصانة كاملة، ولا يمكن اتخاذ أي إجراء ضدهما دون الرجوع إلى الباشا.

وقبل الغروب اقترب من خيمة جودت بعض خدم فاطمة وعلى رأسهم الملط يجرون خلفهم سبعة بغال محملة، وبعد عودة الخدم فارغي اليدين ابتهج جودت كثيرا لخضوع فاطمة وتراجعها عن إصرارها وموافقتها على اقتسام كنوزها مع عديد الذي حضر واستلم البغال بنفسه، ثم عاد بها إلى خيمته، وهنا تأكدت أن هذا الرجل على قدر عالٍ من الثقة عند لجودت وجمال باشا.

ودعنا شمسُ الاثنين وانطلقنا، ورافقنا أبو إيليا هذه المرة، يبدو أن فاطمة لا تنوي الرحيل لدفن ما تحمله، أو أنها استغنت عنه، ومثل كل مرة بقي الغراب الأسود بعيدا، ولم يغب عنا سواده لاكتمال القمر، حفرتُ مع طبيلة، ونقش أبو إيليا، ومارس الكعب طقوسه، ولم يسخر منه جودت، وهذا لا يعني أنه صار مؤمنًا بهذا الهراء، وإنما التزم بأوامر الكبير عند زيارته؛ فما خفي عليَّ أن عيناه كانتا تفيضا بالكثير من التقزز.

انتصف الليل واقتربنا من فجر الثلاثاء مع وصولنا المخيم، وانقضى اليوم ولم يخطر ببالي أن جنون الثلاثاء تنحى بضع ساعات وكمن في الأربعاء، وكالعادة ملأت الجرار، ومع

غروب الشمس حملها طبيلة ورافقنا أبو إيليا وانطلقنا، وعند حدود المخيم انضم إلينا غراب قبيح، ومثل غيره لم يسمح له بالاقتراب من مواقع الدفن.

حفرنا ودفنا الجرة الأولى بجوار مجموعة من الصخور تشبه مجتمعةً رأس خنزير، ثم بلغنا أماكن عدة تفصلنا عن مخيمنا مسيرة ثلاث ساعات، ودفنا بعض الجرار، ثم تابعنا المسير إلى منطقة لا يخفي أنها من مواقع الأثر التاريخية، ولمَّا تلكأ الكعب في عبورها سأله جودت عن نيته في اتخاذها موقعًا لدفن الذهب، ولمَّا أفصح الكعب عن نيته اعترض جودت بقوة لأن المواقع الأثرية تجذب الكثير من الفضوليين.

القمر مكتمل يمكِّن ضعيفَ البصر من رؤية عملة فضية بين كومة من الأحجار، ولكن سرعان ما تتحرك غيوم داكنة لتحجبه، فيستحيل رؤية الأحجار؛ عتمة وضياء؛ لعبة صبيانية مارستها الغيوم مع القمر وأرهقت أعيننا التي لا تكاد تتكيف مع الظلام حتى تتنحى الغيوم ويغمرنا البدر بضيائه، وأمام جنون الظلمة والنور عزم جودت أن نكتفي بما دفناه من جرار ونعود إلى مخيمنا، ولكن الكعب أصر أن ندفن الجرة المتبقية معنا.

جاراه جودت على أن يكون الدفن بعيدا عن المنطقة الأثرية، وأفسحت الغيوم لبعض ضوء القمر حتى لا نتعثر، وعدنا نلهث خلف الكعب عبر طرق ضيقة تحيط بها الصخور حتى بلغنا منطقة تكثر فيها المغاور والجحور، وهناك اقترح الكعب أن ندفن آخر جرة فيها، وقبل أن يبدي جودت رأيه أشار إلى صخرتين وطلب مني الولوج بينهما وبدء الحفر، لم أشعر بالراحة لضيق المكان، أما جودت فلم يرق له الموقع، ولعله لم يرد الاعتراض ثانيةً! فانصرف باحثًا عن صخرة بعيدة تصلح لنقش الرموز، ولم يجد إلا صخرة قريبة فأمر أبا إيليا نقش الرموز فوقها.

لم يحفر طبيلة لضيق المكان، وبدأ يصدر الصوت المعهود:

- اوووووه وووووووووه.

لم ألتفت إليه، ولكني أدركت أنه يضغط على بطنه، وكانت هذه طريقته لإخباري بأنه في أَمَسِّ الحاجة للتغوط، فأشرت إليه أن يتوارى خلف الصخور، ولمَّا بلغت من الحفر

مراد الكعب دفع لي الجرة، وجاهدتُ نفسي في جرها إلى الحفرة، وبدأت أطمرها بالتراب، واقترب جودت وبدا عليه الكثير من التوتر، وكأنه أراد إخبار الكعب بأنه لا داعي لإهدار الوقت في هرائه وسخفه.

حجبت الغيوم القمر ووجه جودت، أمَّا وجه السخام الأسود فلا حاجة لتحجبه الغيوم ما دام البدر قد عجز عن إضاءته!

وفي لحظات مواراةِ الغيوم وجه البدر تبادر إلى مسامعي أصوات غريبة اعتقدتها في بادئ الأمر ضحكات طبيلة، ولكن حينما شابهت الأصوات نهيق الكعب، و"هوووع" الضبع الذي سمعته برفقة المرحوم سلامة، وصرخة مدوية لأبي إيليا من خلف الصخور، كلُّ هذه الأصوات وما صاحبها من ذكريات فزع دفعتني لأتراجع وأحشر جسدي بين الصخرتين، صراخ...رصاص...بكاء ولهاث، ارتجفت، تجمَّدت، أصاب الشلل أعضائي، وفاحت رائحة الدماء، وبِلتُ في ثيابي، لا أعرفُ كم لبثتُ بين الصخرتين؛ دقيقة، ساعة، يوم، ربما الدهر كله حتى سمعت:

- اخرج، اخرج.

هذا ما كان يأمرني به الكعب، ورفضت الخروج، صرخ شتم لعن هدَّد، ولم يزيدني إلا التصاقًا بالصخور، مدَّ يده مُحاوِلاً سحبي ولكن ضيق المكان لم يسمح لجسده الضخم بالوصول إليَّ، اختفى وعاد واختفى، ولمَّا أشرقت الشمس كان أكثر هدوءا، وطمأنني بزوال الخطر فزحفت من بين الصخرتين، وغرقتُ في بركة من دماء، وتصنمتُ جاثيًا أحملق في لونها، وعنَّفني الكعب وأمرني بالنهوض وحمل الفأس والمجرفة وأخفى كل أثر يشير إلى حفر ودفن، وحمل جودت على كتفه وسرنا لمسافه تزيد عن الثلاثة ألف متر، ومن بعيد لمحنا أحد الأحصنة التي كان برفقتنا يقف بجوار شجرة، اقتربنا منه وألقى الكعب جودت المخضب بالدماء على ظهره، وسرنا وبدأ الهدوء يعود إلى نفسي شيئًا فشيئًا، فسألته عن أبي إيليا، فقال:

- افترسه الضبع.

انتابني وجوم عدة لحظات، ثم سألته عن طبيلة، وساخرا قال:

- ربما أكلته الضباع أيضًا، لقد بحثت عنه فلم أعثر عليه، عُد للبحث عنه إن أردت.

وما كنت لأفعلها وأنا أرى بطرف عيني ما فُقد من ذراع جودت أفندي وساقه...نصف ساعة من المسير خلف الكعب كانت كافيه لأتأقلم مع بشاعة ما يحمله الحصان على ظهره، وساعة أخرى برفقة الشمس كانت كافية لتستعيد ذاكرتي الملعونة تفاصيل ما حدث بِناءً على ما التقطته أذناي، وصورته عيناي، وهذا ما حدث قبل ساعات:

جودت يحثنا على الإسراع وأنا مازلت ممسكا بالمجرفة وظهري تجاه الصخور، والكعب أمامي ينظر إلى جودت، وفي اللحظة تلك أسمع جعر ضباع، فيسحب الكعب مسدس جودت من حزامه بخفه ورشاقة، ويقفز فاتحًا ساقيه، ويتكئ بهما على الصخرة، فتبعه بصري عاليًا وقد انتصب بين الصخرتين فوقي ومازال بصره معلقٌ بجودت الذي هاجمه ضبعان؛ يقضمان ساقه اليسرى فيسقط على الأرض متكئًا على كفَّيه، وكاد يمزق حزامه باحثًا عن مسدسه الذي انتشله الكعب، يزحف محاولاً الخلاص، وبقدمه اليمنى يدفع بقوة رأس أحد الضبعين فيترك ساقه ليقضم ذراعه، فيعلو صراخ جودت:

- (ااااااااه اااااااااخ).

الكعب يراقب ولا يحرك ساكنا، وجودت يصارع الضبعين وحده، أحدهما ينسحب بعدما قضم جزءًا من ساقه، والآخر يحاول الحصول على نصيبه وجودت لا يستسلم، أنا لا أرى إلا ساقي الكعب، ولا يبدو أنه ينتوي مساعدة جودت، تنقشع الغيوم، ويطلُّ البدر، أسمع دوي رصاص من الأعلى، فيهرب الضبع الثاني، وجودت يضغط على ذراعه ويتأوه، ولا يبدو أنه أدرك ما حدث لساقه، الكعب يقف فوق رأسه ولا يمد له يد المساعدة، وأبو إيليا يعرج نحونا، وساقه تسيل دمًا، ويردد:

- الحمد لله، الحمد لله.

ويرد عليه الكعب:

- الحمد لله.

لحظات وأسمع صوت (اووووع اووووع)، أرى ساقي الكعب ولم أتبين ما حمله على كتفه، أسمع صوت ارتطام، يعود وينادي عليّ ويشتم ويحاول أن يسحبني بالقوة، ألتصق بين الصخور ولا تصل يده إلي، يتركني ويذهب، أشعر بالوحدة، يختفي القمر وحينما يطل لا أرى أمامي إلا بركة من الدماء.

أشرقت شمس الأربعاء وخرجت ثملا لا أعي ما يدور حولي، وها أنا أسير خلفه وما عاد لدي شك في أن الضباع بريئة من دم أبي إيليا ولا أجد منطقا ليقتله الكعب، أمَّا غريمه جودت الذي طالما حلم بقتله وما كان ليجرؤ أن يفعلها يوما فقد جاءت الضباع لتحقق أمنيته إن لم يكن هو مَنْ قاده عمدا لجحرها، وها هو يحمله ليثبت ألا علاقة له بموته، لا أعلم إن كان الغراب الأسود هرع إلينا بعد سماعه صوت الرصاص فقتله الكعب أو صرفه، وطبيلة المسكين مازال مصيره غامضا ولا أعتقد أن الكعب قتله؛ فقد وجده مفيدًا في الآونة الأخيرة، ولا يشكل عليه خطرًا، ولو افترسته الضباع لملأ صوت صراخه الجبال والوديان، وأخشى أن يكون ما رواه سلامة عن بول الضبع حقيقيا، وأن طبيلة انجذب لجحرها ليكون وجبة دسمة، ولم أشعر بأن سوءا قد حدث له، فمَنْ مثله لابد أنه يمتلك غريزه البقاء.

أبذل جهدي لأشيح بوجهي عن جثة جودت وتتلاقى عيناي بعينيه فأراه مازال ينبض بالحياة، والكعب اللعين حريص على أن يتركه ينزف ما تبقى من دمائه، اللعنة عليه! هو يدرك جيدًا استحالة نجاته مع هذه الجراح التي لم تتوقف عن النزف، ومع هذا يطيل الطريق ليزيد من عذابه.

قبل اقترابنا من حدود المخيم لمحنا ثلاثة خيالة يلهون بخيولهم حول صخرة ويثيرون الكثير من الغبار، ومع اقترابنا تبين أنهم من الأغربة السود، والصخرة التي يرقصون حولها لم تكن سوى طبيلة العملاق، هؤلاء الأنذال يعرفون طبيلة جيدا، فلم يهابوه وكانوا يلهون به كحيوان لا قيمة له، اندفعت بلا وعي أركض نحوه وهنا صرخ الكعب:

- توقف أيها الحمار توقف.

واقترب مني وحذرني ألا أندفع أبدا نحو هؤلاء حتى لا يقتلوني، نسير نحوهم ببطء وعندما كانت المسافة كافية ليروننا انطلق طبيلة تجاهي:

- (عذيز عذيز).

تركوه يمرُّ حتى حضنني ورفعني عن الأرض وكاد يسحق عظامي، كنت بين يديه كدمية يدور بها في الهواء وهو يضحك:

- (هووو هي هي هووو).

هل يحبني حقًا إلى هذا الحد! هل يوجد إنسان في هذا العالم البائس يحبني أنا! لقد أغرقني بمشاعر لم أتذوقها منذ انتبهت إلى قسوة الحياة، في تلك اللحظة فقط رأيتُ الدموع التي انهمرت من عيني سلامة عندما فرقوا بينه وبين طبيلة، في تلك اللحظة فقط وجدت تفسيرا لها، ولن أجد تفسيرا يوما لكيفية نجاته وعودته إلى المخيم.

طلب الكعب من أحد الأغربة أن يذهب للبحث عن كاظم وإبلاغه بإصابة جودت، وقبل دخولنا المخيم قال لي:

- لا داعي لأن يعرف أحد أنك اختبأت وبلت في ثيابك، أخبرهم أن عشرة ضباع هاجمتنا وأني خاطرت بحياتي لإنقاذ جودت، وبإمكانك إخبارهم بأنك ساعدتني في إنقاذه.

أحنيت رأسي سمعا وطاعة، بالرغم من أني لم أرَ سوى ضبعين، وربما كان هناك ثالث هاجم أبا إيليا، ولكن لا بأس فعدد الضباع لن يغير شيئا، دخلنا المخيم وبلا مبالاة طلب مني حمل جودت إلى خيمته، وتركنا وذهب، فحمله طبيلة ووضعناه على فراشه، وقد امتقع لونه، ولم يتبق في جسده قطرة دمٍ لينزفها، لم أقو على النظر إلى ذراعه المهشمة وساقه التي فقد جزءًا منها ولم أعرف ما أفعله سوى أن أغطي ساقه بسذاجة، أما طبيلة فجلس بجانبي وأخذنا ننظر معًا إلى جودت.

أتمتم بقولي:

- لا أتخيل المخيم بعد موت جودت.

وفور نطقي أسرعت إلى حيث يخفي أوراقه ويومياته عند خروجه ليلا لأخفيها قبل أن تقع في يد أحدهم بعد موته الذي لا يبدو أنه سيتأخر، وخرجت لأبحث عن مساعدة، وتفاجأت بأن الغرابين يقفان كصنمين، همهما تنفيذ الأوامر ولا يعيان ما أصاب سيدهما، لم أجد أمامي سوى حيان، فجئت به لعله يساعد في إسعاف ما تبقى من جودت! وعند اقترابه أشهر الغرابان سلاحهما في وجهه فاضطر للتراجع، هذان البغلان يعتقدان أن تنفيذ الأوامر أهم من حياة مَنْ أصدر الأوامر! ولا أدري إن انتبها إلى أنه شبه ميت.

أرسل حيان في طلب رباب، ولكنه لم يسمح لها بالاقتراب من الخيمة أيضًا، وماذا أفعل وأنا الوحيد الذي يسمح له بالدخول؟! وطبيلة وجد في التهام الطعام ما يشغله.

لا وقت للسانتوريات، وكان لابد أن أفعل شيئًا لإنقاذه، فهممتُ بحمله ونقله بعيدا عن خيمته التي يسد بابها الغرابان، ولكني عدلت عن ذلك وخرجت باحثًا عن حل، وهنا وصلت فاطمة، لم تنطق، بل لم ترمش، وأحنى الغربان رأسيهما وتنحيا جانبا، ودخلت معها رباب، وحين رأته برقت عيناها، وخُيِّل لي أنها ستبدأ في الرقص من الفرحة التي لاحت في عينيها ولم تفلح في إخفائها.

تركتنا فاطمة وعلى الفور طلبت مني رباب أن أخرِج طبيلة الذي تمدد وتربع فاحتل نصف الخيمة، وجاءها أحد الخدم بصندوق يخصها، وأحضرت لها ماءً، وأشعلتُ نارًا في صفيحة بناءً على طلبها، وأخرجت من صندوقها الكثير من السكاكين، ووضعتها في النار حتى احمرتْ، وقالت:

- ثبت ذراعه إن تحرك!

فاجأتني ببراعتها، لم يرمش لها جفن، نظفت جروحه بالسكين وقطعت من لحمه، وأنا قاومت بقائي معها كثيرًا ثم أسرعتُ لأتقيأ من هول ما رأيت، واستجمعت شجاعتي وعدت لأشاهدها تقطع لحمه كجزار، ثم أخرجت زجاجة سكبتها فوق جروحه، وأشعلت النار فيها، لم أر في حياتي أحدًا يشعل النار في جسد أحدهم لعلاجه، وبعد ذلك صبت فوق الجروح زجاجة عرق كاملة، وتفننت في حرقه وتعذيبه، هذه المصرية يجب تكون محققًا مع الجواسيس!

خرجتْ ثم عادتْ بعد دقائق تحمل معها قارورة غريبٌ شكلها، كريهةٌ رائحتها، سكبت منها على جروحه وأخذت تخيطها وكأنها تحيك معطفًا من جلد، لا أدري كيف يمكن معالجة مثل هذه الجراح، وبقائه على قيد الحياة!

عادت فاطمة ثانية وسألتها:

– هل هناك أمل؟

فهزت رباب رأسها ورفعت عينيها وقالت:

– الأمل في الله.

ومن لغة جسدها فهمت أنه في طريقه لمقابلة ابن خالته يعقوب، لن يسرني ذلك وليتني أستطيع استبداله بشكيب أو جمال الدين أو كل أهل المخيم عدا نعناعة! تركناه لينام والله – وحده– يعلم إن كان سيفيق مجددا، ذهبت إلى فرسه نجمة واعتنيت بها ولم أخبرها بأن صاحبها يشرف على الموت، وقد لا يستطيع وداعها، وأني سأرثها وسأعتني بها، وشكرت جودت من أعماقي لأنه كان حريصا عليها ولم يصحبها في رحلاته الليلية خشية أن تتعثر أو ربما لا يروق له أن تكون برفقه المسخ.

تركت نجمة وعدت إلى أوغاد المخيم ووجدت أن لا احد منهم قلقًا على جودت، والجميع يسأل عن أبي إيليا، كنت على قناعة بأن الكعب قد قتله ولم أشهد ذلك بعيني، ولكن عند قوله: "افترسه الضبع" علمت أنه الضبع الذي افترسه ولا أحد غيره...أخبرتهم أن الضباع افترسته وأشغلتهم بالمئة ضبع التي هاجمتنا وبنجاة طبيلة من الموت، وأرادوا معرفة قصة نجاته، فأخبرتهم بأني انهلت ضربًا بالأحجار على رءوس الضباع حتى تمكن من الهرب، وذيَّلتُ روايتي المزيفة بقولي:

– "واسألوا طبيلة عن شجاعتي".

وما كان أحد ليبذل جهدا ويسأله وهو خير من كتم الأسرار. ذهبت لأطمئن على نعناعة وسألني الكعب بفتور:

- هل مات الكلباشا أم لا يزال حيًا؟

فقلتُ

- لا أدري، لقد تركته نائما.

فأشار بيده القذرة، وقال:

- اذهب وأعد لي الطعام.

بصقت على وجهه في خيالي وتركته، حتى سمعتُ أصواتًا غريبة:

- (هو هو هو هي هي ها ها).

كان طبيلة يطارد فراشه أو ربما نحلة، ويركض كمن ثمل ضاحكًا:

- (ها ها هو هو هو هي هي هي).

يلهث ويضحك بصوت عال تارة، وبصوت منخفض تارةً أخرى، وجذب أغلب ساكني المخيم، وبدأ في العزف على قيثارته الفريدة:

- (ها ها والبقيه هههه هاء هاء).

امتلأ المخيم ضحكًا، ينتقل كالعدوى حتى أصاب الجميعَ هوسُ الضحك، ضحكت وتساءلت ماذا شرب طبيلة ليثمل؟! وقف، وبهتت ضحكاته، وتمايل حتى سقط على الأرض وأثار الغبار، ولم يكن الوقت مناسبًا لإثارة الضحك؛ فقد لحق أبو إيليا بولده المسكين، وجودت في طريقه إلى الموت، وبالرغم من أجواء الحزن التي خيَّمت علينا إلا أن العملاق استطاع نشر السعادة بين سكان المخيم للمرة الثانية، ثم نام ولم يزعجه أحد، وحينما يجوع سيفيق باحثا عن طعام.

في ساعات الظهيرة حضر كاظم وتبعه خيالٌ يقتحم المخيم مُسابقًا الريح، وأثار خلفه زوبعة من الغبار، وترجَّل عن حصانه كالمجنون واتجه إلى خيمة الميت الحي، كان هذا شكيب، ويبدو أن الحمام الزاجل ينتقل من مكان إلى آخر حاملا أخبار ما أصاب الأفندي، وحينما رأى الحال التي عليها جودت أصابه التوتر وأصدر الأوامر لكاظم ليستعد لنقله، فسأله:

- إلى أين؟

لم تكن لديه خطة واضحة أو فكرة عمَّا سيفعله:

- سننقله إلى أي طبيب، إلى القدس، إلى الشام، إلى إسطنبول!

ارتبك كاظم، ولغة جسده دلت على أنه لا يدري ما يتوجب عليه، وهنا تدخلت رباب التي كانت تصب في حلق جودت سائلاً مجهولاً للجميع، وقالت:

- ستنقله الى قبره فقط، لن يحتمل ساعة سفر واحدة وربما أقل من ذلك، والآن اخرجا من الخيمة حتى أتمكن من تأدية واجبي إلا إذا كنتم تفضلان الوقوف فوق رأسي.

خرج كاظم بِناءً على طلبها وولج شكيب داخل خيمة الصناديق الملاصقة لخيمة جودت، وجلس يراقب ما تقوم به، وأنا ابتعدت لأني أكثرهم خبرة بعواقب العبث مع هذه المصرية.

أعددت قهوة شكيب بِناءً على طلبه وأشعل سيجارة وتطاير دخانها حتى وصل رباب، ولمَّا هبَّت معترضة تراجع إلى الخيمة الثالثة الملاصقة ليبقى قريبًا من جودت، وجلس على أحد صناديق الذهب وطلب أن أرفع شادر الخيمة قليلا ليتطاير الدخَان بعيدًا، وبقي شكيب يراقب من بعيد وكأنه يريد أن يودع روح صديقه حينما تصعد إلى بارئها.

لم يكن ليسرني موته، فإن قدر الله ذلك سأصير فريسة لكلاب القافلة، بقيت بجواره وحزنت على حاله وبكيت صدقًا لا ادعاءً، ربما بكيت على نفسي مما سيحدث لي بعده، وحقيقةً لم يسيء لي جودت أبدا، ولم يكن مجرما، وشكيب المجرم القاتل السفاح تأثر ببكائي، ولم يتمالك نفسه، وشرع يبكي أيضًا، وتساءلت:

- هل القتلة يبكون مثلنا، هل لديهم مشاعر وأحاسيس؟!

انتهت رباب من تفحص الأفندي، وقبل خروجها دخل كاظم وتحدث معها لدقائق واندفع شكيب نحوهما، وهنا رفع كاظم عينيه عاليًا وخرج وانزوى مع شكيب لما يقارب النصف ساعة وعلى إثرها ناداني كاظم وطلب إحضار ما يلزم للحفر وشخصا لمساعدتي.

لم أرغب في إزعاج طبيلة وتركته مستمتعا بنومه، وناديت سالمًا وأعددتُ ما طلب مني، وبالرغم ممًّا راودني من إحساس حول ما نقدم على فعله إلا أني تساءلت عن احتمال دفن الذهب، ولم يكن لكاظم علاقة بالدفن، كما أننا في ساعات الظهيرة، وذاكرتي الملعونة أخبرتني أننا لم نقم بدفن الذهب نهارا إلا مرة واحدة، ولا حاجة لذاكرة خارقة لتذكر ذلك النهار، فما حدث بين الكعب ونيروز يومها في البيت المهجور مازلت أنام كل ليلة على أنغامه.

وجاء الجواب حينما طلب منا كاظم أن نتبعه ولم نحمل جرارا، خرجنا من حدود المخيم وأخذتنا الطريق إلى التلة التي دفنًا في بطنها يعقوب، وتساءلت:

- هل ينتوي أن ينبش قبر يعقوب بالرغم من شعوري منذ اللحظة الأولى أنه ينوي حفر قبر جودت أفندي وهو مازال على قيد الحياة!

بجوار قبر يعقوب بدأنا الحفر واشتد بي الغضب واشمأزت نفسي مما نقوم به، حلَّت الكآبة على وجهي، صككت أسناني، وجعٌ في قلبي، خناجرٌ تمزق أحشائي، وتساءلت: لماذا يعرقلني الحظ دومًا؟ حفر قبر جودت بيدي في هذا المكان يثير جنوني، أنا لا أكرهه وأقسم لأضعن الورود على قبره وأتصدق ببعض قطع الذهب من أجله، لماذا يجب أن يُدفنُ بجوار يعقوب؟ وكيف سأخرج من هذه الورطة؟ لقد أقسمت أن أنفق جرة ذهب كاملة لأحضر رعاع البشر من كل مكان ليتبولوا على قبر يعقوب، والآن ماذا أفعل؟ لن أسمح لأحد أن يبول بجوار قبر جودت رحمة الله عليه، لابد أن أجد حلا ربما سأستثمر ربع جرة ذهب لنقل قبر جودت لاحقا، وهكذا سأتمكن من الوفاء بقسمي وهذه الفكرة حملت لي الراحة والهدوء.

ابتعد عنا كاظم لتفقد المنطقة وتركنا تحت مراقبة الغراب اللعين ووجدتها فرصة لأبصق على قبر يعقوب النذل الحقير الخنزير، واستهجن سالم فعلتي قائلاً:

- (حرام عليك يا زلمه خاف الله).

وهنا عرضت عليه سيجارة مقابل كل بصقة يبصقها على قبر يعقوب فتحول فم سالم الذي فرَّق لتوه بين الحرام والحلال إلى مدفع يرش البصاق:

- (تفو تفو تفو عشره تفو تفو عشرون تفو تفو، ثلاثون).

وهيهات لي أن أتمكن من إيقاف سالم وإن استمر على هذه الحال لن تكفي سجائر إسطنبول للوفاء بأجره وحينما تمكنت من إيقافه طالبني بـ 700 سيجارة، هذا اللعين وكأنه يعلم أن ذاكرتي تعاني من خلل في حفظ الأرقام، وبعد جدل وخلاف حول مواصفات البصاق وأن معظم بصاقه كان رعدا بلا مطر، اتفقنا على تسوية يحصل بموجبها على ثلاث علب من السجائر فقط، وهذا سيكون كافيا له ليومين سيتمرد خلالهما حتى يعود في حاجة إلى التدخين.

عاد كاظم وانتهينا من الحفر ولم يبقَ إلا أن يموت جودت –رحمة الله عليه سلفا– وندفنه، وأملت ألا يموت سريعا حتى لا أنشغل في دفنه، وأتفرغ لنعناعتي.

وصلنا قبل غروب الشمس ودخلت خلف كاظم ووجدنا شكيب متكدر الحال غارقا في أحزانه، كان يجلس بجوار جودت يمسح العرق عن جبينه بحنان أمٍّ تسهر على طفلها المريض، وتتمنى من الله أن تعاوده روح الحياة.

تركنا كاظم ودخلت مع شكيب الخيمة الثانية ومنها إلى الثالثة؛ ليشعل سيجارة ولا يزعج الميت الحي، وكان فيها أربعة صناديق ملآنة بالذهب، وخمسه فارغة لم يسنح لي الوقت بنقلها خارج الخيمة، وتسع جرار كنت قد ملأتها ذهبًا وختمتها كما علمني المرحوم...جلس شكيب على أحد الصناديق ومد يده بعفوية وفتح الصندوق الذي يجاوره، وحينما رأى الذهب سألني سؤالا يناقض مكانته ورتبته العسكرية وعلاقته بجودت والباشا:

– ما هذا يا عزيز؟

– ذهب ياسيدي.

فاغرًا فاهه:

– كل هذا ذهب يا عزيز!

ونظر إلى الصناديق وتابع سؤالي:

– وماذا في الصناديق الأخرى؟

– أربعة مملوءة بالذهب والبقية فرغت بعد نقل ذهبها إلى الجرار مع موعد الدفن.

وكأن جوابي صعقه أو اعتقد أنه لا يجوز أن يصدق أبلها مثلي، فسأل:

- كلها كانت ملآنة بالذهب؟!

- كلها يا سيدي.

تجاهل جوابي ومد يده إلى صندوق آخر وفتحه فلمعت عيناه ولم يخفَ عليّ ذهوله برؤية الذهب، وأيقنت أنها المرة الأولى التي يرى فيها هذه الكم من الذهب في صندوق واحد، لم أر ذلك البريق في عيني جودت أبدا، وحتى السفاح الملعون يعقوب لم أشعر أنه اكترث بالذهب يوما...بدأ شكيب يلامس الذهب بكفيه، واسترجعت ذلك اليوم الذي أغرقت فيه كفي بالذهب، وعلمت أنه قد وقع في أسره، وأخذ ينتقل من صندوق إلى آخر مذهولا لا يصدق ما يراه، وكلما فتح صندوقًا ازداد بريق عينيه، وأردت ملاعبته قليلاً فأخبرته أن عشرات الصناديق المكدسة في الخيمة الثانية كان ملآنة بالذهب قبل دفنه، فاندفع كالمجنون يحملق في الصناديق وسألني:

- عزيز...هل كل هذه الصناديق كانت ملآنة بالذهب؟ ألم يكن فيها شيء آخر؟

فأجبته:

- نعم يا سيدي وأنا كنت أملأ الجرار بنفسي، وكذا في خيمة المؤن الكثير من الصناديق الفارغة.

تابعت بخباثة وبلاهة:

- ولكن اقطع لسانك يا سيدي ولا تتحدث في هذا مع أحد.

نسي ما حدث لجودت وضحك على بلاهتي ومازحني قائلا:

- سأقطع لسانك ولن أخبر أحدًا.

فأجابه سانتور:

- نعم اقطع لساني ولا تتكلم حتى لا يغضب جودت.

فضحك مجددا وقال:

- اذهب وأعد قهوتي.

أعددت قهوته بعدما صار الشك يقينًا؛ لم يستوعب عقله أن أربعة صناديق كانت ملآنة بالذهب، وكاد يفقد عقله عندما أخبرته أن عشرات الصناديق الأخرى كانت كذلك قبل إفراغها، أيعقل أنه كان جاهلاً بما في الصناديق التي حملتها الجمال؟! هل أخبروه أنها تحوي شيئا آخر؟! احتسى القهوة ولم يتوقف عن محاورتي، ومن أسئلته المتكررة بدا وكأنه كان يظن أن معظم الحمولة تماثيل وآثار، وأن كمية الذهب لا تتعدى الصندوق أو الصندوقين، ويبدو أني بتهوري قد دعوت لصا جديدا لينضم إلى بقية اللصوص المترصدة لسرقة ذهبي، فهذا اللعين يملك السلطة وبإمكانه أن يسرق الكمية التي يريدها بلا حسيب ولا رقيب، وقتها أدركت السبب الذي اختار من أجله جمال باشا جودت لهذه المهمة بالرغم من أنه ليس كُفْئًا لها، نعم جودت لا يسحره الذهب اللعين.

شكيب ينقل مؤخرته من صندوق إلى آخر مسرفا في التدخين، مشكلا ضبابًا يحجب رؤية القادم عمَّن بالداخل، وإن لم يمت جودت بسبب جراحه سيموت اختناقا بفعل الدخان الذي قصده من الخيمة الثالثة.

راقبت عينيه، رموشه، حاجبيه، أنفه، شفتيه، كفيه وكتفيه، وعدد مرات حك ذقنه ورأسه، وابتسامته العفوية، وكلُّ خلية في جسده أخبرتني أن هذا الرجل قد وقع تحت سحر الذهب وغرق في أحلام الثراء ولابد أنه قد بدأ يبني القصور، ويشتري الجزر، وتشاءمت من القادم، فأنا معتاد على لصوص صغار يسرقون جرة أو جرتين، أو حتى نصف صندوق، ولكن مثل هذا اللص لن يكتفي، تركته غارقا في أحلامه لحاجتي إلى القليل من الراحة بعد هذا اليوم الذي عج بالإثارة.

قبيل انتصاف الليل وفي طريقي لخيمتي أشفقت على طبيلة الذي افترش الأرض والتحف السماء، فما الذي يشغل بال هذا الطفل العملاق غير الطعام والنوم! اقتربت منه ووقفت فوق رأسه ودغدغته في بطنه بقدمي كما اعتدت عند إيقاظه، لم يصحُ فانسحبت بهدوء كيلا أزعجه، ثم عدتُ إليه من جديد لينام أمام خيمتي، أعلم أنه غير قادر على حمايتي ولكن وجوده كان

يشعرني بالقليل من الاطمئنان، انحنيت ألامس وجهه وسحرتني ابتسامته البريئة التي ارتسمت على شفتيه، حتى كدت أشك أنه يتظاهر بالنوم، ولكن الشحوب الذي اعتلا وجهه أثار القلق في نفسي، وحينما لمسته بظهر كفي شعرت بصقيع يمر من وجنتيه إلى كفي ليصل قلبي ويعتصره بقوة.

ارتجفت، اقشعر بدني، تقلصت معدتي، وشعرت بدوار، تجمدت ولم أقوَ على تحريك ذراعي، أجاهد لأخرج الصوت من حنجرتي، انهمرت الدموع وبدأت الأفكار اللعينة تضرب رأسي بمطرقة:

- (تاتات .. حا حا حيا حيااان).

هرول إليَّ يجر سلسلته حافي القدمين، وفزع نحوي سالم وجمال الدين، وحين تحسسه حيان بيده طلب من سالم أن يسرع بطلب رباب، وعندما لمستْ رباب عنقه أسرعت تتفحص عينيه، وتساقطتْ دموعها التي أغنت عن كلامها، وأنا مازلت مصدومًا لا أريد أن أصدق، وعاد خيالي مرتحلاً إلى كل مشهد لهذا الطفل العملاق منذ إصراره على مرافقة سلامة مع قافلة لا يقودها إلا الموت؛ مررتُ بمشهد سلامة وروايته قصة طبيلة وكهف الـ(غولة)، واستوقفني هياج طبيلة وفزعه لفراقه، ثم تجولت في عيني العديد من مواقف تقربي إليه، ثم ملاحقته لي كظلي، وفرحه بالسيف الخشبي الذي صنعه أبو إيليا، وضحكه عند استحمامه ولبس الجديد على يد رباب ونيروز، ولهفتي عليه هذا الصباح عندما لهى به الأغربة السود، وهاج إلي كعاصفة حنان ورفعني في الهواء وضمني إلى صدره وأعاد إليَّ روحي التي سرقتها القافلة الملعونة، والتصقت برأسي اللحظات التي حمل فيها سلامة، ورفض التخلي عنه بعدما شعر أن روحه فارقته وهو نائم على كتفه، ومازال صوته يرن في أذني: (أزيز...أزيز...عذيز..عذيز)، لم أجد وفيًا بين هؤلاء البشر سواه! أغمضت عيني وعصرتهما حتى تظلما، أنا نائمٌ حالمٌ وسأصحو بعد قليل وسيتلاشى كل هذا، فتحتهما ولم يتلاشَ شيء، لقد مات الضخم طبيلة! نجا من الضباع قبل شروق شمس اليوم ليموت قبل غروبها! كيف مات؟ لماذا مات؟! وهل يموت الإنسان بلا سبب؟!

ليته لم يعد إلى المخيم حتى أعيش على أمل ملاقاته يومًا! لم أر بشاعة الموت إلا برؤيته مبتسمًا فوق التراب، هل نجا ليريني كيف تموت البراءة بين وحوش البشر! كيف نجوت

يا طبيلة! ستتركني ولم أجد تفسيرًا لشيء، ستتركني ومازلت أتساءل: كيف استطعتَ العودة إلى المخيم؟ ولمَ عدتَ ثانيةً؟ ليت أنك لم تعُدْ!

الكل يواسيني؛ فأنا "عذيز عذيز"؛ أمه وأبيه، حزن الجميع وأشدهم حزنا كان سالمًا ورباب التي رأيت في عينيها غضبا لم أره عندما صفعتني لتحرشي بها، كانت تنظر إليه في صمت وعيناها تشع غموضًا وأسرارًا.

الكعب في فضول يستكشف هذا الجمع الغفير، وحينما علم موته ركض كالمجنون إلى خيمته ليمنع نيروز من القدوم حتى لا يشغل وقته بمسح دموعها...جمال الدين كان له الأثر الأكبر في التخفيف من آلامي حينما أخذ يدعو الله أن يميته مثل هذه الميتة، ويردد:

- لقد أنجاه الله من افتراس الضباع ليموت ضاحكا نائما مثل الملائكة.

وقبل منتصف الليل قمنا بدفن أطهر من رافق القافلة؛ طبيلة؛ الذي لا نعرف له أب ينسب إليه، ولا أمًّا تحزن عليه، ولا إلى أي أرضٍ ينتمي، العملاق الذي لم يتكلم لنعرف بأي لغة ينطق، من هو! من يكون! من أين أتى! لن نعرف يوما، وربما ليس أمامنا إلا أن نؤمن بما أخبرنا به سلامة يومًا:

- أمه الـ(غولة) تركته مع صرة ذهب في مغارة بالقرب من رام الله.

دفنَّا الملاك الضخم بالقرب من نبعة الماء التي أخبرتنا بضحكته البريئة للمرة الأولى في اليوم السابق ليوم عرفة، وهناك ضحكنا وغمرتنا السعادة بين أناس يعز عندهم الفرح، وهناك ستتردد أصداء ضحكاته إلى الأبد.

انقضت تلك الليلة وأشرقت الشمس على مشاعر تجمدت، أو ربما ما عاد لها وجود، أفتقده وكأن شيء ينقصني، ولكن لا أشعر بأسى! ماذا يحدث لي! فقد وجدت نفسي أخرج الصندوق وأنصب العرش وكأن شيئا لم يحدث، لم يأت إليَّ سوى جمال الدين، وعزاني مجددا ولم أكترث، وعدنا للجدال حول عدد السجائر التي سيحصل عليها، ولم أتنازل فالسجائر أهم من الجميع، ثم جاء إلينا الكعب وأوصانا أن نخبر نيروز أن طبيلة قد عاد إلى أهله؛ أمه وأبيه

وإخوته، وتجول ليوصي الجميع، لم يمر الكثير من الوقت حتى أطلت نعناعة واستقبلها سالم وقبل أن تقترب قال:

- (طبيلة مات يا نيروز).

هذا الأبله لن يتوقف عن بلاهته يومًا، وببراعة أخبرتها:

- قصد أن يقول: إنه فات عند أهله كما أخبرك الشيخ طبرق.

ولم يفهم سالم إلا بعدما بعد غمزته فكتم الخبر حتى لا تبدأ بالنواح واللطم على خدها الرقيق، فهي نوَّاحةٌ بطبعها، فكيف مع موت طفلها الضخم!

تجاوزنا النواح والبكاء، وحان موعد قهوة جودت أفندي، وقررت أن أحافظ على روتيني اليومي، أعددتها بالرغم من علمي بأنه مدعو لشربها مع قريبه يعقوب، قدمت القهوة لشكيب ليحتسيها نيابة عنه وسألته إن كان راغبا في إعداد الإفطار، كان مرهقا نعسا، بدا عليه أنه لم يفارقه طيلة الليل، ولكنه لم يكن في حزن الأمس؛ ربما استوعب الصدمة، أو أن سحر الذهب ساعده في التغلب على أحزانه، المسكين جودت مازال على حاله، بل ازداد سوءا، وفي انتظار موته.

تجمدت الحياة في المخيم، وتثاقلت خُطى الزمن، وافتتحت فاطمة الزيارة الصباحية للميت الحي وأوصت رباب به، ولسان حالها يقول:

- سأقتلك إن لم يمت.

وزاره الكعب البطل الذي أوهم الجميع أنه المُنقذ من الضباع، لا دموع في عينيه ليذرفها ولسانه خشن، ومهما حاول ترقيق كلماته فهي تنزلق من بين شفتيه قبيحة ولزجة، وقال مجاملا:

- الحمد لله أن الضباع لم تأكل إلا جزءا من ساقه، (الله ستر).

بقية أهل المخيم لن يحضروا للاطمئنان على الأفندي؛ لأنهم لن يستطيعوا تجاوز الأسودين، كما أنهم لا يحبونه ولا يحبون حتى أنفسهم، وصل كاظم وكان برفقته عسكري صغير السن، ومن حقيبتة الصغيرة التي يحملها بيمناه علمت أنه طبيب، وسرَّ ذلك رباب التي أرهقها

الاعتناء بجودت وحدها، وعلى الفور أمر شكيب بنصب خيمة كبيرة مخصصة للطبيب الجديد ونقل إليها الميت الحي، وأنا الوحيد الذي يعلم أنه فعل ذلك ليغلق الطريق أمام الجميع على دخول خيم الذهب الموصولة بخيمة جودت، وحينما أمرني بتوفير ما يحتاجه الطبيب طلبت منه إبعاد الغرابين حتى أتمكن من إحضار من يساعدني، فخرج ليطلب منهما الابتعاد وكانت الصاعقة؛ تجاهلا هذا اليوزباشي الذي لا سلطة له عليهما، وما كانا ليبتعدا لولا فاطمة، هذان الغرابان لم يتم تدريبهما على احترام الرتب العسكرية، يبدو أن مَنْ يمتلك السلطة عليهما هذه الغجرية الغامضة وذلك الذي يصارع الموت.

بعدما انتهيت من توفير ما يلزم ونقلنا الميت الحي إلى خيمته الجديدة، طلب مني شكيب إحضار فراش له إلى خيمة الذهب، وأن أعود لايقاظه لاحقا، لم يكن هناك ما أفعله بعد نوم وريث الذهب الجديد سوى العودة إلى ركني الخاص، وهناك كان ينتظرني حيان، وعزاني في مصابي، ويبدو أنه اعتقد بأني أكاد أموت حزنًا على طبيلة، وحين حاول أن يجمِّل موته أغلقت الطريق أمامه، فلا حاجة ليحدثني أحد عن أنواع الموت، ليتني أستطيع إخبارهم بأني شاهدت أفظع وجوه الموت! هل سيصدقون –لو أخبرتهم– أني طهوت قلب أحمد شيخة ليأكله الكعب ولم أتقزز؟ سيتهمونني بالجنون لا محالة، وإن صدقوني سأتحول في نظرهم إلى مسخ لعين، وهنا بدأ يهذي حيان:

- عزيز خذ حذرك، لقد قُتل طبيلة.

ضحكت علنا وبأعلى صوتي وشر البلية ما يضحك، وقلتُ ساخرا:

- نعم نعم لقد قُتل حقًا، ولكن مَنْ قتله؟

فقال:

- لا تسخر، الأمر أخطر مما تعتقد.

كانت ملامح وجهه جادة واعتلاها الكثير من القلق، ولم أقتنع بجنونه، ولكني سألته:

- ومَنْ في العالم بأسره يرغبُ في قتل طبيلة؟

- لا أعلم ولكن هناك مَنْ دسَّ له سُمًا في الطعام.
- وكيف اكتشفت ذلك؟ لم أر ما يثبت شكوكك!
- لقد قتل بنوع من السموم لا يملكه إلا الأثرياء، لا يقتلون به أعداءهم، وإنما أنفسهم عندما يقررون إنهاء حياتهم، وهو مزيج من الأفيون النقي ونوع من الزئبق، وهذا يفسر ما أصاب طبيلة من ضحك هستيري قبل أن يتوقف قلبه.

ولم أمنع نفسي من السخرية مما قال:

- ومَنْ -في رأيك- الثري الذي أهدر هذا السم الملكي الفاخر على طبيلة؟

أديتُ بلا قصد حركاتٍ تمثيليةٍ ساخرةٍ مشيرًا بيدي إلى حجم جسد طبيلة وحجم عقله وقلت وكررت:

- هذاااا طبيلة فقط طبيلة.

امتعض أسلوبي وقال:

- أقدر حزنك عليه، وسأتركك الآن...فقط خذ حذرك يا عزيز.

ولمَّا تركني انتبهت ذاكرتي؛ لابد أن رباب المصرية أخبرته بذلك، هذه الساحرة تفاجئني كل يوم، ولكن مَنْ سيدسُّ السم لطبيلة وهو لا يفارقني لحظة؟! مَنْ سيقترب منه؟ ولماذا؟! هراء...هراء! ولم أمنع نفسي عن التفكير...لا يسعى لموته أحد، ولكن هناك مَنْ يسعى لموت جودت ولابد أنه المستهدف إن صحَّتْ رواية حيان.

طبيلة لم يأكل أو يشرب شيئًا أمس إلا في خيمة جودت، شخصٌ ما تسلل إلى خيمته وسمم طعامًا أو شرابًا قد يتناوله بعد عودته، ولم يتوقع أن الضباع ستفترسه، وأن آخر سيدخل خيمته ويتناول طعامه ليموت بدلا منه، مسكين طبيلة ما كان ليوفر طعاما يقع تحت يديه، ومن له مصلحة في قتل جودت غير فاطمة! اللعنة! كلُّ الشبهات تحوم حولها! هذه اللعينة لو صبرت لوفرت عليها الضباع عناء تسميم طعامه، ولكان طبيلة حيًا حتى الآن.

والآن أنا في مأزق حقيقي، وثلاثة أنواع من الموت يتوجب الحذر منها؛ خنجر الكعب، ومسدس شكيب، وسم فاطمة، إنه مكان صغير جدا ليجتمع فيه ثلاثة قتلة من الكبار.

ماذا فعلت بي يا حيان؟ ومن أين لك بكل هذا؟ وهل رباب أخبرتك عن سم الأثرياء؟ إن رباب تلازم فاطمة، فهل يمكن أن تكون شريكة في هذا؟! لقد كانت حريصة على إنقاذ حياة جودت، وكانت أول مَنْ بكي طبيلة، عليك اللعنة يا ابن العربية! وكأن ما بي لا يكفيني لتحضر لي هذا الكابوس، لقد جئت لتحذِّرني ولم تدر أنك قتلتني جوعا وعطشا، وكيف سآكل أو أشرب بعد اليوم والغجرية بالجوار لا تبخل بسُمِّ الأثرياء؟!

أسرعت إلى حقائبي وأخرجت ما ادخرت من بسكويت وشكولاتة، وأردت أن ألقيها في القمامة اتقاءً لموت الأثرياء؛ فقد عاش طبيلة مُعدمًا ومات ميتةَ ثري، ولكني عدلت عن رأيي وأغمضت عيني وبعشوائية اخترت حبة واحدة من الحلوى الفاخرة، وذهبت إلى جمال الدين وقدمتها له مُبتسمًا، فاندهش لفرْط أدبي، ولكني أخبرته أن كلامه الرائع عن الموت بالأمس قد ترك أثره في نفسي، التهمها بسرعة وشكرني، ووقفت أنظر إليه ببلاهة لعله يسقط ويموت أمامي، وللأسف لم يدس لي أحد السم لهذا لم يمت جمال الدين، تركته لألوم نفسي، فلو سقط جمال الدين، وكانت حكاية السم حقيقية، فلابد أن الثري صاحب السم سيلصق بي تهمة قتل جمال، وربما سيصنع مني وحشًا خائنًا قتل صاحبه طبيلة، وإن لم يفعل سينتظر طريقة أخرى يقتلني بها طالما أن السمَّ لم يفلح معي.

تركته وعدت لايقاظ شكيب من نومه كما أمرني، وهذا يعني إعداد القهوة للمرة الثانية، وأصرَّ أن أشاركه القهوة، وأجبرت نفسي على شربها وترك شمها، كنتُ فيما مضى المهرج الذي يطلب شكيب حضوره ليسليه ببلاهته، ولكن ليس هذه المرة؛ بدأ بامتداح الثقة التي منحها لي جودت، ثم سألني عن الذهب وكيفية عده وتعبئته، وعدد الجرار التي يتم تحميلها، وكيفية الدفن، وعدد الأفراد الذين يخرجون مع جودت، ووظيفة كل فرد...، وختم كلامه بسؤاله:

- وماذا يفعل طبرق؟

أسئلةٌ متلاحقةٌ طالبًا مني قولاً مُفصَّلاً، يبدو أنه ينوي إتمام ما بدأه جودت، وأنه ليس مُلمًّا بمخططه، ولم يجد غيري ليسأله، وهنا تحتَّم عليَّ أن أوازن بين سانتور وعزيز، إن شكيب على قناعة بأني مهرج أبله لا أنطق إلا بما يُضحك، وأن جودت يثق بي ثقةً عمياء لبلاهتي وبساطتي، وأني لا أطمع في شيء من هذه الحياة، ولا يمكن أن أفكر في سرقة غير الحلويات.

قلت له:

- يا سيدي، جودت باشا يطلب مني أن أملأ أربع جرار أو خمسة في كل مرة نحملها ونخرجها من الخيمة أنا وطبيلة، ثم نحمل الجرار الصغيرة على حمارين والجرة الكبيرة على بغل وبعد ذلك نربط ووو..

قاطعني قائلاً:

- لا أريد حديثًا مفصلاً في هذا، أعرف كيف يتم التحميل وقيادة الدواب، أخبرني عن كيفية الدفن.

- بعد ذلك نذهب برفقة الشيخ طبرق ونسير في الوديان ونسمع عواء الكلاب،

قاطعني مرات، وطلب الحديث عن كيفية الدفن فقط، فقلت:

- أحفر أنا وطبيلة –رحمة الله عليه– ويأتي الشيخ ويرقص ويغني لعفاريت الـ "قاقا باقا" ويذبح حمارًا ثم ندفن، وكان جودت يطلب من المرحوم أبي إيليا أن ينقش رموزًا؛ سهمًا، أو صليبًا، أو نقاطًا، أو مربعًا، أو أفعى، أو يد هلال، وحينما لا ينقش أبو إيليا كان ينقش سيدي جودت بنفسه أو يطلب مني، وأيضا كان يحمل معه دفترًا ويرسم عليه أشياء لا أعرف ماهيتها.

وهنا سألني عن مفكرة جودت وأوراقه التي يدون عليها الملاحظات، وتذكرت أني لم آخذ المفكرة التي يحملها في جيبه، فأخبرته أنها لا تفارقه دوما، ويبدو أنها فقدها عندما هاجمتنا الضباع، فسألني:

- هل تعرف أين دُفن الذهب؟

أحك رأسي مدعيًا البلاهة، وأفكر في أمر هذا الجشع، فإن كان يرغب في سرقة الذهب لنفسه فيجب أن أكون مفيدا له ليحافظ على حياتي حتى أجد مفرًا من قبضته، وإن لم يرغب فمعرفتي أو عدمها لن يحولا دون قتلي، وجودت أفندي لن يعود إلى الحياة، وكما قال روهان يوما:

- لو عاد الميت وسمع القصص التي رويت على لسانه لمات من الدهشة.

طورت شخصية السانتور لتناسب ما استجد وأخبرته:

- إن جودت أفندي كان يطلب مني أن أحفظ كل أمكنة دفن الذهب تحسبًا لضياع مفكرته، وأوصاني:
- إن طرأ طارئ أخبرْ الباشا الكبير بمواقع الدفن يا عزيز.

فسأل مندهشًا:

- هل أنت جاد في قولك؟
- نعم يا سيدي.
- وكم موقع دفنتم فيه الذهب؟
- المئات يا سيدي.
- وهل تريد أن تقنعني بأنك قادر على العودة إلى كل المواقع!
- نعم يا سيدي لقد علمني جودت كيف أفعل ذلك.
- وكيف علمك؟
- كان يطلب مني أن أحفظ بعض العلامات التي تميز هيئة ولون كل جبل وتلة وصخرة الكبيرة، وقال لي: عقلك فارغ مثل الأطفال وبإمكانه أن يحفظ أي شيء، وحينما كنا نعود كان يطلب مني أن أغلق عيني ويكرر على مسامعي كلماتٍ وأوصافًا، وأخبرني بأني سأتذكر كل شيء فور رؤيتي لأي علامة سأمر على مقربة منها مرة أخرى.

ابتسم وقال:

- نعم الإيحاء لعبة جودت، والآن فهمتُ سرَّ حبِّه لك.

ثم قلت له ببراءة سانتور الساذج:

- ولكن اقطع لسانك ولا تخبر أحدًا بذلك وإن سألوك عن أي شيء قل: لا أعرف فقط.

ضحك وقال:

- ولماذا تخبرني هذه الأسرار طالما أنه طلب منك أن تقطع لسانك ولا تخبر أحدًا.

- لأنه طلب مني ذلك يا سيدي، لقد أوصاني أيضًا، "إن حدث لي مكروه يا عزيز ابحث عن شكيب ويعقوب وقل لهما أن يأخذاك إلى الباشا لتساعده في الوصول إلى الذهب، واحذر أن يعرف طبرق أي شيء. "

لمعت عيناه، وحبس أنفاسه وغرق في صمت، ونجحت في خطتي ولن يكشف كذبي إلا إن عاش جودت –لا قدر الله له النجاة– وعندها كل أكاذيب العالم لن تبرئني.

خرج شكيب عن صمته وقال لي:

- عزيز أنت رائع.

- نعم أنا رائع يا سيدي.

- ومن يعرف بهذا الأمر غيرك؟

- يعقوب رحمة الله عليه؛ قبل موته بيوم أخبره جودت بأن عزيز باشا هو خطة الطوارئ الثانية فاحرص عليه جيدا.

فضحك وقال:

- أنت باشا حقًا.

ومن الخارج وصل إلينا نهيق الكعب:

- يا شكيب يا أخ شكيب.

خرج من الخيمة واستقبله:

- تفضل يا شيخ.

دخلا معًا، وقال لي شكيب:

- اذهب وأعد قهوة الشيخ.

فأخبرته:

- الشيخ طبرق لا يشرب القهوة يا سيدي.

جلسا ولم يكن هناك داعيا لخروجي، وفضلت الجلوس على الأرض لأن هذا ما يفعله الخدم بحضور السادة، ولن يعارض بقائي أحد؛ الكعب يعتقد أنني رجله، وللتو كسبت شكيب، تربعت وأرخيت أذني، وافتتح الكعب الحديث:

- البقاء لله يا أخ شكيب، وأنعم الله بالصحة والعافية على أخينا جودت ومع هذا أمامنا مهمة شاقة يتوجب أن نسرع في إنجازها.

- أصبتَ في قولك يا شيخ طبرق، ولكن علينا الانتظار قليلا للاطمئنان على جودت أفندي.

- شفاه الله، شفاه الله، وأنت يا أخ شكيب ابن جيش وحرب وتعلم أنه لن يعيش حتى الأسبوع قادم، لندعُ له ولننته من مهمتنا.

- لنصبر حتى نهاية الأسبوع وبعد ذلك سنعيد ترتيب الأمور.

- هذه المهمة خُطط لها أن تنتهي خلال نصف شهر، وها نحن نختتم الشهرين لذا لا وقت لدي لأهدره.

- وماذا تريدني أن أفعل؟

هز الكعب أنفه وقال:

- لا أريد منك إلا أن تقوم بعملك وتحضر لي بعض الخدم لمساعدتنا.

- ومن أين أحضرهم؟
- تدبر أمرك ولا تنس أن مهمتك حراستنا وتوفير ما نحتاجه، وعند المرأة فاطمة الكثير من الخدم أراهم كل يوم يأكلون ويشربون ويمرحون ولا يفعلون شيئًا مُفيدًا، اذهب وأحضر لي بعضًا منهم.

ووجه كلامه إلى أسفل قدميه حيث أجلس وقال:

- وأنت يا عزيز، مع نهاية الأسبوع أحضر مَنْ يساعدك وجهز لي خمس جرار لنأخذها معنا.

فقلت:

- لا يوجد أحد ليساعدني، سالم عند جودت يخدم الطبيب الجديد.

نظر الكعب إلى شكيب المصدوم الذي أخرسته وقاحة حديثه وقال:

- أحضر له أحد خدم جارتنا ليساعده.

وتركنا نعيش في أجواء من الصدمة، هذا المسخ اللعين تصرف كملك "قاقا باقا" حقيقي ألقى أوامره، وأعلن نفسه قائدا للقافلة، وحوّل السفاح شكيب إلى حارس ورئيس خدم.

على من أراهن؟! على ملك الـ"قاقا باقا" أم على هذا العسكري الدمية الذي يبدو أنه لا يتحرك إلا وفق أوامر؟ أعتقد أنه اكتسب مكانته من علاقته القوية بجودت ويعقوب، نعم هو عسكري جريء، متغطرس وخشن، وهو على النقيض من جودت، فمنذ عرفته في معسكر النبي موسى– عليه السلام– رأيت فيه الرجل الهمجي؛ في تعامله مع رجاله، في تناوله الطعام، حتى عند خروجه لقضاء حاجته يفعلها بوقاحة شديدة ولا يكون حريصًا على التواري عن الأنظار، كما أنه منافق كبير ولا يعطي للألقاب أية أهمية، لم أر فيه الرجل الحريص على مخاطبته بالألقاب ولا يتردد في مصافحة أحد، ولا يفرك أصابعه بعد ذلك ليتذكر أنه يتوجب عليه غسلها حتى لا تنتقل له عدوى الأمراض من مصافحة الأقذار، هذا العسكري القاتل لا يبدو لي أنه

سيصمد جولة واحدة أمام سفاح الـ"قاقا باقا" ولا أمام الأفعى فاطمة...خيرُ لي أن أعود وأختبئ خلف عباءة الكعب وأستمتع برائحته الكريهة لأعيش لفترةٍ أطول.

خرج العسكري من صمته وقال:

- احكِ لي كل ما تعرفه عن طبرق.

تزاحمت الأفكار في رأسي وأنا أبحث عمَّا أقول، لن أتسبب في إضعاف الكعب في هذه المرحلة وأنا على يقين بأنه لن يذبحني ويأكلني إلا بعد الانتهاء من الجميع، أمَّا شكيب فلم يكشف عن نواياه بعد، فهل سينضم إلى لصوص الذهب؟ إن التعامل مع عسكري شريف سيكون فيه هلاكي لأن الأوامر واضحة؛ (الموت للجميع).

عاد وكرر سؤاله ليخرجني من صمتي:

- تكلَّم يا عزيز.

- جودت أفندي كلفني أن أراقبه وأنقل إليه كل تحركاته، هل تريد أن أراقبه من أجلك يا سيدي؟

- تابع مراقبته، ولكن أخبرني ما أخبرته لجودت عنه.

- الشيخ طبرق له علاقات مع عفاريت الـ"قاقا باقا" ويرسل الناس الى الجنة.

ابتسم وقال:

- قصص العفاريت والـ"هاقاراقا" سمعتها من جودت.

قاطعته قبل أن يكمل جملته لأصححها وقلت:

- الـ"قاقا باقا" وليس الـ"هاقاراقا" يا سيدي.

فضحك وقال:

- اللعنة عليك! الآن فهمت لماذا يصفك جودت بالنبيذ المعتق، انتبه لي يا عزيز، هل هناك ما يمكن أن تخبرني به غير العفاريت؟

- ألا تؤمن بالعفاريت يا سيدي؟

وفاجأني بأن سحب مسدسه وألصق فوهته بجبيني وبعفوية وبأعلى صوتي قلت:

- أشهد أن لا الله الا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

انفجر ضاحكًا حتى ارتمى على المقعد، وبعدما سيطر على نوبة الضحك التي اجتاحته قال:

- لن أقتلك يا عزيز قصدت أن أخبرك أن هذا المسدس هو العفريت الوحيد الذي يجب أن تخشاه.

لقد أرعبني تصويبه المسدس تجاه رأسي، ولكن ما جعلني أكثر رعبًا قهقهته كعاهرة غير مبالٍ لحال صديقه الذي يحتضر، فهل حُزْن الأمس تلاشى مع بريق الذهب! وعلى الفور طلبت منه الإذن لأخرج قبل أن أتبول تحتي، وهكذا تمكنت من الإفلات من أسئلته حول الكعب حتى أدري ما أقول له.

لم أبتعد كثيرا حتى خرج خلفي متجولاً، راقبته حتى أشار بيده وعاد إلى خيمته، لا حاجة لأخمن لمن أشار بيده فلا يوجد غير اللعين جمال الدين، فهو الذي اختاره ليرافق القافلة ويكون عينَ كاظم ويعقوب، وعدت مسرعا نحو الخيمة واحتللت موقعا يسمح لي بالتنصت واستراق النظر، وكان على مقربة من نجمة الغالية، وقد حملت لها بعض العلف في يميني وتصنمت مُنتظرًا وصول الحقير، وطال انتظاري.

كان شكيب يحمل سيف جودت العتيق ويلهو به وحينما دخل جمال الدين الخيمة وقال:

- سيدي.

رد عليه شكيب دون أن يلتفت اليه:

- اجلس يا جمال.

جلس الحقير ونظر نحو الثقب الذي حشوت فيه عيني، وتوهمتُ للحظةٍ بأنه يراني كما أراه...أهمله شكيب لأكثر من دقيقة واستدار وجلس على المقعد الآخر، وطمأنني بأن حجب الثقب بظهره عن عيني جمال، ولم يصافحه وكان مباشرا في حديثه وقال:

- لقد نقل لي كاظم المجهود الكبير الذي تبذله هنا وكل هذا ستكافأ عليه لاحقا.

- أنا في خدمتكم سيدي.

- والآن أخبرني عن تقييمك لكل فرد في المخيم على حدة.

- حيان لا يخرج من خيمته، ويعتزل فاطمة لما يزيد عن العشرة أيام، وأواظب على مراقبته ليل نهار كما طُلب مني، ولم يبدر عنه شيء يثير الشبهات، وكل تحركاته أبلغها أولاً بأول، والشيخ طبرق يقضي أغلب وقته خارج المخيم ولا يوجد لدي تصريح لمغادرة المخيم لأتمكن من مراقبته، وسالم فهو ساذج لا أكثر، أمَّا عزيز فلا يتوقف عن التلصص على الجميع وطُلب مني مُسبقًا مراقبته، وهو لا يزيد عن كونه أبلهًا فضوليًا، هذا كل شيء يا سيدي.

- وفاطمة ومن معها؟

- لقد طلب مني يعقوب ألا أشغل بالي بهم وأكثف كلَّ جهودي على حيان فقط.

- جيد من اليوم أريدك أن تراقبهم جميعا. أتذكر لقائي بك في المعسكر قبل شهرين تقريبا أيها الملازم جمال؟

- نعم أذكر، وأنا لم أترق إلى رتبة ملازم يا سيدي.

- رتبة الملازم ستكون في انتظارك بعد انتهائك من المهمة التي سأكلفك بها.

- سمعًا وطاعةً يا سيدي.

- المهمة التي اخترتك لها حساسة وتحتاج إلى قدر عالٍ من السرية، هل بإمكاني الاعتماد عليك أيها الملازم؟

- نعم سيدي.

- مهمتك أن تخفي الشيخ طبرق من الوجود دون أن تترك أثرًا لذلك.
- نعم يا سيدي ولكن سلاحي الشخصي تمت مصادرته من قِبَل كاظم ويعقوب.
- أعلم ذلك، عندما تبدَّل طريق سير القافلة حُظر على الجميع حمل السلاح وبعد انتهائك من مهمتك سأعيده لك.
- أحتاج سلاحًا وتصريحًا للخروج من المخيم حتى أتمكن من تنفيذ المهمة بلا أثر.
- سأجد طريقة لترافق الشيخ خارج المخيم، وأعتقد أنه تم تدريبك جيدا لتتدبر أمرك بغير سلاح.
- عُلم وسيُنفذ يا سيدي.

يقف شكيب ويربت على كتفه ويقول:

- سريةٌ هذه المهمة، حتى كاظم لا يجوز أن يعرف شيئًا، ومن اليوم أنقل لي مباشرة كل تقاريرك، واحرص أن تفعل هذا في سرية، وسأبلغك بساعة الصفر، بإمكانك الانصراف الآن.

ابتعدت قبل خروجه، وسرني أن جمال الدين كان صادقا معي ومع حيان ولم يكشف سرًا، وأرعبني هذا الشكيب اللعين؛ لم تمر ساعة وها هو يقرر قتل الكعب، وإن فعلها جمال سأجد نفسي عالقًا بين قتلة يصعب السيطرة عليهم، القدر يسخر مني حقًا، لقد أوهمت الكعب أن جمال سيقتله لعله يخلصني منه، والآن أجد أن أكاذيبي تصير حقيقة، ولن أسمح بموته في هذه الظروف، ولابد من إيجاد طريقةٍ لإنقاذه، اللعنة على هذه القافلة لا شيء فيها يسير كما أريد!

تأبى شمس الخميس أن تفارقنا، ومازلنا نرقب دفن الميت الحي، ولا يبدو أنه في عجلة من أمره ليقابل ابن خالته يعقوب، سبحان الله! ضبع خدش ساق سلامة وربما كان مجرد كلب ومات على أثره، وسحق ضبع ساق هذا الناعم، والتهم جزءا منها، وتذوق آخر القليل من لحم ذراعه، ونزف معظم دمه ومازال حيا! فهل يعقل أن الموت يحب الفقراء أكثر من الأغنياء؟! أم

أن المشعوذة المصرية قد تمكنت من حبس روحه داخل جسده، لا أستغرب عنها شيئًا بعدما رأيتها تقحم مُصران بعير في حلقه لتجعل منه محقنا للسوائل الغريبة إلى جوفه، لعلها بهذه الطريقة تعوضه عمَّا فقده من دماء! وهذا مما دفعني إلى التسلية بالتلصص على آخر فنون الشعوذة والطب لأجد الطبيب التركي الذي جاء به كاظم يقف يائسا حائرا ويردد:

- لنتركه يموت بسلام.

وترد عليه رباب:

- سنبذل جهدنا حتى يأذن الله بموته.

يبدو لي أن هذا الطبيب الشاب ليس ذا نفع، وأعتقد أن شعوذات هذه الساحرة ستبعده عن القبر الذي ينتظر ليحتضنه بشوق، شعرت بالجوع وعزمت على الذهاب إلى خيم المؤن بحثًا عن طعام غير مسمم، ولم يكن أمامي إلا المعلبات التي تفوح منها رائحة كريهة، وما كنت لآكلها أبدا ولكن طعامًا رخيصًا بلا سُم خيرٌ من طعام شهي يرسلني إلى حيث ذهب طبيلة.

أخذتُ بعضًا منها وعدت إلى خيمتي ووجدت الملط اللعين جالسا على فراشي يعبث بحقائبي ويبدو أنه عثر على كنزي الصغير؛ الأسوار والسلاسل الذهبية، لم يتفاجأ ولم يبال بدخولي بل واصل عبثه وسألني أن أهديه إحدى السلاسل فاختطفتها منه وأعدتها إلى الحقيبة وأخبرته أنها لخالتي دولت وبإمكانه أن يطلب منها أن تعطيه، فطلب مني الجلوس بجانبه فادعيت اختناق الجو وطلبت منه أن نجلس خارج الخيمة، هذا الحقير بعدما جرني لأفعل معه ما فعلت، ثم طردني من خيمته أتقزز من رؤيته ولا أحب أن يجمعني به مكان، جلسنا خارج الخيمة وعلى مرأى من الجميع بدأ يمطرني بالأخبار وحينما انتبه أن ما حمله لم يثر انتباهي انتقل للحديث عن الآثار التي تحملها فاطمة، وشدني بحديثه عن تمثال لـ"نبوخذ نصر" من الذهب الخالص طوله متر وعرضه 40 سم، وأن فاطمة لا تنام إلا بعد تقبيله، وأسعدني أن نبوخذ نصر أقصر مني قامة، وانتقل بالحديث عن جلجامش، وادَّعى أن لديها أكثر من لوح ذهبي وقبل استفساري انتقل بخباثة لسؤاله عن طبرق:

- سمعت أن هذا الشيخ الذي لا ينبت الشعر في وجهه يتكلم مع الجان.

جرة ذهب

فوزي عبده

- نعم هو ملك الجان.
- هذا الحرذون ملك؟
- إنه ملك ملوك الجان ولا يوجد عفريت من الجن إلا ويخضع له.
- لقد سمعت أنك رأيتهم، فهل يشبهون البشر؟

أصفهم بما يتناسب مع شذوذه، وهو لم يتوقف عن ترديد:

- (ووو واو ا و نار نار).

وسأل:

- وهل يعرف قراءة الكف هذا الشيخ تبرك؟

استفزني سؤاله وقلت:

- هو إمبرطور الجان، وقادر على فعل الخوارق، يقرأ الكف والقلب والكبد.

في غنج النساء قال:

- حبيبي عزيز خذني إليه ليقرأ كفي.

جاهدته كي أتملص منه، ولكنه قطع لي وعدا؛ إن رافقته سيأخذني لأرى تمثال نبوخذ نصر الذهبي ولم أكن لأقاوم عرضًا كهذا، سار أمامي وذهبنا معا إلى خيمة ملك الهذيان والهبل، وقبل اقترابنا صادفتنا نيروز خارجة من الخيمة إلى جهة مجهولة فاعترض الملط طريقها وقلَّد طريقة رباب بالكلام:

- (ازيك يا نونو).

ردت بفتور أثار استغرابي وابتعدت مسرعة، ولم أجد طريقة لأخبرها ألا علاقة تربطني بهذا المخنث، وألا حبيبة لي سواها، دخلنا الخيمة واستقبلنا الكعب، ودلَّع الملط الأحرف والكلمات ورجا الشيخ أن يقرأ له كفه، وما كان من الكعب ليرده خائبا، فأمسك بكفه وأخذ يتأمله كخبير وافتتح الكلام:

- أنت اسمك مالت تحب العطور والحرير، وتعمل مع امرأة ذات شأن كبير، وعلى جسدك أكثر من شامة، وأنت فنان مبدع وووو

الملط فتح فمه للذباب مشدوها بقدرات الكعب الخارقة على التبصر وتمزيق حُجب الغيب، وأنا رغبت أن أبصق على المتحدث بغرور والمستمع بذهول؛ ومَن في المخيم لا يعرف الملط المخنث! خادم فاطمة، المعطر المُكتسى بالحرير، والشامة التي على رقبته تشير إلى أنها لن تكون يتيمة، أمَّا عن اتهامه بأنه فنان مبدع فكلٌّ مَنْ في المخيم مبدعون وفنانون وعباقرة، هذا ما يعتقده الجميع، وكلُّ ما نطق به الكعب من هذيان يبرع فيه سالم إن أراد، وليته لاحظ أن الملط اللعين غيَّر ملامح وجهه أكثر من مرة للتلاؤم مع ما يقوله! وأنه ما جاء إلا ليتعرف شخصيته، وربما أرسلته فاطمة لغايةٍ ما، واهتزاز قدم الملط وتحريك أصابعه لم تشر إلى إعجاب، وإنما إلى أنه قد ملَّ وفاض صبره، وفي أجواء هذا الهذيان عزمتُ على أن أقدم احتجاجًا إلى ممالك الجان والدجل ليعزلوا المسخ عن منصبه لسوء أدائه، وانتهت جلسة قراءة الطالع وفي طريق خروجنا قال الملط:

- (الشيخ هذا شاطر كثير عزووو).

فأجبته:

- إنه ملك العفاريت، والآن متى ستأخذني لأرى تمثال نبوخذ نصر الذهبي كما وعدتني.

فقال:

- اصبر، وسأحضره إلى خيمتي وأدعوك لتراه عندما تسنح الفرصة.

أسررتُ قولي:

- عليك اللعنة أيها الملط! وتريد أن تلبسني العار أمام نبوخذ نصر بعظمته.

وانقضت الليلة ولم ندفن الذهب ولا جودت، وكان صباح الجمعة باردا والشمس لا تكاد تصلنا بعدما حجبتها الغيوم فشرعتُ أطاردها لأنعم بدفئها، ثم قمت بمهامي كالمعتاد وذهبت لأطمئن على جودت أفندي، دخلت خيمته الجديدة وكان نائما وبالقرب منه الطبيب لم أشأ أن

أزعجهما ولكني عزمتُ على قلق ذلك الطفيلي سالم الذي نقل فراشه ونام بجوار الأفندي، ركلته بقدمي عدة مرات حتى أفاق وهمست له أن يتبعني، وحين وصلت إلى موقع عرشي طلبت منه أن يعد لي القهوة لأشتم رائحتها ورد علي:

- (ما بدي أعملك قهوة أنا بطلت اشتغل عندك).

لم أتوقف عن التحايل؛ فأنا جائع وبحاجة لمن يتذوق الطعام قبلي للتأكد من خلوه من سم الأثرياء القاتل، ولكن الحقير رفض أن يأكل حتى حبة زيتون وقال:

- (انت بصقت عليه وبدك تطعميني منه أنا مش أهبل وأنا شبعان ما بدي أكل، رباب طعمتني أنا والحكيم).

ولم يكن أمامي إلا لغة التهديد، فهددته بأني لن أعطيه سيجارة واحدة، والحقير أخرج علبة سجائر فاخرة الصنع من جيبه وقال ما لم أفهم:

- (ما بدي تتنك وبطلت اتتن تتن حقاريص)

وأدار ظهره وتركني، وخمنت قوله: إن سجائري سيئة وأنه انتقل إلى السجائر الفاخرة، ولابد أن مصدرها الطبيب الجديد ولا حاجة لأشغل عقلي بسالم وأسراره، يوم أو يومان سيموت جودت ويغادرنا الطبيب ولابد أن سالم قد سهر الليل وهو يحكي له عن قصص القافلة، وإن انتبه شكيب لهذا فسيحرص على أن يصعده المركب المبحر إلى عالم الأموات ليعتني بجودت هناك.

ذهبت إلى جمال الدين وأزعجت منامه وحينما تأكدت أنه لن يعود للنوم تركته وعدت إلى عرشي ولابد أن يتبعني مثل الكلب من أجل القهوة والسجائر، وجاء خلفي لاهثا جلس وسألته:

- مالي أراك مشغول البال يا جمال؟

فرد ساخرا:

- مولاي السلطان: اليوم سأحقق أحلامك وسأخلصك من أعدائك الثلاثة.

قلت:

- لا أعداء لي يا جمال الدين.

فقال:

- خصومك ومنافسيك على العرش هم أعدائك يا مولاي.

يروق لي أن يخاطبني بـ"مولاي"، فقلت له:

- هات ما عندك يا جمال وإن أحسنت القول سأكافئك.

رماني بنظرة غامضة وقال:

- عزيز أعد القهوة واجلب معك السجائر والحق بي إلى خيمتي ولا داعي لإضاعة الوقت على لعبتك الغبية.

وقبل أن ينصرف أسرعت وقدمت له الجبنة والزيتون ورفض –مثل سالم– أن يتذوقها وتركني وانصرف فبصقت على ظله وأعددت الإفطار، وذهبت لأختبر الطعام على حب حياتي نعناعة وعشيقها، وكان قبيحًا في استقبالي، قدمت له الإفطار فالتهمه، وسرني أن نعناعة كانت نائمة ولم تشاركه، وتساءلت، "إن كان الطعام مسمومًا هل سيؤثر في هذا الحيوان؟" لم أجد داعيًا لأهدار الوقت عليه سأعود لاحقًا حينما تفيق حبيبتي، ولمَّا هممتُ بالانصراف استوقفني وسألني عن الأخبار فأخبرته:

- شكيب مازال نائمًا، وجمال الدين في خيمته، وبالأمس اجتمعا معا وسمعت أزرق العينين يقول: "اعتن بالشيخ طبرق يا جمال الدين ونظِّف خلفك جيدا وستجد بدلة ملازم في انتظارك".

انصرفت مسرعًا وقطعت السبيل على أسئلته، واعتقدت بأني أنقدته وتخلصت من جمال، ومما قاله روهان يوما: "ثق بالحرامية أكثر من السرخفية"، وتناولت الطعام بعد اختباره على الكعب، وذهبت إلى خيمة شكيب ووجدت على بابه عسكريًا لم أره من قبل، وراقني أنه لم يكن طويلا وضخما مثل بقية مرافقيه، أمَّا الأغربة فقد انشقت الأرض وابتلعتهم، لابد أن شكيب

قد وجد طريقة لإبعادهم عن المخيم، ربما لثقته الزائدة بنفسه؛ فهو ليس بحاجة لحراسة مدرعة، وربما قال لنفسه: كلَّما قل عدد العارفين عن الذهب كان أفضل...اقتربت من العسكري الكسول المدلل الذي يحرس الخيمة وهو جالس على أحد مقاعد جودت المشوهه فابتسم لي وسألني:

- ماذا تريد؟

شجعني استقباله الناعم وابتسامته الرقيقة لأتطاول عليه فقلت له:

- قف ولا تحدثني وأنت جالس ألا تعرف من أكون! ما كان الصدر الأعظم ليحدثني وهو يمتطي كرسيه.

ولم أكمل جملتي حتى سمعت قهقهة من داخل الخيمة:

- دعه يدخل يا رومي إنه عزيز باشا.

عدلت ربطة عنقي وولجت الخيمة وهمست حتى لا يسمعني العسكري الوغد:

- سيدي جئت لأسالك إن كنت مستعدا للإفطار والقهوة.

وانتبه لسبب همسي، ورفع صوته حتى يسمعه الرومي:

- نعم يا عزيز باشا اطلب من الخدم أن يعدوا لنا الإفطار والقهوة وعد لتشاركني.

سرني كثيرا أن شكيب يجاريني في لُعبتي ويبدو أني سأحبه، وقبل خروجي سألني عن الأخبار، فأجبته:

- الشيخ طبرق لم يخرج من خيمته ولم يأمر بذبح بعير، وجمال في خيمته وحيان كذلك الأمر أما سالم فهو في خدمة الطبيب وأرجو منك أن تستبدله بشخص آخر لأني بحاجة لمساعدته كثيرا لإعداد الطعام والاعتناء بالخيول.

أعددتُ الإفطار والقهوة وعدت وسألني عن فتاة الشيخ وغمز بعينيه، امتعضت وبصقت عليه وقلت له:

- سأقتلك سأقتلكم جميعا، هي لي، وحذار أن يقترب منها أحد.

هذا كان سرًا، أمًّا جهرًا فقد قلت له:

- إنها فتاه مستوحشة تأكل الحراذين والصراصير، وجميع حشرات الأرض ولا تغتسل أبدا يا سيدي.

وانتقلت إلى موضوع آخر:

- متى سندفن الذهب يا سيدي؟

فرد علي:

- اليوم سأقرر، والآن تعال معي.

ولج خيمة الذهب وتبعته، وجلس على أحد الصناديق وأشار إلى إحدى الجرار وقال:

- عندما تنتهي مهمهتنا سأعطيك جرة ذهب مكافأة لك.

أصابني الارتباك، ولابد أنه قرأ ملامحي، هذا الحقير يختبرني متخابثًا، فأحنيت رأسي لأبعده عن عيني، وسكتُّ باحثا عن حل لهذا المازق الذي أوقعني فيه، فسأل:

- هل تدرك ماذا يمكن أن تفعل بجرة ذهب؟

تبرمتُ وعصرتُ عيني واستعرضتُ كلَّ ما قد يثير الحزن في نفسي لعلي أتمكن من جلب بعض الدموع، وأبقيت رأسي منحنيًا حتى سألني:

- ماذا بك يا عزيز؟

فرفعت رأسي ليرى آثار الدموع وأجبته:

- لقد وعدني جودت أفندي أن يأخذني معه لأعمل عنده ويخصص لي غرفة ويشتري لي ملابس ويزوجني، وأخشى أن يطول مرضه ولا يفي بوعده.

ملامح وجهه أخبرتني أن خطتي أتت ثمارها، فقال:

- ولكن هذا الذهب سيكفي حاجتك ويجعلك ثريا.

باستغباء:

- وكيف سأعيش بدون عمل يا سيدي؟

ابتسم وقال:

- لو تعرفت بك في غير هذه الأيام لأخذتك لتعمل عندي.

فأجبته على الفور:

- لا أستطيع يا سيدي لأني سأذهب للعمل في بيت جودت بعد أن يشفى.

رد بعفوية:

- للأسف، يجب أن ترافقَ جودت!

صرفني وبقي برفقة الذهب ومازالت كلماته الأخيرة ترن في أذني: "يجب أن ترافق جودت"، هذا السفاح حاول أن يختبر حقيقتي فكشف حقيقة نفسه، وهو يعرف جيدًا أن جودت في طريقه إلى القبر وهذه ليست الحقيقة الوحيدة التي اكتشفتها؛ بالأمس أزعجني النظر إلى جرار الذهب لأن عددها كان تسع جرار وهو رقم فردي يقلق راحتي ويثير توتري، أمَّا اليوم فقد أراحني النظر إليها لأن عددها ثمانية جرار؛ لقد اختفت الجرة التاسعة من جرار الذهب، لقد عزم شكيب على أن يسرق القليل لنفسه ولن يمر الكثير من الوقت حتى يفقد السيطرة ويهمس الذهب في أذنه: "لا تكتفِ بجرة يا شكيب اسرق جرتين...ثلاث...أربع جرار اسرق كل شيء، اشترِ جزرًا، ابنِ قصورًا، كن سيد نفسك".

أزرق العينين هذا وقع في أسر سحر الذهب وإن عزم على سرقته كله سيبدأ بقتل الجميع، والكعب لن يكون إلا بداية طريق دموي.

اشتد بي العطش فذهبت إلى النبعة وشربت من الماء الجاري حتى ارتويت؛ فلا يقدر أحد على تسميم النبعة، عدت وأعددت القهوة وذهبت إلى جمال الدين لعله يبوح لي بمخططه لقتل الكعب! لأفضحه وأنتهي منه إلى لأبد، قدمت له تقريرًا مثل البقية. وقال:

- ألا تريد أن تعرف كيف سأخلصك من أعدائك الثلاثة؟

فأجبته:

- لا أعداء لي ولكن لا مانع أن أعرفهم، وكيف ستخلصني منهم؟

قهقه كعاهرة هو الآخر، وقال:

- إن طاوعتني وتعاونت معي ستفوز بالجائزة وحدك ولن ينافسك عليها أحد ولكن أرجوك يا مولانا توقف عن البلاهة وافتح أذنيك جيدا.
- أنا مصغٍ ولكن لا تكن مُلغزًا في حديثك.
- بضربة واحدة ستفوز بنيروز وتتخلص من حيان ومن طبرق ومني أيضا، ما رأيك في هذا العرض؟ وقبل أن تجيب أرجوك لا تحاول التظاهر بخلاف ذلك وأرحني من أسلوبك اللعين، اتفقنا؟

فاجأني هذا الملعون، وأراه غامضا في كلامه، كيف يمكن أن يحدث هذا؟! جمال الدين يعرض عليّ أن يخلصني من نفسه، وهل يمكن أن أعترض!

وسألته:

- وما الذي أوحى إليك أنني أريد التخلص منك؟ كن واضحًا يا جمال، وأفصح عن نيتك، هل تنتوي الهرب، وتأخذ معك حيان والشيخ طبرق؟
- لا، أنا وحيان سنموت وطبرق سيهرب وأنت ستفوز بنيروز، وستكون الشاهد على هذا، والآن تعال معي وساعدني على إقناع حيان بالخطة.

لم أفهم شيئًا مما قال، وتبعته إلى خيمة حيان وكان استقبال ابن العربية لنا فاترا، يبدو أنه نسي أنه مكبَّل، ولولا كثرة الخيام لنام تحت شجرة.

كان حيان مباشرًا في حديثه؛ قال لجمال الدين:

- أوجز في كلامك!
- هذا الأسبوع شكيب سيقتلنا جميعا ولن يستثني أحدا.

ضحك حيان:

- وهل أخبرك بذلك؟

- لا داعي ليخبرني بذلك، فقد أمضيت ثلاثة أيام في معسكره قبل أن يكلفني بقافلة المؤن، وسمعت عنه الكثير، ويعقوب تلميذ صغير في مدرسته.

فسأله:

- وكيف تأكدت من ذلك.

- أمرني شكيب بقتل الشيخ سرا، وهذا يعني أنه تجرأ على قتل رجل جمال باشا، ثلاثة في هذه القافلة لا يجرؤ أحد على المساس بهم: جودت، وطبرق، وفاطمة.

فسأله:

- وكيف أثق بأنك تقول الحقيقة؟ وهل تريد أن أهرب معك؟

- خطتي جهنمية لن تجبرنا على الهرب والاختباء كالفئران، ولن يطاردنا أحد، اليومَ سأطلب من شكيب إذنًا بخروجي مع الشيخ وعزيز لدفن الذهب، وسأتمكن من إقناعه بأن ترافقنا، وستقتل أنت الشيخ، ثم نتقاسم الذهب ونختفي، وعزيز الصادق الأمين لا يشكك في شهادته أحد، سيعود ويبلغ شكيب بأن طبرق قتلنا ودفننا، وستمر أيام قبل أن يفتقد أحدٌ غياب الشيخ لاعتياد الجميع غيابَه، وعندما ينقطع أثره سيعتقدون أن سوءا قد لحق به، أو أنه هرب مع الذهب، وأشك أن تكون مطاردته إلى أقاصي الأرض، وسيسجل التاريخ أنه الوحيد الذي فشل الجيش العثماني في العثور عليه، وكلانا لن يكون ضمن قائمة الأحياء ليطاردنا أحد.

- ولماذا تعتقد أني أرغب في قتل الشيخ؟ ولِمَ لا تقتله أنت؟

- لن أستطيع التغلب عليه بفردي.

طال الجدل ولا يبدو أن جمال الدين سينجح في إقناع حيان...تركتهما، وحدثت نفسي: حقًا هذا الجمال داهية وخطته جهنمية، وربما تكون سببًا في موت الكعب، ومع اختفاء المفكرة،

وموت جودت، عندئذٍ لن يكون أمامهم خيار سواي لأدلهم على مواقع الذهب، أعتقد أنها ضربة ثلاثية جهنمية كما وصف جمال، وسأفوز بنعناعة في النهاية، وإن كان المسخ قد أوهمها أنه أمير ممالك الجان فلن أعجز عن إقناعها بأني ملك من أقاصي الأرض أتخفى في شخصية عزيز حتى يلتفَّ حولي أعواني وأسترد مملكتي، وربما سأقنعها بأنى الشيخ طبرق نفسه ولكن في صورة عزيز، ولن ينقصني إلا أن أنهق وأصرخ في الجميع وأكون لينًا معها، ولكن العقبة التي لا يعرفها غيري أني حذرت الكعب سلفا، ولابد أنه استعد للقاء جمال ، أمَّا أنا فلن أشغل عقلي، وقريبا سيُقتل أحدهم وسأناصر القاتل ضد القتيل.

قضيت أكثر من ساعة برفقة الحبيبة نعناعة، ونصف دقيقة للاطمئنان على جودت، ونصف ساعة في محاولة إعادة ترويض سالم، وبينهما رأيت جمال يذهب إلى شكيب ويمضي معه القليل من الوقت، ويعود إلى خيمة حيان، ومن بعيد رأيت فاطمة تجول برفقه كيموو الزنجي، ولم أمنع نفسي من مراقبتها قليلا، ولمَّا أصابني الملل ذهبت إلى خيمة القاتلين المقتولين؛ جمال وحيان ووجدتهما منسجمين، يبدو أن الكعب المسكين وحّدهما بطريقة ما، لم أتفاجأ، ولم أخفِ إعجابي بقدرات جمال الدين، هو أدنى رتبة من حيان، وربما هذا أحد أسباب تأدبه في معاملته، هما من أبناء الجيش، أحدهما ملازم والثاني جندي انتقل إلى السرخفية، وهذا القاسم الوحيد بينهما.

جلست في صمت ولم يتوقف جمال عن محاولة إقناع حيان بمخططه بعدما حصل على موافقة شكيب في أن يرافقنا حيان، لم أشأ إخبارهما بأن الكعب على علم مسبق بنية جمال في قتله، فإذا انضم حيان إلى جمال قد يتمكنا معًا من قتل المسخ اللعين، وبالرغم مما سأحققه من اختفاء الثلاثة من حياتي إلا أني لم أرغب في موت الكعب، يراودني إحساس أن موته لن يجلب عليَّ خيرًا، ووجود نعناعة في أحضانه أو أسفله لا يؤثر في؛ هو بغيض وقبيح وأنا شديد الوسامة مقارنة به، ولكن جمال وحيان فارعي الطول ووجودهما بالقرب منها ينغص عليَّ حياتي.

انتقل جمال من حديث لآخر وحاول أن يجر حيان للحديث عن والده، ولكنه صده بقوة، وضحكت سرًا فهذا الحيان يعتقد ألا يعرف قصته أحد، فقد ثرثر لي قريبه رشيد عنه كثيرًا:

والد حيان كان ضابطا كبيرا في الجيش العثماني، وأثناء خدمته شرق الأردن تزوج ابنة أحد شيوخ القبائل وأنجب منها هذا الحيان ثم هجرها ورحل، وبعد خمس سنوات عاد مع قوة كبيرة من الدرك، وطلقها وأخذ ابنه بالقوة ورحل ثانيةً، وانقطعت آثاره، وأقسم جدُّ حيان لأمه أن يقتله ولو كان في أحضان السلطان، ونشأ حيان في أحضان أمٍّ تركية ومعسكرات الجيش وعاد ببدلة العسكر باحثًا عن أمِّه العربية سرا، ومِمَّا رواه رشيد أن أحد أخواله المطلوبين لدى الدولة كاد يقتله لجهله به، ولُمَّ شمل العائلة ليكتشف حيان أن أمه بعد طلاقها من أبيه العثماني تزوجت من عربي وأنجبت له أختًا وأخًا، وحرص على علاقته بأقاربه العرب دون معرفة والده، وبعدها بسنوات وجد طريقه ليخدم الدولة بفلسطين وشرقي الأردن، والمثير في هذه القصة أن والده طمس كل أثر يدل على أنه ابن عربية حتى أنه استبدل اسمه في الأوراق الرسمية إلا أن حيان تمسك منذ صغره باسمه الأول، واعتاد الجميع عليه كلقب، وقصته هذه لا يعرفها أحد من الأتراك، وأنا كتركي وفيّ للدولة وجيشها لو عرفت هذه القصة في حالٍ غير هذه ما كنت لأتردد في فضح أمره؛ حتى لا يرتقي سلَّم قيادة الجيش وفي عروقه دماء عربية؛ ولكن للقافلة الملعونة قوانينها الخاصة، ولن تميز بين تركي أصيل وهجين، والأسرار الوحيدة التي تعرفها ليست سوى الذهب.

حين انتقل جمال الدين للحديث عن رباب المصرية، حاول حيان التجاهل والتزام الصمت كعادته عندما يتعلق الحديث بالنساء، وأخبره جمال الخبيث بأنه رآها تتسلل إلى خيمته، وسأله عن سر علاقتها بفاطمة، واكتفى حيان بهز رأسه نافيًا معرفته، ولعله فضل الصمت! وهنا استعرض جمال مهاراته في المراقبة والقدرة على التحليل والاستنباط، واستدراج الآخرين إلى الحديث، فقال:

- رباب عربية شرسة لا تحني رأسها لأحد، وفاطمة مغرورة تتصرف وكأنها ابنة سلطان، وما حدث مع جودت يدل على أن هذه المصرية أشبه بطبيبة، وكم شاهدتها تركض مسرعة إلى خيمة فاطمة! فهل ترجح أن فاطمة مريضة بمرض ما؟ لا أعتقد أنهما مجرد صديقتين!

لم ينطق حيان حرفًا...صوت ناعم بغيض وصل إلى مسامعنا من خارج الخيمة:

- (عزوووو عزووو).

ابتسم الاثنان وقال جمال الدين:

- أسرع يا عزوو ولا تترك حبيبك يحترق بشوق الانتظار.

ذبت خجلاً وقلتُ غاضبًا:

- حبيبك أنت وليس أنا.

- لا تغضب، أنا أمازحك فقط، ولكن اخرج إليه فلا حاجة ليدخل ويرانا مجتمعين وتدب الغيرة في قلبه يا عزووو.

بصقت على حيان وجمال بعد خروجي من الخيمة، ولم يكن أمامي مفر إلا أن أصفع هذا المخنث وأحذره من الاقتراب مني ثانيةً، ولكنه همس في أذني:

- أحمل لك هدية، وأخبارًا مثيرة.

قررت تأجيل الصفعة لحين اكتشاف الهدية ومعرفة المثير من الأخبار، وذهبنا تجاه خيمتي ورفضت الجلوس معه داخلها أو خلفها، واخترت الجلوس في مكان لا يثير الشبهات، ويحد من قدرته على التحسيس، وبعد جلوسنا ناولني قطعةَ لحمٍ مقدَّد رائحتها تصرخ وتدعو لالتهامها بلا تردد، وأخبرني أنها وصلتهم حديثًا، أخذتُها ومنعتُ نفسي من تذوقها حتى أطمئن بأنها ليست مسمومة، وسألته:

- من أحضر هذا اللحم الفاخر؟

فقال:

- لدينا مؤننا الخاصة فنحن لا نأكل طعامكم.

أخذ قطعة وأراد أن يضعها في فمي وتملصت منه بصعوبة، هذا الأحمق يعتقد أني سآكل شيئا قبل أن يتذوقه أحد، ماطل كثيرا قبل أن يطلب مني القسم بألا أخبر أحدا، أقسمت وأخبرني أن قافلة فاطمة سترحل عن المخيم خلال عدة أيام وإن وافقتُ سيقنعها بأن أنضم إليهم.

عرضه لمرافقتهم كان مثيرًا، ولكن ما كنت لأتخلى عن نعناعة وما تبقى من ذهب لم يدفن بعد، ولأن أكون برفقة موت يعرفني وأعرفه خيرٌ من مرافقه موت أجهله.

أخبرته بأني سأفكر في عرضه، وقبل أن أسأله عن وعده لي بمشاهدة تمثال نبوخذ نصر اقترب منا المسخ، واعتقدت وقتها أن ما جذبه رائحة اللحم المقدد ولكن تبين– أن رائحة الملط كانت أقوى! حاول الكعب تنعيم صوته ومهما حاول سيبقى نهيقًا:

- كيف حالك يا مالت؟

ابتسم الملط ومهما حاول أن يخشن صوته سيبقى أنعم من صوت النساء:

- مليح، كيف أنت شيخ تبرك؟
- أنا مليح مليح، ما رأيك يا مالت ان آخذك الليلة لتشاهد الجان الأرجواني.

فغر الملط فاهه وقال:

- يا الله! هل أنت جاد؟ نعم أريد رؤية الجن الأريجاوني.

هز الكعب رأسه وابتسم:

- تعال بعد الغروب مع عزيز وسأنتظرك، سأذهب الآن.

وكأن هذا ما ينقصني، أن ينتزع الكعب قلب الملط ويأمرني بطهوه مع البصل، ويورطنا مع فاطمة، هذه القاتلة لن ترحم أو تتهاون إذا قُتل خادمها ومتلصصها، وويلي إن اكتشفت أنى من صحبته وطهوته، ماذا يمكن أن تفعل بي هذه المجنونة، وهي تكرهني دون سبب، فقلت له:

- أنا لا أنصحك يا مالت أن تذهب مع الشيخ فالجن مؤذٍ جدا وبخاصة الأرجواني منه.
- أريد أن أقابلهم وأنت أخبرتني أنهم وسماء الطلعة.
- نعم وسماء ولكن الأرجواني قبيحٌ ومؤذٍ.
- وهل تعرف الأرجواني هذا؟

- لا يعرفه أحد أكثر مني، وسأخلصك من هذا الموقف، سأبلغ الشيخ طبرق أن فاطمة قد منعتك من المغادرة وهكذا لن تتعرض لحرج أو أذى.
- (لا انا اريد ان أراه للجن الارجواني) وهو لم يؤذيك ولهذا لن يؤذني.
- إنه يؤذيني صباحًا ومساءً، ووقت الظهيرة، وأثناء النوم.

فتبرم وقال:

- لا تحاول تخويفي سأذهب مع شيخ تبرك وأنت ستحميني من الأرجواني إن حاول أن يؤذيني.

هذا اللعين أغلق كل الابواب وتركني أمام خيارين؛ الأول أن أحضر البصل وأستعد لطهو قلبه وتقديمه للكعب، والثاني أن أثبت له كم الأرجواني مؤذٍ لعله يتراجع، وأخرج من هذا المأزق! فكشفت له عن ظهري ليرى التشوهات التي تركها سوط يعقوب، وقلت له:

- هذا من صنع الجن الأرجواني، هل تريد أن يشوّه جسدك الناعم هكذا؟

وضحك ابن الحرام وقال:

- أنت كاذب يا عزووو ولا تريد أن يشاركك أحد في الأرجواني، هذه العلامات من تعذيب يعقوب لك والجميع يعرف القصة.

تركني وانصرف بعد أن أكّد على لقائنا مساءً، وذهبت إلى الكعب لعنة الله عليه لعلي أجد طريقة تمنعه من قتل الملط وأكله! وعرضت عليه أن أذبح له بعيرًا لعله يأكله ويسكت جوعه! فقال:

- لا رغبة لي بطعام حاليا.

فأعطيته اللحم المقدد، وقلت له:

- خذ تذوق من السيد مالت، وقد وعدني أنه سيحضر لي كمية كبيرة منه بعد غد.

كنت آمل أن يتركه حيا طمعا في المزيد من اللحم المقدد الشهي، ولكنه التهمه دفعةً واحدة وقال:

- لذيذ لذيذ، اليوم بعد الغروب اصحب مالت إلى منطقة الصخور حيث وجدتم الولد وكن حريصًا على ألا يراك أحد.

تركته، وللحظة خطر ببالي أن اذهب إلى فاطمة لأبرئ نفسي من دم خادمها ولكني عدلت عن سذاجتي في إخبارها أن الشيخ طبرق عزم على أن يتعشى على خادمها المخنث، ومرت ساعة وجاءني شكيب نفسُه وأرسلني لاستدعاء الكعب إلى خيمته، وحين وصلنا لم يعترض طريقنا سوى حارس شكيب الهزيل، ولم أجد سببا لدخولي الخيمة، وبقيت بجوار الرومي الذي أفسد عليَّ التنصت، وكل ما وصلني أن بعد الغد سنعود لدفن ما تبقى من الذهب، وحين سأله الكعب عن الخدم أخبره بأنه سيحضرهم قريبا، ولكن عليه الآن الاستعانة بما يتوفر من رجال، كان واضحًا أنه يدفعه إلى حيان وجمال الدين.

كان غروب الجمعة وجاءني الملط، ولم تنجح محاولة يائسة أخيرة كي يتراجع عن مقابلة الجان، وما كان لدي ما أفعله إلا أن أصحبه إلى الصخور، ولم نجد المسخ اللعين، وهناك انتظرنا ساعة وخلالها لم أر أي أثر لخوف في عيني المخنث اللامعتين مع ضوء القمر، وتساءلت:

- هل يشعر بكل هذا الأمان لاعتقاده أني سأحميه؟ ليت بإمكاني إخباره بأن الكعب سيشق صدره ويخرج قلبه وسأطهوه له ليأكله، وقد تشاركه نيروز!

وظهر المسخ اللعين –كعادته– فجأة واصطحبنا إلى ساحة متسعةٍ سترتها الصخور عن الأعين، وانزوى يداعب الملط ويلاعبه، وأنا أرقب منتظرًا أن يسحب خنجره ويغرسه في صدره.

لم يحدث شيء مما توقعت، ولم يخطر ببالي أن الخنجر الذي سيستخدمه، الكعب الشاذ سيفرح قلب الملط كثيرا، وحدث ما حدث وكان ما كان، وابتهج الملط ومعه الكعب ، وشعرت

بالكثير من الحرج؛ لقد اعتدت أن أرى شق الصدور وأكل القلوب، ولكن الطقوس الأرجوانية الشاذة أخجلتني كثيرا، وتركنا الكعب بعدما أوصاني بالملط.

قليلةٌ هي اللحظات التي أكره فيها نفسي، وهذه القافلة الملعونة مازالت مصرة على أن تنعم عليَّ كل يوم بلقب جديد وها أنا أتحول إلى قوَّاد الكعب، ولتكتمل هذه الليلة كان لابد للملط أن يغرد واصفا مشاعره من مقابلة الجن الأرجواني:

- أنت لئيم يا عزيز أردت الاحتفاظ به لنفسك.

وبعفوية فتى صغير يدافع عن شرفه أخذت أتخطف أنفاسي، وأبصبص بسبابتي نحوه وأقسم له بأني لم أعرف أن هذا الأرجواني هو المقصود ولم أقابله في حياتي، فرقَّص حاجبيه، وأسبل جفنيه، وابتسم، ثم قال:

- لا لا أنت تقابله صباحا ومساء وظهرا وقبل النوم، هكذا أخبرتني، ولم تكن تريد أن أشاركك فيه (أيها الملعون).

لديه الحق كله في أن يظن بي الظنون، أنا مَنْ أخبرته بأني خير من يعرف الأرجواني، وما خطر ببالي أن العفريت الأرجواني سيكون على هذا الشكل، وهل هناك طريقة في العالم تمكنني من إقناع هذا الشاذ بأني لستُ عاهرة الكعب التي يزورها صباح مساء! تجتاحني رغبة في أن أصرخ "هوووووع" وأقول لهذا الحقير:

- اخسأ يا لعين أنا لستُ مومسًا ولا قوادًا! أنا عزيز، سفاح، قاتل، أرتشف دماء البشر، وأطهو القلوب والأكباد، ولا علاقة لي بالأرجوانية.

بلعت نسل خنجر حاد لأمنع تدفق سيل الكلمات من الوصول إلى حنجرتي حتى لا تتزلق عبر شفتي، اللعنةُ على هذا الملط! فليذهب بظنونه الشاذة إلى حيث يشاء؛ فلا حاجة لأبرر لهذا الشاذ اللعين مَنْ أنا، ولكن مَنْ أنا حقًا! وهل صفة السفاح والـ"قاقا باقا" تشرفني، أم أنها أقل عارًا من الأرجوانية؟!

انتهت ليلتي بالملط وبدأت صباحي بشكيب حيث جاء بنفسه وأيقظني من نومي وطلب أن أستعد خلال دقائق لأرافقه في مهمة عاجلة، فارتديت حذائي ولا شيء آخر لأرتديه وهرعت

وراءه بين اليقظة والنوم، فأشار إلي أن أمتطي أحد الأحصنة، وبدأنا نشق طريقنا إلى خارج المخيم جنبا إلى جنب كصديقين، وكانت المرة الأولى التي أمتطي فيها حصانًا منذ رافقت القافلة، وتمنيت أن نتجول بين الخيام لألفت انتباه الأوغاد ليروا عزيز أفندي على صهوة حصان بجوار اليوزباشي العظيم شكيب، نعم العظيم يرافق عظيم، وكما قال روهان بيك: "تعظيمك لمكانة رفيقك هو مديح لنفسك".

بلغنا حدود المخيم وكانت بانتظارنا حاشية تضم عشرين جنديا لترافقنا، وسرني ذلك كثيرًا وعزَّز مكانتي النفسية كباشا، وكانت المفاجأة حين طلب مني أن أقوده إلى حيث هاجمتنا الضباع، وعلمت أنه اختبار لما ادعيته، هذا اللعين يبدو أذكى مما تدل عليه تصرفاته.

وفي غياب جودت وإيليا وأبيه واختفاء الخرائط لم يتبق مَنْ يعرف مكان الذهب غير الكعب، لهذا يرغب في أن يختبرني قبل أن يأمر بقتله، لابد أن أكون أكثر حذرا، وبدأت أراقب الجبال والتلال وكل شيء يمكن رؤيته من بعيد، ولم أكن في حاجة إلى هذا كله كي أستدل على مكان الضباع، وثرثرت كثيرًا حتى أصبته بالملل:

- انظر يا سيدي إلى ذلك الجبل لقد أخبرني جودت أن رؤيتي له ستذكرني بأني سأمر بالقرب من صخرة كبيرة.

وتكرار ثرثرتي دفعه ليأمرني بالصمت، ولم يتوقف عن مراقبتي، لم نكن نتجنب الطرق المألوفة، وصادفنا بعض العرب، ثم وصلنا إلى المنطقه الأثرية، ومنها إلى الصخور وجحور الضباع، وأشرت بيدي فطلب مني ألا أنبس بحرف حتى يأذن لي، وحين صرنا في المكان المنشود وشاهد آثار الدماء التي جفت، أمر جنده ببدء البحث عن مفكرة جودت، وحذرهم من الضباع الكامنة في الجحور، وسألني عن المكان الذي دُفن فيه أبو إيليا به فقلتُ له:

- كنت مختبئا بين الصخور لهذا لا أعرف عنه شيئا، ربما تخطَّفته الضباع.

ثلاثة من الجنود يقفون بالقرب منا، وبعدما أمرهم بالانضمام إلى البقية واطمأن ألا يسمعنا أحد سألني عن مكان دفن الذهب فأشرتُ له بيدي وقال:

- هل أنت متأكد؟

فقلت:

- نعم.

فقال:

- إن حفرنا سنجده؟

فقلت:

- أنا على ثقة سيدي.

اقترب من الصخرتين يتفحص التربة، ثم عاد وربت على كتفي وصمت، وانتقلنا إلى الصخرة التي نقش عليها أبو إيليا –رحمه الله– رموزه ورأينا نقشًا لثلاثة أصابع ونقشًا رابعًا كان واضحا أنه لم يسعه إكماله بسبب حادثة الضباع –لعنة الله عليها وعلى العرب– وهمس في أذني أن أدله على مواقع أخرى، لم أشأ أن أطلعه على بقيةِ المواقع، ولكني اضطرابي لتذكري ليلة الضباع دفعني لأخبره أننا مررنا عليها في طريقنا، فسأل:

- لماذا لم تخبرني؟

فقلت:

- لأنك لم تطلب مني سوى أن أدلك على هذا المكان، وأنا لا أحب الثرثرة فيما لم يُطلب مني يا سيدي.

ضحك واختبرني بثلاثة مواقع أخرى وفي طريق العودة مالت الشمس إلى الغروب، وطلب مني أن آخذه إلى أقرب مواقع الدفن إلى المخيم، وعند وصولنا إلى الصخور التي تشبه رأس الخنزير صرف جنوده بعيدا للبحث عن المفكرة وأمرهم ألا يعودوا إلا بإشارة منه، ثم طلب مني الحفر ليرى جرة الذهب بعينيه، فأستحضرتُ سانتورًا ليقول له:

- أحتاج القليل من الوقت لأصرف الجن يا سيدي.

فقال:

- أتمازحني ياعزيز؟

فقلت:

- أقسم بالله أني جاد فيما أقول وإن لم تصدق تعال واحفر بنفسك وسترى جان الـ"قاقا باقا" الذين سخرهم الشيخ لحراسة الذهب.

كان بين مُصدِّقٍ ومكذب عند قوله:

- وكيف ستصرفهم؟

فأخبرته أني كنت أراقب الشيخ وهو يعلم خادمه بيبرس كيف يصرف الجان عن الذهب، فقال:

- هيا اصرفهم إذًا.

وصرف جان طبرق لم يكن صعبًا، القليل من الهراء كافٍ لطرد الهراء، لم أجرؤ على التجرد من ملابسي مثلما كان يفعل طبرق، ولكني شرعتُ أقلد حركاته وأنشد الـ"باقا قاقا" بطريقة عكسية:

- (اقاق اقابلا اقاق اقبلا).

ثم امتنعت عن الحركة، وبدأت أتحدث إلى الصخرة وكأنها تسمعني، وألوح بيدي وأرسم في الهواء دوائر ومربعات، وأتمتم، وأغمغم واكتشفت أني موهوب في صرف الجان، ولست أقل خبرة من الكعب، وربما يوم ما سأطيل شعري وأشتري عباءة، وثلاث خناجر، والكثير من الخواتم، وأتوج نفسي ملكا على الجان...انتهيت من صرف الهراء وسرت نحو شكيب جاحظ العينين فناولني مجرفةً صغيرةً ولم ينطق، حفرت حتى ظهرت الجرة، وطلبت منه أن يساعدني في إخراجها لثقلها فأمرني بتركها مكانها وكسر قطعة صغيرة منها تمكنه من رؤية الذهب فقط، وثلاثة ضربات كانت كافية لأشقها ومع الرابعة لمعت عيناه وبرقت، وفقد السيطرة على لسانه من سحر ما رأى، وقال:

- ادفن، أسرع، ادفن، أعد التراب.

تلفتَ حوله وكأنه خشى أن تشاهد بريق أجساد جواريه العارية أعين متطفلة، وللحظة سرني أني من قمت بتعريتهن، وبصقت عليه في خيالي وأخبرته أنني صاحب هذا الذهب ولن يحصل عليه غيري...انتهيت من طمر الجواري الحسان وأوصاني بإخفاء كل أثر ونفض ملابسي من التراب، وتحركت وفاجأني حينما قال:

– ألن تعيد الجان ليحرس الذهب؟

هل يسخر مني أزرق العينين أم بدأ في تصديق الهراء بفعل سحر الذهب؟ لم يكن أمامي خيار سوى أن أعيد مسرحية الكعب الهزلية غير مبالٍ بما يعتقد، فإما أنني صرتُ أحمقًا في نظره، أم صار هو الأحمق ليصدق هذا الجنون، وأديت رقصة السعدان وأنشدت الـ"قاقا باقا" كما ينشدها الكعب هذه المرة، ثم أخبرته أني انتهيت، وبناء على طلبه صحبته إلى الصخرة ذات النقش، وبعدما عدَّ الخطوات التي تفصلها عن الجرة المدفونة سألني:

– لماذا كان نقش الرموز قريبًا من الدفن عند جحور الضباع؟

ولم أشأ إخباره بأن جودت لم يجد صخرة بعيدة عنا، أو أنه كان خائفًا من إطالة البقاء، وأحنيت رأسي وأخبرته أني لا أعرف.

غربت الشمس وأنار ثلثا القمر طريق العودة، وطرح علي ألف سؤال وأصابني بالملل، وسرني أنه لم يختبرني وإنما أراد التأكد من قدرتي على الوصول إلى كل موقع الذهب، هذا الحقير يعتقد حقًا بأني سأرشده ليسرق ذهبي ثم يلحقني بجودت بعد انتهاء دوري، ولكن لا بأس فإن آمن بهذا فسيكون ترتيبي الأخير في قائمة الموت.

غادرنا الجنود ودخلنا المخيم، وبلغتُ خيمتي مرهقا عطشا جائعا؛ فمذ حديث حيان عن سم الأثرياء القاتل وأنا ممتنع عن الطعام والشراب حتى أطمئن أن فاطمة لم تسممه.

وأشرقتْ شمس الأحد وعزمتُ على بدء نهاري بالاطمئنان على صديقي القديم جودت أفندي؛ فلو عدل عن رأيه في مفارقة الحياة ستهلكني شخصية السانتور الجديدة التي اضطررت لها مؤخرًا، ذهبت إلى خيمته الجديدة حيث يرقد وبجواره سالم الأبله والطبيب، وسبحان مقلب القلوب! لقد رقَّ قلبي مذ وقعت عليه عيني، ودعوت الله له بالشفاء! و تراجعت فورا عن دعائي

لما فيه من المخاطر بعد الأكاذيب التي كذبتها على لسانه...تركته وذهبت لأطمئن على ما تبقى من ذهبي حيث استوطن شكيب، فاعترض طريقي الرومي البغيض وكان مُهذبًا في تلقيبي "عزيز باشا"، ورجاني ألا أوقظ اليوزباشي.

ذهبت إلى نجمة وأدهشني أنها عافتْ العلف والماء؛ لم ينقص مما تركته أمامها شيء، كانت على غير عادتها، رأيت الحزن في عينيها، هل يعقل أن الحيوانات تعي ما يدور حولها وتمتلك من المشاعر ما يفتقده البشر من أجل متاع الدنيا! ولكن لا بأس سأعيد السرور إلى قلبها وسأعتني بها، هذا ما أوصاني به جودت قبل موته لقد قال:

– اعتن بنجمة يا عزيز ولا تسمح لأحد أن يمتطي ظهرها غيرك؛ تلك هي وصيته قبل موته.

لن يصدق أحد هذه الكذبة ومثل هذه الفرس الأصيل ستلفت الأنظار نحوي وتفضحني لذا يجب أن أتنازل عن فكرة الاستحواذ عليها، سأتركها لشكيب، ولكني لن أتنازل عن نعناعة قط.

لم نتجاوز العاشرة صباحا وزارتنا عاصفة شرسة ألقت علينا السلام، ولم تطل البقاء، وأخذت معها خيمة الكعب والكثير من الخيام، فهرعت أنا وجمال الدين لمساعدته في لملمة الكثير من الثياب ذهبت مع الريح وجاوزت حدود المخيم لتحط في أحضان الأغربة السود القابعين خلف الصخور، كانت خسائر نعناعة كبيرة؛ حلَّقت رائحتها الأنثوية مع ملابسها الحريرية إلى ما الصخور حتى عبرت النهر، وكاد الكعب يطير وراءها.

ركضنا لاهثين في مطاردة حرير نعناعة، وتذكرتُ صديقي طبيلة حينما كان يركض ويطارد الفراشة، وتشاءمت؛ فما حدث لا يبشر بخير.

انتهينا من صيد الحرير وجمعه وشعرت بالاشتياق لصديقي الضخم وذهبت إلى قبره عند النبعة، وجلستُ إلى جواره واسترجعت مواقفه البريئة وبذلتُ جهدي في استعطاف الدموع لتزور وجنتي وأشعر بحرارتها، وبخلت عيناي بدمعة واحدة فتذكرتُ ما قاله روهان بيك: "عندما تتحجر المشاعر تجف الدموع.

أحدث طبيلة لعله يسمعني:

- أحتاج أن أبكيك يا صديقي ولكن دموعي أبت أن تطاوعني، هي لم تفارقني يوما ولكنها خذلتني عند احتياجي لها، أعدك يا صديقي عندما أعود مع الذهب وأكون ثريا سأزور أمهر الأطباء ليعيد إليَّ حزني ودموعي، وسأذكرك وقتها وأبكيك كثيرا، لن أدعو لك بالرحمة ولن أدفع لأحد قطعة ذهب واحدة ليدعو لك بها؛ لأن مثلك لن يحتاج إلى دعاء أحد؛ يا ملاكي الضخم لا تنس يوما أني اعتنيت بك وأطعمتك، واعلم أن الجنة فيها ما تشتهيه الأنفس، ولن تجوع فيها أبدا، ولكني اليوم أقف على أبواب جهنم وأحتاج إلى شفاعتك، فلا تنس صديقك "عذيز عذيز"، وأرجو منك ألا تشفع لأحد غيري فجميعهم أنذال لا يستحقون، وجميعهم يخططون لسرقة الذهب، ولم يفكر أحد منهم أن ينذر جزءا منه لعمل الخير سواي، أنا ولا أحد سواي عزم على بناء مسجد ومدرسة، وأيضا سأبني ملجأ للعمالقة المساكين أمثالك، ولو كلفني الأمر أن أبحث عنهم في كهوف الغيلان، وسأطعمهم كل يوم وجباتٍ ثلاث، وسأشتري لهم كسوة ونعلاً كل عام، وسأدعو الله ألا يكون عددهم كثير، وألا يكون لك إخوة يعيشون في تلك المغارة بالقرب من رام الله حتى أستطيع الوفاء بنذري.

لم أنتهِ من نذوري الجديدة لعلها تدخلني الجنة حتى قاطعني صوت ينادي بما أحب أن أسمع:

- عزيز باشا عزيز باشا.

كان الرومي خلفي، جاءني ليستدعيني لمقابلة اليوزباشي فلبيت نداءه، دخلت عليه وكان يحتسي قهوته وعلى الطاولة آثار تدل على أنه تناول إفطاره، يبدو أن الرومي خادم في ثياب العسكر، امتعضت لسرقة مكانتي، وطلب مني الجلوس على أحد المقاعد وبدأ يحدثني كصديق، ولم يفعلها جودت، وكانت المفاجأة؛ بعد دقائق دخل الرومي وقدم لي فنجان قهوة، لا أكاد أصدق نفسي هذا الشكيب يعلي من قدري، ويجيد التعامل معي مثل الباشوات، تركت حذري من سم فاطمة وأجبرت نفسي على احتساء القليل منها، كم أكره القهوة! وأكره التفكير في أن الرومي بصق فيها، سأقتلك أيها الخادم رومي إن ثبت أنك فعلت ما أفعله مع الآخرين! شعرت بطعم البصاق فيها وبالرغم من ذلك أسكرتني متعة غريبة؛ لقد صرتُ سيدًا أجالس السادة.

تحدثنا واستمتع بحديثي وعلمتُ أنه لم يطمئن على جودت منذ الأمس، ستة أمتار فقط تفصله عن خيمته، ودقيقة واحدة ستكون كافية ليطمئن عليه ولم يفعل، بالرغم أنه وجد وقتا لقص شعره الأشقر، إن انعدام وفائه لا يبعث على الطمأنينة ويثير بداخلي القلق...وقف وتبعته إلى خيمة الذهب، وقد اختفت جرةٌ ثانية، لقد سرق الملعون جرتين من ذهبي وإن تهاونت معه سيسرق بقية الذهب، لابد أن أراقب لأعرف مكان إخفاء الجرتين لأخرجهما لاحقا عند عودتي، ازدحمت الخيمة بعدة صناديق حديدية صغيرة لا يتجاوز عرضها وطولها وارتفاعها أربعين سنتيمترًا، وصندوق كبير يزيد عرضه وطوله عن الثمانين سنتيمترًا، لم أدر شيئا عن موعد وصولها أو كيفيته، فأنا أحتاج إلى عشرة من عزيز المتلصص لأتمكن من مراقبة كل شيء في هذا المخيم...أمرني أن أملأ ثلاثة من الصناديق الحديدية بالذهب وأن أطمئن على إغلاقها جيدًا، واتسع كلُّ صندوق لأكثر من ثلث ما تتسع له الجرة، وحينما انتهيت طلب مني الذهاب إلى الشيخ وإبلاغه بأننا سننطلق جميعا مع الغروب لدفن الصناديق.

أسرعتُ إلى الكعب وأخبرته، وسألني عن قصدي بالصناديق، وهنا شككت بأن إرسالي كان لهدف أن أخبر الكعب بأني ملأتُ الصناديق ذهبًا وليس من المُستبعد أن يفرغها ويملأها ترابًا، وعدتُ إلى شكيب لأعلمه بأني أبلغت الكعب فطلب مني ومن الرومي أن نجرَّ الصندوق الكبير خارج الخيمة وكان ثقيلاً فساعدنا، وبصعوبة بالغة تمكنا من جره، أمَّا الصناديق الصغيرة فكانت خفيفة الوزن فخلتُ أني أستطيع حمل اثنين منها بمفردي.

انتهينا وكان لدي متسع من الوقت حتى غروب الشمس، قضيته بالتجوال، وكنت أشتم رائحة مؤامرة في كل بُقعة من المخيم، أعلم جيدا أن شكيب أمر جمال بقتل الكعب، وأن جمال طلب مساعدة حيان، وما أراه من انسجام بينهما يدل على اتفاقهما، ولكن هل سيصير اللئيم غبيًا لينولهم فرصة قتله!

وبعد غروب شمس الأحد أخذنا أهبة الاستعداد للانطلاق، كان الصندوق الحديدي ثقيلا، ومن سيرفعه على ظهر البغل المسكين؟ وهنا جاء دور جمال الدين وأرسل في طلب مفتول العضلات حيان ليساعده في التحميل، وهذا التكتيك أثار إعجابي، وكان كافيًا لإقناع الكعب بضرورة مرافقة حيان، ومرافقة شكيب لنا أزالت كل أثر لشك، وانطلقنا...الكعب المسكين

سيواجه هذه الليلة ثلاثة قتلة بمفرده، وفرصة نجاته شبه معدومة، وتساءلت كيف ستنجح خطة هرب جمال وحيان بعد قتل الكعب برفقة شكيب؟ ولم يتأخر الجواب؛ بعد خروجنا من حدود المخيم بعدة أمتار سمعنا صوتا قادما من الخلف، التفتنا وكان الرومي مسرعًا نحونا، همس في أذن شكيب، وهنا اعتذر عن مرافقتنا وعاد أدراجه...لم أدر هل طرأ طارئ أم كان جزءا من الخطة الجهنمية التي لم يطلعني أحد على تفاصيلها؟ وبعد مغادرة أزرق العينين رأيتُ ابتسامة الكعب.

هذه الابتسامة أثارت بداخلي الريبة، وأردت أن أخبر حيان بأن الكعب يعلم مسبقا بنية قتله على يد جمال الدين ولكني تراجعتُ، لعلي كنت موقنًا بأن الكعب لن يتمكنَ من التغلب على قاتلين فارعي الطول تم تدريبهما في الجيش على القتل، وماذا يمكن لكلماتي أنا القصير الهزيل أن تغير شيئا من الواقع! لم نبتعد عن حدود المخيم كثيرا، ربما نصف ساعة مشيا على الأقدام والقمر بثلثيه كان منيرًا، والسماء صافية خالية من الغيوم، ورنين السلسة التي يجرها حيان خلفه أصابتنا بالصداع، وطلب منه جمال أن يرفعها فوق كتفه، وتوقف الكعب بجوار بئر جافة لم تبلغها الأمطار؛ ربما لأن مَنْ حفرها أخطأ في اختيار مكانها، وربما حُفرتْ أثناء الحقبة البيزنطية، ولتغير تضاريس الأرض بمرور الزمن ما عاد موقعها يناسب تجمع الأمطار...أمرني الكعب جلب مجرفةً وفأسًا وحبلاً واللحاق به، ولم يطلب من القاتلين شيئا، ولابد أنهما وجداها فرصة لتخطيط تنفيذ القتل، اقترب من البئر وجثا على ركبتيه ومدَّ رأسه في عنقها، ثم ربطنا الحبل سويًا في شجرة قريبة، وأمسك بالحبل وانزلق إلى قاع البئر وجميعنا نراقب، وكانت فرصة ذهبية للقاتلين، ولم تمر نصف دقيقة حتى خرج من البئر ونادى عليهما ليحضرا ثلاثة صناديق إلى جوار البئر، ولم يجد الحقير غيري ليطلب منه النزول، وبدأ يرشدني على مسامعهما إلى الزاوية الصالحة حفر ودفن الذهب، وما كنت لأخالفه على فزعي ورهبتي من الآبار...أمسكت الحبل استعدادا للنزول واقترب مني هامسًا في أذني:

- كن حذرا، فالبئر مليئة بالأفاعي، وإن اقتربت منك إحداها تجمد مكانك وستبتعد من غير سوء، ولا تفزع فهي لن تهاجمك إلا دفاعا عن نفسها...

لم يكن هناك داعٍ لأسمع المزيد عن الأفاعي التي علا فحيحُها في خيالي وهاجمتني ولدغتني حتى جرى سمها في عروقي، وألقيت الحبل وأسرعت مبتعدًا عن البئر، وبأعلى صوتي أعلنت:

- لن أنزل ولو قتلتموني.

المسخ يضحك في جنون ولم يفعلها من قبل إلا حينما أراد جودت أن يرسلني لشراء الطعام من العرب، المسخ اللعين أبهجه خوفي وأصر على نزولي البئر فتدخل الشجاع حيان وأحكم ربط الحبل في الشجرة وشد السلسة على خصره حتى لا تعيق حركته وأمسك بالحبل واستعد للانزلاق إلى قعر البئر ونظرات الكعب الخبيثة حركت كل حواسي وأدركت أن همسه في أذني كان جزءًا من مخطط خبيث لدفع حيان إلى نزول البئر دون إثارة الشكوك، ولم أجد ما أفعله سوى أن أرفع صوتي لعل حيان يفهم ويأخذ حذره! قلت:

- يا شيخ طبرق أنت لا تدفن الذهب في الآبار! يا شيخ أنت لم تدفن الذهب في الآبار من قبل.

والأحمق حيان الذي اعتاد أن يفكر بقلبه لا عقله تجاهل ما قلت وانزلق إلى البئر ودعوت الله أن تكون الأفكار التي راودتني أوهامًا، مدَّ الكعب رأسه في عنق البئر وسأله عن التربة.

فأجابه حيان:

- إنها جافة.

فطلب منه اللئيم الخروج قائلاً:

- اصعد؛ فهذه البئر لا تصلح لدفن.

وماذا كان يريد الخبيث أن يسمع من حيان ليجيز أن قاع البئر صالح للدفن؟ هل أراد أن يسمع: إن التربة مبللة!

تسلق حيان الحبل وأطل برأسه وكلمحٍ بالبصر سحب الكعب خنجره وحاول حيان صده بيده، وسمعت صوت ارتطام جسمه بقعر البئر، وملامح الكعب دلت على أنه لم ينجح في ذبحه، بالرغم من آثار الدماء على نصل خنجره، جمال الدين تجمد مكانه وبدا مرعوبا، فرماه الكعب بنظرة وقال:

- صدق عزيز، أنا لا أدفن الذهب في الآبار إنما أدفن الرجال، ما رأيك أن تنزل البئر لتنظر إن كان حيا؟

صمت جمال ولم يرد عليه، فتابع:

- اذًا هيا اظهرا بعض الشفقة نحوه وأسرعا لنريح هذا الرجل من عذابه، فلا داعي لأن نتركه يموت جوعا وعطشا، سنغلق عنق البئر ونمنع عنه الهواء ونهبه موتا سريعا، تعال يا جمال وساعدني في دفع الصخرة، وأنت يا عزيز اخلط التراب بالماء وآتني به.

وماذا أفعل أنا غير الطاعة إن كان جمال الدين مرعوبا ولم يفعل شيئًا لإنقاذ شريكه، فعلتُ ما طلبه ودفعنا الصخرة بعد ربطها بحبل وساعد البغل في جرها، وأغلقنا منافذ الهواء، وليتني تمكنت من إحداث شق ليتنفس كما فعلت مع عبد القادر! ولكن مَنْ أنا لأواجه الكعب! حملنا الصناديق الحديدية الصغيرة على الحمار مرة أخرى، وسرنا ما يقارب الساعة وفي الطريق سأل الكعب جمال ساخرًا ولم يلتفت اليه:

- هل أحضرت مسدسك الذي تخفيه تحت الصخرة ليدرأ عنا خطر الضباع، أم أنك اعتمدتُ على خنجر صديقك الذي أخفاه تحت ملابسه؟

وعى جمال الدين رسالة الكعب، لقد كشف الخبيث مخططهما لقتله واستعد لهما، وهذه الليلة المشئومة لن تكون نهايتها سعيدة، وعلى الفور نزع مسدسه من خلف ظهره وصوبه نحو الكعب الذي التفت إليه قائلاً وهو يضحك:

- هل قتلت أحدا في حياتك؟ الأمر ليس بهذه البساطة يا جمال، والآن أخبرني قبل أن تقتلني إن كنت معتقدًا أنك قادرٌ على ذلك، هل أمرك شكيب بقتلي؟ وهل تعتقد أنه سيتركك على قيد الحياة أنت أو غيرك؟

زاغ بصر جمال، وبرقت عيناه رعبًا، وارتجف سلاحه في يده...والكعب كان مطمئنا وكأنه يواجه وردة تهديها له نعناعتي ممَّا أثار ريبتي، وحان وقت ذاكرتي اللعينة؛ أتذكر ملامح وجه الحذاء عند الخطر، وأتفحص وجهه الآن؛ هذا السفاح لم يكن شجاعا قط عند مواجهة الموت، ودائمًا يأخذ فريسته على حين غرة؛ فهو جبان خائن قبل أن يكون قاتلاً سفاحًا، لقد أدركت استعداده لهذه المواجهة وعزمتُ ألا أكون متفرجًا؛ وقفت بين الاثنين ظهري ناحية الكعب وجعلتُ من صدري درعًا يواجه مسدس جمال، وقلت له:

- اقتلني أنا ولا تقتل سيدي الشيخ طبرق.

ولم أكف عن الغمز بكلتا عيني وحاجبي لئلا يضغط على زناد مسدسه وكان ذكيا، أعاد المسدس خلف ظهره ولم ينبس بحرف، وضحك الشيخ وقال:

- بما أنك لا تنوي قتلي إذًا التزم بالعهد الذي بيننا وهيا لننهي عملنا وسأدلك على مَنْ يجب أن تصوب سلاحك إلى صدره.

وفاجأني المسخ بأن طوق عنقي بذراعه وقبَّل رأسي ، هذا الخنزير اعتقد أني كنت سأضحي بحياتي من أجله، وواصلنا طريقنا برفقة التوتر والقلق، وكان الكعب يسبقنا تاركا ظهره مكشوفًا لجمال، ولم يلتفت مرة واحدة وكأنه يقول له:

- إن كنت تجرؤ افعلها.

تمنيت لو أن جمال يجد الجرأة ويهوي بحجر كبير على مؤخرة رأسه ويسحقه...نحفر تحت إمرة الكعب لدفن الصندوق الكبير، وابتعد عنا قليلاً وهو موقنٌ بأني لن أخونه قط، وسألني جمال:

- لماذا منعتني من قتله؟

كنت أعتقد أنه أذكى من سؤاله الغبي، فأجبته:

- لأنك لا تستطيع أن تقتله.

فرد ببلاهة:

- ولو كان معه جميع قبائل الجن كان بإمكاني قتله.

استفزني قوله فقلت له:

- سأبول عليك أنت والجن أيها الأحمق، الشيخ طبرق جبان ولا يجرؤ على مواجهة أحدٍ إلا غدرا، ألم تلاحظ أنه لم ترمش له عين في وجه سلاحك الأبله؟ ألم تصغِ حين أخبرك بمكان إخفاء مسدسك؟ هل أمسيتَ أحمقًا في هذه الليلة المشئومة!

ورد علي الغبي الداهية صاحب الخطط الجهنمية:

- وماذا يعني هذا؟ كان بإمكاني قتله.

رميته بنظره ساخرة وقلت له:

- احفر يا جمال الدين لعله يدفنك هنا ويخلصنا منك! أنا لم أحمل سلاحا يوما ولكني عرفتُ أن مسدسك فارغ من الرصاص.

أشغلت نفسي بالحفر ولم أنظر لأستمتع بآثار صفع كلماتي على وجهه، كنت أتمنى لو أنه في البئر بدلاً من حيان، إلا أن سرعة بديهيتي أشعرتني بفخر وتفوق على جمال العسكري الذي طالما سخر مني، وها هو يحفر كالكلب الذليل ويفكر في عزيز افندي الذي أنقذه من الموت؛ لقد توهم طبرق أني خادمه المخلص، وقد عاين الليلة أمارة ذلك، اعتقد الأبله أنني لن أتأخر عن التضحية بحياتي من أجله، وجمال الذي طالما سخر مني كان يرتجف كفتاة صغيرة عندما أشهر مسدسه في وجه الكعب، انتهينا ودفنا الصندوق الكبير بلا "قاقا باقا" وبلا هراء، ولم يكن ذلك ليكون سهلا لولا قوة البغل التي يتمتع بها المسخ، وبعد مسافة حفرنا ودفنا أحد الصناديق الثلاثة، وعند دفن الصندوق الأخير خرقه الكعب بالفأس وأخرج منه بعض قطع الذهب ودسها في جيبه، وقبيل وصولنا حدود المخيم اقترب من جمال وقال له:

- ابسط كفَّك، وانظر في عيني وعاهدني ألا تخونني مرة أخرى.

بسط جمال كفَّه، وبدأ الكعب يسقط فيها قطع الذهب الواحدة تلو الأخرى وأمره أن يعد معه؛ واحد...اثنان...ثلاثة...أربعة...ولمَّا وصل إلى العاشرة أمره أن يحكم قبضته على الذهب وقال له:

- هذه عشر قطع من الذهب؛ تسعةٌ منها جئتَني بها من أحمد شيخة وشكرتُك على ذلك حينها، وها أنا أعيدها لك حتى لا تنسى العهد الذي قطعته على نفسك، أما العاشرة فهي مقابل مساعدتك لي عندما لدغتني الأفعى، والآن هل تعرف لماذا أنا على ثقة بأنك لن تخونني مرة أخرى؟

وقبل أن تتحرك شفتاه صعد خنجر الكعب وانغرس تحت ذقنه وخرج نصله من طرف أنفه ومنع انفراج شفتيه وتدفق شلال من الدماء، ولم يغلق جمال الدين عينيه في انتظار الجواب وتابع المسخ:

- لا يستطيع أحد أن يخون وهو ميت.

ظل ينظر في عينيه حتى جثا جمال وجثا معه الكعب، وسحب مسدس الغبي وبمقبضه ضربه على رأسه وطلب مني أن أمسك ذراعيه وأشدهما إلى الخلف، لم تبقَ لدى جمال قوة ليقاوم، ورحل شخيره مع الدماء التي تدفقتْ من فمه، ووضع الكعب المسدس على الأرض، وسحب خنجره الثاني وبرقة ونعومة أخذ يشق صدره، وأخرج قلبه ووضعه على كفه وكان مازال نابضًا!

أراقب وأتساءل عن شعور جمال الدين في تلك اللحظات؛ هل شعر بألم؟ هل فَقَد وعيه قبل غرغرة روحه؟ لم أحب هذا الرجل أبدا، ولا أشعر بالأسى تجاهه، ورغبة مجنونة تجتاحني لأتذوق قطعة من قلبه، لعلي أختبر ذلك الجنون الذي يشعر به الكعب كلما أكل قلب أحدهم، لم أجرؤ أن أطلب ذلك ولم يدعوني الكعب لتذوقه، ولو فعل ما كنت لأعارض...أمرني بالحفر وساعدني، ثم سحبنا القتيل إلى الحفرة، والتقط المسدس من فوق الأرض، وانتصب يحمله على كفه، وما تبقى من قلبه على كفه الثانية، وألقى المسدس وما تبقى من قلبه فوق جثته وقال:

- هذا السلاح يصيبني بالغثيان؛ لا يجوز قتل رجل من بعيد.

وأسعدني أنه لم يطلب أن أطهو له القلب أو الكبد؛ فأنا مرهق وأشعر بالنعاس ولا طاقة لدي لإشعال النار وإعداد الطعام؛ انتهينا وعدنا أدراجنا، وفي الطريق سألته:

- ماذا أخبر شكيب إن سألني عنهما؟

- أخبره أنهما سخرا من الجان فقتلتهما وأكلت قلبيهما، ولا تخبره تفاصيل أخرى.

رافقني حتى حدود المخيم وتركني وذهب ليتحدث إلى الأغربة المسلحين الذين يحرسون مدخل المخيم، أسير وحيدًا وأضحك كمجنون؛ الجزء الأكبر من مخطط جمال الدين قد أُنجز بنجاح؛ مات هو وحيان، والجزء الذي لم يُنجز بعد هو أني سأحصل على الذهب لاحقا ولا حاجة لأتقاسمه مع أحد.

ذهبت للنوم ولم أشغل عقلي بالتفكير إن كان المسدس فارغًا من الرصاص أم محشوًّا، وكيف استطاع جمال إقناع حيان بمرافقته؟ وهل مازال حيًا أم تسبب سقوطه في دق عنقه؟ لم أجد داعيًا لأفكر في شيء وقتها سوى ذهبي وقصوري المستقبلية، فأنا القصير الهزيل لن أغير شيئا في عالم فارعي الطول الشجعان.

أفقت من نومي سعيدا واندهشت لهذه المشاعر التي افتقدتها منذ زمن، وتساءلت لماذا لا أشعر بالحزن على حيان؟ وكيف فكرت للحظة في تذوق قلب جمال الدين؟ هل هي بداية التحول إلى مسخ؟! غرست ظفري بيدي لأختبر شعوري بالألم، وذهبت بخيالي باحثا عن حزن ودموع لأختبر إنسانيتي، ماذا فعلتِ بي أيتها القافلة الملعونة! وهل ثمانية وستون يومًا قضيتها برفقتك قادرة على مسح ثلاثة وعشرين عاما، وخلق إنسان آخر!

لمتُ نفسي كثيرا على المبالغة في تحمل مسؤولية مصير الآخرين، فما ذنبي فيما يحدث؟ أنا أضعفهم جميعًا، ماذا يمكن أن أفعل إن عجز حيان عن الدفاع عن نفسه، ولم تنفعه عضلاته المفتولة ولا طوله أمام مكر الكعب ودهائه! لم يأخذ برأيي، ولم يطلعني على خطته، ولم يلتفت إلى تحذيري، أنا لا أكرهه، ولكن من العدل قولي: إنَّ المسخ قتلهما دفاعا عن نفسه، ولو لم يفعل لقتلاه...وهل حزني عليه سيزحزح الصخرة ويدخل الهواء البئر حتى لا يموت اختناقا! ليرحمه الله! وسأضمه لقائمة الموتى الذين سأنفق بعضَ الذَّهب صدقةً لأرواحهم تنفعهم

يوم لا ينفع كلٌّ ذهب الأرض، وهكذا حسمت جدل نفسي، وشعرت بالراحة في هذا الصباح الخالي من جمال الدين وحيان، وعزمتُ ألأ أشغل فكري إلا بنعناعتي ولكن شكيب عزم على غير ذلك.

لم يطقْ الصبر حتى أذهب إليه، وأرسل الرومي في طلبي، ولعله بحث عن جمال فلم يجد له أثرًا! سألني عن أخبار الأمس، وكانت فرصة لإماطة اللثام عن سر تقاعس جمال عن مساعدة حيان، وبدأتُ روايتي عن دفن الذهب كالمعتاد، وأعلم أنه لم يسعَ لسماعها، ماطلتُه مُستغلاً مواهبي السانتورية فغاب صبره، وكان مباشرا في سؤاله عن حيان والشيخ، ولم يسأل عن جمال الدين، فأدركت أنه قد خطط مع جمال لقتل حيان أيضًا، وتابع سانتور الأبله حديثه: وبعدما قُتل حيان ودفناه ودفنا الذهب، وفي طريق العودة، وقبل اقترابنا من المخيم قتل الثاني، فبرقت عيناه وقال في لهفة:

- وأين دُفن الشيخ طبرق؟

فقلت له:

- لقد تركته على حدود المخيم فجر اليوم ولا أعلم إن عاد لينام في خيمته أم لم يعد.

كشَّر عن أنيابه وأمسك بقميصي وضيَّق عليَّ الخناق، وصرخ:

توقف عن بلاهتك وفسر ما تقوله؛ من مات ومن عاش؟

لم أزد في روايتي على الطريقة السانتورية سوى أن الكعب أكل قلبيهما لأنهما سخرا من الجان، وحين اشمأز بالغت وأسهبت في وصف شراهته وحرصه على التهام القلبين أثناء نبضهما، كان يكفيني غباؤه –ولم أكن بحاجة لذكاء– لأفهم أنه خطط لقتل الكعب وحيان في ليلة واحدة، هذا السفاح يحب القتل جملةً واحدةً، ولا وقت ليهدره، توتر ورأيت القلق في عينيه، ثم تظاهر بالهدوء وزيَّف ابتسامته واعتذر لي وقال:

- سأعتمد عليك أن تقطع لسانك يا عزيز وتخبر مَنْ يسألك عن حيان أنه قد هرب وإياك أن تخبر أحدًا أنه قُتل.

هذا الجبان لم يشغله قتل جمال الدين، وإنما بدا عليه الخوف من قتل حيان، ولأني أعي السبب جيدًا قلت سرًا:

- سأخبر فاطمة فقط لتسمم طعامك أيها النذل.

مسكين هذا الحيان لقد قتله غروره وثقته الزائدة بنفسه، انساق خلف جمال الدين ولو نجا من الكعب ما كان لينجو من شريكه، في النهاية لكل أجلٍ كتاب، ومَنْ أنا لأقرر مَنْ يموت ومَنْ يحيا!

اعتقدت أن هذا اليوم سيمر كبقية الأيام، لقد اعتادت القافلة على فقد أهلها، ولن يستوقف أحدًا غيابُ أحد قبل مرور اليوم أو نصف اليوم، ولكن هذا لا ينبغي مع حيان الرجل، لم تنتهِ الشمس انتشارها حتى بدأت نساء المخيم البحث عنه، وغاظني هذا كثيرا، ماذا يفعل هذا الوغد للنساء! إنه لا يملك ما يقدمه مقارنة بي، أنا سيد المؤن وأوفر ما يحتاجه الجميع، هو مجرد عالة يقضي معظم وقته في النوم والتسكع، ومع هذا يحبه الجميع وبخاصة النساء منهم، نعناعتي لعنة الله عليها لم تراعِ مشاعري وجاءت تسألني عن آخر عهدي به، ولم أرغب أن أخوض معها جدلا واختصرت جوابي:

- لم أره اليوم.

تركتني لتتسلمني رباب وتسألني فاختصرت جوابي أيضًا:

- لم أره اليوم.

فسألت:

- وبالأمس هل رأيته؟

أجبتها:

- نعم كان في خيمته كعادته.

تركتني وذهبت، وكنت آمل أن تأتي فاطمة لتسألني أيضًا لأصرخ بأعلى صوتي وأقول: "أبعدوا عني هذه المجنونة" ولكن هذا لم يحدث، ولن يحدث، فمن مثلها لا تخرج من

خيمتها إلا ما ندر، ومن بعيد أشار إليَّ الكعب فأسرعت الخطى وحين اقتربت منه استقبلني بابتسامة وقال:

- تعال يا صديقي لنجلس تحت شجرة السرو تلك.

لم أخفِ استغرابي؛ الكعب يبتسم لي وينعتني بصديقه، هل لدغته أفعى وبلغ السُّم دماغه؟! أم أنه حقًا على قناعة بأنِّي جعلتُ من صدري درعًا يقيه الرصاص؟! جلستُ على حَجَر وتربَّع على الأرض، وسألني عن شكيب وعمَّا دار بيننا من حديث، وكنت صادقًا في روايتي، وحرصت على إخباره بوصية شكيب؛ وهي أن أخبر الجميع بأن حيان قد هرب، فضحك وقال:

- أزرق العينين هذا يرتعد خوفًا من العاهرة الغجرية، ويتوجب عليه أن يرتعد مني أنا.

وتابع:

- هل أخبرته كيف أكلت قلب جمال الدين؟

- أخبرته بأنك أكلت قلب الاثنين.

- لنر إن كان ذلك كافيا ليعيده إلى الصراط المستقيم، وأخبر الجميع كما طلب منك لا داعي لنفسد خططه الآن.

وطلب أن أعدَّ له الطعام فسألتُه ساخرًا:

- هل ترغب في الزيتون والجبن مع قطعة حلاوة، أم ترغب أن نذبح لك أحدا ونشوي لك قلبه كما تشتهي؟

- لا رغبة لدي في كبد الجِمال، اشو لي القليل من اللحم ولا تجعله يحترق كما فعلت في المرة السابقة.

دلَّ كلامُه على أنَّه لمْ يدرك ما رمزتُ إليه، فأخبرته بألا يتوفر لحم لأشويه، فقال بعدما ضرب على صدره كقرد يعلن قوته:

- اذبح يا عزيز ولا تكترث بأحد وإن سألوك قل لهم "الشيخ طبرق أمرني بذلك".

هذا الحمار لا يدرك أنه ما عاد في القافلة مَنْ يسأل أو يذبح، وتلك هي المشكلة التي أواجهها الآن، لقد ذُبِح كلُّ ذابح، ولم يعد موجودًا مَنْ يقدر على ذبح دجاجة ليذبح جملاً، وشعرت بالعار والخجل في إخباري هذا المسخ بأني أعجز عن ذبح خروف لأجرؤ على ذبح جمل.

تركني في حيرة وانصرف وما كان أمامي إلا أن أستنجد بالسفاح الثاني لعله يشفق على حالي ويساعدني في الذبح، فذهبت إليه سانتورًا وبدون مقدمات أو تمهيد قلت:

- أعطني مسدسك يا سيدي وسأعيده إليك بعد قتله.

ضحك وسألني:

- ومن ستقتل يا عزيز باشا؟
- الجمل يا سيدي، الشيخ طبرق جائع وإن لم أطعمه قد يفكر في أكلي أنا.

وفي هدوء سحب شكيب مسدسه ودفعه إليَّ ولم يكن أمامي خيار إلا أن آخذه، وبدأت أقلِّبه وأتفحصه وأنظر إلى فوهته، وما كنت بحاجة لأتظاهر بأني أجهل كيفية استخدامه، فهي المرة الثانية التي ألامس فيها سلاحًا في حياتي، وبعدما راقبني سألني:

- هل تجيد استخدام السلاح يا عزيز؟

فهمستُ بسانتورية:

- لا يا سيدي ولكن أرجوك لا تخبر أحدًا.
- لا تخفْ، سرك معي في مأمن.

نادى على الرومي وطلب منه أن يذهب ويذبح أحدَ الجمال ويساعدني في إعداد الطعام، ولم يخف عليَّ أنهما يسخران مني بعدما كرر شكيب للرومي مكانتي الباشوية للمرة العاشرة، ولكني أحببت ذلك كثيرًا...ذبحنا وشوينا وأطعمت الكعب ولم أنس صديقي سالمًا، وتناولت الطعام برفقة صديقي العظيم شكيب في خيمة الذهب، ولحم الجمل جلب له النعاس فتركته وعدت لأبحث عمَّا يشغل وقتي.

الشمس تنسحب في هدوء ليطل ما تبقى من القمر ويراقب مخيمنا، وأطلتْ رباب قادمة نحوي، كانت تسير بخطى بطيئة، ولكن الطريقة التي تدفع بها ساقيها وتحرك ذراعيها لا تدل على أنها جاءت لاحتساء القهوة معي وهيأت نفسي لملاقاة الهدوء المصطنع الذي يرافق خطواتها ويسبق العاصفة التي أطلت من عينيها، وعزمت على صفعها إن تمادتْ لتعرف بأن عزيز اليوم لا يشبه ذاك الذي صفعته وخلخلت أحد أسنانه من قبل...وقفت أمامي كمعلم يتفاخر بسلطته وقوته على أحد تلامذته الضعفاء وقالت:

- عزيز للمرة الثانية سأسالك أين حيان؟ وإياك أن تكذب عليَّ، حذارِ أن تكذب يا عزيز.

أجبتها بتقزز:

- لقد أخبرتك بأني لم أره.
- لقد رأوه يرافقك أنت وجمال الدين بالأمس.
- هذه أسرار لا ينبغي الحديث عنها أمام أحد وبخاصة النساء.

صكت أسنانها وأعادت السؤال:

- أين حيان؟

ومن أجل أن أدفعها لتكون أكثر عنفًا في صك أسنانها عسى أن تتكسر وتفسد ابتسامتها الساحرة قلت:

- في المرة القادمة سأسأله قبل أن يختفي: أين ستكون يا حيان لأقدم تقريرًا لرباب؟

اشتد الغضب بالحقيرة وأخرجت من جيبها ذلك السكين الفضي الذي شقت به لحم جودت وقالت:

- أقسم بالله لأخصينك إن لم تخبرني بالحقيقة.

المصريةُ اعتقدتْ أنّي سأرتعدُ أمامَ سكينها الصغير وأنا لم يرمشْ لي جفن حينما ساعدت خنجر الكعب في قطع الرؤوس وشقِّ الصدور، لقد طهوتُ قلوبَ البشرِ وأكبادَهم، ولكنّي آثرتُ

الحكمةَ على الفتوةِ، وعزمتُ ألا أختبر قوةَ سكينٍ فضي أنثوي تحمله امرأة حزينة غاضبة وقد يصيب رجولتي أبد الدهر، فاختصرتُ وأخبرتُها:

- لقد هرب.

- وكيف هرب والسلسلة في قدمه؟

- لقد فكها وغافل الشيخ طبرق وهرب.

ملامح وجهها تخبرني أنها لا تصدق، ولكنها أرختْ قبضتها عن السكين فاطمأن قلبي قليلا، وقالت بعدما زمَّت شفتيها:

- ما كان ليهرب ويتركك خلفه يا عزيز.

وبعفوية قلت:

- لو كنت من أقاربه العرب لاهتم لأمري، لا يحبني أحد في هذه القافلة إلا طبيلة رحمة الله عليه.

بصوتٍ شجي كاد يصيب قلبي:

- حيان ما كان ليحنث بوعد قطعه على نفسه.

- إن وعدكِ ألا يتركِكِ فاعلمي أنه حنث بوعده وهرب يا رباب.

- لو كان يسعى للهرب لفعلها منذ زمن طويل؛ قبل عبورنا النهر.

- سلسلة فاطمة منعته من الهرب.

مدت كفها في وجهي وفتحته فإذا به قطعة من الحديد مسننةً أطرافها، وقالت:

- انظر جيدا؛ ما كان حيان بحاجة لمِفتاح فاطمة، لقد صنع لنفسه مِفتاحًا، وجدتُه اليومَ حيث اعتاد على إخفائه، ولو كانت لديه نية للهرب لأخذ مفتاحه معه.

وترقرقت عينيها بالدموع وقالت:

- أنت قذر ولا تستحق شيئا، لقد رجوته ألف مرة أن يهرب ورفض لأنه قطع وعدًا لروهان بيك أن يعيدك سالما إلى تركيا ولو دفع حياته ثمنًا لذلك.

أصابت كلماتُها قلبي، وعندما تلفظت باسم روهان كادت الدموع تفرُّ من عيني، ولمَّا لاحظتني شرعت تبكي وتقول:

- لقد قتلوه أليس كذلك؟

لم أدرِ ما أقول، وكان صمتي كافيا ليزيد بكاءَها وقالت:

- ولماذا لم تساعده وهو صديقك؟

- وماذا يمكنني أن أفعل!

كان جوابي متسرعا وأكد شكوكها، فسألت:

- أين دفنتموه يا عزيز، أين؟

أجبتها غاضبًا:

- لا أذكر، لا أذكر.

- لماذا تكرهه إلى هذا الحد؟! أعتدتَ أن تقابل الحب بالكراهية يا عزيز؟! هل تعلم أنه لم يكن يغمض له جفن حتى يطمئن على عودتك سالما في كل ليلة كنت ترافق فيها طبرق؟ هل تعلم أنه هدَّد جمال الدين إن لحق بك أذى ليقتلنه؟ أكلُّ هذا لأنك تغار على نيروز؟ أيها الأحمق لقد رأى حيان فيها أخته الصغيرة، لقد كان يشفق عليها فقط! أرجوك إن بقيت بداخلك ذرة خير واحدة أن تخبرني عن مكان دفنه لا أريد منك أكثر من هذا، أرجوك.

كلماتها كانت قاسية؛ أربكت سانتورًا وعزيزًا، وكلَّ باشا وأفندي سكن أعماقي، أفقدتني صوابي وأثارت جنوني، وأعادت إليَّ ذلك السؤال اللعين: "هل تسببتُ فيما حدث له؟!" ولم أجد إلا الصراخ في وجهها ووجه عواطف مكبوتة ستنفجر وتحولني أشلاء:

- لا أعرف، لا أذكر، لم أسمع، لم أر شيئًا، لا يوجد شيء أخبرك به، لا أستطيع أن أفعل شيئًا، أنا سانتور هزيل الجسم قصير القامة ماذا تريدون مني، هل يجب أن أموت لترضوا عني وتحبونني، لا أريد حبكم، أنا أكرهكم جميعا ارحموني واتركوني فقط!

وانفجر مني ينبوعٌ من الضَّعف والدموع، أبكي كالأطفال، عدتُ عزيزًا قبل انقضاء ثمانٍ وستين يوما، وأقسم أني حينها ما كنت بحاجة لشيء أكثر من أن تحضنني وتدعني أبكي فقط، بكيت كطفل تاه عن أمه في زحمة الحياة ووجدها بعدما أشرف على الضياع...أمسكت بيدي امرأةٌ حنَّانةٌ وقالت:

- لا أحد يكرهك، وجميعنا نهتم لأمرك وعندما بلغنا ما فعله بك يعقوب حزن الجميع وغضب من أجلك، وسهرتُ طوال الليل حتى أعددتُ لك مرهمًا ليشفي جروحك ويخفف من آلامك، وطلبت من أبي إيليا ألا يخبرك عني، فليس من الضرورة أن يصرح لك مَنْ يحبونك بمشاعرهم طالما أنه حب صادق خالٍ من المصلحة، وعليك أنت أن تشعر بهذا الحب يا عزيز.

كلماتها الرقيقة دفعتني لأقع في شباكها وبدأت أستريح من أعبائي، وأروي لها كيف خدعه الملعون، وألقاه في البئر وأغلق منافذ الهواء ليموت اختناقا. وما إن سمعتْ أنه في البئر وكيف أغلقنا عنه منافذ الهواء حتى تبدل حنانها قسوةً، وهجمت عليَّ، وشدَّت على عنقي، وانهالت بالشتائم:

- أيها الحقير النذل لو أخبرتني صباح اليوم حين سألتك لكانت الفرصة أكبر لإنقاذه.

المصرية تحولت في لحظات من ملاك إلى وحش وأنا لمت نفسي على تهوري، وقالت:

- يجب أن ننقذه.
- فات الأوان على ذلك، وإن نجا من خنجر الكعب والسقوط في قعر البئر فلن ينجو من انعدام الهواء.
- لعل الله كتب له النجاة! هيا أسرع معي إلى فاطمة وأخبرها بما حدث، وستجد هي طريقةً لإنقاذه.

فأجبتها على الفور:

- لن أذهب إلى الموت، إن لم تقتلني فاطمة سيقتلني طبرق أو شكيب، لا علاقة لي بكل هذا.

فعاد صوت الملاك وتلاشى زئير اللبؤة وقالت:

- أرجوك يا عزيز تعال معي إلى فاطمة وأخبرها بما حدث.

شعرتُ بدنو أجلي، ورأيت الموت يحيط بي من كل جانب، فقلت لها:

- لن أذهب، وإن سألتني فاطمة سأخبرها أنك كاذبة وأنني اختلقتُ هذه القصة تحت تهديد السكين.

فقالت:

- إذًا لا داعي لإخبار أحد، تعال لنذهب سويًّا لإنقاذه.
- لو تمكنا من الوصول فلن نتمكن من زحزحة الصخرة وهي تحتاج إلى عدة أشخاص أقوياء وبغل لإزاحتها عن عنق البئر.

زمّت شفتيها وأخذت تنفث الهواء في الهواء وترميني بنظرات وعيد وتهديد، شدت قبضتها وأرخت شفتيها لتتمكن من رسم ابتسامة زائفة وسألتني أن أصف لها موقع البئر، فوصفته بدقة دفعتها للشك في قدرتي على هذا الوصف الدقيق، وقالت:

- بعد دقائق لاقني خلف الخيمة التي كان يسكن فيها جمال الدين وسنذهب معا لإنقاذ حيان.

فضحكت وقلت لها:

- سيقتلنا المسلحين قبل اقترابنا من حدود المخيم.
- لا تخف سأتدبر أمر خروجنا.

هذه البلهاء تعتقد أنى سأخاطر بحياتي وبكل شيء من أجلها، ولابد أنها تنوي إخبار فاطمة بالأمر فقلت لها محذرا:

- إن علمتْ فاطمة أو أي شخص آخر بالأمر سأقسم أنك كاذبة، ولن أمانع أن أخبرها بأني رأيتك تتسللين ليلاً إلى خيمة حيان، أنا لن أتزحزح عن مكاني ولن ألقي بنفسي إلى التهلُكة.

وقفت ورمتني بنظرة وقالت:

- عزيز سأقتلك، أقسم بالله لأقتلنك، ولو كان هذا آخر شيء أفعله في حياتي.

بصقت في وجهي وابتعدت، فأسرعتُ بنطق كلماتي لتصلها قبل أن تبتعد:

- ومالي وكل هذا؟، اذهبي واقتلي الشيخ وشكيب، لماذا لا تجترئون جميعكم إلا عليّ؟!

غابتْ عن ناظري ولم أتوقف عن الهذيان:

- لتذهب هي وحيان إلى الجحيم، لا يهمني أحد، لا علاقة لي بكم ولا أخافكم، وإن كانت هذه المصرية تعتقد أنها قادرة على قتل مساعد ملك الـ"قاقا باقا" فلتعلم أنى وصديقي طبرق سنقتلها ونشرب من دمها ونستحم فيه، أنا عزيز أفندي لستُ خادمًا ولا عبدًا، لن يقدر أحدٌ على قتلي، أنا...أنا سأقتلكم جميعًا.

ومازلت أهذي حتى رأيت فاطمة تمتطي حصانها المرقط وتلف وجهها باللثام الأحمر وتنطلق كالسهم بين الخيام نحو حدود المخيم، وكأنها في سباق مع رصاصة بندقية، هذه الغجرية لا تأبه بأحد، وإذا لقى حبيبها حتفه ورأته على هذه الحال ستبدع ألف طريقة لقتلي عند عودتها...انشطر القمر؛ شَطْرٌ أسود والآخر فضيٌّ متلألأ...ساعات وسينتصف الليل ويطل عليَّ الثلاثاء اللعين...أصابني التشاؤم والفزع، ولابد أن أجد طريقةً لأنجو بحياتي قبل عودتها.

ذهبتُ إلى سالم ورجوته أن يأتي ليجلس معي قليلا فلا أريد أن أصاب بالجنون من جراء حديثي إلى نفسي، ووافق الأبله إشفاقا على ما ظهر على وجهي من إرهاق وقلق، وتطوع ليعد لي شيئا أشربه وجاء لي بالشاي فقلتُ له:

- أنا باشا ولا أحتسي إلا القهوة.

فرد علي:

- (بدي أنام يا عزيز بدي أنام، اشرب الشاي وخليني أروح نام).

فقلت له:

- لا لن تنام سنهرب معا، فالخطر يحيط بنا من كل جانب وربما تكون هذه فرصتنا الأخيرة.

فرد عليّ بسذاجة:

- (بدي أنام وبكرا بنهرب).

جاهدتُ لأسكن الرعب في قلبه؛ أخبرتُه أنه لم يبق غيره وإنْ لم يهرب معي سيجوع الكعب ويأكله عاجلا أم آجلا إلا أن ردة فعله كادت تقتلني؛ يتثائب ويردد:

- (نعسان بدي انام).

هذا الأبله اعتاد النومَ مثل الدجاج مع غروب الشمس بعدما مُنع من مرافقتنا لدفن الذهب...عدتُ لأحدثه عن أكل قلوب البشر وأكبادهم، ورده الأخير أغلق أمامي كلَّ الطرق وأصابني باليأس حيث قال:

- (قصة الغولة اللي بتوكل الاولاد بالليل سمعتها من جوهر ومن سلامة وما بخاف أنا).

لا أملك الكثير من الوقت لسذاجة سالم وكان علي أن أجد مكانًا للاختباء لحين عودة فاطمة بما ستحمله، فإن أنقذت حيان سيشفع لي عندها، وإن لم تنقذه سأهرب قبل أن تُلحقني به...سالم يغفو وهو جالس ومن بعيد أطل علينا الملط اللعين ووجهه يقدح نارًا، دققت النظر

فرأيت سبب الاحمرار القرط الذي وضعه بأنفه مؤخرا، يبدو أنه لم يلائم بشرته، كان متكدر الحال معكر المزاج ولا يبدو أنه جاء لغاية التحسيس، ولم يمض على غياب فاطمة ساعتين لأعتقد أنها أصدرت أمرًا بقتلي...صَرف الملط سالمًا وكان مباشرا في سؤالي عن حيان، ولم أتسرع حتى أكتشف ما أخبرته به رباب ولكنه أعاد السؤال، فاختصرت الحديث:

- هرب، هرب، غافل الجميع وهرب، هذا كل ما لدي.

وبطرف عينيه نظر إلي وقال:

- أنت لا تكذب عليَّ، أليس كذلك عزووو!
- أنا لا أكذب على أحد، هرب، هرب.
- تقسم بشرفك على هربه؟
- أقسم بشرفي وشرفك لقد هرب.

وأسررتُ قولي:

- أقسمُ بشرف البغال والحمير أيضًا، اللعنة على هذا المخنث! عن أي شرف يتحدث؟ هذه القافلة تحمل الذهب لا الشرف، ألا ينقصني إلا الملط والعفريت الأرجواني ليحدثاني عن الشرف!

كرَّر سؤالُه مراتٍ وكنتُ أجيبه وأقسم بشرف القافلة على هربه، ثم سألني عن رباب وعن حديثها معي عند الغروب فأخبرته أنها جاءت لتسأل عن حيان وعن كيفية هربه، فسكتَ برهةً وكان سكوتُه مريبا وفاجأني بسؤاله:

- هل أخبرتك رباب أين ذهبت؟

عادتْ ذاكرتي اللعينة؛ ما أغباني! كيف لم ألاحظ أنَّ الزنجي كيماني لم يكن برفقتها، وفاطمة ما كانت لتسير خطوةً بدونه؛ لقد ارتدتْ المصريةُ ملابسَ فاطمة وامتطت المرقَّط لتتجاوز الحراسة، وما كان ليعترض طريقها أحد...سرني وأبهج قلبي تأكيد الملط على أنها سرقت فرس فاطمة وخرجتْ بغيرِ إذنها، ودعوتُ الله ألا ألتقيها مجددا، ولكنِّي تمنيتُ إنقاذ حيان على الرغم

من صعوبةِ ما أقدمتْ عليه رباب؛ فلو بلغتْ البئر ستبقى عاجزة أمام الصخرة، والهواء المُحتبس لن يكفي لحبيس البئر كي يعيش يومًا آخر...أخبرني الملط أن شكيب نفسه قد زفَّ لفاطمة خبر هروب عشيقها، ولكنها لم تصدق وتظاهرتْ بعدم اكتراثها، وكانت على يقين بأنه لن يفعل، وأنه سيعود لا محالة، ولكن صدمتها كانت أشد عند علمها بأن رباب سرقت فرسها وهربت، وفضلت كتم الخبر؛ لئلا يعرف أحد أن طبيبتها الخاصة قد هجرتها وراء عشيقها.

لم يتوقف الملط عن الثرثرة، وعن سوء حال الغجرية بعدما تسلل إلى قلبها بعض الشك في احتمالية علاقة عشق بين حيان ورباب؛ لم يتقبل عقلها بل قلبها أن اختفائهما في اليوم نفسه من قبيل المصادفة، ولمَّا أطربني كلامه، ووافق ما هددتُ به رباب من قبل وجدتُها فرصةً لأثرثر أمامه عن شكوكي في أمرهما، واطمأن قلبي؛ فمادامت رباب لم تخبر فاطمة شيئًا فأنا في مأمن من كل سوء... تركني المخنثُ أنتظر انتصاف الليل، وأستقبل يوم السعد؛ الثلاثاء، ولا أعتقد أن ربابَ ستعود، وأتمنى أن يكون الأغربة في انتظارها ويردوها قتيلة إن فكرتْ في العودة.

صحوت يوم الثلاثاء مع حلم جميل؛ أحد الخدم جاء ليوقظني وما قاله دغدغ عواطفي:

- عزيز باشا القهوة بانتظارك، هيا أفقِ.

أعي جيدا أن ما أسمعه ليس حلمًا، ولهذا لم أفتح عيني راغبًا في التمتع بما أسمع:

- عزيز باشا استيقظ.

فتحت عينًا واحدة وتركت الأخرى حالمةً، وكان أزرق العينين؛ جاء ليوقظني ولم تشرق الشمس بعد، ابتسم وقال:

- ارتد ملابسك وتعال إلى خيمتي وستجد القهوة بانتظارك.

انتعلتُ الحذاء وسبقته بين اليقظة والنوم إلى الخيمة التي ورثها في حياة جودت، لم أجلس حتى بدأ الذهب يعزف أعذب الألحان، وتساءلت:

- هل في الخيمة الثالثة مَنْ يعبث بذهبي؟ أم هو رنينٌ في رأسي فقط، وسرعان ما سيتلاشى بعد إفاقتي؟

رائحة القهوة أنعشت حواسي، هذا الرومي خادم بارع، ولن يهمني لو بصق فيها فأنا أفضل القهوة بنكهة البصاق تُقَّدم لي كباشا على قهوة بلا نكهة أحتسيها وأنا خادم وضيع، وفي كلتا الحالين لن يكون يومًا لطيفًا أبدأه بالقهوة التي أكرهها أكثر من جمال ويعقوب لعنة الله عليهما، ولا أتقي فيه تسلل فاطمة أو أحد خدمها لخلط سم الأثرياء بقهوة الباشوات...ربما لن تهدر سمها الفاخر عليّ، ولكن ما أدراني أنها لا تنوي قتل شكيب ويصيبني ما أصاب طبيلة، لن يضرني القليل من الحذر، ولم أتسرع باحتساء هذا القرف إلا بعدما انتهى مضيفي العظيم من احتسائه...نصف القمر لم يغادر السماء حتى الآن، وبدت إشارات الشمس التي بدأت بالنهوض من سباتها خلف جبال الشرق، وأزرق العينين هذا لا يتوقف عن إدهاشي ببراعته في العزف على أوتار عواطفي، فقال:

- هل ترغب أن يعد لك الرومي الإفطار يا عزيز باشا؟

فأخبرته:

- لست معتادا على الإفطار المبكر، وأكتفي بقطعة بسكويت مع القهوة، وسيجارة كل صباح.

فضحك لعلمه أني لا أدخن، وقال:

- هيا إذًا لنساعد الرجال.

لم أدر مَنْ قصد بالرجال وعدة خطوات نحو خيمة الذهب وكانت المفاجأة غير السارة في انتظاري لتفسد عليّ روعة رائحة القهوة والإحساس بمكانتي الباشوية؛ ثلاثة رجال؛ اثنان منهم بزي العسكر؛ أحدهم معقوف الأنف يعيقك أن تري كتفيه، والثاني أصلع، ولا أسنان في فمه المظلم، وكلاهما يغرفان من صناديق الذهب ويملآن صناديق الحديد الصغيرة، وبريقُ أعينِهم فاق ضوء مِصباح الخيمة بعد ملامستهما الذهب، لم يكن عبث العسكريين بذهبي ما أفسد صباحي وإنما الأبله الثالث الذي يساعدهما وقد سال لعابه فوق الذهب، ولا أشك أنه سيغتنم أول فرصة ليملأ جيوبه، وليس لديَّ طريقة لأحذره في وجود شكيب الذي لم يطلب مني مساعدتهم بل الإشراف على ملء عشرين صندوقا صغيرا وتحميلها فوق البغال.

حين ابتعد أتقنت دور السيد وأمرت خدمي الثلاثة بأن يكونوا لُطَفاء مع الذهب، وأن يتركوا تأمل كل قطعةٍ وتقبيلها لأنها متماثلة، ولم أجدْ طريقةً لأسأل ثالثهم سالمًا عمَّن أتى به إلى الخيمة الملعونة في هذا الثلاثاء، ولكنه موهوب بالفطرة فسأل:

- (جاي تعبي معنا ذهب يا عزيز؟)

ولم يكفْ عن الغمز بجفنيه، وتابع:

- (شايف قديش في ذهب!)

تجاهلته، وتحدثت مع العسكريين بالتركية، الأول يُدعى "سمور" والثاني "حمزة"، وركاكة لغتهما أخبرتني أنهما عربيان، وحين تأملتهما جيدًا راودني إحساس بأن عِزرائيل قد شارك شكيب في اختيارهما، واطمأن قلبي لأن سالمًا لن يموت اليوم وحيدا، وأشرقت الشمس ولم تكشف لي عمَّا يدور في رأس أزرق العينين، لستُ قلقًا على حياتي؛ فلن يقتلني الآن، وإنما يسعى لإرضائي.

انتهينا من تحميل البغال وطلب مني شكيب أن أمتطي حصانا وأسير بجواره، وأمر الثلاثة أن يقودوا البغال خلفنا، وسرنا وسط الخيام وتفاجأت بأنه يتجه جنوبًا، ولن تنتهي بنا طريقه إلى مدخل المخيم كما اعتدنا...إلى أين سنذهب؟ ولماذا؟ وكيف؟ لستُ أدري!

قبل خروجنا من المخيم انصرف عقلي لحساب كمية الذهب التي يتسع لها كل صندوق صغير فأدركتُ أن الخيمة تحتوي ضعف الكمية التي نحملها، ثم انصرفتُ إلى سالم وسمور وحمزة؛ ثلاثة وجوه مشؤومة في يوم ثلاثاء، مازالت أعينهم تبرق من أثر مقابلة الذهب ومصافحته، ولا يبدو على أحدهم الخوف مما هو آت، ولا أشك في أن جيوبهم قد امتلأت بذهبي، لا يهمني أمر الجنديين، ولكن نهاية سالم ستكون اليوم، أشعر بهذا، لن يعود حيا ولا أعلم ما السر الذي يعلقني بهذا الأبله! لا يتوقف عن التمرد عليَّ كلما سنحت له الفرصة، ومع هذا لا أحتمل فكرة أن يُصاب بأذى...محاولة سانتورية لعلي أنقذ حياته فاقتربت من شكيب وسألته:

- هل سندفن الذهب اليوم يا سيدي.

- نعم هذا ما سنفعله.

فقلت له همسا لأشعره بأني أتحاشى أن يسمعني سالم:

- سيدي، لا يحب جودت أن يصحب هذا العربي لأنه فألُ نحْس، كل مرة رافقنا فيها حدثت مصيبة ما، إنه عربي مشئوم، اطرده ليعود لخدمة الطبيب قبل أن ينحسنا.

ابتسم وقال:

- لا عليك لن يحدث شيء.

فقلت له:

- يا سيدي أقسم بالله العظيم إنه شؤم، انظر إلى أسنانه، أنفه، عينيه، حتى أذنيه تشير إلى الشؤم وستكون مصيبة إن رافقنا.

رد على بنصف ابتسامة وتجاهلني، ابتعدنا مسافة تقارب المئة متر وهي المسافة التي حذَّرنا كاظم من تجاوزها، ولم أتوقف عن تكرار:

- سالم نحس، سالم شؤم.

قطعنا مئة متر أخرى وسقط أحد الصناديق الصغيرة عن البغل وتناثر بعض الذهب، ودقائق قلائل حتى جمعناه وأعدنا الصندوق مكانه، وأسرعت لأسير بجوار شكيب وهمست:

- أرأيت سيدي؟ هذا العربي مشئوم، أعده قبل فوات الأوان.

ضحك وقال:

- سأطلق النار على رأسك إن كررت هذه الجملة مرة أخرى، أغلقت فمي وتدخَّل القَدَر بعد عشرة أمتار تفاجأ فرس شكيب بعربيد أسود فجفل وكبا ثم نهض وكاد يسقطه عن ظهره، ولكنه كان بارعًا في السيطرة عليه، ثم نظر نحوي ووضع أصبعه على شفتيه:

- (هووووش).

يحذرني أن أفتح فمي، ووضعت كفي على فمي لأغلقه، ولكني تركت عيني تجول بين سالم وعيني الفرس لأخبره بشؤم سالم الذي لم يقتنع به فارسه، وهنا ضحك شكيب، وقال لسالم محاولاً الحديث بالعربية:

- (ارجعوا انتو يا سالم الى خيمات الطبيب ولا تطلعوا منها).

وتنازلت عن مكانتي الباشوية وترجلت عن حصاني، لأقود البغال بعدما فشل الجنديان في قيادتها، شكرت نفسي وشكرتُ العربيد الاسود الذي اعترض طريقنا، ولن يشكرني سالم لأني لن أستطيع يوما إقناعه بأنه مدين لي بحياته، وفي الطريق أخبرني شكيب أنه لم يأمر سالمًا بالعودة إيمانا بشؤمه، وإنما لأنه يريد ألا يتشاءم من تكراري لهذه الكلمة، وكانت نجاة سالم اليوم بفضل ما قاله روهان يوما: "اطلب من أحدهم ألا يتشاءم ثلاث مرات وسيغرق في التشاؤم".

وعرةٌ هي طريقنا نحو جنوب المخيم؛ أجبرتنا على الاقتراب من النهر، ولم نصادف أغربةً إلا بعدما توجهنا غربًا...ساعدني السير نهارًا لأكتشف الكثير من ثغرات الهرب، نصف ساعة أبعدتنا عن المخيم والنهر، ووصلنا أرضًا منبسطة وهناك كان ينتظرنا ما يزيد عن الثلاثين عسكريا من رجال شكيب، وانطلقنا معا وعدت أمتطي حصاني بجانب شكيب بعدما تولى العسكر قيادة الدواب...أشعر أني من رتب العسكر، ولا أرغب أن أفكر فيما يفسد عليَّ يومي، وساعة من المسير وبدأ يسأل همسا:

- أين المواقع التي يجب أن نختارها لدفن الصناديق؟

لم أشعر أنه يختبرني وكنتُ حذرًا؛ أخبرته أن جودت علمني وجوب اختيار أماكن لا يتوقعها عقل، لا تبدو للمار عليها أنها مخبأ لشيء، وأن تكون بالقرب من معلم ثابت لا يتغير بمرور الزمن، وبينما هو مصغٍ إلى حديثي أشار إلى صخرة ضخمة وسألني:

- هل يمكننا الدفن بجوارها؟

فأخبرته:

- تصلح أن تكون علامة، ولكن الدفن يجب أن يكون بعيدا عنها.

- إذًا هيا لندفن أحد الصناديق ونرسم خارطة.

أعاد نشر الجنود ليبعدهم، وترك سمور ورفيقه حمزة بجوار البغال، وبدأت الحفر لصندوق واحد كما أمرني، وبعدما انتهيت سألته بسانتورية عن رغبته في استحضار جان الـ"قاقا باقا"، فضحك بأعلى صوته وقال:

- لا دعهم نائمين لا حاجة لإزعاجهم.

لم ترق لي قولته، ولكني تغافلتُ؛ فالناس لا تخاف الـ"قاقا باقا" نهارا، وحملت الصندوق وقبل دفنه اقترب مني وأعطاني كيسًا من خيش وأمرني أن أفرغ ما بداخل الصندوق فيه وأدفنه، ثم أملأ الصندوق ترابا وأعيد تحميليه على البغل، انتهينا وانتقلنا لموقع آخر، استغرق وصولنا إليه أكثر من ربع ساعة، وحفرت وأفرغت صندوقًا آخر ودفنته، وملأت الصندوق ترابًا, وأعدت تحميله على البغل، ومن موقع إلى آخر تساءلت:

- هل هذا المجنون سيأمرني بدفن كل ما نحمله بمفردي وبالطريقة نفسها؟! أيعقل أنه لم يعِ أن دفن كل صندوق سيحتاج إلى ما يقارب الساعة، أم أنه يسعى لمعرفة الوقت الذي يستغرقه عند عودته لإخراجه مستقبلا؟

تعمدت التباطؤ لعل هذا الحمار يفكر ويجلب من يساعدني! صباحًا جعل مني باشا، وفي الطريق جعلني مستشارًا عسكريًا يخطط لمواقع الدفن، وعند رؤيتنا للصخرة اتخذني عبدًا لا يجيد سوى الحفر والدفن، والآن ما عدتُ قادرًا على حمل صندوق واحد، وفي الصباح كان في استطاعتي حمل صندوقين.

حملني تعبي على التساؤل:

- لماذا أحضر هذين البغلين؟

سمور وحمزة لا يشاهدان ما نفعل ولكنهما لا يبتعدان عنا كثيرا، فهممتُ بسؤاله، ولم أجرؤ:

- هل أحضرتهما لمراقبتنا وحراسة البغال؟

اللعنة عليه! سيعودان ويسرقان ذهبي إن لم يقتلهما، أي أحمق يدفن الذهب نهارًا برفقة أكثر من ثلاثين شاهدًا! يا لفطنته! لقد كان يبعدهم عن كل موقع نختفي فيه نحن الأربعة لأكثر من نصف ساعة وربما سيخبرهم لاحقا أننا كنا نختفي عن أنظارهم كل هذا الوقت من أجل التبول، وأعاد الفرجُ إليَّ روحي وعزيمتي حينما طلب مني الجلوس والارتياح قليلاً، واصطحب حمزة ورفيقه مع صندوق وغابوا عن أنظاري، وسرعان ما عاد وحيدًا وساعدني في الحفر، ثم أفرغنا خمسة صناديق وملأناها ترابًا، وبعد تحميلها انتقلنا إلى موقع جديد، وكانت هذه أغرب طرق الدفن وطقوسه في قافلة الذهب مما دفعني إلى الاعتقاد بأنه اخترع خريطة ذكية؛ فالدفن على خطٍ متوازٍ، والمسافة بين الموقع وما يليه متساوية، ولا أستبعد أنه اعتمد الظلال رموزًا لهذا فضل الخروج نهارا إلا إن كان هذا السفاح يخشى ظلام الليل.

لم يتوقف عن تدوين ملاحظاته، وقبل غروب الشمس كنا قد انتهينا من دفن كل الذهب وتحميل الصناديق الملآنة بالتراب، وساعد الله سمور ورفيقه حمزه فقد أرهقهما شكيب في دفن صناديق التراب ونقش رموزًا لا معنى لها.

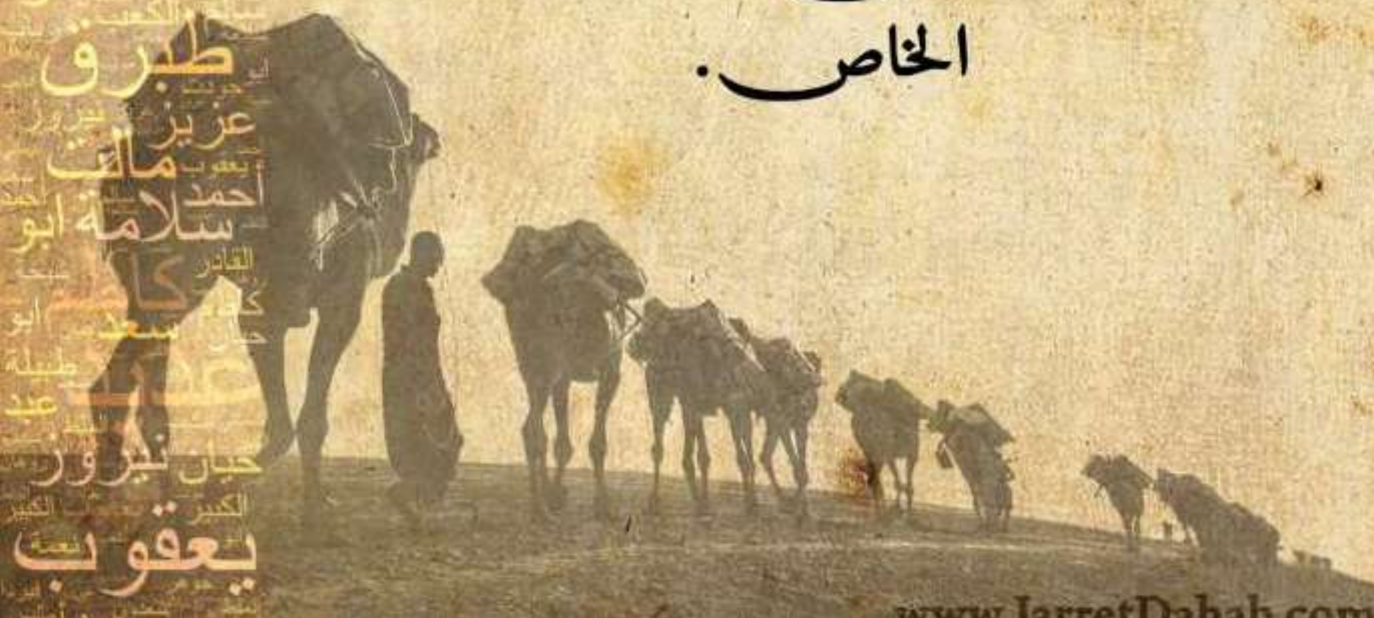
هذا الداهية موَّه النظر عن الذهب الحقيقي بطرق شيطانية لم تخطر ببال أحد، وفي طريقنا عرجنا على مغارة كبيرة وطلب من الجنود الصغار البدء بحفر حفرة كبيرة تتسع لدفن ما تبقى من صناديق مملوءة بالتراب، وبمساعدة ثلاثة ضباط قام برسم خارطة تفصيلية للمكان، دفنوا الصناديق وانتشروا لحراستها وحينما لاحظت أنه حرص على عزل سمور وحمزة عن بقية الجنود قرأت على روحهما الفاتحة سلفا، وعجبتُ لأنهم عادا معنا سالمين إلى المخيم.

وصلنا قبيل الفجر، وطلب من الرومي أن يطعمهم ويذهب للنوم معهم بأحد الخيام، ووقتها وددتُ أن أقول لهم طعامًا شهيًا فوق ظهر الأرض، وطعامكم القادم في الجنة –بإذن الله– سيكون قريبا، ولم يسمح لي بالذهاب للنوم قبل أن يوصيني أكثر من مرة أن أخبر الشيخ طبرق بأننا دفنا كمية ذهب كبيرة في أحد الكهوف، وأن أخفيَ عنه بقية التفاصيل، وعدت إلى خيمتي ولم أنفض الغبار ولم أخلع حذائي، ونمت كالعبد وأفقت على كابوس؛ أحدهم يركلني بقدمه:

- عزيز انهض.

جرة ذهب

فوزي عبده



فتحت عيني ووجدت الكعب واقفًا فوق رأسي فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم، وركلة المسخ دلَّتْ على أنه عزم على إنهاء صداقتنا واستعبادي مجددا، علمتُ من ظل اللعين أن الساعة تجاوزت العاشرة صباحا، وسألني:

– أين اختفيت أنت (واليوك باشي)؟

واختصرت الجواب:

– دفنا الذهب في الكهف، وترك الجند يحرسونه.

وما كان ليرضيه اختصاري بل أصر على معرفة أدق التفاصيل وحرصت ألا أخبره إلا بما أراده شكيب، وفي ساعات الظهيرة اجتمع الاثنان معا ليمارسا لعبة الخباثة والاستغباء، أعددت القهوة والشاي واستمتعت بالعرض الهزلي؛ الكعب يتظاهر بعدم معرفته، ويسأله عن اختفائه بالأمس، والآخر يرد عليه وهو يعلم أنه يعلم، ويخبره بأنه دفن كمية من الذهب في أحد الكهوف وتركها في حراسة الجند، فيعترض الكعب قائلاً:

– لا ينبغي أن يطلع أحد على مكان دفن الذهب.

فينظر شكيب في عيني الكعب وهو يقول:

– أعوزتني الحاجةُ إلى ذلك.

وسكتَ برهةً ثم تابع:

– وكان دفنُ الذهب طُعْمًا لاصطياد ناجي خان.

اندهشت حقًا، وفاقني الكعب دهشةً، وسأل:

– ومن هذا ناجي خان؟

ضحك شكيب وقال:

– لقد تم استدعاؤه خصيصا بعد فشل الفرق السابقة في العثور عليكم، وهو الآن بسوريا، وأيام وسيجد طريقه إلينا.

حرك الكعب أنفه كمن يبحث عن رائحة هذا الناجي وقال:

- ولكنك أخبرتني أن الباشا استلم قيادة كل هذه البلاد، فلماذا لم يقتله؟
- بلاد الشام واسعة وفيها مئات المعسكرات وخضوعها لأمره يحتاج وقتًا وتنسيقًا، وناجي خان لا يخضع لأحد؛ هو صائد وأنا مَنْ سيصطاده عند وصوله.

تململ الكعب ولا يبدو ارتياحه لوجود صائد يسعى إليه، واتفق الاثنان على إسراع دفن ما تبقى من ذهب، وانفض اجتماعهما...لم أستطع معرفة ما يدور في رأس العسكري الخبيث؛ ترك جنوده يحرسون التراب المدفون في المغارة، وأوهم الكعب أنه ذهب، وأرعبه من صائد محترف يتتبع أثره، لابد أنه يخطط لأمر ما؛ إما أنه أراد تمويه مواقع الدفن حرصًا على إتمام ما بدأه جودت، وإما أنه يعد مخططًا لخداع الباشا والجميع، لم يقتل سمور ورفيقه وكيف لي أن أتوقع خطواته القادمة وكل شيء يفعله يستحيل عليَّ فهمه!

غربت الشمس ومازلت في حيرتي، واستدعاني لأشرف على تحميل بقية الجرار، وكان عددها خمس بعد اختفاء أربع منها، ولن أعرف أبدا مكان اختفائها....انطلقنا ورافقنا دون جنوده، وكان سمور وحمزة يحفران هذه المرة، وبعد انتهائهما يرسلهما ليحفرا في مكان آخر، وينقشا رموزًا لا معنى لها، وأنا أدفن الذهب وعاد الكعب إلى عادته؛ يرقص وينشد الـ"قاقا باقا" وشكيب يراقب صامتًا، وبعدما انتهيت من الدفن أمرني بنقش الرموز على صخرة اختارها بنفسه...وحينما سألته عن أي الرموز يرغب في نقشها ابتسم وقال:

- انقش ما تشاء.

أبدعت العزف بالإزميل والشاكوش، وخرجت بلوحة فنية عظيمة وحين اقترب مني سألني:

- ما الذي تنقشه؟
- أرسم دجاجة لتدلك على موقع الذهب لاحقا.
- تكفي البيضة التي رسمتها، لا ترهق نفسك كثيرًا!

ومن موقع إلى آخر دفنا واستمتعت بالعزف والنقش والكعب الخبيث غافل شكيب وكسر إحدى الجرار عمدا وخاب أمله وأملي لمَّا تبين له أنها مملوءة بالذهب، ولم أفهم وقتها سر إهدار الوقت في إرسال سمور وحمزة لحفر عشرات الحفر ونقش الرموز بغير دفن، وساورني الشك في أنه لم يفعل ذلك ليبعدهما فقط حتى أدفن الذهب، هذا اللعين أرهق عقلي بتأويل تصرفاته الغريبة، وعدنا جميعا ولم أفهم شيئًا من ألغازه.

وفي ظهيرة اليوم الثاني أمرني بإحضار رَجُلَيْه لملء جرار الذهب ولم أخبره بأنه لم يتبق جرار فارغة...هذا الخبيث ما عاد يجهل شيئًا وكانت الجرار في انتظارنا، وجلست على أحد الصناديق وأمرت خدمي ببدء العمل، والاستمتاع بملامسة الذهب وسماع ألحانه العذبة، وسال لعابهما وغرقا حالمَين، وامتلأت أربعة جرار، وحضر شكيب مع امتلاء الخامسة، وعندها أمرهما بالذهاب إلى رومي لتناول ما أعده لهما من طعام، وأمرني بملء خمسة جرار بالتراب وحدي، واستغرقني الأمر عدة ساعات حتى سال عرقي، وعند غروب الخميس انطلقنا نحمل جرار التراب، وتكرر ما حدث بالأمس حفر، نقش، قاقا باقا، ثم عدنا للمخيم.

وفي نهار الجمعة قضيت بعض الوقت مع نعناعتي الحزينة التي انقطعت في خيمتها عن البشر، وزهدتْ في الطعام والشراب بعد شعورها بالوحشة إثر غياب حيان ورباب، وباءت كل محاولاتي بالفشل في التسرية عنها، ورسم بسمة واحدة على شفتيها، فتركتها متمتمًا: لا بأس ستنسى وتعود إلى أحضاني مجددا.

إلى خيمة المفاجآت تم استدعائي مع غروب الشمس لأساعد سمور ورفيقه في تحميل الجرار الخمس، وكانت أخف وزنا، كما اختفى نصف ذهب الصندوق الأخير، ولكنه دُفن تحت أقدامنا ولم يخرج من الخيمة، هكذا أخبرني ما انتبهت له من أثر.

وليلة الجمعة لم تختلف عن سابقاتها حفرًا ودفنًا، إلا أن وجهتنا هذه المرة كانت أكثر عمقًا نحو الجنوب...أرقب نظرات شر وخيانة يتبادلها سفاحان اعتادا على سفك الدماء، وحتمًا سيقتل أحدهما الآخر، لا أشك لحظةً في حرص شكيب على قتل الكعب بلا أثر يورطه مع الباشا الكبير، والكعب يعي أن نية قتله لا علاقة لها بأوامر الباشا وإلا لاخترقته ألف رصاصة على مرأى من الجميع، وكما تجتاح شكيب رغبةٌ عارمةٌ في قتل الكعب تجتاح الكعب رغبةٌ أشد

في قتله، ولكنه يفضِّلُ أن تفترسه الضباع، أو يسقط عن جرف هارٍ شريطة رؤية بعض الشهود ليدرأ عنه الشبهات...أرجأ كلٌّ منهما القتل، وتبادلا الابتسامات، وغمرهما الحب فيتوهم مَنْ يراهما أنهما صديقان منذ زمن.

عاد الجميع إلى المخيم سالما ولم أجد سببا للبقاء على حياة سمور وحموز، ولم يتبق من الذهب إلا القليل، ويراودني شعور بأنهما جزء من مخطط شكيب، وبعد عودتنا وكما كنت دائمًا أنا العين الوفية المخلصة التي تراقب وتنقل الأخبار لكليهما، وفي النهاية سأكون مع الحي المنتصر وسأبول على قبر الميت المهزوم، ولكني أميل إلى انتصار الكعب البغيض؛ فهو أكثر صدقا ووضوحا؛ ويمكنني التنبؤ بما ينتوي فعله خلاف أزرق العينين الذي يرتدي ألف قناع، نعم هو مَنْ أجلَّني ورفع منزلتي بما لم أحظَ به من قبل، ولكني لم أعد قادرا على فهمه، أو التنبؤ بما سيقدم عليه.

أما فاطمة فلم يوقفها شيء عن الخروج لدفن الكنوز، لقد أخبرني الملط في ثرثرته أنها مازالت تشك في هروب طبيبتها مع عشيقها حيان، وأقسمت على قتلهما معًا ولو كان عند لفظها آخر أنفاسها، وإن علمت ما حدث لحيان ستعجِّل بقتلي ولن تنتظر لفظ النفس الأخير.

واستمرت لعبة القط والفار ودفن الذهب والتراب ثلاث ليال مملة؛ فلم يمت أحد أو يتعثر.

عاد عديد وأحزنه ما حدث لجودت، ودلَّ حزنه على علاقة حميمة بينهما...طلب مني الذهاب لمساعدة مرافقه في شد أطناب خيمته، وعند ذهابي لم أرَ من رجاله سوى واحدا، فسألته عن البقية فأخبرني بأنهم عادوا إلى العراق، وأخبرتني عيناه خلاف ذلك، فبحثتْ عيناي عن الحقيقة أثناء مساعدتي له؛ عدد قرب الماء والأغطية وبعض الملابس تدل أن الآخرين نسوا أغراضهم إن صح إدعاؤه، وجاز للمرتحل نسيان متاعه، فإلى أي مجهول رحل هؤلاء ومنطق هذه القوافل يعني أن الاختفاء هو الموت! فهل عديد أحد هؤلاء القتلة ولكنه يتستر بستار التأدب؟ سخرت لسذاجتي؛ وهل يؤتمن على هذه القوافل غير قتلة الباشا! هذه القوافل لا تعرف إلا قاتلا ومقتولا، ولا ينبغي للثقة التي نالها عديد أن تجعل منه مقتولا.

اجتمع عديد بفاطمة وشكيب لدقائق، وتردد اسم ناجي خان أكثر من مرة، ويبدو أن الاسم لم يطرق آذان فاطمة من قبل، ولم تعلِّق بكلمة، ولكن عديد علَّق قائلا:

- ناجي خان صبور ولا بد أن يمر على لبنان أولا، لهذا سيحتاج لأكثر من شهر قبل اقتفائه أي أثر.

ورد شكيب:

- لن أهدر وقته في البحث، لقد نصبت له فخًا، وأعددت له استقبالا يليق بمكانته.

دلَّ حوارهما على أن "ناجي خان" ليس وهمًا من اختلاق شكيب لإخافة الكعب، ولكن شخصية حقيقية، يراقب شكيب تحركاتها ويخطط لجذبها إلى المخيم، والله –وحده– يعلم ما يدور في عقل هذا الشيطان.

رحلت الشمس وضاق صدري بالوحدة؛ فما عاد هناك من أتحدث إليه بعد رحيل عديد، وجاءني الملط اللعين وأخبرني بأنه سيفي بوعده لي ويأخذني لمشاهدة الكثير من الآثار، فسألته متى، فقال:

- الآن، هيا إلى خيمتي.

كنت أعلم أنه يسعى لغرض آخر، ولكن الوحدة قاتلة، ولو صدق المخنث في أمر التمثال ربما سأكون واحدًا من قليل حظوا بمقابلة نبوخذ الذهبي، وصلنا خيمته ولم يراوغ كعادته وأزاح بساطا عن صندوق خشبي مملوء بالقطع الأثرية الأصيلة، وسألته، عن نبوخذ نصرالذهبي، فقال:

- من المُحال إخراجه من خيمتها، وقريبا سأجد طريقة لأخذك إليه.

ولمَّا شعر باستيائي أزاح بساطًا عن صندوق ازدحم بتماثيل ذهبية وفضية صغيرة الحجم، دلَّ تكديسها على أنها تفتقد ما تستحق من حفاوة وتقدير، لم أصدق ما رأت عيناي، تفحصتها، ولم يكن لغرض التأكد من أصالتها، وإنما لأستعيد ذلك الشعور الساحر الذي غمرني قبل سنوات، حملتها ورتبتها بعناية، هذه القطع الأثرية سكنت تحت أحد بيوت حلب لعدة قرون

في انتظار روهان بيك ليكتشفها وكنت برفقته حينها، ومن حلب السورية نُقلت إلى إسطنبول، ثم اختفت لتظهر في خيمة الملط المخنث بعدما يئس روهان من استرجاعها، ومذ يومها بدأ بإخفاء القيِّم من الآثار في قبو منزله بعد قوله:

- نحن لصوص صغار ننبش قبور العظماء ونسرقها لنقدمها للصعاليك.

واليوم تشاء الأقدار أن ألتقيها في خيمة هذا الصعلوك، وسألته مدعيًا جهلي:

- من أين أتت هذه التماثيل؟

فقال:

- اكتُشفت في القدس.

ضحكت بسري: وهل يعقل أن القدس التي أُسرى إليها النبي محمد، وسار في أزقتها المسيح تصير مخزنًا لمسروقات الباشوات!

ثم سألني:

- هل تدرك قيمة هذه التماثيل يا عزوو؟

ومع سؤاله تردد صدى صوت معلمي العظيم روهان حينما سألني السؤال عينه قبل سنوات.

وسألت الملط:

- ما قيمتها حسب رأيك؟

فأخبرني المأفون بأنه بالامكان بيعها في أوروبا بضعف ثمنها، او صهرها وتحويلها الى سبائك، وقتها هممتُ بالبصق في وجهه، ولابد أن روهان أراد ذلك قبل سنوات بعدما سمع جوابي، ولكنه اكتفى بقوله:

- السوق الذي يباع فيه التاريخ هو سوق الخسة والنذالة.

علمني روهان كيف أرتحل إلى الماضي بحواسي، ليفوح عبق التاريخ من قطعة فخار فتصير أثمن من الذهب...عندما علم أن هذه التماثيل شقت طريقها إلى أحد الباشوات وفقد الأمل في استعادتها قال:

- صنعوا تمثالا ليخلدوا عظيم، وصهره نذل ليصنع خلخالا لعاهرته.

لم أفهم ما قصده وقتها فاحتسى العرق، وقال على مضض:

- تخيَّل يا عزيز أنك رجل عظيم، وأن أبناءك صنعوا لك تمثالاً من الذهب ليخلدوا ذكراك، وبعد موتك جاء أحد أحفاد أحفادك وصهره ليصنع منه حذاء يهديه لإحدى العاهرات.

في سذاجة:

- الأحذية تصنع من الجلود لا من الذهب.

فضحك وقال:

- تخيل أن أحد أحفادك بال على قبرك.

أكثر سذاجة:

- سأصفعه على وجهه.

فقال:

- اغرب عن وجهي يا عزيز قبل أن أصنع من جلدك حذاء.

وقتها لم أكن أبلهًا ولم أتظاهر، ولكنني كنتُ طفلاً حديث العهد بمدرسة البيك.

الملط يراقب انبهاري وأدرك أنه بلغ مراده، وأخرج زجاجة من مشروبه اللعين ليفقدني رشدي وكان إصراري على الرفض، وتحايل عليَّ اللعين حتى تذوقته، ودارت الخيمة ورقصت، وضحك ثم قال:

- أيها الأحمق هذا مشروب الملوك وكل قطرة منه تساوي عصملية وأنت تترفع عن شربه، لولا أني وجدت فيك الشريك الراقي المميز لما أهدرت عليك قطرة.

ضحكنا حتى أغمضت عينيّ ولم أدر كم مر عليَّ من الوقت حتى فتحتهما لأجد امرأة فائقة الجمال تقف فوق فراشي، ولم أجرؤ على إغماض عيني وبدأ هذياني:

– هل تحول الملط إلى حورية؟ ما أجمل عينيها المملوءة غضبًا وحزنًا! تعالي إليّ أيتها الحسناء لأنسيكِ أحزانك، ولكن أخبريني أولاً: من هذا الطويل الأسود الواقف خلفك؟ اللعنة، إنه يشبه كيمو الزنجي!

أسرعتُ بإغماض عيني وفتحتهما وفركتهما مرات، هذه الحسناء التي تقف فوق فراشي لابد أنها فاطمة، لم أر وجهها عن قُرب قبل هذه اللحظة، ولكن ما كنت لأنسى وجه حارسها البغيض، وقد صرفت عنه عيني متجولاً في أرجاء المكان فأدركتُ أنى نائم في خيمتي، وأن الشمس لم تشرق بعد، أشارت بيدها فأدركت وجوب وقوفي، ثم أشارت أن أتبعها، وسرت خلفها أراقب ردفيها ومن خلفي الزنجي ولابد أنه كان يراقب مؤخرتي.

دخلت خيمتها وأشارت فجلست على أحد المقاعد وبالقرب مني وقف نبوخذ نصر الذهبي، لم يكذب الملط اللعين، إنه حقيقة، من أين جلبوه؟ ومن وجده؟ روهان بيك كان سيدفع نصف عمره ليرى ما أراه في خيمة هذه الغجرية من قطع أثرية نادرة ازدحمت بها كل زاوية.

تزاحمتْ الأفكار في رأسي، ماذا تريد مني فاطمة؟ ولماذا يقف الزنجي خلفي؟ ولماذا لا تتحدث؟ ولماذا تنظر إليَّ باحتقار؟ ماذا فعلتُ لها؟ لا يبدو أن هذا اللقاء ودِّي! اللعنة! ماذا حدث؟ أيعقل أن رباب قد عادت وحرضتها علي؟! دقائق من الصمت وتبادل النظرات، لقد ثملت في خيمة الملط وأفقت في خيمتي وذاكرتي الملعونة ما كانت لتثمل وطمأنتني بأنه لم يحدث بيني وبين الملط ما يشين وسرني ذلك.

بالأمس كان حديثًا قصيرًا، ثم أمرني الملط العودة إلى خيمتي بعدما عبس فجأة وانقلب حاله، ويبدو أني كنت على درجة كبيرة من الثمالة ولم أحفظ لساني، سألني الملط:

– أتذكر حينما التقينا أول مرة وكنت ترتعد خوفًا من العرب وطمأنتك؟ وحينما حاولت التقرب منك أهنتني وذهبت إلى المصرية؟

أضحكني وقلت:

- لعنة الله عليها وعليك أيها الماكر! وكيف أنسي ذلك اليوم!

وضحكنا وقال:

- أتذكر حينما غرت من وصفي لصديقك حيان؟

فأجبته:

- رحمه الله! قتله تهوره.

- أقسمتْ فاطمة أن تقتله بيديها عند تمكنها منه.

ضحكت وأجبته:

- ستحقق أمنيتها في حياة أخرى؛ فالميت لا يُقتل.

ولساني اللعين لم يتوقف حتى اكتفى الملط، وغرق في صمته.

ويلي ويلي! لقد زل لساني وأخبرته بقتل حيان، ولابد أنه أخبرها، وقبل أن أرتب ردي على أسئلتها نطقت بعد صمت وقالت:

- من قتل حيان؟

أجبتها بعد تأتأة:

- لقد هرب.

تجاهلت ما قلت وسألت:

- أين دُفن؟

أحنيت رأسي وأجبتها:

- لقد هرب يا سيدتي.

- شكيب، طبرق، كاظم، جمال الدين أم أحد الجنود قام بقتله؟

لم تصرخ، لم تهدد، نبرات صوتها تحمل الكثير من الشك والتردد، وربما تمنت أن يكون حيا هاربا على أن تسمع مني خلاف ذلك، لم أرتعب؛ فأسلوبها في القتل ناعم ورقيق؛ سم نادر يرافقه ضحك قبل الموت، كان الزنجي هادئًا في وقفته خلفي، لغة جسده لا تشير إلى أنه سيكون عنيفًا، هكذا أخبرتني صورته المنعكسة عبر مرآة صغيرة على مقربة مني، فأجبتها:

- لم يقتله أحد يا سيدتي، لقد هرب.

أرادت أن تقول شيئا ولكنها اندفعت تهمهم، وتغمغم، وأخذت رموشها تصفق، وسقطت على الأرض وبدأت أطرافها ترتجف، وكأن مسا قد أصابها، وبسرعة البرق خرج الزنجي، وكان لابد أن أكون شهمًا وأساعدها فاقتربت منها أقول:

- فاطمة! فاطمة! ما بك؟ لماذا ترتجفين؟

لم أزد على ما قلت حرفًا واحدًا حتى شعرت بأن أحدًا يحملني ويلقي بي خارج الخيمة وكان هذا الزنجي اللعين...ربع ساعة مرت وقدم الزنجي تثبتني على الأرض، وخرج الملط وأشار إليه أن يعيدني إلى الخيمة لأجد فاطمة جالسة على إحدى الأرائك ولونها قد شحب قليلا وبدا عليها الإرهاق، تحاول أن تتظاهر بالهدوء وكأن شيئا لم يكن، وما حدث أمامي أجاب على الكثير من الأسئلة حول الغموض الذي يغلفها؛ انطوائها الدائم وعلاقتها برباب، إنها مصابة بمرض الصرع، كانت في عودتها أكثر هدوءا، وكنتُ أكثر إصرارًا على رأيي؛ فلا ينبغي أن أكون عرضةً لغضب الجميع؛ شكيب، والكعب، والغجرية المصروعة، فإن كان الإنكار سيقتلني مرة واحدة، فالاعتراف سيقتلني ثلاث مرات، فاشتد غضبها وأقسمت أنها ستجعل مني العبد الرابع، ولا تفك قيدي أبدا، لم أفهم ما قصدته، وأشارت إلى الزنجي وقالت:

- خذه ليفكر قليلا.

أبعدتني لترتاح قليلا؛ وألقى بي الزنجي في خيمة العبيد الثلاثة، وقيدني بقيدهم، قد رأيتهم من قبل؛ كانوا يرافقونها ليلا ويركبون معا على بغل واحد ولم يثيروا فضولي أبدا؛ فهم ليسوا أكثر من عبيد، وها أنا اليوم رابعهم أشاركهم القيد نفسه الذي لا يسمح لأحدهم التحرك خطوة دون البقية...ما كانت الحيوانات لتصبر على الروائح الكريهة المنبعثة منهم لتفوح في

الخيمة وتتجاوزها، تلك هي طريقة الغجرية في تعذيبي، قلبي كان مطمئنا فعذابي لن يدوم ساعات وحينما سيكتشف صديقاي العظيمان؛ كعب الحذاء وأزرق العينين اختفائي سيبحثان عني، وسيكون إنقاذي من قبضة هذه الملعونة، وما عليَّ الآن سوى احتمال الروائح وإيجاد طريقة لتسلية نفسي.

العبيد الثلاثة لم يكونوا متشابهين، ولكن هزالة أجسادهم والقذارة التي غطتهم صنعت منهم نسخة واحدة مع فوارق بسيطة كاختلاف لون أعينهم، لقد أخبرني جمال الدين وجوهر فيما مضى أنهم خرس، ولكنني أردت المحاولة راجيًا خطأ ما سمعت، وما إن انتهيت عن تعريف نفسي حتى رأيت ألسنتهم المقطوعة تتراقص داخل أفواههم وتصدر أصواتا لا علاقة لها بالحيوانات ولا البشر، وقد تشبه –إلى حد كبير– حديث ألف شخص في آن واحد، وأخذت أهز رأسي وهم يقصون قصصهم، ولم أدر إن كان هؤلاء المساكين يدركون العيَّ في كلامهم.

أغلقت أذني ليفهموا أنني ما عدت قادرا على احتمال الضجيج، ولم يمر على وجودي برفقه العبيد ربع ساعة حتى وقف أحدهم واضطرتني السلسلة الحديدية إلى الوقوف والتحرك معهم؛ ثلاث خطوات فقط جررنا بعضنا البعض وقرفص الأول، وخلع سرواله وبدأ في التغوط، تأففتُ وآلمتني رائحة الوقاحة الطازجة، وضحك الثلاثة متعجبين.

– اللعنة عليك يا فاطمة! أيخلو قلبك من الرحمة؟

انتهى العبد ولم تتلاشَ الرائحة وتكرر الأمر مرات، ولست أدري مدى قدرتي على احتمال هذه القذارة، ولم أجد بُدًا من اختراع طريقة للتواصل معهم لعلي أكشف سرهم، وأملأ وقتي، وأنسى عفن الرائحة التي سكنت أنفي! وساعة من الإشارات والبعبعة علمتُ أن فاطمة قطعت ألسنتهم واستعبدتهم، وهي تواظب على تعذيبهم، ولا تنوِّلهم إلا القليل من الطعام والماء، وتكلفهم بأعمال شاقة لا هدف منها سوى التعذيب.

ويبدو أن فاطمة لم تحتمل فراقي أو أنها لا تصبر على معرفة مصير حبيبها حيان وجاء الزنجي وفك قيدي وأخذني إليها مجددًا، لم تسمح لي بالجلوس وشعرت أنها على عجلة من أمرها لحسم الأمور وقالت:

- عزيز، سأعطيك حرية الاختيار بين أن تخبرني بالحقيقة فورا أو أن تقرر أن تمضي بقية عمرك مقيدا برفقة عبيدي، أو أن تُدفن حيا في صندوق.

أعلم أنها لن تقتلني حتى لا تدفن معي الحقيقة التي تتوق لمعرفتها، فحاولت إقناعها بصدق قولي ولكنها أصرت على اختياري فاخترت قيد العبيد، وهنا استشاطت غضبا وقالت لزنجيها:

- خذه وادفنه حيا.

لم يتباطأ، وأمسك بي وجرني إلى حفرة حفرها سلفا وبداخلها صندوق حشرني داخله وأغلقه، وبدأ يهيل التراب فوقي، لم يصبني الذعر لأنها لو عقدت العزم على قتلي لما تركت في صندوقها ثقوبًا تسمح بمرور الهواء، أظلم قبري المزعوم ولم أعد أرَ شيئا ولا أشتم إلا رائحة التراب، ولكني سأصبر حتى تنتهي خدعتها...لم يمر وقت طويل حتى بدأت أشعر بنفاد الهواء والاختناق، وأخذت أصرخ بأعلى صوتي:

- سأعترف سأعترف، أخبرها يا سيد كيمو.

يبدو أن تحليلي كان خاطئا، سأموت في هذا الصندوق فقيرا، ولن أتمتع بقطعة ذهب واحدة ولا بأربع من النساء الجميلات، صبرت وصبرت ونفد الهواء، وأخذت أقسم وأنذر النذور:

- إن نجوت هذه المرة لأتبرع بأغلب الذهب للفقراء ولن أحتفظ إلا بنصف جرة ذهب كبيرة ولم أحدد حجم كبرها حتى لا أقيد نفسي بكمية الذهب التي يمكن أن أحشوها بها.

تجنبت التفكير في النساء وشرعتُ أشيد المساجد والمدارس وحولت نفسي إلى ناسك زاهد، وانتظرت آملاً أن يتطاير التراب وأخرج معافى، ولم يحدث شيء، وحين يئست من النجاة أيقنت أن نصف جرة الذهب لن تنفعني وأنا ميت، فنذرتها للفقراء أيضًا، وبعد طول انتظار أدركتُ أن نذوري لعمل الخير لن تنقذ حياتي هذه المرة فاستسلمت للموت داعيا الله أن يغفر لي ذنوبي القليلة، ولمَّا لم أعد أشعر بالاختناق علمتُ أني ميت وفي انتظار الملائكة ليصحبوني إلى ما اختاره الله لي، وهو غفور رحيم، وأنا لم أكفر به يوما...مللت انتظاري، وشرعتُ أستعرض ذاكرتي متجنبا السيئات باحثا عن الحسنات، اللعنة على ذاكرتي! كل ما حفظته لا يبشر بدخولي

الجنة قبل زيارة جهنم، وقد فات الأوان على إصلاح شيء، أدعو الله أن يهبني فرصة واحدة، ويرجعني لأنفق كل الذهب الذي سأسرقه في وجوه الخير...أنتظر مصيري، نعم سأزور جهنم، وسيغفر لي الغفور الرحيم ويأمر بي إلى الجنة، وهناك سأتمتع بنعيم لا يزول؛ لن أكون هزيل الجسد ولا قصير القامة، ولن أخدم أحدا، بل سأكون باشا في قصر كبير، وفجأة...أدركت أن ساعتي لم تحن بعد، وانفتح الصندوق وأطل الزنجي بوجهه الأسود، وسحبني وجرني إلى خيمة فاطمة، وأدهشني أن مكوثي داخل القبر المزعوم لم يتعدَ العشر دقائق؛ أخرجني المسكين قبل أن يجف عرقه بعدما تحقق الهدف من دفني ألا وهو الاعتراف أمام سيدته، ولم أجد داعيا لأجرب القبر مرة أخرى، وخاطبتها بدون ألقاب:

- يا فاطمة إن لم أخبرك بالحقيقة ستقتلينني، وإن أخبرتك سيقتلونني فماذا أفعل؟
- تكلم وسأكف عنك الأذى، وأقسم لك بشرفي: لن تصل إليك يد أحد.

نبرة صوتها توحي بالقوة، ولكن ما راقني أن الجميع يقسم بشرفه في قافلة تفتقد الشرف من البداية...أخبرتها القصة كاملةً مزينةً ببعض الأكاذيب؛ تآمر شكيب وطبرق وجمال الدين ضد حيان وجروه إلى خارج المخيم، وطعنوه وألقوه في البئر، وهددوني بقتلي وقتل أبي وأمي وإخوتي وخالتي دولت إن أخبرت أحدا بما رأيت، وترقرقت بعض الدموع في عينيها ليس شفقةً على أهلي وخالتي، وإنما حزنا على فراق ابن العربية، وسرعان ما اتقدت عيناها وجفَّت دموعها، وسألت:

- ورباب أين ذهبت؟

فقلت لها:

- لقد توسلت إلى رباب أن تذهب إليك وتخبرك بما حدث قبل فوات الوقت، ويبدو أنها أسرعت لتنقذه بنفسها.
- وهل تعتقد أنها استطاعت إنقاذه؟
- لا يا سيدتي هذا من المُحال فقد طعنه طبرق –لعنة الله عليه– في رقبته وألقاه في البئر وأغلق كل منافذ الهواء.

وبدا أنها سترتطم بالأرض ثانيةً، ولعلها ما عادت تطيق سماع المزيد! أشارت بيدها تجاهي ولم أنتبه إلى أن الملط اللعين كان خلفي ويصغي لكل كلمة، فأمسك بيدي وأسرع باصطحابي خارج الخيمة واعتذر عما حدث، وأوصاني بألا يعرف أحد بما حدث وما كنت لأفعلها، تحدث كثيرا ولم أصغ، وعقلي كان مشغولا برأس حمورابي البرونزي الذي جلس على أحد الصناديق بلا جسد، هذا الرأس الجميل الذي خسر إحدى أذنيه وتعرض لخدش في ذقنه قابلته في عامي الأول من خدمة البيك عندما جاء به أحد مساعدي الباشوات وأخبره أن مصدره العراق وطلب منه أن يتفحصه:

- عظيم عظيم.

كررها أكثر من عشر مرات، وأخبره بندرته، واحتمال أن يكون أثمن ما اكتُشف حتى يومنا هذا، وحين غادر الرأس وحامله قهقه روهان بأعلى صوته وقال:

- يجب علينا يا عزيز أن نبحث عن العراقي صانع هذا الرأس ونقبل أصابعه الذهبية ونشجعه على مواصلة خداع الباشوات الأغبياء.

وحينها علمت أن عمر هذا الرأس لا يتجاوز العشر سنوات، ولا يساوي عصملية واحدة، وكان لقائي برأس حمورابي المزيف بداية درسي الأول حول كيفية معرفة تاريخ القطع الأثرية وعمرها...الملط يسير بجواري ولم ينتبه إلى عدم إصغائي، وبعفوية استدرت وعدت راكضا إلى خيمة فاطمة واقتحمتها بوقاحة، وحين رأيتها غارقة في البكاء شعرت بأن تهوري أقحمني في ورطة، ولم يكن أمامي إلا أن أكمل ما جئت من أجله:

- يا فاطمة رأس حمورابي مزيف، ولا يستحق أن يكون برفقة آثارك الأصيلة.

وهنا صرخت بأعلى صوتها:

- يا كيمانو، يا مالت، خذوا هذا المجنون واقتلوه.

مالت كان يركض خلفي ليمنعني وأدركني بعد فوات الأوان، شدني وأبعدني عن الخيمة ووبخني وأقسم بشرفه أن فاطمة لن تتردد في قتلي في المرة القادمة، وأنه لن يتدخل ثانيةً، تركني بعدما تأكد أني لن أتهور مجددا، وعدت لأكمل هذا اليوم المثير الذي صرتُ فيه عبدًا مغلولاً

بقيد حديدي، ثم ميتًا موقوفًا على أبواب جهنم، ثم ناسكًا تقيًّا ينذر ذهبه الذي ينوي سرقته، ثم قابلتُ نبوخذ نصر، ورأس حمورابي المزيف، وأهم اكتشافاتي لهذا اليوم أن ما سمعته عن شراسة وحزم فاطمة كان مبالغا فيه؛ فهي لم تقطع رأسي ولا لساني، وأمام رخاوتها عزمتُ على أن أجد طريقة للتلصص عليها عندما تكون عارية.

ازدحم اليوم بالأحداث ومازالت الشمس تحتاج الكثير من الوقت لتنتصف السماء، وفي طريقي إلى خيمتي استوقفني شكيب، وكان يستظل بظل شجرة نخيل وسط المخيم، ولم يترك مؤخرته لتلامس التراب، بل أحضر معه أحد مقاعد جودت المعطوبة، جلست وقبل إجابتي على سؤاله عن مكان اختفائي، وصل الرومي اللعين يحمل نرجيلة، فشعرت بأني أجلس في أحد مقاهي إسطنبول، وأجبته بأني كنت عند النبعة أزور قبر طبيلة، ثم أحضر الرومي الشاي، لو رافقنا هذا الخادم النشيط منذ البداية لما استطعت منافسته.

لم يرق لي اختياره هذه الشجرة المقابلة لخيمة الكعب، ولم يطف بمخيلتي أن هذه النخلة ستشهد قريبا جنونًا سيترك أثره على الكثير منا، لم يتوقف شكيب عن مخاطبتي بالباشا، سرني ذلك بدايةً، ولكن مبالغته أصابتني بالملل الشديد، فانتظرت أكثر من ساعة لعله يعود إلى خيمته ويتركني أزور نعناعتي خفية، ولكن هذا اللص الكبير الحالم بالثراء وخادمه قد استطابا الجلوس تحت النخلة، فعزمتُ على الابتعاد بحثا عن مغامرة أختتم بها يومي.

انقضى اليوم وأشرقت شمس الاثنين، وتركت العلف والماء لنجمة وذهبت لنعناعة، لعلي أستطيع إقناعها بالخروج من عزلتها! فوجدتها نائمة ولم أرغب في إزعاجها، أعددت الشاي وأشعلت سيجارة لم أدخنها وأخرجت دفتر يوميات جودت أفندي خلسه وقرأت:

- ***" كيف يمكنني إخبار الموت بأني لم أخشاه يوما؟ ولو كانت هناك طريقة لأقنعه بأن يترك لي حرية اختيار الطريقة والوقت لن أتركه ينتظر طويلا...بعد موت يعقوب عزمتْ الطبيعة على قتلي وأرسلت أفعى إلى فراشي وانسلت مبتعدةً قبل أن أتبين كونها من ذوات السم أم لا، وبعد أيام عادت الأفعى نفسها ونامت في فراشي، أطلقت عليها خمس رصاصات ولم تصبها واحدة وانسلت لتختفي بين صناديق الذهب طاردتها حتى***

شقت طريقها إلى خارج خيامي وتساءلت: هل عزمت هذه الأفعى على قتلي؟ وحينها تذكرت سؤال يعقوب عن غباء الأفاعي، وأقلقني حقًا تساؤلي: هل مطاردة الأفاعي لي ويعقوب مصادفة أم هناك مَنْ يهمسُ في أذنها الصماء؟!"

أغلقت دفتر اليوميات وأعدتُه مسرعًا وأخذت أنادي على سالم لأوصيه بأن يخبرني فور رؤيته أفعى؛ لقد أيقنت بأن الأفعى التي نامت في فراش نيروز لم تكن مصادفة ولا حاجة لأبحث عمن يهمس في أذن الأفاعي في وجود فاطمة عاشقة القتل الناعم، وكل من زارتهم الأفعى أعداؤها، ربما أرادت قتل طبرق، وربما غارت من نيروز لمجالستها حيان ومحادثته بين الحين والآخر، واليوم يجب عليَّ الحذر من أفاعي فاطمة اللعينة، وعزمتُ على إغاظتها، فحملت طعاما وقربة ماء وتسللت إلى خيمة العبيد الثلاثة وقدمته لهم.

ولم يمر وقت حتى رأيت الزنجي يقفز مثل القرد من خيمة إلى أخرى، لم أتساءل عمن يبحث ليقيني بأنه لم يقصد غيري، لمحني وأطلق ساقيه لاصطيادي، وأنا الخبير بكل خيمة ومحيطها بدأت ألاعبه لعبة القط والفأر، وحين رأيته قد حمل عصا غليظة هربت مسرعا إلى خيمة شكيب واقتحمتها فارتبك الخبيث بعدما رأيته يخفي ذهبا في الخيمة، ولمَّا لم تحمل نظراته لي ودًا قلت ولم أنتظر سؤاله عن سبب وقاحتي:

- كيمو يطاردني ليقتلني.

مستغربًا:

- ومن يكون كيمو هذا؟

أخبرته أنه كيماني حارس فاطمة الزنجي، سألني عمَّا فعلته وأنكرت أني فعلت شيئا، ساعتين لم أخرج من الخيمة وحضرت فاطمة وتحدثت إلى شكيب ونادى علي لأتعهد أمامهما بأني لن أقترب من خيامها وخدمها ودوابها وكفلني شكيب الذي لم يتمالك نفسه وأفرط في الضحك وحاول جرها لتضحك معه إلا أن عينيها كانت تمتلأ حقدًا وكرهًا ونارًا تكفي لتحرق المخيم بأسره، أراحني أن ما طلَّ من عينيها لا علاقة لي به حتى أني شككت بأن مجيئها لم يكن إلا لتنظر في عيني شكيب، ولم أكن سوى سبب ملفق لهذه الزيارة، تركتهما، وحيث الثقب

خلف الخيمة وضعت عيني وأرخيت أدني؛ إنها ترغب في الرحيل سريعا، ولكن شكيب أصر على بقائها في المخيم لحين القضاء على ناجي خان، ونبرة صوتها أوحت بانعدام راحتها لوجودها بجواره، ولعلها ما عادت قادرة على مجاملته!

ومر الاثنين والثلاثاء، وعندما أفقت من نومي متأخرا افتتحت صباح الأربعاء بالاعتناء بنجمة وبذل جهدي لإقناع سالم بالابتعاد عن صديقه الجديد طبيب جودت ومشاركتي الإفطار وشرب الشاي، وأن يجاريني قليلا في ألعابي الساذجة والأهم من كل هذا أن يراقب تسلل الأفاعي ويتذوق الطعام والشراب قبلي فمازلت أعاني حالة الهوس من الموت مسموما عن قصد أو عن غير قصد، وأعد سالم الشاي وطلبت منه أن يرتشف منه قبلي ففعل، وقال:

- (شو بطلت تقرف وتتقرف لما واحد يشرب من كاستك شو اللي تغير).

أشعلت سيجارة وأخذت أنفث الدخان مقلدا طريقته في التدخين وقلت له:

- لم يتغير شيء سوى أنني عزمتُ على أن أشرفك لتكون قربانا لي.

فرد علي:

- (خلصني شو بدك تلعب اليوم؟)

هذا الأبله أفسد اللعبة قبل بدايتها، وسألته عن سمور وحمور، فأخبرني أن شكيب اصطحبهما بالأمس تجاه النهر، ومن زمن رحيلهم ووصفه لما حملوه من أغراض أدركتُ ألا نية لذبحهما، وأنهم كانوا في طريقهم إلى غربي النهر، وتركني سالم بعدما ملَّ وملّلَني، ولمَّا لم أجد ما أفعله وسوس لي عقلي أن أتحامق قليلا بعد تهاون فاطمة معي، فكررتُ فعلتي وملأت شوالا طعاما وربطته على خاصرتي وحملت قربة ماء وأخذت أتجول بالقرب من خيام فاطمة حتى سنحت الفرصة لأتسلل إلى خيمة العبيد الثلاث وألقيت لهم الطعام وقربة الماء وهربت مسرعا، وشعرت بمتعة، فما يغيظ الغجرية وزنجيها يفرحني.

وقبل الظهيرة دعاني الرومي لأحتسي الشاي برفقة شكيب فوجدت مقعدا اعرجا في انتظاري، واحتسينا الشاي وجلس الرومي فوق حَجَر جعل منه مقعدا، وسرني ذلك لأنه مكان

الخدم، وأخبرني شكيب بأنه غدا سيصحبني لتناول الغداء في البتراء عند أصدقاء عرب، وابتسم وتابع:

– واليوم تنتظرك مفاجأة في خيمتي.

أثار فضولي وتحايلت عليه أن يخبرني ماهية المفاجأة، فضحك وقال مصطنعا الجدِّية في كلامه:

– عسكري عزيز انتباه.

جاريته ووقفت ببلاهة وأديت له التحية العسكرية ولمَّا أخبرني أنه أحضر بدلتي العسكرية تظاهرتُ بأنه سيُغمى عليَّ من الفرح وسألته عن البندقية فضحك وقال:

– في طريقها إليك من إسطنبول أيها عسكري.

رقَّصت حاجبيّ وغمزت بعيني وحركت خديّ وأرخيت شفتي وشددتهما، وزدتُ في تظاهري بالفرحة السانتورية، وحقيقةً لقد كان هذا الرجل بارعا في معاملتي، وخشيتُ أن أحبه، سألته عن سمور وحمور فأخبرني أنه أرسلهما إلى القدس في مهمة خاصة، وغَمْز عينيه أخبرني بأنهما الطعم الذي أعده للصائد القادم...أوعز إليَّ خيالي بأنه قد ملأ جيوبهما ذهبًا، واستودعهما رجاله غربي النهر بعدما خطط أن يلقى بهما في طريق ناجي خان ليقبض عليهما ويستجوبهما، وبعد تعذيبهما لن يخبراه سوى الحقيقة التي ستجذبه إلى المخيم، وهذا ما يسعى إليه شكيب، ويبقى السؤال: هل يسعي حقًا لقتله أم يريد أن يجعل منه غطاءً لسرقة الذهب؟

وقبل انصرافي أطل الكعب عائدا من إحدى رحلاته الليلية ولكزني شكيب وقال ساخرا:

– هل عفاريت الـ"قاقا باقا" ترافقه أم أنها لا تظهر نهارًا؟

وكان ردي عليه بسانتورية جادة متجنبا السخرية:

– أحيانا يرافقونه نهارًا ولكن أغلب الأوقات يظهرون ليلا يا سيدي.

وضحك شكيب ودخل الكعب خيمته وما هي إلا لحظات حتى بدأ يصلنا صراخ من خيمة الـ"قاقا باقا":

- (هاع هااااع هاااااع ااع).

لقد تجاوز صراخه النهر شرقا وغربا، وتردد صداه حتى وصل إسطنبول:

- (هااااع اااااع).

شكيب يحتسي قهوته ويسألني:

- ماذا يفعل هذا المجنون؟
- إنه في اجتماع مع الجان يا سيدي.

هدأ صراخ الكعب لعدة دقائق ثم عاد أشد قوة:

- (اااااع اااااااع شكيب شكيييييييييب).

وقف شكيب على قدميه وقال ساخرا:

- أيناديني؟

وخرج الكعب من خيمته وهو يصرخ:

- ش ش كيب شكيب.

واجتمع أهل المخيم على صراخه عدا جودت العاجز عن تحريك أصبعه، ونعناعة التي تحتاج إلى مدفع يطلق من فوق رأسها لتصحو من نومها، والعبيد الثلاثة المحرم عليهم الخروج من خيمتهم القذرة...الكعب يهرول إلينا، يتعثر ويدوس بقدمه طرف عباءته فتسقط على الأرض، يتجاهلها ولم يتوقف عن الهرولة والصراخ:

- شكيب شكيب.

وطوق الكعب شكيب بذراعيه ليشاهد الجمع عناقا حارا وبين طرفة عين وانتباهتها استل الكعب خنجره وغرسه في خاصرته، واستمر في صراخه:

- شكككككككككيب.

وطعنه ثانية وثالثة ورابعة ولم يسمح له بالسقوط، واستمر في طعنه حتى أزهق روحه وتركه يسقط وجلس فوقه واستمر في طعنه بقوة عشرات الطعنات...الرومي الحارس الأمين احتاج دقيقة ليفيق من الصدمة ثم أسرع نحو الخيمة، وعندها اعتقدتُ أنه أسرع ليحضر سلاحًا يدافع به عن سيده، ولكنه لم يعدْ... وطرق عقلي احتمالات ثلاثة؛ الأول: إنه مات رعبًا، والثاني: أسرع إلى المعسكر ليطلب النجدة، والثالث: اتخذ قرارًا حكيمًا وسرق بعض الذهب من الخيمة واختفى من الوجود، لو كنت مكانه لاتخذت الخيار الثالث وملأت جيوبي ذهبا وهربت، وأغلقت فمي إلى الأبد...إن فعلها سيحصل الرومي على نهاية سعيدة إذا لم يتعثر ويسقط عن حصانه ليموت؛ فهذه القافلة لا تحب أن يغادرها أحد على قيد الحياة.

لم يجرؤ أحد على الاقتراب أو التدخل، ولم تغادر الكعب نوبة الغضب المجنونة؛ لم يتوقف عن الطعن والصراخ وترديد اسم شكيب، ولم يكن هناك حاجة ليستحم بدمه بعدما غرق فيه...أصابنا ذهول مقيم، وشتَّ المنطق عن عقولنا ولم يدرِ أحدٌ تأويلاً يدفع الكعب إلى قتل شكيب بهذه الوحشية، فهل قرَّر الكعب اليومَ فقط الانتقام من شكيب لتحريض جمال الدين على قتله، أم أصابه الجنون حقًا؟!

فاطمة راقبت كغيرها، ولم أرها مرعوبة هكذا من قبل، ودوما كان يقف الزنجي خلفها إلا أنها وقفت خلفه هذه المرة حتى أسرعت مبتعدة، كان في استطاعتها أن تأمر زنجيها أن يطلق النار على الكعب من أجل شكيب، ولكنها لم تفعل.

مالت اختبأ بين بقية الخدم، فما يراه الآن جنًا أحمرًا لا أرجواني، أما البقية دب الرعب في قلوبهم فتفرقوا، وسالم مرت عليه دقائق قبل أن يدرك أن عليه الاختباء، والطبيب الشاب لا يبدو عليه أنه رأى مشهد قتل مماثل، فتبلم وتصنم، وربما كان ينتظر حتى ينتهي الكعب من تمزيق الميت ليهرع لإسعافه، أما أنا فشعرت بمتعة مراقبة الرعب في عيون الجميع، وكنت فخورا بنفسي؛ كنت مندهشًا ولم أكن خائفا، وانتظرت ليخرج الكعب قلبه ويطلب أن أطهوه له، وتمنيت ألا يهرب البقية ليشاهدوا هذا الجزء المثير؛ شق الصدر وإخراج القلب ليحمله عزيز أفندي بين كفيه ويطهوه لملك الـ"قاقا باقا"، هذا المشهد سيكون كافيا ليدفعهم جميعا للارتعاب مني والانحناء أمامي، وكما قال روهان:

- لغة الخوف هي أسرع الطرق وأبلغها لتعليم الاحترام.

طال انتظاري، وأيقنتُ أن جسد شكيب لم يتبق منه شيءٌ يصلح للطهي، وما حدث اليوم كان كافيا ليعلم الجميع أن الملك الأوحد لهذه القافلة هو طبرق، وأن صديقه الأوحد فيها هو عزيز أفندي، وأن هذا الملك الغاضب لن يتردد في ذبح كل مَنْ يخالف أمره.

- اليوم شهدتُ له بالشجاعة في مواجهة اليوزباشي وجها لوجه وقد انتصفت الشمس كبد السماء لتكون شاهدة على أبشع حادثة قتل شهدتها قافلة الموت...توارى الجميع عن بكرة أبيهم، ولم يبق مراقبٌ غيري، ونفدت طاقة الملك الثائر، ونام فوق الجثة وعاد إلى جعره (هااع ااااع). وحمدت الله أن نعناعتي في نوم عميق ولم تصحُ على صوته. انتظرت وانتظرت وأصابني الملل وتوجهت إلى خيمه جودت لعلي أقنع سالمًا كي يعد لنا إبريق شاي ووجدته مختبئا خلف الحقائب التي نقلها الحقير شكيب إلى الخيمة وهنا اكتشفت السر وراء هذا الإخلاص والوفاء لجودت والطبيب الشاب وكيفية حصوله على السجائر الفاخرة، وقلت له:

- هيا يا سالم لنعد الشاي ونشربه معا.

لم يرد فاقتربت منه وكان أصفر اللون يرتجف، فأشفقت علي المسكين، شاهد جثثًا عند اشتباك قطاع الطرق للاستيلاء على القافلة ولكنه لم يشهد مثل هذا الموت، والكعب يثير الرعب في قلب سالم حتى دون أن يشاهده يذبح أحدا، طمأنته بأني لن أسمح بأذيته، فسار خلفي وأشعل النار وكاد يحرق ملابسه، وأعد لي الشاي وقدمه وقال دون أن اسأله:

- (برحمة أبوي ما بصقت فيه عزيز).

صدقته وطلبت منه أن يذهب ليرى إن كان الشيخ طبرق قد انتهى من تقطيع شكيب وابتعد عنه؛ حتى نذهب ونشاهد كيف سيبدو منظر أزرق العينين بعدما صار أشلاء، فهمس:

- (هذا مجنون بقتلني شفت كيف كان يعيط).

ما قاله سالم أثار بداخلي عشرات الاسئلة، اللعنة! ما الذي يدفع مثل هذا المسخ ليبكي؟ وركضت بسرعة مجنونة إلى خيمة نيروز، لا شيء قد يصيب الكعب بالجنون غيرها، اقتحمت الخيمة وعشرات الأفكار السوداوية تسبقني إليها، فرأيتها نائمة كملاك، لم يستر جسدها إلا القليل

من ثوبها الممزق، كانت منحورة غارقة في دمائها، تجمد الزمن وشعرت بالدوار، وكأن في رأسي اجتمع حشد كبير من البشر والضباع يتراقصون على إيقاع طبول افريقية.

وبكفي صفعت وجهي وحل الهدوء، لم أعد أسمع شيئا، ورأيت خالتي دولت ترقص وطبيلة يأكل وسلامة يحفر بفأسه بالخيمة، وجاء جوهر وتربع بالقرب من نيروز، وبدأ يروي قصة عن الجني القزم، والتف حوله رشيد وشيخة، وأحمد وسعدون وخلدون ونعمة، وحسن ومراد، وازدحمت الخيمة وشارفت على الاختناق، لم أرتجف، لم أشعر بالخوف، ولم أتساءل إن كنت حالمًا، ففي أحلامي لا تحدث المصائب، وأخذت انظر إلى نيروز، كل ما أراه يدل على موتها ميتة بشعة، لم أفكر في شيء، نيروز ماتت، فقط ماتت، لا داعي لاستدعاء الطبيب ليؤكد على هذا، ويجب أن اسأل سالمًا عنه لأني لم أره عند ذهابي إلى خيمة جودت، خرجت من خيمة نيروز وفي طريقي رأيت أن الكعب ما زال نائما فوق شكيب.

وصلت إلى سالم وطلبت منه أن يملأ لي الكوب شاي وبدأت أحتسيه، فسأل:

- (في شي عزيز؟)

فأجبته بلا مبالاة:

- أحدهم نحر نيروز وماتت.

فقال:

- (بتحكي جَدي عزيز؟ بشرف إمك بتحكي جد؟!)
- نعم إن لم تصدقني اذهب بنفسك لتتأكد.

يبكي كالاطفال ويشتم:

- (يلعن ابوه الشيخ طبرق ليش ذبحها!!)

قلت هادئًا:

- ليس الشيخ، يبدو أن شكيب قتلها لهذا قتله، ولكن كيف أستدل على أنه القاتل؟

استمر في بكائه، وذاكرتي التي لم تتأثر بأية عواطف إنفعالية استعرضت الحدث منذ لحظة وصول الكعب والـ"هااااع" حتى توجيه الطعنة الأولى لخاصرة مَنْ يعتقده قاتل نيروز.

لم يبد على شكيب الارتباك، ولم يدافع عن نفسه، ولم يلامس مسدسه، لقد كان مسترخيا عند رؤيته الكعب مندفعًا إليه في جنون، وهذا لا يشير إلى أنه القاتل، ليس معقولاً أنه قتلها واختار أن يستظل بظل الشجرة القريبة من خيمتها ليراقب وصول الذباب الأزرق، نعم لقد أبدى الكثير من الاهتمام بها في الآونة الأخيرة ولكن أي منطق يقول أنه اعتدى عليها ونحرها بطريقة تدل على حقد وكره! والكعب يمتلك من الفراسة ما يكفي لمنعه من التهور، ولولا أنه يملك دليلا يدفعه ليكون على قناعة بأن شكيب قاتلها لما قتله.

لا بأس كلنا سنموت في النهاية، وربما الأفضل أنها ماتت حتى لا أنشغل بمطاردتها وغسل ثيابها، ولا أسمع "غلبتك معي عزيز"، وقررت الذهاب إلى الكعب لأسأله إن كان هناك مكان محدد يرغب أن آخذ سالمًا لحفر قبر لها فهي في النهاية حبيبته وهو صاحب القرار النهائي. وقبل أن أحرك مؤخرتي اقترب الكعب وكان مخضبا بالدماء، وقال:

- عزيز عزيز.

ردد اسمي كالأبله، فقلت له:

- اجلس يا شيخ طبرق لتشرب معنا الشاي.

والتفت إلى سالم لآمره بذلك إلا أنه فر هاربا، جلس الشيخ على التراب ولم يجلس على البساط، كان مهذبا ولم يشأ أن يلطخه بالدماء، وفي الكوب الذي تركه سالم خلفه ملأته له ووضعته بيده، أمسكه ولم يشرب وقال:

- (آخ يا عزيز آخ!)

فقلت له:

- اشرب الشاي يا شيخ، وإن كنت جائعًا سآمر الخدم أن يذبحوا بعيرًا ليعدوا لك الطعام.
- لست جائعا أريد أن أنام فقط، أريد أن أستريح.

وقبل قولي:

- ستنام بعد دفن نيروز.

دخل خيمتي ونام على فراشي، اللعنة عليه لقد لوثه بدماء شكيب! وجدتُ متعة في الحديث معه، فهو للمرة الأولى منذ عرفته كان وديعا، تركته لينام قليلا قبل عودته لشراسته الأولى، وذهبت لمشاهدة ما أمسى عليه شكيب ولم أكن الوحيد الذي شده الفضول كان زنجي فاطمة وبعض خدمها يشاهدون الرجل الذي مزقه خنجر الكعب ولم يتبق فيه شيئا، كنت أرغب في النظر إلى عينيه وسؤاله عن تهمته في قتل نيروز، وعن روهان بيك، ولكن هيهات هيهات، لقد فُقئت عيناه، لا أشعر بالعداء تجاهه ولم أرغب في البصق عليه أو التبول، تعاون اثنان من الخدم على جره فوق بساط وقاما بتغطيته، واعتقدت أن فاطمة أمرت بدفنه، وكانت فرصتي لأتقمص دور السيد وأملي عليهم أوامري:

- لا داعي لغسله وتكفينه؛ هو شهيد يدفن كما هو وبإذن الله سيدخل الجنة.

يبدو أن صوتي أزعج الزنجي كيمو فدفعني بطرف يده وانصرف مع الخدم تاركين الجثة خلفهم...ليس من اللائق أن يُترك يوزباشي تركي استشهد وهو يؤدي واجبه في هذه القافلة بغير دفن، ومن غير سالم سيساعدني، وعندما رفض عزمت أنا على دفنه وحدي، وبدأت أحفر بجوار جذع النخلة بالرغم من معرفتي أن السيول يوما ما ستجرف قبره ولكن التربة كانت صلبة، تمكنت من حفر عدة سنتمترات وسحبته اليها لأهيل عليه التراب، هذا ما يسعني لأفعله وحدي، وانتهيت من الحفر وطرق أذني قول روهان:

- حين يموت رجل ولا تبكيه امرأة فقد مات منذ زمن.

في ذلك اليوم المشؤوم لم أدرك أنى أتحرك بلا وعي تجاوزت الخط الأحمر بجرأة وناديت:

- يا فاطمة يا فاطمة.

وأطل وجه المخنث فقلت له:

- أسرع ونادِ سيدتك لتودع شكيب قبل دفنه.
- هل فقدت عقلك ما بك؟
- وصل الذباب الأزرق لأزرق العينين، وستنتشر الأوبئة إن لم أسرع بدفنه لهذا يجب أن تحضر فاطمة لتبكيه قليلا.

أمسك بيدي وقال:

- شكيب ضابط كبير في الجيش ولا يجوز دفنه قبل مجيء ضابط ليطلع على ما حدث، وأنت لم تفق من الصدمة حتى الآن كحالنا جميعا، حاول أن ترتاح قليلا.
- أنا لا يصدمني شيء، أنا عزيز قطعت رأس سعدون وخلدون ورشيد وبيبرس ونعمة، أنا مساعد ملك الـ"قاقا" لا أخاف ولا أُصدم.

وهز اللعين رأسه ورأيت الشفقة في عينيه، وقال:

- اذهب وارتح يا عزيز، ولاحقا سنتحدث.
- يجب أن ندفنه قبل غروب الشمس.

فنظر إلى السماء وقال:

- لدينا متسع من الوقت قبل غروبها لا تقلق.

تركته وحاولت أن أستعيد رشدي وأخرس عشرات الأصوات التي تصرخ في رأسي، ومن بقي لي غير سالم لأذهب إليه! وجدته يجلس كقنفد مذعور وآثار الدموع في عينيه، لم يدر هذا العربي الأبله أن تأثيره عليّ كالسحر، ولم أفهم يوما سر تعلقي به، استلقيت على فراش الطبيب المختفي وأجهشت في بكاء فاق بكائي طوال عمري، واقترب مني سالم، وببراءته سألني:

- (ليش بتعيط عزيز).
- أبكي خالتي دولت لعنة الله عليها! فقد تذكرت أني لم أبكها عند موتها.

وأجهش هو أيضا بالبكاء، ولم يبك خالتي وإنما حاله وحالي، وكما قال روهان يوما:

- الدموع تخفف من لهيب النار في قلوبنا لهذا تكون ساخنة.

جففت دموعي وشعرت بأني أخف وزنا وأثقل وجعا، وخرجت لإيقاظ الكعب لنواجه معا ما ينتظرنا في خيمته الملعونة، وكانت الشمس في طريقها للغروب وحين اقتربت رأيت فاطمة تتجاذب أطراف الحديث مع كاظم والآخر كانت يده اليمنى تتحسس مسدسه وعينيه مصوبة نحو خيمتي، لا أدري شيئًا عن زمن وصول كاظم، ولكن النظرات والإشارات إلى خيمتي أوحت بأن فاطمة أصدرت أمرًا بقتل الكعب، كان واضحا أنها لم تأمر حارسها الزنجي وانتظرت كاظم ليكون شاهدا على ما حدث، ويبرئها من اتهامها بقتل الجميع لاحقا، وأشهر كاظم سلاحه وخطواته البطيئة الحذرة دلت على خوف يعتريه من مواجهة الكعب، وحين ولج الخيمة أسرعت الخطى خلفه، ودعوت الله أن يكون الكعب يقظا ليتمكن من صده، ولم يكن الكعب يقظا ولا نائما.

وقف كاظم فوق رأسه وصوب مسدسه إليه وهو يردد:

- أيها الملحد الكافر يا عابد الشياطين كان يجب أن نقتلك منذ زمن واليوم سأرسلك إلى جهنم.

لم أكن شجاعا يوما وما كنت لأجرؤ، ولكن القدر دفعني لأنحني وألتقط حجرًا كنت أشد به قماش الخيمة وهويت به على مؤخرة رأس كاظم ويدي الهزيلة المرتجفة لم تعينني على قتله وإنما خدشته وأشعلت غضبه، والتفت إلي وصك أسنانه، فعاد رشدي وفرت حماقتي، وأطلقت ساقي للريح، وأنا أصرخ:

- آسف آسف.

يطاردني من خيمة الى أخرى مشهرًا مسدسه صارخا:

- يا ابن القحبة سأقتلك.

وقادتني ساقي لخيمة الملط اللعين فاختبأت خلف صناديقه، ولحق بي وأطلق عليَّ الرصاصة الأولى، أجزاء من الثانية لم أتمكن خلالها من نذر الذهب للفقراء ولكنها كانت كافية لأنطق الشهادتين...وكان دوي الرصاصة الثانية مع سقوط كاظم صريعا، وخلفه يقف الملاك

المنقذ صديقي السيد مالت، المحترم، الشريف، النبيل، الشهم، الشجاع وبيده مسدس صغير ناعم، ولكن فعاليته كانت كبيرة، وحين اطمأن قلبي وقفت شجاعًا أتحسس جسدي ورأسي لأعي أن الرصاصة الأولى لم تصبني، وشعرت أني رجل منيع، وكيف أموت قبل أن أنعم بالذهب والثراء! وصلت فاطمة لاهثة، وحينما رأت كاظم صريعا والسيد مالت يحمل مسدسا أطبقت فمها بكفيها وقالت:

– ماذا فعلت يا مالت لماذا؟ لماذا...؟

لم توبخه، لم تلعنه، ولم ترفع صوتها، وهو لم يحني رأسه أو يغير نبرة صوته ورد عليها كرجل مستقل لا كخادم وقال:

– اضطررت إلى قتله قبل أن يقتل عزيزًا.

وهي أخذت تردد:

– ماذا فعلت!

خرجت الكلمات من بين شفتيها متعاطفة حزينة وللوهلة الأولى اعتقدت أنها وقعت في حبي وسرَّها أنه أنقذ حياتي، وخاب أملي حين تابعت:

– ليقتله ويحرقه مالنا به يا مالت؟ وكيف سيصدقنا الباشا بعد موت آخر رجاله؟!

فقال لها:

– موت كاظم خير لك من حياته؛ فقد سمع من جودت ويعقوب الكثير.

وهنا خرجت عن هدوئها وصرخت بأعلى صوتها:

– يا كيماني.

أسرع إليها، فقالت:

– اذهب وادفن الشيخ طبرق وخذ هذا وادفنه واخفي كل أثر.

ولساني الفصيح الذي ما كان يجمع بالماضي جملة دون تأتأة قال لها متباهيا:

- الشيخ طبرق لم يمت لقد أنقذته يا فاطمة.

وضربت بكفها على جبينها، وصرخت بأعلى صوتها مخاطبة كيمو الزنجي:

- اذهب وتحقق من قول هذا الأحمق، واقتله إن كان حيًّا قبل أن يجن ويقتلنا جميعا.

وهنا تدخل القدر مرة أخرى لصالح الكعب وحرك لساني بطلاقة:

- يا سيدتي.

فردت صارخة:

- اخرس أيها الملعون.

فلم أخرس:

- الشيخ طبرق هو الوحيد الذي يعرف أماكن دفن الذهب يا سيدتي.

وخرج مالت مسرعا من الخيمة وتبين أنه منع كيمو من تنفيذ أمر فاطمة، ولم تهدأ وشتمتني حتى أنها قالت:

- منذ رأيتك علمت أنك ستجلب علينا المصائب، اللعنة عليك ماذا أفعل بك! وما دخلك أنت إن عاش ذلك المعتوه أو مات؟ هل رأيت ماذا فعل بالفتاة نيروز وبشكيب.

فأجبتها بثقة لم أشعر بها يوما بعدما أصابني إحساس المنعة من الموت:

- شكيب –رحمة الله عليه– اعتدى على نيروز وقتلها –رحمة الله عليها– والشيخ ثار لموتها وهكذا يفعل الرجل الحر.

دل صمتها على دهشة وعادت إلى تهديدها:

- سأقتلك يا عزيز لو كان هذا آخر شيء افعله في حياتي!

ضحكت؛ فهذه الكلمات رددتها رباب على مسامعي، والتهديد بقتلي ما عاد يترك أثرًا في نفسي، وأخذت أردد سرا:

- ومن في هذه القافلة لا ينوي قتل عزيز أفندي! ولكن لسوء حظكم جميعًا لن يموت عزيز قبل أن يستمتع بتبذير كنوزكم وذهبكم.

وقفت لتغادر وقالت:

- اذهب واطلب من شيخك المعتوه أن يسرع بدفن تلك المسكينة.

اهتز جسدها مع إيقاع خطواتها، ولعنت الباشا سرًا على غبائه؛ أيترك هذه الفرس الجموح في البراري وحيدة! ليتني أستطيع طلب زواجها مقابل بنائي قصرا لها بعدما أخرج الذهب! ليس من اللائق منافسة باشا كبير على امرأته، وتمنيت لو أنه برفقة هذه القافلة الرائعة التي تزرع الذهب وتحصد الأرواح، ليموت هو أيضا، وعندها ستكون فرصتي لأتزوج فاطمة، ولابد أنها ستوافق، فلا خيار أمامها، إما أنا أو سالم أو الزنجي، ومالت لا يصلح للنساء، وأشك في أنها ستقبل الزواج من أحد خدمها، وفي الوقت الحالي لن أعترض إن طلبت مني ملء المكان الشاغر الذي تركه حيان.

عدت إلى صديقي الكعب لم يكن نائما وإنما كان قد تكور على نفسه في إحدى زوايا الخيمة ويجعر، لم أر في حياتي أحدًا يبكي بلا دموع، بكاء مزيج من الجعر والعواء وضحك الضباع، مجموعة من الأصوات امتزجت لتدل على وجع رهيب يشعر به هذا المسخ آكل القلوب، ماذا يحدث لسفاح الـ"قاقا باقا"! كلمته:

- سيدي الشيخ طبرق عظم الله أجركم، الشمس في طريقها إلى الغروب ويجب أن نسرع بدفن نيروز قبل أن تفوح رائحتها ويأكلها الذباب الأزرق.

لم يرد، وبدأ يضم ساقيه إلى صدره وانكمش وصغر حجمه كثيرا، وكل محاولتي لإقناعه بالإسراع بدفن حبيبتنا باءت بالفشل، في هذا اليوم المشؤوم كنت مزيجا من شخصيات عدة حتى أني ما عدت أعرف من أكون! وبعفوية جلست بجواره واتكأت برأسي على طرف كتفه وأخذت أبكي كالأطفال، لم أشعر بحزن، أو ربما فقدت الإحساس بكل شيء، لا أعرف مَنْ أبكي شكيب، أم نيروز، أم نفسي، أعيش تناقضات غريبة، ما عدت قادرا على فهم مشاعري، جففت دموعي حينما سمعت دبيب خطوات كثيرة قادمة نحوي، وتفاجأت من اقتحام الزنجي مسلحا ببندقية

وخلفه مالت يحمل مسدسا، وأحد الخدم يمسك عصا والآخر يمسك فأسًا، وفاطمة تقف عند باب الخيمة تحمل مسدسا بيدها، وخنجرا مذهبا بالأخرى؛ اجتمعت قبيلة فاطمة وتسلحت لقتل الكعب، فتنحيت جانبا أراقب صامتًا، صراخهم عليه:

- ابق مكانك ولا تتحرك.

ربما خاطبوه بعشر لغات؛ عربية، تركية، غجرية، ألبانية، وإفريقية، وجميع أحرفها ترتجف رعبا من مجابهة الوحش المتكور وهو يجعر ولا يلتفت، كانوا حوله كالذباب، وزاد خوفهم أنه لم يبدر منه ردة فعل، وهنا صرخت فاطمة:

- قيدوه وإن تحرك اقتلوه.

اقترب خادم يحمل سلاسل بيدين مرتجفتين وقيد ساقيه بلا اعتراض؛ فقد المسكين إحساسه، ولم يع شيئًا مما يدور حوله، لقد أسكرته أحزانه، وانعزل بوجيعته عن زمننا وهام في عالم آخر لا وجود له، خرجوا منتصرين ولم يفارقهم الخوف، وشعرت بالإهانة لرؤية ملك الـ"قاقا باقا" مقيدًا كبغل، إنها لإهانة لمساعده أيضًا...جلست بجواره أحدثه:

- يا شيخ، يا ملك، يا أمير، هيا استيقظ وحطم قيودك وانحرهم عن بكرة أبيهم؛ فجميعهم لا يستحق الحياة.

جعر وبكاء بلا دموع، وحينما يئست من التواصل مع المارد الذي تقزم في خيمتي عزمتُ تولى دفن نيروز بنفسي، وذهبت إلى سالم ليساعدني، فأبى الاقتراب من خيمتها، ووافقني بعد طول جدل على مساعدتي في حفر القبر، ومعا حفرنا لها قبرا بالقرب من طبيلة بجوار النبعة، وكان لطيفا من فاطمة أن أرسلت خدمها ليساعدوننا، ورافقوني لنقلها إلى مثواها الأخير، ولم أسمح لأحد بدخول خيمتها وبشجاعة ورباطة جأش سترت جسدها ولفها باللحاف الذي اعتادت أن يغطيها، ووضعت معها بعض ملابسها الحريرية، ثم سمحت لخدم فاطمة بالدخول لحملها، وحينما وصلنا إلى القبر كانت الشمس قد غادرتنا، والقمر امتنع عن الظهور وأظلمت تلك الليلة، وفاجأتنا فاطمة قادمة من بعيد تحمل مصباحا وحضرت دفن نيروز وودعتها...قالت عدة كلمات لم أسمعها، وأكاد أشك ولا أجزم أن شفتيها لفظت أحرفًا:

- س ا م ح ي ن ي.

واستدارت وذهبت، وبعدما انتهينا من قراءة الفاتحة رافقتُ سالمًا لأنام في خيمة جودت بعدما احتل الكعب فراشي وخيمتي، وغططت في نوم عميق لم تراودني الكوابيس.

وحينما أشرقت الشمس وأفقت من نومي بوجع رهيب في يملأ صدري، وجاهدتُ في جمع أحرف مكتومة لأنادي على سالم:

- هل ماتت نعناعة؟

فرد علي:

- (مين نعناعة؟)
- نيروز نيروز.
- يرحمها الله يا عزيز!

أعلم أن نعناعتي ماتت ولا أشك في ذلك ولكن عقلي لا يريد أن يتقبل الأمر، أشعر بفراغ يخنقني، ماذا سأفعل الآن؟ مَنْ سأطارد؟ مَنْ سأراقب؟ بمَنْ سأحلم؟ مَنْ سأكره؟ ومَنْ سأحب؟ وبدأت يومي بلعن نفسي على إنقاذي كعب الحذاء، أي حماقة ارتكبت! فلا قيمة له عندي بعد موت نيروز، فما أبقيت على حياته مؤخرًا إلا لحمايتها، ومعرفته بمواقع دفن الذهب ستضر بما خططت له، لم أنو أن أبدأ يومي بوجهه القبيح، وعزمتُ على الذهاب لخيمة الذهب، دخلتها فإذا بفاطمة جالسة وأمامها على الطاولة عدة أوراق وخرائط لا قيمة لها لذا لم أخفها مُسبقًا، هذه الخيمة الملعونة انتقلت من وريث إلى آخر في أقل من سبعة أيام، ابتسمتُ لأن هذه الفاطمة الخبيثة لم تترك ركنًا فيها إلا وفتشته بحثًا عن خرائط واوراق جودت لتعرف أماكن الذهب ويطمئن قلبها إلى قتل الكعب، ولو هدمت العالم بأسره لن تجد ما أخفيته...سألتني:

- أين مفكرة جودت وأوراقه يا عزيز؟
- فقدها عندما هاجمته الضباع.

طلبت مني الجلوس وبدأتْ تحقيقًا لا نهاية له حول كل ما يتعلق بالذهب وأصابها الذهول كما أصاب شكيب من قبل، اللعنة! وفاطمة أيضًا لا تعرف كمية الذهب التي حملها جودت، ألا يثق الباشا إلا بجودت فقط؟! سخرتْ مني ولم تصدق وحاولتْ البحث عن الحقيقة عبر تكرار الأسئلة وتحريفها واعتقدت بأن طريقتها الساذجة ستخدع ذاكرتي لتتناقض أجوبتي، لا تريد أن تصدق ما أخبرها به عن الكميات الهائلة من الذهب ومع هذا كانت عيناها تلمعان وتبرقان وهي تراقب كل حرف ذهبي يخرج من بين شفتي ليهز سمعها، واستفزها أني لا أنظر إلى حسنها وإنما استقر بصري أسفل الطاولة، وماذا أفعل؟ لا أستطيع أن أقاوم الهوس المرضي! كنت أنظر إلى حذائها المُرصَّع بالأحجار والمُزَّين بخيوط ذهبية، وأثار جنوني وجود أربعة أحجار على الفردة اليسرى من حذائها وخمسة على اليمنى والأرقام الفردية تثير جنوني وتزعجني، أعلم أنها لم تتعمد انكشاف ثوبها قليلاعن جزء من فخذيها وأن جِلستها تسببت في كشف الثوب عن غير قصد، وحقيقة إن فخذيها لم يشغلا تفكيري في البداية وإنما حذائها اللعين، وعندما حاولتْ أن تتجاهل اختلاسي النظر ظننتُ أن هذا أعجبها فأمعنتُ في تفحصي حتى انتفضتْ وشدتْ ثوبَها وغطَّت ما انكشف منها ورمتني بنظرة حادة وعادت إلى أوراقها وأنا عدتُ إلى حذائها، ماذا أفعل! لا أستطيع منع نفسي من اللاتناسق الرقمي الذي أثار جنوني، ولم أنتبه إلى مراقبتها...قالت:

- هل تريد أن آمر كيمو ليخلع عينيك الوقحتين؟!

فقلت:

- مريه أن يخلع أحد الحجارة ليتساوى عددها وتتناسق مع حذائك أو اسمحي لي أن أفعل ذلك بدلاً منه.

وقفتْ تنظر إلى حذائها الحريري وضحكتْ وقالتْ:

- وهل هذا ما أشغل فكرك وعينيك؟

- نعم سيدة راقية وأنيقة مثلك لا ينبغي لها أن تغفل مثل هذا الأمر.

واقتربت مني ورفعت ساقها وتركت قدمها بين فخذي وأنا جالس وقالت:

- هيا اخلعه بنفسك.

فعلتُ وشعرتْ بالراحة، فابتسمت وقالت:

- وهل تجدني أنيقة؟

- أنتِ أنيقة ولكن لا ذوق لك في اختيار الألوان، ولو تركتني أختار لك ثيابك ستكونين غاية في الأناقة.

بسطت كفها وأبرزت أظافرها كقط بري وشعرت أنها ستغرسها في وجهي، وخرجت الكلمات من بين أسنانها زئيرًا وقالت:

- أنت معاق معتوه! اغرب عن وجهي قبل أن أخنقك.

وثبت لأتحاشى مخالبها الطويلة قبل أن تزور وجهي، وفي اللحظة نفسها اهتزت الخيمة ومعها المخيم بأكمله على صراخ الكعب:

- (هوووع ااااع).

وارتعبت اللبؤة وانكمشت أمام زئير السبع، وأشارت بيدها بغير كلام:

- اخرج اخرج.

وأسرعت ألاحق جعر الـ"هووووع" وأتتبع صوت السلسلة، واقتربت من المارد الذي لابد أنه خرج من غيبوبته وسيكسر قيده ويذبح الجميع انتقاما لما ألحقوه به من إهانة.

سألته:

- هل أنت جائع؟ اذبح الزنجي وسأطهوه لك مع البصل كما تحب.

كان تائهًا لا يعي ما حوله، وكان الجميع مرعوبًا متأهبًا للهرب إذا عزم هذا السبع المقيد على افتراس أحدهم، وكانت المفاجأة؛ اللعين خلع سرواله وتغوط أمام الجميع وأخذ يهز رأسه كأبله، وفاحت الرائحة وتلاشى الخوف وضحك الجميع، وهذا لم يسرني.

وقف ينظر إلي وكأنه يسألني:

- ماذا أفعل الآن إلى أين أذهب؟

وهنا أشفقت عليه، سبحان الله! المارد الذي صدم الجميع كانت صدمته أشد وطأة من الجميع، تجنبت الإمساك بكفه وأمسكت كمه وسرت نحو خيمته وسار خلفي كحمل وديع، وما كان هذا ليحدث حتى في أحلامي وقبل اقترابي من خيمته أخذ يصرخ ويجعر ويجرني إلى الخلف:

- لا لا لا...

حاولت أن أهدئ من روعه ليفهم أن هذه خيمته، ولكنه أفلت مني وهرب وتعثر بسلسلته ووقف ومشى بخطى سريعة مرعوبة، وعاد إلى خيمتي وفي زاوية تكور على نفسه وأخفى رأسه بين ركبتيه، وأنا مذهول ممَّا أراه، ماذا يحدث لوحش الـ"قاقا باقا" اقتربت منه وأخذت أمسد على شعره وللمرة الأولى أرى نفسي أطول منه، شيء ما يحدث في رأس هذا الوحش ويجب أن أكون حذرا، لأنه حتمًا سيشتاق إلى الدم قريبا، ومع هذا لم أجد من اللائق أن أدعوه سيدي، فقلت له:

- ما بك يا طبرق؟ مما أنت خائف؟ لا تخف أنا بجانبك وسأحميك، بإمكانك النوم في خيمتي، ولكن أريدك أن تغتسل، وتزيل ما علق بك من قاذورات.

لم يعلِّق ولم يرفع رأسه، وتركته وكانت فرصة أن اذهب للبحث في خيمته وبالرغم من الجنون الذي أصابه كان لابد أن أكون حذرا، فلا يجوز المراهنة على هذا الوحش فقد يستيقظ فجأة كما أصابه الجنون فجأة، وجئت بالسيد سالم ورجوته أن يراقب من بعيد، وأن يؤذن بأعلى صوته للصلاة حتى ينبهني إن خرج الشيخ من الخيمة، اقتربت من الخيمة التي ارتحلت إليها عيناي صباحا ومساء، هناك سكنت روحي وأحلامي، ودق قلبي وارتعشت حواسي، منها أشرقت الشمس، وعلى بابها سهر القمر... ولجتها منقبض القلب، وفاحت رائحة الدماء وتلاشت رائحة النعناع، انحنيت لأتلمس فراش ضج بالأنوثة، سكنته يومًا حسناء، كان باردًا تجمَّعتْ حوله عدة ذبابات تبحث عن قطرة دم لم تجف بعد، وأطلقت العنان خيالي، وأرسلتُ ذاكرتي إلى الوراء لتسانده في إعادتها للحياة، ألبستها أجمل ثيابها، وسرَّحتُ شعرها ورسمت على شفتيها ابتسامة، وهمست في أذنها لينطق لسانها باسمي مرارا وتكرارا...اقتربت منها لأنعم بدفئها واشتممت

رائحتها؛ تلاشت رائحة النعناع، رائحة الدماء، فقط دماء، وأجهشت بالبكاء، أنا بشر أنا إنسان ولكن الحياة تصر أن تسرق مني كل شيء، وها هي تسرق منّي أنثاي الوحيدة.

أيتها الحياة القاسية لقد حكمت عليَّ أن أعيش وحيدًا حتى في أحلامي لن تشفقي على حالي يوما! لماذا أخذتِ نعناعتي وتركتِ فاطمة؟ أم أن البراءة ما عاد لها مكان! ألا أستحقُ لحظةَ سعادة واحدة ولو في خيالي؟! ماذا فعلتُ ليحدث لي كل هذا؟ كم أكرهك أيتها الحياة! سأسخر منك ولن أعيرك اهتماما...سأجفف دموعي وأخلع عيني إن بكت مرة ثانية، ما عاد هناك شيء لأبكي عليه! لم أعد قادرا على التحكم في أفعالي، ماذا أريد؟ ماذا لا أريد؟ من أنا ومن سأكون؟!

لم يلفت انتباهي شيئا أكثر من عباءة الكعب، أخذتها ورميتها على أكتافي وكانت كالخيمة فوق جسدي الهزيل، وبأحد خناجره مزقت أطرافها وقصرتها حتى ناسبتني، وشددتُ أحد أحزمته على وسطي، وتمنطقت بالخنجرين وعدت إلى خيمتي لأحضر الخنجر الذي مزَّق جسد شكيب، وحين رآني سالم قادما بدأ يؤذن بأعلى صوته:

- الله أكبر، الله أكبر.

أشرت له بيدي ليعرف أنني عزيز وليس الكعب، فاقترب مني وقال:

- عزيز لبسك الجن.

فقلت له:

- لا أنا اليوم ملك الـ"قاقا باقا" انصرف وأعد لي كبدًا يا عبد.

دخلت الخيمة وأخذت الخنجر الثالث وشعرت بأنه لم يعد ينقصني شيء، وكان الكعب قد تمدد على الأرض وألقى رأسه على التراب، وقلت له بعفوية:

- هيا يا طبرق نظِّف الخيمة واغسل ثيابي وتعال إلى خيمتي لأشرفك واجعل منك عبدا للـ"قاقا باقا".

كنتُ مدركا بأني أهذي ومع هذا لم أتوقف، عدت إلى خيمة نيروز وتربعت كما كان يفعل الكعب، أنظر إلى فراشها وما علق به من دماء، أشرت اليها وارتمت بأحضاني وحدث بيننا ما حدث حتى مللت منها وغربت الشمس وأنا على هذه الحال. وسيطرت على نوبة الهذيان قليلا وضحكت من سذاجتي، لقد قصدت الخيمة لأبحث عمَّا يخفيه لا لأتحول إلى مسخ مصغر عنه، استعدت رشدي وأدركت أن الموت حق، وأن نيروز لم تكن فاتنة الجمال، ومع ما سأملكه من ذهب سآتي بأربعة يفوقونها جمالاً، ورقيًا؟! لقد أكلت من لحم البشر ودماؤها نجسة، ولو أنجبتُ منها سيكون أولادي مسوخا، وبعدما أنهيت حياة نعناعة إلى الأبد، وعزمت على البدء في التفتيش جاء مالت وقال:

- لقد بحثت عنك في كل مكان تعال معي، فاطمة تريد أن تتحدث معك الآن.

أعتمت الخيمة فلم ير هذا الحقير ما أرتديه، وقلت له سرًا:

- انصرف ولا تحلم بأن أريك الجان الأرجواني يا حقير.

وسرت خلفه وحينما وصلنا فاطمة اعترض طريقي كيمو اللعين ولم يسمح لي بدخول خيمة فاطمة بصحبة الخناجر حرصًا على أمنها، فرميته بنظرة احتقار وعدت أدراجي متجاهلا دعوة فاطمة وملطها، وهنا لاحظ الملط ما ارتديه وضحك وقال:

- تعال انت وخناجرك.

دخلنا خيمة فاطمة وكانت مضاءة جيدا، واعتقدت أنها حين تراني بحلتي الجديدة ستنحني لي احتراما، وهذا ما حدث حقًا، فمذ وقعت عيناها عليَّ انحنت، ولم تتمكن من رفع ظهرها من شدة الضحك، وكلَّما حاولت أصابتها نوبة قهقهة وسقطت فوق أريكتها، احمر وجهها وانقطع نفسها وكادت تختنق، وانهمرت الدموع من عينيها واختلطت بما سال من أنفها ولم تستطع التوقف عمَّا أصابها، وأشارت بيدها إلى الملط بما يعني:

- أبعده عن وجهي قبل أن أموت.

وما كان بحاجة فأنا لم أكن بمزاج يسمح لي بالبقاء ولا فضول لدي لأعرف ماذا أرادت مني وخرجت عائدًا إلى خيمة الـ"قاقا باقا" ومازالت أصداء ضحكاتها تلاحقني، أشعلت مصباحا وبحثت في كل زاوية ولم أجد شيئا يستحق الانتباه غير ثياب المرحومة الحريرية، فحدثتُ نفسي:

- لو كنت أنا مكان الكعب أين سأخفي أسراري؟ من المؤكد كنت سأفعل ذلك تحت فراش نيروز فهي نائمة عليه أغلب الوقت.

رفعته فوجدت حقيبة جلدية كبيرة أسفله، ولا يبدو أنه حرص على دفنها عميقا، أزحت بعض التراب وكشفت عنها ولم أحركها من مكانها، كانت مملوءة بقطع ذهب كبيرة، تعادل الواحدة نصف كفي، وعشرات تماثيل الذهب صغيرة الحجم، لا يزيد حجم الواحد عن إبهام كف اليد، وأحجار كريمة، وست كتب صغيرة غلافها من البرونز، وثلاثة خناجر قديمة صدئة ما كنت لأزيحها بقدمي لو وجدتها على الطريق، والكثير من العصمليات والليرات الإنكليزية، وعشرات الخواتم وأكثر من عشر جدائل شعر، وقطعة جلد ملفوفة بعناية واهتمام، وحينما فتحتها وجدت فروة رأس بشري داخلها.

الحقيبة كانت تحوي الكثير من الذهب والأغراض الغريبة، أعدت إغلاقها وما كان بوسعي تحريكها دون إفراغ محتوياتها، لهذا فضلت أن تبقى مكانها لحين ايجاد طريقة لنقلها أو إخفائها، العباءة والخناجر وتقمص دور المسخ لم يكن كافيا لمنحي الشجاعة لقضاء الليلة بخيمة المرحومة وحيدًا، وما كان باستطاعتي العودة إلى خيمتي وقد احتلها الكعب ونشر قاذوراته في زواياها، وذهبت لسالم لأستأنس به واقضي ليلتي...وما أضحك فاطمة أبكى سالمًا ورجاني أن أخلع ملابس الكعب.

- (اشلح لبس الشياطين هذا الله يخليك عزيز).

وحاولت إقناعه بأن هذا الزي الرسمي لملوك الـ"قاقا باقا" ولا يجوز التنازل عنه، فقال:

- (مشان الله اشلح هاي الاواعي خليني اعرف أنام وبكرا بلعب معك قاقا باقا).

المسكين سالم تخيل أن العباءة ستحولني إلى قاتل وخطر لي ما قاله روهان يوما:

- "تقليدك زئير الأسود لا يجعل منك أسدا!"

وأشرقت شمس الجمعة وصحوت من نومي مذعورا فزعا، ركضتُ لأشرف على توزيع المؤن وإعداد القهوة ولكن سرعان ما اكتشفت أنه لم يعد هناك شيء على ما هو عليه؛ لا يحتاجني أحد، ولا شيء لأشرف عليه، وفاطمة وخدمها مستقلين بكل شيء وحتى السجائر لا حاجة لأحد بها، نجمة الوحيدة التي مازالت في حاجتي، فذهبتُ إليها ولم أجدها وبحثت عنها ووجدتها قد انتقلت إلى أملاك فاطمة كان واضحًا أنها عوضت بها فرسها المرقط.

وحينما لمحت فاطمة من بعيد أسرعتُ إلى خيمة الذهب لأطمئن على الذهب القليل الذي تبقى ولم أتفاجأ حين وجدت الخيمة قد خلت من كل ما له قيمة، هذه الحقيرة استولت على كل شيء وعدت لأطمئن على الكعب وخطوة واحدة داخل الخيمة ورأيت ما أكد لي أن هذا المارد قد تغوط في وسط الخيمة وأحتاج لأتقيأ ألف حرف لوصف ما كان يفعله بالبراز.

أسرعت وأخرجت حقائبي وتركتها بخيمة أخرى، لن أعود إلى هذه الخيمة أبدا! واللعنة عليّ أيضا! وعلى حياتي وعلى كل شيء! سأجن إن بقيت يوما واحدا داخل هذا المخيم الملعون، يجب أن أهرب قبل أن أفقد عقلي، لا شيء يبشر بالخير والنهاية لن تكون سارة، لم أعد أشعر بالخوف من الموت ولكني وصلت إلى حد الشك في رجاحة عقلي.

برعت في السانتورية، وكل خطوة كانت تخدم هدفًا، ولكن رأسي الآن خالٍ من أية أهداف، وكل ما أقوم به لا معنى له، وتساءلت:

- هل جننتُ، ولم أدرك ذلك؟ أم أني أعيش صدمة موت نعناعة وأنكر ذلك في أعماقي؟

أتجول بين الخيام باحثًا عن عقلي، ومن خيمة نعناعة إلى النخلة إلى قبر طبيلة إلى المؤن، وبين الحين والآخر أغلق أنفي وأمد رأسي لأنظر الكعب، ولا أظن أنه سيعود إلى رشده يوما، وهنا أعدت الطمأنينة إلى نفسي ورددت أكثر من مرة:

- عزيز أنت تتظاهر فقط، والسانتورية هي طريقك للنجاة والثراء.

لم أقاوم رغبتي في أن أعود وأرتدي العباءة وأتمنطق الخناجر، وبررت ذلك لنفسي بأني فقط أتظاهر، لم يبقَ سوى سالم والميت الحي لأذهب إليه، جلست بالقرب من فراش جودت

أفندي وأخذت أحدثه سرًا؛ أخبرته بأني لست سانتورًا وضحكت لبلاهتي، مع هذا الميت لا حاجة لأخفي ما يدور في عقلي، وبإمكاني إخباره بأي شيء، ورفعت صوتي قليلا وقلت له:

- حينما تلقي ابن خالتك يعقوب أخبره بأني بصقت في طعامه وقهوته، وأيضا بصقت على وجهه وهو ميت، ودفعت لسالم ليبصق على قبره، وسأعود لأبول على قبره، وكل جرة ذهب دفنتموها أنا الوحيد الذي أعرف مكانها، وسأعود لأخرجها، ما رأيك الآن يا صديقي بالأبله الذي لم يتعلم كيف يكون سلطانا؟ لا تنس حينما تجتمع أنت ويعقوب وشكيب أن تتذكروا خادمكم الأبله عزيز، حينما أُخرج الذهب وأعود به، لن أنسى المجهود العظيم الذي بذلتموه للحفاظ على ذهبي، وأيضا إن زارك جمال باشا يومًا اشكره نيابة عني، فذهب دولته المرتقبة سيبذره عزيز أفندي، واعلم أيها الأبله أن أحمد الشايب لم يقتل يعقوب، وقتله الزنجي كيمو بأوامر منها، وعبد القادر أبو غميضة لم يهرب، لقد سرق نصف صندوق من ذهبك واختبأ في قبر سلامة، وعليك أن تعرف أيضا أن فاطمة قد سممت طعامك وطبيلة المسكين مات بسببك، أرأيت كيف أن مهرجك الأبله يعرف كل شيء؟! ومن الواجب أن تعرف أن شكيب قد أهملك وانشغل بسرقة الذهب، واطمئن طبرق الذي اعتقدت أني أؤمن بهرائه وغبائه قتله بطريقة أسطورية، وماذا تحب أن أخبرك أيضا يا جودت أفندي من الأسرار؟ هل تعلم أني تغوطت على الذهب، اطمئن أنا لم أكرهك على الرغم من أنك أبله، ولم أبصق في طعامك أو شرابك، نعم أنا ابن طباخ، خادم، مسكين، ساذج أبله، ولكن تذكروا بأني سخرت منكم جميعا، والذهب سيساعدني لأكون ما أشاء...أنت لا تصدق كلمة مما أقوله، سأثبت لك ذلك هل تعلم أني أجيد القراءة والكتابة أفضل منك، وكل كلمة كتبتها في يومياتك قد اطلعت عليها، أضحكتني جدا حينما كتبت عن رحلتك الفاشلة إلى باريس لتتعلم الطيران، لماذا لا أرى على وجهك الاندهاش؟ لابد أنك لا تصدقني، سأثبت لك ذلك الآن، سآتي بيومياتك واقرأ على مسامعك بعض أشعارك الركيكة.

تركته وأخرجت دفتر يومياته حيث دفنتها وفي طريق عودتي رآني الملط وأخذ ينادي وتظاهرت بعدم سماعه مبتعدا، وعدت إلى الميت الحي، وبفخر قرأتُ على مسامعه بعضًا من أشعاره التي لم يكتبها بلغة الشيفرة، ثم قلت له:

- والآن سأدهشك وسأقرأ لك ما كتبته بلغة الشيفرة الساذجة.

أخذت أقرأ له بعضا من آخر ما كتبه قبل أن تفترسه الضباع:

- ***"سامحيني يا أمي لقد وعدتك ألا أكررها مهما أظلمت الدنيا، وأخشى أني لن أحفظ وعدي، فما عدت قادرًا على الزحف بأحزاني التي أثقلت كاهلي منذ سنوات، سامحيني إن أخبرتك أني كنت سأفعلها أكثر من مرة ودموعك الغالية وقفت في طريقي، واليوم أشعر بأني اقتربت من رحيلي عنك، سامحيني لن أكتب لك رسالة وداع سأرتشف كأسي الأخير وأرحل في صمت..."***

مللت قراءة كلماته الحزينة، ولم أجد سببا واحدا لتشفيرها، وأخفيت دفتر يومياته، وعدت لأقترح على سالم أن نجلس إلى ظل النخلة وندخن النرجيلة كما كان يفعل شكيب ورومي فاستعاذ بالله من الشيطان ووافق على نصف الفكرة، هذا السالم ما عاد يشعر بالأمان إن خرج من الخيمة وعقله الصغير قد صور له أن جودت الميت سيرد عنه أي خطر ويكافئه على اعتنائه به...وفاجأنا الزنجي كيمو حين اقتحم الخيمة طالبا مني مرافقته، وهذا عزز يقين سالم بأن الخطر يلاحقني أينما ذهبت وعليه أن يتجنبني قدر الإمكان، ولكني تجاهلت إشارته وقلت لسالم:

- أخبره أني مشغول وليعد لاحقا.

فرد علي سالم:

- (هذا الفحمة ما بحكي عربي).

فقلت له تكلم معه بالتركية فقال:

- (أنا ما بعرف احكي تركي).

فقلت له:

- إذًا تحدث معه بالجمايكي.

وكعادته حينما لا يعجبه الكلام تجاهلني، ورافقت كيمو، وعندما وصلنا خيمة سيدته طلب أن أسلمه الخناجر فأعلنت تمردي ولم أوافق، وحين حاول أن ينزعهم مني بالقوة صرختُ مرددًا:

- يا فاطمة...يا فاطمة.

وخرجت وقلت لها:

- ابعدي هذا العبد عني قبل أن اقتله.

وغمزتني بطرف عينها اليسرى واستدارت بعد قولها:

- اقتله واتبعني إلى الخيمة.

وجدت ألا داعي لإراقة الدماء في يوم الجمعة هذا، فسلمته الخناجر ولم أتنازل عن العباءة الطبرقية، ولحقت بها وخاب ظني لمَّا لم تخلع العباءة المُخْملية المطرزة بخيوط ذهبية.

أشارت بأصبعها إلى مكان جلوسي، وقبل أن تتحرك شفتاها لأفهم سر دعوتها لي للمرة الثانية، ضج المُخيم بصراخ اللَّعين وجعره، وخرجنا فرأينا الكعب يدور حول نفسه ويجعر ويخلع ملابسه ويمزق سرواله، حتى ما عاد شيء يستر جسده القبيح المطرز بالندوب، اشمأزت عينا فاطمة مما رأت، فأمرت مَنْ حولها بتقييده، واجتمعوا عليه جميعا، ضربوه وطرحوه أرضًا وقيدوه في جذع النخلة المشؤومة، واستمتعوا بركله والبصاق عليه، ما أشجعهم! بالأمس صُكَّتْ ركبهم وبلعوا بصاقهم رعبا منه واليوم يركلونه ويبصقون عليه!

عادت فاطمة بعدما طلبت مني أن أستر جسده، ولم تطلب أن أتبعها لاحقا، ويبدو أن ما حدث قد أفسد يومها، ذهبت لأحضر ما أستر به مارد الأمس فأر اليوم، وحينما عدت وجدت خدم فاطمة وعبيدها قد تجمعوا حوله مرة أخرى يسخرون ويبصقون ويتضاحكون، أسرعت وطردتهم ومسحت الدماء التي سالت على وجهه، وسترت جسده وجئت له بالماء والطعام، ولم يتوقف عن البكاء بلا دموع.

لم أفهم؛ كيف يحدث هذا لوحش آكل لحوم البشر! لقد شق الصدور والتهم القلوب، وشرب الدماء ولم ترمش له عين، هل يعقل أن موت نيروز قد سرق عقله؟! هل الوحوش تحب وتعشق لتجن عند فقدان الحبيب؟! لابد أنها تحب وإلا لمَا تمكنت من حمايةِ صِغَارها، أي لغزٍ هذا يدفع وحش مثل الكعب ليفقد عقله عند فقدان مَنْ قتل أهلها واختطفها في صغرها! أيعقل أن هذه الضعيفة البريئة قد أسرت قلب هذا الوحش وعقله بعشقها له؟!

اللعنة! الكل يشعر بالخوف والحزن والجنون إلا أنا ما عدت أشعر بشيء، هل أنا العظيم الوحيد في هذه القافلة؟! لم أتوقف عن الحديث مع نفسي ولا مع الكعب حتى أطل من أفرح قلبي وسرني قدومه، اقترب عديد ووقفت لاستقباله وعانقني بحرارة فيها صدق وتخلو من نفاق، وتفاجأ حينما رأى الملك الذليل وسألني:

- (هذا المربوط ملك العفاريت ولا أنا غلطان؟)

كم أحب هذا الرجل وطريقة مزجه لعدة لهجات عندما يتكلم، ورددت عليه:

- نعم هو الشيخ طبرق ملك الجان.

فضحك وقال:

- (وشلون هاي صارت؟)

ففتحت ذراعي وقلت:

- صارت...

وساخرا قال:

- (والعفاريت ما راح توخذ على خاطرها منك انت وشكيب؟)

وجاء دوري لأسخر يبدو أن عديد يعتقد أنه بقي هناك ما يسمى بشكيب ولم يعلم أن الكعب قد حوله إلى قطع صغيره وقلت له:

- لم يعد برفقتنا بشر ولا عفاريت.

ولم يفهم فحوى كلامي، وطلب أن أرافقه ليطمئن على جودت ويلتقي بشكيب، وهنا نصحته أن يذهب إلى العفريتة فاطمة أولا لتخبره بآخر المستجدات، نبرة صوتي الجادة دفعته للذهاب إليها على الفور، ولم يغب دقائق حتى عاد وانزوى بي وسألني بصوت أقرب إلى الهمس:

- من قتل شكيب؟

فأجبته:

- الشيخ طبرق مزقه إربا.

وسأل:

- هل رأيته بعينيك أم أخبرك أحد؟

فأجبته بأني كنت موجودا وشاهدت كل شيء بنفسي منذ الطعنة الأولى وحتى لفظ الروح، فسأل:

- ولماذا قتله؟

فأخبرته بأنه تعدى على نيروز ونحرها وعندما اكتشف الشيخ الأمر ثار وقتله، شد عديد عضلات وجهه وأغمض عينيه وتمتم بعدة كلمات تفصح عن أنه لومه المقتول لا القاتل على ما حدث، ولم أشعر أنه اندهش من التهمة التي ألصقت بشكيب، وهنا سألته:

- وهل تعتقد أن شكيب يفعل مثل هذا الأمر؟

فهز رأسه واختصر إجابته قائلا:

- ليس كل الناس مثل جودت يا عزيز.

وما قاله كان كافيا لأفهم أن مثل هذا الفعل ليس غريبا على شكيب، وربما فعلها مرات عدة ليدفع عديد إلى الجزم بأنه ليس بريئا، ورغم أن ردة فعل عديد وما رمز إليه يدحض نظريتي إلا أني مازلت على قناعة بأن كل ما حدث كان من تدبير فاطمة، وتنفيذ الذئب الأسود الذي روضته، لقد صنعت فاطمة الأثر الذي قاد الكعب إلى شكيب دون سواه، وما كان أحد ليشك أن الكعب سيرحم من يمس حبيبته وبهذه الضربة أصابت وحشين بحجر واحد؛ قتلت شكيب وأخذت من الكعب أغلى ما يملك وحكمت عليه بالموت المؤكد، ربما يكون الاعتداء

على النساء وقتلهن إحدى عادات شكيب، ولكن ردة فعله والطريقة التي استقبل بها الكعب لا تشير إلى علاقته بمقتلها، لم يسألني عديد عن كاظم ووفر عليّ اختلاق رواية فالملط أوصاني بأن أكتم سر ما حدث لآخر يوم في حياتي...ذهبنا معا لنطمئن على جودت وبعدها ودعني عديد ورافقته إلى حيث ترك حصانه ومن هناك انطلق مع مرافقه ووعدني بعودته قبل غروب الشمس، لم أشعر بالراحة حينما رأيت أحد خدم فاطمة يراقب ويتتبع كل خطوة يخطوها.

وغربت شمس الجمعة ولم يعد عديد كما وعد، وأشرقت شمس السبت واستيقظت فزعا متشائمًا، وعادت رائحة الموت لتفوح من جديد، وسرني عودة شعوري بالخوف بعدما افتقدته منذ أيام، يبدو أني اعتدته، ولا أطيق فراقه، أو أني كنت بحاجة لأشعر بما يدل على أني مازلت على قيد الحياة، ومن يحمي مؤخرة عزيز أفندي الآن؟ سالم الأبله، أم جودت العاجز وطبرق المجنون؟! ليتني أؤمن بهراء الكعب لأطلب حماية خدم الـ"قاقا باقا"، وخطر ببالي ما قاله روهان:

- الإيمان بوجود شيء يحوله إلى حقيقة.

ولكن لا حاجة لي في الإيمان بالهراء يكفي أن طبرق مؤمن بهذا ولابد أن أعيد له إيمانه، وعقله قدَّمت له الطعام والماء أولا ثم أسرعت إلى خيمته وعدتُ بعباءته وسلاسله وألبسته إياها وشددت الحزام القماشي على وسطه وبه الثلاث خناجر الخشبية التي صنعها أبو إيليا مُسبقًا بعدما صادر الزنجي الخناجر الحقيقية، تربعت أمامه وبدأت أنشد على مسامعه الـ"قاقا باقا"، وأذكره بأن ممالك الجان تعتمد عليه ولا يجوز أن يخذلهم، وأحثه على أن يكسر قيوده وينحرهم جميعا، ووعدته بأن أطهو قلوبهم كما يحب ويشتهي، ولكن هذا المارد قد اعتاد القيد والذل، وخطر ببالي أن آتي له بجدائل الشعر وفروة الرأس التي يخفيها في حقيبته لعله يستيقظ من سباته! وأسرعت وكانت المفاجئة في انتظاري؛ لقد اختفت الحقيبة ولا أثر لها. لُمت نفسي على إهمالي، كان يجب أن أخفيها جيدا، وها أنا أخسر الكثير من الذهب والجواهر...لم أرهق عقلي في البحث عن السارق، فهذا المخيم الآن يخضع لفاطمة وهي خلف كل مصيبة تحدث.

وحين يئست من إيقاظ المارد عزمتُ على النجاة بحياتي، وذهبت إلى سالم وعرضت عليه أن نهرب معا، وأخبرته أنها فرصتنا في غياب المراقبة، وعدم الاهتمام بأمرنا، وأننا إن لم نهرب الآن لن نهرب أبدا، وقد ينتهي بنا المطاف إلى القتل أو الذبح كما حدث مع عظماء

القافلة الملعونة، ولم يعترض سالم كثيرا، فهدأت نفسي وصحت حواسي واشتممت رائحة كريهة تفوح في الخيمة، ولاحقتها حتى جراح جودت، ففي ظل الضياع والأزمة هرب الطبيب الملعون مرعوبا بعد مشاهدته ذبح شكيب، لا يعتني أحد بجراح جودت، كل ما يقوم به سالم هو ما كلفه به الطبيب من نظافة جودت، وعصر قطرات من الماء في فمه كل عدة ساعات حتى لا تجف شفتاه، وأخبره أنه سيعود ولكنه لم يعد.

إن الطريقة التي مات بها شكيب لأرحم من الحال التي أصبح عليها جودت أفندي، هو عالق بين الحياة والموت، والعفن بدأ يتغلغل في جسده، وماذا يمكن أن أفعل بعدما شعرت بوجع وغضب شديدين ونسيت مصيبتي، وببلاهتي ذهبت إلى فاطمة والشمس لم تنشر نورها بعد، وبدأت أصرخ يا فاطمة يا فاطمة، واستغربت أن كيمو لم يعترضني، ولم يكن له أثر، لابد أنها أرسلته بأثر عديد ليقتله، وأطلت علي ولم تقل "ماذا تريد يا مجنون؟" مثل كل مرة، بل قالت:

- ماذا تريد يا عزيز؟
- جودت يا فاطمة.
- هل مات؟
- يجب أن تساعديه ليموت، أكله الدود وهرب الطبيب، وموته أرحم من حياته.
- وماذا أستطيع أن أفعل؟! سننتظر عودة عديد، وسيقوم بنقله.
- لا حاجة لنقله، أعطيه شيئًا ليشربه ويريحه من عذابه.

وكنت ألمح الى السم، وكان ردها فاترا حيث قالت:

- ليس لدي دواء لمساعدته.

لا أدري هل بخلت عليه بالقليل من السم الفاخر، أم أنها لم تفطن لاتهامي المباشر بأنها تملك السم؟ وعدت بعد أن بصقت على غبائي وتهوري وعواطفي الطفولية الساذجة التي عادت لتحفر قبري مرة ثانية، وأقسمت أن أهرب هذا اليوم حتى لو كلفني الأمر حياتي.

عدتُ إلى سالم لنخطط وأعلم ألا عقل له ليساهم في مخطط الهرب، يكفيني أن يلتزم الصمت، ويتركني أتحدث إليه بدلاً من التحدث إلى نفسي، ولكن هيهات للعبقري أن يوافق على اتباعي دون معرفة تفاصيل الخطة...خطتي كانت بسيطة، حينما رافقت شكيب من الطريق الجنوبية لاحظت أن الغربان يعجزون عن حراسة الجنوب لوعورته، وصعوبة التنقل فيه، فالطريق تختنق في بعض الأماكن ويستحيل عبورها إلا بقطع النهر غربا، وهناك مسؤولية الحراسة ملقاة على عاتق الجيش، ولن يكترث الغربان بالنهر، وإن سرنا بمحاذاة النهر حتى تلك العقدة التي يحرسها الغربان وعبرنا النهر لعدة أمتار فقط، ثم نعود إلى الشرق فلن نصطدم بالجنود، وسنكون قد تجاوزنا الغربان، وهذا لن يكون إلا نهارًا حتى نتمكن من كشف الطريق لمسافة طويلة، وبخاصة الجزء الذي سنعبره من النهر.

لم أفصِّل القول لسالم واختصرتُ قدر المستطاع، وأعلم جيدا أن الصعب يكمن في أقناعه بألا نأخذ شيئًا معنا سوى مجارف، لنبرر خروجنا –إذا قبض علينا– أننا نبحث عن مكان لحفر قبر جودت...فلا يعرف أحد أننا حفرنا قبره مُسبقًا سوى كاظم وشكيب وكلاهما سبقاه إلى القبر، ولم يكن باليسير إقناع هذا الغبي بألا يحمل القطع الذهبية التي جمعها ودفنها في الخيمة وأقسمتُ له أن أعطيه أضعافها فور نجاتنا، وكنت سأفي بوعدي فكل ما أحتاجه هو إخراج جرة ذهب واحدة في طريقنا غرب النهر أو شرقه، ولم يبق إلا أن ننطلق ولكن الأبله تراجع مدعيًا ضرورة اعتنائه بجودت لعدم وجود مَنْ يعتني به.

كيف سأقنعه بأن وجوده أوعدمه لن يؤثر في شيء؟ ولمعت في رأسي فكرة فيها ستكون نجاتنا إن اكتشف أمرنا، واقترحت أن نأخذ جودت معنا ونعتني به في طريقنا وإن مات ندفنه ومن سيشك في أبلهين يحملان جثة، ولم يكن إقناعه سهلا لولا أني حدثته عن الثواب العظيم الذي سيجنيه من وراء هذا العمل الإنساني النبيل، وأحضرنا الفؤوس ورافقنا حمار يحمل الأفندي ولم يكترث بنا أو يراقبنا أحد وتسللنا ناحية الجنوب متجنبين الاقتراب من خيام فاطمة وخدمها، والطريقة التي حملنا بها جودت على الحمار لا أشك في أنها ستقتله قبل أن نقطع نصف الطريق.

سرنا وكان الجو رائعا بلا غيوم، وقطعنا مسافة لا بأس بها ولم يعترضنا أحد حتى العاشرة صباحا، وسقط جودت عن الحمار مرتين وانكسر أنفه، ولم أحزن لذلك، فلن يشكل فارقا أمام ما حدث له، ووصلنا إلى العقدة حيث تضيق الطريق وتوجب عبور النهر، وكانت المياه عميقة، وحان الوقت للخلاص من جودت والحمار الذي يحمله وهنا اعترض الحمار الثاني ولم يوافق على ترك جودت وحيدًا، وجاهدتُ في إقناعه بأن جودت شبه ميت وأن بقاءه بجواره لن يعيد له الحياة، ولمَّا لم أنجح في إقناعه اقترحت عليه أن نحفر قبرا وندفنه ونواصل طريقنا، واعترض على دفن حي، وبذلت جهدي لأسكن في قلبه الرعب، وخيرته بين حياتنا وحياة الشبه ميت، ورددتُ على سمعه أن حياة المرء أغلى من كل حياة، ومع هذا طلب أن ننتظر حتى يموت وندفنه، فاقترحت عليه أن نضربه بحجر فوق رأسه ونريحه من عذابه، وتفاجأت من موافقة سالم على فكرة قتل جودت لأنها أفضل من دفنه حيًا، وأخذ كل منا ينظر في وجه الآخر منتظرًا منه أن يجهز على الميت بحجر، ولم نمتلك الجرأة وجلسنا بجواره كالحمقى نراقب أن تغادره الروح بعدما حفرنا قبره.

وسبحان مَنْ يحيي العظام وهي رميم! فتح جودت عيناه ونظرة خاطفة خلعت قلبينا، وعاد الوازع الديني إلى قلب سالم وأصر على أن يعيده إلى الخيمة، هذا الأحمق لا يدرك أن عودتنا تحمل خطرًا يفوق ما قد نواجه في استكمال رحلة الهرب، ولم يكن أمامي خيار إلا أن أقوم بحركات استعراضية بعدما تظاهرت بفحص جودت، وشرعت أذرف دموع الفراق معلنا موته بعدما نظر إلينا نظرة الوداع شاكرًا عناءنا في نقله، وبكى الغبي حتى صدقت حيلتي الماكرة، وأيقنت موت جودت، ولا إله إلا الله والبقاء لله وحده، وإلى جنة الخلد، وتشاركنا الثواب في دفع الحي إلى قبره، وحاولت أن أقلبه على وجهه خشية أن يفتح عينيه مرة ثانية ويفسد عقل سالم وخطتنا في الهرب، ولكن النابغة قرر ألا يجوز قلب الميت، واستعددنا لنهيل التراب عليه وهنا حدثت المعجزة ورمش بعينيه للمرة الثانية وصرخ سالم:

- (طاب طاب يا خوي).

تشاءمت من هذا اليوم، ومن كل شيء، ومن فكرة الهرب برمتها، وأيقنت أن فتح عينيه إشارة لا تبشر بخير، وأخرجناه من القبر وحملناه على الحمار وسقط مائة مرة، وأكاد أجزم أنه

لم تبق فيه عظمة لم تتكسر، وعدنا أدراجنا ولم نواجه عقبة واحدة، وقبل الأمتار الأخيرة التي تفصلنا عن حدود المخيم رأيت الملط من بعيد، ولابد أنه سيعترض طريقنا ويمطرنا بالأسئلة، وعند اقترابنا وشاهد كساءنا الترابي الجديد، وما نحمله من فؤوس ومجارف، ووراءنا وجودت أفندي المُعفَّر مربوط فوق حمار، أصابه الذهول وسار خلفنا ولم ينطق بحرف، لا ألومه فمنظرنا لا يوحي إلا بالجنون...بعدما أفاق من ذهوله سأل:

- ماذا تفعلون؟
- جودت مات وذهبنا لدفنه؟
- ومن هذا الذي على الحمار؟
- جودت أفندي، وقد عاد من الموت لهذا أعدناه معنا.

صمت وأيقن جنوننا، وطلب الإسراع إلى فاطمة وأخبرته إنني مشغول قليلا وسأذهب إليها بعد فراغي...اللعنة على فاطمة! تدعوني المرة الثالثة ولم أدر سبب دعوتها.

اغتسلت وذهبت لأستبدل ملابسي ولم أجد أثرًا لحقائبي، وجن جنوني؛ هذه الحقيرة سرقت كل شيء، ودفعني غيظي إلى الكعب لمحاولة أخيرة لعله يستعيد رشده! وبدأت أتمتم في أذنه:

- لقد سرقت ذهبك أيها الأحمق، وسرقت حقائبي وكل شيء، هذه المرأة ستدمر حياتنا تدريجيا، أين عفاريتك؟! أين عقلك؟! استعده بسرعة وإلا سنهلك جميعا.

رماني بنظرة أشعرتني أن المسخ اللعين الذي يسكنه عاد إلى الحياة من جديد، وسرعان ما بكى بلا دموع وعاد إلى جعره:

- (ااااع اهع ااااه وووو)

أردت أن أصفعه، وأقول له إن أردت أن تبكي ابكِ كالبشر، لعنة الله عليك حتى بكاؤك جعر! ابكِ أيها الجرذ العاجز، أين قوتك؟ (تفوووو عليك) هيا استمر في تغوطك وتذوقه واقتلني بقاذوراتك، أي عذاب يمكن أن أختبره أكثر من هذا! اللعنة ما عدت أرجو من هذا المسخ أي

فائدة! وفاطمة لن تبقي على حياتي إن لم تجد فائدة من وراء ذلك، وهل تملقها وأداء دور الأبله سينجح مع هذه الغجرية مروضة الأفاعي؟! وما حاجتها لأبله بعد سقوط الكبار؟! ذهبت اليها وعزمتُ على الاستمرار في دور الأبله، ونوبات الجنون التي أصابتني مؤخرًا كانت كافيه لتقتنع بالأمر، ومثل كل مرة وصلت وناديت:

- يا فاطمة... يا فاطمة.

سمحت لي بالدخول وطلبت مني الجلوس وقدمت لي شايًا باردًا غريبًا رائحته، مازلت قادرًا على قراءة الآخرين، ولا أرى في عينيها النية لتهدر سمها الملكي من أجلي، وبعد موت شكيب وجنون الكعب بإمكانها قتلي متى شاءت، يستطيع كيمو أن ينفذ ما تأمره ولن يحاسبهم أحد على قتل خادم وضيع، منطقي صائب، ولكن حياتي كانت أثمن من الرهان عليها، ورفضت الاقتراب من الكوب وقدمت لي الحلوى ولم تمتد يدي إليها، وسألتي عن السبب فأخبرتها أني صائم ابتسمت وقالت:

- اليوم السبت، فقلت:
- لم أصم الخميس، لهذا أقضيه اليوم يا فاطمة.

شدت على أنفها الصغير وقالت:

- إن رددت اسمي ثانيةً سآمر مالت بقطع لسانك، قل: يا سيدتي، ولا تلفظ اسمي.

لو قالت سآمر كيمو الزنجي لصدقتها، ولهذا لم أمانع من استفزازها قليلا، هذه المرأة يدور في رأسها أمر ما ولا نية لديها في أذيتي، وقلت:

- كما تشائين يا فاطمة.

منعت نفسها من الضحك وقالت:

- لم تترك لي مجال سأقطع لسانك الان.

وأخذت تنادي:

- يا مالت.

ليست منزعجة، وما كان الملط ليقطع الألسنة، وجدتها فرصة لأعبر عما يدور في نفسي، فقلت لها متظاهرا بأني أصدق بأنها ستفعلها:

- قبل أن تقطعي لساني يا فاطمة أريد أن أخبرك سرا حتى لا أموت غيظًا: خفك الأصفر لا يتناسب مع لون بشرتك ويدل على ذوق سيء لِمَ تصرين على ارتدائه؟ ألا يوجد لديك سواه؟

صكت أسنانها ومن بينها انفلتت الضحكة رُغما عنها، وأفسدتْ الجدية التي حاولت أن تخفي بها وجهها، وقالت:

- أهذا ما ترغب في أن تخبرني إياه قبل قطع لسانك؟ ومالك وملابس النساء!

- سيدتي: أنا المسؤول عن ملابس نازلي هانم وأغلب نساء الباشوات.

- وهل أنت عبد خَصيّ؟

وضحكت ولم يعجبني ردها، وودتُ أن أقول لها: اسألي الملط، وظهر الملط فجأة، ولم أنتبه لدخلوه؛ أكان من الباب أم من أحد الصناديق؟ وهزت رأسها وقالت له:

- هل أنت متأكد يا مالت أنا أشك.

وكان رده:

- متأكد ولا تشكي.

فضربت بكفها على فخدها ووجهت كلامها للملط:

- أقسم بالله أنه أبله ابن أبله.

وابتسامة ماكرة ارتسمت على شفتي الملط وفي عينيه اصطفت الأحرف، ومن أنفه خرجت الكلمات لتصل أذني، وتحث ذاكرتي على استعراض الأحداث من ذلك اليوم الملعون الذي جلست بجواره على البساط وحتى هذه اللحظة، هذا اللعين الشاذ يعشق الرجال والثرثرة كالنساء، ويخفي خلف بريقه ولمعانه دهاءًا ومكرًا، قال لي وعلى مسمع منها:

- عزيز، لا داعي لاستمرارك في تقمص دور الأبله الذي سيقتلك؛ فأنا أعرف كل شيء عنك يا حبيبي.

لم يخرس لسانه حتى أنهى استعراض كل ما يعرفه عني، وبين لي الأخطاء التي كشفت زيف ادعائي، حتى قطع الذهب القليلة التي أخفاها سالم كان يعرف مكانها، والشيء الوحيد الذي لم يكشفه هو ذاكرتي غير العادية، وما دفنته من أوراق في خيمة جودت، والتظاهر بالغباء أمام الحقائق التي استعرضها ما عادت تنفع، وبلاهتي العفوية ما كانت لتغادرني يوما، فنظرت إلى فاطمة وقلت لها:

- لا تصدقيه أنا أبله، ورثت البله عن عائلتي، وكل عائلتي بُلَهاء، حتى خالتي دولت بَلْهاء.

فرد مالت:

- البلاهة جزء من شخصيتنا جميعا، والجانب الأبله فيك أعرفه واعتدت عليه وحان الوقت لترد لي الدين وتحضر مفكرة جودت.

صمتت وفاطمة ولم تكن صبورة فقالت:

- لا يهمني من تكون، اذهب واحضر لي المفكرة لأخرج من هذه الدوامة، لولاك ما مات كاظم.

لم يكن هناك ما أرد به عليهما، إنهما في حاجة إلى المفكرة ليصلا إلى الذهب، والمصيبة الدهماء أنني لا أعرف مكانها للمساومة عليها، والخرائط التي أخفيتها بدون المفكرة ليستْ إلا مجرد رسومات لا تدل على شيء، وكان لابد من المناورة قليلا، وما عدت أتظاهر بل كنت مباشرا:

- وبعد حصولكما على المفكرة ما حاجتكما إلي؟ وما الذي يمنعكما من قتلي؟

ما قلته استفز فاطمة فقالت:

- احضر المفكرة لأسلمها للباشا ولا يهمني إلى أين تذهب مادمت لن أرى وجهك مرة أخرى.

وتابعت:

- خذه من هنا يا مالت قبل أن أفقد أعصابي.

طردتني من الخيمة ورافقني الملط، وكان بارعا في لغة المنطق؛ أسهب وبرهن على أن المأزق الذي تعيشه فاطمة ما كان ليكون لولا قتل كاظم، وأن المفكرة مِفتاح الخرائط هي المخرج الوحيد لهذا المأزق، وأنا كنت أصغي باهتمام، ولكن لا يوجد منطق في العالم قادر على إقناعي لأرشد أحدا إلى ذهبي، ولو كانت المفكرة معي لأحرقتها، فذاكرتي لن تخذلني يوما، وبلغة المنطق أيضا أقنعته أن المفكرة قد فقدت في ليلة الضباع، ولأؤكد له صدق ما أقول استعددت لأعطي فاطمة الخرائط ودفتر يوميات جودت، فضحك وقال:

- أنا أصدقك، لو كانت المفكرة معك لما عجزتُ عن إيجادها، والآن يا حبيبي أريد منك أن تفك الشيفرة التي استخدمها جودت في كتاباته.

وأجبته:

- وما أدراك أني قادر على ذلك؟

فرد علي:

- وهل تعتقد أني قادر على حمايتك إن لم تكن مفيدا لفاطمة في شيء، حبيبي عزيز أنا الوحيد الذي أحبك في هذا العالم، وقد أثبتُ لك ذلك فعلاً لا قولاً ، وحان الوقت لتثق بي.

وصمت يراقب صمتي، وتذكرت ما قاله روهان يوما:

- (حد العار أمضى من حد السيف).

وحان الوقت لأقر بأن الملط كان صادقا في قوله، ربما ألحق بي أذىً نفسيًا، ولكنه لم يسعَ ليلحق بي أذى جسديًا، ولولاه لكنت أسكن قبرا بجوار شكيب الآن، ولن يضرني القليل من

العار لحين إيجاد طريق النجاة..أخبرته بأني سأثق به حتى النهاية، فابتسم وأرشدني ألا أخاطب فاطمة إلا بالألقاب، وأن أمتدحها وأتجنب الإشارة لما لا يعجب فيها، واستفزني عند قوله: إنها تحمل بين ضلوعها قلب طفلة وديعة ملآن بالطيبة، وكيف أشك في قوله وهي التي قطعت ألسنة العبيد الثلاثة، وتواظب على تعذيبهم ليل نهار، ولابد أنها وقفت وراء قتل يعقوب ونيروز، وتسببتْ في موت طبيلة! وإن لم أجد طريقة للهرب من هذه الطفلة الطيبة لن تكون نهايتي سعيدة.

وفاجأني الملط مرتين؛ الأولى: أخبرني بأنه لا داعي لجلب أوراق جودت لأنها بحوزة فاطمة، والثانية: طلب مني أن أعده باقتسام الذهب الذي أعرف مكان دفنه، أحنيت رأسي وعدته بذلك واجتاحني غضب وكره تجاه هذا الشاذ الحقير، نعم أنا قادر على مجاراته وتحمل ثقل العار الذي سأحمله معي إلى الأبد، ولكني ما كنت قادرا على مجرد التفكير في اقتسام الذهب مع أحد ولو كان طباخ الباشوات.

وعدنا إلى الطفلة صاحبة القلب الطيب واستقبلتنا بجفاء، وسألت عن المفكرة، فأخبرها الملط بأنها اختفت، وهناك شك بأن الشيخ هو من يخفيها، ويحتاج عزيز لبعض الوقت ليستعيدها منه، فردت:

- ناجي خان في الطريق ولا وقت نملكه.

فابتسم الملط وقال:

- ثقي بي، عزيز قادر على فك شيفرة أوراق جودت ولن نحتاج إلى المفكرة في وجوده.

رمتني بنظرة محتقرة، وكأنها أرادت أن تقول: وهل هذا الجرذ الأبله قادر على القراءة ليفك شيفرة باشا مثقف! فقامت من مكانها متباطئة وأخرجت الدفتر ذا الجلدة الخضراء من أحد الصناديق ورمته على الأريكة، وهنا جاء وقتي لأثبت لهذه الجاهلة من هو عزيز أفندي الذي تحقره، التقطت الدفتر وبدأت أقرأ بطلاقة ما خطَّه جودت في صفحاته الأولى، وأنتقل من مقطع إلى آخر متعمدا الوصول إلى مقاطع وصفها فيها، واختلقت الكثير من الألفاظ في استهجانها، واعتمدتُ على ذاكرتي في حفظها إذا طلبت مني إعادة قراءتها لاختبار صدقي، وكلما احمر

وجهها أعيد تكرار ما كتبه جودت في ذمها مع ما اختلقته زورًا، كانت تصغي بصمت وهدوء، وبالرغم من خوفي أن تطلب مني أن أكتب لها الشيفرة التي اعتمدها لتقرأ بنفسها ما كتبه، إلا أني لم أقاوم الرغبة في اختلاق مقطع يشير إلى سمها الملكي، وبدأتُ أقرأ لها من وحي خيالي على لسان جودت:

- "أكثر ما كنت أخشاه من فاطمة أن تدس السم في طعامي وشرابي"

لم أكمل الجملة قاطعتني وأخذت تصرخ:

- مريض معتوه مثل أخته وأمه! أنا التي سأدس له السم! لقد حاول أن ينتحر أكثر مرة بشرب السم، وها هو يتهمني أنا! الحقير لابد أنه كان يخطط للانتقام مني بهذه الطريقة، ينتحر وبعد ذلك يقرأ الباشا ما كتب ويتهمني بقتله، الحمد لله الحمد لله أن الضباع افترست هذا الشاذ اللعين.

لم ترق الكلمة الأخيرة للملط وتداركتها على الفور وقالت الشاذ بعقله وأفكاره...وطلبت مني أن أكمل القراءة، وأمام ردة فعلها وهذه الحقائق الجديدة الصادمة تزاحمت الأفكار في رأسي، وتبخرت الكلمات ولم أعد قادرا على جمع الأحرف، وتلعثمت لعدة دقائق حتى تمكنت من تصفية عقلي وأعدت قراءة الجملة وأكملتها بما يعيد الهدوء إلى نفسها:

- "أكثر ما كنت أخشاه من فاطمة أن تدس السم في طعامي وشرابي ولكني أعلم في قرارة نفسي أن فاطمة لن تفعلها يوما، وما هو إلا وسواس الموت"

تنفست الصعداء وعاد هدوؤها، وعدتُ لقراءة ما كتبه، وتجنبت إثارتها، وتوقفت عن القراءة، واستمتعت كثيرا بمراقبتها غارقة في ذهولها، تتساءل:

- كيف لأبله أن يكون قادرًا على القراءة وفك رموز الشيفرات؟!

وبعد دقائق من الصمت ضحكت وقالت:

- يا ابن القوادة أكنت تسخر منا كل هذا الوقت؟

لم يرق لي وصف والدتي، ولكن لن يضرها بضع كلمات خرجت من فم عاهرة، وفاطمة التي أعرفها تحولت إلى فتاة صغيرة تقفز من أريكة الى أخرى، وتصفق وتغني وتدور حول نفسها:

- رائع، رائع.

وصعقتني بقولها:

- أقسم لأكافئنك بقبلة الآن إن أخبرتني أنك قادر على قراءة أية شيفرة.

وما كنت لأتردد فقلت:

- أية شيفرة تريدين يا سيدتي.

وسرًا قلت:

- تعري الآن أمامي وسأقرأ لك شيفرات العالم.

فقالت:

- أية شيفرة مهما كانت صعوبتها؟

- نعم.
- أية شيفرة هل أنت متأكد؟
- سأفسر لك الخرائط وأوصلك لكل الذهب المدفون.

فاستاءت وقالت:

- لا يهمني الذهب فهو ملك للباشا وأنا لا أريده.

تعجبتُ! وماذا تريد مني إن لم يكن الذهب غايتها؟ وسألتها فقالت أنها ستخبرني لاحقا بما تريده مني، وأشارت بيدها لنتركها تكمل احتفالها بالإنجاز العظيم الذي أجهله، وقبل خروجي كان لابد من السانتورية الطبيعية غير المصطنعة وقلت لها:

- تدينين لي بقبلة.

ضحكت وقالت:

- ستحصل على قبلتك كما تحب من حبيبك مالت.

الملعونة تعتقدني شاذًا كخادمها، غادرتُ خيمة الممسوسة مع الكثير من الأسئلة، ماذا تريد مني وأية شيفرة هذه التي أشغلتها عن البحث عن المفكرة والذهب؟ والجواب سأعرفه قريبا، أمَّا السؤال الذي لن أجد له جوابا أبدا: مَنْ دسَّ السم في طعام جودت وتسبب في قتل طبيلة؟! بعدما حدث اليوم لم أعد أشك في أن فاطمة لها يد فيما حدث، وتذكرتُ ما كتبه جودت لأمه عن شربه الكأس الأخير ورحيله في صمت، وأنه حاول مرات وحالت دموعها عما أراد...الآن أجد في نفسي ميلاً إلى أنه مزج السم بنفسه في طعامه أو شرابه ثم تراجع عن الانتحار في اللحظة الأخيرة، وشاءت الأقدار أن يكون طبيلة ضحية لأفكار جودت المريضة، لا أستبعد أن يفعلها انطوائي حزين مثله، ولعله كان يتلذذ بأحزانه، فعندما كان يثمل ويضحك كان يعود ليغرق في أحزانه ثانيةً، وكل كتابته التي لا تخلو من التشاؤم تشير إلى عجزه عن التأقلم مع الحياة، وفي الآونة الأخيرة كانت كتابته تشير إلى شك في كل شيء، المسكين لم يحتمل ضغوط الحياة عندما تقسو على أبنائها، وطبقًا لما ذكرته فاطمة -إن صدقت- فقد حاول الانتحار مُسبقًا، ولكن ما الذي يدفع رجل مثل جودت إلى التفكير في إنهاء حياته أكثر من مرة؟!

رافقني السؤال لفراشي وزارني في أحلامي، واستقبل الأحد الغيوم التي اتخذت قرارها ليلا ومنعت الشمس من الاقتراب وكأن هذا المكان بحاجة لمزيد من الكآبة، وأنا رأيت أني لستُ في حاجة لعار الملط ولا جنون الكعب وفاطمة، وأمضيت الساعات الأولى من يومي في البحث والتجوال والتخطيط للحظة مناسبة، لا أريد أن أتعجل، ولن أترك سالمًا خلفي، هذا الشاب الطيب الساذج كان الأقرب إليَّ بعد روهان، لم تنجح محاولة هربنا بالأمس ولكنها دلت على أن الهرب ليس مستحيلاً، وفي المرة القادمة يجب تمضية بعض الأيام في الاختباء والنوم في الكهوف ولن يكون هذا سهلا بلا رفيق.

ما كان سالم ليشك في وجود مَنْ يفكر في قتله، وإنما كان يعتقد في مُكَافَأتِه بعد وصول القافلة لأهدافها، ولكن بعد قتل نيروز وشكيب اشتم رائحة الموت لهذا تَمكَّنْتُ مِنْ إقناعه بمرافقتي في محاولةٍ فاشلةٍ، ولن يكون صعبًا أن أقنعه بإعادة الكرة مرة أخرى...ذهبتُ إليه بعد العصر وأحضرنا النرجيلة وجلسنا ننفث الهواء دون تبغ ولا نار، وكان الشاي شهيًا هذه المرة، ارتشف الشاي وأخبرني بأنه لا يجوز أن يترك الشيخ طبرق مقيدًا في شجرة مثل حمار، فلا ينبغي أن يُهان شيخٌ كبيرٌ في مِثل عمره، وخطر ببالي أن أخبره بأن هذا الشيخ الذي تشفق عليه قد أكل صاحبك أحمد شيخة، وما كان هناك داعيا لأفسد أحلامه، فاقترحت عليه فكرة الهرب مرة أخرى ولم يعارض، وأوجزتُ حديثي عن خطة الهرب ولم أرهق عقله بالتفكير، ولتكتمل خطتي يجب أن أجد طريقة لاستعادة الذهب الذي سُرق من خيمة الكعب، ويبدو أني سأحتاج يوما أو يومين لاستعادته.

ولم أعلم أني لا أملك ساعة واحدة؛ فهذه القافلة الملعونة تنقلب حالها في أقل من طرفة عين؛ من بعيد أطلَّ ثلاثةُ خيالة؛ عديد، ومرافقه، والزنجي كيمو الذي اختفى، واعتقدت وقتها أن فاطمة قد أرسلته في أثر عديد لقتله، توجهوا إلى خيمة المجنونة، فتركت سالمًا ولحقت بهم، ولم أجد طريقة للتلصص، وسرعان ما انفض الاجتماع وهب الجميع لجلب الدواب، والبدء في تحميلها.

اقتربت من عديد وصافحني على عجل وأخذ ينتقل من زاوية الى أخرى ويملي أوامره على الخدم، واجتاحت خيام فاطمة فوضى عارمة، الكلُّ يسرع ويتعثر، ورفع عديد صوته للخدم:

- اتركوا الخيام مكانها، لا تقربوها.

اقتربت فاطمة وطلبت من خدمها أن يفكوا خيمتها ويحملوها على ظهر الدواب، فاعترض عديد وقال لها:

- يمكنك احتمال يوم بدونها.

وكيف للأميرة أن تكون بلا خيمة ملكية ترافقها! تجادل الاثنان واتفقا على أن تأخذ خيمتها ولا تحمل إلا ما هو ضروري، ارتباك، قلق، فوضى، لم أعِ شيئًا، ولم أفعل شيئًا سوى

مراقبة الجميع، الملط كان مرتبكا، ولم يبال بخفه الناعم، ويبذل كلَّ جُهده للإسراع وعيناه تحمل الكثير من الكراهية لعديد ولم يبخل عليه الآخر بالشعور نفسه، ولا يبدو أن فاطمة ستتنازل عن أي شيء مما تحتويه خيمتها، واغتاظ عديد وعارض مرات ليقنعها بألا تحمل إلا الضروري، ومما سمعته من قوله لها:

– تهور شكيب وحماقاته أحضرتْ ناجي خان إلى المخيم.

كانا يصرخان أحيانًا، ويتهامسان أحيانًا أخرى، وفاطمة لم تتوقف عن لعن شكيب بأعلى صوتها:

– أحمق، غبي، حمار.

اختلف الاثنان على مَنْ سيصحب القافلة ومَنْ سيُترك في المخيم، عديد يشرف بنفسه على ترتيب المخيم ينقل بعض ما تنازلت عنه فاطمة إلى خيمة أخرى، وكان واضحا بأنه يسعى لتمويه رحيلها، وفجأة تحول الهمس صراخًا، وارتفع صوت فاطمة:

– لن أرحل بدونهم، لن أتركهم يغيبون عن ناظري.

همس عديد في أذنها بعدة كلمات زادتها إصرارًا:

– لا...لا، سآخذهم معي.

عضَّ عديد على شفته السفلى وهز رأسه ووافق على طلبها مُرغما، وفهمت أنها أصرت على أن يرافقها العبيد الثلاثة، وإرضاءُ فاطمة غاية لا تُدرك، فقد عادت تصرخ مرة أخرى حينما رأت كيمو يمسك سلسلة رُبطت حديثا في عنق الكعب ليجره خلفه وقالت:

– ما هذا! لن أرافق هذا المجنون.

تبرم عديد وقال:

– أرجوك لا وقت لدينا للجدل، احتمليه يومًا واحدًا فقط.

وما كانت لترضخ إلا بعدما أخبرها بأنها أوامر الباشا، ولم يبقَ إلا أن تمتطي نجمة فرس جودت، وتجر خلفها ملطها الشاذ، وزنجيها، وعبيدها الثلاثة، وكلبها الجديد طبرق وترحل

معهم إلى الجحيم، ولكن كان لقافلة الموت رأي آخر، وقفت الحسناء التي عادت ترتدي ملابس الرجال وأخذت تلوح بيدها لخدمها الذين تركتهم خلفها مودعة، وسارت بخطوات واثقة والابتسامة لم تفارق شفتيها، واقتربت مني ودق قلبي في انتظار عناق حار، والقبلة التي وعدتني بها لم تفصلني عنها سوى خطوات، وأردت أن أفتح ذراي لأستقبلها، وهنا أشارت بأصبعها تجاهي وقالت:

- عزيز هيا تحرك ستأتي معي.

وأدارت ظهرها وعادت إلى نجمة وامتطتها. وهنا تدخل عديد وكان حازمًا في قوله:

- عزيز لن يرافقك، سيبقى هنا.

لم تصرخ لم تغضب لم تتوتر ابتسمت وكلمة واحدة هي ما نطقته:

- سيرافقني.

ورد عليها:

- لن يرافقك يا فاطمة.

ابتسمت وترجلت عن نجمة واقتربت من عديد وعلى مسامعي قالت:

- لست في عجلة من أمري، ولن أرحل بدونه.

وتوجهت إلى ظل شجرة وجلست.

فقال لها:

- لا يوجد متسع أرجوك.

إلا أنها تبرمتْ وأشاحتْ ببصرها عنه...اقتربتُ منه وقلتُ هامسًا:

- أرجوك لا تتركها تأخذني معها، ومن سيعتني بجودت أفندي غيري! فأنا أسهر على راحة صديقك ليل نهار.

عيناه أخبرتني بأن صبره قد نفد، وتحرك ناحيتها؛ ربما لصفعها، واقترب مني الملط وهمس:

- تحرَّك أيها الأحمق إنْ لم يقتلك عديد سيقتلك ناجي خان، هذا المكان سيكون مقبرة للجميع.

ترك عديد فاطمة واقترب مني، ولم يسألني عن رغبتي في مرافقتها، وقال:

- هيا اذهب معهم.

وقبل أن أفتح فمي لأحتج، صرخ في وجهي ولم يفعلها مُسبقًا:

- هيا تحرك تحرك.

وكيف أرحلُ تاركًا مذكراتِ روهان وحَجَرِه خلفي؛ لقد دفنتهما عميقا في خيمة المؤون وكنت أختنق كل يوم وأنا أقاوم فضولي لمعرفة ما فيها خشية المخاطرة من ظهورها، وبذلت جهدي لأقنعه بأن يمنحني دقائق لأودع جودت وسالمًا حتى أتمكن من الحفر وإخراجها، وكان قاسيًا في ردة فعله، فأحنيت رأسي وسرت لعدة خطوات، واقترب مني كيمو وألقى عليَّ السلسلة المربوطة في عنق طبرق طالبًا أن أقوده، وخلف قافلة فاطمة أسير ممسكا برسن الكعب، وقلبي يتمزق على رحيلي، ومن خلفنا كنا نسمع صوت عديد يأمر الخدم بإشعال النار وإعداد الطعام...لم نصل حدود المخيم حتى دخله الكثير من الغربان السود، وربما كلّ من توفر منهم، وبرفقتهم رجل لا يشبههم في شيء، والحمالة فوق الفرس التالي لفرسه دلَّت أنه طبيب، ويبدو أنهم سينقلون جودت، فلا ينبغي أن يُترك أبناء الباشوات وهم أعلى مكانة من البشر.

اجتزنا حدود المخيم و بدأت الشمس في غروبها، وكيمو لم يقف خلف فاطمة كعادته، بل قادنا عبر طرق يبدو أن عديد قد رسمها له في الأيام التي رافقه فيها، فاطمة وملط على أحصنتهما أمامنا، ومن خلفهم بقية الدواب التي حملت خيمة فاطمة ومتاعها وبغل يحمل العبيد الثلاثة، وأنا أقود الكعب خلفي راجلا؛ عبد يقود عبدًا، وكأن هذه القافلة لا تملُّ من إذلالي، وفي طريقي لم أتوقف عن إفراغ ما سكنني من غضب بشتم الكعب:

- هيا يا ملك الـ"قاقا باقا" اجعر أو انبح! حتى عبيد فاطمة حالهم أفضل!

سرنا طوال الليل ولم نتوقف لطعام أو شراب سوى مرة واحدة لنسقي الدواب، لم أدر المسافة التي قطعناها حتى بلغنا مُتسعًا تطوقه الجبال والصخور من كل اتجاه ولم تشرق الشمس بعد، الزنجي كيمو كان يعرف طريقه جيدا وهناك أرحنا الدواب وأخذنا قسطًا من الراحة.

أشرقت الشمس ولم نتحرك، غفوت قليلا وأمضيت الكثير من الوقت استمع لثرثرة الملط، وحين سألته عما قصده حينما أخبرني بأن عديد أو ناجي خان سيقتلانني التفت حوله ثم قال هامسا:

- لن يترك عديد أحدًا يقع بين أيدي ناجي خان ولكن إياك أن تعرف فاطمة بهذا!

ما قاله كان يحمل أكثر من معنى، هل سيقتلهم عديد جميعا، أم سينقلهم؟ أم ماذا؟ وهل قصد بألا تعرف أنها حقًا لا تعرف ماذا سيحدث لخدمها؟! وعن وجهتنا القادمة علمت أننا سنذهب جميعا إلى اليونان، وفي حدود الساعة العاشرة لحقنا عديد وكان مكفهر الوجه ولم ينزوِ أو يهمس بل قال لها على مسامعنا:

- لقد مات شكيب ولا يعرف أحدٌ ما خطط له، وبغروره قدمنا على طبق من فضة لناجي خان، وها هو يزحف نحو المخيم من الشرق والغرب، ولن يمضي وقت حتى يقتفي أثرنا لذا يجب أن نخفف من حمولتنا لتخف حركتنا.

فردت عليه:

- لم يتبقَ الكثير، وبإمكاننا حمله معنا.

فرد عليها:

- لم تعد الطرق آمنة ويجب أن تكون حركتنا أخف وأسرع!

وأشار بيده تجاه العبيد، وهزت فاطمة رأسها وقالت:

- لا لا لن أتركهم.

تجاهلها وطلب من كيمو أن ياخذ العبيد ليحفروا حفرة كبيرة بجانب الصخور، وهذا علا صوت فاطمة:

- ألا تفهم معنى لا.

فرد عليها:

- سيحفرون لإخفاء الصناديق فقط.

فهزت رأسها وكأنها تقول:

- إن كان الأمر كذلك فلا بأس.

العبيد المساكين اعتادوا على الحفر حتى أنهم برعوا فيه، وطلب عديد أن نساعدهم وأسعدني أن فاطمة قالت:

- لن يساعدهم أحد.

فقال:

- لا بأس ولكن أرجو أن تعيدي النظر في أمرهم وفيما يعرفونه عن مواقع الدفن.
- لا...لن أوافقك على هذا.
- يا فاطمة لا يمكن أن تغامري بوقوع العبيد في يد ناجي خان، يجب أن يرحلوا الآن وإلا فإنك تعرضين كل ما دفنتيه للخطر.
- لا سآخذهم معي لن أتركهم يغيبوا عن ناظري لحظة واحدة.

وهنا نظر عديد تجاه الملط وتلاقت أعين الأعداء وتبادلا حديث الأعين، ولأول مرة أشهد أنهما اتفقا على شيء، اقترب ملط من فاطمة وقال لها:

- الاحتفاظ بهم فيه مخاطرة وإن سقطوا في يد ناجي خان سيطعمهم ويكسوهم ويعيد لهم مكانتهم، وسيأخذونه إلى كل حفرة حفروها، أتريدين لهم مثل هذا المصير، اتركي عديد يفعل ما يراه مناسبا.

كانت تصغي للملط، وأثرت كلماته فيها أثر السحر، وفاجأتني بإنسانيتها عندما شرعتْ تبكي كطفلة كسر أحد الكبار لعبتها:

- لن أسمح بقتلهم، أريدهم أحياء، لا أتصور يوما بدون رؤيتهم، اعتدت عليها كل صباح، وجودهم بجواري أعاد لي الأمل والنور.

أراقب مستمتعًا رقةً تنسل من بين شفتي هذه المجنونة السادية، المعاقة، المعتوهة؛ تتلذذ بتعذيبهم ليل نهار، ولا تطيق فراقهم...وتعاون العدوان؛ مالت وعديد على إقناعها فنطقت الإنسانة الرقيقة، وقالت لعديد:

- أرجوك لا تقتلهم، ادفنهم أحياء.

أحنى رأسه موافقا، أمَّا أنا فهممتُ بالصراخ: ألا يوجد رجل ليصفع هذه المجنونة لعلها تستعيد رشدها وليس من المستبعد أن تطلب ريهم بالماء وتسميدهم ليزهروا المزيد من العبيد...المساكين الثلاثة تصببوا عرقًا وتوسلوا الماءَ ومنعتَه عنهم، ولم يفلح عديد في إقناعها بأن الحفرة عميقة بما يكفي، وكانت ترد عليه:

- لا لا ، أريدها أعمق.

وما تريده هذه المجنونة ورطنا جميعا، فالعبيد بلغوا عمقًا يصعب معه إخراج التراب، وتطلب منا مساعدتهم، وهنا نادت على مالت وقالت له:

- ادفن معهم صندوق طبرق واحرص على ألا يموتوا وألا يخرجوا من الحفرة أبدا.

نعم هو لغز جديد؛ تريد ألا يموتوا وألا يخرجوا من الحفرة أبدا! والذي أفرحني أن صندوق الذهب قد عاد إليَّ ولاحقا سأعود وأخرجه، وإن لم يمت العبيد ولم يسرقوه سأكافئهم خير مكافأة...وانتهينا من جر الصندوق ومحتوياته التي تكفي شراء ألف عبد من كافة الألوان، واقترب كيمو -بناء على إشارة مالت-وصوب البندقية تجاهم وصرخ فيه عديد ليمنعه من فعلها، خوفًا من أن يجذب صوت الرصاص أحدا، ولكن عدة رصاصات وجدت طريقها إليهم، وهرعت فاطمة وقالت:

- ماذا تفعل أتريد أن تقتلهم؟

مالت:

- لا، أمرته فقط أن يطلق النار على أرجلهم ليعجزوا عن الحركة.

واقتربتْ فاطمة من الحفرة وفعلت ما لم يكن يفعله طبرق المجنون؛ بدأت تبكي وتصرخ، وتحمل الحجارة وتلقي بها على رؤوسهم حتى أدمتهم، وانزوت تبكي، واستمر كيمو في اطلاق الرصاص على أرجل العبيد، وأخرج عديد مسدسه وأطلق النار على ما ليس بمقتل من أجسادهم إرضاءً لفاطمة، ولكن من المُحال نجاتهم، وتعاونَّا نحن الثلاثة في دفن العبيد أحياء، أما الملط فلم يساعد خشية أن تتكسر أظافره، وحين انتهينا جاءت فاطمة الحساسة وسألت:

- هل هم أحياء؟

فقال لها عديد:

- لن يموتوا قبل أيام.

أرادت أن تضمن عدم خروجهم، وأصرت على نقل الحجارة وبعض الصخور فوق قبرهم، وما أرادته وأشرفت على تنفيذه أرهقنا جميعا، وحين لم تكتفِ بما نقلناه من صخور فقد عديد أعصابه وصرخ فيها:

- كفى يا فاطمة، أنت تعرضينا جميعا للخطر إرضاء لألعابك الصبيانية.

أفضْتَ علينا من بلاغتك ووصفك يا عديد، دفن البشر أحياء مجرد لعبة لفاطمة!

أشفقت على العبيد الذين دفنوا جرحى وعطشى وهم على قيد الحياة، وبدأت حينها أرى الوجه الآخر لعديد بعدما خلع قناعه للمرة الثانية أمامي، وفي ساعات الظهيرة كان تكريم الكعب بربطه فوق أحد الجمال، وتكريم الحمار الوحيد بأن حملني بعدما تخلص من أحماله السابقة،وانطلقنا مسرعين...كان عديد يسبقنا لمسافات طويلة، ولا نكاد نرى كيمو خلفنا، وللحفاظ على ما تبقى من عقلي ما كنت لأمانع عن أي شيء يريده الملط مقابل أن يخبرني بقصة فاطمة والعبيد.

عرفت أن العبيد الثلاثة هدية من جمال باشا...تتقطع ثرثرة الملط ويصلها طبقًا لاقتراب فاطمة وابتعادها، وإثر كل ثرثرة كان يوصيني بأن هذا سر لا يجوز أن يعرفه أحد، ولولا أن القصة مثيرة ولا أحب أن أقتطعها لأخبرته بأنه لم يتبقَ أحد لأخبره بالأسرار.

اقتراب الملط مني وملامسة يدي بين الحين والآخر لم يعد يحرجني كما كان فيما مضى؛ ربما لأني اعتدت على ذلك، وممن سأُحرج؟! من المجنون طبرق، أم من المصروعة الموهومة بأننا نتشابه في ميولنا، ولم تخف إعجابها بهذا العشق الذكوري، ولم تدرِ كم أتقزز من أفعال الشواذ! وما حدث في خيمة الملط كان من أثر الخمر والوحدة القاتلة، ولخدمة أهدافي فقط سأستغل هذا العشق الغريب الذي أراه في عيني الملط تجاهي، كنت سأدفع جرة ذهب مقابل أن أرى مثل هذه العواطف في عيون نيروز أو رباب! ولم يحدث هذا يوما! وها هي الحياة تسخر مني على طريقتها؛ ترسل إليَّ هذا الملط ليحبني...لم يتوقف عن الثرثرة حول مستقبلنا معا؛ أخبرني بأننا سنصل إلى اليونان وسننتظر حتى تهدأ الأمور ثم نعود معا لإخراج ما يكفينا من ذهب، وباح لي بأن بعض الآثار الثمينة قد أخفاها بنفسه ولن يعرف مكانها أحد سواه، اللعنة على هذه القافلة نقلتني من عالم إلى آخر في لمح البصر!

الطريق التي نسير عليها لم تكن وعرة، والشمس غربت منذ ساعة والسماء خلت من الغيوم، ونصف القمر كان كافيا ليرشدنا، ومن فوق حماري أقود الكعب محمولاً فوق الجمل، فاطمة تسبقنا بعشرة أمتار والملط بجواري لم يتوقف عن الثرثرة إلا حينما هرع إلى فاطمة وحضنها وجلس بها على الأرض وأسند رأسها على فخذه، مطاوعتها له لم تثر استغرابي؛ كان واضحا أنها أصيبت بنوبة صرع مفاجئة، ولكن الذي أدهشني هو سرعة الملط في إدراكها، كيف شعر بأن نوبة الصرع في الطريق إليها!

أشار إلي أن أبتعد ولم أتلكأ لعلمي أنها لا تحب أن يراها أحد على هذه الحال، وعاد كل شيء إلى طبيعته وعدنا نشق طريقنا، وسار عديد بجوار فاطمة، وسألته:

- كم تبقى من الوقت حتى نصل إلى وجهتنا؟
- قبل الفجر سنصل إلى العقبة.
- المسافة أطول مما اعتقدت.

- الطرق التي اخترناها كانت أطول من المعتاد.

وتركنا عديد مرة أخرى ليستكشف الطريق، ومع انتصاف الليل عاد مسرعا تتسارع أنفاسه مع أمره لنا بالاستدارة وإسراع العودة إلى الخلف، وحمل إلينا الأخبار التي لا تبشر بالخير، وطريقنا لن تبلغنا العقبة ولا اليونان هذا اليوم.

حرص أن نتزود بما نستطيع حمله من الماء، وهذا دل أن رحلتنا لن تنتهي قريبا، وانعطفنا وسرنا في طرق مفتوحة، وكل خطوة كانت تأخذنا إلى عالم من الهدوء لا يسكنه بشر، وحين أشرقت شمس الثلاثاء 24 من تشرين الثاني بلغنا واديًا سترته الصخور عن الأعين، وانبهرت فاطمة بسحره، ولم أر فيه إلا صحراء حمراء، هربت إليه أرواح الموتى لتبتعد عن ضجيج الأحياء.

تعاونا جميعًا في شد أطناب خيمة فاطمة، ثم تركنا عديد والزنجي بعد حرصهما على ربط الكعب بأحد الصخور، وعادا من الطريق نفسها، وربما فعلا لإخفاء أثر مسيرنا كيلا يتعقبنا أحد...الوادي كثير الظلال، دبّ النعاس في مفاصلنا بفعل السكون والهواء النقي فاستلقيت ناشدًا بعض الراحة، وأبت عيناي إلا النظر إلى الصخور العجيبة التي تحرس الوادي من كل جانب، هجرتني الراحة لأتساءل: هل أعد القدر خطة خاصة لكل من رافق القافلة؟!

فاطمة كانت تنوي الرحيل عن المخيم قبل أيام، ولابد أنها فكرت في طريقة ما تجمعها بحبيبها حيان، ربما لو فعلت ذلك في حينه ولم تصغِ لشكيب لما وجدت نفسها عالقة معي ومع الكعب في هذه الصحراء الحمراء ، حديثها مع عديد قبل ساعات يؤكد على أن القدر لم ينته منا بعد، جمال باشا تسلم قيادة بلاد الشام، ولن يكون ولاء المعسكرات له بين ليلة وضحاها، وليطيب له الأمر عليه أن يستبدل القادة، وعشرون يوما أو أقل هو ما يحتاجه ليكون كل عسكري خاضعًا لإمرته، وعندها لن تكون هناك حاجة للاختباء أو الفرار، وربما سيتم بعث الذهب من قبوره.

صدرت الأوامر من ديوان السلطان مباشرةً بالعثور على القافلة، وكان المُكلَّف ناجي خان الملقب بـ"ناجي نملة" لما شاع عن براعته في اقتفاء الأثر، ولو كانت نملة لاقتفى أثرها

وقبض عليها، لا يشك أحد في عثوره علينا، ولكنه سيحتاج لأكثر من 15 يوما، وربما شهرًا، ولو سارت الأمور على طبيعتها لوصل إلينا واستقبله جيش الباشا وصلبه ومن معه، ولكن غرور اليوزباشي شكيب ما كان ليترك الأمور تسير على طبيعتها؛ ليتباهى باصطياده الصائد الأسطوري، وحينها طلب من فاطمة ألا ترحل قبل تأكده من وصول خان غربي النهر، وسمور وحمزة كانا جزءًا من مخططه لجذب الصائد إلى شباكه، كان شكيب بارعًا في التخطيط، ولكنه لم يأخذ بعين الاعتبار أن خنجر الكعب قد يمزقه إربا، وبعدها لن يجد ناجي خان في استقباله شبكةً أو صائدا.

لم يتبق سوى عديد رجل الباشا الوفي الذي أبرَق له وأطلعه على المستجدات، وبدأ سباق الوقت لتنفيذ أوامر الباشا، وتقتضي مهمته الأولى الحرص على وصول فاطمة وطبرق إلى العقبة بأي ثمن، واتخاذ التدابير اللازمة لحماية أسرار الباشا، وقرر عديد أن يجمع كل الغربان السود لمنع خان من عبور النهر، ومادام خان غربي النهر فلا خطر على أحد.

وكانت المفاجأة الأولى بوقوع بعض رجال خان في الكمين، وسرعان ما تبين أنهم طعم لكمين أكبر أعده خان لمن ينتظره، وهذا لم يُقلق عديد، مادامت فاطمه قريبة من العقبة ولن يستطيع أحد اللحاق بها، وكانت المفاجأة الثانية تنتظرنا عند العقبة حيث سبقنا إليها بعض رجال خان قبل تركنا المخيم، وهنا لم يجد عديد مكانًا آمنًا سوى الاختباء في وادِي رم لحين وصول الدعم من الباشا.

كان عديد وفاطمة على قناعة بأن هذا المأزق ناتج عن الحظ العاثر وغرور اليوزباشي شكيب، وأنا لم يسعني إلا أن أشفق على سذاجتهما، فلا يعرف أحد ما فعله بريق الذهب بأزرق العينين، لا أشك لحظة في أنه خطط مسبقا لقتل الجميع بطريقة مثالية؛ لقد اتخذ من مطاردة خان ستارًا لتغطية أي أثر، ولا أستبعد تعمَّده تسريب بعض تحركات القافلة لخان؛ أعلمه أن بعض المسروقات ستعبر البحر لهذا كانوا في انتظارنا سلفا، وبهذا ستكون له حجة تفسر للباشا أسباب بقاء فاطمة في المخيم، وتدرأ عنه تهمة المخاطرة بحياتها، والنهاية السعيدة لهذا المخطط الشيطاني أن شكيب لم يأخذ معه إلى قبره إلا أحلام الثراء.

غفوت وأنا مستلقٍ في ظل صخرة، وعندما أفقت كان عديد وكيمو قد غلبهما النعاس، والكعب على حاله لا يختلف عن الصخرة المقيد فيها، أما الملط فكان مشغولا بالبحث بين الصخور، وما كنت لأقاوم الفضول فأخذت أتسلل خلفه بهدوء، ومن صخرة إلى أخرى ألاحقه، حتى ابتعدنا لأكثر من ثلاثمائة مترًا ثم اختفى، فعزمت على أن أدوس على فضولي وأعود، وسيكون خيرًا من أن أدوس على أفعى في مطاردته، ولم أتوقع أنها ستسقط فوق رأسي من السماء، ارتطمت أفعى برأسي وسقطت تحت قدمي، فتخشبت مثل المرحوم إيليا، ولم أقوَ على الحراك، أو الصراخ:

- (ااااففف لللالا).

وسيطرت على مثانتي في اللحظة الأخيرة عند رؤيتي للملط يطل برأسه من خلف الصخور ويقهقه مثل عاهرة، واقترب مني وهو يخفي يده خلف ظهره وقال:

- أتخاف من الأفاعي يا حبيبي؟ كنت أمازحك فقط والأفعى التي ألقيتها عليك غير سامة.

وأظهر يده من خلف ظهره وكان ممسكا بأفعى ثانية، وأنا أصرخ بلا صوت، وعاد ليضحك وقال:

- هذه سامة، وبإمكانها أن تقتلك في أقل من ست ساعات، تعال لأعلمك كيف تميز بين الأفاعي!

شتمتُه وعدتُ إلى مكاني، واستيقظ عديد واجتمع مع فاطمة ويبدو أن حديثه إليها قد أفرحها فابتسمت، وناداني وكيمو وحينما اقتربنا منهما ربتت على كتف عديد وقالت:

- اذهب وسأتولى الأمر.

وأخذتْ تتجول بين الصخور حتى اختارت الموقع المثالي للحفر، وعدت لعبودية الماضي، وبدأت أحفر بمساعدة كيمو –زاد الله وجهه سوادًا– ودفنت فاطمة جزءا كبيرا مما تحمله معها، وكدت أجزم أن نبوخذ نصر الذهبي كان مما دُفن، وقلت سرًا:

- سأزورك قريبا يا نبوخذ الغالي.

انتهينا وابتعدت لمئات الأمتار وأمضت أكثر من نصف ساعة في تدوين ملاحظاتها، ثم عادت إلى خيمتها الملكية.

أعددت شطائر لذيذة وأطعمت الكعب ولم أبصق في طعامه إشفاقًا على حاله، الشمس تسرع إلى الغروب وفاطمة تقترب مني وتطلب مرافقتها لاعتلاء مجموعة من الصخور، واختارت إحداها وجلست تبتسم وقالت:

- حدثني عن الاستاذ روهان يا عزيز.

بنبرة تحمل الكثير من الشجن والتوتر:

- وماذا تريدين أن تعرفي عنه؟

علمت أن سؤالها لم يسرني فقالت:

- أتعلم يا عزيز أن أكثر شيء أحزنني منذ رافقت القافلة هو أن الأستاذ كان برفقتنا ولم أعلم بوجوده إلا بعد رحيله.

بعفوية:

- أين رحل؟
- ليتني أعرف.
- كان بإمكانك أن تسألي يعقوب؛ فهو آخر من رآه.

فصكت أسنانها وقالت:

- يعقوب! اللعنة على يعقوب! لقد نال ما يستحقه.

تعمدت قولي:

- سأقبل اليد التي قتلته وسأبقى مدين لها طوال حياتي.

لم تعلق وابتسمت فقط، وشعرت برغبة في إخبارها بأني أعرف الذي أمر بقتله، وقلت:

- وسأقبل يد سيدته التي أمرته بذلك.

أضحكها ابتسامتي الساذجة ونظراتي البلهاء، وقالت باستغراب:

- أتعتقد أني قد أفعل امرا كهذا؟

فابتسمت ورفعت حاجبيّ وأزحت عينيّ وفضلت الصمت، فليس من المعقول أن تعترف لي بأنها أمرت بقتله، هذه المرأة بارعة في إخفاء تعابير وجهها، لم يرق لها صمتي ولا ابتسامتي الساخرة، وبنبرة صوت فيها الكثير من الأسى وكأنها تسعى لتبرر لي وحشيتها مع الثلاثة وقالت:

- استحق العبيد الثلاثة كل ما حدث لهم، وهم ليسوا بشرًا، ومع هذا لم أكن راغبة في موتهم.

وهنا لم أمنع نفسي من الضحك، فالوحشية التي عاملت بها العبيد حتى آخر لحظة في حياتهم لا يمكن وصفها، عيناها اضطربتا فجأة وبدأت ترتجف، فأيقنت أن نوبة الصرع في الطريق، وصرخت بأعلى صوتي مناديا:

- مااالت.

وبسرعة البرق وصل وطلب مني الابتعاد، وبعد مرور نصف ساعة جاءني وطلب عودتي إليها حيث تركتها، وفور وصولي سألت:

- هل لديك أخوات؟
- واحدة تكبرني بسنوات.
- تخيل أن لديك أختين قام هؤلاء الرجال باختطافهما ليجردوهما من شرفهما بوحشية، وتوسلت إليهم الكبرى أن يتركوا أختها ويفعلوا بها ما يشاؤون، فيغتصبونها، ثم يتركونها تراقب عيني أختها وهي تنظر إليها وتستغيث عند اغتصابها أيضًا...وعدتها أن تحميها وترعاها، ولم تفعل شيئًا، ولمّا اكتفوا تركوهما بصحبة العار بالعراء، تقترب الكبرى من الصغرى لتوقظها فتدرك أنها لن تستيقظ أبدا لتكون أوفر حظًا من الكبرى التي ستحمل معها هذا الوجع إلى أبد الآبدين...ماذا كنت ستفعل بهؤلاء العبيد الثلاثة يا عزيز لو أنهم اغتصبوا أختيك، وقتلوا إحداهما؟؟

ذهبتْ وتركتني أعاني قسوة السؤال، وأغمضت عيني عدة مرات لأطرد من مخيلتي صورة أختي الوحيدة عن قبح المشاهد التي رسمتها، وتمنيت لو أني أستطيع العودة لأحفر وأخرج العبيد الثلاثة وأعذبهم بنفسي فوالله ما كنت لأمنحهم راحة الموت إلى آخر أنفاسي!

لقد ثرثر الملط لساعات وساعات واستبدل المسميات بما يناسبه، والكثير من النواقص والتناقضات كان عليّ التعامل معها عبر ذاكرتي، ولم يخبرني بمأساة فاطمة، قص عليّ أنه قابلها قبل أكثر من سبع سنوات في أحد الشوارع، واعتقد أنها متسولة، وبالرغم من مظهرها وثيابها الرثة إلا أن عينيه نفذتْ إلى جمالها فأخذها إلى بيته واعتنى بها، وعرَّفها بعض رجال الدولة، وبعد فترة من الزمن قابلها جمال باشا، وراقته فعشقها ورافقته حيث يذهب، والعبيد الثلاثة كانوا هديته لها، أغرقني الملط بالكثير من التفاصيل، والأكاذيب والتناقضات، وما كان لمَنْ تتلمذ على يد روهان، ويملك ذاكرتي أن يمر على مثل هذه القصة مرور الكرام.

لقد أخبرتني بما غمض في روايتها، واجتهدت في ملء الفراغات وربط المسببات بالنتائج لأخرج بقصتها الحقيقية:

- "فاطمة ابنة لأم غجرية، وأشك أن الأب أستاذ آثار من يهود الدونمة، بعد تعرضها للاغتصاب وموت شقيقتها أمام عينيها، هامت على وجهها في الشوارع لفترة من الزمن، ولا أستبعد أنها فقدت كل صلتها بالواقع حتى صادفها السيد مالت، ولا أشك في أنه كان يوفر للباشوات الكثير من الفتيات سرًا وعلانيةً، فانفتحت له أبواب الدولة، لم تكن كغيرها من الفتيات، وتحصيلها العلمي دل على أنها لم تكن من أسره فقيرة، ويبدو أن الملط قد تأثر بقصتها، أو وجدها سلعة ثمينة، ولهيب انتقامها جعلها على استعداد لتدفع أي ثمن مقابل شفاء غليلها، ومن يستطيع الانتقام لها سوى رجال الدولة؟! وبخاصة إن كان الجناة من أسرة عريقة، وهنا تلاقت أهداف فاطمة ومالت، وقطعت فاطمة كل صلة بأهلها في أزمير وانطلقت في رحلة البحث عن الانتقام وبمساعدة وتعليم مالت، انتقلت من واحد إلى آخر، حتى شاء القدر والتقت بجمال باشا ليقع في حبها، ويكتشف أن هذه الحسناء لا يفتنها الذهب والماس، وهدية واحدة سترضيها، وبعد عام من علاقتهما اصطحبها إلى إحدى ضواحي إسطنبول، وأدخلها أحد البيوت، وقال لها:

- هذا البيت الكبير هديتي لك.

جاملته بابتسامة، وأمسك يدها ليتنقل بصحبتها من غرفة إلى أخرى حتى وصلا قبوًا أسفل المنزل، وخلف الباب الحديدي كان حلم حياتها في انتظارها؛ ثلاثة رجال مقيدون بالسلاسل، فعادت إليها الحياة وزارتها السعادة مجددا، والباشا الذي نجح في إسعادها لم يأخذ في حسبانه أنها تنوي الاحتفاظ بهم أحياء إلا أن عشقه لها حوَّل المستحيل ممكنًا، وتحولت فاطمة إلى أهم مقتنيات الباشا ترافقه حيث يذهب، وفي بعض الأحيان كانت تصطحب عبيدها معها، ثم تعرَّفت برجلَ المهام الصعبة الغامض والأقرب إلى الباشا من خارج العائلة؛ عديد، وتوطدت علاقتهما في العراق حتى أنه أحضر لها مَنْ يقطع ألسنة العبيد حتى لا يزعجونها بأصواتهم ولتحرمهم من التواصل معًا، ثم تعرَّفت ببعض أفراد عائلة الباشا المؤتمنين على أسراره، ومنهم جودت، وواحدة من أخواته، ويعقوب، ولم تنقطع علاقتها بأستاذها وأمين أسرارها مالت، ولم يفارقها لحظة، ولم يعارض الباشا ذلك، وما كان ليغار عليها منه، واتفقا على أن يتظاهر بأنه خادمها، كان اسمها الأصلي فردا واستبدله الباشا بفاطمة، ولم يعد يشغل بالها سوى إرضاء الباشا، والاعتناء بصحة عبيدها الثلاثة، وهوسها بكل ما له علاقة بالآثار، ومن طرائف ما رواه الملط عنها؛ عندما كان جمال باشا واليا على إسطنبول كانت تتنكر في ملابس الرجال وترافق الشرطة وتأمرهم بالقبض على كل من يتحرش بامرأة.

عاشت في هدوء واستقرار ورافقت أحلام الباشا التي لا حدود لها حتى اليوم الذي قرر فيه نقل كل ما سرقه وجمعه في القدس إلى حلب، ولم يكن هناك مَنْ يأتمنه أكثر من فاطمة وجودت".

بعد غروب الشمس بأكثر من ساعة عاد عديد واستقبلته فاطمة وزفَّ إليها الخبر السعيد؛ غدًا سيصل ما يكفي ويزيد من رجال الباشا، وفي ظل حراستهم سنتجه جميعا إلى العقبة، وطلبًا للحِيطة والحذر لا أكثر انتقلنا جميعا إلى موقع آخر يبعد عدة كيلومترات عن موقعنا السابق ويشبهه في إحاطته بالتلال والصخور من كل جانب، نصَّبنا خيمة فاطمة، ليلتنا كانت شديدة البرودة ولم يسمح عديد بإشعال النار؛ ربما حرصا على ألا ينكشف موقعنا، أو أنه طمح إلى

أن يدفئ فاطمة بجسده عندما يرتعش جسدها الأنثوي الناعم، ونصحني بالنوم على مقربة من الإبل، وأدهشني الدفء بجوارها، وبعد التصاقي بأحد الجمال غفت عيناي.

عديد وكيمو اعتليا الجبل لحراستنا، وجاء الملط وفاطمة لمجالستي، وغمرتها سعادة لا مثيل لها، وكسرت كل الحواجز، ومازحتني، وطلبت أن أروي لها الكثير من النكات ونوادر القول، وأخذنا بأطراف الأحاديث حتى كان ذكر حيان فقلت:

- رحمه الله!
- أنا على ثقة بأنه بخير، رباب عنيدة ولابد أنها وجدت طريقة لإنقاذه.
- ربما، إن لم يقتله انقطاع الهواء أو السقوط في قاع البئر، لعلها وجدت طريقها إلى أقاربه العرب ليزيحوا الصخرة ربما لم يمت.

رمتني بنظرة وقالت:

- لم أرَ أخبث منك في الوجود! ألم تخبرني بأنهم طعنوه وألقوه في البئر؟!
- وماذا كنت سأخبرك بعدما أمرتي بدفني حيا؟!
- لا يهم ما أخبرتني به، المهم أن يكون بخير.

وأمام لطفها وتسامحها رويت لها القصة الحقيقية ولم أستطع منع نفسي عن بعض التعديلات الطفيفة، وشعرت بالراحة، وسألتني أن أحدثها عن حيان وعما رواه عنها، فوجدتها فرصة لأتسلى قليلا، وقلت:

- لقد أخبرني الكثير عن علاقتكما.

ضحكت:

- وماذا أخبرك؟
- عندما أثمله الشراب الذي قدمته له لم يترك شيئا إلا وكشف ستره، لعنة الله على الخمر!

لقد أخبرني عن استقبالك له بالثوب الخمري الذي أثار جنونه، وكيف أخفيتي عنه جسدك بعد ذلك.

- حيان أخبرك بهذا! اعتقدته رجلاً نبيلاً.
- لا يا سيدتي حيان نذل، وأنا الرجل النبيل الوحيد في هذا العالم البغيض، لهذا وبخته وأنكرتُ عليه حديثه عن الهوانم بهذه الطريقة، وكان رده حينها: لقد منعتني من الهرب بقيدها الحديدي اللعين.
- فابتسمت وقالت: ألم يخبرك بأن المِفتاح معه والسلسلة لم تكن إلا لردع يعقوب عن قتله، اخترع كذبة غير هذه، وعمَّ حدثك أيضا؟

فقلت:

- عن كلِّ شيء؛ الثياب المجنونة، والجسد الأسطوري، ولكنه بالغ في وصفه كثيرا، وربما لم يبالغ، فما رأيك أن ترتدي ذلك الثوب الآن لأتأكد من دقة وصفه؟

ضحكت ومعها الملط، ثم قالت:

- عزيز يا خبيث، هل يجب أن أصفعك أم أربطك في ذنب الجمل؟ والآن أخبرني ألم تتساءل ماذا أريد منك؟

ومازحتها:

- وقعتِ في حبي وترغبين في الزواج مني، لا يوجد تفسير آخر لإصرارك على أن أرافقك.

قهقه الملط، وقالت:

- لقد فكرت في هذا الأمر حقًا، ولكني لا أريد أن أسرقك من مالت.

اللعينة أوجعتني بقولها، وتابعت:

- بعد وصولنا إلى اليونان، وتستتب الأمور، وتعم السكينة ستأخذني إلى كهف الناصرة الذي اكتشفه حيان، والآن أخبرني بدون خداع هل ما رواه عن الكهف حقيقة.

وقلت سرًا:

- اللعنة عليك يا حيان أمام الرجال أنت كتوم، وفي أحضان امرأة تكشف كل الأسرار!

فقلت لها:

- أسفًا! لقد فجَّره روهان بيك، ولم يتبق ما نذهب إليه.

فابتسمت وقالت:

- الأستاذ روهان ما كان ليفعل مثل هذا الأمر، وتوقف عن ممارسة ألاعيبك معي، فأنا أعرف كل شيء، وهل تصدقني إن اخبرتك أني أحلم بهذا الكهف منذ صغري!

التزمت الصمت، وراودتني فكرة العودة إلى الكهف، ولكني ما كنت لأخون روهان بيك أبدا، وسيشغلني إخراج الذهب والاستمتاع به، وليت الأمور توقفت عند هذا الحد! حيث قالت لي:

- والآن أريد أن تفي بوعدك وتفك شيفرة مذكرات الأستاذ روهان، وتقرأ لي ما كتبه عن الكهف.

امتعضت كثيرا وتذكرت ما قاله روهان قبل أن يودعني:

- "لا أريد لحيان أن يعرف بما تحمله معك"

وقلت لها:

- أشد الأسف، لقد فقدتُ مذكرات البيك.

وارتسمت على شفتيها -التي لن أمانع أن ألتهمهما- ابتسامة خبيثة، وتركتنا إلى خيمتها وعادت تحمل مذكرات روهان، التي أعادت إلي روحي وأفرحت قلبي، وكانت تستحق أن اقرأ لها القليل، وقلت لها:

- شيفرة روهان أكثر تعقيدا وأحتاج وقتا لفكها.

فقالت:

- لدينا كل الوقت هيا معي الى إلخيمة وسأشعل لك مصباحًا.

وجلست أعبث بمذكرات مُعلمي الغالي في شوق، وافتخرت بقدرتي على قمع فضولي وتركها في الحفرة دون تطرقي لما تحتويه... أقلِّب الصفحات؛ رسومًا وأرقامًا ورموزًا لا معنى لها، ضحكت من أعماق قلبي؛ شفَّر روهان الكلمات كي يستحيل قراءتها، ولم يعرف أني قد فككت رموزه منذ زمنٍ بعيد، ومعظم الرسائل التي كان يرسلها للهانم زوجته كنت أقرأها في يسر، وكان فيها الكثير مما لا يليق بعمرهما، لقد اعتاد أن يستبدل الأحرف الأساسية بالأحرف الثانوية في منتصف الكلمة، وحين يتكرر الحرف يستبدله برقم، وعشرات الكلمات الشائعة استبدلها بحرف أو برقم؛ أشهد له أنه استطاع ابتداع لغة مكتوبة لا يستطيع فك رموزها إلا هو والوزة هانم.

أشهر طويلة قضيتها في محاولة فك رموزها ولم أنجح، حتى ساعدني قيصر روما - أنار الله عليه قبره- كان البيك يرسلني إلى البيت أكثر من مرة في الأسبوع الواحد لأحضر له الطعام، أو الملابس أو غير ذلك، وفي بعض الأحيان كان يحملِّني رسالة مشفرة قصيرة لزوجته، وفي إحدى المرات، أعطيتها الرسالة المشفرة قرأتها وضحكت، وقالت لي على الفور:

- قل لروهان: "إن روما ستفتح أبوابها أمام قيصر منتصب القامة، ولكن قيصرك هذا قد غطَّ في سُبات عميق".

حينها تأكدت أن الرسالة التي حملتها لابد أنها تحمل كلمات لها علاقة بروما؛ قيصر، وأبواب، واستغرقني أسبوعا كاملا لترجمة هذه الرسالة وكانت:

- اليومَ قيصر قادم لخلع أبواب روما، و...

الوزة الشقراء البلهاء لم تنتبه إلى أن ردودها الشفوية على رسائل البيك ساعدتني على فك طلاسم لغته الخاصة، ولو شك البيك لحظة أني أصبحت على دراية بكل أفعالهما المُخجلة، لدفنني في القبو.

هذا العجوز يحب الملابس الداخلية ذات اللون الأصفر، وسكب نبيذ الخوخ على بطن الوزة وارتشافه، والكثير من الأفعال المشينة، لم تكن الرسائل تحمل أكثر من مداعبات رجلٍ أشيب وامرأةٍ عجوز، ولم أكن لأستطيع أن أمنع نفسي من قراءتها.

لقد أثار فضولي غزارة ما كتبه عن الكهف، لم يتجاوز التفاصيل في الصفحات الأولى، وكان حريصا على تدوين كل شيء، ولكنه بعد ذلك انتقل إلى شيفرة أكثر تعقيدا، وسأحتاج إلى أشهر لفك رموزها، وقرأت لفاطمه بعض ما تمكنت من فك رموزه ؛ لقد كتب البيك رمزًا:

- ***"حينما** انزاحت الصخرة وكشفتُ عن بوابة صخرية منحوتة اعتقدت أنها من صنيع الرومان، فخاب أملي كثيرا، ولم أجد داعيا لإهدار وقتي في تفحص جماجم مثقوبة من الخلف كانت يوما لجنود قاتلوا وأصيبوا بجراح بالغة، وتم تسريحهم من الحياة مع ثقب في مؤخرة الجمجمة. لا شيء يصيب عالم آثار بالملل أكثر من اكتشاف مقبرة رومانية، وعددها عشرة أضعاف شجر الزيتون الذي زرعوه، خفق قلبي وارتعشت حينما وصلتُ إلى أنفي رائحة أعادت إليَّ حاسة الشم كاملة، وكأني عدت إلى الثلاثين من عمري، فيها من القرنفل والياسمين والخزامى، وربما شيئا من الخشخاش، والكثير مما أجهله، مثل هذه الخدعة نسبت إلى الفراعنة ولأوائل الهنود؛ حيث قاموا بحفظ خلاصة العطور في وعاء زجاجي، غلفوه بالطين وفور تعرضه للهواء يتحطم لتفوح منه الروائح؛ بعضها كان يمزج بسموم تقتل المتطفلين، وتزرع الرعب في قلوب النَّاجين، أمَّا الروائح التي كانت تخلو من سموم كان فيها الكثير من الأفيون، لزرع الإيمان بآلهة مزعومة.*

  كان عليّ أن أكون حذرا قبل أن ألج المجهول، وبالرغم من أن حيان قد ولجه مُسبقًا -كما أخبرني- وخرج سالما ليس لي أن أعتمد على قول شخص لم يمضِ على معرفتي به أكثر من يوم.

  بعدما اتخذت إجراءات السلامة وتأكدت أن المكان آمن ولجت إليه؛ الأمتار الأولى كانت مخيبة للآمال، ولكن حين عبرنا البوابة الثانية، واكتشفت أن هناك درجًا صخريًّا

يقود إلى الأسفل، منقوش عليه رسوم أقرب إلى أحرف لغة لم أعهدها من قبل، امتلأ قلبي بالسرور، لأن هذه الحرفية لا علاقة لها بالرومان، فطردت أشباحهم من خيالي. كنت حذرا وبطيئا في كل خطوة أخطوها، وقد أمسك الملازم بذراعي خشية تعثري، وحينما وصلنا إلى نهاية الدرج وقبل أن ترمش عيناي، راودني شعور بأني أقف على مدخل اكتشاف عظيم، وأن اسمي سيُحفر على جبين التاريخ بحروف من ذهب.

الملازم حيان؛ هذا الشاب الصغير؛ لا يبدو أنه اعتاد يوما أن يكون في الصفوف الخلفية، حاول أن يتجاوزني ليدرأ عني أي خطر مفاجئ، منعته مُصرًا على بقائه خلفي، ولم يكن يسير عليَّ إقناعه بأن هذا المكان يحتاج إلى حكمة عجوز لا شجاعة شاب، وأن عدونا الوحيد هو انهيار مفاجئ بسبب عوامل الطبيعة، أو فخ تم نصبه قبل آلاف السنين للإيقاع بعجول أحمق.

وقفت فوق حجر من الرخام لأستكشف المكان قبل متابعة السير، فإذا ببريق الذهب يشد بصري؛ كان سيلا عرضه أربعون سنتيمترًا ينتهي عند الرخام الذي أقف عليه ويختفي، يتوسط صالة عرضها أمتار وطولها يتجاوز مدَّ البصر، يتحرك كلما قربت منه ضوء المصباح، وكلما أَبعدت الضوء يتجمد، خُيِّل إليَّ أن قدمي ستغرق في ذهب سائل إذا سلطتُ عليه ضوء المصباح، وعندما دققت النظر رجَّحتُ أن يكون معدنا تم طلاؤه بمزيج من ماء الذهب، ولون أصفر لا مثيل له.

لم يمر الكثير من الوقت حتى اكتشفت أن مصابيحنا لم تكن سبب إنارة الطريق؛ فهي لم تشكل فارقا؛ من بعيد كان ينبعث نور قوي يصطدم بالجدران الملساء، ويسهم سيل الذهب الوهمي في نشره مما يشير إلى وجود مصدر ما للإنارة يعمل على تجميع ونشر ما يصله من ضوء الشمس.

عشرات السنوات التي أمضيتها في دراسة الآثار علمتني الحيطة عند مدخل الأثر، كبحت جماح فضولي نحو التقدم، وحاولت فك شيفرات الرموز المنقوشة على الدرج، وسرعان ما اكتشفت أننا دخلنا عبر بوابة سرية أُعدَّت للخروج، أو الهرب عند الطوارئ، وربما لم يخرج منها أحد قط، هذه الحقيقة لم تثر دهشتي، ولكني تساءلت إن كانت هذه صفة مخرج طوارئ، فكيف إذًا سيكون مدخل هذا المكان!

نفضنا عنا ما علق بنا من تراب، وكانت خطواتنا الأولى فوق تاريخ نجهله، جوانب الصالة مزينة بآلاف الرسوم الصغيرة؛ خيول وطيور، حيوانات ضارية وأليفة، ورود وأشجار، غيوم وأمطار، جبال وسهول، براكين ونار، عمالقة وأقزام، رجال ونساء، أطفال وعجائز، سيوف ومطارق، كل شيء عرفناه يوما ولم نعرفه كان له رسمٌ يمثله حتى حبة القمح، إذا أردتَ تدوينه فلن تبرح مكانك لأشهر طويلة، وأروع ما في هذه الرسوم وأغربه كَمَنَ في تفاصيلها، كان بصري الضعيف قادرًا على الاستمتاع بدقائقها، أحجامها متفاوتة، أكبرها لا يزيد عن حجم كف اليد، وأصغرها لا يتجاوز حجم إبهام اليد، تمتزج جميعها فتراها لوحة واحدة تمتد عشرات الأمتار.

روعة الفن والإبداع تكمن في إخفاء تفاصيل لوحة وإظهارها في لوحة أصغر حجما؛ ترى فارسًا يقف بجوار حصان حجب وجهه عن رؤيتك، وفي أخرى ترى جانبًا من وجهه، ثم ترى وجهه كاملاً، وفي أصغر تراه على صهوة الحصان، ولتكتمل الصورة في ذهنك كاملة يتوجب عليك البحث في مئات الرسوم الأصغر حجما، امتزاج الرسوم وتنميقها أصابني بالدوار فأشحت بوجهي إلى الجانب الآخر، وعلى الفور شدني رسم لطفل صغير يحمل بين يديه كتابا ويقرأ منه بشغف، وقبل أن ترمش عيناي نظر بعينيه الصغيرتين، ومد يده ودعاني بابتسامته البريئة لأقرأ معه، مددت يدي أمسد على شعره، وسمعت صوت رنة ضحكته العذبة التي غمرتني سرورًا، وملأت قلبي بهجة، فتحت ذراعي لأضمه إلى صدري، فرمى الكتاب وهرب مسرعا، ثم توقف والتفت إلي وأخذ يضحك، فاقتربت منه، وسألته عمَّا يفعل هنا، فرد علي ببراءة الأطفال:

- ***أنتظرك لتلعب معي.***

مددت يدي إليه ثانيةً لأتلمس خده الناعم، فاقشعر بدني عندما بهت لونه، وبدأت تغادره الحياة، وراودني إحساس بأن يدي قد سرقت حياته، وانسلت دمعةٌ من عيني، واعتصرني ألم قاس لم أعهده...أغمضت عيني لعلي أقتل حزنًا كاد يقتلني، ودموعًا كادت تجد لها مخرجًا! ولكني بكيت كالأطفال، وحين انتهيت وجدت راحةً لم تراودني منذ زمن، وبدأ عقلي العجوز يبحث عن تبريرات لأجيب حيان عند سؤاله عن سر

بكائي، فالتفت إليه وكان يبعد عني عدة أمتار، وحركات جسده والصوت الذي وصلني دلَّ على أنه يتحدث مع أحد بفرحة وحماس، لم أر مَنْ يحدثه، ناديته ولم يسمعني واقتربت منه وأمسكت بكتفيه وأدهشتني فرحة الأطفال في عينيه، سألته عن حاله فتاهت عيناه في كل اتجاه، ولمَّا تيقن بألا وجود لمن يبحث عنه قال:

- ***لا شيء، لا شيء.***

تلاشت الفرحة من عينيه، وسعيا مني للبحث عن أجوبة لهذا الوهم الحلو الغريب الذي مررت به منذ دقائق وأشك بأنه قد تذوقه أيضا سألته:

- ***ماذا رأيت ومع من كنت تتحدث؟***

حاول أن يخفي خجله وهرب من سؤالي بتكرار:

- ***لا شيء، لا شيء.***

أشفقت على هذا الشاب الذي خجل مما اعتراه من وهم وقلت له:

- ***لا تخجل أنا أيضا رأيت.***

فتح عينيه على وسعها وسأل:

- ***هل رأيتها أنت أيضا؟***

أردتُ معرفة المزيد فأجبته:

- ***نعم لقد رأيتها، ولكن مَنْ هي؟***

وعادت فرحة الأطفال لعينيه وقال:

- ***إنها جدتي***

ما قاله ساعدني على رسم صورة أكثر وضوحا لما حدث معنا، أمسكت بيده وسألته:

- هل رأيتها عند نزولك الكهف أول مرة؟

- نعم، وتحدثتُ إليها كثيرًا، أوتدري أن هذا سبب خوفي على الكهف أكثر من خوفي على ما يحتويه من كنوز.

طلبت منه أن ينظر إلى آلاف الرسوم التي تمثل النساء على الجدار، وقلت له:

- من فيهن الأكثر شبها بجدتك .

فأشار إلى واحدة وقال: تشبهها كثيرا، ثم إلى أخرى قائلاً: هي أكثر شبها من الأولى، وأخذ ينتقل بين عشرات الصور ويهرول مع الحائط، وهنا عزمت على الخروج من الكهف بسرعة، ولم أترك يده ولم يتوقف عن النظر إلى الخلف، وحينما وصلنا إلى الدرج لمحت عن يمينه فتحة أخرى لم أنتبه لوجودها من قبل، ربما لأنها أقل إضاءة، اقتربت منها وتبعني حيان وتفاجأت أني أقف أمام صالة لا تشبه الأولى إلا في حجمها؛ أتربة وغبار، ورسوم بدائية، تخلو من سيل ذهب، لا شتات فيها، وجلست لألتقط أنفاسي، وأخذت أسأله عن جدته ويجيب، ثم سألني على استحياء:

- هل يعقل أن التي رأيتها من الجان وتشبه جدتي أم هو طيفها حقًا؟

فأجبته:

- يا بني، قصة الجان من اختراع الجدات.

وأصرَّ على أن ما حدث كان خارقًا، وأقنعته بأنه لا علاقة له بخرافات وإنما بالرسوم التي حفَّزتْ عقله على خلق الأوهام، وبالرغم من أنه لم يكن متيبس الفكر بل منفتحا على استيعاب المنطق إلا أنه عاد لإصراره على أن هذا الإبداع ليس من صنع بشر. وخرجنا من الكهف وحملت معي ذلك الحزن الذي دفنته في أعماقي قبل زمن طويل وأعاده الكهف إلي في لحظات.

حينما أفقت من نومي ولم أجد عزيزًا أدركت أن هذا القط الفضولي وجد طريقه للكهف، لم أخش عليه من أوهام الكهف، وإنما خشيت على الكهف منه، هذا الولد البارع في كل شيء يملك موهبة ليكون عالم آثار عظيم، ولكنه لن يتردد مرتين في تدمير الأهرام بدافع الفضول، أو البحث عن كنز ليشتري المزيد من ربطات العنق والأحذية...سرني كثيرا حينما وجدته لم يقترب من الجدران ولم يقتلع حجرًا من الأحجار الكريمة، لابد أنه كان خائفا من الأفاعي والعقارب، فهذا هو الشيء الوحيد الذي قد يردعه.

ولحق بي حيان وعدت لإثبات صحة نظريتي حول الوهم الذي اعترانا، وكان لابد أن أجعله يعيد التجربة، وأطلقته ليبحث عن جدته وأخذت أراقبه ولم أزعج خياله، لم تمر دقائق حتى تكرر الأمر ذاته بعدما حجب عنه اللاوعي بقية الرسوم، وقادته عيناه لكل رسم فيه امرأة، وصِغر الرسوم ودقة تفاصيلها، واختلافها وامتزاجها ساعد على تفعيل أجزاء ساكنة في دماغه، وأدخله متاهة تنبض بالحياة فرأى امرأة تنظر إليه، وأخرى تبتسم، كان عقله يختار الصورة ثم يدفعه للنظر فيما يناسبها من صور، وهكذا صارت الرسوم حقيقة، ولم ينقصها إلا الصوت، ولم يعجز اللاوعي عن مدِّه بما يحتاج من كلمات لتنطق.

أخبرته أن الرسوم مجتمعةً تحفز العواطف وتدفع العقل لإكمال النقص، وأن الرسم الذي اختارته عيناه ذكَّره بجدته فبدأ يتنقل إلى كل رسم لامرأة، وجاء دور عقله ليملأ النقص بتكرار الرسوم بأشكال مختلفة، وساهم خياله في تحريكها حتى أن الرسوم بدأت تحاكي عواطف وذكريات تم تخزينها في اللاوعي،

وحقيقةً أنا لم أفسر حالة حيان بقدر صدقي في حديثي عن نفسي؛ من بين آلاف الرسوم تطرقت عيناي إلى الطفل القارئ، والذي شابه ابني الذي فقدته صغيرا ، وبدأت من هذه النقطة أتابع الرسوم التي تحاكي بعض ما اختزن في ذاكرتي ، أما عن الحديث الذي دار بيننا فلم يتعد صدى صوت عاد إليَّ من الماضي البعيد.

اقترينا من إحدى الغرف وكان مدخلها مموها، ولجتها بحذر ولم يكن فيها ما يميزها عن الممر سوى أن بعض رسوم النساء والرجال والأطفال بعين واحدة أما الحيوانات فلها ثلاث عيون، اقتربت منها لأتأملها، وأبحث عن المغزى وراء ما نقص وزاد.

لم أجد رابطا، فأغلقت عينا واحدة ونظرت بالأخرى ولاحظت في زاوية الغرفة اختلاف ما في الرسوم اقتربت منه وتبين لي وجود باب آخر تم تمويهه ببراعة دفعته وكانت الظلمة شديدة وعاد حيان إلى المدخل وجاء لي بمصباح وحين اكتشفت ضيق الممر طلبت منه أن يصبر قبل اللحاق بي حتى اكتشف إلى أين سيقودنا هذا الممر، أحنيت رأسي حتى لا تصطدم بسقف الممر، وسرت أكثر من خمسين مترا، ثم وصلت إلى صالة معتمة مملوءة بالرسوم والرموز والأرقام، لم تلون ولم تزين بالذهب وخلت من الأحجار الكريمة، فخلت مما يجذب الأنظار، كانت هذه الصالة هي نسخة بدائية للصالة السابقة ولم تكتمل بعد، أو أن العمل توقف فيها لسبب ما، وفر لي حيان الإضاءة الكافية لأسجل ملاحظاتي وعلق قائلا:

- ***يتملكني إحساس بأننا نقف في الصالة نفسها ولكننا في زمن مختلف.***

كلماته تركت تأثيرا في نفسي وأجبته بأن الزمن يتغير مع كل رمشة عين، ثم خرجنا لنكتشف أن الوقت قد سرقنا مرة أخرى، وحين عدنا صباح اليوم التالي شعرت بالفضول للعودة إلى الصالة المعتمة متجاوزا بريق ولمعان الذهب في طريقنا وحين انتهيت من تفحصه وتدوين ملاحظاتي عدنا مرة أخرى إلى الصالة اللامعة لنكتشف ما تحتويه بقية الغرف، واكتشفنا أن الرسوم في كل واحدة تقودنا من وهم إلى آخر لتدلنا إلى باب مموه، نفتحه ونمر منه ليقودنا إلى الصالة البدائية، وأصابني الملل من تكرار ما أراه، وحينما توجهنا مباشرة إلى نهاية الصالة، انحنينا إلى اليمين وسرنا عدة أمتار، ووجدنا أمامنا جدارًا فيه بوابة، عبرناها وأخذتنا طريق إلى اليمين لا يصلها النور، أما الثانية فالضوء الصادر منها أقوى من أن ننظر إليه، وحينما اقتربت منه ارتفعت درجة الحرارة فأدركت أنها زاوية تجميع الطاقة التي تسمح بإنارة

الكهف، شدني ذلك وأردت اكتشاف الطريقة، ولكن لم أقوَ على الاقتراب، حاول حيان أن يقترب ويصف لي ما يراه ولم يصمد طويلا أمام الضوء والحر الشديد الذي لا يحتمله بشر، النور كان صافيا ولا شك أن له علاقة بالشمس لا المحروقات.

الطريق الثانية أعادتنا إلى المدخل عبر الصالة البدائية، وهنا أصابتني خيبة أمل، فلا يعقل أن هذا المكان بلا مدخل عظيم، الجوع والعطش الذي دلني على مرور الوقت لم يلح علي خروجنا، ولكني ما عدت قادرا على ضبط نفسي، وكان لابد من الخروج لقضاء حاجتي.

واظبنا على العودة إلى الكهف عدة أيام متتالية، وشعرت أنه فقد بريقه، وما عاد هناك شيء ليبهرني، ولم يتبقَ هناك ما اكتشفه، فمعظم الغرف كانت تقودنا إلى الصالة البدائية، حيث يستقبلنا الغبار، لم أجد منطقا في هذا التمويه المتقن للأبواب الداخلية لتقودك في النهاية إلى مكان يمكن دخوله من المدخل بسهولة!

على يسار الصالة كانت هناك الكثير من الغرف السوداء المظلمة لا شيء يميزها وبذلت كل جهدي لاكتشف سرا ما أو مغزى لوجودها، وكانت مصادفة حين دخلت أحد الغرف وفي طريق خروجي منها لاحظت أن الرسوم على جدار الصالة تظهر بشكل مختلف، وهكذا مكنتني الرسوم من اكتشاف باب سري داخل غرفة لم نره قبل ذلك، دفعته ووجدت نفسي أمام غرفة أخرى أكبر حجما تتوسطها مصطبة حجرية مزينة جوانبها بأحجار كريمة وفوقها استلقى رجل برداء أبيض، يشع من حوله النور ومن حوله ما يزيد عن عشرة هياكل عظمية، وكل ما أراه يشير إلى أن أصحاب هذه العظام جلسوا وماتوا في هدوء، بحثتُ عن الرسوم التي أغرقتني في هذا الوهم ولم أجدها، وهنا سألت حيان عمَّا يراه في الغرفة، فوصف لي كل شيء مُفصلاً، وأضاف بأنه يشك في أن الرجل النائم ملاك.

اقتربت لأراه بوضوح وأطرد الوهم بلمسه، فارتعش كلُّ جسدي، وارتجفت وتراجعت للخلف عدة خطوات، ورأيت في عيني حيان الحيرة، لم أسمح له أن ينطق بما يجول بخاطره، وقلت له:

- ***أشك في أننا نتعرض لنوع من الخداع أكبر من قدرة عقلنا على تفسيره، أو ربما قد رأينا ما لا يجوز أن نرى!***

أسرعت الخطى وأقسمت بأن أخفي هذا الكهف وأمنع أن يدنسه أحد، حتى لو اضطررت لدفن نفسي داخله، ووافقني حيان على ما نويت، ولكنه كان مرتابا لأن عددًا كبيرًا من الجنود قد علموا بأمر الكهف، وسينتشر الخبر لا محالة، وسيعود من يبحث عنه، وهنا لمعت برأسي فكرة وقلت له:

- ***لن يبذل أحد جهدا للبحث وراء لصوص، تعال لنقنع الجميع بأننا سرقنا كل ما بداخل الكهف.***

حياتي لن تعود إلى سابق عهدها أبدا وسأحتاج لسنوات لأدرس رموز وأسرار هذه الحضارة سأفتخر حتى النفس الأخير بإخفائي هذا المكان وسأشعر بالخجل لخداعي حيان مرتين؛ الأولى حين كنا في الصالة المعتمة واقترب منا عجوز وطلب منا أن نخرج وألا نعود ثانية، وسألني حيان إن كنت رأيته فأنكرت حتى لا أغرق في الوهم وأتمكن من البحث عن تفسير، والثانية أني أخرجت من الكهف حجرًا أحمرًا وندمت على ذلك."

كان روهان يترك الكثير من الفراغات؛ ففي البداية كان يفصل تفصيلاً مملاً، وبعدها انتقل إلى الاختزال والتشفير الرقمي، وبعد ذلك شعرت أنه يخاطب نازلي هانم، وبين الفقرة والأخرى أدخل الكثير من الرموز غير المفهومة، ومع ذلك كله حينما كنت أقرأ لفاطمة تعمدت أن أحجب عنها بعض المقاطع التي تشير لما تحتويه بعض الغرف. لم تكتف فاطمة بما قرأت، وأصرت على أن أفك شيفرة كل ما احتوته المذكرات ووعدتها أن أفعل لاحقا.

وفي الصباح الباكر أيقظنا عديد وطلب منا أن نستعد وساعدنا في فك الخيمة الأنثوية الغبية، وانتهينا من تحميل الدواب وسرني أننا سنترك هذه الصحراء خلفنا، وكان لابد أن يودعنا الوادي على طريقته، باغتتنا عاصفة حمراء بما حملته معها من تراب أحمر، وطمست أعيننا، واستمرت في تعذيبنا لأكثر من نصف ساعة، فاطمة التي اكتست قبل أسابيع الحرير وكانت تتجنب لقاء الشمس حتى لا تفسد بشرتها الناعمة، أراها اليوم تكتسي الغبار الأحمر ولا تبالي، اختبأت خلف صخرة لتحتمي بها، وعيناها تتنقل من زاوية إلى أخرى بعدما بهرها سحر الوادي، أمَّا عديد الوفي الذي حرص على بقائه بالقرب منها لحمايتها من قسوة الطبيعة لم يبهره في هذا الوادي سواها، وحارسها الزنجي لم يتوقف عن الحركة، وعيناه تراقب كل شيء حتى حشرات الأرض ليدرأ أي خطر عن سيدته، خيِّل لي أنه سيطلق النار على الغبار ليمنعه من مضايقتها، حينما سأعود بالذهب سأشتري أربعة مثل هذا الزنجي لحراستي.

على بعد أمتار جلس الكعب ومازال على حاله ضائعًا شارد الذهن، غارقًا في فراغ غير متناهٍ، وعلى مقربة منه كان الملط يحاول يائسًا طرد الغبار عن ملابسه، لعله يستعيد القليل من لمعانه! ولا أشك أنه يلعن سرًا هذا الوادي الذي عرّاه وكشف الكثير من التجاعيد التي لم نرها مُسبقًا، لقد خدعنا جميعا ولم يخدع الطبيعة، كنا نظن أنه دون الخامسة والعشرين من عمره، واليوم أراه قفز فوق الخمسين، أي سحر تعاطاه ليبدو أصغر من عمره!

وبعدما هدأتْ العاصفة وحلَّ الهدوء انطلقنا نحو المكان الذي سنلتقي فيه رجال الباشا المرسلين لحمايتنا ومرافقتنا إلى وجهتنا الأخيرة، اقتربنا من ساحة مفتوحة، لا تستطيع العين بلوغ منتهاها، ورأى عديد أن عبورها ليس آمنًا، وطلب منا جميعا الاختباء بين التلال القريبة حتى يذهب ويأتينا برجال الباشا، واعترضت فاطمة لرؤيتها أن في ذهابه وعودته إهدارٌ للوقت، وما كان عديد ليجاريها مادام الأمر يتعلق بأمنها، وتركنا عديد وجلسنا جميعا في انتظار عودته.

نصف ساعة من الهدوء والرتابة والملل، وأطل علينا من بين الصخور غزال صغير يبدو أنه تاه أو ضيَّع طريقه، والملط المشغول بإخفاء تجاعيد وجهه وتدريم أظافره أدهشنا حين قفز كقرد رشيق وطوق عنقه بذراعه، لم أتساءل: من أين ظهر الغزال؟ وإنما تساءلت: كيف رصدته عينا الملط، وسرعان ما استسلم الغزال بعد عدة محاولات للإفلات من قبضة الحريري

المعطر، اعتقدتُ أنه سيقبله ثم يطلق سراحه، ولم يدم اعتقادي طويلاً حتى لمع خنجر في كفه وتدفق شلال الدم من عنق الحيوان الوديع، وقطعت فاطمة أنفاسها وعيناها لامته على فعلته، وسارعت بالابتعاد.

ابتسمت عينا الشيطان المكبَّل مع مراقبة الذبح ورؤية الدماء، منذ سبعة أيام لم أرَ في عيني الكعب مثل هذا البريق، ذبْح الغزال أيقظ المسخ من سباته العميق، وكل ما أراه يؤكد هذه الحقيقة؛ نظراته الغامضة، ملامح وجهه، ملامسته لأنفه، حك رأسه، هز أكتافه، اشتاق الوحش لتذوق الدماء، وتمنيت أن أكون مخطئًا ولكن حين انتصب على قدميه وأخذ ينظر حوله، ثم ينظر إلى السلسلة التي قيدته في دهشة، ويعض على شفته اقتربت منه فأشاح عينيه عني، وما كان ليخدع ذاكرتي التي حفظت كل حركة في وجهه، ذابح الحمير والبشر عاد من أعماق الظلام وسينحرنا جميعا، ويلي إن تذكر معاملتي له في الأيام الأخيرة! أمثاله لا يسامحون ولا يعرفون الرحمة، لعنة الله على الغزال والملط الذي طلب أن أساعده في تجهيز صيده للشواء! أخبرته أن عديد قد يعود في أية لحظة وأننا لانملك وقتًا لذلك، ولكنه أصرَّ، وبعدما انتهينا حرصتُ على الاستيلاء على قطع كبيرة من لحم الغزال اللذيذ، وحمَّلتها لأخي وصديقي؛ ملكي وسيدي، لعل الطعام يشفع لي عنده إن عزم على العودة لالتهام قلوب البشر من جديد! كان عليَّ التظاهر بعدم انتباهي إلى عودة رشده، وبدأتُ أخاطبه:

- كُلْ يا شيخ، يا ملك، واستعد قوتك وأنقذنا من هؤلاء الأنذال الذين كفروا بالـ"قاقا باقا" وقيدوك، ليتك تعود إلى رشدك يا سيدي وتتذكر أني قتلت كاظم دفاعا عن حياتك! أنا الوفي لك بالرغم ممَّا أصابني من جنون لتغير حالك وتطاولت عليك سيدي عن غير قصد، وحين عاد إلي رشدي حرصت على حراستك كي لا يقتلوك وأعيش يتيما بدون رعايتك.

لقد غرقتُ في النفاق والكذب حتى أذنيّ، ولو فعلت هذا مع حجر كان لتحركت مشاعره ولانت صلابته، ولكن هذا الحقير لم يلتفت إليَّ، ودفعني إلى الشك بأنني قد أكون مخطئا، فكما قال روهان يوما:

- "الخوف يأخذنا لنصدق أن الأرانب قادرة على افتراسنا."

نظرتُ في عينيه مباشرة لأتأكد إن كنت أرعبت نفسي بلا داعٍ أم أنه حقًا قد استيقظ من سباته، فباغته وغصت في عينيه وأشاحها للمرة الثانية، عيناه كانت فارغة باهتة وعادت تلمع من جديد، ارتجفت وتأكدت انه يتوجب علي الارتعاب، أتمنى أن يتذكر كيف أبعدت عنه الخدم لا كيف شتمته، ومع هذا المسخ لن تنفع الأمنيات، ولابد أن أخبر فاطمة وأقنعها بأن تأمر حارسها بقتله، وذهبت إليها وقبل نطقي لمحنا خيالا يسابق ظله قادم إلينا، كان عديد فأسرعنا للقائه، ترجل عن حصانه وأخذ ينادي على كيمو ويطلب منه ربط الدواب بعضها ببعض، وأربكنا جميعا ولم يكن بمزاج يسمح للرد على سؤال أحدنا، وأصدر أوامره:

- هيا أسرعوا بتسلق الجبل، واختبئوا في أحد المغاور حتى أعود إليكم.

وأشار بيده لكيمو نحو الاتجاه الذي يسوق إليه الدواب، وللمرة الأولى أراه يصرخ في وجه فاطمة، وحمل على كتفه بندقيتين، ودفع لمالت ثالثة، وأسرعنا إلى تسلق التلة، واختبأنا خلف الصخور نراقب، وأخذ عديد يدور بحصانه حول نفسه ليخلف زوبعة من الغبار، ربما ليخفي أي أثر يقود إلينا، أو لخدعة من يتعقبنا، ثم ابتعد ووقف في مكان مكشوف لدقائق قلائل حتى لمحنا ما يزيد عن عشرين خيالاً مسرعين إليه، تمَّهل حتى تأكد من رؤيتهم له ثم أسرع خلف كيمو، وبعد وصول الخيالة أسفل التلة ترجل أحدهم وأخذ يتفحص الأرض ثم عاد واعتلى حصانه، وانطلقوا جميعا في أثرهما.

راقبناهم حتى ابتعدوا، وهنا توترت فاطمة وأصابتها نوبة أشد من ذي قبل، وبعدما هدأت تحول الملط اللعين قائدا علينا، واختار مغارة وساعدنا فاطمة في الوصول إليها، ثم أمرني أن أجر طبرق إلى الأعلى تفاديًا لجعره وانكشاف أمرنا، وكنت سأقترح عليه أن يطلق النار على رأسه ويريحنا منه، ولكن الكعب لم يكن بعيدا وخشيت أن يسمعني، فاقتربت منه وأمسكت بالسلسلة وقلت له:

- سامحني يا شيخ، فأنا عبدٌ مأمورٌ، هيا رافقني إلى الأعلى، وأعدك بأني سأجد طريقة لفك قيدك وأعتني بك حتى تستعيد رشدك.

سار خلفي وجلس في زاوية هادئًا، واشتد العطش بفاطمة فجأة وحين اكتشفت نفاد الماء، وأننا نفتقر إلى كل شيء سوى بندقية وذخيرة اشتد بي العطش والجوع أيضا، كان الملط ممسكا بيد فاطمة يبذل جهده لطمأنتها، وكان الكعب يراقب أسفل التلة بحذر شديد، وكأنه يتوقع عودة الزنجي وعديد، وهدوءه أعادني إلى الشك في حاله، تجاوزنا الظهيرة واشتد بي العطش، واقتربنا من الغروب ولم يأت أحد لنجدتنا.

أشرقت شمس الخميس والكعب كان هادئا ولم يبدر عنه شيء مما توقعت، وعند الظهيرة لم يعد لدينا شك في مجيء أحد لنجدتنا، صبرنا على الجوع ولكن العطش تمكَّن منا ولم يتوقف عن تعذيبنا، فاتخذ الملط قرارًا شجاعًا بأن يذهب بنفسه للبحث عن ماء، بالنسبة لذاكرتي إيجاد الماء يحتاج لساعتين إن سار غربًا فهناك مررنا بالقرب من ماء ولكننا لم نملك ما يحضر الملط فيه الماء، وبعد جدل مع فاطمة عزمنا على الذهاب جميعا للبحث عن الماء بدلاً من الموت عطشا، وهنا قالت فاطمة:

- لنترك هذا المجنون هنا حتى لا يعيق حركتنا.

ووافقها الملط وقبل أن أستغل الموقف وأعترض جلس الكعب على باب المغارة ليغلق الطريق أمام خروجنا، ورمانا نحن الثلاثة بنظرات أسكنت في قلوبنا الرعب، وسرعان ما اكتشف الملط ما اكتشفته، وأسرع إلى بندقيته فلم يجدها، وأخذ يبحث عن خنجره الناعم المذهب ولم يجده؛ لقد اختفى أيضًا.

لم يبدر عن الكعب أية حركة عدائية، وهذا دفع المخنث ليشك في أمره فاقترب منه ليتجاوزه إلى خارج المغارة، لم يقف الكعب واكتفى أن حرك ذراعيه وأمسك به وغرس الخنجر في خاصرته، ودفعه إلى الداخل وصرخت فاطمة وأصابتها النوبة، فارتعبت وقرأت على روحي الفاتحة، وبدأت أنذر الذهب سرًا كما اعتدت أن أفعل كلما واجهت مأزقا، وقاطعت نذوري كلمات بغيضة خرجت من فم الكعب وقال:

- اشرب من دماء مالت لتروي ظمأك يا عزيز، واسق العاهرة أيضا، لا تضيعوا الفرصة فدماؤه ستجف قبل منتصف الليل.

فتحت فاطمة عينيها على كابوس لا يشبه شيئا اختبرته سابقا، فاقتربت من الملط وأخذت تمزق ثوبها وتسد به طعنته لعلها توقف نزيفه! عيناها تقدح شررا، ولم أر فيهما خوفا، وقالت للكعب:

- وماذا فعل لك لتؤذيه هكذا أيها الحيوان؟

ساخرًا:

- وماذا فعلت لكم نيروز لتنحروها؟
- ولماذا تعتقد أننا قد نفعل أمرا مثل هذا أيها المعتوه؟
- لماذا أردتِ موتها يا فاطمة؟
- اللعنة عليك وعلى ما تصوره لك شياطينك أيها المعتوه! لم يقتلها غيرك.

قهقه بأعلى صوته وقال:

- أجبني يا مالت، من منكم صاحب فكرة أن تتركوا شعر شكيب الأشقر في يدها بعد نحرها؟

واستشاطت غضبا وقالت:

- أيها المتوحش قتلت المسكينة، وقتلت شكيب وتبحث عمَّن تتهمه لتبرر جريمتك! أي شيطان أنت!

صمت الكعب وأخذ يدور برأسه وينتقل بعينيه بينها وبين الملط، وكأنه يبحث عن شيء ضاع منه، والملط كان يبذل جهده للضغط على الجرح لإيقاف النزيف، وبعد صمت استمر لدقائق أخذ الكعب يمسح خنجر الملط المذهب وقال:

- لا تخف يا مالت، لم أطعنك في مقتل، ولن أسمح لك بالموت قبل منتصف الليل، والآن أخبرني: إن لم تأمرك فاطمة بقتل نيروز لماذا فعلتها؟

ما قاله استفز فاطمة ولكن حينما التفتت إلى الملط وأشاح بعينيه عنها شكَّت بأن أمرا ما يحدث، فقالت:

- أخبر هذا المعتوه أنك لم تفعلها.

سكوت الملط أثار ريبتها، ودفع الدمع إلى عينيها وقالت:

- أرجوك أخبرني أنك لم تفعلها أرجوك.

أمال ملط رأسه وأخذ ينظر إلى خاصرته، ورفع يده اليسرى عن الجرح ليترك الدماء تسيل دون أن يعترضها، وبيده اليمنى أمسك بيدها وقال:

- لن أتردد عن فعل أي شيء لحمايتك يا فاطمة.

وقعت كلماته على سمعها كالرعد، سحبت يدها من يده، وابتعدت عنه وتكورت على نفسها، وأخذت تبكي وتردد:

- لا لا أنت لم تقتلها يا مالت.

قتلها المخنث اللعين بغير علم فاطمة، وبهرني بشجاعته في مواجهة الموت عند قوله للكعب:

- والآن قبل أن تقتلني، هلا تخبرني كيف اكتشفت أنني ناحر عاهرتك الصغيرة؟

استفزتني كلماته ولم تؤثر في الكعب بل أخذ يضحك وقال:

- منذ الأمس وأنا أفكر في الطريقة التي سأعاقبكم بها، وأرى أنكم لا تستحقون الموت السريع، لهذا لن أقتل أيًا منكم قبل منتصف الليل، وسأخبرك كيف اكتشفت أمرك.
- لقد زار جسدي أكثر من خمسين خنجرًا، ومن طعنة الخنجر أستطيع معرفة المعدن المصنوع منه، وإليك قصتي: لقد آمن والدي ومعه أهل القرية التي وُلدتُ فيها بأنني فتى ملعون، وبسببي لم تسقط الأمطار، فربطوني إلى جذع شجرة وتركوني لعذابي بلا طعام أو شراب، وتوسلت إليهم أن يعجلوا بقتلي ولم يجرؤ أحدهم على إنهاء حياتي خشية أن تنتقل إليه اللعنة، اشتد عطشي وتضورت جوعا وأشبعت خيالي بشرب دمائهم وأكل قلوبهم، وجاءهم مَنْ نصحهم بأن يقوموا بطعني بأربعين خنجرًا، ويتركونني أنزف لأربعة أيام، وعندها إمَّا أن أموت ويدفنونني مع الخناجر وتنتهي اللعنة، وإما أن تخرج

اللعنة عبر دمائي وأعيش فيتركوني ويدفنوا الخناجر، واصطف أربعون رجلا وأخذت أراقب خناجرهم والطريقة التي أمسك كل منهم خنجره، والشقوق الذي أحدثوها بجسدي، لم أمت وتعلمت أن الخناجر قد تتشابه كثيرا ولكن لكل خنجر علامة خاصة يتركها على جسد ضحيته، لم أكن لأشك في أن مخنثًا مثلك قادر على ذبح أحد، وخنجرك المذهب الصغير، وطريقتك في حمله، والشق الذي أحدثته في عنق الغزال أعاد لي ألم كل طعنة تلقيتها في حياتي.

استخدم الملط عدة طرق لاستفزاز الكعب، شتم نيروز، ووصفها بأقبح الأوصاف، وهزَّ رأسه ضاحكًا وسخر منه، وفعل كل هذا ليدفع الكعب لقتله، ولكن المسخ كان باردا كالجليد وقال:

- لا تتعجل ستنال راحتك قبل منتصف الليل، لن أقتلك ولن آكل قلبك، قبل سنوات قتلت أتباعي المخلصين حتى لا يشاركونني في أكل قلب نيروز، كانت صغيرة حين وقعت عيناي عليها، ولم أرغب في شيء أكثر من اشتمام رائحتها والتهام قلبها، وحينما اقتربت منها لم ترتعب ولم تحاول الهرب، بل اندفعت وارتمت في أحضاني، وبعينيها الصغيرتين اقتلعتْ قلبي واعتصرته، وأشعرتني بألم لم تنجح الخناجر الأربعون ولا ما أتى بعدها في إحداثه، وقفت عاجزًا أمام وحشيتها وساديتها، لم ترحم عجزي بل تفننت في تعذيبي، وزينت عنقي بطوق من نار، وأخذت تجرني خلفها ليحرقني النور، وذلك الإحساس المَقيت، وصبرت حتى أجد سبيلا للخلاص منها، ليتني كنت قادرا على قتلها بنفسي! ولكني كنت في حاجة لأذهب إليها وأنظر في عينيها كلما انتزعت قلب أحد من صدره، معها كنت عالقا بين عالمين، وجئت أنت يا سيد مالت وحررتني من قيودي، أعدت إلى وسامتي وحجبت خيط النور الذي تفنن في تعذيبي لهذا لن أقتلك ولن آكل قلبك.

توقف عن الكلام وصمت والتفت نحوي ورماني بنظرة جليدية على أثرها تأرجحتْ ركبتاي وارتجفت وقال لي:

- لا تخف لن أقتلك أنت أيضا، لم يخدعني أحد كما فعلت يا عزيز، توقف عن الارتجاف سأمنحك فرصة لتعزز فيها لعنتك الخاصة، أنا لن آكل قلب مالت، ولكن ستفعل أنت، وبعدها سأمنحك حريتك لتختار بين مرافقتي أو الإسراع للفوز بالذهب.

فاطمة تتصتُ لما يقوله المسخ في صمت، ورمتني بنظرات مشمئزة وكأني وراء كل المصائب، وأنا لا أستوعب ما يدور حولي، وعندما بدأت أصحو من الصدمات التي وقعت فوق رأسي مرة واحدة، رمى الكعب الخنجر عند قدمي وقال:

- هيا اقطع أذن مالت وتذوقها.

وقبل أن أفكر في الاقتراب منه، قفزت فاطمة إلى الخنجر لتلتقطه ولكن قبضة الكعب كانت إلى رأسها أسرع فأفقدتها الوعي، ترددتُ وارتجفتُ قبل أن ألتقط الخنجر واقترب مني الملط لأقطع أذنه، وبعد ما فعله بحبيبتي ما كنت لأشعر بالشفقة تجاهه، وسألته: هل وضعت الأفعى في فراش نيروز يا ملط؟ وكان جوابه كمن تغوط على رأسي؛ أخبرني أنه فعلها غيرة عليّ منها، وهمس لي:

- أرجوك عزيز اغرس الخنجر في قلبي ولا تتمهل.

لم أمتلك الشجاعة لأحرك ذراعي وغضب الكعب والتقط الخنجر وقطع أذن الملط وأمرني بأكلها...صراخه المدوي رافق أذنه إلى فمي، حاولت قضمها وكانت قاسية، وتقيأت على الفور، وإصرار الكعب دفعني للمحاولة مرات حتى قضمت القليل منها، وهنا أمسك ذراعي الملط وشدهما إلى الخلف وأمرني بشق صدره، وإخراج قلبه وأكله وبعدها أنال حريتي وأخرج من دائرة الموت وأذهب إلى حيث أشاء، وماذا يمكنني فعله وبين حياتي وموتي يقف قلب هذا المخنث! أغمضت عيني حتى لا تلاقي عينيه، وغرست الخنجر بنعومة في صدره ولكمني الكعب على رأسي وصرخ بي:

- افتح عينيك وإلا سأفقأهما، وأتركك حيًا لتتذوق حرمان النور.

أصرخ مثل جعر الكعب، وأشق صدر الملط، وأخرج القلب، وأقضم منه قضمة، وأتقيأها على الفور، فحرك المسخ رأسه غير راضيًا وقال:

- لتكتمل لعنتك يجب أن تأكل، هيا افعلها وانجُ بحياتك.

قضمت وابتلعت وانتابني خوف شديد وأغمي علي، وحين صحوت رأيت الكعب قد ثبت فاطمة وبدأ يمزق ملابسها، وتلاقت عيناي بعينيها فهربت مسرعا، لم أخطُ إلى الخارج عدة خطوات حتى رأيت البندقية حيث ألقاها المسخ كاره الأسلحة النارية، وأمثالي لن يقوموا بعملٍ شجاعٍ أبدًا...أصداء كلمات فاطمة تتردد في رأسي:

- تخيَّل أنَّ لك أختًا.

أفقدتني رشدي، فحملت البندقية وعدت لأصوبها إلى عنق المسخ الذي رمى جسده القذر فوق فاطمة، وأطلقت نحوه رصاصة فالتفت إلي ورأيت عينيه الشيطانية، فألقيت البندقية وأطلقت ساقي للريح لتعجز فرس سباق أصيلة عن اللحاق بي، ساعات من الركض بلا اتجاه أو هدف.

فقدت الشعور بالزمن واشتد بي العطش، وجسدي ما عاد قادرا على حملي، وارتميت على الأرض وطافت أصوات الأعداء حولي؛ أفاعٍ، عقارب، ضباع، ذئاب، وكلاب ضارية، وكان العطش عدوي الأكبر، وأيقنت أني هالك، والموت في انتظاري والذهب ما عاد قادرا أن يحييني بقطرة ماء، فاختصرت الطريق وأنذرته كله دفعة واحدة إن أمطرت السماء، وأمطرت بغزارة وفتحت كفي لأجمع قطرات الحياة، ولم يعلق بها سوى الغبار، فأيقنت أني واهم، زحفت واستلقيت بجوار صخرة وكانت أعظم أمنياتي أن يرسل الله لي أفعى سامة تمنحني قبلة الراحة وتنهي عذابي، وبكيت وتوسلت:

- ارحمني يا رب ارحمني، وعجل بأجلي! ما عدت قادرا على شيء.

وجاءني عبد القادر وقدَّم لي حليب الأتان وشربت ولم أرتوِ، وجاءني سلامة وسالم وقدما لي الماء ولم أرتو، وصب نعمة الماء من قربته في حلقي، وشعرت بأن الذهب الذي أخفاه فيها تدحرج واستقر في جوفي، واقتربت نعناعتي ومعها بيبرس وسألاني إن كنت أرغب في بول الجمال...زاروني الواحد تلو الآخر ولم أرتوِ، وحين اقترب مني طبيلة، أدهشني بقوله:

- عزيز.

وابتسمت له:

- لقد عاد النطق سليمًا يا حبيبي.

فضحك:

- هوووو ههھي هوو...لماذا لم ترو عطشك يا عزيز، أعلم أن كل هؤلاء لن يفلحوا في ريك...لا تخف لم يحن أجلك بعد والذهب في انتظارك.

وعدني أن يسرع ويعود مع الماء، أفتح عيني وأغمضها وما عدت أميز الواقع من الوهم، وشعرت بأن يدا ضخمة تلامس جبيني، فتحت عيني ورأيت طبيلة ومن خلفه الشمس، وقال:

- تعال معي لأدلك على الماء.

زحفت على بطني خلفه حتى بلغت حفرةً ملآنةً بالماء، غرفت منها وشربتُ، وكدت أختنق بعدما ملأت فمي بالتراب، فاستسلمت للموت، ومن بعيد رأيت طيفا يركض نحوي، لم يشبه أحدًا من رفاق قافلتي، جثا على ركبتيه ورفع رأسي وأخذ يغسل فمي بالماء، وبأصابعه يخرج التراب، وأنا أجاهد أن أبلع قطرة واحدة، حاول منعي ولكن الماء تسرب إلى معدتي، كان طعمه حامضا طينيا، أرعش جسدي، فاستدرت وأخذت أتقيأ، حتى كادت الروح تفارقني، ثم أمسكت بقربة الماء التي مدها لي الطيف، وشربت حتى ارتويت، وعادت إليّ الحياة، وبدأت أراه.

كان أسمرا نحيلا يرتدي ثوبا باليًا يطوق وسطه حزام يتوسطه خنجر غير معقوف النصل، ولم يتوقف عن ترديد:

- (على مهلك يا الأخو).

وحينما تأكدت أنني شربت ماء حقيقيًا بكيت وحمدت الله، ثم أقسمت أن أفي بنذري، وأتنازل عن كل الذهب، ولا أترك لي إلا جرة واحدة كبيرة، سألت العربي عن طعام ولم يكن يحمل معه شيئا، ورد علي:

- (اصبر يا الأخو).

تركني وغاب لبضع الوقت وأتاني بحمار، وساعدني لأمتطيه وسار بي، فُطِرتُ على كراهية العرب وكُتبت لي النجاة على يد عربي، حضنت عنق الحمار بما تبقى من قوة جسدي، وشكرت طبيلة، فلولاه لما زحفت خلفه مبتعدا عن الصخور، ولما تمكن العربي من رؤيتي، أعلم أنه لا وجود للأشباح، ولكن هذا الهذيان هو ما أبعدني عن الصخور لأقترب من طوق النجاة، لم تفلح ذاكرتي في احتساب الوقت حتى وصلنا خيمة العربي، اعتنى بي؛ أطعمني وأسقاني، وساعدني على الاغتسال، وقدم لي ثوبا وتركني أنام في فراشه، وبالرغم من نومي بين العرب لم أشعر بهذا الأمان من قبل، استيقظت في اليوم التالي لأكتشف أن الغرائب اجتمعت في الجمعة الأخيرة من تشرين الثاني.

كنت أعتقد أن المعجزة الوحيدة التي في حياتي هي الحفر في الجحر لدفن الذهب والعثور على الكنز الذي حوى عصمليات وأساور ذهبية اختفت لاحقا مع حقائبي، ولكني اليوم أواجه مصادفات أغرب من الخيال، الرجل الذي أنقذني من الهلاك اسمه عبد القادر، وهذا الاسم وصاحبه محببان على قلبي، كان راعيا فقيرا له ولدان وابنة صغيرة، يرعى قطيعا من الأغنام لأحد العرب، وقد اعترف لي اليوم بأنه ارتكب أكبر حماقة في حياته حينما تبع آثار نعجه فقدها بالأمس، وترك القطيع في عهدة ولديه الصغار، الذين لا يقويان على حماية أنفسهما، والحمار الذي امتطاه سار به بعيدا، ولم يشعر بأن الطريق أخذته من الفجر حتى الظهيرة وأوصلته إلى وادي رم، وحينما شعر بأن عليه أن يسرع بالعودة، ولام نفسه على ما فعل عزم على محاولة أخيرة، واعتلى الصخور باحثًا عن نعجته الشاردة، وأقسم الأيمان أنه هيئ له رؤية رجل عملاق، وحين فرك عينيه رآني أزحف على الأرض، وأسرع لإنقاذي واختتم حديثه:

- سبحان رب العباد! أرسلني الله كل هذه المسافة لأنقذك ولو أخبرني أحدهم أن هناك رجلا يترك أبناءه الصغار وقطيع أغنام في مطاردة نعجة وصولا إلى وادي رم لقلت أن مسا من الجنون قد أصابه، وسبحان الله لقد عادت النعجة وحدها إلى القطيع!

ومع غرائب الأمس لا عجب أن يقودني العربي اليوم إلى مكان انزوي فيه لقضاء حاجة لأجد نفسي مقرفصًا أمام أحد نقوش أبي إيليا، وأن الخيمة التي نصبها العربي كانت فوق إحدى جرار الذهب التي دفنتها مُسبقًا، ولا تبعد عن مكان نومي نصف متر، ولكن ما أدهشني حقًا أن

هذا العربي الأحمق ألبسني الثوب الوحيد الذي يملكه، وأطعمني أكثر مما يملك، ونام مع زوجته وأولاده في العراء ليفسح مكان نومي، والطريقة الحماسية التي يروي بها قصته في إنقاذي أشعرتني أنه وجد كنزا عظيما، وتساءلت:

- هل نكره العرب لأنهم حمقى؟ أم لأنهم أفضل منا ويوما ما سيحكموننا؟ اللعنة! هل يوجد بشر بهذه السذاجة! لو كنت في مكانه ومررت برجل يحتضر ربما كنت سأعطيه بعض الماء إن كان لدي فائض، وما كنت لأهدر وقتي عليه!

وهنا تأثرت حقًا وعزمتُ على أن أرد له صنيعه، ومع فجر اليوم التالي حفرتُ وأخرجت من الجرة مئة قطعة من الذهب، لففتها بقطعة قماش وأخفيتها في ملابسي الداخلية، وتركت في جيبي واحدة، ثم أعدت دفن الجرة وطمست كل أثر، وعندما جاءني بالحليب، أخرجت من جيبي قطعة الذهب لأكافئه بها، ولمَّا رآها تلمع في كفي وقف على قدميه كمن لسعته أفعى وقال:

- (رد مالك لجيبك).

للوهلة الأولى اعتقدتُ أنه رأى في القطعة الواحدة مبلغًا زهيدًا لا يساوي جهده في إنقاذي، ولكن سرعان ما فهمت أنه شعر بالإهانة لعرضي عليه المال مقابل مساعدته لي، كلماته كانت متسارعة، لم أفهم معظمها، ولكني أيقنتُ أن هذا الرجل من أعظم الرجال الذين قابلتهم في رحلتي هذه، وطلبت منه أن يشتري لي حصانا ليساعدني في الوصول إلى سوريا، فقال:

- أنت أسيري اليوم ولن أسمح لك بالمغادرة.

كلمة أسير لم ترق لي، وعقلي المعبأ بكره العرب صور الأمر على غير قصده، حتى فسر أن أبا محمود الذي لا أعرف مَنْ يكون أصرَّ أن يحضر الطعام اليوم، وأسير تعني أن الضيف أسير المضيف، وجاء أبو محمود هذا وبرفقته عدد من الرجال، ومعهم طعام الغداء من لحوم وأرز، ورحبوا بي، ومنهم علمت أن قصة الرجل التركي الذي تاه في الوادي وشرب التراب انتشرت وتداولتها الألسنة، وأنهم جميعا يتسابقون على دعوتي ولقائي، وسماع قصتي، وأثاروا

جنوني بتسابقهم على نوال الشرف غدا بدعوتي إلى الغداء، ولم ينتظر أحد منهم موافقتي، وكما ردد مضيفي عبد القادر:

- (الضيف أسير المحلي).

أي لا يجوز لي الاعتراض، اللعنة على هؤلاء العرب! هل هم مجانين ليهدروا طعامهم على غريب لا نفع منه، واغتنمتُ الفرصة وأكلت حتى شبعت وكنت بارعا في صيد قطع اللحم الخلية من الدهن، وبعدما انتهينا ما كنت لأمانع لو أن هؤلاء العرب يأتون لي بحصان أمتطيه عملا بحماقة إكرام الضيف، عندها ما كنت لأتردد في الابتعاد عنهم سريعًا.

من داخل الخيمة رأيت أربعة خيالة قادمين نحونا، ووقف الجميع للترحيب بهم، فوقفت أيضا، كان أحدهم ملتحٍ، وعرفته على الفور، دقَّ قلبي لأنني أمام معجزة حقيقية، حيان اللعين حي يرزق، ترجل عن حصانه وحينما رآني ضحك، وأنا لم أتمالك نفسي من البكاء، ولكني خفت أن اقترب منه حتى اقترب وحضنني وقال:

- عزيز الملعون، كم روح تملك؟ وكيف نجوت من المخيم؟ حدثني قلبي أنك التركي الذي وجدوه في الوادي بين الحياة والموت، لهذا جئنا لنتأكد.

وأحد الرجال الأكبر سنا لكزه ليصمت، فجلس وتجنب الخوض في الحديث عن المخيم وصبَّ اهتمامه على الاستماع للقصص الفارغة التي يرويها العرب عن معجزة نجاتي من الموت، وبعد ذلك غمز بطرف عينيه لأحد العرب الذين كانوا معه وتمكن من إقناع مضيفي بأن يصحبونني معهم، ولم أشعر بالراحة لمرافقة عرب مسلحين ولكن وجود حيان طمأنني، امتطيت الحصان خلفه وفي الطريق سألته عما يقصد بنجاتي من المخيم، فأخبرني بأنه عاد وتسلل إلى المخيم قبل أيام وتفاجأ ورفاقه بوجود الكثير من الجثث التي لم تُدفن، ومنهم خدم فاطمة، وحين سألته عن سالم أشاح ببصره عني وقال:

- لابد أنه عاد لأهله بحوران.

ولم يكن جوابه مقنعا، وحاولت أن أستوضح كيفية نجاته من البئر، فرفض إخباري، وتحايلت بكل الطرق، ولكنه أكثر الناس معرفةً بكيفية تعذيبي والانتقام مني؛ تركني لفضولي، وسألته عن رباب فضحك بأعلى صوته وقال:

- لقد وعدت روهان بيك أن أعيدك إلى تركيا سالما ولكني أشك أني قادر على حمايتك من رباب، ستقتلك لقد أقسمت على ذلك.

ملامح وجهه أوحت لي بانه جاد في قوله، ولم أستبعد الأمر، فهذه المصرية مجنونة ولن تتردد في قتلي دون سبب، فكيف بعدما حدث مؤخرا، قطعنا مسافة عدة كيلو مترات، ثم توقفنا، ودقائق وأطل علينا ثلاثة من العرب ومعهم حصان بلا خيال، وقال لي حيان:

- الآن ستمتطي حصانك.

وفاجأني عندما طلب منهم تقييد ذراعي وساقي بسلسلة حملوها معهم، فسألته:

- لماذا تفعل ذلك؟

فضحك وقال:

- لا تخف يا عزيز ستصل إسطنبول بسلام ولأن تصرفاتك تستعصي على التوقع فلن أغامر بهربك، وعند الانتهاء من مهمتنا سأحافظ على وعدي وأعيدك إلى تركيا سالما.

وسألته:

- ما دخلي أنا بمهمتكم؟
- أنت خارطة كل الذهب المنهوب، وكلما أسرعت في إرشادنا إليه كلما اقتربت من تركيا.

لم أجرؤ على سؤاله إن كان قد عزم على بيعنا للعرب، هذا الحقير خائن أصله وشرفه ولن يتوانَ عن قتلي، أنا أستحق ما يحدث لي، فلو التزمت الصمت ولم أخبر الحقيرة رباب بالحقيقة لمات في البئر...أتخيلها ذهبت إلى البئر وأحدثت شقًا في الطين ليتنفس، ولابد أنها

استنجدت بالرعاة أو أقاربه العرب لإنقاذه، لا طريقة أخرى؛ فالصخرة تحتاج الكثير من الرجال لإزاحتها.

وطوال الطريق أمطرت الخائن بمئات الأسئلة ولكنه امتنع عن الإجابة وأخبرني أننا عائدون إلى أقاربه لقضاء الليلة، وغدا سننطلق فجرا لإخراج الذهب، وسيكون أمامنا الكثير من الوقت لنتحدث معا في كل شيء، لم يسألني عن فاطمة ولا عن مصيرها، وكان لابد من استعراض بطولاتي وإخباره بأني قتلت الكعب لإنقاذها، فضحك وقال:

- لن تخدعني يا عزيز، لابد أن تكون فاطمة الآن في اليونان.

أقسمت له أنني تركتها في مغارة بالوادي، ورويت له كل ما حدث في غيابه بدايةً من موت نيروز إلى اللحظة الأخيرة التي قتلت فيها الكعب، ولأني شهم اضطررت إلى الذهاب والبحث عن الماء من أجل عشيقته، ولكني تُهت في طريقي ووجدني الراعي.

لم يصدق الكثير مما رويته، ولكن مع تكرار القصة، دخل في حالة من التوتر وعزم على الرجوع إلى الوادي، وأقسم أن يقتلني إن اكتشف كذبي، وما كان من رفاقه ليتركوه يعود وحيدا، ورافقه اثنان منهم ولحق بهم صبي في الخامسة عشر من عمره، فطردوه وانطلقوا مسرعين يجروني خلفهم، ولم يمر وقت حتى تبين أن الصبي مازال في ملاحقتهم فاضطروا إلى السماح له بمرافقتهم... بلغنا أطراف الوادي قبيل الغروب، ولم أستطع أن أصف لهم الطريق لأنهم قادونا عبر اتجاه آخر، وهنا تدخل أكبرهم سنا وطلب أن أصف له الطريق التي أوصلتنا إلى الوادي، ولم يكن ذلك صعبًا، واستطاع تحديد الاتجاه الصحيح، وعند اقترابنا من أول الطريق وبدأ يقص الآثار تجهَّم وجهه وقال لحيان:

- (يا خال، الوادي ملغوم عسكر).

وترك حيان له حرية القرار في التراجع أو التقدم، ولكن أحد الرجال أصر على المضي وأقنعوا الفتى بأن يحمل بندقيته ويختبئ بين الصخور ليحرس لهم طريق العودة، ولم يخفَ عليَّ أنهم فعلوا ذلك لإبعاده عن مخاطر مواجهة محتملة، وسرنا نتتبع الآثار ونتجنب الطرق التي سلكها الجنود، فقال لي حيان:

- هل تريد أن أدهشك بخبر؟
- لم يتبقَ شيء ليدهشني؛ فكل شيء مدهش.
- لقد عرفنا أهل الولد الذي أخرجته من بين الصخور في المخيم.

أدهشني عندما أخبرني أن يعقوب لم يقتله، وأن أحد الرعاة وجده هائما على وجهه في البراري، فقلت:

- ربما هو ولد آخر.

فأخبرني أنه رآه بنفسه وتأكد من ذلك، وأنه قد اختُطف قبل أشهر انتقاما من أبيه.

انتصف الليل ونحن نسير بحذر شديد، ولم أتوقف عن الابتسام؛ نجوت من الموت لأكون عبدًا مقيدًا بسلسلة في خدمة العرب قطاع الطرق ومعهم التركي الخائن.

أشار الأكبر سنا إلينا فترجلنا عن الخيول وأخفوها، وكمن الجميع خلف الصخور في انتظار ما لا أعرف...فيما مضى كان خيالي مرتعًا لتطاردني أرواح الموتى، ولكني أراها بعينيّ هذه الليلة، لقد كان الكعب اللعين يسير عكس طريقنا، وعرفه حيان سريعا وصوبوا بنادقهم نحوه، وركع على الأرض ملك الـ"قاقا باقا"، لا يبدو أن الرصاصة قتلته وعفاريته مجتمعة لم تساعده على فك سلاسل قيده، وفضحه صوتها ولفت انتباه العرب، طوال الطريق كان حيان يشكك في روايتي والآن أيقن بأني لم أكذب في شيء، ما كان ليصدق أنني قادر على قتل أحد، وما كنت قادرا على إقناع أحد بأني قتلته حقًا، وما ذنبي إن كان لا يدركه الموت!

حيان يصرخ مخاطبًا الكعب:

- أين فاطمة؟ أين هي؟ ماذا فعلت بها؟

ضحك وقال:

- اسألوا عزيزًا.

واشتد غضب حيان، وأخذ يضرب وجه الكعب ويركله حتى سال الدم، ولم يتوقف المسخ عن الضحك وترديد:

- اسألوا عزيزًا.

يأس حيان فصوب بندقيته نحو رأسه، ولكن العربي أمسك يده وأخبره بأن صوت الرصاص سيجلب المتاعب، فقال:

- (إنه شيطان يا خال).

فأخرج العربي خنجره وقال لحيان:

- دعني اقتله إن كان يستحق الموت.

وهنا رفع الكعب رأسه وقال:

- استحلفكم بكل ما هو غال أن تتركوا عزيزًا يقتلني بيده، فلا يقتل الملعون إلا ملعون مثله.

نظر العربي وعيناه تسألان:

- هل تجرؤ أن تفعلها؟

ولم يكن هناك داعيا لأجيبه بعد انفلات رصاصة من بندقية حيان لتفجر رأس الكعب، وهذا لم يرق للعربي، واستفزني أنه لم يصبر ليسمع جوابي، ربما لأنه يعرف أني أجبن من أن أفعلها يوما، وقرر الحمقى ألا يتركوه بلا دفن، وتساءلت:

- ألا يجب أن نحرقه حتى لا يعود للحياة مرة أخرى؟!

وانطلقنا مسرعين ولم يمض وقت حتى أرشدتهم إلى مكان الكهف، وسبقنا حيان إليه وحينما وصلنا وجدناه يحضن فاطمة ويبكي كالأطفال، وأخذ العربي يهدئه ويردد:

- (الله يرحمها هيا يا خال هيا ندفنهم ونعود بسرعة).

تركها حيان ووقف وليته لم يفعل لأرى ما يستحيل على عقلي إدراكه، لم يشق الكعب صدرها ولم يخرج قلبها، ولم تكن مصابة بخدش ظاهر، وكان واضحا أنها نزفت حتى الموت من جراء إصابة في صدرها، وتساءلت وسألت حيان:

- كيف قتلها الكعب؟
- لقد أطلق رصاصة على قلبها.

تركت أسناني تعض على لساني لتمنعه من النطق بما قد يقودني إلى التهلكة، الكعب لم يستمتع بقتلها كما يشتهي، لأن هناك مَنْ سبقه وسرق حياتها، ولا حاجة لأستعرض ذاكرتي لأحدد قاتلها، كان واضحًا أن الرصاصة التي أطلقتها قد أخطأت الهدف واستقرت في صدر فاطمة، أو أنها اخترقت جسد اللعين وأصابتها، ولم يكن صعبًا أن أريح ضميري، فأنا لم أقصد إلا مساعدتها، وربما شاء القدر أن يريحها من عذابها، لو لم أحمل البندقية وأعد لإنقاذها، لاغتصبها المسخ وأكل قلبها وهي حية تراقب، يجب أن تشكرني، وألا تتحول إلى كابوس يطاردني كل ليلة قبل نومي.

لم أتوقف عن هذياني وأيقنت بأن بقائي دقيقة واحدة في هذه المغارة سيدفعني إلى الجنون، حفروا في زاوية لدفنها وحين حملها حيان انتبهت إلى أن فاطمة حرصتْ على أن تحمل معها مذكرات روهان أكثر من حرصها على حمل الماء، ولم أستطع الاعتراض عندما قرر الخائن أن يدفن المذكرات معها، وتساءلت: أين يمكن أن يكون الحجر الأحمر؟

أشرقت الشمس وانتهينا من دفنها –رحمها الله– ودفنا الملط بجوارها –لعنة الله عليه– ومصيره أن ينعم بدفء نار الجحيم، ويقابل الكثير من أمثاله هناك، أمَّا أنا فسأحرص على إصلاح نفسي قبل فوات الأوان لأنجو من جهنم، إنه لعذاب آخر أن أسكن جهنم وألتقي بكل هؤلاء القتلة ثانيةً.

استعددنا للانطلاق في رحلة العودة، وامتطوا الخيول وساعدني أحدهم على امتطاء فرس، لم نبتعد أمتارا واكتشف العربي أن الجند يحاصروننا من كافة الاتجاهات، وتنازلنا عن الخيول ولم يكن هناك مكان نلوذ به سوى المغارة، وعدنا إلى الأعلى واستعدوا للاشتباك، ومرَّتْ ساعة دون أن تطلق رصاصة سوى أصوات تطالبنا برفع أيدينا والخروج جميعا من المغارة، وحين التفت إليَّ رفاقي بالسلاح أيقنت أنهم لن يستجيبوا لنداء الاستسلام، ولا يبدو أن المحاصِرين على عجلةٍ من أمرهم، وتشاور رفاقي في الأمر وحاولت النصح بالموافقة على تسليم أنفسنا لنعيش ليوم آخر، ولم يحترم أحد قولي.

وما كان مني إلا أن أغافلهم وأحمل سلسلتي وبسرعة مَنْ يذهب إلى نجاته أو موته قفزت من المغارة وألقيت نفسي على التراب، أتدحرج وأصرخ بأعلى صوتي، وبلغة تركية:

- أنا تركي...أنا تركي.

عدةُ رصاصاتٍ تسابقتْ للوصول إليَّ واحدة منها اخترقت فخذي الأيمن، لم أشعر بألم، رفعتُ يدي عاليًا:

- أنا تركي...أنا تركي.

والتقفني أحد المسلحين وجرَّني فوقَ الحجارةِ والصخورِ وألقى بي وسط أكثر من أربعة مسلحين يصوبون بنادقهم نحوي:

- أنا تركي...تركي.

وقفَ فوقَ رأسِي رجلٌ قصيرٌ ممتلئ ذو شارب كبير، وعلمت أنه قائدهم، واستجمعت كل دهاء اكتسبته من هذه الرحلة الملعونة وأخذت أردد الكثير من أسماء الباشوات وزوجاتهم، وأبنائهم، وعلاقتي بهم، وحين سألني عن اسمي تقمَّصت شخصيةَ ابن باشا كان أحد أصدقاء روهان، ولا علاقة له بالسياسة ليكرهه أحد، وادعيت أني كنت في زيارة للبتراء واختطفني الأوغاد العرب، والسلسلة التي قيدوني بها ساعدتني في إقناعهم بروايتي.

وسألني عن عددهم وما يحملونه من ذخيرة، وسبب وجودهم في هذا المكان، وأخبرته بالعدد وما يحملونه من ذخائر، وأني أجهل اختيارهم لهذا المكان، أشار إليَّ جندي ورافقني إلى خلف الصخور، وهناك رأيتُ ستةً من الرجالِ المصابين، وأحدُهم يحتضر، وبالقرب مِنهم رأيتُ نجمةً وفرسي عديد وكيمو، وبقيةُ الدوابِ المحمَّلة بأغراضِ فاطمة، وشد انتباهي شوال خيش مخضَّبٌ بالدماء مربوط على أَحَد الأحصنة، اقشعر بدني ولم يخطر ببالي سوى أن فيه رأسي عديد وكيمو، وهكذا ما عاد هناك شك في أنني ضيف ناجي خان ورجاله.

جلستُ بالقرب من المصابين وكانت إصابتي أخف، فالرصاصة التي اخترقت فخذي آلمتني ولكنها، كانت كالسدادة فأغلقتْ الجُرحَ ولم أنزفْ إلا القليل من الدِّماء، ومرَّت ساعة ولم تُطلق رصاصة، كان واضحا أن كلا الطرفين يسعى للحفاظ على ما يملك من ذخيرة، أو أن

أمرا أجهله يدور في الخفاء، مع انشغال الجميع عني تساءلت: إن كنتُ نجوت كل هذه المرات من الموت فقد كتَبَ الله لي الثَّراءُ، ولم يحنْ أجلي بعد، ولا ينبغي أن أنتظر حتى يكتشفوا كَذبِي ويقتلوني.

وكانت فرصة لأبحث في أغراض فاطمة عن الحجر الأحمر، ولكني فضَّلت أن أرفع السلسة حتى لا تصدر صوتًا، وتسللت إلى نجمة وامتطيتها بصعوبة وانسحبت بهدوء ولم يلاحظني أحد وما هي إلا دقائق حتى استعادت ذاكرتي الطريق وانطلقت بسرعة خيال متمرس.

وبالطريق عرجت على المكان الذي تركنا فيه الفتى ليساعدني بفك القيد، ولكنه صوب بندقيته نحوي وبدأ يحقق في كيفية هربي، فأخبرته ألا يهدر الوقت ويعود إلى أقاربه ليطلب النجدة لإنقاذ المحاصرين في المغارة، لم يصدقني وأجبرني على أن أرافقه تحت تهديد السلاح.

رافقته وكانت فرصة لأسئلتي عن أفضل الطرق الموصلة إلى حلب، وبعدما أسهب في توضيحه سألته عن رفاق حيان، فأخبرني أنه شقيق أحدهم، وحين سألته عن المصرية، وأين هي، رد ببلاهة وقال:

- (خالتي رباب بتعيش عند أمي).

مللت حديثه بعدما أشبعت فضولي بما أحتاج، لقد خدعت أعتى المجرمين ولم يكن صعبًا إقناع مثل هذا الصبي بأن حصانه يعزف وفرسي تغني، وانطلقت في طريقي وحاول أن يلاحقني وهيهات لحصانه الأجرب أن يجاري نجمة الأصيلة، وغربت الشمس واشتد بي العطش، وكان هدفي البحث عن راعٍ منفرد لأشتري منه طعاما وماء، ويساعدني على كسر السلسلة، وفي طريقي كان هناك الكثير من الرعاة مجتمعين، ولكني تجنبتهم حتى وصلت إلى راعٍ منفرد، أثار استغرابه القيد الذي ربط ساقي بذراعي، وقدم لي الماء وقطعة خبز وأسقاني حليبا، ولم ينخدع بلكنتي العربية، وسألني:

- وما الذي يفعله تركي مقيد بسلسلة في هذه البراري؟

فأخبرته بأني هارب من الجيش التركي وأنا صديق للثوار العرب، فسأل:

- ومن تعرف من العرب؟

فذكرت له اسم إحدى القبائل، فرد:

- (والنعم والنعم! هاي عشيرة مدمية قتلوا ولد عمي الله لا يوفقهم! انقلع من وجهي وروح عندهم يفكوا جنزيرك!)

ما أروع حظي! اسم العشيرة الوحيد الذي قفز على رأس لساني حولني إلى عدو لهذا الراعي الحقير، هممت بالانصراف ولكنه استوقفني وسأل:

- (إن ساعدتك ونزعت عنك قيودك ماذا ستعطيني بالمقابل بما إنك هارب من الدرك؟)
- سأعطيك عصملية.
- أراها أولاً.

وبحثت في جيبي عن القطعة التي كنت سأكفئ بها عبد القادر ولم أجدها، ولكن الصرة مازالت مثبتة في ملابسي الداخلية، أخرجت منها قطعة ليراها، وحين لمعت عيناه أدركت أني عدت لبلاهتي وتهوري، وما كان يجب أن أريه الذهب، فقال:

- سأفك قيدك ولن آخذ العصملية مقابل مساعدتي وإنما سأبيعك خروفًا حتى لا يعيبني الناس.

وأخرج خنجره ليفك قيدي، وبعد جهد فك قيد قدمي وانكسر نصل خنجره، وبقي القيد في معصمي، وشعر باليأس والتعب، ورماني بنظرة مريبة وقال:

- (هات العصملية ونقي الخروف اللي بتريده).

أعطيته إياها وعزمتُ علي تركه بسرعة إلا أنه أسرع وأمسك برسن نجمة وهددني بنصله المكسور وأقسم على طعني إن لم اشتر منه الخراف والنعاج، فعرضت عليه أن أعطيه عصملية ثانية ويحتفظ هو بقطيعه، ولكنه أغلق عقله على أن يبيعني القطيع كله، ونظرة سريعة إلى قطيعه؛ عشر نعاج وأربعة خراف وكبش، خمسة عشر عصملية لا تستحق أن اشتبك معه وأنا مصاب، ولكن طمعه دفعه ليحدد الأسعار على هواه؛ الخروف بعصملية والنعجة باثنتين والكبش بخمسة، لا وقت للمفاوضات على ثمن ما يرغمني على شرائه، وبعد تفكير قررت أن ابتعد عن راعي الشؤم هذا ودفعت له ما طلب، وبرقت عيناه وقال:

- يجب أن تشتري الحمار أيضا.

فأعطيته عصملية لأختصر الوقت إلا أنه اعترض قائلاً:

- هذا حمار قبرصي ثمنه مئة عصملية.

اللعنة عليه! كان بإمكاني أن اشتري ألف حمار وألف نعجة بالعصمليات التي معي، حاولت أن أسكته بنصف ما أحمل إلا أنه واصل تهديده، وكان أكثر شراسة، ولن يثنيه عن قتلي إلا سرقة ذهبي، وحفاظا على حياتي رضخت وأعطيته كل ما أملك، وقبل أن ينصرف قال:

- ((ما بدي العرب تقول إني ابن حرام، هذا الذهب ثمن الغنم والحمار خذهم حلال زلال عليك))

تركني وركض مبتعدا، ووجدت نفسي مع حمار أجرب وعشر نعاج وبضعة خراف وكبش، اللعنة على العرب! أحدهم أنقذ حياتي ولم يسعى لمكافأة، والآخر سرقني! ولولا خوفي وقلة الوقت لذبحت خروفًا وشويته، ولكن النجاة بحياتي أهم، ومع هذا كان لابد من إهدار بعض الوقت لتفريق النعاج وطردهن بعيدا، ليكن فريسه سهلة للضباع بعد غروب الشمس، ولا يتمكن هذا الراعي الحقير من العودة وجمعهن.

انطلقت هاربًا إلى حلب، فهناك سيسهل علي إيجاد من يخرج الرصاصة من فخذي، وكلما قطعت مسافة زاد شعوري بالأمان، ومع هذا تهت طريقي مرات واحتجت إلى النوم والراحة ولم أجرؤ على الاختباء بإحدى المغاور، اقتربت من بئر ماء حولها بعض من الشجر، ربطت نجمة وتسلقت إحداها وثبتُّ نفسي على أحد الفروع ليرتاح جسدي قليلا، ولم تمر ساعة حتى شعرتُ بألم في ساقي، يبدو أن جسدي كان بحاجة إلى الراحة ليتذكر أن عليه أن يتألم، وحينما أطل الشفق نزلت عن الشجرة، وبدأت فخذي تنزف، فقررت الرحيل، لم أفك رسن نجمة حتى وجدت حولي أربعة من العرب المسلحين جاءوا طلبا لماء البئر، كانوا لطفاء، وأخذتهم بي الشفقة لرؤية نزف الدماء وقيد معصمي، ولكنهم أكثروا من سؤالي، وبذلت جهدي لأختصر أجوبتي بأقل الكلمات، حتى لا تفضحني لكنتي العربية:

- صباح الخير.
- صباح الخير.
- (شو قصتك يا الاخو؟)
- الحمد لله.
- (شو هذا القيد).
- الحمد لله.
- (من أي عرب انت؟ وكيف انصبت).
- الحمد لله.
- (ونعم بالله شو اسمك انت؟)
- محمد.

ويبدو أن اختصاري لم يدرأ عني الشبهة، ولم أجد مفرًا من الرد على أسئلتهم، ولساني الأعوج كشف هويتي، وصرخَ أحدُهم:

- (تركي! يا هلا يا هلا...)

وتحول التعاطف غضبًا، وأصروا أن يعرفوا؛ من أسرني من العرب؟ وكيف هربت؟ ومن أين سرقت هذا الفرس الأصيلة؟ ولم أجد ما أقوله، واقترب مني أحدهم وعيناه تحدثت عن كراهيته الشديدة للأتراك وقال:

- (عيونك عيون سرخفي ابن حرام)

لعنت عيني وتساءلت: لماذا يشتبه فيهما العرب دوما! وصوب صاحب الأنف الأفطس سلاحه وهددني بالموت إن لم أخبره الحقيقة، وتوسلت إليه وأقسمت أني هارب من الجند أعدائهم وأعدائي، والرصاصة أصابتني أثناء هربي منهم، والحقد الذي يحمله هذا العربي لكل تركي كان أقوى من توسلاتي.

قبل 83 يوما، حين كنا برفقة القافلة الطعم خططت للهرب مع رشيد وروهان، وأوصاني حيان أن أبحث عن موسى الزعبي إذا تهت عن طريقي، وأيضا إن واجهت عربا مسلحين أن

أتلو على مسامعهم هذه الآية ربما تكون فيها نجاتي (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم)، وأمام هذا المأزق لم يكن أمامي إلا أن أجرب الطريقة وبأعلى صوتي تلوت على مسامعهم الآية الكريمة، ولكن رد العربي كان مخيبا للآمال فقال:

- نعرف أنكم مسلمين، وكان أخي من حفظة القرآن وربطتموه وجررتموه خلف خيولكم، ولم تفكوا وثاقه إلا بعدما لفظ آخر أنفاسه، أنتم أعداء الله، أنتم كفرة، والإسلام بريء منكم، واستغللتموه فقط لاستعبادنا.

وبالرغم من ردة فعله إلا أني لم أتوقف عن ترديد الآية فزاد غضبه، ولم يمنعه من إطلاق النار على رأسي إلا عربي آخر قدم نحونا وقال:

- أعد على مسامعي الآية التي تلوتها. فنطقتُ البسملة، وأعدت تلاوتها على مسامعه بصوت شجي، فقال:
- صدق الله العظيم.

وخاطب البقية:

- (يا زلام هذا صديق عالجوا جرحه وفكوا قيده وقدموا له الزاد).

وبالفعل تحول الحقد إلى احترام، ونزعوا السلسلة عن معصمي، ولم أكن بحاجة لأحلل السر خلف هذه الآية كان واضحا لي أن الآية شيفرة سرية يستخدمونها للتعارف وطلب المساعدة، وحيان الحقير باع نفسه للعرب منذ زمن بعيد، ولا حاجة للمزيد من الأدلة، سألوني الكثير من الأسئلة وأخبرتهم أني هارب وخلفي فرقة من الجيش تطاردني، بعد اكتشافهم بأني أساعد إخوتي الثوار العرب –حفظهم الله ونصرهم على أعدائهم– سرَّهم قولي وأبهج قلوبهم، فأنا تركي أؤمن بأن العرب أحق من الترك بالخلافة.

لعنتهم سرًا، وعزموا على إخراج الرصاصة وكي الجرح، أشعلوا نارا وغرسوا سكينا بفخذي؛ لإخراج الرصاصة، ويبدو أن خبرتهم بالطب تعادل حبي لهم، فغارت الرصاصة في جسدي، وأيقنت بأنهم اذا استمروا في محاولة إخراجها لن يزيدوني إلا سوءًا، فرجوتهم أن يوقفوا النزيف ويتركوها، وعندما أصل إلى حلب سأتدبر أمرها، وكي الجرح كان مؤلما، ولكني صبرت

للخلاص منهم، وعلى عجل رافقوني إلى أول الطريق، ونصحوني بالطرق التي يجيب أن أتجنبها، وعرضوا علي حمارا لأمتطيه حتى لا أثير الشبهات حولي، وقال أحدهم: هذه الفرس سيتردد صدى صهيلها من النهر إلى البحر، وستجذب إليك الأنظار، ووعدتهم أن أفعل ذلك لاحقا، كانوا كرماء معي وأعطوني ثلاث مجيديات، وطعاما وقربة ماء، وانطلقت في طريقي متجنبا العرب والأتراك.

وكانت رحلة العودة للبلاد شاقة؛ مرضٌ، ألم، إرهاق، جوعٌ، برد وضياع، وفي طريقي عرضت نجمة للبيع بأبخس الأثمان، وما كان أحد ليجرؤ على الاقتراب منها، ونصحني عربي بالذهاب إلى مصر وهناك فقط سأجد من يستفيد من نسلها ويحميها، ويا لسخرية القدر! نجمة التي لا تقدر بثمن لن يغامر أحد بدفع مجيدية ثمنًا لها، لديهم كل حق؛ فمثل هذه الفرس ستجر في إثرها جيوشا للبحث عنها، ولكنهم لا يعلمون أنه لم يتبق باحث عنها.

عزمتُ ألا أتخلى عنها إلا بعد وصولي، ومعا تدبرنا أمرنا وسطونا على المزارع لنأكل من خيراتها، وفي الطريق اعترض طريقي عربي وقال:

- (انتبه يا خوي الأتراك أولاد الحرام يسعون في أثر فرسك!)

كلماته ألقت الرعب في قلبي، فعرضت عليه استبدالها بحمارته وبعض الطعام، فوافق على الفور، وشعرت بالأسى وعزَّ عليَّ فراقها وأدمعت عيناي، وبعد عذاب طويل اشتممت رائحة إسطنبول بعد مئة يوم على فراقها، وتوهمت أن الكل يعرف قصتي ويسعى للقبض عليَّ، لم يكن هناك حاجة للتظاهر أو التخفي، فأنا لا أشبه عزيز أفندي الذي ارتحل عنها بثيابه النظيفة وربطة عنقه الفاخرة وحذائه اللامع، لست أكثر من متسول تغطيه القذارة ويعرج بجوار حمارة جرباء، ولكني رأيتُ ألا أعود البيت حتى يطمئن قلبي.

أنتقل من تكية إلى أخرى، ثلاثة أيام مرت قبل أن أرسل لأبي لملاقاتي سرا بعيدا عن الأعين، لقيته وقصصت عليه ما حدث معي فارتعب وفاقني رعبا، وتدبر نقلي إلى خالي في بورصة، وحرص على توفير ما يلزم لعلاجي، والطبيب الذي زارني أخبرني بأن الرصاصة استقرت وأن الجرح التئم عليها، وإخراجها قد يتسبب في نزيف يصعب السيطرة عليه، وأعطاني

أدوية غبية، وكنت على قناعة بأن هذا الطبيب اعتاد على علاج الدواب لا البشر، وصبرت على الألم في انتظار إخراج الذهب والسفر إلى ألمانيا لشراء مستشفى بأطبائه لعلاجي فقط.

والدي الفخور بابنه البطل واظب على زيارتي سرا كل أسبوع؛ للاستماع والاستمتاع بقصتي والقافلة؛ وأنا لم أفوت الفرصة وأبهجت قلبه بأن أخبرته بأني كنت أحد الثلاثة الذين قادوا القافلة، ولم يجرؤ أحد على مخاطبتي إلا بعزيز باشا، بالغت كثيرا في وصف مكانتي وشجاعتي، نبلي وأخلاقي، وكيف احترمني الجميع وعشقتني النساء، أما بقية التفاصيل فلم أكذب بشأنها، وخططنا معًا على اصطحاب شقيقي في الأسابيع القادمة لإخراج بعض جرار الذهب كخطوة أولى، غرق الطباخ ومعه شقيقي في أحلام الذهب، وقرر أن ينتظر حتى يطمئن ألا يبحث أحد عني، زار منزل روهان بيك مدعيًا سؤاله عني، فوجد نازلي هانم تعيش حالة من القلق حول الأسباب التي منعت زوجها من أن يبرق لها ليطمئنها على حاله، ثلاثة أشهر من الصبر أمضيتها مختبئا، ولم يتردد أبي في توفير كل ما أحتاج.

وصل الجراد بلاد الشام قبل أن أصل إلى ذهبي، ويصل الإنجليز إلى القدس، والدي الطباخ كان يطعم الباشوات وأذناه تحتسي السياسة على موائدهم، وأخبرني أن جمال باشا قد جمع كل طاقات الجيش وخاض حربا مشبوهة ضد الإنجليز، وأن الألمان لديهم شكوك في ولائه، ولمَّا لم ينجحوا في عزله فرضوا أن يكون بجواره ضباط ألمان مدَّعين مساعدته على قيادة الجيش، وربما هذا كان أحد الأسباب التي تسببت في فشل ما خطط له.

لم أشك لحظة بأننا سنخسر بلاد الشام يوما، ومع هذا كنت في عجلة من أمري لأخرج القليل من الذهب، وما كنت لأتمكن من هذا بمفردي وأنا لا أستطيع الزحف إلا بمساعدة عكاز، وبمعجزة استطعتُ أنا وشقيقي إقناع صاحب القرار، وضرب لنا موعدا للانطلاق جميعا في رحلة الثراء، وعندما حان الموعد ضرب لنا موعدا آخر، وبذلت جهدي في محاولة إقناعه بألا حاجة للحذر أكثر من ذلك، وأني قادر على امتطاء حصان لأدلهم، وللأسف كان الطباخ التعيس يجد متعته في أحلام الذهب والثراء دون السعي لتحقيقها، وبرع في قمع حماسي، وتفنن في إرعابي حتى خيل إليَّ أن جمال باشا فرَّغ الجيش الرابع بأكمله لاعتقال كل من سيحمل فأسا، ولو كان لزرع شجرة، وحينها أيقنت أني الشبل ابن ذاك الأسد، ومنه ورثت شجاعتي.

وبين عام وعام تغير وجه التاريخ، لم تسر الأمور كما خطط لها جمال باشا، وابتلع الألمان والأتراك خيانته لهم، وابتلع هو خيانة الإنجليز الذين وجدوا في العرب حليفًا أقوى منه، وبقي الذهب في انتظار عائلتي السعيدة، ولن يكون إلا بعد تحرير بلاد الشام، وغرق والدي في الخوف والذهب، ومات في فراشه، وبعده بثلاثة أشهر انطلقت عدة رصاصات أرمنية ثائرة لتزور صدر جمال باشا فتنهي حياته، والله وحده يعلم مَنْ كان وراء قتله، وما الأسرار التي أخذها معه إلى القبر.

شقيقي الأكبر الذي لم يكن يفارقني وبنينا القصور واستمتعنا بالثراء معا، قرر بعد موت والدنا أن يقطع كل علاقة تربطه بي، وكانت كلماته الأخيرة قبل اختفائه من حياتي:

- هذا الذهب ملعون وكل من يقترب منه أو منك ستُدمر حياته.

لم أتصور يوما أن يقسو علي شقيقي هكذا، ومع هذا عزمتُ على أن أخرج الذهب وأعطيه القليل ليصلح حياته؛ فقد خسر عمله وبيته وزوجته في انتظار الذهب، وماذا يمكن أن يحدث لأثرى أثرياء العالم وهو لا يستطيع السير بدون عكاز يسنده، وشبح الجوع اللعين لم يصبر حتى تحرير البلاد وعودتي لأخرج ذهبي، فلم يبقَ أمامي سوى الذهاب إلى شقيقتي وزوجها لأطلب مساعدتهما، والدي –رحمة الله عليه– لم يثق بالنساء لهذا لم يخبرها بالقصة، وخاب أملي سريعا عند اكتشافي أنها أشد فقرا مني، وعزمتُ أيضًا أن أهبها القليل من الذهب لاحقا، ومرت أيام لعينة سوداء اختبرت فيها كل أنواع الذل والجوع وحيدا بلا قريب أو صديق.

يسَّر الله لي جاري؛ صاحب المخبز، ووفر لي وظيفة في مخبزه تناسب إعاقتي ولا تليق بمكانتي الباشوية، وتوطدت علاقتي به، وكانت له ابنة جميلة ما كانت لتلتفت لأعرج فقير مثلي ولم تعرف أني أملك من الذهب ما يعادل وزنها وعائلتها وجيرانها مجتمعين، وبعد أقل من عام فاجأني الخباز وعرض عليّ أن يزوجني كريمته الفاضلة، لأنه يرى فيّ الرجل الشريف النزيه الأمين، ولم يخفَ عليّ الأسباب المشبوهة وراء هذه الصفقة، وما كنت لأفكر أو أتردد في عقدها؛ فهي ستوفر لي الاستقرار والقليل من المتعة لحين إخراج الذهب وبعد ذلك سأطلقها وأتزوج أربعة من النساء.

لم أندهش لعلمي بأني لست الأول ولا العاشر في حياتها، ولم أتوقع أنها بعد عام ستكون السبب الذي سيقودني لأشهد معجزة إلهية، وعشنا معًا بانسجام القط والفأر، كانت هي من تملك المخالب، وسمحت لي بأكل بعض الجبن أحيانا، ورزقنا الله بابنة تشبهها كثيرا، وأقنعت نفسي أنها تشبهني قليلا، وبعد عام تمردت زوجتي على رجل البيت والدها، وهربت الهانم مع عشيقها وهجرتنا جميعا، وعلى نار ما فعلت احترق عقل الخباز، أمَّا أنا فسأتذوق الجبن في مكان آخر.

لا ذنب للطفلة المسكينة، لهذا بذلت ما أستطيع لأكون أبا لطفلة لستُ على يقين أنها من صلبي.

وفي أحد الأيام جاءني الخباز وهمس في أذني بأنه توصل إلى المكان الذي تعيش فيه ابنته، وأوصاني بالاستعداد فجرا لمرافقته، لم يسرني الالتقاء بها مجددا، ورافقته على مضض لأني أعيش عالةً عليه، وكنت أعتقد أنه يخطط لإقناعها بالعودة لي ولطفلتها، ولكنه في الطريق همس في أذني بأن الكافرة تعاشر رجلاً في الحرام، وأنه اليوم سيساعدني لأسترد شرفي، لم أفهم في بادئ الأمر ما قصده بالاسترداد، ولكن بعدما قطعنا نصف الطريق إلى سلوكا أعطاني خنجرا حمله خصيصا لهذه المهمة، وفهمت أنه يريدني أن أقتلها.

تمالكت نفسي ولم أخلع حذائي لأمسح به الشرف الذي تربع على شاربه، هذا الخباز الأحدب لم يكتفِ بأن جعل مني جحشا لتمتطيه ابنته، وها هو يخطط لهلاكي، التزمت الصمت وأنا أتبعه من حي إلى آخر بحثا عن الشرف الذي جئنا لاسترداده.

وفي أحد الشوارع النظيفة سمعت صهيل فرس فدق قلبي وارتعشت وحينما التفت رأيت نجمة تقودها فتاة في الثالثة عشر من عمرها، وعلى الفور تركت الخباز وشرفه، وتبعتها حتى عبرتْ بوابة قصر لم أرَ مثيلا لفخامته، وأُغلقتْ البوابة خلفها، ومثل هذه الفخامة ليست بحاجة لاقتناء فرس مسروقة، وسألت عن صاحب البيت فأخبروني أنه قصر فهيمة هانم، لم أسمع الاسم من قبل ولكني شعرت بأنها ربما تكون أم جودت، وذاكرتي نبهتني بأن مسقط رأسه كان في سلوكا، وما كان لأمثالي أن تفتح لهم مثل تلك البوابة، ربما بعد أن أعود بالذهب يكون ذلك ممكنا، ومر وقت قبل أن يخرج أحد الخدم فتبعته، وبكلامي المعسول جذبته إلى شباكي وسألته عن الفرس وهل هي للمرحوم جودت أفندي، فرد الخادم:

- اسمها نجمة وجودت أفندي أطال الله عمره.

لم أشغل عقلي بكيفية عودة نجمة إلى قصر جودت، وقد قايضتها في طريقي إلى إسطنبول بحمارة عربي وبعض الطعام، وخمنت بأنهم يعتقدون أن جودت مازال حيا ويتأملون عودته يوما ما، ولمواصلة الحديث قلت:

- أعاده الله لأمه سالمًا.

فرد الخادم:

- فهيمة هانم رحمها الله ماتت قبل شهر.

أكثر من سؤال لم يشف غُلتي، وفاض صبري من أجوبته الرمادية، فسألته مباشرة عن جودت، وما قاله أذهلني، جودت أفندي حي يرزق، ويعيش حاليا في القصر، وحين أخبرني بأنه أصيب أثناء الحرب في ساقه وذراعه أيقنت أن المثقف الناعم حي يرزق، وارتعبتُ وتلاشت أحلامي الذهبية، وأخذت أواسي نفسي بأن هناك ذهب مدفون في قبر العبيد الثلاثة، وجرة كبيرة دفنها الكعب، وما سيترك في قبر سلامة، وهذا سيكفيني حاجتي إذا لم أتمكن من إخراج بقية الذهب، ولكن سرعان ما حملت أجوبة الخادم على أسئلتي ما سر قلبي، وكان لابد أن أجد طريقة لأتأكد من صحة قول الخادم وحينما استحال علي دخول القصر عُدت باحثًا عن الخباز الذي لم يجد أثرًا لشرفه، وفي طريق العودة للديار حدثت نفسي: هذا الخباز يستحق كل الخير لذا عند عودتي بالذهب سأشتري له الكثير من الشرف لأريح نفسه.

بعد سبعة أيام عدت إلى سلوكا لأتأكد مما رواه الخادم وراقبت القصر لساعات ورسمت خطة وما كان هناك حاجة لإهدار الوقت وكل ما تطلب مني هو الاقتراب من الأسوار وتسلق شجرة لأتمكن من إلقاء نظرة داخل الحديقة ولم يكن يسيرًا عليَّ بعكازي ولكني فعلت، وشعرت بالأسى عند مشاهدتي معاقًا يجلس على كرسي، راقبته لأكثر من ساعة وحينما جاءت خادمة لتطعمه بيدها لم أتمالك نفسي من البكاء وانصرفت على الفور.

سبحان الله! هو الوحيد الذي لم يطمع في الذهب سعى للموت بتناول السم وتردد في فعلته، وافترسته الضباع في الليلة نفسها، ونزف كل دمه، وقرر شكيب وكاظم حفر قبره، ومات

الاثنان ولم يمت، أكله العفن وفاحت رائحته، وحفرنا له قبره الثاني بالقرب من النهر، ولم نقوَ على قتله، فدفناه حيا، وفتح عينيه، وأخرجناه من القبر وعدنا به إلى المخيم بعدما تسببنا في كسر معظم عظامه، وشفاؤه فاق المستحيل، وأنا على ثقة بأن عديد لم يحرص على نقله أملا في شفائه، وإنما ليدفنه في مسقط رأسه، ومات أغلب من ترقب موته، وعاش جودت، وما شاء الله كان.

عدت إلى ابنتي ولم أشغل عقلي بالتفكير في كيفية نجاته لأتجنب وخز ضميري لتسببي في سقوطه عن الحمار أكثر من مرة، ومحاولتي دفنه حيا، ومر عام تلو عام ولم نستعد بلاد الشام، وبلغت ابنتي السادسة عشرة من عمرها ومازلت أعيش عالة على الخباز الذي أصر تزويجها قبل بلوغها السابعة عشر خشية أن يتكرر ما حدث مع والدتها؛ فتزوجت ابنتي من شاب لا يليق أن يكون صهر عزيز باشا، وتوفاها الله وهي تنجب ابنتها البكر، وموتها كان له أشد الأثر في نفسي، وعذبني ضميري كثيرا لأني لم أستطع تقبلها كابنتي.

أشرقت شمس لا تشبهها أي شمس، ولأول مرة في حياتي أحمل بين ذراعي ما هو أثمن من الذهب؛ حفيدتي التي استطاعت منذ شهرها الأول أن تدخل السرور حياتي، هذه الملاك استطاعت أن تسرق كل دقيقه من وقتي، وتشغلني عن التفكير في الذهب، كانت الحب الحقيقي الذي لم أعرفه يوما، لن يفسد الذهب ولن يضرني الانتظار عام آخر وعدتها أن أبني لها القصور وأجعلها ملكة، وكبرت على وعودي وقصص بطولاتي، لم تحلم بالذهب بل حلمت أن تكون عالمة آثار مثل روهان بيك، وفي العشرين من عمرها واجهتني بالحقيقة المرة:

- جدي أحبك كثيرا ولا أملُّ من قصصك، ولكني لستُ صغيرةً لأصدق قصة قافلة الذهب والموت هذه.

كلماتها حفزتني لأتلمس طريقي إلى الذهب، وجرة واحدة كبداية ستكفي حاجتنا، وتكون لها دليلا لتعرف أن جدها عزيز لم يختلق القصة، طردت خوفي وشققت طريقي إلى بلاد كانت يوما لنا، اخترت الأردن لأنها الأقرب، ووجدت مَنْ يساعدني ويرافقني، وادعيتُ أني أبحث عن قبر شقيق قتل أثناء الحرب، واطمأن قلبي واستبشرت خيرا والمواقع التي زرتها مازالت كما تركتها قبل خمسين عاما، الحفر وإخراج الذهب يحتاج إلى جهد ما عدت أملكه، ولم أثق بمرافقي، وبعد

أيام صادفني رجل تقي ورع فوجدت فيه ضالتي، وعاهدني وأقسم على كتاب الله ألا يخونني، كنت حكيما ولم أتهور، وكشفت له عن مكان جرة ذهب واحدة فقط،لأختبر صدقه وأمانته، رافقني وابنه فجرا، حفرا وأخرجا الجرة، ولمع الذهب وذاب العهد والشرف قبل شروق الشمس، تركاني في الخلاء ولم يرحما عجزي.

وما تمكنت من مغادرة تلك الجبال إلا بعدما ساعدني راعٍ وقدم لي حماره لأمتطيه ليعيد لي كل ذكريات القافلة، وعدت إلى بلادي ولم أيأس، وقررت أن أكون أكثر حرصا في المرة القادمة، سأحضر من يساعدني ولن أثق في العرب، ولن يضرني انتظار عام آخر وآخر...وها أنا أعيش عالة على حفيدتي، وأعلم في قرارة نفسي أنها تجاملني ولم تصدق قصتي، وكيف ألومها وانا أغرقتها بأكاذيب بطولاتي وهل كنت لأجرؤ على إخبار أحدٍ بحقيقتي.

حفيدتي وحبيبتي الوحيدة هي ذهبي وثرائي، لم تفوت فرصة إلا وطلبت أن أكتب قصة القافلة، كانت تقول بصوتها الملائكي:

- جدي لماذا لا تكتب هذه القصة العجيبة؟

وكنت أرد عليها:

- حين تصدقينني سأكتبها.

فتقول:

- أنا لم أشكك في حقيقة قافلة الذهب والكنوز وقصتك معها، والكثير من التفاصيل التي رويتها لي كان بإمكاني التأكد منها، واعذرني إن كنت أشعر بالكثير من المبالغة في وصف الأحداث.

وسألتها:

- أين شعرتِ بأني بالغت؟

رمتني بنظرة ملائكية ووثبت إلي وعانقتني، وجلست بأحضاني، وهمستْ في أذني:

- أنت أوسم وأشجع رجل في الوجود، ولكن لا يعقل أنك واجهت قطاع الطرق وحدك، صفعت يعقوب وشكيب وناجي خان وقتلت المارد طبرق لتنقذ خادمك حيان، وأنك صارعت الضباع لتنقذ جودت، والحسناوات الثلاث رباب وفاطمة ونيروز تصارعن للفوز بقلبك، جدي تواضع قليلا أرجوك.

سرقت عقلي هذه الصغيرة ووعدتها أن أكتب القصة الحقيقية بلا زيف، أمسكت القلم وأخذت الكلمات تتسابق لتصف بطولاتي ومكانتي الباشوية، ومعها تراءى لي طيف روهان بيك وهمس لي: يا عزيز أفندي، هل بقي ما عشت لهوفًا خائفًا عليه ؟! انظر إلى جسدك السقيم، تأمل فيما صنعه بك الزمان، كن شجاعا لمرة واحدة في حياتك واعترف بحقيقتك، هل تعتقد أن أحدا يأبه بوجودك ليبذل جهدا ويبصق عليك؟! أنت نكرة نكراء، كن شجاعا لمرة واحدة واحكِ القصة الحقيقية لقافلة الموت، كن رجلا وجابه العار الذي رافقك طيلة حياتك، أتحتمل أن تعيش ما تبقَّى منك هاربًا من شبحك القديم؟ ستترك هذا العالم قريبا، وحينها ربما سيقول أحدهم: إن عزيزًا كان شجاعا وصادقا، ولم يرضَ أن يكون مُزوِّرًا ليكون بطلا.

تعرى من أوهامك، لقد ازدحم عالمنا بأبطال يرتعدون خوفا من أن تنكشف أكاذيبهم، كن شجاعا وتعرى من كل شيء واترك حفيدتك تتحدى العالم إن كان هناك مَنْ يجرؤ أن يتعرى مثل جدها ويعترف للعالم أنه ليس أكثر من بشر امتطى العار لينجو بحياته ويفوز بالذهب.

لم أكن يومًا شجاعًا ولا بطلاً، ولكني تحلَّيتُ بالشجاعة الحقيقية عندما مزقتُ أوراقي، وتحررتُ من ربطة العنق التي طالما عززت أوهامي؛ تعريتُ أمامكم جميعا، لم أستر عورتي، لم أختبئ خلف الكلمات، وصفتُ لكم ما دار في أعماقي وخيالي، ومن غيري سيجرؤ على فضح عاره! تفوقتُ على الجميع بشجاعة كلماتي عندما أمسكتُ بقلمي ثانيةً لأسطِّر لحفيدتي ولكم القصة الحقيقية لقافلة الموت والذهب...إن وصلتكم قصتي يومًا اشكروا حفيدتي وابحثوا عن قبري وابصقوا عليه، وبعد ذلك لن يضركم إن تساءلتم: لو كنتم مكاني في هذا الجحيم فماذا سيكون خياركم؟

بعد عام سأبلغ الثمانين من عمري، كتب الله لي العمر المديد لأتعذب كل يوم شوقا للذهب، ولا أنال قطعة واحدة، ومازلت أعيش كل لحظة رافقت فيها القافلة كما لو كانت بالأمس، ومازلت أتساءل: هل فشلت مخططات جمال باشا في إقامة دولته ببلاد الشام وعاصمتها القدس لفقدانه الذهب أم لخيانة الإنكليز له؟

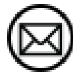
وروهان بيك الذي لم أوف بوعدي له بعد ضياع مذكراته وحجره هل قتله يعقوب سرا؟ أم وجد طريقه لكهف الناصرة ومات هناك؟ هل نجا عبد القادر وخرج من القبر ووفى بوعده وترك عشرين حفنة كبيرة من الذهب؟ أم مات اختناقا وبقي الذهب في قبره الذي حفره بيده؟ هل أسعف الحظ الرومي وهرب مع بعض الذهب؟ هل اعتقل حيان الشهم أم قُتل أم أنقذ أقاربه العرب حياته للمرة الثانية؟ رباب الطبيبة المصرية التي جلبها جمال باشا من مصر خصيصا لعلاج فاطمة كانت الأوفر حظا؛ لقد رأيتها قبل ثلاثين عاما في إسطنبول برفقة شاب صغير يحمل بعض الشبه منها، وحينها هربت مسرعا حتى لا تلمحني وتفي بقسمها على قتلي كما أخبرتني بعد قصة حيان والبئر، والبقية لا أشك في قتلهم جميعا وعلى رأسهم صديقي سالم.

في هرمي وعجزي هذين كم أتمنى لو أني أذهب إلى جودت أفندي وأجده حيا لأخلع أمامه عباءتي سانتور وعزيز، وأخبره بأني أغنى رجل في العالم، وأعيش عالةً على حفيدتي التي علمتني كيف أكون بطلا لمرة واحدة في حياتي!

جرة ذهب

قافلة الذهب والموت (رواية)

فوزي عبده/ القدس

 Fawzi.h.abdo@hotmail.com

 www.JarretDahab.com

دار الجندي للنشر والتوزيع - القدس

darjundi46@gmail.com

www.for-alquds.org

قريبا جدا سأهديك رواية جديدة أتمنى
أن تنال إعجابك....
وهذه المرة لن أطلب منك قراءتها
على حلقات، بل سيتم نشرها كاملة...

شكرا لك إن وجدت وقتا لتقييم
جرة ذهب على موقع goodreads.com
لتصنيف الكتب



وشكرا أيضا إن ساهمت في تحويل
هذه الرواية الى مسلسل تلفزيوني..
كيف؟؟؟!!!!
بصدق أنا أيضا لا أعرف

فوزي عبده

JARRET DAHAB | FAWZI ABDO

فوزي عبده

جرة ذهب

قافلة الذهب والموت

دار الجندي

فوزي عبده

جرة ذهب

دار الجندي

«الموت بالرصاص رفاهية لن ننالها، ولن يحدد موعدنا مع الذبح سوى خنجر الشيخ طيرق! انتهى من رقصة السعدان الشيطانية والـ" قاقا باقا" ، وأمرني بالنهوض وردم الحفرة فوق العتري وجرار الذهب، خارت قواي ولم أستطع النهوض، فاقترب مني وأمسك إبطي وشدني وكأني ورقة بين يديه، ثم صفعني أكثر من مرة، فوقفت جسدا بلا روح، وبدأت أجرف التراب وأردم الحفرة، حاولت تجنب النظر إلى جثة العتري، ولكنني قررت بعدها أن أنظر إلى المصير الذي ينتظرني، تساءلت إن كنت بطريقة أو بأخرى سببا في موته، ولكن لا...لا أشعر بأني مسؤول عن هلاكه، لقد نصحته كثيرًا، ولن ألوم نفسي، أي أحمق الذي اعتقد أن قافلة تحمل كل هذا الذهب ستكون مكشوفة للعرب وقطاع الطرق ؟! لقد كان ذكيا حينما توقع أنهم سيقتلوننا ويدفنوننا، وكان أحمقا حين اعتقد أنهم لن يفعلوا ذلك إلا بعد الانتهاء من دفن آخر جرة ذهب، لا أشك بأني سأخرج من هذه القافلة حيا، وحين أعود لأحصل على الذهب لن اقترب من قبره، وسأترك له الجرار الثلاث؛ فقد دفع ثمنها غاليا.»

Jarret Dahab | جرة ذهب

الجندي للنشر والتوزيع

ISBN 978-9950-329-44-7

